تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

المعروف بالمفسر

تقديم

الشيخ محمد الآخوندي

ناشر

دار الكتب الإسلامية

بازار سلطاني - طهران

2273
.948
v.5-6

2273.948 v.5-6
al-Tihrānī
...Muqtanayāt al-durar

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072714023

al-Ṭihrānī, ʿAlī ibn Ḥusayn

Muqtanayāt al-durar

الجزء الخامس

من كتاب التفسير
المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد على الحائرى الطهرانى

أعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندى

مدير

دار الكتب الإسلامية

بازار سلطانى - طهران

مطبعة الحيدرى بطهران

١٣١٧ ـ ه ـ ش

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد الله الذى نزّل القرآن نوراً و سراجاً و قمراً منيراً . والصلاة و السلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بياناً للناس و هدى و موعظة للمتقين ، و على آله الطيبين ؛ ثانى الثقلين . ولعنة الله على اعدائهم اجمعين .

و بعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً وحديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن و تبيين لغاته و مشكلاته ؛ ففريق فسروا الفاظه و بينوا حقائقه من مجازه ، وجمع جمعوا احكامه و بينوا حلاله و حرامه ، وطائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه . و كيفماكان ماوصلوا الاالى مبلغ علمهم ومنتهى هممهم ؛ و انى لهم الوصول الى حقائق التنزيل و دقائق التأويل؟ لان القرآن هو النور الذى انزل الله على قلب حبيبه محمدصلى الله عليه وآله . الا ان المتمسكين بولاء اهل بيت الوحى المستضيئين بنورعلمهم المامورين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قد اغترفوا من بحار علوم اهل بيت النبى غرفاً و غاصوا فيها و اقتنوا منها درراً ؛

وها هى «مقتنيات الدرر» قد اقتناها علم من الاعلام ؛ ثمرة الشجرة الطيبة ، و النخبة من السلالة الطاهرة : « الحاج الميرسيد على الحائرى » تغمده الله بغفرانه ، و اوتى كتابه هذا بيمينه ، قد اقتنى من الدرر اغلاها و من الغرر اسناها ؛ فحقيق ان يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

و قد و فق الله تلميذه المستضىء بنور علمه ، المقتفى اثره الحاج ميرزا عبدالحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم .

هذا ومنّ الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القعساء و ارومة الفضل الحاج محمودالكاشانى ، فانعم عليه و شرفه باعطاء نفقةطبع الكتاب خدمة للدين و اتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب‌الله رمسه . وذلك فضل الله يوتيه من يشاء .

ونشكر جميل مساعى الشاب الفاضل الاريب السيد كاظم الموسوى المياموى حيث بذل جل اوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل و تخرج الايات المنثورة فى ثناياه و اسناد مايهم من رواياته و بعض الاصلاح فيه . و نسأل الله تعالى ان يوفقنا لاتمامه بمحمد و آله.

محمد الاخوندى

2273
-948
v.5-6

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (١٠٣) .

ذكر سبحانه في هذه القصّة من الشرح ما لم يذكر بهذا التفصيل في سائر القصص لأنّ معجزات موسى أقوى و أبسط و جهل اُمّته كان أعظم .

وضمير «من بعدهم» يجوز أن يرجع إلى الأنبياء أو إلى اُممهم الّذين تقدّم ذكرهم باهلاكهم .

قال ابن عبّاس : أوّل آياته العصا ثمّ اليد ؛ ضرب بالعصا باب فرعون فنزع منها فشاب رأسه فاستحيا فخضب بالسواد فوراً ؛ فهو أوّل من خضب ، و كان للعصا مآرب قال الله : «فاضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتاعشرة عيناً » قال ابن عبّاس : إنّه كان يضرب بها الأرض فتنبت ، ثمّ هي تحارب السباع الّتي تقصد غنمه ، تشتعل بالليل كالشمعة و تصير كالحبل الطويل فينزح به الماء من البئر العميقة .

[فظلموا بها] بالآيات الّتي جاءتهم لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه وهؤلاء بعد رؤية الآيات عوضاً أن يقرّوا بنبوّته أنكروا و وضعوا الإنكار مكان الإقرار [فانظر] بعين عقلك [كيف كان عاقبة المفسدين] كيف فعلنا بهم ؟

و قال موسى يافرعون انى رسول من رب العالمين (١٠٤) حقيق على أن لاأقول على الله الا الحق قدجئتكم ببينة من ربكم فارسل معى بنى اسرائيل (١٠٥) قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين (١٠٦) .

وبعدأن بعث موسى أتى فرعون وقال له : [إنّي رسول من ربّ العالمين] وواجب عليّ أن لا أقول على الله إلّا الحقّ . و العرب تستعمل «على» بمعنى الباء كما تستعمل الباء بمعنى «على» كقوله : «بكلّ صراط توعدون» أي على كلّ صراط .

ولمّا قرّر رسالته فرّع وشرع لفرعون تبليغ رسالته قال : [فأرسل معي بني إسرائيل] أي أطلق عنهم ، و كان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقّة مثل نقل التراب وضرب اللبن فعند هذا الكلام قال فرعون : [إن كنت جئت بآية فأت بها] و أحضر عندي آيتك ليصحّ دعواك في الرسالة .

و كان فرعون استعبد بني إسرائيل بعد انقراض الأسباط ، فأنقذهم الله بموسى ، و كان بين اليوم الّذي دخل يوسف مصر و اليوم الّذي دخل موسى أربعمائة عام و ألفاً .

فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين (١٠٧) و نزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين (١٠٨) قال الملاء من قوم فرعون ان هذالساحرعليم (١٠٩) يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون (١١٠) .

الفاء فاء الجواب أي فكان جواب موسى لفرعون إلقاء العصا . و«إذا» ظرف مكان و يسمّى ظرف المفاجاة ، وهي بخلاف « إذا » الّتي ظرف زمان ، و ظرف المكان في موضع نصب . و«العصا» عود كالقضيب يابس و أصله الامتناع بيبسه ، وليست المعصية مشتقّة من العصا لأنّ العصا من بنات الواو و المعصية من بنات الياء .

و الثعبان الحيّة العظيمة الضخمة الطويلة أعظم الحيّات و هوالذكر ، وأمّا مقدارها فغير مذكور في القرآن لكن نقل عن المفسّرين في صفتها أشياء : فعن ابن عبّاس أنّها ملأت ثلاث وثمانين ذراعاً فشدّت على فرعون لتبتلعه فوثب فرعون عن سريره هارباً ، وأحدث و انهزم الناس و مات منهم خمسة وعشرون ألفاً . وقال غيره :كان بين لحييها أربعون ذراعاً وضع لحيها الأسفل على الأرض و الأعلى على سور القصر فصاح فرعون ـ وكان اسمه الوليد ابن مصعب ، و قيل : قابوس ، وفرعون لقبه ـ و « ثعبان » مشتقّ من ثعبت الماء إذا فجرته و «المثعب» موضع انفجار الماء فسمّي الثعبان لأنّه تجري كعنق الماء عند الانفجار فصاح فرعون : يا موسى خذها فأنا أُومن بك ، فلمّا أخذها موسى عادت عصا كما كانت .

و أمّا تفصيل العصا فقيل : إنّه أعطاه ملك حين توجّه إلى مدين . و قيل : إنّه عصا آدم من آس الجنّة حين اُهبط ، و كان تدور في أولاد آدم حتّى انتهت النبوّة إلى شعيب فكان ميراثاً له مع أربعين عصا كانت لآبائه فلمّا استأجر شعيبموسى أمره بدخول بيت فيه العصيّ وقال له : خذ عصاً من تلك العصيّ فوقع تلك العصا بيده فاستردّه شعيب وقال : خذ غيرها ، حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات في كلّ مرّة تقع يده عليها دون غيرها فتركها بيده في المرّة الرابعة .

فلمّا خرج من عنده متوجّهاً إلى مصر رأى في الطريق ناراً نحو الشجرة فناداه الله أن يا موسى : إنّي أنا الله وأمره بإلقائها كما تقدّم بيانه في غير هذا الموضع .

وكان الأنبياء يتّخذون العصا تجنّباً من الخيلاء ؛ قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : تعصّوا فإنّها من سنن إخواني المسلمين ، عن أمير المؤمنين قال : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : من خرج في سفر و معه عصا من لوز وتلا هذه الآية : « ولمّا توجّه تلقاء مدين ـ إلى قوله ـ و الله على ما نقول وكيل » [1] آمنه الله من كلّ لصّ و ضارّ ومن كلّ ذات حمة حتّى ترجع إلي أهله ، و كان معه من المعقّبات يستغفرون له حتّى يرجع ويضعها . وقيل : أوّل من أخذ العصا في الخطبة قسّ بن ساعدة الأياديّ .

وبالجملة قال له فرعون : هل لك آية اُخرى ؟ قال موسى : نعم فأدخل موسى يده في جيبه ثمّ أظهرها ـ و« النزع » إزالة الشيء عن مكانه المتمكّن فيه كنزع الرداء عن الإنسان ـ فلمّا أخرج يده من جيبه ومن تحت إبطه فإذا هي بيضاء . قال ابن عبّاس : وكان لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض غلب شعاعه شعاع الشمس ، ثمّ أعاد اليد إلى إبطه فعادت إلى لونها الأوّل .

فإن قيل : إنّ الله وصف أنّ العصا صارت حيّة عظيمة وقال في موضع آخر : « كأنّها جانّ » والجانّ الحيّة الصغيرة واختلف الوصفان ؟

فالجواب أنّ الآيتين ليستا عن قصّة واحدة بل الحالتان مختلفتان ، والحالة الّتي

(١) القصص : ٢١ ـ ٢٩ .

يصفه الجانّ كانت في ابتداء النبوّة عندالشجرة ، وهذه عندلقاء موسى فرعون و يمكن أنّ وجه التشبيه بالجانّ لسرعة حركتها وخفّتها مع أنّها في جسم الثعبان .

قال الأشراف من قوم فرعون : إنّ موسى كثيرالعلم بالسحر و يريد أن يستميل لقلوب بني إسرائيل إليه ويتقوّى بهم و يخرجكم من ملككم فماذا رأيكم تأمرون به ؟ قيل : هذا الخطاب من الأشراف إلى فرعون وضمير الجمع لتفخيم الملوك .

قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين (١١١) يأتوك بكل ساحر عليم (١١٢) و جاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لاجراً ان كنا نحن الغالبين (١١٣) قال نعم وانكم لمن المقربين (١١٤) .

قرأ نافع والكسائيّ بغير همزة و كسرالهاء ، وقرأ عاصم وحمزة بالهمزة وضمّ الهاء قال الواحديّ : «أرجه» مهموز و غير مهموز لغتان أي أخّره وأخّرحكمه وحكم أخيه ، وقال الكلبيّ : أي احبسه ، وهذا قول ضعيف ؛ لأنّ الإرجاء في اللّغة التأخير لا الحبس .

[وأرسل في المدائن] والبلدان الّتي حولك [حاشرين] جامعين للسحرة فيجمعون من يعلمونه منهم ، و «الياء» إذا كانت غير أصليّة همزت في الجمع كقبائل و إذا كانت أصليّة لم تهمز في الجمع كمعايش وقيل : المراد من «حاشرين» أصحاب الشرط أرسلهم في جمع السحرة ، وكان السحرة اثنين وسبعين رجلاً ، عن ابن عبّاس .

[يأتوك بكلّ ساحر عليم] ليعارضوا موسى فجاؤوامن مدائن الصعيدوكان رئيسهم رجلاً مجوسيّاً من أهل نينوا بلدة يونس عليه السلام ، وهي قريبة من الموصل،وهذا بعيد لأنّ المجوس أتباع زردشت ، وزردشت إنّما جاء بعد موسى .

[وجاء السحرة] وقالوا للفرعون : هل لناأجر إن غلبنا موسى عليه السلام ؟ قال فرعون : لكم أجر وبعد الأجرأنّكم يصيرون عندي من المقرّبين .

وهذه الآية دليل على أنّ السحر ليس له حقيقة أصليّة و أنّ الساحر لا يقدر أن يقلّب الأعيان . وإلّا لما احتاجوا إلى الأجر وماطلبوه ، ولو أنّهم كانوا قادرين على قلب الأعيان فلمَ يجعلون السحر كسبهم ؟ ولمَ لم يقلّبوا التراب ذهباً ؟ ولمَ لم يقلّبوا ملك فرعون إلى أنفسهم ويصيرون ملوك العالم ؟ .

قالوا ياموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين (١١٥) قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (١١٦) وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذاهي تلقف مايأفكون (١١٧) فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون (١١٨) فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين (١١٩) وألقى السحرة ساجدين (١٢٠) قالوا آمنا برب العالمين (١٢١) رب موسى وهرون (١٢٢).

قال علماء النحو في باب إمّا وأمّا : إذا كنت آمراً أوناهياً أومخبراً فهي مفتوحة ، وإذا كنت مشترطاً أوشاكّاً أو مخيّراً فهي مكسورة ؛ تقول في المفتوحة : أمّا الله فاعبدوه وأمّا الخمر فلاتشربوها ، وفي المكسورة فتقول إذا كنت مشترطاً : فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّدبهم ، وتقول في الشكّ : لاأدري من قام إمّا زيدأوعمرو ، وتقول في التخيير : لي بالكوفة دار فإمّا أن أسكنها و إمّا أن أبيعها .

قال السحرة لموسى : اختر أن تلقي أونلقي ، فرزقهم الإيمان ببركة رعاية الأدب . ويتبيّن من الكلام أنّ القوم كان رغبتهم في الإلقاء ابتداءً لأنّهم ذكروا الضمير المتّصل وأكّدوه بالمنفصل .

فلمّا رأى موسى رغبتهم في الإلقاء قال : ألقوا ماأنتم ملقون ؛ فلو قيل : إنّ أمر موسى إيّاهم بالإلقاء مع أنّ هذا الفعل معارضة للمعجزة وهو حرام ؛ لأنّ موسى علم أنّهم يفعلون و إنّما التخيّر في التقديم و التأخير ، و أنّه عليه السلام يريد إبطالهم ما يكون بالسحر وماكان يتحقّق هذا الإبطال إلّا بالإلقاء فأذن لهم بالتقديم ثقة بما وعده الله وهو كمن يريد سماع شبهة منهم ليجيب عنها فكذا ههنا ، وكان عملهم مجرّد التمويه ولو كان له حقيقة ثابتة لما قيل : [فلمّا ألقوا سحروا أعين الناس] و لم يقل : سحروا قلوب الناس فقلّبوا الأعين عن صحّة إدراكها وقد أتوا بالحبال والعصيّ ولطخوها بالزيبق و جعلوا الزيبق في دواخل العصيّ فلمّا أثّر تسخين الشمس فيها كفمر ابن المقفّع تحرّكت والتوى بعضها ببعض والناس تخيّلوا أنّها تتحرّك باختيارها وقدرتها .

[واسترهبوهم] قيل : السين زائدة ، قال الزجّاج : ليست بزائدة بل إنّ السحرة بعثوا جماعة من الناس ينادون عند إلقاء ذلك : أيّها الناس احذروا وهذا هو الاسترهاب

[وجاؤوا بسحر عظيم] قيل : إنّهم كانوا بضعة وثلاثين ألفاً ، واختلفت الروايات حتّى روي إلى سبعين ألفاً .

ولمّا ألقوا أوحى الله إلى موسى أو ألهمه : [ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون] فيه حذف وإضمار و التقدير : فألقاها . و تلقف قرىء مشدّدة ، و اللّقف الأخذ السريع إذا أخذته فأكلته أوابتلعته . فصارت العصا ثعباناً وابتلعت ما ألقوا ، و«ما» موصولة أي الّذي أفكوه ؛ لأنّ ما ألقوه وأفكوه كذب لاحقيقة ، فلقفت الحيّة إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك قيل : المأفوك كان حمل ثلاثمائة بعير ؛ فقال السحرة : لوكان ماصنع سحراً مثل ماصنعنا لبقيت حبالنا وعصيّنا ولم تفقد ، وذلك إنّما حصل بقدرة الله لاالسحر .

[فغلبوا هنالك] ورجعوا صاغرين وذليلين ؛ فاستدلّوا بهذا الأمر على أنّ موسى نبيّ صادق فلأجل علمهم واستدلالهم خرجوا عن عطلة الكفر ودخلوا في هداية الإيمان .

[واُلقي السحرة ساجدين] ولم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين وآمنوا في حال السجود فسجدوا شكراً لله على هدايتهم أوّلاً لنعمة الإيمان ، ثمّ [قالوا آمنّا بربّ العالمين] قال فرعون : إيّاي يعنون لأنّي ربّيت موسى ! قالوا و هارون فزالت الشبهة .

قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ان هذا المكر مكر تموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون(١٢٣) لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لاصلبنكم اجمعين (١٢٤) قالوا انا الى ربنا منقلبون (١٢٥) وما تنقم منا الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين(١٢٦).

قرىء «أآمنتم » بهمزتين على سبيل الاستفهام .

لمّا رأى فرعون أنّهم أقرّوا بنبوّة موسى عند اجتماع الخلق العظيم فألقى في الحال شبهتين إلى أسماع الناس :

الأولى أنّ هذا لمكر مكر تموه ، وأنّكم تواطأتم مع موسى أنّه إذا كان كذا و كذا فنحن نؤمن بك .

والثانية أنّهم تواطؤوا مع موسى لأجل إخراج القوم من المدينة و إبطال ملكهم فيصيرون ملوكاً .

وعن محمد بن جرير عن السدّي في حديث عن ابن عبّاس وابن مسعود وغيرهما أنّ موسى وأمير السحرة التقيا فقال موسى : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي ؟ قال الساحر : لآتينّ غداً بسحر لا يغلبه سحر ، لئن غلبتني لأومننّ بك ، وفرعون ينظر إليهما ويسمع قولهما ، فهذا قول فرعون : [إنّ هذا لمكر مكرتموه] .

فهدّدهم فرعون بالوعيد فقال : [فسوف تعلمون] وما اقتصر على هذا الوعيد المجمل فقال : [لأُقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثمّ لأُصلّبنّكم أجمعين] وقطع اليد والرجل من خلاف هو أن يقطعهما من جهتين مختلفتين إمّا من اليد اليمنى والرجل اليسرى ، أو من اليد اليسرى والرجل اليمنى .

وهل هذا الوعيد حصل أم لا ؟ قال ابن عبّاس : حصل لقوله تعالى حكاية عنهم : «ربّنا أفرغ علينا صبراً» يدلّ على أنّه قد نزل بهم بلاء شديد . وقال بعض : ما حصل . وقالوا لفرعون : [وما تنقم منّا إلّا أن آمنّا بآيات ربّنا لمّا جاءتنا] وقولهم : «ربّنا أفرغ علينا صبراً» أي صبّ علينا كلّ الصبر لأنّ الإفراغ صبّ جميع ما في الإناء وتوفّنا على حالة الإسلام والتسليم لدينك .

وقال الملاء من قوم فرعون اتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك و آلهتك قال سنقتل ابناءهم و نستحيي نساءهم و انا فوقهم قاهرون (١٢٧) قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين (١٢٨) قالوا اوذينا من قبل ان تاتينا و من بعد ما جئتنا قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم و يستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون (١٢٩) .

روي أنّه لمّا أسلم السحرة وآمنوا آمن من بني إسرائيل ستّمائة ألف نفس فقال الأُمراء من أصحاب فرعون : أتذر موسى وقومه ليظهروا مخالفتك بعبادة غيرك؟ وكان فرعون يستعبد الناس وهو بنفسه يعبد الأصنام . قال السدّي يعبد ما يستحسن من البقر وقيل : إنّه كان يأمر بعبادة البقر ولذلك أخرج السامريّ لهم عجلاً جسداً له خوار لكن قال مجاهد : فرعون يُعبد ولا يعبد .

قال فرعون : [سنقتّل أبناءهم] الّذين فيهم النجدة والقوّة ونستبقي بناتهم ونساءهم إذ لا يكون فيهنّ النجدة والقوّة وقد انقطع طمعه عن موسى لما رأى من علوّ قدرته وقوّته فانتقل إلى عذاب المستضعفين [وإنّا فوقهم قاهرون] .

فشرع ثانياً بقتل بني إسرائيل فشكى بنو إسرائيل إلى موسى فأمرهم بالاستعانة بالله والصبر على دينكم وعلى أذى فرعون [إنّ الأرض لله].

[قالوا] أي بني إسرائيل لموسى : قد أُوذينا قبل مجيئك بالنبوّة بقتل أولادنا ، و أُوذينا بعد مجيئك هذا اليوم بهذا القتل الثاني فجدّد موسى لهم بالوعد قال : [عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم] مكانهم [في الأرض] فيرى بوقوعه فيكم ليجازي عباده بالوقوع لا على ما يعلم .

ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون (١٣٠) فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا انما طائرهم عندالله ولكن أكثرهم لايعلمون (١٣١) .

اللاّم للقسم أي ولقد عاقبنا قوم فرعون بالجدب والقحط ونقصان من ثمراتهم ، وإنّما اُنزل عليهم هذه المضارّ ليتذكّروا وينقادوا ومع ذلك أقدموا على ما يزيد في عصيانهم .

[فإذا جاءتهم الحسنة] أي النعمة والثمار والخصب قالوا : هذه النعم لاستحقاقنا [و إن تصبهم سيّئة] يريد القحط و المرض . والشدّة يتشأّموا بموسى وقومه ألا إنّ طائرهم وشؤمهم لقضاء الله وحكمه ويقال للشؤم: طيرة وطائر ، والعرب كانوا في عنافة الطير وزجرها رغبة ويزعمون التطيّر ببارحها ونعيق غربانها والأخذ بذات اليسار إذا أثاروها من أوكارها فقالوا . بارح ورب الكعبة ، وإذا أخذت ذات اليمين قالوا سارح وربّ الكعبة وتفألوا بها فأبطل الله بقوله : «إنّما طائرهم عندالله» أنّه بقضائه وأنّ طيرتهم باطلة .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : لاطيرة وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يتفألّ ولا يتطيّر ، والفال الكلمة الحسنة كقول الرجل من غير قصد في كلامه : ياسالم فيتفألّ به للمريض أو المسافر بالسلامة .

وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (١٣٢) فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين (١٣٣) .

حكى سبحانه من جهالاتهم بأنّهم لم يميّزوا المعجزة من السحر ، وجعلوا انقلاب العصا ثعباناً من باب السحر فقالوا :

[مهما تأتنا به]و كلمة «مهما» أصلها ماما ، وما الأُولى ما الجزاء والثانية تأكيد للجزاء كما يرادفي «كيفما» ثمّ أبدلوا من ألف ما الأُولى هاءً كراهة تكرار اللفظ فصار مهما ، هذا قول

البصريّين ، وقال الكوفيّون: ما الأولى أصلها «مه» بمعنى اكفف دخلت على ما الّتي للشرطيّة فصيّر المعنى اكفف فيكون المعنى أيّ شيء تأتي به فهو سحر ونحن لا نؤمن بها البتّة .

ولمّا قالوا هذا الكلام لموسى قال ابن عبّاس : وكان موسى عليه السلام رجلاً حديداً فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله دعاءه فأرسل الله عليهم الطوفان عقوبة لجرائمهم أي الماء الّذي طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر وسيل . وقيل : الجدري . وقيل :الطاعون .

قال الصادق عليه السلام : الماء طاف بهم والطاعون وأُرسل الطوفان من سبت إلى سبت ومن أُسبوع إلى أُسبوع ليلاً ونهاراً .

فاستغاثوا وصرخوا إلى فرعون ، فأرسل فرعون إلى موسى وقال : اكشف عنّا العذاب فقد صارت المصر بحراً واحداً لئن كشفت عنّا العذاب آمنّا بك ، فأزال الله عنهم العذاب وأرسل الرياح فجفّفت الأرض وخرج من النبات مالم يروا مثله قطّ . فقالوا : هذا الّذي جزعنا منه خير لنا لكنّا لم نشعر به فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل فنكثوا العهد .

فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل النبات وعظم الأمر عليهم حتّى صارت عند طيرانها تغطي الشمس و وقع بعضها على بعض في الأرض ذراعاً فأكلت النبات فصرخ أهل مصر ، فدعا موسى فأرسل الله ريحاً فألقته في البحر فنظر أهل مصر إلى أنّ بقيّة من زروعهم تكفيهم ، فقالوا : هذا الّذي بقي يكفينا و لا نؤمن بك يا موسى ، وبين كلّ عذاب و عذاب سنة .

فأرسل الله عليهم القمّل من سبت إلى سبت وهي السوس وقيل : صغار الجراد فلم يبق في أرضهم عود أخضر إلّا أكلته فصا حوا و استغاثوا لموسى وعاهدوا بالإيمان فأرسل الله عليها ريحاً حارّة فاحرقتها ، وأماتتها واحتملتها الريح فألقتها في البحر فلم يؤمنوا .

فأرسل الله عليهم الضفادع فصرخوا إلى موسى وحلفوا بإلهه لئن رفعت عنّا هذا العذاب لنؤمن بك فدعا موسى فأمات الله الضفادع وأرسل عليها المطر والسيل فأزالها إلى البحر ثمّ أظهروا الكفر والفساد .

فأرسل الله عليهم الدم فجرت أنهارهم دماً فكان للقبطيّ دماً وللإسرائيليّ يراه ماءً فإذا شربه الإسرائيليّ كان ماءً والقبطيّ كان دماً ، وكان القبطيّ يقول للإسرائيليّ : خذ

الماء في فيك وصبّه في فمي فكان إذا صبّه في فم القبطيّ تحوّل دماً ، وإنّ فرعون اعتراه العطش حتّى أنّه اضطرّ إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها تصير في فمه دماً ، فمكثوا سبعة أيّام يشربون الدم وقيل : الدّم الّذي سلّطالله عليهم الرعاف .

فأتوا موسى فقالوا : ادع لنا ربّك أن يكشف عنّا هذا الدم فنؤمن و نرسل بني إسرائيل معك ، لأنّ فرعون كان قدحبس بني إسرائيل عنده ، فلمّا رفع الله عنهم الدم لم يؤمنوا ولم يخلّوا عن بني إسرائيل .

ومكث موسى فيهم بعد ماغلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات بن برهة من الزمان «مفصّلات» فصّل بين بعضهاوبعضها ، فاستكبروا مع ذلك و صاروا قوماًمجرمين أو كان بمعناه .

ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهدعندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل (١٣٤) فلما كشفنا عنهم الرجزالى اجل هم بالغوه اذاهم ينكثون (١٣٥) .

اختلفوا في المراد من الرجز فقال بعضهم : المراد الأنواع الخمسة المذكورة. قال سعيدبن جبير : المرادالطّاعون الّذي أصابهم في يوم واحد فمات منهم سبعون ألف قبطيّ فتركوا بغير دفن فقالوا : [ادع لنا ربّك بماعهد عندك] أي المعاهدة الّتي بيننا بأن إذا آمنّا رفع العذاب عنّا .

وقيل : الباء للقسم وجوابه «لنؤمننّ» وقيل : معنى قوله : «بما عهد عندك » أي بما تقدّم لك أنّك إن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في تلك المرّات .

قال الصادق عليه السلام : إنّه قدأصابهم فلج أحمرولم يروه قبل ذلكفماتوا فيه .

قوله : [فلمّا كشفنا عنهم الرجز] إلى وقت معيّن هم بالغوه لامطلقاً وبالكلّيّة فاجؤوا النكث والخلف .

فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا و كانوا عنهـا غافلين(١٣٦) .

لمّا كشفنا عنهم العذاب من قبل مرّات وكرّات ولم يمتنعوا عن كفرهم ثمّ بلغوا الأجل الموقّت انتقمنا ، والانتقام سلب النعمة بالعذاب . و«اليم» البحر و معظم مائه واشتقاقه من التيمّم لأنّ المستقين به يقصدونه وكانوا عن هذه النقمة غافلين .

والضمير عائدة ومرجعه إلى النقمة الّتي دلّ عليها قوله «انتقمنا» أو إلى الآيات ، والمراد عن الغفلة عدم الاعتناء .

وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بماصبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون (١٣٧) .

المراد بالاستضعاف اتّخاذ فرعون بني إسرائيل عبيداً و قتل أبنائهم و أخذ الجزية منهم .

قوله : [مشارق الأرض] قيل : مشارق أرض الشام ومصر لأنّها هي الّتي كانت تحت تصرّف فرعون وهي الّتي بوركت بالخصب والنعمة . وقيل : المراد جملة الأرض وذلك لأنّه خرج من جملة بني إسرائيل داود وسليمان وقد ملك الأرض .

و [الحسنى] تأنيث الأحسن صفة للكلمة ، المراد إنجاز الوعد الّذي تقدّم بإهلاك عدوّهم واستخلافهم في الأرض ، وذلك بسبب صبرهم على البلاء . ومن قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه ، ومن قابله بالصبر ضمن الله له بالفرج .

قوله : [ما كان يصنع] يريد معروشات فرعون من الجنّات وبنائه المشيّد كصرح هامان .

وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون (١٣٨) ان هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون (١٣٩) .

ولمّا ضرب موسى عصاه على البحر وفلقه وجعله الله يبساً ، وجاوز بنو إسرائيل البحر شاهدوا قوماً ملازمين على أصنام يعبدونها . يقال : عكف أي لزم شيئاً ، و المعتكف ملازم المسجد .

قال قتادة : كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولاً بالرّيف وكانت الأصنام تماثيل بقر ، وذلك أوّل بيان قصّة العجل ومنشؤه .

فلمّا رأوا تلك التماثيل قالت بنو إسرائيل لموسى : [اجعل لنا إلها كما لهم آلهة]

وطلبوا من موسى أن يعيّن لهم تمثالاً يتقرّبون بعبادته إلى الله وهذا القول هو الّذي حكاه عن عبدة الأوثان حيث قالوا : «ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى» ومن المعلوم أنّ هذا القول ماصدر من جميع بني إسرائيل لأنّه كان مع موسى السبعون المختارون و كان فيهم من يرتفع شأنه عن مثل هذا السؤال الباطل ، فأجابهم موسى أنّكم قوم جاهلون .

ثمّ بيّن لهم موسى أنّ هؤلاء العاكفين على عبادة الأصنام متبّرون وهالكون ، من تفتت التبر والذّهب المتكسّر وأنّ عملهم باطل .

قال اغير الله أبغيكم الهاً وهو فضلكم على العالمين (١٤٠)

قال موسى على سبيل التعجّب والإنكار : أغير الله أطلب لكم إلهاً ، و بعض جعلوا «إلهاً» حالاً و«غيراً» مفعولاً به ، وبعض بالعكس . وهو فضّلكم على أهل زمانكم وأنتم اختصصتم بهذه الآيات على تمام أهل عالمكم .

واذانجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوءالعذاب يقتلون ابناءكم و يستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم (١٤١) .

وتفسير هذه الآية مرّ في سورة البقرة لاحاجة إلى الإطالة . والغرض في بيان نعم الله على بني إسرائيل فكيف يليق مع هذه النعم عبادة غيره ؟

و واعدنا موسى ثلثين ليلة و اتممناها بعشر فتم ميقات ربه اربعين ليلة و قال موسى لاخيه هرون اخلفنى فى قومى و اصلح ولا تتبع سبيل المفسدين (١٤٢) .

قرىء «ووعدنا» روي أنّ موسى وهو بمصر وعد بني إسرائيل أن إذا أهلك الله عدوّهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلمّا هلك فرعون سأل موسى ربّه الكتاب ، فهذه الآية بيان كيفيّة نزول التوراة .

فإن قيل : وما الحكمة ههنا في ذكر الثلاثين ثمّ إتمامها بعشر ؟

وأيضاً لوقيل : إنّ قوله : [فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة] يتبيّن أنّه كلام عار عن الفائدة ؛ لأنّ كلّ أحد يعلم أنّ الثلاثين مع العشر يكون أربعين ؟

فالجواب أنّه أمر تعالى موسى بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة و أن يعمل فيهما يقرّبه إلى الله فبعد أن أتمّ الثلاثين أنزلت التوراة في العشرة البواقي ، و كلّمه و

ناجاه في العشرة الرابعة فتمّت النعمة بهذا الترتيب فهذه هي الفائدة في تفصيل الأربعين بهذا البيان .

ويمكن أن يكون موسى أتى الطورعند تمام الثلاثين فلمّا أعلمه الله خبر قومه مع السامريّ رجع فوراً إلى قومه ، ثمّ عاد إلى الميقات في عشرة أخرى ، فتمّ أربعون ليلة .

ويمكن أن يكون الوعد الأوّل لموسى وحده وحضره ، والوعد الثاني حضر المختارون معه ليسمعوا كلام الله فصار الموعدا ثنان لاختلاف حال الحاضرين .

قال الرازيّ في المفاتيح و العلاّمة أبوالسعود في تفسيره : إنّه تعالى أمر موسى بصوم ثلاثين يوماً فلمّا أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فمه فتسوّك فقالت الملائكة : كنّا نشمّ عن فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأوحى الله إليه أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ثمّ أمره أن يزيد عليها عشرة أيّام ذي الحجّة لهذا السبب .

وعن الجواب الثاني أجابوا أنّه تعالى : قال «أربعين» إزالة لتوهّم أنّ ذلك العشر من الثلاثين لأنّه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين كأنّه كان عشرين ثمّ أتمّه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الإبهام .

وقوله : [أربعين ليلة] نصب على الحال أي تمّ بالغاً هذا العدد .

[اخلفني في قومي] أي كن خليفتي فيهم [وأصلح] ما يجب أن يصلح لهم ، ومن دعاك إلى الفساد فلا تطعهم .

فإن قيل : إنّ هارون كان نبيّاً والنبيّ لا يفعل إلّا الصلاح ؛ فالمقصود التأكيد .

و«الميقات» يمكن أن يكون ظرف زمان ، ويمكن أن يكون ظرف مكان كما استعمل في مواقيت الإحرام ، فإنّها ظروف للأمكنة المخصوصة لأهل الآفاق .

ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارنى انظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين(١٤٣) .

دلّت الآية على أنّه سبحانه كلّم موسى في الميقات وههنا بيانات عالية من العلوم الالهيّة ، ومن المعلوم أنّه سبحانه ما كلّمه بلسانه فإنّه منزّه من أن يكون له لسان وفم

يتكلّم به ، بل إنّ الله أحدث الكلام في الشجرة وجعل الكلام منبعثاً منها فسمع كلامه من جميع الأطراف من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام .

قوله : [وكلّمه ربّه] أي من غير واسطة سفير من الملائكة كما يكلّم الملائكة من غير سفير .

واختلفوا في أنّه تعالى كلّم موسى وحده أو كلّمه مع أقوام آخرين ؟ وظاهر الآية يدلّ على الأوّل . وقال جماعة منهم القاضي عبد الجبّار : بل السبعون المختارون سمعوا أيضاً ؛ لأنّ الغرض من إحضارهم أن يخبروا قوم موسى ويشهدوا عمّا يجري هناك .

[قال ربّ أرني أنظر إليك] في العيون عن الرضا عليه السلام أنّه سئل كيف يجوز أن يكون موسى لا يعلم أنّ الله لا يجوز عليه الرؤية حتّى يسأله هذا السؤال ؟ فقال عليه السلام : إنّ كليم الله علم أنّ الله سبحانه منزّه عن أن يرى بالأبصار ولكنّه لمّا كلّمه الله وقرّبه نجيّاً رجع إلى قومه فأخبرهم بذلك ، فقالوا : لن نؤمن لك حتّى نسمع كلامه كما سمعته .

وكان القوم سبعمائة ألف فاختار منهم سبعين ألفاً ثمّ اختار منهم سبعمائة ، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل ، وصعد موسى إلى الطور وسأل الله أن يكلّمه ويسمعهم كلامه فكلّمه الله وسمعوا كلامه من جميع الجهات ، فقالوا : لن نؤمن بأنّ الّذي سمعناه كلام الله حتّى نرى الله عياناً !

فلمّا قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا . فقال موسى : يا ربّ ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا : إنّك ذهبت بهم فقتلتهم لأنّك لم تك صادقاً فيما ادّعيت ؟

فأحياهم الله وبعثهم معه ، فقالوا : إنّك لو سألت الله أن يراك تنظر إليه لأجابك كما أجابك في الكلام فقال موسى : يا قوم إنّ الله لا يرى بالأبصار ولا كيفيّة له وإنّما يعرف بآياته ، فقالوا : لن نؤمن حتّى تسأله فقال موسى : يا ربّ إنّك سمعت ما قاله بنو إسرائيل ، فأوحى الله إليه : يا موسى سل ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى : [ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه ـ وهو لا يهوي ـ فسوف تراني] .

[فلمّا تجلّى ربّه للجبل] بآية من آياته [جعله دكّاً] وقرىء دكّاء فمعنى دكّاً أي رميماً متفتّتاً ودكّاء أي صار ربوة عالية أو معنى الدكّ : مدقوقاً وصار تراباً مع

الأرض استوى و وقع موسى مغشياً عليه ، فلمّا أفاق من غشيته قال : منزّه عن الأبصار أنت يا ربّ ورجعت إلى معرفتك عن سؤال قومي وجهلهم .

وفي تفسير العيّاشيّ عن الصادق عليه السلام أنّ موسى بن عمران لمّا سأل ربّه النّظر إليه وعده الله أن يقعد في موضع ثمّ أمر الملائكة أن تمرّ عليه موكباً موكباً بالبرق و الرعد والصواعق فكلّما مرّ به موكب من المواكب ارتعدت فرائصه فيرفع رأسه فيسأل أفيكم إلخ ؟ ثمّ قالت الملائكة : سألت أمراً عظيماً ياابن عمران .

وعنه وعن الباقر عليه السلام : لمّا سأل موسى ربّه النظر قال : «لن تراني ولكن انظر إلى الجبل» قال : فصعد موسى الجبل وفتحت له أبواب السماء وأقبلت الملائكة أفواجاً في أيديهم العمد وفي رأسها النور يمرّون به فوجاً بعد فوج يقولون : ياابن عمران أثبت فقد سألت أمراً عظيماً ، فلم يزل موسى واقفاً حتّى تجلّى ربّنا جلّ جلاله فجعل الجبل دكّاً وخرّ موسى صعقاً ، فلمّا أفاق قال : «سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين» .

وفي رواية أنّ النار أحاطت بموسى لئلّا يهرب بهول ما رأى ، فلمّا أن ردّ الله روحه أفاق فقال : سبحانك . القمّي في قوله : «ولكن انظر إلى الجبل» ، قال : فرفع الله الحجاب ونظر إلى الجبل فساخ الجبل فهو يهوي إلى الساعة ، و نزلت الملائكة و فتحت أبواب السماء فأوحى الله إلى الملائكة أن أدركوا موسى لا يهرب ، فأحاطت الملائكة بموسى وقالوا: أثبت ياابن عمران فقد سألت الله أمراً عظيماً فلمّا نظر موسى أنّ الجبل قد ساخ والملائكة قد نزلت وقع على وجهه من خشية الله وهول ما رأى فردّ الله إليه روحه و أفاق و قال : «سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين» أي أنا أوّل من آمن بأنّك لا ترى .

وفي البصائر عن الصادق عليه السلام إنّ الكرّوبين قوم من شيعتنا من الخلق الأوّل جعلهم خلف العرش لو قسّم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم ثمّ قال عليه السلام : إنّ موسى لمّا سأل ربّه ما سأل أمر الله واحداً من الكرّوبين فتجلّى للجبل وجعله دكّاً .

و قيل في الآية وجه آخر وهو أن يكون المراد بقوله : «ربّ أرني» أي عرّفني نفسك تعريفاً جليّاً واضحاً بإظهار آية من بعض الآيات الّتي تضطرّ الخلق إلى معرفتك حتّى أعرفك معرفة ضروريّة كأنّي أنظر إليك ، فقال سبحانه : لن تطيق معرفتي على هذه

الطريق ولن تحتمل قوّتك تلك الآية فإنّي أُورد على الجبل آية من تلك الآيات فإن احتمل لتجلّيه واستقرّ فسوف تثبت أنت لها .

وتحقيق القول في الرؤية ما أفاده مولى العالمين أمير المؤمنين حيث قال : لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان ، لايعرف بالقياس ولا يدرك بالحواسّ ولا يشبه بالنّاس ، موصوف بالآيات ، معروف بالعلامات ، فقال : أنا لم أعبد ربّاً لم أره ؛ تعالى الله عمّا يصفه المشبّهون والملحدون علوّاً كبيراً .

وهذه الأخبار مرويّة عن أئمّتنا بطريق الخاصّة .

وأمّا ما رواه العامّة فالاختلاف في المسألة كثير فزعمت الحنابلة و الحشويّة أنّ الكلام المركّب من الحروف والأصوات قديم ، وهذا القول أخسّ من أن يلتفت إليه العاقل كما قال الرازيّ في المفاتيح قال : لأنّه تعالى إمّا أن يتكلّم بهذه الحروف على الجمع أو على التعاقب والتوالي .

والأوّل باطل ؛ لأنّ هذه الكلمات المسموعة المفهومة إنّما تكون مفهومة إذا كانت حروفها متوالية وأمّا إذا كانت توجد دفعة واحدة فذاك لايكون مفيداً البتّة .

والثاني يوجب كونها حادثة ؛ لأنّ الحروف إذا كانت متوالية فعند مجيء الثاني ينقضي الأوّل فالأوّل حادث ؛ لأنّ كلّ ما ثبت عدمه امتنع قدمه ، والثاني أيضاً حادث ؛ لأنّ كلّ ماكان وجوده متأخّراً عن وجود غيره فهو حادث .

فإذا ثبت هذا البيان فللناس قولان : الأوّل أنّ محلّ تلك الحروف والأصوات الحادثة هو ذات الله ، وهو قول الكراميّة . الثاني أنّ محلّها جسم مبائن لذات الله كالشجرة وأمثالها ، وهو قول المعتزلة .

والقول الثاني قول أكثر أهل السنّة وهو أنّ كلام الله صفة مغائرة لهذه الحروف والأصوات ويقولون : إنّه قديمٌ أزليٌّ .

والقائلون بهذا القول اختلفوا في الشيء الّذي سمعه موسى فقالت الأشاعرة : إنّ موسى سمع تلك الصفة الأزليّة وقالوا : و كما لايتعذّر رؤية ذاته مع أنّ ذاته ليست جسماً ولا عرضاً فكذلك لايبعد سماع كلامه ، مع أنّ كلامه لايكون حرفاً ، ولا صوتاً .

والحقّ أنّ هذا التفصيل والبيان ما أقر به إلى الشعوذة ! لأنّ العقل لا يتصوّر أن يسمع الإنسان كلاماً ويفهم منه معنى ولا يكون الكلام صوتاً ولا حرفاً . وقال أبو منصور الماتريديّ : إنّ الّذي سمعه موسى أصوات مقطّعة وحروف مؤلّفة قائمة بالشجرة فالصفة الأزليّة الّتي ليست بحرف ولا صوت ما سمعه موسى عليه السلام البتّة وهذا القول يمكن أن يتصوّره الإنسان ، و ليس خارجاً عن قوّة التصوّر .

وقد قيل في سؤال موسى الرؤية قول آخر : وهو أنّ موسى ماعرف أنّ الرؤية غير جائزة على الله . قالوا : و مع الجهل بهذا المعنى قد يكون المرء عارفاً بربّه و بعد له و توحيده ولم يبعد أن يكون العلم بامتناع الرؤية و جوازها موقوفاً على السمع ولم يسمع موسى بعد .

وقال أبو بكر الأصمّ : إنّ مقصود موسى من سؤال الرؤية أن يذكر تعالى من الدلائل السمعيّة ما يدلّ على امتناع رؤيته حتّى يتأكّد الدليل العقليّ بالدليل السمعيّ ، وتعاضد الدلائل أمر مطلوب للعقلاء .

وأقول : إنّ من الدلائل على امتناع الرؤية مطلقاً لا في الدنيا ولا في الآخرة لا لنبيّ مرسل ولا لمؤمن صالح هو أنّ النبيّ محمّداً صلى الله عليه وآله وهو أعظم الأنبياء وأكرم الخلق أجمعين إذا لم يطق أن يرى جبرئيل بصورته الأصليّة حين نزول الوحي مع هذا الأمر المهمّ وهو يتصوّر بغير صورته كدحية الكلبيّ وغيره فكيف يتمكّن البشر أن يرى الله أو يرى موسى أو يرون الملائكة ؟ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

على أنّ في القرآن ما يدلّ على امتناع الرؤية كقوله : «لا تدركه الأبصار[١]» وقوله : « لن تراني » يدلّ على أنّ موسى لا يرى الله لا في الدنيا ولا في الآخرة .

فإن قيل : من أين ثبت معنى التأبيد من كلمة لن ؟

فالجواب أنّ قوله : « لن تراني » يتناول الأوقات كلّها بدليل صحّة الاستثناء ومقتضى الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ ونحن نرى أنّ كلمة « لن » متى استعملت أُريد منها تأبيد النفي ؛ فإنّ قولنا « لا أفعل » و « لن أفعل » بين معناهما فرق بعيد و

---

(١) الانعام : ١٠٣ .

ليس الفرق إلّا التأبيد كقوله : « لن يخلقوا ذباباً ولواجتمعوا له[١] » .

ثمّ إن كانت الرؤية ممكنة و جائزة فلمَ خرّ عند سؤالها صعقاً ، ولمّا أفاق قال : « سبحانك » والمراد من هذهالكلمة تنزيه الله عمّا لايليق ؟ والّذي تقدّم ذكره هوالرؤية وتنزيه الله إنّما يكون عن النقائص ؛ فوجب كونالرؤية منالنقائص وذلك محال علىالله فيالدنيا وفيالآخرة ، وبهذه الدلائل القطعيّةوجب صرف بعض الآيات الدالّة على الرؤية إلىالتأويل مثل قوله : « وجوه يومئذناضرة ＊ إلى ربّها ناظرة » [٢] وأمثالها .

قال ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذماآتيتك وكن منالشاكرين (١٤٤).

هذه الآية تسلية لخاطر موسى أن منعه الله من الرؤية ، كأنّه يقول : إذا طلبت لقومك الرؤية ومنعتك فقد أعطيتك منالنعمالعظيمة الّتيخصصتك بها ، فاشتغل بشكرها، وهي أنّي اتّخذتك صفوة علىالناس ومنتخباً برسالاتي ، وقرىء «برسالتي» ويجوز إفراده لأنّه مصدر فيموضع الجمع «وبكلامي» أي أنت كليمي .

فإن قيل : كيف اختصاصه معأنّ كثيراً من الناسساواه فيالرسالة ؟

الجواب أنّ الاختصاص وقع بمجموع الأمرين وهو الرسالة والكلام بغير واسطة الملائكة ، وهذان الأمران مجموعاً لميتّفقلغيره إلىزمانه . فخذها واشتغل لشكرها والقيام بلوازمها علماً وعملاً .

وكتبنا له فى الالواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وامر قومك ياخذوا بأحسنها ساريكم دار الفاسقين (١٤٥) .

قال الزمخشريّ عن المفسّرين : إنّ موسى خرّصعقاً يومعرفة ، وأعطاه الله التوراة يومالنحر .

وذكروافي عددالألواح وفي جوهرها أنّهاكانت عشرة ألواح . وقيل : سبعة وأنّها

---

(١) الحج : ٧٢ .

(٢) القيامة : ٢٢ ـ ٢٣ .

من زمرّدة جاء بها جبرئيل ؛ وقيل : من زبرجدة وياقوتة حمراء . و قيل : من خشب . قال وهب : كانت من صخرة صمّاء .

وأمّا كيفيّة الكتابة فقال ابن جريج : كتبها جبرئيل بالقلم الّذي كتب به الذكر واستمدّ من نهر النور ولكن ليس في الآية ما يدلّ على كيفيّة الألواح و كيفيّة الكتابة ، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قويّ وجب القول به .

والمراد بقوله : [من كلّ شيء] أي من كلّ مايحتاج به موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام ، والمحاسن والمقابح .

وقوله : [وموعظة وتفصيلاً لكلّ شيء] بيان للجملة السابقة .

قوله : [وأمر قومك يأخذوا بأحسنها] و ههنا سؤال وهو أنّه تعالى لمّا تعبّد بكلّ ما في التوراة وجب كون الكلّ مأموراً به و قوله : « يأخذوا بأحسنها» يقتضي أنّ فيما ليس بأحسن وأنّه لايجوز لهم الأخذ به ،وذلك متناقض ؛ فذكروا وجوهاً :

الأوّل أنّ تلك التكاليف منها ماهو حسن ومنها ما هو أحسن : كالقصاص والعفو ، قال الله : فمرهم يأخذوا بأحسنها وهو العفو ، ويحمل الأحسن على الندب والحسن على الإباحة فيزول التناقض .

الوجه الثاني قال: يأخذوا بأحسنها أي لحسنها كقوله :« ولذكر الله أكبر [1]» أي كبير ؛ قال الفرزدق :

إنّ الّذي رفع السماك بنى له ❊ بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

قوله : [سأُريكم دار الفاسقين] قال ابن عبّاس : المراد التهديد والوعيد كي لايخالفوا التوراة ويكونوا من الفسّاق و يستوجبوا بالمخالفة دارهم . قال قتادة : المراد : سأُدخلكم الشام وأُريكم منازل الكافرين الّذين كانوا متوطّنين بها من الجبابرة لتعتبروا بها وماصاروا إليه من النكال . قال الكلبيّ : دار الفاسقين هي المساكن الّتي كانوا يمرّون عليها إذا سافروا مثل منازل عاد وثمود والقرون الهالكة . وقيل : المراد الوعد والبشارة بأنّه تعالى سيورّثهم أرض أعدائهم وديارهم كما أورثهم .

ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وان يروا كل

(١) العنكبوت : ٤٤ .

آية لايؤمنوا بها و ان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١٤٦) .

النظم : لمّا تقدّم ذكر المعجزات لموسى وماطلب فرعون من إبطال معجزات موسى بالسحر بيّن في هذه الآية بأنّه يمتنع عن إيصال آياتي المكذّبون والمتكبّرون كفرعون وأمثاله ولايظهر المعجزات إلّا على يد نبيّ .

وقيل : إنّها خطاب لموسى عن إتمام ماوعده في إهلاك أعدائه وصرفهم عن الاعتراض له أي خذ التوراة واعمل أنت وقومك آمناً على قوّة ولاتخف من عدوّك ، وقد صرفت المعارضة عن آياتي الّتي جعلتها حجّة لك وسوف أصرف .

وقيل : الآيتان اعتراض بين قصّة موسى ،والخطاب لمحمّد ﷺ أنّه يصرف المنكرين عن نبوّتك كماصرف فرعون عن موسى .

والأشاعرة احتجّوا بهذه الآية على أنّه تعالى يمنع عن الإيمان بظاهر الآية و هذاقول فاسد ؛ لأنّه من المعلوم أنّ العقوبة على الكفر بعد خلق الكفر فيهم لايجوز و لو صرفهم عن الإيمان و صدّهم عنه كيف يمكن و يجوز أن يقول مع ذلك : « فما لهم لا يؤمنون [١] » و في موضع آخر يقول : « فما لهم عن التذكرة معرضين [٢] » و في موضع قال : « ومامنع الناس أن يؤمنوا [٣] » ؛ فثبت أنّ حمل الآية على هذا الوجه غير ممكن بل المراد والمعنيّ إعلام النبيّ بمنع أعدائه من إيذائه وأمره بالقيام بمايلزمه في تبليغ النبوّة والرسالة ، وذلك مثل قوله تعالى : «بلّغ ما أُنزل إليك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس [٤] » .

وقال الجبّائيّ : معنى الآية : سأصرف هؤلاء المتكبّرين عن نيل مافي آياتي من العزّ و الكرامة المعدّة للأنبياء والمؤمنين عقوبة على كفرهم و كبرهم عليّ . ثمّ من الآيات آيات لايمكن الانتفاع بها إلّا بعد سبق الإيمان فإذا تكبّروا و كفروا فقد صيّروا أنفسهم بحيث لايمكنهم الانتفاع بها فحينئذ يصرفهم عنها ، وأنّ الله إذا علم من حال بعضهم أنّه لايؤمن بتلك الآيات ويستخفّ بها صحّ من الله أن يصرفه عنها . انتهى .

(١) الانشقاق : ٢ . (٢) المدثر : ٥٠ .
(٣) الكهف : ٥٣ . (٤) المائدة : ٧١ .

قوله : [بغير الحقّ] لأنّ إظهار الكبر على الغير قد يكون بالحق لأنّ للمحقّ في أدلّة الدين أن تتكبّر على الكافر والمبطل .

قوله : [وإن يروا سبيل الرشد] أي سبيل استقامة الدين والصواب في العلم والعمل لايقبلوه [وإن يروا سبيل الغيّ] والضلالة أعرضوا عن سبيل الهداية وتمرّنوا على سبيل الضلالة حتّى صاروا بمنزلة الغافل عنها .

والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون (١٤٧) .

ولأجل أن لايتوهّم متوهّم أنّ بعض المكذّبين بسبب أعمال البرّ الّتي يصدر عنهم لايعذّبون بيّن سبحانه في هذه الآية أنّ المكذّبين أجمع يجازون سواءً تكبّروا أو تواضعوا أو كانوا قليلي الإحسان أو كثيريه لمّا كذّبوا نبيّهم وجحدوا المعاد فأعمالهم بسبب الجحود والتكذيب محبطة .

[هل يجزون إلّا ماكانوا يعملون] استفهام بالصورة والمراد التوبيخ والإنكار .

و اتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا انه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين (١٤٨) .

بيان قصّة السامريّ . قرىء «حليّهم» بكسر الحاء واللام وبفتح الحاء وسكون اللام وبضمّ الحاء وكسر اللام . والاتّخاذ اجتباء الشيء لأمر من الأمور فهؤلاء اتّخذوا العجل المصوغ من الذهب و الفضّة لأن يعبدوه . والخوار الصراخ وصوت غليظ .

و مختصر القصّة أنّ بني إسرائيل كان لهم عيد يتزيّنون فيه ، فاستعاروا من قوم فرعون حليّهم ـ والحليّ اسم لما يتزيّن به لذلك اليوم ـ فلمّا أغرق الله فرعون والقبط بقيت تلك الحليّ في أيدي بني إسرائيل فجمع السامريّ تلك الحليّ وكان رجلاً مطاعاً فيهم ، ذا قدر وشرف وكانوا قد سألوا موسى قبل أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه . فصاغ السامريّ عجلاً من تلك الحليّ .

قيل : قد أخذ السامريّ كفّاً من تراب حافر فرس جبرئيل فألقاه في جوف ذلك العجل المجسّد بلا روح فانقلب لحماً و دماً ، وظهرت منه الخوار مرّة واحدة (وقرىء جوار

بالجيم) فقال السامريّ : هذا إلهكم و إله موسى .

وقال أكثر المفسّرين من المعتزلة : إنّه لايمكن هذا الأمر بل جعل السامريّ ذلك العجل مجوّفا و وضع في جوفه أنابيب على شكل مخصوص و كان قد وضع ذلك التمثال على مهبّ الريح فكانت الريح تدخل في جوف الأنابيب و يظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل . وقال آخرون : إنّه جعل ذلك التمثال أجوف وجعل تحت التمثال في الموضع الّذي ينصب فيه العجل رجلاً ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس له فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار كماصنع بعده ابن المقفّع شبيه هذا التمويه في الخشب على ما قيل .

و بالجملة فأرجف أنّ موسى عليه السلام قدمات لمّا لم يرجع بعد الثلاثين فأمرهم السامريّ بعبادة العجل فأطاعوه ولم يطيعوا هارون ، وعبدوه كلّهم إلّا هارون ، لأنّ موسى قال : « ربّ اغفرلي و لأخي » و ذلك يدلّ على أنّ من كان عابداً لها ماكان أهلاً للدّعاء وقيل قدبقي في بني إسرائيل من ثبت على إيمانه والدليل عليه قوله : «ومن قوم موسى اُمّة يهدون بالحقّ و به يعدلون [1]» .

و الحاصل أنّ سبحانه لمّا حكى عنهم هذا المذهب احتجّ على فساده بقوله : [ألم يروا أنّه لايكلّمهم] ولا يمكنه أن يهديهم إلى الصواب فكيف يصلح للإلهيّة ؟ وهم بسبب عبادة العجل كانوا لأنفسهم ظالمين .

و لما سقط فى أيديهم ورأوا أن قدضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين (١٤٩) .

وقرىء «سقط» على البناء للفاعل ، هذه العبارة بطريق الاستعارة والتمثيل أي ندموا على مافعلوا لأنّ النادم المتحسّر يسقط يده زلّة و حسرة فتصير يده مسقوطاً فيها .

قال الواحديّ : إنّ هذه الاستعارة مأخوذ من السقيط وهو مايغشى الأرض بالغدوات وقت الشتاء شبه الثلج أي وقع في يده السقيط وهو يذوب فوراً بأدنى حرارة ولايبقى ، فمن وقع في يده السقيط لم يحصل له منه شيء ، فصار هذا مثلاً لكلّ من عمل عملاً وخسر في عاقبته والنادم يقال له : سقط في يده ويتحيّر في أمره والآلة الأصليّة في الأعمال في أكثر الأمور

(١) الاية ا ١٥٩ .

هي فتسقط اليد عن العمل ورأوا أنّهم قدضلّوا أي تبيّن ضلالهم كأنّهم أبصروه.

قال القاضي : تقدير الآية : لمّا رأوا قدضلّوا سقط في أيديهم ؛ لأنّ الندم إنّما يقع بعد المعرفة فلمّا تبيّن لهم ضلالتهم أظهروا الانقطاع إلى الله فقالوا : «لئن لم يرحمنا ربّنا ، إلخ » وهذا الندم والاستغفار إنّما حصل بعد رجوع موسى من الميقات.

ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الالواح وأخذ برأس اخيه يجره اليه قال ابن ام ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلاتشمت بى الاعداء ولاتجعلنى مع القوم الظالمين(١٥٠) قال رب اغفرلى ولاخى و ادخلنا فى رحمتك و انت ارحم الراحمين(١٥١) .

أخبر سبحانه عمّا فعله بعد رجوعه من الميقات ورأى عكوف قومه على عبادة العجل.

قيل : لم يكن موسى عالماً بعمل قومه من عبادة العجل ، الصحيح أنّه كان عالماً وقد أخبره الله بوقوع الواقعة في الميقات و قال له : «إنا قدفتنّا قومك من بعدك» في سورة طه . يقال : رجل أسيف أي حزين ، والأسف الغضب الّذي فيه تأسّف على فوت ماسلف . قال الواحديّ : الغضب و الأسف معناهما متقاربان ، وإذا جاءك ماتكره ممّن هو دونك أسفت و إذا جاءك ممّن هو فوقك حزنت ، فسمّي إحدى الحالتين غضباً والأُخرى حزناً.

فرجع موسى من الميقات غضباناً على قومه لأجل عبادتهم العجل حزيناً قال : [بئس ما خلفتموني] و التقدير : بئس خلافة خلفتموني ، و المخصوص بالذمّ هو الفاعل مضمر يفسّره « ما خلفتموني » و الخطاب قيل : لعبدة العجل ، وقيل : لوجوه بني إسرائيل هارون والمؤمنين معه.

فلوقيل : أيُّ معنى لقوله : [من بعدي] بعد قوله «خلفتموني» ؟

فالجواب : من بعد مارأيتم من الآيات والشواهد.

قوله : [أعجلتم أمر ربّكم] والفرق بين العجلة والسرعة أنّ العجلة التقدّم بالشيء قبل وقته ، و لذا صارت مذمومة ، و السرعة عمل الشيء في أوّل وقته ، و لذا غير مذمومة و قد يستعمل العجلة بمعنى السرعة و هي غير مذمومة كقوله : « و عجلت إليك ربّ

لترضى»[١].

روي أنّ التوراة كانت سبعة أسباع فلمّا ألقى الألواح تكسّرت فرفع منها ستّة أسباع و بقي سبع . و في البصائر عن أمير المؤمنين : تكسّر منها شيء و تفرّق و رفع منها شيء وبقي لهم شيء . وعن الباقر عليه السلام : إنّ صخرة باليمن التقمت ممّا ذهبت وتكسّرت من التوراة حين ألقاها موسى فلمّا بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله حمله إليه وهي عندنا .

والطاعنون في عصمة الأنبياء تشبّثوا بهذه الآية أنّه صلى الله عليه وآله ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه على سبيل الإهانة ، وليس الأمر كذلك ، وإلقاء الألواح من شدّة غيرته على دين الله و بيان قبح عمل العبادة لغير الله وأمّا جرّ رأس أخيه ليسارّه ويستكشف منه كيفيّة الواقعة ليعالج الأمر .

و قرىء «ابن اُمِّ» بكسر الميم ليدلّ على الإضافة إلى تاء المتكلّم . وقرىء «ابن اُمَّ» بفتح الميم المبنيّ وجعلا اسماً واحداً كخمسة عشر وحضر موت ، أوعلى تقدير « اُمّا » على تقدير حذف الألف المبدلة من تاء الإضافة .

و اعتذر هارون بأنّ القوم جعلوني ضعيفاً ، و ما قدرت عليهم فلاتشمت بي أعداءك و أعدائي ولا تجعلني شريكاً مع القوم الظالمين الّذين عبدوا العجل فعند هذا قال موسى : [ربّ اغفرلي و لأخي] حين أظهر براءته و هذه حالة الانقطاع إلى الله و عادة الأنبياء هكذا ، لأنّه وقع منه أمر قبيح يحتاج إلى الاستغفار . وكان هارون أخاه من أبيه واُمّه و إنّما نسب إلى الاُمّ لأنّ حقّ الاُمّ أولى بالمراعاة و في مثل هذه المقامات وقوع النسبة إلى الاُمّ أكثر .

ان الذين اتخذوا العجل سينا لهم غضب من ربهم و ذلة في الحيوة الدنيا وكذلك نجزي المفترين(١٥٢) والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم(١٥٣) .

شرح حال من عبد العجل والمفعول الثاني من «اتّخذ» محذوف أي اتّخذ العجل إلهاً ويدلّ على المحذوف قوله : «هذا إلهكم وإله موسى » وهم الّذين باشروا عبادة العجل قال

---

(١) طه : ٨٦ .

فيهم : [سينالهم غضب من ربّهم] .

فإن قيل : إنّ أُولئك الأقوام تاب الله عليهم بسبب أنّهم قتلوا أنفسهم في معرض التوبة و إذا تابوا كيف يمكن أن يقال في حقّهم : إنّه سينالهم غضب من ربّهم ؟

الجواب أنّ ذلك الغضب إنّما حصل في الدنيا لا في الآخرة بأمرهم بقتل أنفسهم و بسبب الضلالة أصابتهم ذلّة في الحياة الدنيا .

فإن قيل : إنّ السين للاستقبال ؛

فالجواب أنّ هذا الكلام صدر حين أُخبر سبحانه موسى بافتتان قومه في الميقات ، و الغضب وقع بعد ذلك فصحّ الكلام . و يمكن أنّ المراد أن سينال أبناءهم غضب و ذلّة الدين في زمن النبيّ ﷺ و العرب يعيّر الأبناء بقبائح الآباء كما يفعل في المناقب .

[و كذلك نجزي المفترين] و كلّ مفتر في دين الله فجزاؤه غضب و ذلّة . قال مالك بن أنس : ما من مبتدع إلّا ويجد ذلّة و قرأ هذه الآية .

وأمّا قوله : [والّذين عملوا السيّئات ثمّ تابوا من بعدها] يدلّ على أنّ التوبة من السيّئات بأسرها وحصول الإيمان بعد التوبة مقبولة فلوكان أمر لا يقبل التوبة فذلك بدليل منفصل .

و لما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح و في نسختها هدى و رحمة للذين هم لربهم يرهبون (١٥٤) .

أي لمّا سكن ، أو استعارة كأنّ الغضب قواه وأمره على فعل فلمّا سكت عن الأمر وزال الغضب أخذ موسى الألواح . قال عكرمة : إنّ المعنى سكت موسى عن الغضب وفيه قلب كقولهم : أدخلت القلنسوة في رأسي [وفي نسختها] معنى النسخ النقل والتحويل فإذا كتبت كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف قلت : نسخت ذلك الكتاب .

قال ابن عبّاس : لمّا ألقى موسى الألواح تكسّرت فصام أربعين يوماً فأعاد الله الألواح وفيها عين ما في الأولى ، وعلى هذا القول يكون المعنى : وفيها نسخ منها ، و على قول من قال : لم تتكسّر وكانت بأعيانها موجودة بعد أن ألقاها لاشكّ أنّها كانت مكتوبة من اللوح المحفوظ ، فهي أيضاً منسوخة ومستنسخة من اللوح ، وقوله : [هدى ورحمة] هدى

من الضلالة ، ورحمة بدل العذاب [للّذين هم لربّهم يرهبون] و خائفون من ربّهم .

و وجوه فائدة اللام في « لربّهم » مع أنّ تقدير المعنى : للّذين يرهبون ربّهم لأنّ تأخّر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً ، فدخلت اللام للتقوية كما في قوله : « للرؤيا تعبرون »[1] .

الثاني لام الأجل لأنّ المعنى : لأجل ربّهم يرهبون لا للرياء والسمعة .

الثالث أنّه قد يزاد حرف الجرّ في المفعول و إن كان الفعل متعدّياً ؛ نحو ألقى يده وألقى بيده و قوله : « ألم يعلم بأنّ الله يرى »[2] فعلى هذا اللام تأكيد : كقوله : ردف لكم و مثل قوله : « ولا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم »[3] .

واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما اخذتهم الرجفة قال رب لوشئت اهلكتهم من قبل و اياى اتهلكنا بما فعل السفهاء ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء و تهدى من تشاء انت ولينا فاغفر لنا و ارحمنا و انت خير الغافرين (١٥٥) .

اختار الشيء إذا أخذ خيره . المعنى : من قومه ، حذفت « من » واتّصل بالفعل فنصب يقال : اخترت من الرجال زيداً ، واخترت الرجال زيداً .

[و اختار موسى] من [قومه] المعمّرين [سبعين رجلاً] من اثني عشر سبطاً من كلّ سبط ستّة نفر ؛ فقال موسى : ليتخلّف منكم رجلان فتشاجروا فقال موسى : إنّ لمن يقعد منكم مثلي أجر من يخرج فقعد كالب و يوشع . و قيل : إنّه لم يوجد إلّا ستّين شيخاً فأوحى الله إليه أن يختار من الشبّان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً فأمرهم أن يصوموا و يتطهّروا ثيابهم ، ثمّ خرج بهم إلى الميقات .

و هنا مسألة : وهي أنّه هل هذا الاختيار والانتخاب هو للخروج إلى الميقات الّذي كلّم الله موسى فيه وسأل موسى الرؤية أوهو خروج إلى موضع آخر ؟

للمفسّرين أقوال : الأوّل أنّه لميقات الكلام و الرؤية و أنّه عليه السلام خرج بهؤلاء

---

(١) يوسف : ٤٣ . (٢) العلق : ١٤ .
(٣) آل عمران : ٦٦ .

السبعين إلى طورسيناء ، ولمّا دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتّى أحاط بالجبل كلّه ، ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم : ادنوا فدنوا حتّى إذا دخلوا الغمام وقعوا سجّداً فسمعوا صوتاً خلفه ، وهو يتكلّم موسى يأمره وينهاه : افعل ولاتفعل ، ثمّ انكشف الغمام فأقبلوا إليه و طلبوا الرؤية ، فأخذتهم الصاعقة وهي المراد من الرجفة المذكورة في الآية .

والقول الثاني أنّ المراد من الميقات هذا غير ميقات الكلام وطلب الرؤية بل ميقات آخر ، و ذلك لمّا وقع عبادة العجل اختار موسى قومه سبعين رجلاً ليعتذروا عن عبادة العجل .

قال ابن عبّاس : إنّ السبعين الّذين قالوا : «لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة» كانوا قبل السبعين الّذين أخذتهم الرجفة ، و إنّما أمر الله موسى أن يختار من قومه سبعين فاختار و برزبهم ليدعوا ربّهم ؛ فكان في مادعوا أن قالوا : اللّهم أعطنا مالم تعط أحداً قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدنا ؛ فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة .

قال أمير المؤمنين : إنّما أخذتهم الرجفة من أجل دعواهم على موسى قتل هارون و ذلك أنّ موسى وهارون و شبروشبير ابناه انطلقوا إلى سفح جبل فنام هارون ، فتوفّاه الله فلمّا مات دفنه موسى فلمّا رجع إلى بني إسرائيل قالوا له : أين هارون ؟ قال : توفّاه الله . فقالوا : بل أنت قتلته و حسدته على أخلاقه ولينه فقتلته ، قال موسى : فاختاروا من شئتم ؛ فاختاروا منهم سبعين رجلاً وذهب بهم إلى القبر ؛ فقال موسى : ياهارون أقتلت أم ميّت ؟ فقال هارون : ماقتلني أحدٌ و لكنّني توفّاني الله ؛ فأخذتهم الرجفة وصعقوا . وقيل : ماتوا فأحياهم الله و جعلهم أنبياء .

ثمّ في الآية دلالة اُخرى على أنّ هذا الميقات غير ميقات طلب الرؤية و الكلام ؛ لانّ في ميقات الكلام و هو الأوّل لم يظهر منهم سوى طلب الرؤية ، فلو كانت الرجفة المذكورة في هذه الآية إنّما حصلت بسبب قولهم : « أرنا الله جهرة » لوجب أن يقول موسى: أتهلكنا بمايقوله السفهاء منّا ، بل قال : «أتهلكنا بما فعل السفهاء» علم أنّ هذه الرجفة إنّما حصلت بسبب الفعل وهو عبادة العجل لا لطلب الرؤية .

ثمّ إنّ الله ذكر في ميقات الكلام والرؤية أنّ موسى خرّ صعقاً ، وأنّ الجبل اندكّ ،

و أمّا الميقات المذكور في هذه الآية أنّ القوم أخذتهم الرجفة ، و لم يذكر أنّ موسى اعتراه أمر شديد ، بل يدلّ على أنّه ما أصابه أمر ، حيث قال : [لوشئت أهلكتهم من قبل و إيّاي] فاختصاص كلّ وا حد من هذين الميقاتين بهذه الكيفيّة يفيد أنّ أحدهما غيرالآخر . انتهى .

[أتهلكنا] قيل : استفهام بمعنى الجحد أي إنّك لاتفعل كذا و قيل : استفهام استعطاف أي لاتهلكنا .

و قوله : [إن هي إلّا فتنتك] الضمير راجع إلى الفتنة كما تقول : إن هو إلّا زيد ، والمعنى أنّ تلك الفتنة والامتحان لم يكن إلّا امتحانك ، و أظهرت الرجفة و كلّفتهم بالصبر عليها .

قوله : [تضلّ بها من تشاء] فسّر الأشاعرة على مسلكهم الجبر أي أضللت بها قوماً فافتتنوا ، و عصمت قوماً فثبتوا على الحقّ ، و أيّدوا مذهبهم الباطل بظاهر الآية ، تعالى الله عن ذلك ؛ فإنّ العقل السليم يأبى بأنّ الله يجبر طائفة بالضلالة و طائفة بالإيمان ؛ فيعاقبهم بالضلالة و يثيبهم بالإيمان ، و كيف يعاقب على الكفر وهو جاعله ؟ فهذا العبد المجبور المضطرّ المجعول فيه الكفر على سبيل القهر كيف يجوز عقابه ؟ و أين العدل وهذا الأمر الشنيع ؟

قالت المعتزلة : المراد بالإضلال الإهلاك أي تهلك من تشاء بهذه الرجفة وتصرفها عمّن تشاء ، كما فسّر ابن عبّاس وجماعة ؛ فقالوا : المراد أنّ هي عذابك وقد سمّى الله العذاب فتنة في قوله تعالى : « يوم هم على النار يفتنون [1]» أي يعذّبون ؛ فيكون معنى الآية : ليس هذا الإهلاك إلّا عذابك لهم بما فعلوه من المعصية وعبادة العجل وعدم منعهم الشديد عن المعصية .

قال سعيد بن جبير و جماعة : المراد من الفتنة التشديد في التعبّد و التكليف كقوله تعالى : «أولايرون أنّهم يفتنون في كلّ عام مرّة أو مرّتين [2]» و عنى بذلك الأمراض والشدائد ، قال : ماقال : تضلّ بها من تشاء من عبادك عن الدين ، بل قال : تضلّ

---

(١) الذاريات : ١٣ . (٢) التوبة : ١٢٧ .

بها أي بالرجفة ، ومن المعلوم أنّ الرجفة لايضلّ الله بها ؛ فإنّ الرجفة عذاب والعذاب لا يصير سبباً للإضلال بل الضلالة موجبة للعذاب والعذاب موجب للإهلاك .

قوله : [أنت وليّنا] فطلب موسى لهم وله الغفران [وأنت خير الغافرين] فإنّ كلّ من سواه إذا تجاوز عن الذنب إمّا طلباً للثناء الجميل أو الأجر ، ولكن غفرانك يا إلهي محض التفضّل والكرم .

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة انا هدنا اليك قال عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شي فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآياتنا يؤمنون (١٥٦) .

وقرئ من أساء بالسين المهملة . بقيّة دعاء موسى .

[واكتب] أي أوجب وإنّما لم يقل : وأوجب أو واجعل ؛ لأنّ الكتابة أثبت [في الدنيا حسنة] أي النعمة والتوفيق للأعمال الصالحة [وفي الآخرة] حسنة أي المغفرة والجنّة [إنّا هدنا] ورجعنا وتبنا [إليك] والهود الرجوع .

[قال] الله مجيباً لموسى : [عذابي أُصيب به من أشاء] أو أساء ممّن عصاني واستحقّ عقوبتي ، وإنّما علّقه بالمشيئة لجواز الغفران [و رحمتي وسعت كلّ شيء] وإنّ رحمته في الدنيا وسعت للبرّ والفاجر ، وفي الآخرة للمتّقين خاصّة أي إنّ رحمتي تسع كلّ شيء إن دخلوها ، بحيث لو دخلوها لوسعتهم إلّا أنّ فيهم من لايدخلها لضلاله .

في الحديث قيل : إنّ النبيّ ﷺ قام في الصلاة فقال أعرابيّ وهو في الصلاة : اللّهم ارحمني ومحمّداً ولاترحم أحداً معنا فلمّا سلّم النبيّ ﷺ قال للأعرابيّ : لقد تحجّرت واسعاً . يريد رحمة الله ؛ أورده البخاريّ في الصحيح .

[فسأكتبها للّذين يتّقون] الشرك والمعاصي ويجتنبون الكبائر و يخرجون زكاة أموالهم ، لأنّه أشقّ الفرائض ، وبهذا خصّ بالذكر . وقيل : معناه : يزكّون أنفسهم عن لوث المعاصي ويصدّقون بآياتنا وحججنا ، قال ابن عبّاس : لمّا نزلت : « و رحمتي وسعت كلّ شيء» قال إبليس : و أنا من ذلك الشيء فنزعها الله عن إبليس بقوله : «فسأكتبها للّذين يتّقون ، إلخ» .

الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التورىة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهيهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به و عزروه و نصروه و اتبعوا النور الذى انزل معه اولئك هم المفلحون (١٥٧)

لمّا بيّن أنّ من يكتب له الرحمة لابدّ أن يكون موصوفاً بالتقوى وإيتاء الزكاة أتبعه بأنّ أعظم الآيات وأقوى الإيمان اتّباع محمّد، بل لايحصل الإيمان إلّا باتّباعه وشرائعه ، الّذي وجدوا صفته في التوراة ، وبنوإسرائيل كانوا محكومون في التوراة بأن يواطئوا أنفسهم أنّ كذا إنسان متى ظهر وظهرت شرائعه أن يؤمنوا به ، إذا كانوا في زمانه .

ووصفه بصفات تسع كما في الآية :

الاولى: كونه رسولاً واختصّه الله برسالته إلى الخلق لتبليغ الأحكام .

الثانية : كونه نبيّاً ورفيع القدر عندالله .

الثالثة : كونه اُمّيّاً ، قيل : معناه أنّه لايكتب ولايقرء والصحيح : المراد نسبته إلى اُمّ القرى وهي مكّة ؛ لأنّها بالنسبة اُمّ الأرض .

في العلل : عن الجواد عليه السلام أنّه سئل عن ذلك فقال : مايقول النّاس ؟ فقيل له : يزعمون أنّه لم يحسن القراءة و الكتابة فقال عليه السلام : كذبوا عليهم لعنة الله أنّى يكون كذلك ؟ والله يقول : «هو الّذي بعث في الاُمّيّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة [(١)]» فكيف كان يعلّمهم مالا يحسن ؟ والله لقد كان رسول الله يقرء ويكتب باثنين و سبعين لغة .

الرابعة : «الّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل» وهذا يدلّ على أنّ وصفه وصحّة نبوّته مكتوب في التوراة والانجيل ؛ لأنّ ذلك لولم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفّرات لليهود والنصارى لأنّ الإصرار على الكذب والبهتان في مثل هذا الأمر العظيم ممّا تبيّن فساده ، و العاقل لايسعى في نقض غرضه .

---

(١) الجمعة : ٢ .

وفي المجالس عن أمير المؤمنين في حديث قال يهودي لرسول الله ﷺ : إنّي قرأت نعتك في التوراة محمّد بن عبدالله مولده بمكّة ومهاجرته بطيبة ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب[1] ولا مترنّن بالفحش ولا قول بذيء ، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله ، هذا مالي ؛ فاحكم فيه بما أنزل .

وفي الكافي عن الباقر : لمّا اُنزلت التوراة على موسى بشّر بمحمّد ؛ فلم تزل الأنبياء تبشّر به حتّى بعث الله المسيح فبشّر بمحمّد ، فذلك قوله : «يجدونه في التوراة والإنجيل» وهو قول الله تعالى مخبراً عن عيسى : «ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد[2]» وفي الكافي مرفوعاً : إنّ موسى ناجاه ربّه فقال له في مناجاته : اُوصيك يا موسى وصيّة الشّفيق المشفق بابن البتول عيسى بن مريم ومن بعده بصاحب الجمل الأحمر الطيّب الطاهر المطهّر فمثله في كتابك أنّه مهيمن على الكتب كلّها ، وأنّه راكع ساجد راغب راهب ، إخوانه المساكين وأنصاره قوم آخرون .

الخامسة : أمرهم بالمعروف ، قوله : «يأمرهم بالمعروف» يجوز أن يكون استينافاً ويجوز أن يكون المعنى : يجدونه أنّه يأمر بالمعروف إذ جاء بكلّ ماهو حسن في العالم ينزل من عندالله .

السادسة : «وينهاهم عن المنكر» فيشمل ماهو قبيح ، منها عبادة الأوثان .

السابعة : «ويحلّ لهم الطيّبات» المستلذّة إلّا ماخرج بالدليل؛ فهذا أصل في الإباحة .

الثامنة : «ويحرّم عليهم الخبائث» كالميتة والدم والفسوق المستقذرات وما يوجب الضرر على النفس .

التاسعة : «ويضع عنهم إصرهم والأغلال» وقرىء «آصارهم» على الجمع و «الإصر» الثقل الّذي يمنع صاحبه ويحبسه عن الحراك لثقله ، والمراد أنّ شريعته سمحة ؛ فإنّ شريعة موسى كانت شديدة . و هذه صفات تسع ، و قد وجدوا الصفات و صدّق بعضهم ، و المنهمكون في الدنيا والرياسة منهم أنكروا وغيّروا العلامات .

---

(١) الشديد الصياح . (٢) الصف : ٦ .

قال الطبرسيّ : مكتوب في التوراة في السفر الخامس : يا موسى إنّي سأُقيم لهم نبيّاً من إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فيه فيقول لهم كلّ ما أُوصيه به . و في الإنجيل بشارة بالفار قليط في مواضع منها : نعطيكم بالفار قليط آخر ما يكون معكم آخر الدهر كلّه.

و في الإنجيل أيضاً قول المسيح للحواريّين : أنا أذهب و سيأتيكم الفار قليط روح الحقّ الّذي لايتكلّم من قبل نفسه ، إنّه نذير كم بجميع الخلق ، يخبر كم بالأمور المرجعة ويمدحني ويشهدبي . وفيه أيضاً : إذا جاء خير أهل العالم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

قوله : [فالّذين آمنوا بهوعزّروه] من اليهود والنصارى وغيرهم [ونصروه] على أعدائه، وأصل التعزير معناه المنع ، ومنه التعزير ، وهوالضرب دون الحدّ ؛ لأنّه تمنع عن معاودة القبيح [واتّبعوا النور الّذي اُنزل معه] أي مع نبوّته لأنّ نبوّته ظهرت مع ظهور القرآن ، هؤلاء الجماعة [هم المفلحون] النّاجون .

روي أنّ النبيّ ﷺ قال لأصحابه : أيّ الخلق أعجب إيماناً ؟ قالوا : الملائكة، فقال : الملائكة عند ربّهم فما لهم لايؤمنون ؟ قالوا : فالنبيّون ، قال : فالنبيّون يوحى إليهم فما لهم لايؤمنون ؟ قالوا : فنحن يا رسول الله ، قال : وأنا فيكم فمالكم لاتؤمنون؟ إنّما هم قوم يكونون بعد كم يجدون كتاباً في ورق فيؤمنون به فهذا معنى قوله :«واتّبعوا النور الّذي اُنزل معه» والمراد من «مع» أي مع نبوّته وإلّا فالقرآن اُنزل مع جبرئيل .

قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعاً الذى له ملك السموات والارض لا اله الاهو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون (١٥٨) .

لمّا وعدالله في الآية السابقة لمّا قال : «فسأكتبها للّذين يتّقون» بيّن في هذه الآية أنّ من شرط حصول الرحمة و التقوى اتّباع الرسول . قل يا محمّد لجميع الناس : إنّكم مأمورون باتّباعي ، وأنا رسول الله إليكم جميعاً للتأكيد وإزالة لشبهة طائفة من اليهود وهم أتباع عيسى الإصبهانيّ يقال لهم العيسويّة كان يقول : إنّ محمّداً صادق لكنّه مبعوث

على العرب لا إلى بني إسرائيل . وهذا الكلام منهم بديهيّ البطلان ؛ لأنّ الّذي عندهم مقبول الرسالة على العرب بزعمهم لايمكن أن يكذب وهو يقول في كتابه : «إنّي رسول الله إليكم جميعاً » فإمّا أن يكون لا يقبلون نبوّته مطلقاً ، وإمّا أن يكون يصدّقونه بما يقول .

وتمسّك جمع من العلماء من أنّ أحداً غيره من الأنبياء ما كان مبعوثاً إلى جميع الخلق لقوله ﷺ : أُعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد قبلي : أُرسلت إلى الأحمر و الأسود ، وجعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً ، و نصرت بالرعب على عدوّي يرعب منّي مسيرة شهر ، و أُطعمت الغنيمة دون من قبلي ، و قيل لي : سل تعطه فاختبأتها شفاعة لأُمّتي .

ولو كان نبيٌّ رسالته عامّة على قول مثل نوح حين نزل من السّفينة فإنّ جميع الناس ذلك اليوم هم الّذين معه في السفينة ، على أنّ رسالة محمّد على الخلق أجمعين من الملك والجنّ ، بل الجمادات مأمورة بتصديق نبوّته ﷺ في عالم الجماديّة ، وما كان موسى رسولاً على الملائكة والجنّ ؛ فإذاً لا يساويه أحد من الأنبياء في الاختصاص .

قوله : [الّذي له ملك السماوات] ومن المعلوم أنّ دعوى النبوّة لا تظهر فائدتها ولا تتمّ إلّا بإثبات أنّ للعالم إلهاً حيّاً قادراً عالماً ؛ فذلك قوله : «الّذي له ملك السماوات » لأنّ أجسام السماوات تدلّ على افتقارها إلى الصانع المختار ، وهذا هو الأصل الأوّل .

وأصل ثان : هو أنّ إله العالم واحد منزّه عن الشريك ؛ لأنّ بتقدير أن يكون للعالم إلهان وأرسل أحد الإلهين رسولاً إلى الخلق فلعلّ هذا الإنسان الّذي يدعوه الرسالة إلى طاعته واتّباعه ما كان مخلوقاً للإله الّذي أرسل هذا الرسول بل هو مخلوق للإله الآخر ، وعلى هذا التقدير هل يطيع هذا الإنسان لهذا الرسول أم يخالفه ؟ أمّا إجابة الطاعة له ظلم لأنّه مخلوق الإله الثاني وهو يجب عليه إطاعة ربّه وخالقه ؛ فلابدّ أن يخالفه فهذا الرسول رسالته لغو وتصرّف في ملك الغير ، ثمّ يتحقّق الفساد بين العالم ؛ لأنّ الإله الأوّل مثلاً يحكم ويأمر والإله الثاني يحكم ويأمر ؛ فإن كان حكم الثاني عين حكم الأوّل فحكم الثاني لغو ، وإن كان حكم الثاني نقيض حكم الأوّل فيقع الخلف بين التكليفين والمكلّفين ومانعني بالفساد إلّا هذا ؛ فثبت أنّ الإله واحد .

والأصل الثالث إثبات أنّه قادر على الحشر والبعث وأنّه لابدّ من وقوعه ؛ لأنّ بتقدير أن لا يثبت ذلك كان الاشتغال بالطاعة و الاحتراز عن المعصية عبثاً ولغواً وإلى هذا الأصل إشارة بقوله : [يحيي ويميت] لأنّه لمّا أحيا أوّلاً ثبت كونه قادراً على الإحياء ثانياً ، ولمّا كان الإحياء الأوّل لغرض إيصال الخير إلى المخلوق وهو إنعام عظيم ويجب على المخلوق شكر النعمة فيطالبه بشكر النعمة ووظائف العبوديّة لحصول ذلك الغرض وقابليّة العبوديّة فحينئذ يحسن منه أن يرسل رسولاً يبيّن لهم طريق أداء شكره ومايصلح به اُمور هم لئلاّ يقع الهرج والمرج فعيّن الرسول بقوله : [فآمنوا بالله ورسوله] و كلماته أي شواهد ربوبيّته وصدق رسالة رسوله من المعجزات والكمالات الّتي ظهرت على يده .

فمن كمالاته ومعجزاته أنّه صلى الله عليه وآله لم يتعلّم من اُستاد ولم يشتغل بمطالعة كتاب ولم يتّفق له مدارسة العلماء ؛ لأنّ مكّة أهلها يومئذ اُمّيّين وماغاب صلى الله عليه وآله عن مكّة غيبة طويلة يمكن أن يتحصّل فيها علماً جزئيّاً فضلاً عن علوم كثيرة ، ففتح الله عليه باب العلم بالقرآن المشتمل على علوم الأوّلين والآخرين ؛ فكان ظهور هذا الأمر من أعظم المعجزات لذاته الشريفة صلى الله عليه وآله . وأنّه يرى من خلفه كما يرى من قدّامه وتنام عينه ولاينام قلبه وهذه من خواصّ ذاته الشريفة ، و نوع آخر مثل انشقاق القمر ونبوع الماء من بين أصابعه .

ومثل هذه الأمور تسمّى بكلمات الله ؛ ألاترى أنّ عيسى عليه السلام لمّا كان حدوثه أمراً غريباً مخالفاً للمعتاد سمّاه الله كلمة ؛ وهو المراد في الآية [يؤمن بالله و كلماته] كما قالوا : نحن كلمات الله العليا .

ثمّ بيّن سبحانه طريق التكليف فقال : [اتّبعوه] ومعنى المتابعة الإتيان بمثل ما ما أتى المتبوع به سواء كان في طريق الفعل أو في طريق الترك ، وظاهر الأمر للوجوب ؛ فثبت وجوب متابعته في كلّ أمر ونهي إلّا ماخصّه الدليل مثل اُمور خاصّة فمتابعته أصل من اُصول الإيمان وقانون كلّي في معرفة التكليف والأحكام وبقوله : « ومايطق عن الهوى * إن هو إلّا وحي يوحى » (١) . واتّبعوه [لعلّكم تهتدون] فاتّباعه متلازم بصريح الآية .

---

(١) النجم : ٣ و ٤ .

ومن قوم موسى امة يهدون بالحق و به يعدلون (١٥٩) .

لمّا ذكر في الآية أنّ المهتدين من اتّبع النبيّ الأُمّيّ ذكر في هذه الآية أنّ من قوم موسى عليه السلام أيضاً من اتّبع الحقّ وهدى ، وبيّن أنّهم جماعة ؛ لأنّ لفظ الأُمّة ينبىء عن الكثرة .

قيل : هم اليهود الّذين كانوا في زمن محمّد صلى الله عليه وآله وأسلموا مثل ابن صوريا وعبدالله ابن سلام .

و اعترض على هذا القول بأنّهم كانوا قليلين في العداد ، و لفظ الأُمّة تقتضي الكثرة .

ويمكن الجواب عنه بأنّه لمّا كانوا مختلفين في الدين جاز إطلاق لفظ الأُمّة عليهم كما في قوله تعالى: «إنّ إبراهيم كان أُمّة»(١) .

وقيل : إنّهم قوم مشوا على الدين الحقّ الّذي جاء به موسى وماحرّفوا في زمن تفرّق بني إسرائيل والتزموا بالعمل بالتوراة حتّى جاء عيسى .

وقال السدّي وجماعة من المفسّرين كابن عبّاس والربيع وعطاء والضحّاك وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام قالوا : إنّهم قوم من وراء الصين وبينهم وبين الصين واد جار من الرمل لم يغيّروا ولم يبدّلوا ، وذلك أنّه إنّ بني إسرائيل لمّا كفروا وقتلوا الأنبياء والأسباط فبقي سبط من جملة الاثني عشر ماصنعوا مثل ماصنع بنو إسرائيل ، وسألوا الله أن ينقذهم منهم ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتّى خرجوا من وراء الصين فهم حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا .

ثمّ اختلف المفسّرون فمنهم من قال : إنّهم متمسّكون بشريعة موسى إلى الآن ، ومنهم من قال : إنّهم على دين محمّد صلى الله عليه وآله الآن ، وذلك أنّ جبرئيل انطلق بالنبيّ صلى الله عليه وآله ليلة المعراج إليهم فقرأ عليهم من القرآن عشر سور نزلت بمكّة فآمنوا به وصدّقوه وأمرهم أن يقيموا ويتركوا السبت ، وأمرهم بالصلاة والزكاة ، ولم يكن فريضة نزلت غيرهما ففعلوا وقبلوا . قال ابن عبّاس : وذلك قوله تعالى : « وقلنا لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا

(١) النحل : ١٢١ .

جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً»[١] يعني عيسى بن مريم يخرجون معه وروى أصحابنا أنّهم يخرجون مع قائم آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وروي أنّ ذا القرنين رآهم وقال لهم: لو أُمرت بالمقام لتسرّني أن أُقيم بين أظهركم.

وبالجملة، ومن قوم موسى جماعة يدعون الناس إلى الحقّ وبالحقّ يحكمون ويعدلون في حكمهم.

في الحديث عن أبي حمزة الثمالي والحكم بن ظهير أنّ موسى لمّا أخذ الألواح قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة هي خير أُمّة أُخرجت للنّاس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أُمّتي؛ قال الله: تلك أُمّة أحمد.

قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة هي الآخرون في الخلق السابقون إلى الجنّة فاجعلهم أُمّتي؛ قال الله: تلك أُمّة أحمد.

قال: إنّي أجد في الألواح أُمّة كتبهم في صدورهم يقرؤونها فاجعلهم أُمّتي؛ قال: تلك أُمّة أحمد.

قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة يؤمنون بالكتاب الأوّل وبالكتاب الآخر ويقاتلون الأعور الكذّاب فاجعلهم أُمّتي؛ قال: تلك أُمّة أحمد.

قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة إذا همّ أحدهم بحسنة ثمّ لم يعملها كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له عشرة، وإن همّ أحدهم بسيّئة ولم يعملها لم يكتب عليه وإن عملها كتبت عليه سيّئة فاجعلهم أُمّتي؛ قال: تلك أُمّة أحمد.

قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أُمّة هم الشافعون المشفّعون فاجعلهم أُمّتي؛ قال الله: تلك أُمّة أحمد. قال موسى: اجعلني من أُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لأشكر هذه النعمة.

وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا امما واوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم و ظللنا عليهم الغمام وانزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون (١٦٠).

شرح نوعين من أحوال بني إسرائيل:

---

(١) الاسراء: ١٠٦.

أحدهما : جعلهم اثني عشر سبطاً أي صيّرناهم اثنتي عشرة فرقة ، لأنّهم كانوا من اثني عشر رجلاً من أولاد يعقوب ، فميّز سبحانه لئلاّ يتحاسدوا فيقع فيهم الفساد . وجعلنا كلّ قبيلةسبطاً ، ووضع «أسباطاً» موضع «قبيلة» .

فلو قيل : إنّ مميّز مابعدعشرة يكون مفرداً فما وجه مجيئه جمعاً ؟

فالجواب أنّ « أسباطاً » ليس تمييزاً بل بدل من اثنتي عشرة أوصفة لموصوف محذوف وهو الفرقة . وإنّما قال : «اثنتي عشرة » بالتأنيث مع أنّ السبط مذكّر فباعتبارمعنى الأمم .

والنوع الثاني من شرح بني إسرائيل قوله : [وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه ، إلخ] هذه القصّة قد تقدّم ذكرها في سورة البقرة لاحاجة إلى الإطالة ، وفعلنا لهم هذا التقطيع ليعلم كلّ سبط مشربهم ومسقاهم كي لايتشاجروا بينهم . و «الانبجاس» خروج الماء بقلّة والانفجار بكثرة .

[وظلّلنا عليهم الغمام] عن حرّ الشمس في التيه ، وكان ينزل عليهم بالليل عمودمن نار يسرون و يعيشون بضوئه .

[و أنزلنا عليهم المنّ] والسماني وكان ينزل عليهم المنّ ـ وهو الترنجبين أومنّ السماء مثل ماينزل الثلج من الفجر إلى الطلوع ـ لكلّ إنسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السماني فيدع الرجل منه ما يكفيه ليومه وليلته ، وقلنا لهم : [كلوا] من مستلذّات الرزق فكفروا بتلك النعم الجليلة وظلموا أنفسهم ، وماظلمونا بكفرانهم.وعدم قبول الإطاعة إمّا لأنّهم ادّخروا من طعامهم مع أنّ الله كان منعهم من الادّخار ، أولأنّهم سألوا الله غير ذلك من الطعام كالبقل والقثّاء وغيره أو أقدموا على الأكل في وقت منعهم الله الأكل في ذلك الوقت .

واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية و كلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفرلكم خطيئاتكم وسنزيد المحسنين (١٦١) فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بماكانوا يظلمون (١٦٢) .

واذكر وبيّن على الجماعة يامحمد وقت قولنا لهم : [اسكنوا هذه القرية] والقرية

بيت المقدس ، اتّخذوها موطناً على سبيل الإقامة . وقيل : المراد بالقرية قرية اريحا [و كلوا منها] ومن نواحيها من أين ماأردتم من غيرأن يزاحمكم أحد [وقولوا حطّة] أي يكون مسألتكم حطّة لذنوبنا أي يكون قولكم الاستغفار . و« حطّة » فعلة من الحطّ كالجلسة .

[و ادخلوا الباب] أي باب القرية متطأمنين متذلّلين ساجدين شكراً على إخراجكم من التيه ، وقيل : المراد من الباب باب القبّة الّتي يصلّون إليها ، ودخل ذراريهم وهم ما دخلوها في حياة موسى . فإذا فعلتم كذلك [نغفر]وقرىء « تغفر » بالتاء على البناء للمجهول . وقرىء « خطيئتكم » على الإفراد [وسنزيدالمحسنين] بالمغفرة [فبدّل الّذين ظلموا] منهم بما أُمروا بالاستغفاروأعرضوا عن هذه الكلمة و وضعوا موضعها قولاً آخر ممّا لاخيرفيه . روي أنّهم دخلوها زاحفين علىاستاهم وقالوا مكان «حطّة»:حنطة ، وقيل : قالوابالنبطيّ : « حطّاً شمقاثاً » أي حنطة حمراء ، استهزاءً بكلام الله أو نبيّه .

[فأرسلنا عليهم] أثر ما فعلوا أي غير متأخّر عذاباً من السماء وهو الطاعون . روي أنّه مات في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً أو أربعة و عشرون ألفاً بسبب كفرهم وظلمهم .

وسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحراذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً و يوم لا يسبتون لاتاتيهم كذلك نبلوهم بماكانوايفسقون (١٦٣) .

واسأل يامحمد اليهود المعاصرين و هم ذراري السابقين سؤال تقريع وتوبيخ لهم ببيان كفرهم . وفائدةهذا السؤال أنّ هذا الأمرمن علومهم الّتي لايقف عليها الّامن مارس في كتبهم، وهو صلى الله عليه وآله قد أحاط علمه بما تضمّن كتبهم ، وهو صلى الله عليه وآله ماتلقّى من كتبهم وبمعزل عنهم وعن كتبهم بل يوحي الله إليه و « القرية » قيل : هى إيلة بين مدين والطور ، وقيل : هي طبرية [حاضرةالبحر] أي على شاطىءالبحر واقعة إذ يعدون ويتعدّون حدودالله بالصيد ، وهم ممنوعون عن الصيدفي يوم السبت وينهون عن الاشتغال من الأُموربغير العبادة و«الحيتان» جمع حوت ، قلبت الواوياءً لانكسار ماقبلها ، كنون و نينان لفظاً ومعنى .

[إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً] أي دانية ظاهرة قريبة من الساحل ويوم الّذي ليس عليهم حكم لا يأتي الحيتان قريبة لهم حتّى يصيدون بالسهولة [كذلك نبلوهم] مثل هذا الامتحان نختبرهم بسبب فسقهم الدائم .

واذ قالت امة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون (١٦٤) فلما نسوا ماذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون (١٦٥) .

و [إذ قالت] عطف على قوله إذ يعدون أي اذكر وقت قول جماعة من صلحائهم الّذين ركبوا الصعب في موعظة اُولئك الصيّادين حتّى يئسوا من قبولهم لأقوام آخرين من الصلحاء الّذين ما تركوا الموعظة [لم تعظون قوماً الله مهلكهم] أي هولاء متمادين في الكفر و لاينفع الوعظ ، والله سبحانه مطهّر الأرض ختماً على كفرهم ؛ لأنّهم علموا أنّ الوعظ لايفيدهم .

قالوا في جوابهم : [معذرة إلى ربّكم] قرىء «معذرة» بالنصب أي لنعذر معذرة و أمّا من رفع أي هذه معذرة إلى الله أي إذا طولبنا باقامة النهي عن المنكر قلنا : قد فعلنا فنكون بذلك مقبولين العذر ؛ فعلى هذا التقرير صاروا ثلاث فرق : فرقة صائدة مذنبة ، وفرقة واعظة وفرقة ناهية للواعظة .

ولفظ الآية يدلّ على أنّ الفرقة المذنبة هلكت ، والفرقة الناهية نجت وأمّا الفرقة الّتي قالوا : لِمَ تعظون ؟ فقد اختلف المفسّرون في أنّهم من أيّ الفريقين ؟ فنقل عن ابن عبّاس أن هلكت الفرقتان ونجت الناهية . وقيل : نجت الفرقتان وهلكت الثالثة . وفي الكافي عن الصادق عليه‌السلام أنّهم ثلاثة أصناف نجى منهم صنف وهو الصنف الناهية ، وهلك صنفان : الساكتة والصائدة .

[فلمّا نسوا ماذكروا به] فلمّا نسوا هؤلاء المذنبون وعظ الواعظين أنجينا المنكرين لعمل المذنبين وأخذنا الظالمين بعذاب شديد بسبب تماديهم واستمرارهم على المعصية والخروج عن الطاعة ولعلّه سبحانه عذّبهم بعذاب شديد فلم يقلعوا عمّا كانوا عليه فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى :

فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين (١٦٦) .

لمّا بغوا وأبوا أن يتركوا مانهوا عنه [قلنا لهم] قيل : المراد الأمر التكويني لا القولي . وقيل : الأمر القولي ؛ قال الزجّاج : أمروا بأن يكونوا قردة بقول سمع ليكون أبلغ في القدرة . وقيل : بترتيب المسخ على العنف للإيذان بأنّه ليس لخصوصيّة الحوت بل للاستمرار على المخالفة .

وابتداء الصيد أنّ رجلاً منهم أخذ حوتاً يوم السبت وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل ، ثمّ شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلّع على تنّوره ، فقال له : إنّي أراك ستعذّب ، فلمّا لم يره عذّب أخذ في السبت القابل حوتين ، فلمّا رأوا أنّ العذاب لايعاجلهم استمرّوا على ذلك فصادوا و أكلو و ملحوا وباعوا فصاروا نحواً من سبعين ألفاً فلعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون وقالوا: نحن لانسا كنكم وقسّموا القرية بجدار بينهم و بين المعتدين ، فمسخهم الله قردة . أكلوا أوخم أكلة ما أثقلها ضرباً في الدنيا وأطولها عذاباً في الآخرة !

أقول : وماحوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عندالله من قتل مسلم ولكنّ الله جعل موعداً والساعة أدهى وأمرّ .

قوله : واذ تاذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم (١٦٧) .

إذن نادى وصاح وأعلم و « تأذّن » بمعنى أذن أي حكم وأعلم واللام في «ليبعثنّ» جواب للقسم ؛ لأنّ قوله : [و إذتأذن] جار مجرى القسم في كونه جازماً للوقوع ، أي و اذكر يا محمد إذ حكم : [ليبعثنّ عليهم] الضمير يقتضي بحسب الظاهر أن يرجع إلى جماعة العاتين لكن لمّا علم أنّهم هلكوا ومسخوا قيل : المراد ذرّيّتهم ونسلهم فألحق الذلّ بالبقيّة . والصحيح كما عليه الأكثرون : المراد اليهود الّذين أدركهم النبيّ صلى الله عليه وآله ودعاهم إلى شريعته ولم يقبلوا وبقوا على اليهوديّة وأداء الجزية والقتل في خيبر وقريظة والنضير ؛ فإنّ العذاب و الذلّ لزمهم .

وحاصل المعنى أن اذكر لهم يا محمد صلى الله عليه وآله وقت إيجابه سبحانه على نفسه أن يسلّط

على اليهود البتّة [من يسومهم] ويطلب لهم [سوء العذاب] وقد بعث الله عليهم بعد داود بختنصّر فخرّب ديارهم و قتل رجالهم وسبى ذراريهم ، وضرب الجزية على من بقي منهم و كانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس حتى بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله ففعل معهم مافعل ، فلا تزال الذلّة فيهم ولايكون لهم سلطان وسلطة إلى يوم القيامة [إنّ ربّك لسريع العقاب] لمن يستوحب بكفر وإن كان العقاب مؤخّراً لأنّ ماهو آت قريب وسريع [وإنّه] سبحانه [الغفور رحيم] لمن رجع عن المعصية ودخل في الإيمان بالله وبرسله .

وقطعناهم في الارض امما منهم الصالحون و منهم دون ذلك و بلوناهم بالحسنات و السيئات لعلهم يرجعون (١٦٨) .

أي فرّقناهم تفريقاً شديداً في الأرض اليهود كما أنّه نشاهد لا أرض مسكونة إلّا ومنهم فيها جماعة ، ثمّ قال : [منهم] أي من اليهود [الصالحون] الّذين تبعوا موسى لأنّه كان فيهم جماعة يهدون بالحقّ ، قال ابن عبّاس : المراد الّذين صدّقوا برسالة محمّد . وقوله : [ومنهم دون ذلك] المراد من أقام على اليهوديّة .

فإن قيل : يحتمل أن يكون المراد من قوله : « دون ذلك » من يكون صالحاً إلّا أنّ صلاحه كان دون صلاح الأوّلين ؟ قلنا : قوله : « لعلّهم يرجعون » يدلّ على أنّ المراد بذلك من ثبت على الكفر والتهوّد .

قوله : [وبلوناهم] أي عاملناهم معاملة المختبر بالنعم والخصب والعافية وبالجدب والقحط والشدائد لكي يرجعوا ويتوبوا .

قوله : فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق و درسوا مافيه والدار الاخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (١٦٩) والذين يمسكون بالكتاب و أقاموا الصلوة انا لانضيع اجر المحسنين (١٧٠) .

قال بعض أهل العربيّة : إنّ «الخلف والخلَف» يذكر في الصالح والرديء وبعض يقولون: بفتح اللام يستعمل في الصالح ، و بسكون اللام للرديء . المعنى : فخلف من بعد المذكورين

من اليهود بدل سوء في عصر رسول الله ﷺ ورثوا التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على مافيها يأخذون حطام الأدنى من الدنيا الدنيء، والمراد به ما يأخذونه من الرشا في الحكومات وعلى تحريف الكتاب [ويقولون سيغفر لنا] ولا يؤاخذنا الله بذلك .

قوله : [وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه] و المراد إصرارهم على هذا الأمر القبيح و عدم اكتفائهم بمرّة ؛ متىما أشرفوا على عرض و شيء من مال الدنيا أخذوه حلالاً كان أو حراماً .

ثمّ وبّخهم الله بقوله : [ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب] أي التوراة ، وقد حكموا في التوراة [أن لا يقولوا على الله إلّا الحقّ] ولا يغيّرونها لأجل أخذ الرشوة [ودرسوا] وقرؤوا وحفظوا ما في التوراة وماهم بناسين وجاهلين به ، ثمّ قال : [والدار الآخرة خير للّذين يتّقون] المخالفة ، والشهوة الخبيثة المحقّرة أفلا تفتهمون ؟ وضمير الالتفات تشديد في التوبيخ .

[والّذين يمسّكون بالكتاب] ويعملون به ولا يتجاوزون حكمه ولم يحرّفوه ولم يكتموه [وأقاموا الصلاة] وإنّما اُفردت الصلاة بالذكر لعلوّ مرتبتها . فإنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً .

قوله : وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون (١٧١) .

«النتق» قلع الشيء من موضعه والرمي به أي قلعناه من أصله وجعلناه فوقهم كأنّه ظلّة سقيفة و علموا و أيقنوا أنّه إن خالفوا يقع عليهم فرفع الله الطور على رؤوس مقدار عسكرهم ، و كان فرسخاً في فرسخ و قيل لهم : إن قبلتم أحكام التوراة فبها و إلّا ليقعنّ عليكم . فلمّا نظروا إلى الجبل خرّ كلّ واحد منهم على حاجبه الأيسر و هو ينظر بعينه اليمنى ، و كانوا يقولون : هي السجدة الّتي رفعت منّا العذاب .

[خذوا ما آتيناكم بقوّة] أي قلنا لهم : خذوا واعملوا ما آتيناكم من التوراة بقوّة وعزم وثبات على احتمال مشاقّه و تكاليفه [واذكروا ما فيه] من الأوامر و النواهي [لعلّكم] تحترزون المعصية ، و قيل : المعنى محتمل أن يكون : خذوا ما آتيناكم من هذه الآية العظيمة بقوّة إن كنتم تطيقونه فادفعوا عن أنفسكم وذلك كقوله : «إن استطعتم أن تنفذوا

من أقطار السماوات والأرض فانفذوا» (١)

واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيمة انا كنا عن هذا غافلين (١٧٢) أو يقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (١٧٣) و كذلك نفصل الايات و لعلهم يرجعون (١٧٤) .

واذ كرلهم يا محمّد إذ أخرج ربّك من ظهور بني آدم ذرّيّتهم . ولفظ «الذرّيّة» كالبشر يقع على الواحد والجمع .

واختلف العلماء من العامّة و الخاصّة في معنى الإخراج والإشهاد على وجوه :

أحدها أنّ الله أخرج ذرّيّة آدم من صلبه كهيئة الذرّ فعرضهم على آدم ، و قال : إنّي آخذُ على ذرّيّتك ميثاقهم أن يعبدوني و لايشركوا بي شيئاً وعليّ أرزاقهم .

ثمّ قال لهم : [ألست بربّكم قالوا بلى] شهدنا أنّك ربّنا فقال للملائكة : اشهدوا فقالوا : شهدناه .

والوجه الثاني أنّ الله جعلهم عقلاء فهماء يسمعون خطابه ويفهمونه ثمّ ردّهم إلى صلب آدم والناس محبوسون بأجمعهم حتّى يخرج كلّ من أخرجه في ذلك الوقت ؛ فكلّ من ثبت على الإسلام وهو على الفطرة الأُولى ومن كفر فقد تغيّر عن الفطرة الأُولى .

وروى المحقّقون هذا التأويل وقالوا : إنّه ممّا يشهد ظاهر القرآن بخلافه ؛ لأنّه تعالى قال : «وإذ أخذ ربّك من بني آدم» ولم يقل : من آدم وقال : «من ظهورهم» ولم يقل : من ظهره وقال : « ذرّيّتهم» ولم يقل «ذرّيّته» .

والقول الثاني أنّ المراد بالآية أنّ الله أخرج بني آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام أُمّهاتهم ، ثمّ رقاهم درجة درجة علقة ، ثمّ مضغة ثمّ أنشأ كلاًّ منهم بشراً سويّاً حيّاً مكلّفاً وأراهم آثار صنعه ومكّنهم من معرفة دلائل التوحيد حتّى كأنّه أشهدهم وقال لهم: ألست بربّكم ؟ فقالوا : بلى ؛ فعلى هذا يكون معنى «أشهدهم على أنفسهم» أي دلّهم بخلقه

---

(١) الرحمن : ٣٣ .

على توحيده ، وجعل في عقولهم مايدلّ على وحدانيّته فكأنّه بمنزلة المشهد بهم على أنفسهم وإن لم يكن هناك شهادة صورة حقيقة .

نظير قوله : «فقال لها وللأرض ائتياطوعاً أو كرها قالتا أتيناطائعين[١]» وإن لم يكن منه سبحانه قول ولا منهما جواب ومثله قوله تعالى : «شاهدين على أنفسهم بالكفر[٢]» ، ومعلوم أنّ الكفّار لم يعترفوا بألسنتهم لكنّه لمّا ظهر منهم ظهوراً لا يتمكّنون من إنكاره ودفعه فكأنهم اعترفوا به ، ومثله في الشعر كثير : « وقالت له العينان سمعاً وطاعة » و كقول القائل: جوارحي يشهد بنعمتك . و كما روي عن بعض الخطباء من قوله: سل الأرض من شقّ أنهارك و غرس أشجارك وأينع ثمارك إن لم يجبك خواراً أجابتك اعتباراً .

والقول الثالث أنّه تعالى إنّما عنى بذلك جماعة من ذرّيّة آدم خلقهم و أكمل عقولهم وقرّرهم على ألسن رسله بمعرفته فأقرّوا و أشهدهم على أنفسهم به لئلاّ يقولوا يوم القيامة : إنّا كنّا عن هذا غافلين أو يقولوا : إنّما أشرك آباؤنا من قبل فقلّدناهم في ذلك وعلى هذا القول الثالث يكون هذا الأمر في قوم خاصّ من بني آدم وهذا اختيار الجبّائيّ والقاضي عبدالجبّار .

وقوله : [شهدنا] قيل : حكاية عن قول الملائكة أنّهم يقولون : «شهدنا» وهذا القول في غاية الضعف وخلاف ماعليه المفسّرون؛ لأنّ سوق الآية من قوله « شهدنا » أنّ هذا القول من قول من قال : «بلى» على أنّ الملائكة لم يجر لهم ذكر في الآية .

وقوله : [أفتهلكنا بما فعل المبطلون] أي لئلاّ يقولوا: أفتهلكنا بما فعل آباؤنا من الشرك وتقديره : إنّا لانهلككم بمافعلوه و إنّما نهلككم بفعلكم أنتم [و كذلك نفصّل الآيات] أي كما بيّنّا تلك الآيات كذلك نميّزها ونفصّلها للعباد ليتمكّنوا من الاستدلال بها ليرجعوا من الباطل إلى الحقّ .

قال الفيض في الصافي في معنى قوله : « وإذ أخذ ربّك » يعني نشر حقائقهم بين يدي علمه فاستنطق الحقائق بألسنة قابليّات جواهرها واستعداد ألسن ذرّاتها فركّب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بالربوبيّة حتّى صار بمنزلة الإشهاد على طريق التمثيل نظير

(١) فصلت : ١٠ .
(٢) التوبة : ١٧ .

« أتينا طائعين » فكانوا بتلك القوّة العقليّة يسمعون الخطاب كما يسمعون الخطاب في الدنيا بالقوّة البدنيّة ، ولا يبعد أنّ ذلك النطق باللسان الملكوتيّ في العالم المثاليّ الّذي دون عالم العقل . وقول الفيض قريب من القول الثاني .

واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (١٧٥) ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هوىه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (١٧٦) .

أمر الله سبحانه بأن يقرأ على الناس خبراً آخر من قصّة بني إسرائيل . قال ابن عبّاس ومجاهد وابن مسعود : نزلت هذه الآية في بلعم بن باعورا ؛ لأنّ موسى عليه السلام قصد بلده الّذي هو فيه وغزا أهله وكانوا كفّاراً فطلبوا منه أن يدعو على موسى وقومه وكان مجاب الدعوة و عنده اسم الله الأعظم فامتنع منه فمازالوا يطلبون منه حتّى دعا عليه فاستجيب له ووقع موسى وقومه في الشدّة بدعائه فقال موسى : يا ربّ بأيّ ذنب وقعنا في الشدائد ؟ فقال : بدعاء بلعم بن باعورا فقال موسى : كما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه. ثمّ دعا موسى أن ينزع الله منه اسمه الأعظم والإيمان فسلخه الله ممّا كان عليه ونزع عنه المعرفة بسوء فعله فخرجت في صورة كحمامة بيضاء .

قال سعيد بن المسيّب وزيد بن أسلم وعبدالله بن عمر وأبوروق و أبو حمزة الثماليّ و جماعة من المفسّرين : إنّ هذه الآية نزلت في اُميّة ابن أبي الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم أنّ الله يرسل في ذلك الوقت رسولاً ورجا أن يكون هو فلمّا أرسل الله محمّداً حسده ، ثمّ مات كافراً ولم يؤمن بالله ، وهو الّذي قال فيه النبيّ : آمن شعره و كفر قلبه .

و قيل : نزلت في أبي عامر الراهب الّذي سمّاه النبيّ صلى الله عليه وآله بالفاسق كان يترهّب في الجاهليّة فلمّا جاء الإسلام خرج إلى الشام و أمر المنافقين باتّخاذ مسجد ضرار وأتى قيصر واستنجده على النبيّ صلى الله عليه وآله فمات هنالك طريداً وحيداً وقيل : نزلت في منافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون النبيّ صلى الله عليه وآله و قيل : هو عامّ فيمن عرض عليه الهدى فأعرض عنه .

قوله : [فانسلخ] أي فارق بالكلّيّة عمّا كان عليه وعرى.وذكر الآية لتحذير الناس عن مثل حالته . قوله : [و لو شئنا لرفعناه] بأن نحول بينه وبين الكفر قهراً و جبراً إلّا أنّ ذلك ينافي التكليف بينه وبين الكفر [ولكنّه أخلد إلى الأرض] ومال إلى الدنيا و مستلذّاتها من الضياع والأمتعة ، لأنّ الدنيا تطلق على الأرض ؛ لأنّ كلّ الأمتعة تحصل من الأرض في الدنيا ، واتّبع هوى نفسه [فمثله كمثل الكلب] شبّهه الله بالكلب [إن تحمل عليه يلهث] واللهث هو أنّ الكلب إذا ناله الإعياء عند شدّة العدو و شدّة الحرّ فإنّه يدلع لسانه من العطش و التعب إن تطرده يلهث و إن تتركه أيضاً يلهث لأنّ هذه الطبيعة صارت له عادة ، إن وعظته فهو ضالّ و إن تركته فهو ضالّ وهذا مثل المكذّبين بآيات الله لأنّهم كذّبوا محمّداً ولم يهتدوا لمّا جاءهم ونصحهم وهم مشركوا قريش . فاقصص و بيّن لهم لعلّ بعضهم يتّعظون .

ساء مثلاالقوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١٧٧).

بعد تمثيلهم الجماعة بالكلب تقدير الآية : ساء مثلاً مثل القوم.انتصب«مثلاً»على التمييز و«ساء» لازم متعدّ ، تقول : ساء الشيء وتقول : ساءه و«القوم» يمكن أن يكون مبتدءاً وجملة «ساء مثلاً» خبره ويمكن أن يكون «القوم» خبر المبتدأ محذوف لأنّك لمّا قلت : ساء مثلاً قيل لك : من هو ؟ قلت : القوم الموصوفون بالتكذيب وبظلم أنفسهم .

من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون (١٧٨) .

أي من يهديه الله إلى الثواب والجنّة فهو المهتدي طريق الرشد فيما كلّفه الله بيّن الله أنّه تعالى لا يهدي إلى الجنة في الآخرة إلّا من كان يأتي بما كلّف ومن يضلله عن طريق الجنّة [فاُولئك هم الخاسرون] و حاصل المعنى : من يهده الله فقبل و تمسّك بهداه فهو المهتدي ، و من يضلل بأن لم يقبل فهو الخاسر ، و ذلك بسبب عدم قبوله و سوء اختياره فاُخرج من الألطاف والهداية بهذا السبب فأبقاه بينه وبين ما اختاره ولم يمنعه عن الكفر عن البلخيّ وجماعة من المفسّرين وهذا معنى الإضلال لا كما فسّر الأشاعرة .

ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم اعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها اولئك هم الغافلون (١٧٩) .

لّما بيّن أمر الكفّار ، وضرب لهم الأمثال عقّبه بمصير مآلهم فقال : [ولقد ذرأنا لجهنّم] فقال : ولقد خلقناهم فكان عاقبتهم المصير إلى النار بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان واللاّم في قوله : «لجهنّم» لام العاقبة نحو قوله : «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً»(١) والمراد من أهل الآية كلّ من علم الله أنّه لايؤمن ويصير إلى النار . ومن المعلوم أنّ كثيراً من الآيات دالّة على أنّه سبحانه أراد من الكلّ الطّاعة والخير والصلاح قال الله : «إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله »(٢) وقال أيضاً : « و ما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله» (٣) وقال أيضاً : « هو الّذي ينزّل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظلمات إلى النور» (٤) وقال : «ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا» (٥) و قال : «وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» (٦) وقال : « يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم» (٧) وقال سبحانه : «وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون» (٨) وأمثال هذه الآيات كثيرة .

قالت المعتزلة : و نحن نعلم بالضرورة أنّه لا يجوز التناقض في القرآن و هذا أحد الدلائل على أنّه لايمكن حمل الآية في قوله : « ولقد ذرأنا لجهنّم » على ظاهرها .

والدليل الثاني : قال في هذه الآية : «لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها» وهو تعالى ذكر ذلك في معرض الذمّ لهم ، ولو كانوا مخلوقين للنّار لما كانوا قادرين على الإيمان ؛ فحينئذ يقبح ذمّهم على تركه الإيمان .

الوجه الثالث من الدليل وهو أنّه لو كان خلقهم للنّار لما كان له نعمة على أحد من الكفّار أصلاً ؛ لأنّ منافع الدنيا بالقياس إلى عذاب الآخرة كالقطرة في البحر و كان كمن دفع إلى إنسان حلواً مسموماً فإنّه لايكون منعماً عليه فكذا ههنا ، مع أنّ القرآن مشحون من بيان كثرة نعم الله على كلّ الخلق علمنا أنّ الأمر ليس كما ذكروه الأشاعرة في تفسير الآية ، واستدلّوا بها وأمثالها على صحّة مذهب الجبر ، على أنّ المدح والذمّ والثواب

(١) القصص : ٧ .
(٢) الفتح : ٨و٩ .
(٣) النساء : ٦٧ .
(٤) الحديد : ٩ .
(٥) الفرقان : ٦٢ .
(٦) « : ٢٥ .
(٧) ابراهيم : ١٢ .
(٨) الذاريات : ٥٦ .

والعقاب والترغيب والترهيب يبطل هذا المذهب الّذي ينصرونه ثمّ إنّه لو خلقهم للنّار لوجب أن يخلقهم ابتداءً في النّار ؛ لأنّه لافائدة في أن يستدرجهم إلى النار بخلق الكفر فيهم ؛ فثبت بهذه الوجوه أنّه لايمكن حمل الآية على ظاهرها بل إنّما اللاّم في الآية لام العاقبة لالام الأجل ، وله نظائر كثيرة في القرآن كما ذكرنا قبيل ذلك . وقدجاء في الشعر أيضاً نحو قولهم :

وللموت تغذو الوالدات سخالها ❊ كما الخراب الدهر تبنى المساكن .

وقال الآخر :

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ❊ و دورنا لخراب الدهر نبنيها .(١)

قوله : [لهم قلوب لايفقهون بها] الحقّ ؛ لأنّهم لايتدبّرون بيّناته [و لهم أعين لا يبصرون بها] رشدهم [ولهم آذان لايسمعون بها] ويعرضون عن استماعها ، والمراد أنّه سلب عنهم إدراكاتهم بسبب غفلتهم عن حججي وآياتي ، وبسبب شهوات أنفسهم .

قوله : و لله الاسماء الحسنى فادعوه بها و ذروا الذين يلحدون فى اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون (١٨٠) .

ودع الّذين يعدلون بأسماء الله غير الأسماء فيسمّون بها أصنامهم بالتحريف والزيادة والنقصان ؛ فاشتقّوا اللات من الله ، والعزّى من العزيز ، ومناة من المنّان ، ويصفون الله بما لايليق وما لايجوز . ويشمل هذا قول النصارى بتسمية المسيح ابن الله واليهود بتسمية العزير ابن الله . سيجزون هؤلاء بعملهم .

ونظم الآية أنّه لمّا وصف الغافلين بورود جهنّم أمر وبيّن ما يوجب التخلّص عن عذاب الله فليدعون الله بأسمائه ، فإنّ الجماد لايخاطب بالأُلوهيّة ؛ فانّ الإنسان إذا وجّه قلبه ولسانه إلى ذكر خالقه وإطاعة أوامره ودعاه كما هو سمّى نفسه تخلّص عن الدركات ، وتباعد عن حضيض الشهوات واستشعر بمعرفة خالقه .

والمراد من الأسماء الحسنى نعوت الجلال وهي محصورة في نوعين : عدم افتقاره إلى غيره وثبوت افتقار غيره إليه ، و يشتقّ من هذين النوعين أسماء لانهاية لها ؛ لأنّ الاسم إمّا

---

(١) ومنه ايضا : لدوا للموت وابنوا للخراب .

اسم الذات فهو المسمّى بالاسم الأعظم ، وإمّا اسم لصفة خارجة عن الذات قائمة بهافكونه تعالى موصوفاً بصفة فاعليّته لما ينبغي وغيرفاعل لما لاينبغي تحقّق الثوابت والسلوب فيحصل بسبب هذا النوعين من الاعتبارات أسماء لانهاية لها ؛ لأنّ مقدوراته غيرمتناهية . وهذا بحر لاساحل له فلا نهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله : ما عرفناك حقّ معـرفتك .

وبالجملة «الحسنى» تأنيث الأحسن أي ادعوا الله بأحسن الأسماء وأجلّها . واللحـد والإلحاد الانحراف . وقرىء «يلحدون» من الثلاثي أي يميلون في شأن الأسماء عن الحقّ إلى الباطل إمّا بأن يسمّوه تعالى بما لا يليق و مالا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسداً ؛ قال أبوعبدالله عليه السلام : نحن والله الأسماء الحسنى فادعوه بها .

وتقديم الخبر في قوله : «ولله الأسماء» يدلّ على الحصر ؛ في الكافي عن الرضا عليه السلام إنّ الخالق لايوصف إلّا بما وصف به نفسه،وأنّى يوصف الّذي يعجز الحواسّ أن تدركه والأوهام والخواطر أن تناله وتحدّه ؟ جلّ عمّا يصفه الواصفون وتعالى عمّا ينعته الناعتون؛ الحديث . العيّاشيّ عن الرضا عليه السلام قال : إذا نزلت بكم شدّة فاستعينوا بنا .

وبالجملة فالأسماء توقيفيّ فمتى ثبت أنّه ما ورد من الشارع لايجوز أن يسمّى تعالى به والأسماء الحسنى منها مايرجع إلى صفات ذاته كالعالم والقادر والإله والحيّ والقديم، ومنها ماهي صفات فعله كالخالق والرازق والمحيي والمميت .

قوله : وممن خلقنا امة يهدون بالحق و به يعدلون (١٨١) .

لمّاقال : «ولقد ذرأنا لجهنّم» كذلك يقول : [وممّن خلقنا اُمّة] وعصبة يدعون الناس إلى دينه وهو الحقّ وبالحقّ يحكمون .

واعلم أنّه لمّا ذكر سبحانه في قصّة موسى قوله : « و من قوم موسى اُمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون» وأعاد الله سبحانه في هذه الآية حمله أكثر المفسّرين على أنّ المراد منه اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله ، عن قتادة وابن جريج . عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : إنّها هذه الاُمّة . قال ابن عبّاس : يريد المهاجرين والأنصار ، ومن المعلوم أنّ المراد بعضهم ، قال الجبّائيّ هذه الآية تدلّ على أنّه لايخلو زمان ممّن يقوم بالحقّ ويعمل به ويهدي إليه . روى العيّاشيّ بإسناده

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : والّذي نفسي بيده ليفترقنّ هذه الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النار إلّا فرقة واحدة ؛ و ممّن خلقنا أمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون فهذه الّتي تنجو . وروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله الصادق عليهما السلام أنّهما قالا : نحن هم .

قوله : والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (١٨٢) واملى لهم ان كيدى متين (١٨٣) اولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الانذير مبين (١٨٤) اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وماخلق الله من شيء وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم فباى حديث بعده يؤمنون (١٨٥) من يضلل الله فلاهادى له ويذرهم في طغيانهم يعمهون (١٨٦) .

وقرىء «ونذرهم» بالنون .

النظم : لمّا ذكر الله في الآية السابقة المؤمنين بمحمّد ـ صلى الله عليه وآله ـ ذكر حال المكذّبين به وبآياته فقال :

[و الّذين كذّبوا بآياتنا] الّتي هي القرآن و المعجزات الدالّة على صدق النبيّ صلى الله عليه وآله و كفروا بها [سنستدرجهم] أي نقرّبهم إلى عذاب الآخرة درجة إلى أن يقعوا فيه وأصله من الدرجة . وقيل : معناه : سنطويهم في الهلاك ونرفعهم من وجه الأرض فيكون معناه مأخوذاً من الدرج بمعنى الطيّ . وقيل معناه : كلّما جدّدوا خطيئة جدّدنالهم نعمة وجعل الاستدراج جزاءً على كفرهم .

وما فسّره المجبّرة غلط فاسد ؛ فإنّه كيف يخلق فيهم الكفر ويخلق فيه كفراً آخر ويكون الكفر فعله وهو يعاقب بفعل نفسه ؟!

قوله : [وأُملي لهم] معناه : وأُبقيهم في الدنيا مع إصرارهم على الكفر ، و أُمهلهم ولا أُعاجلهم بالعقوبة ؛ لأنّهم لايفوتونني [إنّ كيدي] و عذابي غليظ محكم . و سمّاه كيداً لنزوله من حيث لايشعرون .

قوله : [أولم يتفكّروا ما بصاحبهم من جنّة] الجنّة حالة من الجنون كالجلسة . ودخل كلمة «من» لإفادة أنّه ليس به نوع من أنواع الجنون ، و ذلك بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قام ليلاً على الصفا يدعو فخذاً فخذاً من قريش يقول : يابني فلان يابني فلان وكان يدعوهم إلى توحيد الله ويخوّفهم من عذاب الله وواظب طول ليلته إلى الصباح فقال بعضهم لبعض : إنّ صاحبكم هذا لمجنون .

وقيل : إنّه ﷺ عند نزول الوحي تغشاه حالة عجيبة يتغيّر وجهه و يصفرّ لونه ويعرض له حالة شبيهة بالغشي فالجهّال كانوا يقولون : إنّ به جنوناً فالله يقول : إنّهم لايتأمّلون أنّ هذا النبيّ الحسن الخلق ، مرضيّ الطريقة ، طيّب العشرة ، نقيّ السيرة ، مواظباً على المكارم كيف يتصوّرون في حاله الجنون ؟

ولمّا كان شأنه الدعوة إلى الدين كان نذيراً مبيناً لهم أمرهم .

ولمّا كان أمر النبوّة متفرّعاً على تقدير دلائل التوحيد عقّبه بذكر ما يدلّ على التوحيد ؛ قوله : [أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض].

ثمّ قال :[وماخلق الله من شيء]المقصود أنّ دلائل التوحيد غير مقصورة على السماوات والأرض ، بل كلّ ذرّة من ذرّات الوجودمن عالم الأجسام والأرواح شاهد معرفته وبرهان باهر ودليل قاهر .

وذلك لأنّ وقوع كلّ ذرّة من الذرّات بحيّز معيّن مع أنّ الأحياز غيرمتناهية كما أنّ الأجسام غير متناهية يدلّ على وجود محيّز ومخصّص وهوالله .

ولمّا قرّر هذه الدقيقة أردفه بما يوجب الترغيب في الإتيان بالنظر والتفكّر فقال : [وإن عسى أن يكون قداقترب أجلهم] وتقديره : وإنّه عسى ، والضمير ضمير الشأن والمعنى: لعلّ آجالهم قربت فهلكوا على الكفر وإذا كان هذا الاحتمال قائماً فيوجب على العاقل المسارعة إلى هذه الفكرة وتخليص النفس من هذاالخوف الشديد .

ثمّ قال سبحانه : [فبأيّ حديث] بعدهذا القرآن وهذه الدلائل [يؤمنون] ؟

والآية تدلّ على حدوث القرآن ، ولفظ الحديث يفيد من جهة اللّغة و من جهة الاصطلاح والعادة حدوثه عن قرب ؛ يقال : إنّ هذاالشيء حديث وليس بعتيق ؛ فيجعلون الحديث ضدّ العتيق الّذي طال زمانه وزمان وجوده .

قوله : [من يضلل الله فلا هادي له] عاد إلى ذكر المكذّبين الضالّين . المعنى : من اختار الضلالة على الهدى بسوء اختياره وأبقاه الله على ضلالته وخلّى بينه وبين اختياره فلاهادي له ، ويدعهم في عمههم وتحيّرهم . والعمه في القلب كالعمى في البصر . و إذا قرىء بالنّون فجملة مستأنفة .

يسئلونك عن الساعة أيان مرسها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت فى السموات والارض لا تاتيكم الا بغتة يسئلونك كانك حفى عنها قل انما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون (١٨٧) .

النظم: لمّا قال سبحانه « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » ترغيباً في مسارعة التوبة قال بعده :

[يسألونك عن الساعة] ليتحقّق أنّ وقت الساعة مكتوم عن الخلق فيصير ذلك حاملاً للمكلّفين على أداء الواجبات وقيل : إنّ قوماً من اليهود جاؤوا إلى النبيّ ﷺ وقالوا : يا محمّد أخبرنا عن الساعة متى هي إن كنت نبيّاً ؟ فنزلت الاية وقيل : إنّ قريشاً سألوا هذا السؤال . قال صاحب الكشّاف : الساعة من الاسماء الغالبة للقيامة كالنجم للثريّا و سمّيت القيامة بالساعة لأنّ حساب الخلق يقضى في ساعة واحدة أو لوقوعها بغتة .

«أيّان» معناه الاستفهام عن زمان المستقبل بمعنى متى وأصله أيّ آن . و«أرسى» اى اثبت ولا يستعمل إلّا في الشيء الثقيل و «أيّان» خبر مقدّم و«مرساها» مبتدأ مؤخّر .

[قل إنّما علمها عند ربّي] ولا يعلمه غيره ، و قوله : [ولا يجلّيها لوقتها] بيان لاستمرار تلك الحالة إلى حين قيامها وإقناط كلّي للكلّ في عدم العلم بوقتها لاقتضاء الحكمة التشريعيّة كإخفاء الأجل قوله :[ثقلت في السماوات والأرض] أي ثقلت وقوع القيامة على السماوات والأرض لأجل أنّ عند مجيئها شقّقت السماوات وتكوّرت الشمس والقمر وانتثرت النجوم وتبدّل الأرض غير الأرض وتندكّ الجبال وتفنى البحار ، وثقيل هذا اليوم على أهل السماوات فضلاً على أهل الأرض،لأنّ فيه فناءهم ، وثقيل على القلوب من الخوف وقيل معنى ثقلت : خفيت واقعتها .

ثمّ قال سبحانه : [لا تأتيكم إلّا بغتة] على حين غفلة من الخلق قال النبيّ ﷺ : يفجأ الناس والرجل يسقي ماشيته ويصلح موضعه ويقوم بسلعته في السوق والرجل يطفىء نيرانه و يرفعه قال ﷺ و الّذي نفسي بيده لتقومنّ الساعة و الرجل ليرفع اللقمة إلى فيه حتى تحول الساعة بينه وبين ذلك .

[يسألونك كأنّك حفيّ عنها] المراد يعني أنّك أكثرت في المسألة عنها و تتبّعت و

علمت وقتها . وهو من الإحفاء وهو الإلحاح في السؤال [قل] يا محمد ﷺ : [إنّما علمها عندالله] أمره سبحانه بإعادة الجواب الأوّل تأكيداً للحكم بعدم العلم وتمهيداً للتعريض بجهلهم بقوله : [ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون] لعلّة اختصاص هذا العلم به تعالى .

قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون (١٨٨) .

النظم : روي أنّ أهل مكّة قالوا : يا محمّد ألا يخبرك ربّك بالرخص والغلاء حتى تشتري فتربح، وبالأرض الّتي تجدب لترتحل إلى الأرض الخصبة ؟ فنزلت الآية وقيل : إنّ النبيّ ﷺ لمّا رجع من غزوة بني المصطلق وجاءت ريح في الطريق نفرت الإبل والدوابّ منها فأخبر النبيّ ﷺ بموت رفاعة بالمدينة وكان فيه غيظ المنافقين و قال : انظروا أين ناقتي ؟ فقال عبدالله بن اُبيّ : ألا تعجبون من حال هذا الرجل يخبر بموت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته ؟ فقال ﷺ : إنّ ناساً من المنافقين قالوا كيت و كيت وناقتي في هذا الشعب قد تعلّق زمامها بشجرة فوجدوها على ما قال رسول الله ﷺ فاُنزل الآية .

أي ما بيدي واختياري من أمر إلّا بإذن الله ولا أعلم إلّا بتعليمه إيّاي وما أنا إلّا نذير لكم من عذاب الله وبشير لكم برضوان الله لقوم آمن بالله وصدّق بنبوّتي وما أقدر على شيء إلّا ما أقدرني الله عليه .

هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين (١٨٩) فلما آتيهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتيهما فتعالى الله عما يشركون (١٩٠) .

لمّا تقدّم ذكر الله ذكر عقيبه التوحيد وإبطال الشرك فقال : [هو الّذي خلقكم] الخطاب لبني آدم [من نفس واحدة] أي آدم [وجعل] من جنسها أو من جسدها على قول : و«جعل» بمعنى خبر أو انشاء [زوجها] أي حوّا ليستأنس بها فلمّا أصابها وجامعها ـ والغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشاها إذا علاها ، و ذلك لأنّه إذا علاها فقد صار كالغاشية لها و يجلّلها وهو يشبه التغطّي ـ [حملت حملاً خفيفاً] يريد حمل النطفة لأنّها في أوّل الأمر خفيفة

[فمرّت به] أي استمرّت بالماء والحمل على سبيل الخفّة أي تقوم و تقعد وتمشي من غير ثقل وقرىء « فمرت به » بالتخفيف وقرىء « فمارت به » أي ارتابت بالحمل .

[فلمّا أثقلت] ودنت ولادتها [دعوا الله ربّهما] أي آدم وحوّاء : [لئن آتيتنا صالحاً] سويّاً مثلنا [لنكوننّ من الشاكرين] لنعمائك .

[فلمّا آتاهما] الله [صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما] واختلف في ضمير «جعلا» في تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي و العيّاشي عن الباقر عليه السلام : الضمير راجع إلى آدم وحوّاء : أي كان شركهما شرك طاعة لا شرك عبادة .

قيل : لمّا آتاهما الولد الصالح عزما على أن يجعلاه وقفاً على طاعة الله و عبوديّته ثمّ بدا لهما في ذلك فتارة ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعها وتارة بخدمة الله و عبادته و هذا العمل وإن كان منّا قربة وطاعة إلّا أنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين فلهذا قال : [فتعالى الله عمّا يشركون] هذا أحد الأقوال .

وقيل : إنّه يرجع الضمير إلى أولاد هذ الصالح الّذي آتاهما و المراد بعض ذرّيّة هذا النسل الصالح ، وإنّما ثنّى لأنّ حوّاء كانت تلد في كلّ بطن ذكراً و اُنثى فحاصل المعنى أنّ هذا النسل الّذين هم ذكر و اُنثى جعلا لله شركاء فالمراد من الجاعلين الّذين اتّخذ الآلهة من الأوثان من أولاد آدم ، و لذلك أتى بضمير الجمع في قوله « يشركون » و باعتبار الذكوريّة والإناثيّة أو باعتبار أنّهم من أصلين عبر بالتثنية .

و قد روى بعض العامّة في تفسير هذه الآية مالا يليق بالأنبياء وهو أن حوّاء لمّا ثقلت بالحمل أتاها إبليس في صورة وقال : ما هذا يا حوّاء إنّي أظن أن يكون كلباً أو بهيمة ومايدريك أن يخرج من دبرك فيقتلك أو من بطنك فخافت حوّاء وذكر ذلك لآدم فلم يزالا في همّ من ذلك ثمّ أتاها إبليس و قال : إن سألت الله أن يجعله صالحاً سويّاً مثلك ويسهل خروجه من بطنك فسمّيه بعبدالحارث وكان اسم إبليس الحارث عند الملائكة فلمّا آتاهما الله ولداً سويّاً جعلاله شركاء أي جعل آدم وحوّاء شريكاً له والمراد بالشريك الحارث .

قال الرازيّ : وهذا القول فاسد لوجوه :

الأوّل أنّه تعالى قال بعده: «تعالى الله عمّا يشركون» وذلك يدلّ على أنّ الّذين أتوا بالشرك جماعة.

الثاني أنّه تعالى قال بعده: «أيشركون مالا يخلق شيئاًوهم يخلقون» وهذا يدلّ على أنّ المقصود من هذه الآية الردّ على من جعل الأصنام شركاء لله و ماجرى لإبليس ذكر في الآية.

الثالث: لوكان المراد من الشركاء إبليس لقال: يشركون من لا يخلق فإنّ الغالب أن يذكر العاقل بصيغة «من» لا بصيغة «ما».

الرابع أنّ آدم كان أشدّ عداوة لإبليس و أعرف بعداوة إبليس له وكان عالماً بجميع الأسماء، فلابدّ وأن يعلم أن اسم إبليس الحارث فمع تلك العداوة الشديدة والعلم الكامل كيف سمّى ولده بعبد الحارث؟ وأنّ آدم بسبب الزلّة الّتي وقعت منه وحصول التجربة كيف لم يتنبّه لهذا مع أنّه كان نبيّاً؟ ومع علمه بالأسماء حيث يقول: «وعلّم آدم الأسماء كلّها»(١).

ثمّ بتقدير أنّ آدم سمّاه بعبد الحارث فلا يخلو أنّه إمّا أن جعل هذا اللّفظ علماً له أو جعله صفة له فإن كان الأوّل لم يكن هذا شركاً بالله لأنّ أسماء الأعلام لايفيد في المسمّيات فائدة فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الشرك وإن كان الثاني كان هذا قولاً بأن آدم اعتقد أنّ لله شريكاً في الإيجاد والتكوين وذلك موجب للقول بتكفير آدم فثبت فساد هذا القول.

وفي العيون عن الرضا عليه السلام: ثمّ إنّ حوّا ولدت لآدم خمسمائة بطن في كلّ بطن ذكراً وأُنثى وأنّ آدم وحوّاء دعواه وعاهداه «لئن آتيتنا صالحاً لنكوننّ من الشاكرين» فلمّا آتاهما صالحاً من النسل خلقاً سويّاً بريئاً من العيب والزمانة كان ما آتاهما صنفان ذكراً وأُنثى فالصنفان جعلا شركاء لله فيما آتاهما ولم يشكرا الله كشكر أبويهما، قال الله «فتعالى الله عمّا يشركون» فقال المأمون: أشهد أنّك ابن رسول الله انتهى.

وفي قوله: «خلق منها زوجها» قال بعض: يقتضي ظاهر الآية كون حوّاء مخلوقة

---

(١) البقرة: ٢٩.

من نفس آدم ويقولون : خلقها من ضلع من أضلاع آدم ، ويقولون : الحكمة فيه أنّ الجنس إلى الجنس أميل والجنسيّة علّة الضمّ .

قال الرازيّ : هذا الكلام مشكل ؛ لأنّه تعالى لمّا كان قادراً على أن يخلق آدم ابتداءً فما الّذي حملنا على أن نقول أنّه خلق حوّاء من جزء من أجزاء آدم ؟ ولم لا يقولوا : إنّه تعالى خلق حوّاء أيضاً ابتداء ؟ لأنّ الّذي يقدر على خلق إنسان من عظم واحدة يقدر على خلقه ابتداء بقي أنّ إذا لم نقل بذلك فما المراد من كلمة «من» في قوله : « وخلق منها زوجها» نقول : الإشارة إلى الشيء تارة يكون بحسب شخصه وأُخرى بحسب نوعه قال عليه السلام هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة الّا به وليس المراد ذلك الفرد المعيّن بل المراد ذلك النوع والمراد: خلق من نوع الإنسان زوجته .

قوله : ايشركون مالايخلق شيئاوهم يخلقون (١٩١) و لايستطيعون لهم نصراً ولاانفسهم ينصرون (١٩٢) وان تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم سواءعليكم ادعوتهم أم انتم صامتون (١٩٣) ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين (١٩٤) .

هذه الآية من أقوى الدلائل على أنّه ليس المراد بقوله : «تعالى الله عمّا يشركون» ما ذكروه من قصة إبليس ؛ إذ لو كانت قصّة إبليس صحيحة لكانت هذه الآية أجنبيّة عنها بالكلّيّة بل المراد من الآية السابقة الردّ على عبدة الأوثان قوله [يشركون] المراد أنّ الاصنام لا يصلح للالهيّة أي أيعبدون مالا يقدر على أن يخلق و هو مخلوق ؟ وأفرد في قوله «يخلق» لأنّ لفظة «ما» يقع على الواحد والجمع وجمع سبحانه بقوله : «يخلقون» مراعاة لجانب المعنى وهي الأصنام .

فلو قيل : إنّ الجمع بالواو والنون للعاقل والأصنام لاتعقل ؟ فالجواب أنّ المشركين بزعمهم أنّها تعقل فحكى الآية زعمهم السخيفة ؛ نظيره «يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم»(١)

وحاصل الكلام أنّ المعبود يجب أن يكون قادراً على ايصال النفع و دفع الضرر و هذه الأصنام ليست كذلك .

---

(١) النمل : ١٨ .

ثمّ أكّد هذا المعنى بقوله تعالى: [سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون] وعطف الجملة الإسميّة على الفعليّة لثبوت الاستمرار في الجملة الاسميّة وحصول التجدّد والحدوث في الجملة الفعليّة أي إذا تتضرّعون للأصنام لرفع المعضلات عنكم ساعة فساعة أو تكفّون لافرق في الأثر لأنّ المشركين كانوا إذا وقعوا في شديدة تضرّعوا إلى أصنامهم ، و إذا لم تحدث حادثة سكتوا فقال سبحانه:

[إنّ الّذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم] فلو قيل : إنّ الجماد كيف يحسن وصفها بالعباد فهذا المعنى ورد على وفق معتقدهم بأنّها عاقلة فاهمة فقال الله لهم على سبيل التهكّم : إن كان الأمر كذلك فهم أيضاً عباد أمثالكم وأنتم عبيد فلمَ جعلتم أنفسكم عبيداً لهم بل أنتم وهم فرضكم سواء فلمَ جعلتموهم آلهة وأرباباً ثمّ قال : [فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم] بزعمكم [صادقين] .

ثمّ شرح عجز الأصنام بقوله تعالى: [ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثمّ كيدون فلا تنظرون] بيان نوع آخر من تقرير قباحة عبدة الأصنام فذكر قوى أربعة تنبىء عن القوّة والحياة و الإدراك و كلّها مسلوبة ، و حاصل الآية أنّ المعبود أعجز من العابد فكيف يليق ذلك بالأشرف أن يعبد الأخسّ ؟ وكانوا يخوّفون الرسول بآلهتهم بأنّها تفعل كيت فقال سبحانه تعالى: [قل] لهم يا محمّد ﷺ لاتمهلوني وأعجلوا في كيدي مع آلهتكم [ادعوا شركاءكم ثمّ كيدون فلا تنظرون] و كيدون بحذف الياء بسب أنّ الفواصل تشبه القوافي فيحذفوها ويبقوها على الأصل .

ان وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين (١٩٦) والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون (١٩٧) وان تدعوهم الى الهدى لايسمعوا وتريهم ينظرون اليك وهم لايبصرون (١٩٨) .

والمعنى ان ناصري الله الّذي نزل القرآن ويؤيّدني بنصره كما انزل القرآن عليّ و هو ينصر المطيعين له المجتنبين معاصيه تارة بالدفع عنهم واُخرى بالحجّة والّذين تدعونه من غير الله لايستطيعون نصرتكم ولا نصرة أنفسهم [وإن تدعوهم إلى الهدى] قيل: المعنى: وإن

دعوتهم هؤلاء الّذين تعبدونهم من الأصنام إلى المنافع والرشد [لا يسمعوا دعاءكم] فضلاً عن المساعدة وهذا القول أبلغ في نفي الاتّباع .

قوله : [وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون] بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع ترى الأصنام يشبهون الناظرين إليك ويخيّل إليك أنّهم يبصرون لمّا أنّهم صنعوا لها أعيناً مركّبة من الجواهر المضيئة المتلألئة وصوّروها بصورة من يقلّب والحال أنّها لا تبصر وحينئذ الرؤية بمعنى الحسبان واردة .

وقيل : المعنى وإن دعوتم المشركين إلى الدين لا يسمعوا دعاءكم ينظرون إليك . ضمير الجمع راجع إلى المشركين الّذين هم عمي القلب ولفظ «وليّي» بثلث ياءات ياء فعيل وهي ساكنة والثانية لام الفعل وهي مكسوره قد ادغمت الاُولى منها فصارت مشدّدة والثالثة ياء الإضافة وقرىء وليّ الله بياء مشدّدة و حذف ياء الّتي هي لام الفعل ثمّ اُدغمت ياء فعيل في ياء الإضافة فقيل وليّ الله وهذه الفتحة فتحة ياء الإضافة و الباقون جازوا اجتماع ثلث ياءات .

قيل : إنّ رجلاً من الصالحين ما كان يدخّر لأولاده شيئاً مع أنّه كان من الأغنياء فقيل له في ذلك فقال : ولدي إن كان من الصالحين فوليّه الله بموجب هذه الآية ومن كان وليّه الله فلا حاجة له في مالي وإن كان من المجرمين فقد قال الله «فلن أكون ظهيراً للمجرمين [١]» ومن ردّ الله لم أشتغل بإصلاح مهمّاته .

خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (١٩٩) .

لمّا بين أنّه يتولّى الصالحين بيّن في هذه الآية الصلاح و حقيقته فقال : [خذ العفو] قال أهل اللغة : «العفو» الفضل وما أتى من غير كلفة إذا عرفت هذا فالحقوق مطلقاً إمّا أن يجوز فيها المسامحة والمساهله و إمّا لا يجوز : أمّا الفرد الأوّل فهو المراد بقوله : «خذ العفو» ويدخل فيه ترك التشدّد في كلّ ما يتعلّق بالحقوق الماليّة ، ويدخل فيه التخلّق مع الناس بترك الغلظة والمعاشرة بالخلق الطيّب ، ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى دين الحقّ باللطف والرفق .

---

(١) القصص : ١٦ .

والقسم الثاني وهو الّذي لايجوز فيه المساهلة فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف و هو كلّ خصلة حميدة بيّنها الشارع وتعرف صوابها العقول السليمة فعلّم رسوله في هذه الآية بمحاسن الأفعال ومكارم الخصال .

روي أنّه لمّا نزلت هذه الآية سأل رسول الله جبرئيل عن ذلك فقال جبرئيل : لاأدري حتّى أسأل العالم ثمّ أتاه فقال : يا محمّد ﷺ إنّ الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك و تعطى من حرمك وتصل من قطعك [وأمر بالعرف] وهو كلّ ماحسن في الشرع والعقل ولم يكن منكراً [وأعرض عن الجاهلين] بعد قيام الحجّة عليهم إذا قابلوك بالسفه صيانة على قدرك ولمّا نزلت هذه الآية قال : يارب كيف والغضب فنزل قوله : [وامّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنّه سميع عليم] (٢٠٠) نزغ الشيطان عبارة من وساوسه ونخشه[1] في القلب بما يسوّل للإنسان من المعاصي و نزغت بين القوم إذا أفسدت ما بينهم وقيل : «النزغ» الازعاج و هو الحركة إلى الشرّ وأكثر مايكون عند الغضب .

ولمّا كان من المعلوم أنّ عند إقدام السفيه على السفاهة يهيّج الغضب فعند ذلك يجد الشيطان مجالاً فينزغ ويحرّك الإنسان على مالاينبغى ؛ فقال سبحانه دواء هذا الداء بقوله : [فاستعذ بالله] وهو أن يتفكّر الإنسان عظم نعمته و شديد عقابه و هو التذكّر يدعوه إلى الإعراض عن مقتضى الطبع والغضب وبهذا النصّ ثبت أنّ لهذه الاستعاذة أثراً في دفع نزغ الشيطان فالمواظبة على هذا الأمر لازمة في أكثر الأحوال [إنّه سميع] بدعائك [عليم] بحالك .

ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون (٢٠١) و اخوانهم يمدونهم في الغى ثم لايقصرون (٢٠٢) .

وصف سبحانه حال المتّقين من نزغ الشيطان فقال : إنّه [إذا مسّهم طائف من الشيطان] من طاف به الخيال وألمّ به وأحاط كأنّها تطوف وتدور حولهم لتوقعهم بالمهلكة [تذكّروا] بالاستعاذة واستعاذوا به تعالى وتوكّلوا عليه [فإذاهم] بسبب ذلك التذكّر والاستعاذة [مبصرون] واقع الخطاء ومكائد اللعين ومعنى «إذا» ههنا للمفاجاة .

---

(١) نخشه : حثه على امر .

وقوله : [وإخوانهم] الضمير إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأوّل أي إخوان الشياطين من الإنس يعينون شياطين الجنّ في إغواء الناس في الإضلال ثمّ لا يكفّون و لا يقصرون عن الضلال و الإضلال . والقول الثاني أنّ الضمير راجع إلى الكفرة وشياطينهم يكونون مدداً لهم في الإغواء فإن لكلّ كافر أخاً من الشيطان و لانّ للمؤمن ايضاً شيطاناً لكنّه ليس بأخ له .

قوله : واذالم تاتهم باية قالوا لولا اجبيتها قل انما اتبع مايوحى الى من ربى هذا بصائر من ربكم و هدى ورحمة لقوم يؤمنون (٢٠٣) .

بيان نوع آخر من ضلالات الكافرين وهو أنّهم كانوا يطلبون آيات ومعجزات على سبيل الاقتراح والتعنت مثل قولهم : «لن نؤمن لك حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً»[١] و أمثاله فقال : وإذا لم تأت بآية الّتي هم اقترحوها قالوا : هذا اقترحت على إلهك إن كنت صادقاً في أنّ الله يقبل دعاءك فعند هذا أمر نبيّه أن يذكر لهم الجواب الشافي بقوله :

[قل] لهم يا محمّد ﷺ : [إنّما أتبع ما يوحى إليّ] وليس لي أن اقترح على ربي في الأمور بل إنّما أنتظر الوحي فكلّ شيء أمرني وأكرمني به قلته وإلّا فالواجب السكوت ثمّ بيّن أنّ عدم الإتيان بما يقترحون لا يقدح في الغرض لأنّ هذا القرآن معجزة بالغة في تصحيح أمر النبوّة فكان طلب الزيادة من باب التعنّت لأنّ القرآن سبب لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوّة والمعاد تسمية للسبب باسم المسبّب وبه الكفاية لأنّه سبب الهدى والبصيرة لمن آمن به والقرآن في حقّ الّذين بلغوا في معارفه غاية إلى حيث صاروا كالمشاهدين فهم أصحاب عين اليقين ، والّذين ما بلغوا إلى ذلك الحدّ ولكنّهم وصلوا إلى درجات المستدلّين بدلائل التوحيد والنبوّة ؛ فهم أصحاب علم اليقين . فالقرآن في حقّ الطائفة الأولى بصائر وفي حقّ القسم الثاني هدى وهداية ، وفي حقّ عامة من أمن به رحمة و لمّا كانت الفرق الثلاثة من المؤمنين لاجرم خصّهم بذكر الإيمان لأنّهم المنتفعون به دون الكفّار .

وفي هذه الآية دلالة على أنّ أفعال النبيّ وأحواله تابع للوحي والقرآن وأنّه لا يجوز العمل بالرأي والقياس .

---

(١) الاسراء : ٩٢ .

واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون (٢٠٤).

لمّا بيّن شأن القرآن بقوله : « بصائر من ربكم » أردفه بقوله : [واذا قرىء القرآن] والإنصات السكوت والكفّ عن الكلام ، وفيه أقوال واختلاف في وجوب الأمر بالاستماع و تدبه و كذا في وقت القراءة فقيل : حكم الإنصات والاستماع في وقت الصلاة خاصّة خلف الإمام الّذي يؤتمّ به إذا سمعت قراءته ، وهذا القول عن ابن عبّاس وابن مسعود وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب ومجاهد والزهريّ ، وروي ذلك عن الباقر عليه السلام .

قالوا : وكان المسلمون يتكلّمون في صلاتهم ويسلّم بعضهم على بعض ، وإذا دخل داخل فقال لهم : كم صلّيتم ؟ أجابوه فنهوا عن ذلك وأُمروا بالاستماع ، وقيل : إنّه في الخطبة أُمروا بالإنصات والاستماع إلى الإمام يوم الجمعة وقيل : إنّه في الخطبة وفي الصلاة أيضاً .

وقال الشيخ أبو جعفر الطوسيّ : أقوى الأقوال القول الأوّل . و روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : يجب الإنصات للقرآن في الصلاة وغيرها ، قال الشيخ : وذلك على وجه الاستحباب . وفي الآية قول آخر وهو أنّ قوله : « واذا قرىء القران فاستمعوا له وأنصتوا » خطاب للكفّار يمكن أن يكون أمر الله الكفّار بالاستماع والإنصات إذا قرأ النبيّ القرآن في حالة الصلاة أو غيرها حتّى يقفوا على ما فيه من البيان والمعنى والفصاحة ويحيطوا بما فيه من العلوم فيظهر لهم حينئذ كونه معجزاً دالّاً على صدق نبوّته وأمّا ما روي عن أئمّتنا عليهم السلام أنّ هذا الأمر محمول على الاستحباب .

قوله : واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو و الاصال و لا تكن من الغافلين (٢٠٥) ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه و له يسجدون (٢٠٦) .

الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله ، والمراد به عامّ ، وقيل : الخطاب لمستمع القرآن أي اذكر ربّك في نفسك بالكلام من التسبيح والتهليل والتحميد . روى زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال : معناه إذا كنت خلف الإمام تأتمّ به فأنصت وسبّح في نفسك وقيل : اذكره في نفسك بصفاته العليا وأسمائه الحسنى تضرّعاً بالذلّة والخوف وأظهر ذلّتك له بالخوف لأنّه أقرب إلى الإجابة وإنّما خصّ الذكر في النفس لأنّه أبعد من الرياء [ودون الجهر من القول] أي ارفعوا أصواتكم قليلاً ولا تجهروا بها جهاراً بليغاً ليكون عدلاً بين ذلك كما قال : «ولا تجهر

بصلاتك و لا تخافت بها » و قيل أمر للإمام أن يرفع صوته في الصلاة بالقراءة مقدار ما يسمعه من خلفه [بالغدوّ والآصال] أي بالغدوات والعشيّات . خصّ هذين الوقتين لأنّهما حال الفراغ من طلب المعاش ليكون القلب أفرغ والبال أجمع [ولاتكن من الغافلين] عن هذا الأمر .

ثمّ ذكر سبحانه مايبعث إلى الذكر فقال : [إنّ الّذين عند ربّهم] وهم الملائكة مع علوّ أمرهم يعبدون الله أي إنّكم إذا استكبرتم عن العبادة فمن هو أعظم حالاً منكم لا يستكبرون وقال : « عند ربّك » تعريفاً وشأناً للملائكة بإضافتهم الى نفسه ولم يرد قرب المكان وقيل : معناه أنّهم في المكان الّذي شرّفه الله أو لقربهم من رحمته يسبّحونه وينزّهونه عمّا لا يليق وله يخضعون ويسجدون ويصلّون وذكر الله جلية وخفية حسن . العيّاشيّ عن أحدهما : لايكتب الملك إلّا مايسمع قال الله : « واذكر ربّك في نفسك تضرّعاً وخيفة » فلا يعلم ثواب ذلك الذكر في نفس الرجل غير الله لعظمته ، قال أمير المؤمنين: من ذكر الله في السرّ فقد ذكر الله كثيراً إنّ المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولايذكرونه سرّاً فقال الله : « يراؤون الناس ولايذكرون الله إلّا قليلا »(١) العيّاشيّ عنه عليه السلام في هذه الآية قال تقول عند المسائل : لا إله إلّا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي و يميت ويميت ويحيي وهو حيّ لايموت وهو على كلّ شيء قدير قيل : بيده الخير ؟ قال عليه السلام : إنّ بيده الخير ولكن قل كما أقول لك عشر مرّات ، وقل : أعوذ بالله السميع العليم عشر مرّات حين تطلع الشمس ، وحين تغرب . في الحديث إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول : ياويله أُمر هذا بالسجود فسجد له الجنّة واُمرت بالسجود فعصيت فلي النار .

في ثواب الأعمال عن الصادق من قرأ سورة الأعراف في كلّ شهر كان يوم القيامة من الّذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون فإن قرأها في كلّ جمعة كان ممّن لايحاسب يوم القيامة، واعلم أنّ الله أمر بالذكر مقيّداً بقيود : القيد الأوّل في نفسك ، والمراد كون الذاكر عارفاً بمعاني الأذكار الّتي يقوله بلسانه مستحضراً ومعتقداً بصفات الكمال والعزّ والعظمة

---

(١) الاسراء : ١١٠ .

(١) النساء : ١٤١ .

فإنّ الذكر باللسان إذا كان القلب عارياً عنه كان عديم الأثر أو قليل الفائدة ، واللسان يكون حاكياً عن القلب. أماترى إذا قال الرجل: بعت واشتريت مع أنّه لايعرف معناه ولا يقصده فإنّه لاينعقد البيع و الشرى ؟ و كذا ههنا، أما ترى أنّ أصحاب القلوب إذا أرادوا أن يأمروا واحداً بعمل وذكر أمروه بالتصفية مدّة ثمّ بعد استكمال المدّة وحصول التصفية يقرء عليه الأسماء التسعة ويقول لذلك الطالب السالك: اعتبر حالك وحال قلبك عند سماع هذه الأسماء ، فكلّ اسم وجدت قلبك عند سماعه قوي تأثيره فاعرف أنّه يفتح لك أبواب السعادات بالمواظبة على ذكر ذلك الاسم بعينه ، وهذا القيد معتبر في الذكر لأنّه به يظهر عزّة الربوبيّة وذلّة العبوديّة وهو الأصل في كلّ عبادة .

القيد الثاني: ويكون الدعاء في حال الضراعة والخوف ، المراد خوف التقصير في العمل وخوف الذنوب وخوف الخاتمة و خوف بعضهم من السابقة لقوله :«جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » و أما قراءة بعضهم و«خفية» فالإخفاء للمبتدي لصون الطاعات عن الرياء وفي حقّ المنتهي القصور قال : من عرف الله كلّ لسانه .

القيد الثالث: أن يكون الذكر متوسّطاً بين الجهر والإخفات . والقيد الرابع: الإصباح و الإمساء و المراد الدوام والمواظبة ويؤيّد هذا المعنى أنّه تعالى قال : « الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم» (١) قال ابن عبّاس : لوحصل لابن آدم حالة رابعة سوى هذه الأحوال أمر الله بالذكر عندها .

تمّت سورة الأعراف بحمدالله و تليها سورة الأنفال إن شاء الله .

---

(١) آل عمران : ١٨٨ .

سورة الانفال

هى خمس و سبعون آية و هى مدنية

عن النبيّ صلى الله عليه وآله: من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له، وشاهد يوم القيامة أنّه بريء من النفاق وأُعطي من الأجر بعدد كلّ منافق و منافقة في الدنيا عشر حسنات ومحي عنه عشر سيّئات ورفع له عشر درجات، وكان العرش وحملته تصلّون عليه أيّام حياته في الدنيا وعن أحدهما عليهما السلام: من قرأ الأنفال وسورة براءة في كلّ شهر لم يدخله نفاق أبداً وكان من شيعة عليّ حقّاً ويأكل يوم القيامة من موائد الجنّة معهم حتّى يفرغ الناس من الحساب وفي قراءة الانفال جدع الانوف.

بسم الله الرحمن الرحيم

يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين (١) .

قوله : [يسألونك] عمّن لم يسبق ذكرهم ، وحسن ذلك ههنا ؛ لأنّ حال نزول الآية كان السائلون معيّنون حاضرون من الصحابة فانصرف إليهم .

و النفل و النافلة ماكان زيادة على الأصل وسمّيت الغنائم أنفالاً لأنّها عطيّة و فضل عطيّة من الله لرسوله .

في التهذيب عن الباقر والصادق عليهما السلام : الفيء والأنفال ماكان من أرض خربة أو بطون أودية أو أرض لم يكن فيها مهراقة دم أو قوم صولحوا و أعطوا بأيديهم ولم تفتح بالسيف فهو يكون من الفيء والأنفال ، فهذه لله ولرسوله فما كان لله فهو لرسوله يضعه حيث يشاء وهو للإمام بعد الرسول، وفي الكافي عن الصادق: الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب أو قوم صالحوا أو أعطوا بيدهم إلخ . وعنه في عدّة أخبار : من مات و ليس له وارث فماله من الأنفال ، و عنه عليه السلام : نحن قوم فرض الله طاعتنا لنا الانفال ولنا صفو المال . وفي الجوامع عن الصادق: الأنفال كلّ ما أُخذ من دار الحرب بغير قتال و كلّ أرض انجلى عنها اهلها بغير قتال والارضون الموات والآجام وبطون الأودية وقطائع الملوك وميراث من لاوارث له فهي لله و رسوله ولمن قام بنصّه ومن مات وليس له مولى فما له من الأنفال .

وقال : نزلت الآية يوم بدر وكان أصحاب الرسول ثلاث فرق : فصنف كانوا عند خيمة الرسول وصنف أغاروا على النهب وفرقة طلبت العدوّ وأسروا وغنموا فلمّا جمعوا الغنائم والأُسارى تكلّمت الأنصار في الأسارى فأنزل الله: «ماكان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض[1]» فلمّا أباح الله لهم الأُسارى والغنائم تكلّم سعد بن معاذ وكان ممّن أقام بالخيمة عند النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : يارسول الله مامنعنا أن نطلب العدوّ زهادة في الجهاد ولاجبناً من العدوّ

(١) السورة : ٦٨ .

ولكنّا خفنا أن يرى موضعك فيميل عليك خيل المشركين ، وقد أقام بالخيمة وجوه المهاجرين و الأنصار والناس كثير والغنائم قليلة ، ومتى تعطي هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وخاف أن يقسّم رسول الله الغنائم وأسلاب القتلى بين من قتل ولا يعطي على من تخلّف على الخيمة شيئاً فاختلفوا فيما بينهم حتّى سألوا النبيّ فقالوا : لمن هذه الغنائم ؟ فأنزل الله هذه الآية وخصّها الله لرسوله فرجع الناس ، وليس لهم في الغنيمة شيء ثمّ أنزل الله بعد ذلك : «واعلموا أنّما غنمتم الآية» [1] فقسّمه رسول الله بينهم فقال سعد بن وقّاص : يا رسول الله أتعطي فارس ماتعطي الضعيف ؟ فقال النبيّ ﷺ : ثكلتك اُمّك وهل تنصرون إلّا بضعفائكم ؟ قال : ولم يخمّس رسول الله ببدر وقسّم بين أصحابه ثمّ استقبل بأخذ الخمس بعد البدر .

وبالجملة يعلم من الآية أنّه قد وقعت مشاجرة في كيفيّة القسمة في الغنائم بين الأصحاب لأنّ قوله : «فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم» و كذلك قوله :«وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين» [2] قال ابن عبّاس في بعض الروايات : المراد من الأنفال ماشذّ من المشركين إلى المسلمين من غير قتال من دابّة أوعبد أومتاع فهو إلى النبيّ يضعه حيث يشاء . وبالجملة فما صحّ من الاخبار المنقولة عن أئمتنا في معنى الأنفال فهو الصحيح وقضى به . قوله : [وأصلحوا ذات بينكم] و المراد المضمرات في الصدور و ما وقع من الأقوال المكدّرة بين الطرفين ، و يسمّى ذات البين . عليكم بإصلاحها كي لاتبقى العداوة بينكم ثمّ أكّد سبحانه بقبول الأمر و طاعة الرسول ونهاهم عن مخالفته بقوله : [إن كنتم مؤمنين] .

واحتجّ من قال : ترك الطاعة يوجب زوال الايمان بهذه الآية وتقريره أنّ المعلّق بكلمة «إن» على شيء عدم عند عدم ذلك و موجود عند وجود ذلك الشيء ، وههنا الإيمان معلّق على الطاعة بكلمة «إن» فيلزم عدم الإيمان عند عدم الطاعة .

قوله تعالى : انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون (٣) اولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (٤) .

(١) السورة : ٤٢ . (٢) كذا .

لمّا ذكر في الآية السابقة أنّ الإيمان مستلزم للطاعة شرح في هذه الآية علائم المؤمنين بقوله : [إنّما المؤمنون] أي إنّما يكون المؤمن مؤمناً إذا كان خائفاً من الله والخوف على قسمين : خوف العقاب وخوف العظمة والجلال أمّا خوف العقاب للعصاة وأمّا خوف الجلال فينبغي أن لايزول عن قلب أحد من المخلوقين سواء كان ملكاً مقرّباً او نبيّاً مرسلاً لأنّ المحتاج إذا حضر عند الملك الغنيّ يهابه ويخافه [وعلى ربّهم يتوكّلون] ويفوّضون اُمورهم إليه فيما يخافون ويرجون . فبعد أن تقرّر هذا اُمر بالتوطين على النفس في رعاية العمل من آثار العبوديّة والإيمان ورأس الطاعات الصلاة وبذل المال في مرضات الله ؛ فقال : [الّذين يقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون] في مرضات الله .

ثمّ أخبر سبحانه إخبار حقّ أنّ الموصوفين بهذه الصفات [لهم درجات عند ربّهم ومغفرة ورزق كريم] في الجنّة وقوله : لهم درجات يفيد أنّ سعادة أهل الإيمان في الجنّة متفاوتة كما أنّ درجات الإيمان متفاوتة و الموصوف بهذه الآية من الكاملين في الإيمان فحينئذ كلمة الحصر في قوله لحصر كمال الإيمان لا لحصر وجوده فلا تدلّ الآية على أنّ من كان دونهم في المنزلة خارج عن الإيمان وايضاً إثبات هذه الصفات لايلزم منه أن لايكون عليه تكليف آخر من سائر الواجبات كالحجّ والجهاد .

قوله تعالى : كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقاً من المؤمنين لكارهون (٥) يجادلونك في الحق بعد ما تبين كانما يساقون الى الموت و هم ينظرون (٦) .

أي حالهم هذه في كراهة ما حكم الله في الأنفال مثل حالهم في كراهة خروجك من بيتك للحرب ولمّا حكم الله في الأنفال في الآية بأنّها للرسول يصنع فيها مايشاء امسك المسلمون عن الطلب وفي أنفس بعضهم شيء من الكراهة ، وحين خرج ﷺ إلى قتال البدر كانوا كارهين لتلك المقاتلة فشرح الله أنّ تلك الكراهة مثل خروجك من المدينة للقتال يوم بدر وهو قتال حقّ ، أو كما أنّ حكم الأنفال حقّ كذلك حكم القتال والخروج حقّ . روي أنّ عير قريش اقبلت من الشام والمراد بالعير القافلة الراجعة وفيها أموال التجارة للقريش وكان مع العير أربعون

راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وأقوام آخرون فأخبر جبرئيل رسول الله فأخبر الرسول المسلمين فأعجبهم تلقّي العير لكثرة المال وقلّة القوم فلمّا أزمعوا على الخروج وبلغ أهل مكّة خروجهم نادى ابوجهل فوق الكعبة ياأهل مكّة النجا النجا على كلّ صعب وذلول إن أخذ محمّد صلى الله عليه وآله عير كم لن تفلحوا ابداً وقد رأت اخت العبّاس بن عبد المطلب رؤياً فقالت لأخيها إنّي رأيت كانّ ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثمّ حلّق لها فلم يبق بيت من بيوت مكّة إلّا أصابه حجر من تلك الصخرة فقال أبوجهل ما يرضى رجالهم بالنبوّة حتّى ادّعا نساؤهم النبوّة فخرج أبوجهل بصناديد أهل مكّة هم النفير ، وفي المثل السائر لا في العير ولا في النفير فقيل له : العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكّة فقال : لا والله لا يكون ذلك أبداً ننحر الجزور ونشرب الخمور وتغني القينات ببدر فتتسامع العرب بخروجنا وأنّ محمّداً لم يصب العير إلى بدر بالقوم .

وبدر كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة فنزل جبرئيل ، وقال : يا محمّد إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير من قريش واستشار النبيّ صلى الله عليه وآله أصحابه وقال : العير أحبّ إليكم أم النفير ، قالوا : بل العير أحبّ إلينا من لقاء العدوّ فتغيّر وجه رسول الله وقال : إنّ العير مضت على ساحل البحر وهذا أبوجهل قد أقبل فقالوا : يارسول الله عليك بالعير ودع النفير والعدوّ . فقام عند غضب النبيّ صلى الله عليه وآله بعض الصحابة و قال سعد بن عبادة : امض يا رسول الله إلى ما أمرك الله فإنّا معك حيثما أردت لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « إذهب انت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون » (١) ولكنّا نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ما دامت منا عين تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ قال : سيروا على بركة الله وكأنّ منّي انظر إلى مصارع القوم .

وبالجملة كانت كراهية القوم لبعضهم لا لكلّهم لقوله تعالى [وانّ فريقاً من المؤمنين لكارهون] والمراد من قوله [يجادلونك في الحقّ] هو الّذي جادلوا فيه رسول الله ، تلقّي النفير لا يثارهم وميلهم إلى العير وقوله [بعدما تبيّن لهم الحقّ] المراد إعلام رسول الله بأنّهم ينصرون وما كانوا يقولون لرسول الله ماكان خروجنا إلّا للعير وهلاّ قلت لنا : اخرجوا إلى الأعداء

(١) المائدة : ٢٧ .

لتتأهّب للقتال ؟ فهذاكان جدالهم ثمّ إنّه تعالى شبّه حالهم من فرط الفزع بحال من يجرّ إلى القتل ويساق إلى الموت وهو شاهد لأسبابه ناظراً إلى موجباته .

قوله : [وهم ينظرون] كناية عن الجزم والقطع لأنّه من نظر إلى شيء يعلم به وكان سبب خوفهم اُموراً : منها قلّة العدد وأنّهم كانوا رجّالة روي أنّه ما كان فيهم إلّا فارسان وقلّة السلاح .

قوله: واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله ان يحق الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين (٧) .

و اذكر وقت الّذي يعدكم الله والمراد بالطائفتين العير و النفير ، والمراد بغير ذات الشوكة العير و بذات الشوكة الحدّة و القوّة ، مستعارة من الشوك لحدّته و شوك القنا سنانه ومنه قولهم : شاكي السلاح أي تودّون الطائفة الّتي لاقوّة لها ولا تريدون الطائفة القويّة ولكنّ الله أراد التوجّه إلى الطائفة القويّة .

[ليحقّ الحقّ بكلماته] فإن قيل : الحقّ حقّ لذاته والباطل باطل لذاته ، فامتنع تحصيله لأنّه حاصل فالمراد إبانة الحقّ و إظهار كون الحقّ حقّاً و الباطل باطلاً . و المعتزلة تمسّكوا بهذه الآية بأنّ الله لايريد تحقيق الباطل وإبطال الحقّ بصريح الآية . و ذلك يبطل قول من يقول : إنّه لا باطل ولا كفر إلّا والله مريد له . قوله بكلماته أي بتقويته للرّسول في الغزوة و قيل : بالأئمّة و حاصل المعنى أنتم تريدون المال و تريدون أن لاتصلون إلى مكروه والله يريد إعلاء دينه وما يحصل لكم الفوز في الآخرة .

قوله : ليحق الحق ويبطل الباطل ولوكره المجرمون (٨) .

يفعل ما يفعل وليس بتكرار لأنّ الأوّل بيان مراد الله و تفاوت مابين مراده و مرادهم ، والثاني لبيان حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة لنصرة الحقّ ولذا قال بعده [ويبطل الباطل] وهو الشرك [ولو كره المجرمون] ذلك .

اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين (٩) وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عندالله ان الله عزيز حكيم (١٠) .

العامل في «إذ» قيل : «ويبطل الباطل» وقيل : بفعل محذوف تقديره : و اذ كر .

النزول :قيل : إنّ النبيّ ﷺ لمّا نظر إلى كثرة المشركين و قلّة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال : اللّهم أنجزلي ماوعدتني اللّهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد في الأرض فما زال يهتف بربّه مادّاً يديه حتّى سقط رداؤه عن منكبيه فأنزل الله الآية . المعنى : واذكروا إذ تستجيرون بربّكم يوم بدر من أعدائكم لقلّتكم والفرق بين المستنصر و المستغيث أنّ المستنصر طالب الظفر والمستغيث طالب الخلاص .

[فاستجاب لكم] فأغاثكم وأجابكم بانّي مرسل إليكم مدداً [بألف من الملائكة] متتابعين بعضهم في اثر بعض وما جعل الله الإمداد بالملائكة إلّا بشارة للمسلمين بالنصر و تشجيعا لقلوبهم بكثرة السواد لهم لأن في مقاتلة الملائكة مع الكفّار خلاف ، قيل : ماقاتلت ولكن كثر السواد وزيد الرعب في قلوب الكفّار وإلّا ملك واحد كاف في هلاكهم كما فعل جبرئيل بقوم لوط فأهلكهم بريشة من جناحه.وقيل:قاتلت.وأمّا ما قاله سبحانه في آل عمران بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف فإنّها للبشارة و[ما النصر إلا من عند الله] ليست بالقلّة والكثرة بل هي من عند الله الغالب الحكيم في أفعاله يجريها على ما يقتضيه الحكمة .

اذ يغشيكم الناس أمنة منه و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به و يذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم و يثبت به الاقدام (١١) اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان (١٢) ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب (١٣) .

النعاس أوّل النوم ، وهذه إظهار نعمة اُخرى من قوله:إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين [إذ يغشّيكم] بالتشديد ويغشيكم بالتخفف بالبابين أي أذكروا إذ جعل الله النوم غاشياً لكم و محيطاً بكم لاجل الأمن من الخوف من العدوّ فإنّ الخوف مسهر والأمن منيم والامنة الدعة الّتي تنافي المخافة .

[وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم] وذلك لان المسلمين قد سبقهم الكفّار إلى الماء ، وأنتم تصلّون مع الجنابة والحدث وتسوخ أقدامكم في الرمل فمطرهم الله حتّى اغتسلوا به من الجنابة و تطهّروا من الحدث و تبلّدت به أرضهم و أوحلت أرض عدوّهم و ذهب

عنكم رجز الشيطان من الاحتلام و الوسوسة و لتقوى قلوبكم و يثبت أقدامكم في الحرب بتبلّد أرضكم .

و بيان وسوسة الشيطان أنّه و سوس إليهم أنّكم أصحاب محمّد تزعمون أنّكم على الحقّ و أنّكم تصلّون على غير الوضوء بالجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحقّ ماغلبكم هؤلاء على الماء و ما ينتظرون بكم إلّا أن يجهد كم العطش فقتلوا من أرادوا قتله وساقوا بقيّتكم إلى مكّة فحزنوا حزناً شديداً وخافوا خوفاً شديداً ؛ فأنزل الله المطر فمطروا حتّى جرى الوادي فطابت نفوسهم فاغتسلوا وشربوا وصلّوا و تبلّدت أرضهم .

قوله : [و إذ يوحي ربّك إلى الملائكة] وفي التعرض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من التعظيم والتشريف مالا يخفى. المعنى : اذكر يا محمّد ﷺ وقت إيحائه إلى الملائكة أي مع الملائكة حال ما أرسلهم ردءاً للمسلمين أو المراد أنّه تعالى أوحى إلى الملائكة أنّي مع المؤمنين فانصروهم و ثبّتوهم . و اختلفوا في كيفيّة هذا التثبيت ؛ قيل : إنّ الملائكة عرّفوا الرسول أنّ الله ناصر المؤمنين و الرسول عرّفهم فذلك هو التثبيت في هذا الباب .

و قيل : إنّ الشيطان كما يمكنه الوسوسة إلى الإنسان فكذلك الملك يمكنه الإلهام إليه فهذا هو التثبيت في هذا الباب . وقيل : إنّ الملائكة كانوا يشتبهون بصور رجال من معارف المؤمنين وكانوا يمدّونهم بالنصر والفتح .

قوله : [سأُلقي في قلوبهم الرعب] وهذا نوع من النعم الّتي أنعم الله البدريّين لأنّ أمير النفس هو القلب فلمّا بيّن الله أنّه ربط قلوب المؤمنين بإزالة الخوف ذكر أنّه تعالى ألقى الخوف في قلوب الكافرين [فاضربوا فوق الأعناق] و لمّا وقع للمسلمين موجبات النصر فعند هذا أمرهم بمحاربة الكفّار . ومافوق العنق الرأس فكان أمراً بإزالة الرأس من الجسد يريد الهام والجمجمة قيل : هذا الأمر للمؤمنين وقيل : للملائكة على قول من قال : إنّ الملائكة قاتلت .

قوله : [واضربوا منهم كلّ بنان] أي الأطراف واليدين والرجلين والحاصل أن اضربوا كل عضو تمكّنتم منه بسبب أنهم جانبوا وصاروا في شقّ غير شقّ المسلمين [ومن

يشاقق الله و رسوله] أي هذا الّذي نزل بهم في ذلك اليوم شيء قليل بالنسبة إلى ما أعدّ الله لهم من عذاب الآخرة .

ذلكم فذوقوه و ان للكافرين عذاب النار (١٤) .

التقدير : الأمر ذلكم و «لكم» خبر مبتدأ محذوف وتقدير المعنى : أنّ العذاب على قسمين ، معجّل و مؤجّل فذلك القتل و الأسر والنهب عذاب معجّل كذوق طعم الشيء للاختبار ، وهذا العذاب بالنسبة إلى عذاب النار في الآخرة وما أعدّ الله للكافرين من شدائد العذاب كذوق القليل بالنسبة .

ومجمل قصّة بدر أنّه لمّا أصبح النبيّ ﷺ يوم بدر عبّأ أصحابه فكان في عسكره فرسان فرس لزبير بن العوّام وفرس لمقداد بن أسود الكنديّ وكان في عسكر قريش أربعمائة فرس وقيل: مائتا فرس فلمّا نظرت قريش إلى قلّة أصحاب النبيّ ﷺ قال أبوجهل : ماهم إلّا اُكلة لو بعثنا عليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد فقال عتبة: أترون لهم كميناً أومدداً ؟ فبعثوا عمر بن وهب وكان فارساً بطلاً ، فجال بفرسه حتى طاف على عسكر رسول الله ثمّ رجع فقال: ليس لهم مدد ثم صعد الوادي و صوّت و قال لابي جهل : مالهم كمين ولامدد ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع أما ترونهم خرساً لا يتكلّمون تلمّظ الأفاعي مالهم ملجأ غير سيوفهم وما أراهم يولّون حتّى يقتلوا ولا يقتلون حتّى يقتلوا بعددهم فارتؤوا برأيكم فقال له أبوجهل : كذبت وجبنت .

ثمّ بعث النبيّ ﷺ إلى قريش و قال : يامعشر قريش إنّي أكره أن ابدأ بكم فخلّوني و العرب فان أك صادقاً فأنتم أعلى بي عيناً و إن أك كاذباً كفاكم ذؤبان العرب أمري فارجعوا. فقال عتبة: ما أفلح قوم قط ردّوا هذا. ثمّ ركب جملاً له أحمر فنظر إليه النبيّ يجول في العسكر و ينهى عن القتال فقال ﷺ : ان يك عند أحد خير فعند صاحب هذا الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا واقبل عتبة يقول :

يا معشر قريش اجتمعوا واسمعوا ثمّ خطبهم فقال: يمن مع رحب ورحب مع يمن يا معشر قريش أطيعوني اليوم وارجعوا إلى مكّة واشربوا الخمور فإنّ محمّداً ﷺ له إلّ وذمّة وهو ابن عمّكم فارجعوا ولاتردّوا رأيي .

فلمّا سمعه أبوجهل ذلك قال : إنّ عتبة أطول الناس لساناً و أبلغهم في الكلام ، و لئن رجعت قريش بقوله ليكوننّ سيّد القريش إلى آخر الدهر ، ثمّ قال : ياعتبة نظرت إلى سيوف بني عبدالمطلب وجبنت وتأمر الناس بالرجوع وقد رأينا ثارنا بأعيننا - لأنّهم كانوا يطالبون بدم ابن الحضرميّ وقد عقله عتبة - فنزل عن جمله بعد هذا الكلام وحمل على أبي جهل على فرس وأخذ بشعره وعرقب فرسه وقال : أمثلي يجبن ؟ وسيعلم قريش اليوم أينا الألأم والأجبن وأيّنا المفسد لقومه ثمّ قال :

هذا جناي و خياري فيه ❊ و كلّ جان يده في فيه

ثمّ أخذ بشعره ويجرّه فاجتمع الناس إليه فقالوا : يا أباالوليد تنهى عن شيء تكون أوّله فخلّصو أباجهل من يده .

فنظر عتبة إلى أخيه شيبة و نظر إلى ابنه الوليد فقال : قم يابنيّ فقام ولبس درعه و طلبوا له بيضة تسع رأسه فلم يجدوا لعظم هامه فاعتمّ بعمامتين ثمّ أخذ سيفه وتقدم هو وأخوه وابنه ونادى يا محمّد أخرج الينا أكفاءنا من قريش .

فبرز إليه ثلاثة نفر من الأنصار عوذ ومعوذ و عوف بني عفراء فقال عتبة من أنتم انتسبتوا لنعرفكم ؟ فقالوا : نحن بنو عفراء أنصار الله وأنصار رسوله فقال : ارجعوا فإنّا لسنا إيّاكم نريد و إنّما نريد الأكفاء من قريش فبعث إليهم رسول الله أن ارجعوا فرجعوا وكره أن يكون أوّل الكره بالأنصار .

ثمّ نظر رسول الله إلى عبيدة بن الحارث بن عبدالمطّلب وكان له سبعون سنة فقال له : ياعبيدة قم فقام بين يديه بالسيف ثمّ نظر إلى حمزة بن عبدالمطّلب فقال له : قم ياعمّ ثمّ نظر إلى عليّ عليه السلام أميرالمؤمنين فقال له : قم يا عليّ و كان أصغر القوم فاطلبوا بحقّكم الّذي جعله الله لكم فقد جاءت قريش بخيلائها و فخرها وتريد أن تطفيء نورالله ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره .

ثمّ قال رسول الله : ياعبيدة عليك بعتبة وقال لحمزة : عليك بشيبة وقال لعليّ عليه السلام عليك بالوليد بن عتبة فمرّوا حتّى انتهوا إلى القوم فقال عتبة : من أنتم انتسبوا لنعرفكم ؟ فقال : أنا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فقال كفو كريم ثمّ قال : من هذان ؟ فقال حمزة

ابن عبدالمطلب وعليّ بن أبي‌طالب فقال : كفوان كريمان لعن الله من اوقفنا و إيّاكم هذا الموقف فقال شيبة لحمزة من أنت ؟ فقال : أناحمزة أسدالله وأسدرسوله فقال له شيبة : لقد لقيت أسدالحلفاء فانظر كيف يكون صولتك يا أسدالله ؟

فحمل عبيدةعلى عتبة فضربه‌على‌راسه ضربة فلق هامته وضرب عتبة عبيدة على ساقه فقطعها وسقطا جميعاًوحمل حمزةعلى شيبة فتضاربا بالسيف‌حتّى‌انثلم‌سيفهما و كل واحدمنهما يتّقى بدرقته وحمل عليّ عليه‌السلام على‌الوليدبن‌عتبةخال‌معاويةفضربه‌على‌عاتقه فاُخرج السيف عن إبطه قال عليّ عليه‌السلام : فاخذ يمينه‌المقطوعةبيساره فضرب بهاهامتي فظننت انّ السماء وقعت على الأرض ثمّ اعتنق حمزة وشيبة فقال المسلمون : يا عليّ أما ترى الكلب قدقهر عمّك فحمل عليّ عليه ثم قال : ياعمّ طأطأ رأسك وكان حمزة عليه‌السلام أطول من شيبة فأدخل حمزة رأسه في صدره فضربه عليّ على رأسه فطار نصف رأسه .

وحمل عبيدة بين‌حمزة وعليّ حتّى أتيا رسول‌اللهفنظر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى عبيدة فاستعبر صلى‌الله‌عليه‌وآله فقال عبيدة : يا رسول الله ألست شهيداً ؟ قال : بلى‌أنت أوّل‌شهيد من أهل بيتي فقال عبيدة:أمالو انّ عمّك‌كان‌حيّاًلعلم أنّي‌أولى‌بماقال‌منه قال صلى‌الله‌عليه‌وآله وأيّ أعمامي تعني ؟ قال : أباطالب حيث يقول :

ونسلمه حتّى نصرّع حوله ❊ ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال رسول الله : أماترى ابنه كالليث الضاري بين يدي الله‌ورسوله و ابنه الآخر في جهادالله‌بأرض‌الحبشة فقال عبيدة : أسخطت‌عليّ في‌هذه الحالة ؟ فقال:ماسخطت‌عليك ولكن ذكرت‌عمّي فانقبضت لذلك .

ثمّ قال أبوجهل لقريش : لا تعجلوا ولا تبطروا كماعجل وبطرأبناء ربيعة ، عليكم بأهل‌يثرب فاجزروهم جزراً و عليكم بقريش فخذوهم أخذاً حتّى ندخلهم مكّة نعرّفهم ضلالتهم الّتي كانوا عليها و كان فئة من قريش أسلموا بمكّة فاجلاهم آباؤهم فخرجوا مع قريش إلى بدر وهم‌على الشكّ والنفاق منهم أبوقبيس‌بن الفاكهة و قيس‌بن وليدبن المغيرة والحارث بن ربيعة وابن اُميّة بن خلف والعاص بن منبه فلما نظروا إلى قلّة أصحاب محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله قالوا : مساكين‌هولاء غرّهم محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله دينهم‌فيقتلون الساعةفأنزل الله على رسوله :

«اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم و من يتو كّل على الله فإنّ الله عزيز حكيم»(١).

وجاء إبليس إلى قريش في صورة سراقة بن مالك فقال لهم : أنا جارلكم ادفعوا إليّ رايتكم فدفعوها إليه وجاء بشياطينه يهول بهم على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأقبلت قريش يقدمها إبليس معه الراية فنظر رسول الله إليه فقال رسول الله لأصحابه : غضّوا أبصاركم و عضّوا على النواجد ولا تسلّوا سيفاً حتّى آذن لكم ثمّ رفع يده إلى السماء فقال : يا ربّ إن تهلك هذه العصابة لاتعبد في الأرض ثمّ أصابه الغشي ثمّ برىء عنه وهو يسلت العرق عن وجهه ويقول : هذا جبرائيل قدأتاكم بألف من الملائكة مردفين قال : فنظرنا إلى سحابة سوداء فيها برق لائح قد وقعت على عسكر رسول الله وقائل يقول : أقدم حيزوم أقدم حيزوم وسمعنا قعقعة السلاح من الجوّ .

ونظر إبليس إلى جبرئيل فتراجع ورمى باللواء فأخذ منبّه بن الحجّاج وقال : ويلك ياسراقه فركله إبليس ركلة في صدره و قال : إنّي بريء منكم إنّي أرى مالا ترون و حمل جبرئيل على إبليس فطلبه حتى غاص في البحر و قال : ربّ أنجز لي ماوعدتني من البقاء إلى الوقت المعلوم وفي رواية أنّ ابليس التفت الى جبرئيل وهو في الهزيمة فقال : يا هذا بدالكم فيما أعطيتمونا ؟ فقيل لأبي عبدالله أترى كان يخاف أن يقتله؟ فقال لا ولكنّه كان يضربه ضربة يشينه إلى يوم القيامة وانزل الله «إذ يوحي ربّك إلى الملائكة ، إلخ» .

بالجملة خرج أبوجهل من بين صفّين وقال : إن محمداً ـ ﷺ ـ قطعنا الرحم وأتانا بمالا نعرفه .

ثمّ أخذ رسول الله ﷺ كفّاً من حصى فرمى به في وجوه قريش وقال : شاهت الوجوه فبعث الله رياحاً فضرب في وجوه قريش فكانت الهزيمة . ثمّ قال رسول الله : اللّهم لا يفلتن فرعون هذه الأُمّة أبوجهل بن هشام فقتل منهم سبعون واُسر منهم سبعون والتقى عمرو بن الجموح مع أبي جهل فضرب عمرو أباجهل على فخذه وضرب أبوجهل عمرواً على يده فأبانها من العضد فتعلّقت بجلده فاتّكى عمرو على يده برجله حتّى انقطعت الجلدة .

---

(١) الانفال : ٥١ .

قال عبدالله بن مسعود انتهيت إلى أبي جهل و هو يتشحّط بدمه فقلت : الحمدلله الّذي أخزاك فرفع رأسه فقال : إنّما أخزى الله عبدابن اُمّ معبد لمن الدين ويلك ؟ قلت : لله و لرسوله و إنّي قاتلك و وضعت رجلي على عنقه و صدره فقال : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم أما إنّه ليس شيء أشدّ من قتلك إيّاي في هذا اليوم هلاّ يولّي قتلي رجل من المطّلبيّين أو رجل من الأحلاف فاقلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته و أخذت رأسه وجئت به إلى رسول الله فقلت : يا رسول الله البشرى هذا رأس أبي جهل بن هشام فسجد ﷺ شكراً لله .

وأسر أبو بشر الأنصاري العبّاس بن عبدالمطّلب و عقيل بن أبي طالب وجاء بهما إلى رسول الله ﷺ فقال النبيّ ﷺ : لأبي بشر هل أعانك عليهما أحد قال نعم رجل عليه ثياب مضيء فقال النبيّ ﷺ ذلك من الملائكة فقال النبيّ للعباس افد بنفسك وابن أخيك فقال يارسول الله قد كنت أسلمت ولكنّ القوم استكرهوني فقال النبيّ : الله أعلم بإسلامك إن يكن كماتقول فالله يجزيك عليه فأمّا ظاهر أمرك فقد كنت علينا .

ثمّ قال : ياعبّاس إنّكم خاصمتم الله فخصمكم الله افد بنفسك وابن أخيك وكان العبّاس أخذ معه أربعين أوقية من ذهب وأخذها رسول الله فلمّا قال رسول الله : افد بنفسك قال العبّاس للنبيّ : أحسبها في فدائي فقال ﷺ : لاذاك شيء أعطانا الله عنك افد نفسك وابن أخيك فقال العبّاس : ليس لي مال غير الّذي ذهب منّي قال : بلى المال الّذي خلفته عند اُمّ الفضل بمكّة وقلت لها : إن حدث عليّ حدث فاقسموه بينكم فقال العباس تتركني وأنا أسأل الناس بكفّي فأنزل الله على رسوله في ذلك « يا أيّها النبيّ قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا اُخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم[(١)] » ثمّ قال الله : «وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فيك»[(٢)] .

ثمّ قال رسول الله لعقيل : قدقتل الله أباجهل بن هشام وعتبة بن ربيعه و شيبة بن ربيعة ومنبّه وبنيه ابني الحجّاج ونوفل بن خويلد وأسر سهيل بن عمرو والنضر بن الحارث بن كلدة

(١) الانفال : ٧١ .
(٢) « : ٧٢ .

وعقبة بن أبي معيط وفلان وفلان فقال عقيل : إذاً لا تنازعوا في تهامة فإن كنت قد أثخنت القوم وإلّا فاركب أكتافهم فتبسّم رسول الله .

وكان القتلى ببدر سبعين والأسرى سبعين ، قتل علي ّ عليه السلام سبعة وعشرين ولم يأسر أحداً فجمعوا الأسرى وقرنوهم في الحبال وجمعوا الغنائم وقتل من اصحاب رسول الله تسعة رجال فيهم سعد بن خيثمة و كان من النقباء ثمّ رحل رسول الله و نزل الأثيل عند غروب الشمس وهو من بدر على ستّة أميال .

فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عقبة بن أبي معيط وإلى النضر بن الحارث في قران واحد فقال النضر لعقبة : يا عقبة أنا و أنت مقتولان . قال عقبة : نعم ؛ لأنّ محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ نظر إلينا نظرة رأيت فيها القتل فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : يا عليّ ـ عليه السلام ـ علي بالنضر وعقبة و كان النضر رجلا جميلا عليه شعر فجاء عليّ عليه السلام فأخذه بشعره فجرّه إلى رسول الله فقال النضر : يا محمّد أسألك بالرحم الّذي بيني و بينك إلّا أجريتني كرجل من قريش إن قتلتهم قتلتني وإن فاديتهم فاديتني و إن اطلقتهم اطلقتني فقال رسول الله : لا رحم بيني وبينك قطع الله الرحم بالإسلام قدّمه يا عليّ فاضرب عنقه فقال عقبة يا محمّد الم تقل لاتصبر قريش أي لايقتلون صبراً قال : وأنت من قريش ؟ إنّما أنت علج من أهل صفورية ولأنت في الميلاد اكبر من ابيك الّذي تدعى له قدّمه ياعليّ واضرب عنقه فضرب عنقه .

فلمّا قتل رسول الله النضر وعقبة خافت ان يقتل الاسارى كلهم فقاموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله و قالوا : لقد قتلنا سبعين و أسرنا سبعين و هم قومك و اساراك هبهم لنا يارسول الله وخذمنهم الفداء و أطلقهم فأنزل الله عليهم : «ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض» .

قوله : يا أيها الذين آمنوا اذالقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار(١٥)ومن يولهم يومئذدبره الامتحرفاًلقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله و مأوىه جهنم وبئس المصير (١٦) .

«الزحف» للصبيّ أن يزحف على استه قبل أن يقوم ، شبّه سبحانه الطائفتين اللّتين تذهب كلّ واحدة منهما إلى صاحبها للقتال قبل التداني للضراب بزحف الصبيّ قال ثعلب : الزحف المشي قليلاً قليلاً إلى الشيء ومنه الزحاف في العروض و الشعر فيسقط

ممّا بين حرفين حرف واحد فيزحف أحدهما إلى الآخر .

قوله : [إذا لقيتم الّذين كفروا] متزاحفين خطاب لأهل بدر أو هو عامّ أي إذا لقيتم الكفّار معدّين لقتالكم وتوافقتم للقتال مع الكفّار فلا تنهزموا وتجعلوا ظهوركم إليهم بالفرار ومن يجعل ظهره إليهم ووجهه إلى جهة الانهزام ....

والمراد بقوله : «يومئذ» لم يرد النهار واللّيل بل المراد الوقت إلّا أن يكون تولّيكم لحركة من موقف إلى موقف أحسن وأسلط منه أو تكونون تضمّون إلى جماعة من المسلمين يريدون العود إلى القتال فتتحيّزون بهم للاستعانة على القتال فالمتولّي والمتدبّر عن القتال غير هاتين الصورتين المستثنيتين فقد وقع في محلّ غضب الله و مرجعه إلى جهنّم و بئس المحلّ جهنّم .

قال بعض المفسّرين : هذا الحكم خاصّ لأهل بدر وبعض قال : عامّ في جميع الأوقات ؛ لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والحاصل أنّ الانهزام محرّم إلّا في حالتين : إحداهما أن يكون يخيّل إلى عدوّه أنّه منهزم ثمّ ينعطف عليه وهو أحد أبواب الحرب ، والثانية أنّ المتحيّز إذا كان كالمنفرد وفي الكفّار كثرة وغلب على ظنّه أنّه لو ثبت قتل من غير فائدة و إن يحيّز إلى جمع كان راجياً للخلاص والغلبة . «والتحيّز» أصله من الحوز و هو الجمع .

قوله : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ان الله سميع عليم (١٧).

النظم : اختلف بعض أهل بدر فقال : هذا أنا قتلت ، وقال الآخر : أنا قتلت فأنزل الله أنّ هذه الكسرة ما حصلت منكم وإنّما حصلت بنصرتي لكم .

روي أنّه لمّا طلعت قريش بخيلائها قال النبيّ ﷺ : اللّهمّ إنّي أسألك ما وعدتني فنزل جبرئيل وقال : خذ قبضة من التراب فارمهم بها فقال لعليّ عليه السلام : أعطني قبضة من التراب من حصاة الوادي فأعطاه عليّ فرمى النبيّ ﷺ في وجوههم وقال : شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلّا شغل بعينه فانهزموا . قال صاحب الكشّاف : « الفاء » في «فلم تقتلوهم» جواب لشرط محذوف تقديره : إن زعمتم وافتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم .

ثمّ قال : [ومارميت] القبضة الّتي رميتها ولكنّ الله في الحقيقة رمى ؛ لأنّ رميك لا يبلغ أثره إلى هذا المبلغ الّذي لا يبقى عين من عيون المشركين إلّا و قذت ؛ فصورة صدرت منك وأثرها من الله فلهذا المعنى صحّ الإبقاء والإثبات .

قوله : [وليبلي المؤمنين] أي وليمنّ الله النعمة على المؤمنين ليشكروا والبلاء ههنا اُطلق للنعمة ، ويقال للنعمة : بلاء كما يقال للمضرّة : بلاء ؛ لأنّ أصل البلاء الاختبار و ذلك يكون من النعمة ليحصل الشكر ويكون من النقمة ليحصل الصبر . والبلاء الحسن في هذه الآية النّصر والظفر وضمير «منه» راجع إلى النصر أو إلى الله إنّ الله سميع بأقوالكم عليم بأحوال قلوبكم .

وقيل : إنّ هذه الآية نزلت يوم خيبر ، روي أنّه صلى الله عليه وآله أخذ قوساً وهو على باب خيبر فرمى سهماً فأقبل السهم حتّى قتل ابن أبي الحقيق وهو على فرسه فنزلت الآية : « وما رميت إذ رميت » و قيل نزلت يوم اُحد في قتل اُبيّ بن خلف ، و ذلك أنّه أتى النبيّ بعظم رميم وقال : يا محمّد من يحيي هذا وهو رميم ؟ فقال صلى الله عليه وآله : يحييه الله ثمّ يميتك ثم يحييك ويدخلك النار ؛ فاُسر يوم بدر فلمّا افتدى قال لرسول الله : إنّ عندي فرساً أعتلفها كلّ يوم فرقاً من ذرّة كي أقتلك عليها فقال صلى الله عليه وآله : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلمّا كان يوم اُحد أقبل الملعون يركض على ذلك الفرس حتّى دنا من النبيّ صلى الله عليه وآله فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه فقال صلى الله عليه وآله : استأخروا ورماه بحربة فكسّر ضلعاً من أضلاعه فحمل فمات ببعض الطريق ففي ذلك نزلت الآية .

والأصحّ أنّها نزلت في يوم بدر وإلّا لدخل في أثناء القصّة كلام أجنبيّ بلى لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع ؛ لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين (١٨) ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهم خير لكم وان تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين (١٩) .

و «لكم» إشارة إلى البلاء الحسن ، خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الأمر ذلك و أنّ الله أوهن كيد الكافرين بغلبة المؤمنين على الكافرين وتفريق كلمتهم . ينبىء الله رسوله ويقول :

إنّي قدأوهنت كيد عدوّك حتّى قتلت أبطالهم و أسرت أشرافهم .

قوله : [إن تستفتحوا] قيل : خطاب للمشركين ، روي أنّ أباجهل قال يوم بدر لمّا أراد الخروج من مكّة ، و المشركون أخذوا أستار الكعبة و قالوا : اللّهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين . المعنى : إن تستفتحوا لإحدى الفئتين فقد جاء النصر لهم وقيل : إنّ الخطاب للمؤمنين .

روي أنّه صلّى الله عليه وآله لمّا رأى المشركين كثروا استغاث بالله و كذلك الصحابة فقال الله : «إن تستفتحوا فقدجاء كم الفتح» وحصل لكم ما أردتم ووعدتم به .

قوله : [وإن تنتهوا فهو خير لكم] أي إن تمتنعوا من الكفر و قتال الرسول فهو خير لكم [وإن تعودوا] بالقتال والكفر [نعد] أي ننصرهم أيّها الكفّار ولن تفيد كم جماعتكم شيئاً وإن كثرت [وإنّ الله مع المؤمنين] بالنصر و الغلبة وعلى قول من قال : إنّ الخطاب للمؤمنين فمعناه : إن تنتهوا أيّها المسلمون عمّا كان منكم في الغنائم و في الأسارى من مخالفة الرسول فهو خير لكم ، وإن تعيدوا إلى ذلك الصنع نعود إلى ترك نصرتكم فحينئذ [لن تغني عنكم فئتكم] .

قوله : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و رسوله ولا تولوا عنه و أنتم تسمعون (٢٠) ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (٢١) ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (٢٢) ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (٢٣) .

لمّاذكر في الآية السابقة بقوله : «إن تنتهوا» أكّد في هذه الآية وأمرهم بإطاعته وإطاعة رسوله فخاطب الّذين من شأنهم الإيمان بإطاعته و بإطاعة رسوله في الأمور ، و في الجهاد بقرينة قوله :[ولا تولّوا عنه] بأن تعرضوا عن قبول أمره ومعاونته في الجهاد . قوله : [وأنتم تسمعون] دعوته .

[و لا تكونوا كالّذين قالوا سمعنا] كالمنافقين و هم ما قبلوا ؛ لأنّ السماع قد يكون السامع قابلاً و قد يكون منكراً . و «سمع» بمعنى قبل كقوله : «سمع الله لمن حمده» أي قبل الله من حامده قوله : [إنّ شرّ الدوابّ عندالله] الشرّ نقيض الخير أي إنّ شرّ من دبّ وتحرّك على وجه الأرض هؤلاء المشركون الّذين لم ينتفعوا بما يسمعون من الحقّ ولا يقرّون ولا يتكلّمون به ولا يتعقّلون فصاروا بمنزلة الدوابّ ؛

فهم صمّ وبكم بجهلهم، شبّههم الله بجهلهم وعدم تدبّرهم بالدابّة وقيل : إنّه تعالى لم يذكرهم في معرض التشبيه بل وصفهم بالوصف الّذي يليق بهم على جهة الذمّ .

ثمّ قال : [ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا] أي إنّ كلّ ماكان حاصلاً فإنّه يجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه بمعنى أنّ القبول لايوجد فيهم، فالإسماع لايحصل لهم ، وذلك لأنّهم سألوا الرسول أن يحيي لهم قصيّ بن كلاب وغيره من أمواتهم ليخبروهم بصحّة نبوّته فبيّن سبحانه أنّه إذا أحياهم حتّى يسمعوا كلامه لتولّوا عن قبول الحقّ ولأعرضوا عنه .

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم و اعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون (٢٤) .

الاستجابة ههنا بمعنى الإجابة ؛ قال الشاعر : «فلم يستجبه عند ذاك مجيب» .

كرّر في هذه الآية الأمر بإجابة الرسول و إطاعته فيما يأمركم به إذا دعاكم إلى أمر يوجب حياتكم «ولما» . ههنا بمعنى «إلى» ومايوجب الحياة هو الإيمان . وقيل : المراد الجهاد والشهادة لأنّكم إمّا تقتلون أو تقتلون ؛ فإن قتلتم فإنّ الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون وإن قتلتم فيقوى ويعظم أمر الدين والقرآن وهو حياة القلوب ، والقرآن سبب العلم و العلم حياة فجاز أن يسمّى سبب الحياة بالحياة . و يوصل القرآن إلى الحياة الباقية الطيّبة ، قال الله : « وإنّ الدّار الآخرة لهي الحيوان[1] » .

قوله : [واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه] وفسّروا الأشاعرة هذه الآية بظاهرها وهو غلط محض ؛ قالوا : إنّ الله يحول بين المرء الكافر وطاعته وبين المرء المؤمن و معصيته ؛ فالسعيد من أسعده الله والشقيّ من أضلّه الله ، تعالى عن ذلك . قالوا : فإذا أراد الكافر أن يؤمن والله لايريد إيمانه حال بينه وبين قلبه ، وإذا أراد المؤمن أن يكفر والله لايريد كفره حال بينه وبين كفره ، وهذا المعنى والتفسير باطل بالبداهة

وبيانه : قال الجبّائي : إنّ من حال الله بينه وبين الإيمان فهو عاجز عن الإتيان و القبول بالإيمان، وأمر العاجز لغو وسفه ولو جاز ذلك لجاز أن يأمرنا الله بالصعود إلى السماء

(١) العنكبوت : ٦٤ .

وقد أجمعوا على أنّ المؤمن لا يؤمر بالصلاة نائماً ، وقد قال : «لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها[1]» والّذي يأمر في المظاهر بقوله : «فمن لم يستطع فإطعام ستّين مسكيناً[2]» وأسقط فرض الصوم عمّن لا يستطيعه ، فكيف يحول ويمنع الكافر عن الإيمان ويأمر به ؟ فما أقرب هذا القول من الشعوذة !

بل المعنى أنّه إذا أمركم الله و رسوله بأمر فأطيعوه ولا تؤخّروه لأنّ الله قد يكون يحول بينه وبين الطاعة والانتفاع بسبب الموت فيدركم فتمتنعون عن الإيمان أوالتوبة أوالامتثال ؛ فبادروا الإجابة قبل أن يأتيكم الحائل ؛ فلا تغترّوا بالبقاء فإنّ ذلك غير موثوق به . وإطلاق لفظ القلب على الأمانيّ تسمية المظروف باسم الظرف وهذا شائع : كقولك : سال الوادي . وإنّ الشأن والقصّة الحشر و الجمع إليه .

قوله : و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة و اعلموا أن الله شديد العقاب (٢٥) .

كما حذّر سبحانه الناس بحيلولة أمور بينه وبين ما يتمنّاه كذلك حذّره من بعض الفتن فقال : واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصّة بل تتعدّى إليكم وتصل إلى الصالح و الطالح أي يعمّكم كالمداهنة في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع .

العيّاشيّ عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : أصابت الناس فتنة بعد ما قبض رسول الله حتّى تركوا عليّاً وبايعوا غيره و هي الفتنة الّتي فتنوا بها ، وقد أمرهم النبيّ صلى الله عليه وآله باتّباع عليّ والأوصياء بعده . وقرىء «لتصيبنّ» .

قال ابن عبّاس : لمّا نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وآله : من ظلم عليّاً بعد وفاتي فكأنّما جحد نبوّتي و نبوّة الأنبياء قبلي . القميّ في تفسيره و الرّازيّ في المفاتيح عن الحسن : نزلت في عليّ وطلحة والزّبير لمّا حاربا عليّاً يوم الجمل خاصّة .

فإن قيل : كيف يليق برحمة الرحيم أن يوصل العذاب إلى من لا يذنب ؟ قلنا :

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .
(٢) المجادلة : ٥ .

الله تعالى قد ينزل الفقر والموت والعمى والبلاء بعبده وإن لم يكن عاصياً ، إلّا أنّه يشتمل على نوع من أنواع الصلاح ، إمّا لتخفيف العذاب أو لرفع الدرجة أو مصالح اُخرى لايعلمها إلّا هو وإذا جاز ذلك جازهنا .

و اذكرو اذ أنتم قليل مستضعفون فى الارض تخافون أن يتخطفكم الناس فآونكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (٢٦) .

الخطاب للمهاجرين ، شرح لهم نعمه لأنّهم بعد ظهور أمر النبيّ ﷺ صاروا في غاية الرفعة والقوّة و كانوا قبلُ في غاية القلّة و الذلّة ، بسبب هذه النعمة يوجب عليهم الشكر و كثرة الطاعة و ترك المخالفة ؛ لأنّهم في أوّل الأمر كانوا إذا خرجوا من بلدهم خافوا أن يتخطّفهم العرب ، ثمّ قلبت تلك الأحوال بالقوّة والسعادات ، أوّلها أنّه آواهم ونقلهم من مكّة إلى المدينة فصاروا آمنين من مشركي العرب ، ثمّ نصرهم ببدر ، والثالث رزقهم من الطيّبات وهو أنّه اُحلّ لهم الغنائم بعد أن كانت محرّمة على من كان قبل هذه الاُمّة ؛ فهذه النعم الجليلة يقتضي الشكر ولايليق بكم أن تشتغلوا بالخصومات بسبب الأنفال .

يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (٢٧) و اعلموا أنما أموالكم و أولادكم فتنة و أن الله عنده أجر عظيم (٢٨) .

اختلفوا في المراد بتلك الخيانة ، وسبب النزول في الآية : قال عطاء : سمعت جابر بن عبدالله يقول : إنّ أباسفيان خرج من مكّة فأتى جبرئيل و أخبر النبيّ ﷺ أنّ أباسفيان في مكان كذا و كذا ؛ فاخرجوا إليه واكتموا ، قال : فكتب إلى أبي سفيان رجل من المنافقين : إنّ محمّداً يريد كم فخذوا حذر كم فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : إنّ المنافقين يسمعون النبيّ من الشيء فيفشونه ، حتّى يبلغ المشركين .

وقال الزهريّ والكلبيّ : نزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر الأنصاريّ وذلك أنّ رسول الله حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح على ما صالح عليه إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من بلاد الشّام ، فأبى رسول الله أن يعطيهم

ذلك إلّا أن ينزلوا على حكم سعدبن معاذ ، فقالوا : أرسل إلينا أبالبابة و كان مناصحاً لهم ؛ لأنّ عياله وماله كانت عندهم ، فبعثه رسول الله فقالوا : ماترى يا أبا لبابة ؟ أتنزل على حكم سعدبن معاذ ؟ فأشار أبولبابة بيده إلى حلقه : إنّه الذّبح فلا تفعلوا ؛ فأتاه جبرئيل وأخبره بذلك ، قال أبولبابة : فوالله مازالت قدماي من مكانهما حتّى عرفت أنّي خنت الله و رسوله ، فنزلت الآية ؛ فشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد فمكث سبعة أيّام لا يذوق طعاماً حتّى خرّ مغشيّاً عليه ، ثمّ تاب الله عليه وتصدّق بثلث ماله بحكم النبيّ ﷺ وبالجملة منع الناس مطلق الخيانة في الدين و الدنيا .

قال القاضي : الأقرب أنّ خيانة الله غير خيانة الرسول ، وخيانة الرسول غير خيانة الأمانة ؛ لأنّ العطف يقتضي المغايرة ، أمرهم الله أن لايخونوا الغنائم ، و جعل ذلك خيانته وخيانة لرسوله ؛ لأنّه القيّم بقسمها وتصرّفها ؛ فمن خانها خان الرسول . ويشمل كلّ أمانة ؛ لأنّ العبرة بعموم اللّفظ لابخصوص السّبب . و «الخون» معناه النّقص كما أنّ الوفاء معناه التمام .

[وأنتم تعلمون] أي يحصل الخيانة منكم عن تعمّد لاعن سهو . و المعنى : أنتم تعلمون بعقولكم قبح الخيانة من الذّم والعقاب و اعلموا أنّ أولادكم وأموالكم بليّة عليكم ابتلاكم الله بها فإنّ حبّ أبي لبابة و أمواله حمله على مافعله لأنّها كانت في أيدي اليهود ، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين في قوله : «لايقولنّ أحدكم : اللّهمّ إنّي أعوذبك من الفتنة لأنّه ليس أحدٌ إلّا وهو مشتمل على فتنة ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلّات الفتن » .

يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم والله ذو الفضل العظيم (٢٩) .

لمّا حذّر عن الفتنة بالأولاد والأموال رغّب في التقوى الّتي يوجب ترك الميل و الهوى في محبّة الدّنيا فقال : يا أيّها المؤمنون الّذين بصراط الإيمان [إن تتّقوا الله] باتّقاء معاصيه أي الكبائر وتؤدّوا فرائضه [يجعل لكم] نوراً في قلوبكم تفرّقون به بين الباطل والحقّ ومخرجاً في الدّنيا والآخرة [ويكفّر عنكم سيّئاتكم] الّتي عملتموها و

صغائركم ، أوعامّ من الصغائروالكبائر .

[والله ذوالفضل العظيم] على خلقه بماأنعم عليهم فإذا ابتدأ بالفضل من غيراستحقاق فإذا استحقّوا بطاعتهم فذلك بطريق أولى .

والمراد من التكفير سترها و من المغفرة إزالتها ، و من المعلوم أنّ التقوى يوجب انشراح الصدر و زوال الظلمة عن القلب و ذلك يوجب معرفة الباطل عن الحقّ وهو الفرقان .

قوله : وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين (٣٠) .

نزلت في قصّة دار النّدوة و ذلك أنّ نفراً من قريش اجتمعوا فيها ، وهي دارقصيّ بن كلاب ، وتؤامروا في أمر النّبيّ ؛ فقال عروة بن هشام : نتربّص به ريب المنون ، وقال أبو البحتريّ : أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه ؛ فقال أبوجهل : ما هذا الرّأي ، ولكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كلّ بطن غلام فيضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد ؛ فيرضى بنوها ثم حينئذ بالدّية .

العيّاشيّ عن أحدهما عليهما السلام : إنّ إبليس صوّب لهم هذا الرّأي ، وتصوّر لهم بصورة شيخ نجديّ ، لكنّ القاضي أنكر هذا القول ، وقال : لا يتمكّن إبليس إلى هذا الحدّ من السّلطة . فاتّفقوا على هذا الرأي وأعدّوا الرّجال والسّلاح فنزل جبرئيل وأخبر رسول الله فخرج إلى الغار وأمر عليّاً فبات على فراشه ؛ فلمّا أصبحوا و فتّشوا عن الفراش وجدوا عليّاً ، وقد ردّ الله كيدهم و مكرهم ؛ فأرسلوا في طلبه واقتفوا أثره ؛ فلمّا بلغوا الجبل و مرّوا بالغار رأوا على باب الغار نسج العنكبوت ؛ فقالوا : لوكان ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه .

المعنى : واذكر يامحمّد صلى الله عليه وآله إذ أرادوا إهلاكك و هم مشركو العرب ، منهم عتبة وشيبة أبناء ربيعة و النّضر بن الحارث و أبوجهل بن هشام و ربيعة الأسود وحكيم بن حزام وأُميّة بن خلف وغيرهم [ليثبتوك] في الوثاق والحبس في بيت ، وقريء «ليبيتوك» أوالمعنى : ليثخنوك من الجرح بحيث لاتقدر على الحركة بحيث تثبت في مكان ؛ قال الشّاعر :

فقلت ويحك ماذا في صفيحتكم * قالوا الخليفة أمسى مثبتاً وجعاً

[أو يقتلوك أو يخرجوك] من مكّة أو يخرجوك على بعير ، ويطردونه حتّى يذهب في وجهه ويدبّرون في إهلاكك ويدبّر الله في أمرهم [والله خير الماكرين] وهذا من باب المقابلة في الكلام مثل : وجزاء سيّئة سيّئة ؛ لأنّه لا يمكر إلّا ما هو حقّ وصواب ، وهو إنزال المكروه بمن يستحقّه ، أو المعنى : خير المجازين على المكر .

النظم : اتّصلت الآية بقوله : «واذكروا إذ أنتم قليل» .

قوله : وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين (٣١) واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (٣٢) وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٣٣) وما لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتقون ولكن اكثرهم لايعلمون (٣٤) .

بقيّة شرح هؤلاء المشركين المكذّبين بأنّهم ما قنعوا بالمكر من نفس محمّد ﷺ بل مكروا في كتاب محمّد ﷺ . روي أنّ النّضر بن الحارث خرج إلى الحيرة تاجراً ، و اشترى حكايات كليلة و دمنة ، وكان يقعد مع المستهزئين ـ و هو منهم ـ فيقرء عليهم قصص كليلة ودمنة ، وكان يقول ما تقول محمّد مثل هذه المقالات .

وبالجملة [إذا تتلى عليهم آياتنا] الّتي من حقّها أن تخرّ لها الجبال الصمّ [قالوا سمعنا] وأدركنا بآذاننا [لو نشاء لقلنا] مثلها قاله اللّعين النضر بن الحارث ، وإسناده إلى الكلّ لأنّه كان رائسهم ويأخذ بالراية ، و لو استطاعوا شيئاً من ذلك فما الّذي كان يمنعهم أن يأتوا بمثله ، وقد تحدّوا عشر سنين ؟ وقورعوا بالسّيف مع فرط استنكافهم و ميلهم بالغلبة وقد عجزوا ، وهذا الملعون أسر يوم بدر ، فقال النّبيّ لعليّ عليه السلام : عليّ بالنّضر ؛ فأمر عليّاً بقتله فقتله . وقد سبق شرح قتله هذا .

قوله : [وإذ قالوا اللّهمّ إن كان] إلخ . المعنى : قال رسول الله ﷺ لقريش : إنّ الله بعثني أن أقاتل من يعبد غيره ، وأجرّ الملك إلى أهل الإسلام فأجيبوني إلى ما أدعوكم إليه تملكوا العرب وتدين لكم به العجم وتكونوا ملوكاً في الجنّة . فقال أبو جهل : إن

كان هذا هو الحق وهذا الذي يقوله محمد هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، حسداً لرسول الله ، ثم قال اللعين : كنا وبنوها شم كفرسي رهان فنحمل إذ حملوا ونطعن إذا طعنوا و نوقد إذا أو قدوا ؛ فلما استوى بنا وبهم الركب ، قال قائل منهم : منا نبي ، ولانرضى بذلك أن يكون في بني هاشم ولا يكون في بني مخزوم ، ثم قال : غفرانك اللهم فأنزل الله في ذلك :

[وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون] حين قال : غفرانك اللهم فلما هموا بقتل رسول الله وأخرجوه من مكة قال الله : [ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وماكانوا] يعني قريشاً [أولياءه] أولياء البيت [إن أولياؤه إلا المتقون] أنت يا محمد صلى الله عليه وآله وأصحابك الصادقون فعذبهم الله يوم بدر فقتلوا .

في الكافي عن أبي بصير قال : بينما رسول الله جالس إذا أقبل أمير المؤمنين ؛ فقال له رسول الله : إن فيك شبهاً من عيسى بن مريم ولولا أن يقول الناس من أمتي ما قالت النصارى في عيسى لقلت فيك قولاً لاتمر بملأ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون البركة ، قال : فغضب الأعرابيان و المغيرة بن شعبة وعدة من قريش معهم ؛ فقالوا : مارضي لابن عمه مثلاً إلا عيسى بن مريم فأنزل الله على نبيه : «ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون * و قالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ـ أي من بني هاشم ـ ملائكة في الأرض يخلفون[١]» فغضب الحارث بن عمرو الفهري ؛ فقال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك من أن بني هاشم يتوارثون هرقلاً بعد هرقل فأرسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ؛ فنزلت الآية : « وماكان الله ليعذبهم » (الآية) فقال النبي صلى الله عليه وآله يا ابن عمرو أما تبت وأما رحلت فدعا براحلته فركبها ؛ فلما كان بظهر المدينه أتته جندلة فرضت هامته . فقال رسول الله لمن حوله من المنافقين : انطلقوا إلى صاحبكم فقد أتاه ما استفتح به قال الله : «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد »[٢] .

(١) الزخرف : ٥٧ - ٦٠ . (٢) ابراهيم : ١٨ .

وفي المجمع عن الصادق عن آبائه : لمّا نصب النّبيّ عليّاً يوم الغدير شاع ذلك في البلاد ؛ فقدم النّعمان بن الحارث الفهريّ فقال : أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلّا الله ، وأنّك رسول الله ، وأمرتنا بالجهاد والحجّ والصّوم والصّلاة والزّكاة فقبلناها ، ثمّ لم ترض حتّى نصبت لنا هذا الغلام وقلت : من كنت مولاه فعليّ مولاه ؛ فهذا أمر منك أم من الله ، فقال عليه السلام : والله الّذي لا إله إلّا هو إنّ هذا من الله فولّى نعمان وهو يقول : اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء ؛ فرماه الله بحجر على رأسه فقتله ، وأنزل الله : « سأل سائل بعذاب واقع »[١] وفي نهج البلاغة : «كان في الأرض أمانان من عذاب الله فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به ، أمّا الأمان الّذي رفع فهو رسول الله ، وأمّا الأمان الباقي فهو الاستغفار ثمّ تلا الآية .

العيّاشيّ عن الصادق عليه السلام : كان رسول الله و الاستغفار حصنين لكم من عذاب الله فمضى أكبر الحصنين و بقي الاستغفار ، فأكثروا منه فإنّه ممحاة الذّنوب .

قوله : وما كان صلوتهم عند البيت الامكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٥) .

لمّا ذكر سبحانه أنّهم ليسوا أولياء البيت بل أولياء البيت المتّقون بيّن في هذه الآية أنّهم ليسوا من أهل الإيمان والصّلاة ، لأنّ صلاتهم وعبادتهم مكاء يقال « مكا بفيه» أي صفر كانوا يصفرون ويصفقون ويعارضون النّبيّ ويستهزئون به ويخلطون عليه طوافه ، وإذا صلّى يقومون عن يمينه ويساره بالتّصفير والتّصفيق للإيذاء .

فلو قيل : إنّ التصفير والتّصفيق ليس من جنس الصّلاة فكيف الاستثناء ؟ قيل : على معتقدهم شباهة ، أو المراد أنّ من كان المكاء صلاته فلا صلاة له كقولك : مالفلان عيب إلّا السّخاء ومعلوم أنّ من كان السّخاء عيبه فلا عيب له . ثمّ قال : [فذوقوا العذاب] بكفركم ، إمّا عذاب السّيف أو عذاب النّار أو كليهما .

قوله : ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون(٣٦) والذين كفروا الى جهنم يحشرون(٣٧) ليميز

---

(١) المعارج : ١ .

الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم اولئك هم الخاسرون (٣٨) .

أي كما أنّ الكفّار يخالفون الرّسول في الصّلاة والطّاعات البدنيّة كذلك يصرفون أموالهم في المخالفة معه لانحلال أمره . قال سعيد بن جبير ومجاهد : نزلت في أبي سفيان وإنفاقه المال في حرب محمّد ﷺ ؛ فإنّ اللّعين كان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقية ذهباً والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً - بيّن سبحانه أنّ غرضهم من هذا الإنفاق صدّ النّاس من دين الله وسبيله ، وسبيل الله اتّباع محمّد ﷺ .

قال سبحانه : [فسينفقونها] ويكون عليهم حسرة ولايفيد لغرضهم ، وعاقبتهم أنّهم مغلوبون والّذين بقوا منهم على الكفر إلى جهنّم يجمعون . وتقديم الخبر للحصر . قوله [ليميز الله] ليتميّز نفقة الكافرين من نفقة المؤمنين . والمعنى : ليتميّز المؤمن عن الكافر ، والفريق الخبيث عن الفريق الطّيب [ويجعل الخبيث بعضه على بعض] فيضمّه ويجعله حتّى تراكموا كالسحاب المتراكم فيلقيها في جهنّم ويعذّبهم وهم الخاسرون .

قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين (٣٩).

[قل] لهم يامحمّد ﷺ هذا القول : [إن ينتهوا] عن الكفر وعداوة الرّسول ودخلوا الإسلام غفر الله لهم ماسلف من كفرهم ، وإن عادوا وبقوا على كفرهم وأصرّوا ، ويمكن أن يكون من العود القتال والمعارضة مع النّبيّ [فقد مضت]أحوال أمثالهم من الّذين تحزّبوا على الأنبياء وحاربوهم من الخذلان والهلاك كماجرى على قوم موسى وغيره والوعيد الّذي أوعدهم من العذاب الدّائم .

وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير (٤٠) وان تولوا فاعلموا ان الله مولىكم نعم المولى ونعم النصير (٤١)

الخطاب للنّبيّ ﷺ و المؤمنين وهو أنّ الأنصار لمّا بايعوا الرّسول في العقبة تؤامرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فابتلي بعض المؤمنين وأصاب بعضهم جهد شديد

من قريش ، وأمر النّبي أن يخرجوا إلى الحبشة فأمر الله بقتالهم حتّى يزول هذه الفتنة و يكون الدّين كلّه لله .

روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال لم يجيء تأويل هذه الآية ، ولو قام قائمنا يأتي تأويلها ، وليبلغنّ دين محمّد صلى الله عليه وآله مابلغ اللّيل حتّى لايكون مشرك على ظهر الأرض ، كما قال سبحانه « يعبدونني لايشركون بي شيئاً (١) » والمقصود من أمر القتال رفع الفتنة من إيذاء الكفّار المؤمنين ، وهذا الغرض قدحصل بالقتال قوله : فإن انتهوا عن الكفر بالإيمان والرجوع بالله لا يخفى عليه شيء ويعلم ويرى .

[وإن تولّوا] وأعرضوا [فاعلموا] أيّها المؤمنون [أنّ الله] صاحبكم وناصركم ؛ فثقوا به ولاتخافوا من معاداتهم وهو نعم الصّاحب والنّاصر .

واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم امنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير (٤١) .

الغنيمة عند أهل السّنّة مادخلت في أيدي المسلمين من أموال الكفّار على سبيل القهر بالخيل والركاب ، والفيء ما أُخذ من غير قتال ، و عندهم يجب في الغنيمة الموصوفة بهذا الوصف الخمس ، وعندنا الخمس واجب في كلّ فائدة يحصّل الإنسان من المكاسب وأرباح التجارات و في الكنوز والمعادن والغوص وغير ذلك ممّا هو مذكور في الكتب الفقهيّة .

ويقسّم الخمس ستّة أسهم : سهم لله وهو للرسول ، وسهم للرسول وسهم الرسول يرثه الامام المنصوب بنصّه ، وسهم للإمام المنصوب فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستّة ، والثّلاثة الأخيرة لأيتام آل الرّسول ومساكينهم وأبناء سبيلهم ، وإنّما صارت للإمام وحده ثلاثة أسهم لأنّ الله ألزمه بما ألزم الرّسول من تربية الضّعفاء والفقراء و مؤونتهم وقضاء ديونهم وحملهم في الجهاد والحجّ ومصالح الإسلام ، وذلك من قول الله لمّا أنزل عليه : «النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم (٢)» وهو أب لهم ؛ فلمّا جعله أباً للمؤمنين لزمه مايلزم الوالد للولد فقال عند

---

(١) النور : ٥٤ .
(٢) الاحزاب : ٦ .

ذلك : من ترك مالاً ولم يكن له وارث يورّثه ومن ترك ديناً أوضياعاً فعلي وليّ . و كلمة «ما» في «ما غنمتم» موصولة . وإنّما جعل الثّلاثة الأسهم الأخيرة للأيتام و المساكين وأبناء السّبيل من بني هاشم خاصّة ؛ لأنّ الله حرّم عليهم الصّدقات لكونها أوساخ النّاس وهم أجلّ خطراً .

هذا عند الإماميّة : وأمّا عند الجماعة : ففيه أقوال :

قيل ـ والقائل أبو العالية والرّبيع ـ : إنّه يقسّم على ستّة إلّا أنّ سهم الله للكعبة و الباقي لمن ذكره الله عملاً بظاهر الآية .

والقول الثاني : يقسّم على خمسة أسهم وسهم الله والرّسول واحد ويصرف هذا السّهم إلى الكراع[1] والسّلاح وهو المرويّ عن ابن عبّاس وإبراهيم وقتادة وعطاء .

والقول الثّالث : قال الرّازيّ في المفاتيح : وأمّا بعد وفاة الرّسول فعند الشّافعيّ أنّه يقسّم على خمسة أسهم : سهم لرسول الله يصرف إلي ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين لعدّة الغزاة من الكراع والسّلاح . وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسّم بينهم للذّكر مثل حظّ الأنثيين ، والباقي للفرق الثلاثة وهم اليتامى والمساكين و ابن السّبيل .

وقال أبو حنيفة : إنّ بعد وفاة الرّسول سهمه ساقط بسبب موته و كذلك سهم ذوي القربى وإنّما يعطون لفقرهم فهم أسوة سائر الفقراء ، ولا يعطى أغنياؤهم فيقسّم على اليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقال مالك : الأمر في المجلس مفوّض إلى رأي الإمام : إن رأى قسمه على هؤلاء يعمل وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعضهم .

واعلم أنّ القائلين بأنّ سهم الله ورسوله واحد يقولون: إنّ قوله : « لله » ليس المقصود إثبات نصيب لله ؛ فإنّ الأشياء كلّها ملك لله وإنّما المقصود افتتاح الكلام بذكر الله على سبيل التعظيم كما في قوله « قل الأنفال لله والرّسول[2] » واحتجّ القفال على صحّة قوله بقوله ﷺ لهم في غنائم خيبر : مالي ممّا أفاء الله عليكم إلّا الخمس . وروى الحسن وقتادة أنّ

---

(١) يطلق على الخيل و البغال والحمير . (٢) السورة : ١ .

سهم الله وسهم الرّسول وسهم ذي القربى للإمام القائم من بعد الرّسول ينفقه على نفسه و عياله ومصالح المسلمين وهو مذهبنا .

[واليتامى والمساكين وابن السّبيل] قالوا : إنّ هذه الأسهم الثلاثة لجميع النّاس وإنّه يقسّم على كلّ فريق منهم بقدر حاجتهم ، ولكن عندنا الإماميّة يختصّ باليتامى والمساكين وابن السّبيل من بني هاشم انتهى . قوله : [إن كنتم آمنتم] إنّ هذه وجوه أقسام الغنيمة وطريق قسمتها إن كنتم مؤمنين وآمنتم بالله ، وعرفتم أنّ الله ناصركم .

وأنزلنا نصرنا على محمّد ﷺ [يوم التقى الجمعان] جمع المسلمين وهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، وجمع الكافرين و هم قدر المتّفق عليه تسع مائة إلى ألف من شجعان قريش فهزموهم و علمتم أنّ ظفركم كان بنا يوم الفرقان والمراد يوم بدر ؛ لأنّ الله فرّق بين المسلمين والمشركين بإعزاز المؤمنين وقمع المشركين وذلّلهم ، وكان يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة [والله على كلّ شيء قدير] .

قوله : اذأنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى و الركب أسفل منكم و لو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد و لكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حي عن بينه و ان الله لسميع عليم(٤٢) اذ يريكهم الله في منامك قليلا و لو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الامر لكن الله سلم أنه عليم بذات الصدور (٤٣) .

«العدوة» شفير الوادي وللوادي عدوتان وهما جانباه و «الدنيا» تأنيث الأدنى من دنوت و « القصوى » تأنيث الأقصى جانب مكّة ، وما كان من النعوت على فعلى من بنات الواو فإنّ العرب تحوّله إلى الياء نحو الدّنيا والعليا استثقالاً للواو مع ضمّ الأوّل .

المعنى: إذ أنتم أقلّة أذلّة نازلين بشفير الوادي الأقرب إلى المدينة[وهم]أي المشركون نازلين بالشفير الأبعد من المدينة [والركب] و العير أي أبوسفيان و أصحابه ، في موضع [أسفل منكم] قريب ساحل البحر على ثلاثة أميال ، وأنتم أيّها المسلمون في قلّة الماء والرمل الّذي تسوخ الأقدام فيه ، و كثرة عدد المشركين ونزولهم على الماء والعير أسفل منهم ، و فيها رؤوس أموالهم مع هذا كلّه كان الفتح لكم .

[ولو تواعدتم] أنتم وأهل مكّة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لكثرتهم وقلّتكم [و لكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً] أي ينصركم ويخرج ويحصل هذا الأمر إلى الفعل ، وصار الدمار على المشركين ؛ فهذا من عظيم المعجزات على صدق نبوّته ﷺ من وعده بالنصر وقد وقع . «واللام» في «ليهلك» لام الغرض والأجل أي لأنّ الّذي يهلك يهلك عن بيّنة و تتمّ عليه الحجّة و كذلك من يحيى يحيى بالبيّنة و المعرفة وهو [لسميع] دعوتكم و [عليم] بحاجتكم .

قوله : [إذ يريكهم الله] هذا هو النّوع الثاني من النعم الّتي أنعم الله بها على أهل بدر . والعامل في قوله «إذ يريكهم الله » قيل : «أتاكم النصر» و قيل بفعل محذوف تقديره : واذكر يا محمّد إذ يريكهم الله في نومك بأنّ المشركين قليلون فأخبر النبيّ ﷺ رؤياه للأصحاب فأجرأ المسلمون على قتال الكفّار .

فإن قيل : رؤية الكثير قليلاً خلاف الواقع فكيف يجوز من الله ؟ فالجواب أنّه أراه البعض دون البعض فحكم الرسول على أُولئك الّذين رآهم بأنّهم قليلون ، ثمّ إنّ الرؤيا تصوّر يتوهّم معه الرؤية ، ولا يكون إدراكاً و لا علماً كما يتخيّل السراب ماء من غير قطع أنّه ماء ، و هذا يجوز في الرؤيا . والرؤيا على أربعة أقسام : رؤيا من الله ، ولها تأويل ورؤيا من وساوس الشيطان ، ورؤيا من غلبة الأخلاط ، ورؤيا من الأفكار ، و كلّ هذه الثلاثة أضغاث أحلام .

هذا قول بعض المفسّرين و قال قليل من المفسّرين : معنى «في منامك» أي عينك تسمية للظرف باسم المظروف لأنّ العين موضع النّوم و قالوا : ليس المراد من الرّؤيا في النوم ، وهذا قول الحسن و البلخيّ .

قوله : [ولو أراكهم كثيراً] على ماكانوا عليه [لفشلتم] وجبنتم على قتالهم و ضعفتم [ولتنازعتم] في أمر القتال ؛ فبعض منكم كان يقول نقاتلهم ، وبعض أُخر يخالفونهم [ولكن الله سلّم] المسلمين عن اختلاف الكلمة بلطفه [إنّه عليم] بما في قلوبكم .

واذ يريكموهم اذا التقيتم فى اعينكم قليلا ويقللكم فى اعينهم ليقضى الله امراً كان مفعولا والى الله ترجع الامور (٤٤) .

ولمّا رأى النبيّ قلّة عدد المشركين و أخبر المسلمين أكّد هذا المعنى في اليقظة بأن رأى المسلمون عدد المشركين قليلين حتّى يجترئوا على القتال معهم ، وكذلك رأى المشركون عدد المسلمين قليلين حتّى لايتأهّبوا في الحرب من السلاح والكراع ؛ لأنّهم لمّا استقلّوا المسلمين لم يبالغوا في التأهّب وهذه معجزة النبيّ صلى الله عليه وآله وذلك قوله «ويقلّلكم» وقد روي أنّ أباجهل كان يقول : خذوهم بالأيدي أخذاً و لا تقاتلوهم ، وذلك الأمر حصل ليقضي الله أمراً كان مفعولاً بجهادكم وغلبتكم .

يا ايها الذين آمنوا اذالقيتم فئة فاثبتوا و اذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون (٤٥) واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم و اصبروا ان الله مع الصابرين (٤٦) .

علّم الله البدريّين بعد فتحهم أنّه إذا التقوا جماعة من المحاربين الثبات بأن يوطّنوا أنفسهم على اللّقاء ولا يتولّون ، ويذكرون الله كثيراً .

وفي تفسير هذا الذكر قولان : أحدهما أن يكونوا بقلوبهم ذاكرين الله وبألسنتهم قال ابن عبّاس : أمر الله أولياءه بذكره في أشدّ الأحوال تنبيهاً على أنّ الإنسان ينبغي أن لايخلّي قلبه و لسانه عن ذكر الله ، ولو أنّ رجلاً أقبل من المغرب إلى المشرق ينفق الأموال سخاء و الآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله كان الذاكر أعظم أجراً .

والقول الثاني أنّ المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر .

ثمّ قال : [لعلّكم تفلحون] فالفلاح حاصل إذا كانت المقاتلة لسبيل دين الله ؛ لأنّه إن غلب العدوّ فاز بالثواب و الغنيمة ، و إن صار مغلوباً فاز بالشهادة و الدّرجات العالية ثمّ قال مؤكّداً لذلك بقوله : [أطيعوا الله ورسوله] في سائر الأمور ؛ لأنّ الجهاد ينفع مع التمسّك بسائر الطاعات . ثمّ قال : [ولاتنازعوا فتفشلوا] لأنّ الاختلاف و النزاع يوجب الوهن والضعف [وتذهب ريحكم] والمراد بالرّيح الدّولة والشوكة ، وهذه كناية مستعارة يقال : هبّت رياح بني فلان إذا دانت لهم الدولة ، أوالمراد بالرّيح حقيقة كما في الحديث ، قال صلى الله عليه وآله : نصرت بالصّبا وأُهلكت عاد بالدبور والقول الأوّل أقوى [واصبروا] و تثبّتوا في

الأمور إنّه يحبّ من صبرعلى الشدائد .

قوله : ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس و يصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط (٤٧) .

قال المفسّرون : إنّ قريشاً لمّا خرجوا من مكّة لحفظ العير ووردوا الجحفة بعث الحفاف الكنانيّ ـ وكان صديقاً لأبي جهل ـ بهدايا إليه مع ابن له ؛ فلمّا أتاه قال : إنّ أبي ينعمك صباحاً ويقول : إن شئت أن أمدّك بالرّجال أمددتك ، و إن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت ؛ فقال أبوجهل : قل لأبيك : جزاك الله و الرّحم خيراً إن كنّا نقاتل الله كما يزعم محمّد فوالله لاطاقة لنا به ، وإن كنّا نقاتل الناس فوالله إنّ بنا على الناس لقوّة ، والله مانرجع عن قتال محمّد حتّى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور بالمضارب والقيان ، فإنّ بدراً موسم من مواسم العرب وسوقاً من أسواقهم حتّى تسمع العرب بهذه الواقعة . قال المفسّرون : فوردوا بدراً وشربوا كؤوس المنايا دون الخمور ، وناحت عليهم النوائح عوض القيان !

و الله وصفهم بثلاثة أشياء : البطر و هو الطغيان في النعمة . و الثاني قوله : [ورئاء الناس] والرئاء عبارة عن القصد إلى إظهار الجميل مع أنّ باطنه قبيح ، و معناه قريب من النفاق لأنّ النّفاق إظهار صورة معناها غيرها وباطنها غير ظاهرها . و الثالث : [ويصدّون عن سبيل الله] .

فلوقيل : عطف الفعل على الاسم غير حسن ؟ فجوابه إمّا الاسم بمعنى الفعل أي يبطرون ويراؤون ، وإمّا الفعل بمعني الاسم أي صادّين ليكون العطف من جنس الكلمة وكانوا يمنعون الناس عن الإيمان بالله والجهاد في سبيله ، و الله بعملهم محيط من الرياء و سوء القصد .

قوله : اذزين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما ترآءت الفئتان نكص على عقبيه و قال اني بريء منكم اني ارى مالاترون اني اخاف الله والله شديد العقاب (٤٧) .

[واذكر إذزيّن لهم الشيطان] عطف على حال المشركين الّذين خرجوا من ديارهم

بطراً ، وفي كيفيّة هذاالتزيين وجهان . و قد أشرنا به قبل . قيل : إنّ الشيطان زيّن بالوسوسة ، وقيل : تحوّل فيصورة الإنسانبصورة سراقة بنمالك و كان سراقة الكنانيّ من أشرافهمفجاء و أخذا لراية [و قال] لقريش : [لاغالب لكم اليوم منالناسوإنّي مجير لكم] من بني كنانة و ذلك لأنّهم كانوا قبل ذلك قتلوا من بني كنانة واحداً فلم يأمنوا قريش أن يأتوهم من ورائهم فلمّا رأى إبليس نزول الملائكة ، عرفهم و عرفوه ولّى اللّعين بطريق القهقرى [ونكص علىعقبيه]فقالله الحارث : أتخذلنا في هذهالحالة ؟ فقال : [إنّي أرى مالا ترون] ووقع في صدر الحارث وانهزم ولمّارجعوا إلى مكّةقالوا : هزمالناسسراقة فبلغ ذلكسراقة فقال : والله ماعلمتبمسير كم ، حتّىبلغتنيهزيمتكم .

و أنكر بعض أنّ الشيطان ليس له القدرة إلى هذا الحدّ بأن يتصوّر بصورة الإنسان . ولم يقدره الله بهذه القدرة . قال الشيخ المفيد أبوعبدالله محمّدبن محمّدبن النعمان قدس سرّه : يجوز أن يقدرالله الجنّ ومن جرى مجراهم علىأن يتجمّلوا ببعضجواهرهم حتّى يتمكّن الناس من رؤيتهم ، ويتشبّهوابغيرهم من أنواع الحيوان ، وقد استفاض هذا الخبر أنّ اللّعين تراءى لأهل البدر فيصورة سراقة ولأهل الندوة في صورة شيخ نجدي و جبرئيل ظهر لأصحاب الرّسول فيصورة دحية الكلبيّ .

أقول : وقديكونيقع بمثل هذه الموارد اتّفاقاً بتغيير الله صورهم للامتحان لكن لاعلىسبيل الكلّيّة بأنيقدر إبليس في كلّ حينمن الأحيان هذاالأمر . و قيل : لمّارأى اللّعين نزول الملائكة خاف أن يكون الوقت المعلوم قد حضرفخاف ، وخوفه لأجلهذا الاحتمال .

قوله : [والله شديد العقاب] يمكن أن يكونمن بقيّة قول إبليس ، و يحتمل أن ينقطع كلامهعندقوله : أخافالله ، ثمّقالتعالى : واللهشديدالعقاب .

قوله تعالى : اذ يقول المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض غر هولاء دينهم و من يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم (٤٩)

إنّما لميدخل الواو في«إذ يقول» ودخلتفيقوله : «وإذزيّن» لأنّقوله : «وإذزيّن» عطف على ماقبله وهذه الآية كلاممبتدأ منقطععن ما قبله ، والعامل في «إذ» : «والله شديد

العقاب » بيان الآية : أمّا المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج ، و أمّا الّذين في قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا .

ثمّ إنّ قريشاً لمّا خرجوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اُولئك : نخرج مع قومنا فإن كان محمّد صلى الله عليه وسلم في كثرة خرجنا إليه وإن كان في قلّة أقمنا في قومنا قال محمّد بن إسحاق : قتل هؤلاء مع المشركين و هم جماعة منهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعليّ بن اُميّة بن خلف و العاص بن منبّه بن الحجّاج ، والحارث بن زمعة ، و أبوقيس بن فاكهة ؛ فلمّا رأوا قلّة المسلمين قالوا : «غرّ هؤلاء دينهم» أي غرّ المسلمين دينهم حتّى خرجوا مع قلّتهم لأجل دينهم واغترّوا بقول محمّد صلى الله عليه وسلم ، ولم يحسنوا التدبير والنظر لأنفسهم ؛ فبيّن الله سوء عقيدتهم ، فإنّ من سلّم أمره إلى الله فإنّ الله غالب على أمره وحكيم في أفعاله .

ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم وذوقوا عذاب الحريق (٥٠) ذلك بما قدمت أيديكم و ان الله ليس بظلام للعبيد (٥١) .

لمّا شرح الله حال هؤلاء الكفّار في الدنيا شرح أحوال موتهم ، و العذاب الّذي يصل إليهم . وقرىء «إذ تتوفّى» بالتاء على تأنيث الجماعة ، وجواب «لو» محذوف ، والتقدير : لرأيت أمراً هائلاً . قوله [ولو ترى] أي ولو عاينت وشاهدت فإنّ «لو» تردّ المضارع إلى الماضي كما تردّ كلمة «إن» الماضي إلى المضارع ، و يجوز أن يكون الفاعل في «يتوفّى» : «الله» . «والملائكة» مرفوعة بالابتداء «و يضربون» خبره أي يقبضون أرواحهم أي الذّوات الكافرة تستوفي من بدنه وجسده ، قوله [يضربون وجوههم وأدبارهم] قال ابن عبّاس : كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف وإذا ولّوا ضربوا أدبار المسلمين ؛ فلا جرم قابلهم الله بمثله وقت النّزع .

قوله : [ذوقوا عذاب الحريق] أي يبشّرهم ويقول لهم : «ذوقوا» و نظيره في القرآن كثير كقوله : «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا [(١)] » أي ويقولان : ربّنا تقبّل منّا . قال ابن عبّاس : ويقول الملائكة لهم : «ذوقوا عذاب الحريق »

(١) البقرة : ١٢١ .

لأنّه كان مع الملائكة مقامع ، وكلّما ضربوا بها التهبت النار في الأجزاء والأبعاض ؛ فذلك قوله : «ذوقوا عذاب الحريق» .

ثمّ قال : [ذلك بما قدّمت أيديكم] من أعمالكم وعقائدكم ، يقال لهم هذا القول ، والقائل إمّا الله أو الملائكة ، أي فعلنا ذلك بسبب تقديمكم الكفر على الإيمان ، و إنّما عبّر باليد مع أنّ الإيمان والكفر أمر متعلّق بالقلب ، لأنّ اليد مظهر القدرة و آلة كلّ أمر ؛ فحسن هذا المجاز ؛ فإنّ الإنسان جوهر واحد وهو الفعّال والدرّاك وهو المؤمن وهو الكافر وهو المطيع وهو العاصي ، وهذه الأعضاء آلات له و أدوات له في الفعل ؛ فاُضيف الفعل في الظاهر إليها لكنّ الجسم أي الأدوات والجوهر أي الإنسان مشتركان في النعيم و الجحيم ؛ لأنّ ذلك الجوهر لا يتحقّق وجوده الخارجيّ إلّا بتحقّق وجود الآلات ، والآلات لا تتمكّن من الورود في أمر من الاُمور إلّا بإشارة ذلك الجوهر ؛ فهما مشتركان في العمل فحينئذ لايجوز أن يعذّب أو يتنعّم أحدهما دون الآخر [وأنّ الله ليس بظلّام] لعبيده وأنّهم أقدموا على أنفسهم فاستوجبوا العذاب .

قوله : كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوى شديد العقاب (٥٢) ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم (٥٣) كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين (٥٤) .

«كدأب» خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : دأبهم كدأب و عادة أتباع فرعون في الكفر و كدأب الكافرين من قبلهم بالرسل و بما اُنزل إليهم ، أو المعنى أنّ عقوبة هؤلاء المشركين في زمانك كعقوبة تلك ؛ فأخذهم الله بسبب كفرهم فجوزي هؤلاء في بدر بالقتل و السّبي كما جوزي اُولئك بالإغراق . ومعنى الدّأب العادة وإدامة العمل والمواظبة على أمر ، و السّبب في ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم ؛ لأنّه سبحانه أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع لأن يشتغلوا بما اُريد منهم ؛ فإذا عكسوا الأمر وصرفوا هذه الأحوال إلى المعصية والكفر ، فقد غيّروا نعمة الله على أنفسهم ؛ فلاجرم استحقّوا تبديل النعم بالنقم و المنح بالمحن .

و ذكروا في تكرار قوله : « كدأب آل فرعون» وجوهاً كثيرة : أحدها أنّ الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأوّل ؛ و الكلام الأوّل ذكر أخذهم و في الثاني ذكر كيفيّة أخذهم بالإغراق ، أو أنّه أُريد بالأوّل ذكر مانزل بهم من العقوبة حال الموت وبالثاني ماينزل بهم في القبر والآخرة .

وبالجملة شبّه الله حال المنكرين لنبوّة محمّد من المشركين بقوم فرعون ؛ فإنّهم عذّبوا بجحودهم نبوّة موسى كذلك قومك عذّبوا يوم بدر وذلّوا فحال هولاء كحال أُولئك في التكذيب و التبديل وورود العذاب في الدنيا و الآخرة فانظر أيّها العاقل في اشتراكات وجه الشبه من الفريقين الخبيثين [و كلّ كانوا ظالمين] وتشابه الفريقان في الظلم .

ان شر الدواب عندالله الذين كفروا فهم لايؤمنون(٥٥) الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون (٥٦) .

النظم : لمّا وصف كلّ الكفّار بالظلم فرّد بمزيّة بعضهم في الشرّ والفساد على البعض فقال : [إنّ شرّ الدوابّ عندالله] في حكمه وعلمه من حصلت له صفتان : الّذي يستمرّ على كفر مصرّاً عليه والّذين ينقضون عهدالله مرّة بعد مرّة . وأتى بصيغة الاستقبال لبيان أنّهم دائماً ناقضون العهد ، والمراد بهم بنوقريظة ؛ فإنّهم نقضوا عهدالرسول ، وأعانوا عليه المشركين بالسلاح يوم بدر ، ثمّ قالوا : أخطأنا فعاهدهم رسول الله مرّة أُخرى فنقضوه أيضاً يوم الخندق وهم لايتّقون نقض العهد .

قوله : فأما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون(٥٧) واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين(٥٨) .

لمّا ذكر سبحانه الّذين ينقضون عهدهم في كل مرّة بيّن في هذه الآية حكمهم وما يجب أن يعاملوا بهم . ثقفنا به أي ظفرنا به أي إنّك إن ظفرت في الحرب بهولاء الناقضين فافعل بهم فعلاً يتفرّقون من مناصبتك تفرّقاً عنيفاً موجباً للاضطرار من النكاية والتعذيب مايوجب أن تنكل [من خلفهم] أي من ورائهم من الكفرة قال عطا : المعنى : ثخّن فيهم القتل حتّى يخافك غيرهم الّذين من وراء هؤلاء لأن يعتبروا بهم ولا يفعلون فعلهم و يتذكّرون .

قوله : [وإمّا تخافنّ من قوم] معاهدين معك [خيانة] منهم ونكثاً بأمارات ظاهرة

فانبذ إليهم عهدهم على طريق مستو ظاهر أي أظهر لهم نبذ العهد و تخبرهم خبراً ظاهراً مكشوفاً بيّناً أنّك قطعت مابينك وبينهم ولاتبادرهم الحرب ، وهم على توهّم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك [إنّ الله لايحبّ الخائنين] في العهود . و حاصل الآية المنع عن الخيانة و نقض العهد .

ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لايعجزون (٥٩) واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوالله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لاتظلمون (٦٠) .

لمّا اتّفق لأصحاب النبيّ في قصّة بدر بأن قصد الكفار بلا آلة ولاعدّة أمرهم الله أن يعدّوا للكفّار مايمكنهم من الآلات والسلاح والقوّة ، وقيل : المراد من القوّة الحصون . لكنّ الظاهر أنّ ماهو آلة للغزو فهو من جملة القوّة وقوله ﷺ : القوّة هي الرمي لاينافي كون غير الرمي قوّة مثل قوله : الحجّ عرفة والندم توبة لاينفي اعتبار غيره ، و لا شكّ أنّ ربط الخيل من أقوى آلات الجهاد . و « رباط » جمع « ربيط » كفصال جمع فصيل ، و المراد الخيل المربوطة في سبيل الله و فسّر الخيل هنا بالإناث لتنا سلها و نمائها ؛ قالت العرب : «إنّ الحصون الخيل لامدر القرى» ولمّا علم العدوّ أنّ طرفه متأهّب للقتال ومستكمل الآلات فذلك يفيد خوفاً للعدوّ فقال : [ترهبون به] الكفّار [عدوّ الله وعدوّكم] وربما يكون ذلك الخوف داعياً إلى الإيمان .

ثمّ قال : [وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم] أي ترهبون بالرباط والقوّة كفّار العرب ومشركيهم غير هولاء . واختلفوا في الآخرين ، قيل : أهل فارس ، وقيل : هم المنافقون لايعلم المسلمون أنّهم أعداء الله واعداؤهم والله يعلم بواطنهم وأنتم لاتعرفونهم لأنّهم يصلّون ويصومون ويختلطون بالمسلمين .

[وماتنفقوا من شيء في سبيل الله] وطاعته [يوفّ إليكم] ثوابه في الآخرة [وأنتم لاتظلمون] ولاينقص منه شيء ويصلكم وافياً .

و ان جنحوا للسلم فاجنح لها و توكل على الله انه هو السميع العليم (٦١) .

لمّا بيّن ما يرهب به العدوّ بيّن أنّه من بعد الإرهاب إذا مالوا للصلح والسلم فالحكم قبول الصلح . وتأنيث المضمر باعتبار الفعلة والجنحة كقوله : «إن ربّك من بعدها لغفور رحيم »[١] أي من بعد فعلتهم . قال الزمخشري : « السلم» تؤنّث تأنيث نقيضها وهي الحرب قيل : هذه الآية منسوخة بقوله : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم[٢]» وقوله : «قاتلوا الّذين لايؤمنون بالله »[٣].

وقال بعض المفسّرين : الآية غير منسوخة والآية متضمّنة بالصلح إذا كان الصلاح فيه والمهادنة تكون بنظر الرسول والإمام . قوله : [وتوكّل على الله] أي فوّض الأمر في المعاقدة معهم إلى الله ليكون عوناً لك ، إنّه سميع وعليم بما يضمره العباد .

وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى ايدك بنصره و بالمؤمنين (٦٢) وألف بين قلوبهم لو انفقت مافى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم (٦٣) .

لمّا أمر في الآية السابقة بقبول الصلح إن صالحوا بيّن في هذه الآية أنّهم إذا أرادوا الصلح وقصدهم أن يخدعوك في الصلح وهم يتأهبّون للقتال فيتقوّون ويبدؤون بالقتال معكم من غير استعداد منكم فإنّ الّذي يتولّى كفايتك الله هو الّذي قوّاك بالنصر وأيّدك بالمؤمنين على أعدائك . والمراد بالمؤمنين الأنصار وهم الأوس والخزرج وأراد بتأليف القلوب ماكان بين الأوس والخزرج من المعادات والقتال سنين متطاولة فإنّه لم يكن حيّان من العرب بينهما من العداوة مثل ماكان بين هذين الحيّين فألّف الله بينهم حتّى صاروا متوارثين متحابّين ببركة محمد ﷺ . ولو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعاً لم يمكنك جمع قلوبهم على الألفة و إزالة ضغائن الجاهليّة إنّه غالب في أمره حكيم في أفعاله .

يا ايها البنى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين (٦٤) ياايها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم

(١) الاعراف : ١٥٢ .
(٢) التوبة : ٥ .
(٣) التوبة : ٢٩ .

مائة يغلبوا الفامن الذين كفروا بانهم قوم لايفقهون(٦٥) الان خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين(٦٦) .

ولمّا وعده النصر في الآية السابقة على تقدير خدعة الكفّار وعده بالنصر في هذه مطلقاً في كلّ مايحتاج إليه في الدين والدنيا بقوله : حسبك الله وحسب من اتّبعك من المؤمنين فهو كافئكم ومؤيّدكم [يا أيّها النبيّ] رغّب المؤمنين وشوّقهم على القتال بذكر مثوبات الجهاد ووعد النصر واغتنام الأموال [إن يكن منكم عشرون صابرون] على القتال [يغلبوا مائتين] من العدوّ وكذلك إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الكفّار . واللفظ لفظ الخبر والمراد به الأمر ويدلّ على الأمر به مابعد الآية بقوله : « الآن خفّف الله » لأنّ التخفيف لايحصل إلّا بعد التكليف .

قوله : [بأنّهم قوم لايفقهون] معناه أنّ ذلك النصر لكم بسبب أنّ الكفار لايفقهون امر الله ولايصدّقونه ، وأنتم تصدّقونه وتفهمون ولمّا علم الله أنّ ذلك يشقّ عليهم بأنّ واحداً منهم يثبت في القتال على العشرة وكان قد أمرهم للامتحان فتغيّرت المصلحة في ذلك فقال [الآن خفّف الله عنكم] الحكم في الجهاد بوجوب قتال العشرة على الواحد ، وثبات الواحد للعشرة ، وعلم أنّ فيكم ضعف البصيرة والعزيمة لاضعف البدن فإنّ الّذين أسلموا في الابتداء لم يكونوا كلّهم أقوياء البدن بل كان فيهم القويّ والضعيف ، ولكن كانوا أقوياء في العزيمة واليقين .

ثمّ لمّا كثر المسلمون واختلط بهم من كان ضعيف اليقين والبصيرة نزل قوله : « الآن خفّف الله عنكم » روي أنّه ﷺ كان يبعث العشرة إلى وجه المائة ، بعث حمزة عليه‌السلام في ثلاثين راكباً قبل بدر إلى قوم فلقيهم أبوجهل في ثلاثمائة راكباً وأرادوا قتالهم ؛ فمنعهم حمزة ، وبعث رسول الله عبدالله بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذليّ وكان في جماعة فابتدر عبدالله وقال : يارسول صفه لي فقال ﷺ : إنّك إذا رأيته ذكرت الشيطان ووجدت لذلك قشعريرة ، وقد بلغني أنّه جمع لي فاخرج إليه واقتله قال عبدالله : فخرجت نحوه فلمّا دنوت منه وجدت القشعريرة فقال لي : ممّن الرجل ؟ قلت له : من العرب سمعت بك وتجمّعك

ومشيت معه حتّى إذا تمكّنت منه قتلته بالسيف وأسرعت إلى الرسول وذكرت أنّي قتلته ، فأعطاني صلى الله عليه وآله عصاً وقال : أمسكها فإنّها آية بيني وبينك يوم القيامة .

ثمّ هذا التكليف شقّ على المسلمين فأزاله الله بهذه الآية ، قال عطا : عن ابن عبّاس لمّا نزل التكليف الأوّل ضجّ المهاجرون ، وقالوا : يارب نحن جياع وأعداؤنا شباع ، ونحن في غربة وعدوّنا في أهليهم وقال الأنصار : شغلنا بعدوّنا و واسينا إخواننا فنزل التخفيف .

واحتجّ هشام بهذه الآية بأنّ الله لايعلم الجزئيّات إلّا عند وقوعها ، تعالى الله عن ذلك ، بل معنى الآية أنّه تعالى قبل حدوث الشيء لايعلمه حاصلاً واقعاً بل يعلم أنّه سيحدث وعند حدوثه ووقوعه فإنّه يعلمه حادثاً ؛ فيكون معنى الآية أنّ الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله وكان قبل الحصول العلم بأنّه سيقع و «ضعف» بالضمّ والفتح لغتان صحيحتان .

قوله : ماكان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الاخرة والله عزيز حكيم (٦٧) لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم (٦٨) فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله عفور رحيم (٦٩).

المقصود من هذه الآية تعليم حكم آخر من أحكام الغزو والجهاد . قرىء «تكون» بالتاء والياء لأنّ الأسرى مذكّر في المعنى ومؤنّث في اللفظ .

النزول : روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله اُتي بسبعين أسيراً فيهم العبّاس عمّه وعقيل بن أبي طالب ولم يؤسر من أصحاب النبيّ ؛ فجمعوا الاُسارى وقرنوهم في الحبال ، ولمّا أمسى رسول الله صلى الله عليه وآله والناس محبوسون أي الاُسارى محبوسون بالوثاق بات صلى الله عليه وآله ساهراً أوّل الليلة ؛ فقال له : أصحابه مالك لاتنام فقال صلى الله عليه وآله : سمعت أنين العبّاس عمّي فأطلقوه فسكت فنام رسول الله صلى الله عليه وآله .

وفي كتاب عليّ ابن إبراهيم : لمّا قتل رسول الله النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الاُسارى ؛ فقالوا : يا رسول الله قتلنا سبعين وهم قومك و اُسرتك

فخذ يا رسول الله من هولاء الفداء وقد كانوا أخذوا ماوجدوه من الغنائم في عسكر قريش ، فنزلت الآية .

[ماكان لنبيّ أن يكون] وكان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم ، وأقلّه ألف ، فبعث قريش بالفداء أوّلاً فأوّلاً وقيل : كان الفداء عشرين أوقية من الفضّة ، والأوقية أربعون درهماً أوستّة دنانير وفداء العباس أربعون أوقية قال محمّد بن سيرين : كان فداؤهم مائة أوقية . قال الباقر عليه السلام : كان الفداء يوم بدر كلّ رجل من المشركين باربعين أوقية والأوقية أربعون مثقالاً إلّا العبّاس فإنّ فداءه كان مائة أوقية ، وكان قد أخذ منه حين أُسر عشرون أوقية ذهباً ، وقال النبيّ : ذاك غنيمة ، فاد نفسك وابني اخيك عقيلاً ونوفلاً فقال العبّاس : ليس معي شيء ؛ فقال صلى الله عليه وآله : أين الذهب الّذي سلّمته إلى اُمّ الفضل وقلت : إن حدث حدث بي فهو لك وللفضل وقثم وعبدالله ؟ فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : الله تعالى . قال : أشهد أنّك رسول الله ما اطّلع على هذا إلّا الله .

وكان النبيّ يكره أخذ الفداء ولايرضى إلّا القتل والأنصار لأجل الطمع كانوا يلحفون ويصرّون بأخذ الفداء طمعاً فنزلت : «وماكان لنبيّ» أي ماينبغي لنبيّ [أن يكون له أسرى] ليفديهم ويأخذ منهم الفداء ، أو يمنّ عليهم إلّا بعد أن بالغ في القتل والغلبة ليرتدع من يسمع [تريدون عرض الدنيا] هذا خطاب للمؤمنين دون النبيّ لأنّهم كانوا راغبين في أخذ الفداء من الأسرى وعرض الدنيا مال الدنيا [والله يريد] لكم [الآخرة] والله غالب على أمره بما تقتضيه الحكمة .

قوله : [لولا كتاب من الله سبق] أي لولا مامضى من حكم الله ان لايعذّب قوماً حتّى يتبيّن لهم مايحترزون وأنّه لم يتبيّن لكم أن لاتأخذوا الفدية ، لعذّبكم بأخذ الفداء . هذا قول في معنى الآية ، وقيل : لولا أن حكم الله لكم بإباحة الغنائم والفداء في اُمّ الكتاب وهو اللوح المحفوظ [لمسّكم فيما] استحللتم قبل الإباحة [عذاب عظيم] فإنّ الغنائم لم تحلّ قبلكم لأحد وهذا قول ابن عبّاس ، وثالث الأقوال أنّ المعنى : لولا ما كتب الله في القرآن أو في اللوح أنّه لايعذّبكم والنبيّ بين أظهركم لمسّكم العذاب بأخذ الفدية ، وعدم إقدامكم على قتل المشركين و [إنّ الله غفور] لكم [رحيم] بكم .

يا أيها النبي قل لمن في ايديكم من الاسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما اخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم (٧٠) وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فامكن منهم والله عليم حكيم (٧١) .

لمّا أخذ الرسول الفداء من الأُسارى وشقّ عليهم أخذ أموالهم منهم ذكر الله هذه الآية تسلية لبعضهم الّذين أسلموا ، قال عبّاس بن عبدالمطّلب : فأبدلني الله خيراً ممّا أفديت لي الآن عشرون عبداً وإنّ أدناهم ليضرب في عشرين ألف وأعطاني زمزم وما أُحبّ أنّ لي بها جميع أموال مكّة وأنا أنتظر المغفرة من ربّي .

واختلف المفسّرون في أنّ هذه الآية نازلة في العبّاس خاصّة أوفي جميع الأُسارى و ظاهر الآية عامّة في الأُسارى لقوله : « في قلوبكم » بلفظ الجمع ويغفر لكم ويؤتكم خيراً فما الموجب للتخصيص ؟

وبالجملة حاصل المعنى أنّه قل يا محمّد للأسرى الّذين في وثاقكم : إن يعلم الله أنّكم آمنتم وكسبتم الإيمان يعطيكم الله أحسن ممّا أُخذ منكم في الدنيا وفي الآخرة . وقرىء بصيغة المعلوم و الفاعل النبيّ ويغفر الله لكم وهو غفور لمعاصيكم رحيم بكم .

قوله : [وإن يريدوا خيانتك] ونقض العهد [فقد خانوا الله من قبل] روي أنّه صلّى الله عليه وآله لمّا أطلقهم من الأسر عهد معهم أن لا يعودوا إلى محاربته وإلى معاهدة المشركين فقال : وإن يريدوا خيانتك ونقض العهد فقد خانوا الله من قبل و أمكن الله رسوله منهم فإن عادوا كذلك يمكن الله رسوله من الناقضين وهو عليم بضمائرهم وحكيم في أفعاله .

ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم و انفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (٧٢) والذين كفروا بعضهم اولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة في الارض و فساد كبير (٧٣) و الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم (٧٤) والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم (٧٥) .

المعنى أنّه تعالى قسّم المؤمنين في زمان الرسول إلى أربعة أقسام وذكر حكم كلّ واحد منهم والتقرير أنّه ﷺ لمّا ظهرت نبوّته بمكّة ودعا الناس إلى التوحيد؛ ثمّ انتقل من مكّة إلى مدينة فحين هاجر صار المؤمنون على قسمين، منهم من وافقه في الهجرة ومنهم من لم يوافقه بل بقي هناك.

أمّا القسم الأوّل؛ فهم المهاجرون الأوّلون وكانوا يتوارثون بالهجرة و جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام و كان الّذي آمن ولم يهاجر لم يرث من أجل عدم المهاجرة وعدم النصرة وكانوا يعملون بذلك حتّى أنزل الله تعالى: «وأُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» فنسخت هذه الآية بقوله: «وأُولوا الأرحام» فصار الميراث لذوي الأرحام المؤمنين ولا يتوارث أهل ملّتين.

وبالجملة وصف القسم الأوّل بقوله تعالى: [إنّ الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله].

وأمّا القسم الثاني فهم الأنصار لأنّه ﷺ لمّا هاجر إليهم فلولا أنّهم آووا ونصروا وبذلوا المال في خدمة الرسول لماتمّ المقصود لكن حال المهاجرين أعلى من حال الأنصار في الفضيلة لأنّهم تحمّلوا العناء أكثر من الأنصار من مفارقة الأهل والوطن و لسبقهم كما أنّ في الذكر قدّم المهاجرين على الأنصار، ولمّا ذكر هذين القسمين في هذه الآية قال: [أُولئك بعضهم أولى ببعض].

و اختلفوا في المراد من الولاية في الآية فنقل الواحديّ عن ابن عبّاس و أغلب المفسّرين أنّ المراد هو الولاية في الميراث وقالوا: جعل الله سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة وكان القريب الّذي آمن ولم يهاجر لم يرث و قيل: المراد من الولاية التناصر و التعاون لا الميراث.

قوله: [و الّذين آمنوا ولم يهاجروا] إلى المدينة [مالكم من ولايتهم من شيء حتّى يهاجروا] أي مالكم من ميراثهم من شيء حتّى يهاجروا فحينئذ بعد الهجرة يحصل بينكم التوارث قوله: [و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر] أي فإن طلبوا منكم الّذين لم يهاجروا النصرة لهم على الكفّار فيجب عليكم معاونتهم و ليس عليكم النصر لهم

في غير أمر الدين [إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق] أي إلّا أن يطلبوا منكم القتال والنصرة على قوم من الكفّار والمشركين الّذين تعاهدتم معهم وأعطيتهم الأمان و العهد إلى مدّة فحينئذ لا يجوز أن تنصروا المؤمنين عليهم لما فيه من نقض العهد .

و بالجملة إنّ الّذين حملوا الآية في معنى الولاية على الإرث قالوا : نسخت بقوله : «وأولو الأرحام» وقالوا : الدليل على أنّ معنى الولاية الإرث ؛ ولا يجوز أن يكون بمعنى النصرة لأنّه تعالى عطف عليه قوله : «وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر» ولاشكّ أنّ ذلك عبارة عن الموالات في الدين والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فوجب أن يكون المراد بالولاية المذكورة أمراً مغايراً لمعنى النصرة والله عليم بأفعالكم «والولاية» قرىء بكسر الواو و فتحها فمن قرءها بالفتح جعلها من النصرة والنسب و من قرءها بالكسر بمعنى السلطان .

قوله : [والّذين كفروا بعضهم أولياء بعض] أي بعضهم أنصار بعض إذا كان الولاية بمعنى الايتراث أي بعضهم يرثون بعضاً والآية تدلّ على أنّ الكافر يرث الكافر مع اختلاف مللهم لأنّهم مع الاختلاف يصدق عليهم الكفر ؛ فالمجوسيّ يرث النصرانيّ و النصرانيّ يرث اليهوديّ .

ولمّا بيّن هذه الأحكام قال : [وإلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض و فساد كبير] و وقوع هذه الفتنة من وجوه : الأوّل أنّ المسلمين إذا اختلطوا بالكفّار و يتناصر ويتوارث بعض الكافرين بعض المؤمنين و بالعكس فهذه المخالطة موجبة لالتحاق المسلمين بالكافرين لكثرة الكافرين . الثاني أنّ المسلمين إذا لم يتّفقوا ويتناصروا لا يتبيّن جمعهم في العدّة والعدد فيصير ذلك سبباً لجرأة الكفّار عليهم .

وبالجملة ، ثمّ عاد سبحانه إلى بيان تعظيم شأن القسم الأوّل والثاني وهذا التكرار لبيان علوّ درجتهم وشرفهم بقوله : [والّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والّذين آووا ونصروا] وهم القسم الثاني ، فأثنى على القسمين بقوله : [أُولئك هم المؤمنون حقّاً] فعند الحصر بقوله «هم» والمبالغة بقوله : حقّاً [لهم مغفرة] وتنكير المغفرة يدلّ على الكمال أي لهم مغفرة كاملة عن الذنوب [ورزق كريم] قيل : المراد طعام الجنّة لأنّه لا يستحيل

طعام الجنّة بسوء واختلفوا في أنّ الهجرة هل حكمها باقية أم لا ؟ قيل : لا لأنّه ﷺ قال : لا هجرة بعد الفتح وقيل : إنّ هجرة الأعراب إلى الأمصار ليحصل الدين باقية إلى يوم القيامة والأقوى البقاء لأنّ من أسلم في دار الحرب أو دار الكفر ، ثمّ هاجر إلي بلاد الإسلام كان مهاجراً أو أنّ البلدة كانت جماعتها مسلمة ثمّ ارتدّت بسبب فالمؤمن الّذي لم يرتدّ فيها إذا هجر عنها إلى بلد آخر مسلمة فقد كان مهاجراً .

قوله : [والّذين آمنو من بعد] إيمانكم [وهاجروا] بعد هجرتكم [وجاهدوا معكم] أيّها المؤمنون [فاُولئك منكم] أي مؤمنين من جملتكم في وجوب موارثتهم و موالاتهم و إن تأخّر إيمانهم وهجرتهم وذو أرحامهم و قرابتهم أحقّ بميراثهم من غيرهم ، قيل : إنّ هذه الآية أبطلت التوارث بالمؤاخاة وكان النبيّ ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار قوله: [في كتاب الله] أي في اللوح أو حكم الله وقيل : في القرآن . [إنّ الله بكلّ شيء عليم] و يعلم مصالحكم .

تمّت السورة بعون الله

سورة البراءة

مدنيّة كلّها وقيل : سوى آيتين : « لقد جاء كم رسول من أنفسكم » وآية بعدها .

هذه السورة لها أسامي : الأولى براءة ، سمّيت بذلك لأنّ هذه الكلمة مفتحها التوبة لكثرة لفظ التوبة فيها . «الفاضحة» لأنّها فضحت المنافقين . «المبعثرة» لأنّها تبحث عن أسرار المنافقين . «المقشقشة» وأيضاً يقال لسورتي قل يا أيّها الكافرون وقل هو الله : المقشقشتان لأنّهما تبرء من آمن بها من الشرك والنفاق يقال : تقشقش المريض إذا برىء من علّته « البحوث » تبحث عن عقائدهم . «المدمدمة» أي المهللة الحافرة لأنّها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسرّونه . «المثيرة» لأنّها أثارت قبائحهم «العذاب» لأنّها نزلت بعذاب الكفّار . «المخزية» تخزي الكفار . «المنكّلة» بورود النكال عليهم .

وفي سبب ترك التسمية في أوّلها قراءة و كتابة أقوال : أحدها أنّها ضمّت إلى الأنفال بالمقاربة فصارتا كسورة واحدة إذ الأولى في ذكر العهود و الثانية في رفع العهود . والثاني أنّه لم ينزّل باسم الله في أوّلها ؛ لأنّ بسم الله للأمان و الرحمة و نزلت براءة لرفع الأمان بالسيف ، عن علي عليه السلام وغيره وذكروا وجوهاً أُخر لا حاجة إلى الإطالة .

[براءة] واصلة [من الله و رسوله إلى الّذين عاهدتم من المشركين] براءة خبر لمبتدأ محذوف أي هذه الآيات براءة . أومبتدأ وخبره الظرف وجاء المبتدأ نكرة لأنّها موصوفة . «إلى الّذين» أي انقطاع للعصمة ، ورفع للأمان وخروج من العهود إلى الّذين عاهدتم من المشركين و الخطاب للنبيّ و المسلمين و حاصل المعنى : تبرّؤوا ممّن كان بينكم و بين المشركين عهد ولمّا ختم الله الأنفال بايجاب البراءة لكلّ من آمن افتتح بهذه السورة بأنّه ورسوله بريئان منهم .

فإن قيل : كيف يجوز نقض العهد ؟ بلى يجوز بثلاث أوجه : إمّا أن يكون العهد مشروطاً بالبقاء إلى أن يرفعه الله بوحي وقد حصل ، وإمّا أن يكون قد ظهر من المشركين خيانة ونقض ، وإمّا أن يكون العهد مؤجّلاً إلى مدّة فتنقضي وقد شرط النبيّ عليهم هذا الأمر والمشركون نقضوا العهد وقصدوا التطاول وقيل : إنّ المشركين نقضوا العهد إلّا اُناساً منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فأمر الله نبيّه أن ينبذ إليهم عهدهم .

والمقصود من إظهار هذه البراءة للمشركين أن يعرفوا أنّه ﷺ معهم على عزم القتال و الحرب حتّى لا يجرى مجرى الغدر وخلف القول ، كما أنّه وقع منهم الخلف في العهد ؛ ولهذا المعنى قال سبحانه : « إلّا الّذين عاهدتم من المشركين ثمّ لم ينقصوكم ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتمّوا إليهم عهدهم إلى مدّتهم » .

قوله تعالى : [فسيحوا في الأرض] أي سيروا على وجه المهل وتصرّفوا في اُموركم آمنين من السيف [أربعة أشهر] فإذا انقضت المدة ولم تسلموا انقطعت العصمة عن دمائكم وأموالكم [واعلموا أنكم غير معجزي الله] وغير فائتين عن قدرة الله وأنتم في سلطانه وملكه [وإنّ الله مخزي الكافرين] ومذلّهم ومخزيهم .

قيل : ابتداء هذه الاربعة يوم النحر إلى العاشر من ربيع الآخر ، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام ، وقيل : من شوّال إلى آخر المحرّم ، وأجمع المفسرون أنّه لما نزلت دفعها النبيّ ﷺ إلى أبي بكر ثمّ استردّها ودفعها إلى عليّ بأمر من الله وسبب تفضيل عليّ قيل : إنّه ﷺ بعث أبا بكر وأمره أن يقرأ عشر آيات من أوّل السورة وأن ينبذ إلى كل ذي عهد عهده ثم بعث خلفه عليّاً ليأخذها ويقرأها على الناس ، وذلك لأنّ جبرئيل نزل عليه

وقال : لا يحملها إلّا أنت أورجل من أهل بيتك فخرج عليّ على ناقة رسول الله العضباء حتّى أدرك أبابكر بذي الحليفة ؛ فأخذ ها عنه فرجع أبوبكر ، وقال : هل نزل فيّ شيء فقال عليه السلام : لاولكن لايؤدّي إلّا أنا أو رجل منّي ، عن عروة بن الزبير و أبي سعيد الخدريّ وأبي عريرة .

وروى الشعبيّ عن محرزبن أبي هريرة قال : كنت أُنادي مع عليّ عليه السلام حين أذن المشركين فكان إذاصحل صوته فيما ينادي دعوت مكانه وكان عليّ عليه السلام يقول : لايحجّ بعدعامنا هذا مشرك ولا يدخل البيت إلّامؤمن ومن كانت بينه وبين رسول الله مدّة فإنّ أجله إلى أربعة أشهر .

وروى عاصم بن حميد عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : خطب عليّ عليه السلام للناس واخترط سيفه فقال : لايطوفنّ بالبيت عريان ولا يحجّنّ البيت مشرك و من كانت له مدّة فهوإلى مدّته ومن لم يكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر .

ورُوي أنّه عليه السلام لمانادى فيهم «أنّ الله بريء من المشركين ورسوله» قال المشركون : نحن نتبرّأ من عهدك و عهد ابن عمّك .

واذان من الله و رسوله الى الناس يوم الحج الاكبر ان الله بريء من المشركين و رسوله فان تبتم فهو خير لكم و ان توليتم فاعلموا انكم غير معجزى الله و بشر الذين كفروا بعذاب اليم(٣) الاالذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً و لم يظاهروا عليكم احدافاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين (٤) .

«الأذان» الإعلام وأصله النداء الّذي أوقعه المنادي في الإذن فحينئذ الأذان اسم يقوم مقام الايذان وهو المصدر ومنه أذان الصلاة أي إعلام من الله و رسوله صادر إلى الناس المؤمن والمشرك ، وفيه معنى الأمر أي يجب إعلام المشركين في يوم الحجّ الأكبر ، وفيه اختلاف قيل : عرفة . وقيل : الحجّ الأكبر الّذي فيه الوقوف والحجّ الأصغر الّذي ليس فيه وقوف وهوالعمرة . وقيل : الحجّ الأكبر يوم النحر وهوالمرويّ عن أبي عبدالله ، وقيل : جميع أيّام الحجّ ، أولأنّ في ذلك اليوم حجّ المشرك و المسلم ولم يحجّ بعدها مشرك ،

والإعلام بأنّ الله بريء من عهد المشركين و حذف المضاف و رسوله بريء منه .

فلو قيل : لافرق بين قوله : «براءة من الله ورسوله إلى الّذين عاهدتم من المشركين» وبين قوله : «إنّ الله بريء من المشركين و رسوله» فما الفائدة في هذا التكرار ؟

فالجواب أنّ المقصود من الكلام الأوّل إخبار ثبوت البراءة ، و من الثاني الأمر بإعلام الناس هذا المعنى. أو البراءة الاُولى براءة العهد والبراءة الثانية براءة الّتي هي نقيض الموالات لأنّ في الاُولى بدل براءة العهد وفي الثانية بدل البراءة من نوعهم أعمّ من أن يكونوا بصفة العهد بل مطلقاً يجب ترك الموالات .

قوله : [فإن تبتم فهو خير لكم] في هذه المدّة ورجعتم عن الشرك إلى توحيد الله فاستدركم الخير من الله وتنجون عن عذاب الله . وإن بقيتم على الشرك فاعلموا أنّكم لا تعجزونه عن تعذيبكم ، و هذا الإمهال ليس من العجز بل هو لإتمام الحجّة . وأوعدهم بعذاب الآخرة بقوله : [وبشّرهم بعذاب أليم] ولفظ البشارة للتهكّم وورد على سبيل الاستهزاء كما يقال : إكرامهم الشتم وتحيّتهم الضرب [إلّا الّذين عاهدتم من المشركين ثمّ لم ينقصوكم] وهم قوم من بني كنانة وبني ضمرة كما ذكرنا سابقاً ؛ فإنّهم لم ينقصوا وكان بقي من أجلهم تسعة أشهر أمر الله بإتمامها لهم وأوفى لهم الرسول ، فإنّهم لم يضرّوكم شيئاً ، ولم يعاونوا عليكم أيّها المؤمنون أحداً من أعدائكم [فأتمّوا إليهم عهدهم] إلى انقضاء مدّتهم الّتي وقعت المعاهدة [إنّ الله يحبّ المتّقين] لنقض العهود .

فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم و خذوهم واحصروهم و اقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا و اقاموا الصلوة و آتوا الزكوة فخلوا سبيلهم فان الله غفور رحيم (٥) .

يقال : سلخت الشهر إذا خرجت منه وأهللت الشهر إذا دخلت فيه قال الشاعر :

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله ＊ كفى قاتلاً سلخي الشهور وإهلالي

والسلخ اسم لانفصال الشيء عن مكانه المعيّن فلذلك إذا تمّ الشهر فقد انفصل عن إحاطة ذلك الشهر به ودخل في شهر آخر .

وبالجملة فإذا تمّت الأشهر المحرّمة الأربعة أذن في أربعة أشياء : أوّلها فاقتلوهم

على الإطلاق في أيّ زمان وأيّ مكان وفي الأشهر الحرم اختلاف قيل : ذوالقعدة وذوالحجّة ومحرّم ورجب وقيل : هي الأشهر الأربعة الّتي جعل الله للمشركين مهلة بقوله : «فسيحوا في الأرض » وهي من يوم العاشر من ذي الحجّة إلى يوم العاشر من ربيع الآخر .

وبالجملة أوّلها القتل في أيّ زمان و مكان في الحلّ و الحرم . الثاني و خذوهم بالأسر . والثالث : واحصروهم أي امنعوهم وأحبسوهم وأحيطوا بهم أن تحصنوا . والرابع [واقعدوا لهم كلّ مرصد] وطريق لهم إلى البيت أو إلى الصحراء أو إلى التجارة .

ثمّ قال سبحانه : [فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم] و دعوهم يتصرّفون في بلاد المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وقيل : معناه دعوهم يحجّوا إلى البيت معكم [فإنّ الله غفور رحيم] واستدلّوا بهذه الآية على أنّ من ترك الصلاة متعمّداً يجب قتله لأنّ الله أوجب الامتناع من قتل المشركين بشرط أن يتوبوا و يقيموا الصلاة فإذا لم يقيموها وجب قتلهم فلو قيل: فالحكم في الزكاة كذلك ولا يحكم لتارك الزكاة بالقتل فأجابوا أنّ تارك الزكاة دخله التخصيص وفي الصلاة ليس كذلك .

وبالجملة وسّع الله عليهم بهذه الأُمور الثلاثة ، والتوبة إحدى أُمور الثلاثة والتوبة عبارة عن تطهير القوّة النظريّة عن الضلالة والجهل ، والصلاة والزكاة عبارة عن تطهير القوّة العمليّة واشغالها بهاتين العملين .

قوله : وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مامنه ذلك بانهم قوم لايعلمون (٦) .

المعنى: و إن طلب أحد من المشركين الّذين أمرتك بقتلهم الأمان من القتل بعد الأشهر الأربعة ليسمع دعوتك واحتجاجك عليه بالقرآن فأمنه وأجره و بيّن له ماتريد حتّى يسمع كلام الله . وإنّما خصّ كلام الله لأنّ معظم الدلالة فيه ، ثمّ أبلغه مأمنه وبلده الّذي خرج منه فإن دخل في الإسلام فنعم وإن لم يدخل في الإسلام فلا تقتله فتكون قد غدرت به ولكن واصله إلى ديار قومه . وذلك الأمان لأجل أنّهم لا يعلمون الإيمان و الدلائل فآمنهم لعلّ يتدبّروا ويعلموا . و كلمة «أحد» مرفوع بفعل مقدّر تقديره : و إن استجارك أحد ولا يجوز الرفع بالابتداء ؛ لأنّ «إن» من عوامل الفعل ولايدخل على الاسم

قال الزجّاج : معنى الآية : إن طلب منك أحد من المشركين إن تجيره من القتل أن يسمع كلام الله وبيّناته فأجره .

كيف يكون للمشركين عهد عندالله و عند رسوله الا الذين عاهدتم عندالمسجد الحرام فمااستقاموا لكم فاستقيموا لهم انالله يحب المتقين(٧) كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولاذمة يرضونكم بافواههم و تابى قلوبهم واكثرهم فاسقون (٨) .

لمّا أمرالله نبذالعهد إلى المشركين بيّن أنّ العلّة ماظهر منهم من الغدر والنكث فقالفي هذه الآية على سبيل التعجّب أوالجحد : [كيف يكون لهم عهد] صحيحمن الله و رسوله والحالة أنّهم نكثوا فحينئذ كيف يجوزأن يامرالله نبيّه عن كفّ القتالعنهم ؟ [إلّا الّذينعاهدتم]معهم [عندالمسجدالحرام] فإنّ لهمعهداً عندالله فإنّهم لم يضمروا الغدربك

قيل : هم بنو كنانة وبنو ضمرة ، وقيل : هم أهل مكّة الّذين عاهدهم رسول الله يوم الحديبية فلم يستقيموا ونقضوا العهدبأن أعانوا بني بكرعلى خزاعة فضرب لهمالنبيّ صلى الله عليه وآله بعد الفتح أربعة أشهر يختارون أمرهم إمّا أن يسلموا ، وإمّا أن يلحقوا بأيّ بلاد شاؤوا فأسلموا قبل الأربعة وقيل : هممن قبائل بكر بنوخزيمة وبنومدلج وبنوضمرة وبنو الدئل وهم الّذين دخلوا عهد قريش يوم الحديبية إلى المدّة الّتي كانت بين رسول الله و بين قريش ، فلم يكن نقضها إلّا قريش فأمر النبيّ بإتمام العهد لمن لم يكن له نقض عهد وهذا القول أقرب للصواب ؛ لأنّ هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتحمكّة .

قوله : [فمااستقاموا لكم] أيمادامموا باقين على العهد فكونوا معهم مستقيمين [إنّ الله يحبّ المتّقين] للنكث و الغدر .

قوله : [كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلّا ولاذمّة] ههنا حذف أي كيف يكون لهم عهد ؟ و كيف لاتقتلونهم وهم إن يظفروا بكملايراعون فيكم عهداً ولا قرابة ؟ «الإلّ » قيل : اليمين ، وقيل : العهد ، و قيل : القرابة ، وقيل : « الإلّ » من أسماء الله و«الذمّة» كلّ أمرلزمك بحيث لوضيّعته لزمتك مذمّة ومنقصة .

قوله : [يرضونكم بأفواههم] وبألسنتهم كلاماً حلواً طيّباً والّذي فيقلوبهم بالعكس ولا يضمرون إلّا الشرّ والإيذاء إن قدروا عليه [وأكثرهم فاسقون] فلوقيل : إنّ الكفّار

كلّهم فاسقون فما معنى أكثرهم ؟ لأنّ الكافر قديكون عدلاً في دينه وقد يكون خبيث النفس في دينه ؛ فالمراد أنّ هؤلاء فاسقون في كفرهم ودينهم .

قوله : اشتروا بآيات الله ثمناقليلا فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ماكانوا يعملون (٩) .

أصل الاشتراء استبدال المتاع بالثمن ، و نقيضه بيع الثمن بالمتاع .

المعنى: أعرضوا عن دين الله ومنعوا الناس عن دين الحقّ بشيء يسير نالوه ، وهذه الآية نزلت في قوم من العرب ، جمعهم أبوسفيان على طعامه ليستميلهم على عداوة النبيّ صلّى الله عليه وآله ، و لمّا أكلوا الاُكلة تركوا الحلف و العهد و نقضوا عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله بسبب تلك الاُكلة وربّ اُكلة أفسدت الدين والدنيا فبئس العمل عملهم .

قوله تعالى : لايرقبون في مومن الا ولاذمة واولئك هم المعتدون (١٠)

تأكيد لقباحة نقض عهدهم بأنّهم لايحفظون عهود المؤمنين و اُولئك المتعدّون عن حدود الله . والتكرار للتأكيد والتعجّب من قباحة فعلهم ، وقيل : المراد اليهود ولو كان المراد اليهود لم يكن تكرار الكنّ الكلام أجنبيّ لأنّه لم يكن ذكر اليهود في الآيتين ، والله أعلم .

فان تابوا واقاموا الصلوة وآتوا الزكوة فاخوانكم في الدين ونفصل الايات لقوم يعلمون (١١) وان نكثوا من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا ائمة الكفر انهم لاايمان لهم لعلهم ينتهون (١٢) .

المعنى: فإن تابوا وندموا من الشرك وعزموا على ترك العود إليه و قبلوا الإسلام وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأدّوهما فعاملوهم معاملة إخوانكم من المؤمنين . ونبيّن الآيات والأحكام للّذين يتطلّبون بيانه دون الجهّال الّذين لايتفكّرون . وإن نقضوا عهودهم من بعد إن عقدوا العهد وعابوا وطعنوا في دينكم وماقبلوه فقاتلوا رؤساء الضلال والكفر . وخصّهم بالذكر لأنّهم يضلّون اتباعهم لا أنّهم مخصوصون بالقتل دون المرؤوسين بل الرئيس والمرؤوس في حكم واحد .

وقرأ عليّ عليه السلام هذه الآية يوم البصرة ثمّ قال : أما والله لقد عهد إليّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وقال : ياعليّ لتقاتلنّ الفئة الناكثة والفئة الباغية والفئة المارقة .

[إنّهم لا أيمان لهم] وقرىء بكسر الهمزة [لعلّهم ينتهون] عن الكفر قيل : معناه

قاتلوهم وليكن قصدكم بالقتال انتهاؤهم عن الكفر والشرك .

قوله تعالى : الا تقاتلون قوماً نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم اول مرة اتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين (١٣).

لمّا أمر الله بقتال أئمّة الضلال أتبعه بذكر السبب. «الهمزة» للاستفهام والمراد التحضيض والإيجاب أي هلاّ تقاتلونهم ؟ فذكر ثلاثة أسباب كلّ واحد منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد فكيف بالجمع ؟ أحدها: نكث العهد ؟ قيل : هم اليهود الّذين نقضوا العهد وخرجوا مع الأحزاب . الثاني : همّوا بإخراج الرسول من المدينة ، وقيل : المراد مشركو قريش ، و قيل : المراد من الإخراج إخراجه من مكّة حين هاجر ، و ثالثها : وهم بدؤوكم أوّل مرّة بالقتال يوم بدر والبادي أظلم ، وقيل : بدؤوكم بقتال حلفاء النبيّ من بني خزاعة وتخافون أن ينالكم من قتالكم مكروه [فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين] و هذا الكلام جمع بين التقريع والتشجيع .

قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزيهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم (١٥) .

أكّد الأمر بالقتال و بشّرهم بالنصر والظفر عليهم . يعذّبهم الله قتلاً وأسراً ويعينكم أيّها المؤمنون عليهم [ويشف صدور قوم مؤمنين] الّذين هم حلفاء رسول الله كبني خزاعة فإنّ بني خزاعة أسلموا فأعانت قريش بني بكر عليهم فشفى الله صدورهم من بني بكر [و يذهب غيظ قلوبهم] بتشفّي درك الثار لأنّه من المعلوم أنّ من طال تأذّيه من خصمه ثمّ مكّنه الله منه فإنّه يعظم سروره [ويتوب الله على من يشاء] أي يقبل توبة من تاب منهم .

ووجه النظم في اتّصال قوله : «ويتوب الله» بما قبله بشارة بأنّه ليس في قتالهم اقتطاع لأحد منهم عن التوبة [والله عليم] بأفعالهم و[حكيم] في تدبيره .

أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون (١٦) .

أظننتم أن تتركوا أن تكلّفوا الجهاد دون الإخلاص ليس الأمر كذلك بل لابدّ أن تجاهدوا و يكون غرضكم الإخلاص ؛ و ليس المراد القتال فقط بل القتال و الانقياد و الخلوص لأمر الله ولا يتخلّص من هذا التكليف إلاّ أن يعلم الله الّذين جاهدوا حقيقة وخالصاً .

و ذكر العلم وأراد وقوع المعلوم .

قوله : [ولم يتّخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة] و وسيلة و المقصود من هذا الشرط أنّ المجاهد قد يجاهد ولا يكون جهاده خالصاً بل باطنه غير ظاهره وهو الّذي يتّخذ الوليجة من دون الله . و «الوليجة» الدخيلة في القوم وليس منهم . و ينافقون مع المؤمنين ويفشون إلى الكفّار أسرار المؤمنين والله خبير بأعمالكم فيجازيكم عليها .

ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر اولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون (١٧) انما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الاخر و اقام الصلوة و آتى الزكوة ولم يخش الا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين (١٨) .

ولمّا أمر الله بقتال المشركين وقطع الموالات عنهم أمر بمنعهم عن المساجد ، فقال : لاينبغي للمشركين أن يكونوا قوّاماً على عمارة مساجد الله ومتولّين لأمر الله ، و ينبغي أن يكون يتولّاها المسلمون قيل : هي عامّة ، وقيل : المسجد الحرام خاصّة . في حال شهادتهم على أنفسهم بالكفر بمعنى أنّه يسأل النصرانيّ من أنت : فيقول : أنا نصرانيّ ، واليهوديّ يقول : أنا يهوديّ إذا سئل عنه و كذا المجوسيّ ؛ فهذه شهادتهم على أنفسهم بالكفر ، و ليس المعنى بأن يقول : أنا كافر ؛ فإنّ الكافر لايعترف بكونه كافراً .

واختلف في عمارة المسجد قيل : دخوله وخروجه ويتردّد إليه ؛ لأنّ المسجد عمارته بطاعة الله فيه و قيل : باستصلاحه ورمّ ما استرمّ منه بالبناء و مثله . وقيل : في قوله : [شاهدين على أنفسهم بالكفر] معناه قولهم في التلبية : لبّيك لاشريك لك إلّا شريك هو لك تملكه وما ملك ، وقيل : شهادتهم سجودهم لأصنامهم مع إقرارهم بأنّها مخلوقة [اُولئك حبطت أعمالهم] الّتي من جنس الطاعة ومقيمون ومؤبّدون في النار ، والمراد من الحبط أنّه إن كان قد صدر منهم عمل من الأعمال البرّ مثل إكرام الوالدين وبناء الرباطات و إطعام الجائع فذلك باطل لأنّ عقاب كفرهم لايدفعه مثل هذه الاُمور .

[إنّما يعمر مساجد الله] أي المشتغل بهذا العمل يجب أن يكون يعرف مسجوده و يقرّ بوحدانيّته واليوم الآخر ويكون موقناً بالمعاد ، ويقوم بالصلاة و آدابها ويعطي الزكاة إن وجبت عليه ولم يخف سوى الله [فعسى اُولئك أن يكونوا من المهتدين] أي من جمع هذه الاُمور قريب من الهداية والجنّة لأنّها اُصول الدين .

فان قيل : كيف قال : [ولم يخش إلّا الله] والمؤمن قديخاف من المفسد و الظالم ؟ المراد من هذه الخشية الخوف و التقوى في الدين وأن لايختار على رضى الله رضا غيره و إلّا فالإنسان قد يخاف من المؤذيات كالحيّة .

وفي الآية إشعار على أنّ المسجد يجب صونه عن غير العبادة ؛ فيدخل فيه فضول الدنيا وفضول الكلام ؛ قال النبيّ ﷺ : يأتي في آخر الزمان أُناس من اُمّتي يأتون المساجد يقعدون فيها حلقاً ذكرهم الدنيا وحبّها ، لاتجالسوهم فليس لله بهم حاجة . وفي الحديث : الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش . وفي حديث آخر قال الله : إنّ بيوتي في الأرض المساجد وإنّ زوّاري فيها عمّارها ؛ طوبى لعبد تطهّر في بيته ، ثمّ زارني في بيتي فحقّ على المزور أن يكرم زائره . وعنه ﷺ : من ألف المسجد ألفه الله وعنه ﷺ : إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان . وعنه ﷺ : من أسرج في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له مادام في المسجد ضوؤه ، و هذه الحديث نقلها الزمخشريّ في الكشّاف .

أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الاخر وجاهد فى سبيل الله لايستوون عند الله والله لايهدى القوم الظالمين(١٩) .

في النزول قال ابن عبّاس في بعض الروايات : إنّ عليّاً لمّا أغلظ الكلام على عبّاس قال العبّاس : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد فلقد كنّا نعمر مسجد الحرام ونسقي الحاجّ فنزلت الآية.وقيل : إنّ المشركين قالوا لليهود : نحن سقاة الحاجّ وعمّار البيت فنحن أفضل أم محمّد وأصحابه ؟ فقالت اليهود : أنتم أفضل . وقيل : افتخر طلحة بن شيبة والعبّاس وعليّ قال طلحة:أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه ولو أردت بتّ فيه . قال العبّاس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها . قال عليّ : أنا صاحب الجهاد .

وعن أبي بريدة قال : بينا شيبة والعبّاس يتفاخران إذ مرّ عليّ عليه السلام فقال : بماذا تفتخران ؟ قال العبّاس : لقد اُوتيت من الفضل مالم يؤت أحد : سقاية الحاجّ . قال شيبة : اُوتيت عمارة المسجد ؛ فقال عليّ : اُوتيت على صغري مالم تؤتيا فقالا : وما اُوتيت ؟ قال : ضربت خراطيمكما بالسيف حتّى آمنتما . فقام العبّاس مغضباً يجرّ ذيله حتّى دخل على النبيّ

صلى الله عليه وآله ، وقال : أما ترى ما يستقبلني علي ـ عليه السلام ـ ؟ فقال صلى الله عليه وآله : ادعوا لي علياً ، وقال له : ماحملك على ما استقبلت عمك ؟ قال : على صدمته بالحق ؛ فنزلت الآية .

« والسقاية »و«العمارة » مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ، ومعلوم أن السقاية والعمارة فعل ، وقوله : « من آمن » إشارة إلى الفاعل وتشبيه الصفة بالذات والفعل بالفاعل غير صحيح ، ولابد من محذوف في الكلام ، وتقديره : أجعلتم أهل سقاية الحاج ، التقدير : أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن بالله . و كانت السقاية نبيذ الزبيب و كانوا يسقون الحاج الشراب والماء !

قوله : الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عندالله واولئك هم الفائزون (٢٠) يبشرهم ربهم برحمة منه وجنات لهم فيها نعيم مقيم(٢١) خالدين فيها ابدا ان الله عنده اجر عظيم(٢٢) .

لما ذكر في الآية السابقة ترجيح الإيمان والجهاد على السقاية والعمارة بالتلويح بيّن في هذه الآية بالتصريح أن من كان موصوفاً بهذه الصفات أعظم درجة عندالله لأن الإنسان ليس له إلا مجموع أمور ثلاثة : الروح والبدن والمال: أما الروح لما زال عنه الكفر وحصل له الإيمان فقد حصل له غاية السعادة وأما المال والبدن فبسبب الجهاد والهجرة وقعا في النقصان ولما رضي باهدار النفس والمال لطلب مرضاة الله فمثل هذا الإنسان وصل إلى آخر درجة الإنسانية وأول درجة الملائكة ؛ فأين السقاية مع هذه الدرجة ؟ أين الثرى والثريا ؟

قوله [عندالله] المراد الاستغراق في المكانة والعبودية لا العندية بحسب الجهة .

وحصر الفوز لهم بقوله : [أولئك هم الفائزون] لأن من آمن بالله وعرفه قل أن يبقى ملتفتاً إلى الدنيا الفانية ويسعى بالتفريق بين النفس وبين لذات الدنيا ؛ فإنها شواغل و يستحقر الدنيا فيوجب على نفسه تركها فيعرف مايضره وماينفعه ، ويتم عرفانه كماقيل : المعرفة مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ؛ فلما بذل النفس والمال بجزئيته أقبل الله عليه بكليته ، و ذلك قوله : [يبشرهم ربهم برحمة منه و رضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم* خالدين فيها أبداً] مؤبداً ويستحق الأجر العظيم من عنده تعالى .

يا أيها الذين امنوا لاتتخذوا اباءكم واخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون (٢٣) .

لمّا أمر الله المؤمنين بالهجرة وأرادوا الهجرة ، فمنهم من تعلّق به أبواه وأولاده وإخوانه وزوجته فكانوا يمنعونه عن الهجرة فيترك الهجرة لأجلهم ، فبيّن سبحانه أنّ أمر الدين مقدّم على النسب إذا قطع قرابة الأبوين فالأجنبيّ أولى إن استحبّوا الكفر وآثروه على الإيمان . قال الحسن البصريّ : من تولّى المشرك فهو مشرك وهذا إذا كان راضياً بشركه .

[ومن يتولّهم] أي من يتولّى من المؤمنين المشركين [فاُولئك هم الظالمون] على نفوسهم ووضعوا الموالات في غير موضعها .

قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بامره والله لايهدى القوم الفاسقين (٢٤) .

بيان الآية أنّ جماعة من المسلمين قالوا : يا رسول الله كيف يمكن البراءة منهم بالكلّيّة وهذه البراءة توجب انقطاعنا عن آبائنا وإخواننا وعشيرتنا وذهاب تجارتنا وهلاك أموالنا ؟ فأجابهم الله أنّه يجب تحمّل هذه المضارّ الدنيويّة للدين فإن كانت رعاية هذه الاُمور عندكم أولى من طاعة الله ورسوله ومن المجاهدة في سبيله فانتظروا حتّى يأتي الله بأمره أي بعقوبة عاجلة أو آجلة أو فتح مكّة والله لا يهدي القوم الخارجين عن الدين .

وهذه الآية تدلّ على أنّه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمّات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .

قوله تعالى : لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين (٢٥) ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين (٢٦) .

لمّا فتح النبيّ صلّى الله عليه وآله مكّة وقد بقيت من شهر رمضان خرج متوجّهاً إلى قتال هوزان وثقيف لحنين ، وهواسم واد بين مكّة وطائف واختلفوا في عسكر النبيّ قال ابن عبّاس : كانوا ستّة عشر ألفاً ، وقال قتادة : اثني عشر ألفاً ، وقال الكلبيّ : عشرة آلاف وعدد عسكر

المخالف أربعة آلاف ، فلمّا التقوا ، قال رجل من المسلمين اسمه سلمة : لن نغلب القوم عن قلّة ؛ فهذه الكلمة ساءت رسول الله . وقيل : قالها أبوبكر .

قال البراء بن عازب : كانت هوزان رماة ، وفي المثل : قد أنصف القارة من راماها قال البراء : لمّا حملنا انكشفوا وأكببنا على الغنائم فرجعوا واستقبلونا بالسهام وانكشف المسلمون عن رسول الله ولم يبق معه ﷺ إلّا العبّاس بن عبدالمطّلب و أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، والعبّاس أخذ بلجام بغلته وأبوسفيان بركابه ، قال البراء : ماولّى رسول الله دبره قطّ وهو يقول : أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبدالمطّلب ، وطفق يركض بغلته الشهباء نحو الكفّار لايبالي وعليّ عليه السلام في المعركة مع نفر قليل يحارب ثمّ قال النبيّ للعبّاس : نادالمهاجرين والأنصار وكان العبّاس رجلاً صيّتاً فجعل ينادي : يا عبادالله ياأصحاب بيعة الشجرة يا أهل سورة البقرة ؛ فجاء المسلمون حتّى سمعوا صوته عنقاً واحداً وأخذ رسول الله كفّاً من حصى فرماهم بها ، وقال : شاهت الوجوه ؛ فما زال أمر الكفار مدبراً وحدّهم كليلاً حتّى هزمهم الله ولم يبق منهم أحد إلّا امتلأت عيناه من ذلك التراب قيل : فذلك قوله : [وأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين] و السكينة مايسكن به القلب والنفس ، وبوجب الطمأنينة ، ووجه الاستعارة أنّ الإنسان إذا خاف اضطرب قلبه . وإذا أمن الإنسان سكن قلبه فجعل لفظ السكينة كناية عن السكون والأمن . ومن النعمة الّتي أنعم الله عليهم :

قوله : [وأنزل جنوداً لم تروها] والمراد : أنزل الملائكة ، قال سعيد بن جبير : أمدّ الله نبيّه بخمسة آلاف من الملائكة واختلفوا في أنّ الملائكة هل قاتلوا ذلك اليوم ؟ منهم من قال : قاتلوا ، ومنهم من قال : ماقاتلوا بل يوم بدر قاتلوا ، قال سعيد بن المسيّب : حدّثني رجل من المشركين يوم حنين قال : لمّا غلبنا على المسلمين جعلنا نسوقهم فلمّا انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء تلقّانا رجال بيض الوجوه حسان فقالوا : شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا .

قوله : [وعذّب الّذين كفروا] وهذا الأمر الثالث من نعم الله لهم في ذلك اليوم و المراد من هذا التعذيب قتلهم وأسرهم وأخذ أموالهم وسبي ذراريهم . قوله : [ثمّ يتوب الله على

من يشاء والله غفور رحيم] عطف على « أنزل » أي ثمّ يقبل الله توبة من تاب عن الشرك والمحاربة ورجع إلى طاعة الرسول والإسلام ، ويجوز أن يكون المراد من قبول توبة الذين انهزموا من عسكر الرسول أو إعجابهم بالكثرة وإنّما علّق بالمشيئة ؛ لأنّ القبول تفضّل منه وهذا ردّ لقول الوعيديّة حيث يقولون : قبول التوبة واجب ولو كان واجباً لما علّقه بالمشيئة .

و روي عن الصادقين عليهم السلام أنّهم قالوا : كانت مواطن النصرة لرسول الله ثمانين موطناً . روي أنّ المتوكّل اشتكى شديدة فنذر أن يتصدّق بمال كثير إن شفاه الله فلمّا عوفي سأل العلماء عن حدّ المال الكثير فاختلف أقوالهم فاُشير إليه أن يسأل أبي الحسن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى الرضا وقد كان الإمام في حبسه في داره فأمر أن يكتب إليه فكتب عليه السلام يتصدّق بثمانين ديناراً فسألوه عن العلّة فقرأ هذه الآية وقال : عددنا تلك المواطن فبلغت ثمانين موطناً .

ومختصر قصّة حنين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا فتح مكّة خرج معنا إلى حنين عن سنة ثمان من الهجرة ، وقد اجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النضريّ ، و ساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم ، ونزلوا بأرطاس وكان دريد بن صمة في القوم ، وكان شيخاً كبيراً مطاعاً قد ذهب بصره من الكبر فقال : بأيّ وادٍ أنتم؟ قالوا : بأرطاس قال : نعم مجال الخيل لاحزن [1] ضرس ولاسهل وهن ، مالي أسمع رغاء البعير وخوار البقر ونهيق الحمير وشقاء الشاة وبكاء الصبيان ؟ فقالوا : إنّ مالك بن عوف ساق مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ليقاتل كلّ منهم عن أهله و ماله فقال دريد : راعي ضأن وربّ الكعبة . ثمّ قال : ائتوني بمالك فلمّا جاءه قال : يا أبا مالك إنّك أصبحت رائس قومك ردّ قومك إلى عليا بلادهم وألق الرجال على متون الخيل فإنّه لاينفعك إلّا رجل بسيفه وفرسه فإن كانت لك لحق بك ماوراءك وإن كانت عليك لاتكون فضحت في أهلك وعيالك فقال : له مالك إنّك قد كبرت وذهب علمك وعقلك .

ثمّ عقد رسول الله اللواء الأكبر ودفعه إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وخرج بعد أن أقام بمكّة خمسة عشر يوماً ، وبعث إلى صفوان بن اُميّة فاستعار منه مائة درع فقال :

(١) الحزن بالفتح فالسكون : الارض الغليظة .

صفوان: عارية أم غصب ؟ فقال صلى الله عليه وآله : عارية مضمونة مؤدّاة ؛ فأعاره وخرج صلى الله عليه وآله من مكّة في اثني عشر ألفاً .

فبعث صلى الله عليه وآله رجلاً من أصحابه فانتهى إلى مالك بن عوف فسمعه وهو يقول لقومه : ليصيّر كلّ رجل منكم أهله وماله خلف ظهره واكسروا جفون سيوفكم واكمنوا في شعاب هذا الوادي وفي الشجر فإذا كان في الطليعة من الصبح فاحملوا حملة رجل واحد فهدّوا القوم فإنّ محمّداً لم يلق أحداً ممّن يحسن الحرب .

ولمّا صلّى النبيّ صلى الله عليه وآله أصحابه الغداة انحدر في وادي حنين فخرجت عليهم كتائب هوزان من كلّ ناحية فانهزمت بنو سليم وهم كانوا في المقدّمة من عسكر رسول الله و كذلك انهزم ماوراءهم وخلّى الله بينهم وبين عدوّهم لإعجابهم بكثرتهم وبقي عليّ عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم في نفر قليل ، ومرّ المنهزمون برسول الله لايلوون على شيء ، وكان العبّاس عن يمينه وأبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطّلب عن يساره ونوفل بن الحارث و ربيعة بن الحارث في تسعة من بني هاشم وعاشرهم أيمن بن أمّ أيمن و قتل يومئذ وفي ذلك يقول العبّاس :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة * و قد فرّ من قد فرّعنه و أقشعوا

ولما رأى النّبيّ هزيمة قومه أمر العبّاس أن يصوّت كما ذكرنا سابقاً ؛ فلمّا سمع المسلمون صوت العبّاس قالوا : لبّيك وتبادر الأنصار خاصّة وقاتلوا المشركين حتّى قال رسول الله : الآن قد حمي الوطيس و نزل النصر وانهزمت هوزان هزيمة قبيحة ومزّقوا في كلّ وجه ، ولم يزل المسلمون في آثارهم ؛ وفرّ مالك بن عوف فدخل حصن الطائف وأغنم المسلمون أموالهم ونساءهم وأمر رسول الله بالذراري والأموال أن ينحدروا إلى الجعرّانة وولّى على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعيّ .

ومضى صلى الله عليه وآله في أثر القوم فوافى الطائف في طلب مالك فحاصر أهل الطائف بقيّة شوّال ، فلمّا دخل ذو القعدة انصرف إلى الجعرّانة ، وقسّم غنائم حنين وكان معه من بني هوزان ستّة آلاف من النساء والذراري، ومن الإبل والشاة مالايدرى عدّته .

قال أبوسعيد الخدريّ : قسّم النبيّ صلى الله عليه وآله للمتألّفين من قريش ومن سائر العرب ما قسّم ولم يكن في الأنصار منها شيء لا قليل ولا كثير فمشى سعدبن عبادة إلى رسول الله

أن هذا الحي من الأنصار قدوجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب و لم يكن فيهم من ذلك شيء فقال صلى الله عليه وآله: فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ فقال : ما أنا إلا امرء من قومي ، فقال صلى الله عليه وآله : اجمع لي قومك في هذه الحظيرة فجمعهم ؛ فخرج رسول الله و قام فيهم خطيباً فحمدالله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا معاشر الأنصار أولم آتيكم ضلالاً فهداكم الله وعائلاً فأغناكم الله وأعداء فألّف بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى .

ثم قال : ألا تجيبوني يا معاشر الأنصار ؟ فقالوا : وبماذا نجيبك المن لله ولرسوله ؟ فقال رسول الله : لوشئتم لقلتم وصدقتم جئتنا طريداً فآويناك وعائلاً فأغنيناك وخائفاً وآمنّاك ، ومخذولاً فنصرناك ؟ فقالوا : المن لله ولرسوله .

ثم قال صلى الله عليه وآله : تألّفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى ما قسّم الله لكم من الإسلام أفلا ترضون يا معاشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالّذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً لسلكت شعب الأنصار و لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فبكى القوم حتّى اخضلّت لحاهم وقالوا : قد رضينا بالله قسماً ، ثم تفرّقوا وقدأمر النبي صلى الله عليه وآله منادياً ينادي يوم أرطاس : ألا لاتوطأ الحبالى حتّى يضعن ، ولا غير الحبالى حتّى يستبرئن بحيضة .

ثم أقبلت وفود هوازن وقدمت على رسول الله مسلمين ، فقام خطيبهم وقال : يارسول الله من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ؛ فلو أنّا كحنا ابن أبي السمراء أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا مثل الّذي أصابنامنك رجوناعائدتهما ، وأنت خير المكفولين ثم أنشد أبياتاً فقال صلى الله عليه وآله : أي الأمرين أحب إليكم السبي أوالأموال ؟ قالوا : خيّرتنا بين الحب وبين الأموال والحب أحب إلينا ولا نتكلّم في الشاة والبعير ؛ فقال النبي : أمّا الّذي لبني هاشم فهو لكم وسوف أُكلّم المسلمين وأتشفّع لكم فكلّموهم و أظهروا إسلامكم ، فلمّا صلّى الرسول الهاجرة قام وتكلّم فقال : قد رددت الّذي لبني هاشم والّذي بيدي عليهم فمن أحب منكم أن يعطي غير مكره فليفعل ومن كره أن يعطي فليأخذ

الفداء وعليّ فداؤهم فأعطى الناس ما في يدهم إلّا قليلاً من الناس سألوا الفداء .

وأرسل رسول الله إلى مالك بن عوف وقال : إن جئتني مسلماً رددت إليك أهلك و مالك ولك عندي مائة من الإبل ، فخرج إليه من الطائف فردّ عليه أهله و ماله و أعطاه مائة من الإبل واستعمله على من أسلم من قومه .

ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم (٢٧) .

و«ثمّ» عطف على «أنزل سكينته» كما أنّ «ثمّ أنزل سكينته» عطف على «ثمّ ولّيتم مدبرين» كما أنّ «ثمّ ولّيتم» عطف على قوله : «ضاقت عليكم» أي يقبل الله توبة من تاب عن الشرك ورحيم بهم .

ياايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلايقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم (٢٨).

النظم : لمّا نبذ العهد عليّ عليه السلام بأمر الرسول قال : أُناس من أهل مكّة : يا أهل مكّة ستعلمون ما تلقونه من الشدّة لانقطاع السبيل وفقد الحمولات فنزلت الآية لإزالة الخوف .

المعنى : وصف « المشركون » بالمصدر بقوله «نجس » مبالغة في النجاسة أي عين النجاسة أوهم ذو نجس لخبث كفرهم وشركهم ، قال الزّمخشريّ : عن ابن عبّاس : إنّ أعناقهم نجسة كالكلاب والخنازير [فلايقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] أي العام المشار إليه و هو السنة التاسعة الّذي نادى عليّ عليه السلام بالبراءة .

واختلفوا في أنّ المراد من المسجد الحرام هو نفس المسجد أو جميع الحرم ؟ والأقوى جميع الحرم عند العامّة وأمّا عندنا الإماميّة فجميع المساجد ، والّذين قالوا : المراد جميع الحرم قالوا : لقوله : «سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام [١]» مع أنّه قد أجمعوا على أنّه إنّما رفع من بيت أُمّ هاني .

قوله : [و إن خفتم] فقراً وحاجة بسبب انقطاع المتاجر بمنع المشركن أو أمر آخر [فسوف يغنيكم الله] رحمة منه و فضلاً ، قال قتادة : أسلم أهل نجدة وصنعاء و جرش في اليمن وحملوا الطعام إلى مكّة على ظهور الإبل والدوابّ و كفاهم الله ماكانوا يتخوّفون أو

(١) الاسراء : ١ .

المراد : بغنيكم بإباحة الغنائم وأخذ الجزية من أهل الكتاب وبالمطر والنبات و إنّما علّقه بالمشيئة لأنّ الله قد علم أنّ منهم من يبقى إلى وقت فتح البلاد واقتناء الأموال من الأكاسرة فيتغنّى ، ومنهم من لا يبقى إلى ذلك الوقت فلذا علّقه بالمشيئة . وهو [عليم] بالمصالح و [حكيم] في أفعاله .

قوله : قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون(٣٩) .

لمّا ذكر حكم المشركين من إظهار البراءة عنهم و وجوب مقاتلتهم و تبعيدهم عن المسجد الحرام في الآيات السابقة شرع في بيان حكم الكافرين من أهل الكتاب و هو أن يقاتلوا إلى أن يعطوا الجزية ، فحينئذ يقرّون على ماهم عليه وذلك إذا كانوا موصوفين بصفات :

الأُولى : كونهم لايؤمنون بتوحيد الله .

الصفة الثانية أنّهم لايقرّون بالبعث والحشر كما يقرّون المسلمون من القرآن قال الرّازيّ : المنقول عن اليهود والنصارى إنكار الحشر الجسمانيّ و يميلون إلى البعث الرّوحانيّ .

الصفة الثالثة : لايحرّمون ماحرّم الله ورسوله في القرآن وسنّة الرسول بل لايعملون بما في التوراة والإنجيل بل حرّفوهما وأتوا بأحكام كثيرة من قبل أنفسهم . وتحريف نعت محمّد في كتابهم و كتمان أمر نبوّته صلّى الله عليه وآله .

الصفة الرابعة أنّهم لايدينون دين الحقّ أي دين الله ودين الحقّ عند الله الإسلام والمقصود تميز هؤلاء اليهود والنصارى حكمهم عن حكم المشركين لأنّ الواجب في المشركين الإسلام أو القتال والواجب في الموصوفين القتال أو الإسلام أو الجزية ، وهذا حكمهم دون المشركون «والجزية» مشتقّ من جزى دينه أي قضاه أو لأنّهم يجزون بها من منّ عليهم بالإعفاء عن القتل .

قوله : [عن يد] أي حال الإعطاء يكون المعطي منقاداً طائعاً مستصغراً بيدهم لابيد

غيرهم بأن يكونوا حال الإعطاء أذلّاء ماشياً غير راكب ويسلّمها وهو قائم ويتسلّمها الآخذ وهو قاعد و يؤخذ بتلبيبه و لحيته ويقال له : أدّ الجزية و إن كان يؤدّيها و يُزجّ في قفاه .

والمجوس حكمهم حكم أهل الكتاب في إعطاء الجزية لقوله صلى الله عليه وآله : سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب . قال علي عليه السلام : إنّه كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أُسري على كتابهم فرفع من بين أظهرهم . لكن اتّفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحهم لقوله صلى الله عليه وآله : في آخر ما نقل من الحديث : غير ناكحي نسائهم وآكلي ذبائحهم .

وفي الكافي عن الصادق أنّه سئل عن المجوس أكان لهم نبي ؟ فقال : نعم ، أما بلغك كتاب رسول الله إلى أهل مكّة أن أسلموا و إلّا فأذنوا بحرب من الله . فكتبوا إلى رسول الله أن نعم خذ منّا الجزية ودعنا على عبادة الأصنام فكتب إليهم : أنّي لست آخذ الجزية إلّا من أهل الكتاب فكتبوا إليه - يريدون بذلك تكذيبه - : زعمت أنّك لا تأخذ الجزية إلّا من أهل الكتاب ، ثمّ أخذت من مجوس هجر ؟ فكتب إليهم النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّ المجوس كان لهم نبيّ فقتلوه و كتاب فاحترقوه أتاهم نبيّهم بكتابها في اثني عشر ألف جلد ثور .

في الفقيه والتهذيب والعلل عنه عليه السلام أنّه سئل عن النساء كيف سقطت الجزية عنهنّ ؟ فقال : لأنّ رسول الله نهى عن قتال النساء والولدان في دار الحرب إلّا أن تقاتل وإن قاتلت فأمسك عنها ما أمكنك فلمّا نهى عن قتلهنّ في دار الحرب كان ذلك في دار الإسلام أولى ؛ إلى آخر الحديث .

وفي الكافي والفقيه عنه عليه السلام : جرت السنّة أنّه لا يؤخذ الجزية من المعتوه ولا من المغلوب على عقله ، ومقدار الجزية وحدّها سئل عنه عليه السلام فقال : ذلك إلى الإمام يأخذ منهم ما شاء على قدر ماله ما يطيق و يؤخذ منهم على قدر ما يطيقون ، وإنّما قيّد بالاستصغار ليتألّم بالاستصغار فيسلم .

وقال أنس بن مالك : قسّم رسول الله - صلى الله عليه وآله - على كلّ بالغ ديناراً و قسّم عمر على فقراء أهل الذمّة اثني عشر درهماً وعلى الأوساط أربعة وعشرين درهماً وعلى الأغنياء أربعة دنانير في السنة . وهذا الإمهال لأجل أن يقف على محاسن الإسلام ويرى ذلّة الاستصغار بالكفر

فينتقل منه إلى دار الإسلام .

وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون (٣٠) .

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ اليهود والنصارى بأنّهم لايؤمنون بالله شرح في هذه الآية بيان كفرهم بأنّهم أثبتوا لله ابناً ومن جوّز ذلك في حقّ الإله فهو في الحقيقة أنكر الإله وهو داخل في الشرك مع المشركين ، ولا فرق بين من يعبد الصنم ومن يعبد المسيح وغيره لأنّه لامعنى للشرك إلّا أن يتّخذ الإنسان مع الله معبوداً بل إنّ كفر عابد الوثن أخفّ من كفر النصارى ؛ لأنّ عابد الوثن لايقول : إنّ هذا الوثن خالق العالم وإله العالم بل يتوسّل به إلى طاعة الله .

وأمّا النصارى فإنّهم يثبتون الحلول والاتّحاد وذلك كفر قبيح جدّاً . وإنّما خصّهم بقبول الجزية لأنّهم نسبوا أنفسهم إلى الكتابين ونسبوا أنفسهم بهذين الرسولين الجليلين فلأجل نسبتهم ورجاءِ رجوع البعض في مدّة الجزية حكم الله لهم هذا الأمر .

[وقالت اليهود] قال ابن عبّاس في رواية سعيد بن جبير وعكرمة : أتى جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ ، وهم سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى ومالك بن الصيف وغيرهم قالوا : كيف نتّبعك وقد تركت قبلتنا ، ولا تزعم أنّ عزيراً ابن الله ؟ فنزلت هذه الآية.

وقيل : قال هذا القول رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازورا و تبعه آخرون .

والصحيح أنّه كان هذا المذهب فاشياً فيهم ، ثمّ لعلّ انقطع فحكى الله عنهم ولاعبرة بإنكار اليهود ذلك لأنّ حكاية الله عنهم أصدق .

والسبب الّذي لأجله قالوا هذا القول مارواه ابن عبّاس أنّ اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحقّ فأنساهم الله التوراة ونسخها عن صدورهم أوأنّ بخت نصّر أحرق التوراة فتضرّع عزير إلى الله فنزل له جبرئيل فعاد حفظ التوراة إلى قلبه ، فأنذر قومه فلمّا وجدوه صادقاً فيه قالوا : ما تيسّر لعزير إلّا أنّه ابن الله . قال السدّي : قتل العمالقة علماءهم فلم يبق أحد يعرف التوراة . وقيل : فقدت نسخ التوراة غير نسخة واحدة كانت مدفونة في البيت المقدّس أخرجها عزير .

قوله : [وقالت النصارى المسيح ابن الله] السبب فيه أنّه وقع حرب بين أتباع عيسى واليهود وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس قتل جمعاً كثيراً من أصحاب عيسى ثمّ قال : إن كان الحقّ مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا ونحن مغبونون إن دخلوا الجنّة ودخلنا النار وإنّي أحتال فأُضلّهم فعرقب فرسه وأظهر الندامة ممّا كان يصنع ووضع التراب على رأسه وقال : نوديت من السماء يا بولس ليس لك توبة إلّا أن تتنصّر وقد تبت وتنصّرت فأدخله النصارى في الكنيسة و مكث سنة لا يخرج و تعلّم الإنجيل فصدّقوه و أحبّوه غاية .

ثمّ مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم في الكنيسة رجلاً اسمه نسطور وعلّمه أنّ عيسى ومريم و الإله كانوا ثلاثة ، وتوجّه إلى الروم وعلّمهم اللاهوت و الناسوت و قال : ماكان عيسى إنساناً ولاجسماً ولكنّه الله وعلّم رجلاً آخر يقال له يعقوب ذلك ، ثمّ دعا رجلاً آخر يقال له ملكا فقال له : إنّ الإله لم يزل ولا يزال عيسى ، ثمّ دعا هؤلاء الثلاثة و قال لكلّ واحد منهم : أنت خليفتي فادع الناس إلى إنجيلك ولقد رأيت عيسى في المنام ورضي عنّي وأنّي غداً أذبح نفسي فداء لعيسى ، ثمّ دخل في الغد المذبح وذبح نفسه . ثمّ دعا كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة الناس إلى قوله و مذهبه و صار هذا الأمر السبب في وقوع هذا الكفر في طوائف النصارى ، هذا ماحكاه الرازيّ عن الواحديّ .

وقال الرازيّ في المفاتيح : لعلّ ورود لفظ الابن في الإنجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حقّ إبراهيم على سبيل التشريف ، ثمّ إنّ النصارى لأجل عداوة اليهود ولأجل أن يقابلوا غلوّهم الفاسد في أحد الطرفين بغلوّ فاسد في الطرف الثاني فبالغوا وفسّروا لفظ الابن ببنوّة الحقيقيّة والجهّال قبلوا ذلك ، وفشى هذا المذهب الفاسد في أتباع عيسى والله عالم .

قوله : [ذلك قولهم بأفواههم] يقولون هولاء هذه الأقاويل الفاسدة بأفواههم فلو قيل كلّ قول يقال بالفم فما معناه ؟ المراد أنّ هذا القول ما هو إلّا قول متفوّه به فارغ عن المعنى من غير تعقّل وتدبّر :

كلامك يا هذا كبندق فارغ ❊ خليّ من المعنى ولكن يقلقل .

قوله : [يضاهئون قول الّذين كفروا من قبل] قرىء بالهمزة و بغير الهمزة . «المضاهاة» المشابهة مشتقّ من قولهم : «امرأة ضيهاء وهي الّتي لا تنبت لها ثدي» أي يشابه هذا القول قول المشركين قبلهم حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، أو قول اليهود : عزير ابن الله .

[قاتلهم الله أنّى يؤفكون] قال ابن عبّاس : أي لعنهم الله ، لأنّ من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . كيف يصرفون عن الحقّ إلى الإفك والكذب ؟ أي أيّ داع لهذا القول الفاسد ؟

اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم و ما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون (٣١) .

شرح سبحانه في هذه الآية بضرب آخر من شركهم قال ابن السكّيت : «حبر» و«حبر» يقال للعالم ذمّيّاً كان أو مسلماً بشرط أن يكون من أهل الكتاب ، ولكن في عرف الاستعمال صار الأحبار مختصّاً بعلماء اليهود من ولد هارون والرهبان بعلماء النصارى من أصحاب الصومعة .

والأكثرون من المفسّرين قالوا : ليس المراد من اتّخاذهم أرباباً أنّهم اعتقدوا أنّهم آلهة العالم ، بل المراد أنّهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم . نقل أنّ عديّ بن حاتم كان نصرانيّاً فانتهى إلى رسول الله وهو يقرء سورة برائة فوصل إلى هذه الآية قال عديّ : لسنا نعبدهم فقال : أليس يحرّمون ما أحلّ الله فيحرّمونه ويحلّلون ما حرّم الله فيستحلّونه ؟ فقال : بلى قال : فتلك عبادتهم .

قال الربيع لأبي العالية : كيف كانت تلك الربوبيّة من الأحبار في بني إسرائيل ؟ فقال : ربّما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبانيّة فكانوا يأخذون بأقوالهم وما كانوا يقبلون كتاب الله .

أقول : وهذا الداء قد سرى في عروق بعض من الحمقاء من أهل الدنيا في زماننا فإنّهم يعظّمون شيخهم وقدوتهم ، وقد يكون يميل طبع الشيخ إلى الاتّحاد و الحلول ويميل طباعهم إلى الشيخ و ذلك الشيخ الخبيث يلقي إليهم أنّ الأمر كذلك ولعلّ يأمر أتباعه بأن يسجدوا له ويقول لهم : أنتم عبيدي وقد يكون في الخلوة يدّعي الحلول والإلهيّة مع أصحابه .

قوله : يريدون أن يطفئوا نورالله بافواههم ويابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون (٣٢) .

بيان نوع آخر من قبائح اليهود والنصارى وهو سعيهم في إبطال أمر محمد صلى الله عليه وآله المراد من النور القرآن وعلائم خاتميّته مع أنّه صلى الله عليه وآله ليس له إلى غير الله حاجة وماغيّر طريقته في استحقار الدنيا وعدم الالتفات إليها إلى آخر عمره فكانوا قد قصدوا إبطال نبوّته كمن يريد إبطال نور الشمس بسبب أن ينفخ فيها وهذا هو المراد من الآية .

ثمّ إنّه تعالى وعده بالنصر وإعلاء الكلمة فقال : [ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون] ومعنى «يأبى» في الآية جار مجرى : لم يرد .

قوله تعالى : هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٣٣) .

أرسل محمداً صلى الله عليه وآله وحمّله الرسالات التي يؤدّيها إلى الخلق بالحجج والبيّنات والقرآن وبدين الحقّ وهو الإسلام ؛ لأنّ كلّ دين باطل ومنسوخ بدينه وأرسله ليعلي الإسلام على الأديان بالحجّة أوالغلبة ، أمّا الغلبة بالحجّة فمعلوم لأنّ كتابه أحكم كلّ كتاب وأحسن كلّ طريقة .

وأما ظهوره بالغلبة والقهر فإنّه ماحصل بعد وإن كان كلّ طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك ولحق أكثرهم قهر من جهة المسلمين إلّا أنّه لم يحصل كاملاً وماغلب لسائر الأديان مثل أرض الهند والصين والروم وسائر أراضي الكفر ، لكن وعدالله من الله أن يجعل ذلك .

قال أبو جعفر عليه السلام : إنّ ذلك يكون عند خروج المهديّ من آل محمد صلى الله عليه وآله فلا يبقى أحد إلّا أقرّ بمحمّد وهو قول السدّيّ .

وقال الكلبيّ : لايبقى دين إلّاظهر عليه الإسلام وسيكون بعد ذلك ولاتقوم الساعة حتّى يكون .

قال المقداد : سمعت رسول الله يقول : لايبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولاوبر إلّا أدخله الله كلمة الإسلام إمّا بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل أي إمّا طوعاً أو كرهاً يدينون له .

وقيل : إنّ ضمير الهاء في «ليظهره» راجع إلى الرسول أي ليوقفه ويعلّمه جميع الأديان وهذا بعيد .

قوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار و الرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم (٣٤) يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون (٣٥) .

لمّا وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبّر والربوبيّة وصفهم في هذه الآية بالطمع والحرص وقيّد بقوله : « كثيراً» ليدلّ على أنّ هذه الطريقة طريقة بعضهم لا طريقة الكلّ وعبّر بالأكل لأنّ المقصود الأعظم من جمع المال هو الأكل ، فسمّى الشيء باسم ما هو أعظم المقصود ، ومن أكل الشيء فقد ضمّه إلى نفسه ويمتنع الوصول لغيره إليه ، فإذا طولب بردّه قال : أكلته فلا أقدر على ردّه ؛ فلهذا السبب سمّي الأخذ بالأكل .

وقوله : [بالباطل] أي إنّهم كانوا يأخذون الرشا بالتحريفات و تخفيف الأحكام و كانوا يدّعون عند العوامّ أنّه لاسبيل إلى مرضاة الله إلاّ بخدمتهم وإطاعتهم و بذل الأموال في مرضاتهم ، وآيات كانت في التوراة و الإنجيل دالّة على مبعث محمّد صلى الله عليه وآله فكانوا هؤلاء يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة ، وكانوا يقرّرون عند عوامّهم أنّ الدين الحقّ هو الّذي هم عليه وبهذا الطريق يكتسبون أموالاً خطيرة فهذا هو الباطل المراد في الآية .

ثمّ قال : [و يصدّون عن سبيل الله] لأنّهم بهذه الأمور منعوا الناس عن قبول الإسلام لأنّهم إذا أقرّوا بمحمّد بطل حكمهم ومقاصدهم .

ثمّ قال : [والّذين يكنزون الذهب والفضّة] يحتمل أن يكون المراد بهم هو الأحبار و الرهبان و يحتمل أن يكون جملة مستأنفة أي الّذين يجمعون المال ولا يؤدّون زكاتها ؛ فقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله كلّ مال لم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان المال ظاهراً وغير مدفون ، و كلّ مال اُدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض ، قال ابن عباس و الحسن والشعبيّ والسدّي . قال الجبائيّ : وهو إجماع .

[فبشّرهم] وأخبرهم بعذاب أليم .

وروي عن أمير المؤمنين: مازاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أُدّي زكاته أم لم يؤدّ وما دونها فهو نفقة . ومعنى الحديث أنّ هذا المقدار من المال يصدق عليه الكنز وليس معناه أنّ هذا المقدار من المال يجب عليه الزكاة ومادونه لايجب ، وبالجملة المراد مانعو الزكاة .

روى سالم بن أبي الجعد أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزلت هذه الآية قال : تبّاً للذهب تبّاً للفضّة يكرّرها ثلاثاً فشقّ ذلك على أصحابه فسأله عمر يارسول الله أيّ المال نتّخذه ؟ فقال ﷺ : لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً و زوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه .

قوله : [يوم يحمى عليها في نار جهنّم] أي يوقد على الكنوز أو على الذهب والفضّة حتّى تصير ناراً فتكوى بتلك الكنوز المحماة والأموال الّتي منعوا حقوق الله فيها بأعيانها جباههم وجنوبهم وظهورهم وإنّما خصّ هذه الأعضاء لأنّها معظم البدن . وكان أبوذرّ الغفاري يقول : بشّر الكافرين أوقال : بشّر الكفّارين بكيّ في الجباه و كيّ في الجنوب و كيّ في الظهور حتّى يلتقي الجمر في أجوافهم و المراد الّذين لم يؤدّوا الزكاة .

ولعلّ السبب باختصاص المواضع للكيّ لأنّ صاحب المال إذا رأى الفقير قبض جبهته وزوي ما بين عينيه وطوى عنه كشحه وولّاه ظهره ، عن أبي الورّاق .

قوله : [هذا ما كنزتم لأنفسكم] أي يقال له في حال الكيّ : هذا جزاء ما كنزتم ولم تؤدّوا حقوق الله فيها وجعلتموها ذخيرة لأنفسكم فذوقوا العذاب بسبب كنزكم .

قال النبيّ : مامن عبد له مال لايؤدّي زكاته إلّا جمع يوم القيامة صفائح يحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بها جبهته وجنباه وظهره حتّى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ممّا تعدّون ، ثمّ يرى سبيله إمّا في الجنّة وإمّا في النّار أورده مسلم بن الحجّاج في الصحيح .

وروى ثوبان عن النبيّ ﷺ قال : من ترك كنزاً مثّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه فيقول له : ويلك ما أنت ؟ فيقول : أنا كنزك الّذي تركت بعدك فلا يزال يتبعه حتّى يلقمه يده فيقضمها ، ثمّ يتبعه سائر جسده .

قال القاضي عبد الجبّار : تخصيص الآية بمنع الزكاة لاسبيل إليه ، بل الواجب أن يقال :

الكنز هو المال الّذي ما اُخرج عنه ماوجب إخراجه عنه ، ولا فرق بين الزكاة و بين ماوجب إخراجه من المال من الكفّارات ونفقة الحجّ وبين ما يجب إخراجه في الدين و الحقوق و الأنفال الواجب وضمان المتلفات واُروش الجنايات ، ويجب في كلّ هذه الأقسام أن يكون داخلاً في الوعيد والحكم .

وفصّل بعض بأنّ الرّجل إذا جمع مالاً ولم يؤدّ زكاته فحكمه الكيّ وما بقي فالمنع عن الجمع المال الكثير ، وماورد في بعض الأخبار أنّه ﷺ لمّا مات رجل و وجد في مأرزه دينار قال ﷺ : « كيّه » محمول على التقوى ، و إنّ الله خلق الأموال ليتوسّل بها إلى دفع الحاجات فإذا حصل للإنسان قدر مايدفع به حاجته ثمّ جمع الأموال الزائدة عليه فهو لا ينتفع بها لأنّها زائدة عن قدر حاجته ومنعها من الغير الّذي يمكن أن يدفع حاجته فكان هذا الإنسان بهذا المنع مانعاً عن ظهور حكمته و مانعاً عن وصول إحسان الله إلى عبيده ، ثمّ إذا كثر ماله اشتدّ حرصه على الأكثر فيلتهي دائماً إلى جمعه وحفظه و يكثر ميله وحبّه يوماً فيوماً ؛ لأنّ المال اشتقاقه من الميل فلاجرم صار هذا الميل مانعاً عن تحصيل اُمور الآخرة ، وليس المراد من حبّ الدنيا إلّا هذا و هو رأس كلّ خطيئة .

ويجب على العاقل أن يحترز عن الإضرار بالنفس فضلاً عن الغير على أنّ كثرة المال يوجب كثرة الطغيان قال الله : «إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[1]» هذا كلّه في المال الّذي اُدّي زكاته وإلّا فالكيّ » قوله : «ولاينفقونها» فالتأنيث باعتبار الفضّة وذكر واحد منهما مغن عن الآخر كقوله : «وإذا رأوا تجارة أولهواً انفضّوا إليها[2]» .

قوله : ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات و الارض منها اربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن انفسكم و قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة و اعلموا ان الله مع المتقين (٣٦) .

من قبائح أفعال اليهود والمشركين إقدامهم على السعي في تغيير بعض أحكام الله و

(١) العلق : ٦ـ ٧ .
(٢) الجمعة : ١١ .

هو زيادة في الكفر وبيانه أنّ السنة عند العرب عبارة عن اثني عشر شهراً من الشهور القمريّة والدليل عليه هذه الآية وهي : «هو الّذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب» (١) .

وذلك إنّما يصحّ إذا كانت السنة معلّقة بسير القمر . و عند سائر الطوائف السنة عبارة عن المدّة الّتي تدور الشمس فيها دورة تامّة ، والسنة القمريّة أقلّ من السنة الشمسيّة بمقدار معلوم ، و بسبب ذلك النقصان ينتقل الشهور القمريّة من فصل إلى فصل فيكون الحجّ والموسم واقعاً في الشتا مرّة وفي الصيف مرّة ، وكان يشقّ عليهم ذلك بهذا السبب . وأيضاً إذا حضروا الحجّ حضروا للتجارة فربّما كان ذلك الوقت غير موافق لحضور التجارات من الأطراف ، وكان يخلّ أسباب تجاراتهم بهذا السبب فلهذا أقدموا على عمل الكبيسة و اعتبروا السنة الشمسيّة ، وعند ذلك بقي وقت الحجّ مختصّاً بوقت واحد موافقاً لمصلحتهم التجاريّة فهذا التأخير والنسيء وإن كان أصلح لتجارتهم ودنياهم إلّا أنّه لازم تغيّر حكم الله منه لأنّه تعالى خصّ الحجّ بأشهر معلومة ، و كذلك يقع النسيء في سائر الشهور بتغيير حكم الله .

ثمّ إنّ السنة الشمسيّة لمّا كانت زائدة على السنة القمريّة جمعوا تلك الزيادة فإذا بلغ مقدارها إلى شهر جعلوا تلك السنة ثلاثة عشر شهراً فأنكر الله ذلك عليهم فقال : «إنّ عدّة الشهور اثنا عشر شهراً في كتاب الله» لا أزيد ولا أقلّ ، وكان طريقة العرب من الزمان الأوّل أن يكون السنة قمريّة وتوارثوه عن إبراهيم و إسماعيل . وأمّا عند النصارى و اليهود السنة شمسيّة ، ثمّ إنّ العرب تعلّم منهم وظهر في بلاد العرب .

قوله : [عدّة الشهور] اسم «إنّ» مبتدأ «اثنا عشر» خبر . و«عند الله» و «في كتاب الله» و «يوم خلق السماوات» ظروف أي ذلك العدد واجب متقرّر في كتاب الله وعلمه من أوّل ما خلق الله العالم . والمراد من كتاب الله قيل : «اللوح» أو المراد القرآن ، أو المراد في حكم الله [منها أربعة حرم] من هذه الاثني عشر . ومعنى «حرم» أي يعظّم انتهاك المحارم فيها أكثر من بعض لا نطفاء النائرة وانكسار الحميّة . وشهور السنة المحرّم سمّي بذلك لتحريم القتال فيه و

---

(١) يونس : ٥ .

«صفر» لأنّ مكّة تصفر من الناس فيه أو وقع وباء عظيم فيه فصفرت وجوههم .

قال أبو عبيدة : لأنّه صفرت وطابهم عن اللبن وشهرا «ربيع» لإنبات الأرض فيهما أو ارتباع القوم وإقامتهم فيهما و«جمادتان» لجمود الماء فيهما .

أقول : ارتباع القوم أنسب في التسمية من إنبات الأرض فيهما بل لا مناسبة بين إنبات الأرض فيهما و جمود الماء في الجمادين لأنّ انجماد الماء لا يكون بعد الربيع بلا فاصلة بل بين الفصلين الخريف وهو ثلاثة أشهر لأنّ الماء لا ينجمد إلّا في الشتاء وبالجملة «فرجب» سمّي بذلك لأنّهم كانوا يعظّمونه أولترك القتال فيه من قولهم : رجل أرجب أي أقطع لايمكنه العمل .

روي عن النبيّ ﷺ أنّ في الجنّة نهراً يقال لهرجب ، ماؤه أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من العسل من صام يوماً من رجب شرب منه . و«شعبان» لتشعّب القبائل فيه .

وروى زياد بن ميمون أنّ النبيّ ﷺ قال : سمّي شعبان لأنّه يتشعّب فيه خير كثير . و«رمضان» لأنّه يرمض الذنوب أولشدّة الحرّ أو رمضان من أسماء الله ، و«شوّال» لأنّ القبائل تشول وتبرج عن أمكنتها ، أولشولان النوق أذنا بها فيه . و«ذو القعدة» لقعودهم عن القتال فيه . و «ذو الحجّة» لقضاء الحجّ فيه .

قوله : [ذلك الدين القيّم] أي ذلك الحساب المستقيم الصحيح والطريقة المشروعة لاما كانت العرب تفعله من النسيء ، وسمّي الحساب ديناً لوجوب الدوام عليه و لزومه كلزوم الدين والعبادة ، ومنه قوله : الكيّس من دان نفسه أي حاسبها . قال القاضي : حمل الدين على العبادة أولى من حمله على الحساب .

فإن قيل : أجزاء الزمان متشابهة فما السبب في التخصيص في هذه الأربعة ؟ فالجواب أنّ هذا المعنى غير مستبعد في الشرائع و أمثلته كثيرة كما ميّز البلد الحرام عن سائر البلاد ، والجمعة عن سائر الأيّام وليلة القدر عن سائر الليالي .

ثمّ قال : [فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم] واختلفوا في الضمير في قوله : «فيهنّ» قال ابن عبّاس : يرجع إلى «الاثنا عشر» يقول في الآية : المنع من الإقدام على الفساد مطلقاً في

جميع العمر. وقال أكثر المفسّرين : إنّ الضمير عائد إلى «الأربعة» و قد قرّرنا أنّ لبعض الأوقات أثراً خاصّاً في الثواب و العقاب و الطاعة و المعصية ، قال الفرّاء : العرب تقول فيما بين الثلاثة إلى العشرة «فيهنّ» فإذا جاوز العدد تقول «فيها» . وفي تفسير هذا الظلم أقوال قيل : المراد منه النسيء الّذي يعملونه فينقلون الحجّ من الشهر الّذي أمر الله بإقامته إلى الشهر الآخر ويغيّرون حكم الله . وقيل : إنّه تعالى نهى عن المقاتلة في هذه الأربعة وهم غيّروا الشهر .

قوله : [وقاتلوا المشركين كافّة] أي قاتلوهم جميعاً مؤتلفين غير مختلفين [كما يقاتلونكم كافّة] مجتمعين ولا تتمسّكوا منهم بعهد ولا ذمّة إلّا من كان من أهل الجزية و قيل : معناه قاتلوهم خلفاً بعد سلف كما أنّه يخلف بعضهم بعضاً في قتالكم [و اعلموا أنّ الله مع المتّقين] بالنصرة والولاية .

انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء اعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين (٣٧) .

قرىء «النسيّ» بالتشديد من غير همزة وقرىء «النسي» مخفّفاً في وزن الهدى و«النسيء» بالمدّ والهمزة . اللغة : نسأت الإبل في ضمئها يوماً أو يومين أخّرتها عنه ؛ فالمعنى أنّ الإنساء والتأخير في شهر يجب حرمته إلى شهر ليست له حرمة سبب ازدياد في الكفر ، والسبب فيه أنّ العرب كانت أصحاب غارات وحروب فشقّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها وقالوا : إن توالت ثلاثة أشهر حرم لا نصيب فيها شيئاً لنهلكنّ فلهذا كانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر فيحرّمون الصفر ويستحلّون المحرّم .

وهذا التأخير ما كان يختصّ بشهر واحد بل كان حاصلاً في كلّ الشهور قال الكلبيّ : أوّل من فعل ذلك نعيم بن ثعلبة بن كنانة وكان إذا همّ الناس بالصدور من الموسم يقوم خطيباً ويقول : لا مردّ لما قضيت وأنا الّذي لا أُعاب ولا أُجاب ؛ فيقول المشركون: لبّيك ثمّ يسألونه أن ينسئهم شهراً يغيرون فيه فيقول : إنّ صفر العام حرام فإذا قال ذلك حلّوا الأوتار

من القسيّ وننزعوا الأسنّة والأزجّة ، وإن قال : حلال عقدوا الأوتار وأغاروا .

وقيل : أوّل من وضع ذلك جنادة بن عوف الكنانيّ . وقيل: رجل من كنانة يقال له القلمسيّ .

وقال ابن عبّاس : أوّل من وضع وسنّ النسيء عمرو بن لحيّ بن قمعة بن خندف .

قوله : «يضلّ به الّذين كفروا » قرىء بفتح الياء وبضمّ الياء بناء على إسناد الإضلال إلى رؤسائهم الّذين اخترعوا هذا الأمر ، أوهم ضالّين بسبب النسيء ويضلّون لغيرهم .

قال مجاهد : كان يقول الرئيس : إنّي قد نسأت المحرّم العام وهما العام صفران فإذا كان العام القابل قضينا فجعلناهما محرّمين ، وكانوا يحجّون في كلّ شهر عامين فحجّوا في ذي الحجّة عامين ثمّ حجّوا في المحرّم عامين ثمّ حجّوا في صفر عامين و كذلك في الشهور حتّى وافقت الحجّة الّتي قبل حجّة الوداع في ذي القعدة ثمّ حجّ النبيّ ﷺ في العام القابل حجّة الوداع فوافقت في ذي الحجّة فذلك حين قال النبيّ ﷺ وذكر في خطبته: ألا وإنّ الزمان قد استدار كهيئة «يوم خلق الله السماوات والأرض » أراد ﷺ بذلك أنّ الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحجّ إلى ذي الحجّة وبطل النسيء .

قوله : [ليواطئوا عدّة ماحرّم الله] أي فعلوا هذا الأمر أحلّوا الحرام و حرّموا الحلال ليكون موافقاً لمقصودهم زيّن لهم هذا العمل السوء و زيّنت لهم أنفسهم سوء هذا العمل بميلهم وهواهم [والله لايهدي القوم الكافرين] ولا يرشد الكفور العنود .

قوله : يا ايها الذين آمنوا مالكم اذاقيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحيوة الدنيا من الاخرة فما متاع الحيوة الدنيا فى الاخرة الا قليل (٣٨) الاتنفروا يعذبكم عذاباً اليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله كل شيء قدير (٣٩) .

النزول : نزلت في غزوة تبوك ، و ذلك لأنّه ﷺ لمّا رجع من الطائف أقام بالمدينة وأُمر بجهاد الروم ، وكان ذلك الوقت زمان شدّة الحرّ وطابت ثمار المدينة وأينعت واستعظموا غزو الروم وهابوه فنزلت الآية وعاتب الله المؤمنين على التثاقل عن الجهاد ، فقال : [يا أيّها آمنوا مالكم إذا قيل لكم]وأمركم النبيّ بأن اخرجوا إلى الجهاد تباطئتم

وتثاقلتم . و«النفر» في اللغة الخروج إلى الشيء لأمر هيّج عليه [اثّاقلتم] وملتم إلى الإقامة في الأرض الّتي أنتم فيها .

قال الجبّائيّ : هذا التثاقل من بعض المؤمنين لا كلّهم [أرضيتم بالحياة الدنيا] وآثرتم الفانية على الباقيه ؟ فما فوائد الدنيا بالنسبة إلى فوائد الآخرة إلّا قليل . ثمّ بيّن سبحانه مفاسد التثاقل بأن قال : إن لا تخرجوا إلى الجهاد الّذي أمركم الرسول يعذّبكم الله عذاباً مولماً في الآخرة ، وقيل : في الدنيا . قال ابن عبّاس : لمّا تثاقلوا أمسك الله المطر عنهم .

[ويستبدل قوماً غيركم] واختلف المفسّرون أنّ المراد من الغير منهم ، قيل : هم أهل اليمن . وقال سعيد بن جبير : هم أبناء فارس . وقيل : هم الّذين أسلموا بعد .

الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذهما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه و ايده بجنود لم تروها و جعل كلمة الذين كفروا السفلى و كلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم (٤٠) .

لمّا هدّدهم في الآية السابقة بسبب التثاقل بيّن في هذه الآية إن تركتم النصرة للرسول لم يضرّه ذلك شيئاً كما لم يضرّه قلّة ناصريه حين كان بمكّة وهمّ به الكفّار فتولّى الله نصرته [إذ أخرجه الّذين كفروا] من مكّة فخرج منها يريد المدينة . «ثاني اثنين» نصب على الحال أي وهو أحد اثنين وصاحبه أيضاً أحد اثنين ، تعني به أبا بكر وليس معهما ثالث والعرب يقول : هذا ثاني اثنين وهذا ثالث ثلاثة ورابع أربعة وخامس خمسة ، يعني أحد اثنين وأحد ثلاثة وأحد أربعة وأحد خمسة ، كما تقول العرب أيضاً : هو ثالث اثنين و رابع ثلاثة وخامس أربعة . والمراد أنّه ﷺ كان وأبو بكر وليس معها ثالث والغار غار ثور و «ثور» اسم جبل بمكّة [إذهما في الغار] بدل من قوله «إذ أخرجه» جعل أحد الزمانين في موضع الآخر لتقاربها .

وحاصل معنى الآية ترغيب الناس بالجهاد بأنّ إن لم تنفروا باستنفاره فإنّ الله نصره حال مالم يكن معه إلّا رجل واحد فخرج ﷺ مضطراً أوّل الليل إلى الغار وبعث الله حمامتين فباضتا في أسفله ، والعنكبوت نسجت عليه فلمّا جاء سراقة بن مالك في طلبهما

إلى الغار فرأى بيض الحمام وبيت العنكبوت ، قال : لو دخله أحدلأ نكر البيض وتفسّخ بيت العنكبوت فانصرف وقال النبي ﷺ : اللّهم أعم أبصارهم وجعلوا يضربون يميناً و شمالاً حول الغار .

وروى عليّ بن إبراهيم بن هاشم قال : كان رجل من خزاعة فيهم يقال له أبو كرز فما زال يقفو أثر رسول الله حتّى وقف باب الحجر ، فقال : هذه قدم محمّد ﷺ هي والله وهذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه وماجاوزوا هذا المكان إن صعدوا إلى السماء أو دخلوا في الأرض . وجاء فارس من الملائكة في صورة الإنس فوقف على باب الغار وهو يقول : اطلبوا في هذا الشعاب . ونزل رجل من قريش فبال على باب الغار فقال أبو بكر : قد أبصرونا يارسول الله فقال ﷺ : لو أبصرونا مااستقبلونا بعوراتهم .

[فأنزل سكينته] أي ألقى على قلب محمّد ماسكن به ، وعلم أنّهم غير واصلين إليه و قوّاه بملائكة يمنعون أبصارهم عن أن يروه .

وقيل : المراد في تأييد الملائكة يوم بدر ، والمناسبة أنّ التأييد وقع في هذا المكان بصرف أعدائه عنه .

قوله : [و جعل كلمة] الكفّار السفلى نازلة دنيئة و كلمة الله هي المرتفعة المنصورة . و كلمتهم الشرك و كلمة الله هي كلمة التوحيد وهي لاإله إلّا الله . والله غالب على أمره و انتقامه من أهل الشرك [حكيم] في تدبيره .

قوله : انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون (٤١) لو كان عرضا قريباً وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون (٤٢) عفى الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣) .

لمّا توعّد في الآية السابقة من لاينفر أكّد في هذه الآية بهذا الأمر فقال : [انفروا خفافاً وثقالاً] وهذا الأمر يدخل فيه أمور ذكروها أي خفافاً في النفور وثقالاً يعني شبّاباً وشيوخاً نشّاطاً أو غير نشّاط مشاغيل أو غير مشاغيل أغنياء أو فقراء .

وقيل : الخفاف أهل العسرة وقلّة العيال وبالثقال أهل الميسرة والحاشية والعيال. وقيل: ركباناً ومشاةً. وقيل : ذاضيعة أوغيرذي ضيعة، عن ابن زيد. وقيل : عزّاباً أومتأهلين أو خفافاً من السلاح أو ثقالاً منه فعلى هذا ظاهر الأعمّ جميع الرجال. وعن ابن أُمّ مكتوم أنّه قال لرسول الله : أعليّ أن أنفر قال ﷺ : ماأنت إلّا خفيف أوثقيل. فرجع إلى أهله ولبس سلاحه ووقف بين يديه فنزل : «ليس على الأعمى حرج[1]».

و عن صفوان بن عمرو قال : كنت والياً على حمص فلقيت شيخاً قدسقط حاجباه على عينيه وهو على راحلته يريد الغزو فقلت : يا عمّ أنت معذور عندالله فرفع حاجبيه بيده عن عينه، وقال : استنفرناالله خفافاً وثقالاً ألا إنّ من أحبّه الله ابتلاه. وعن الزهريّ : خرج سعيدبن المسيّب إلى الغزوو قد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له : إنّك عليل صاحب ضرر فقال : استنفرالله الخفيف و الثقيل فإن عجزت عن الجهاد كثّرت السواد و حفظت المتاع.

وقيل : هذه الآية منسوخة بقوله : «ماكان المؤمنون لينفروا كافّة[2]» قال السدّيّ : لمّا نزلت : «انفروا خفافاً وثقالاً» اشتدّ شأنها على الناس فنسخها الله بقوله : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى» الآية[3].

قوله : [وجاهدوا بأموالكم و أنفسكم] لمرضاة الله و هذا يدلّ على أنّ الجهاد بالنفس والمال على من استطاع بهما، ومن لم يستطع على الوجهين فعليه بما استطاع [ذلكم خير لكم] من التثاقل إن كنتم عالمين بأنّه تعالى صادق في وعده وتعرفون الخير.

[لوكان عرضاً قريباً] أي لوكان مادعوتهم إليه غنيمة حاضرة [وسفراً] هيّناً سهلاً غير شاقّ [لاتّبعوك] طمعاً في المال والغنيمة [ولكن بعدت عليهم الشقّة] أي المسافة و«الشقّة» من الأرض الّتي يشقّ ركوبها على صاحبها لبعدها. والمراد غزوة تبوك أُمروا فيها بالخروج إلى الشام.

[وسيحلفون بالله لواستطعنا لخرجنا معكم] أي هؤلاء سيعتذرون إليك في قعودهم

---

(١) الفتح : ١٧ .
(٢) السورة : ١٢٣ .
(٣) السورة : ٩٢ .

عن الجهاد ، ويحلفون لوقدرنامن الخروج لخرجنا معكم ، ثمّ أخبرسبحانه أنّهم[يهلكون أنفسهم] بما أسرّوه من اليمين الكاذبة والعذر الباطلة .

[والله يعلم إنّهم لكاذبون * عفى الله عنك لم أذنت لهم حتّى يتبيّن لك الّذين صدقوا وتعلم الكاذبين] في هذا الاعتذار والحلف . ثمّ خاطب نبيّه بمافيه بعض العتاب في إذنه لمن استأذنه في التأخّر عن الخروج معه إلى تبوك ، و كان الّذين استأذنوه منافقين و منهم جندب بن قيس ومعتب بن قشير وهمامن الأنصار فقال في عتابه : لمَ أذنت لهم في التخلّف عنك ؟ وهذا من لطيف المعاتبة لأنّه تعالى بدأ بالعفو قبل العتاب .

وهل هذا الإذن كان قبيحاً أم لا ؟ قال الجبّائي : وقع صغيراً لأنّه لايقال في المباح : لم فعلته ؟ قال الطبرسي : وهذا التعليل غير صحيح لأنّه يجوز أن يقال فيما غيره أفضل منه : لمَ فعلته ؟ ومعناه أنّه لولم يأذنهم حتّى يتبيّن نفاقهم وتعرفهم كان أحسن و كيف يكون إذنه صلى الله عليه وآله قبيحاً وقد قال سبحانه في موضع آخر : «فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم»(١) .

وقيل : إنّه صلى الله عليه وآله خيّرهم بين الظعن والإقامة متوعّداً فاغتنم القوم ذلك ، ويجوز العتاب فيما غيره أولى منه لا سيّما للأنبياء وحاشا سيّد الأنبياء و خير بني آدم من أن ينسب إليه المعصية .

قوله : لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الاخر ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم و الله عليم بالمتقين (٤٤) انما يستاذنك الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الاخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون (٤٥) .

ثمّ بيّن حال المؤمنين بأنّهم لايستأذنوك في القعود عن الجهاد لأنّهم متى اُمروا بالخروج تبادروا ولم يتوقّفوا ، والمنافقون بالعكس وكان الأكابر من المهاجرين والانصار يقولون : لانستأذن النبيّ في الجهاد فإنّ ربنا ندبّنا إليه مرّة بعد اُخرى ، فأيّ فائدة في الاستيذان ؟ وكانوا بحيث لوأمرهم بالقعود لشقّ عليهم .

---

(١) النور : ٦٢ .

قال الفخر الرازيّ : إنّ عليّاً عليه السلام لمّا أمره النبيّ صلى الله عليه وآله بأن يبقى في المدينة شقّ ذلك عليه ولم يرض فقال له الرسول : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى . فصار تقدير الآية في أن لا يجاهدوا و حذف حرف النفي كقوله «يبيّن الله لكم أن تضلّوا (١)»

ثمّ قال : [إنّما يستأذنك الّذين لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر و ارتابت قلوبهم] أي إنّ هذا الاستيذان لا يصدر إلّا عند عدم الإيمان بالله والمعاد .

ثمّ بيّن أنّ عدم الإيمان منهم بسبب الشكّ والريب ، وهذا يدلّ على أنّ الشاكّ المرتاب غير مؤمن بالله والمراد بالتردّد القبول والعذر مثل المتحيّر ولو كانوا مؤمنين لوثقوا بثواب الله وبادروا في الجهاد .

قوله : ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين (٤٦) .

أي لو أرادوا الخروج لكانوا يعدّون اُهبتهم واستعدادهم للخروج من الكراع والسلاح ولكن كره الله خروجهم إلى الغزو لعلمه تعالى أنّهم لو خرجوا لكانوا يمشون بالفساد و النميمة للمسلمين ، وكانوا عيوناً للمشركين وكان الضرّ في خروجهم أكثر من النفع فوقهم الله عن الخروج الّذي عزموا عليه لا من الخروج الّذي أمرهم الله به لأنّ الأوّل كفرو الثاني إيمان وطاعة .

[وقيل]لهم : [اقعدوا مع القاعدين]أي الصبيان والنساء . يحتمل أن يكون القائلون لهم أصحابهم الّذين نهوهم عن الخروج مع النبيّ أو يكون القائل النبيّ صلى الله عليه وآله على وجه التهديد والتوبيخ .

قوله : لو خرجوا فيكم مازادوكم الاخبالا ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين (٤٧) .

ثمّ بيّن على وجه الحكمة في كراهية انبعاثهم فقال : لو خرجوا هولاء المنافقون معكم إلى الجهاد مازادوا بخروجهم إلّا الفساد والشرّ و«الخبل» فساد الإعطاء والجنون .

وقيل : مكراً وغدراً أو عجزاً وجبناً وسعوا بالتفريق بين المسلمين و أوضعوا إبلهم خلالكم [يبغونكم الفتنة] بعد و الإبل وسطكم [سمّاعون لهم] أي يكونوا فيكم عيوناً

(١) النساء : ١٧٦ .

للمشركين أو المعنى أنّ فيكم ضعفة المسلمين يقبلون قولهم .

[والله عليم] بهؤلاء المنافقين الّذين ظلموا أنفسهم وهم جماعة منهم عبد الله بن اُبيّ و جندب بن قيس وأوس بن قبطيّ . ثمّ . أقسم الله فقال :

لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الامور حتى جاء الحق و ظهر أمر الله وهم كارهون (٤٨) ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى الافى الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين (٤٩) .

بيّن حالهم بأنّهم طلبوا الفتنة واختلاف الكلمة لكم من قبل غزوة تبوك أي يوم اُحد حين انصرف عبدالله بن اُبيّ بأصحابه و خذل النبيّ صلى الله عليه وآله .

وقيل : المراد بالفتنة الفتك بالنبيّ في ليلة العقبة وكانوا اثني عشر رجلاً وقفوا على الثنيّة ليفتكوا بالنبيّ [وقلّبوا لك الاُمور] واحتالوا في توهين أمرك ولم يقدروا و كانوا يدبّرون في كيدهم وجوهاً فإذا لم يتمّ ذلك قلّبوا كيدهم بوجه آخر . و هذا معنى التقليب وكانوا يعملون هذه الأعمال [حتّى جاء الحقّ] أي النصر والظفر وظهر دين الله على الكفّار على رغمهم [وهم كارهون] ومرغومون .

قوله : [ومنهم من يقول] النزول : قيل : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا استنفر الناس إلى تبوك قال : انفروا لعلّكم تغتنمون بنات الأصفر فقام جندب بن قيس أخو بني سلمة فقال: يارسول الله ائذن لي ولا تفتنّي ببنات الأصفر أي ائذن لي في القعود ولا تفتنّي بنساء الروم ولقد علمت الأنصار أنّي مغرم بالنساء ، وأنا اُعينك بالمال فاتركني .

وقيل في معنى « ولا تفتنّي » : أي لا توقعني في الإثم لمخالفة أمرك بالخروج إلى الجهاد ولا تكلّفني بالخروج في شدّة الحرّ ؛ فأخبر الله أنّهم وقعوا في الفتنة وأنّ نار جهنّم لمحيطة بهم يوم القيامة .

قوله : ان تصبك حسنة تسؤهم و ان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون (٥٠) قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون (٥١) .

بيّن في هذه الآية خبث بواطن المنافقين بأنّه إن تصبك في بعض الغزوات ظفر و

غنيمة أو انقياد من بعض الرؤساء والملوك يسؤهم ذلك و إن تصبك شدّة و مكروه يفرحوا بها [قد أخذنا أمرنا] وهو التيقّظ والحزم ، واحترزنا بالقعود عن الجهاد [من قبل] هذه المصيبة [ويتولّوا] راجعين إلى بيوتهم فرحين بما أصاب المسلمين [قل] لهم يا محمّد : [لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا] في اللوح أوفي القرآن [وعلى الله فليتوكّل] من هو مؤمن به .

قوله : هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بايدينا فتربصوا انا معكم متربصون (٥٢) .

[هل تربّصون] وتنتظرون لنا إلّا إحدى النعمتين إمّا الغلبة والغنيمة في العاجل و إمّا الشهادة والثواب الدائم في الآجل [ونحن نتربّص] ونتوقّع [بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا] بأن ينصرنا عليكم [فتربّصوا] صورة الآية أمر والمراد التهديد [إنّا معكم] كلانا منتظرون أمّا نحن منتظرون بالشهادة والجنّة وإمّا الغنيمة والفوز ، وأمّا أنتم إمّا البقاء في الخزي وإمّا القتل و المصير إلى النار .

قوله : قل انفقوا طوعاً او كرهاً لن يتقبل منكم انكم كنتم قوماً فاسقين (٥٣) وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله ولا ياتون الصلاة الاوهم كسالى ولاينفقون الاوهم كارهون (٥٤) فلاتعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بهافي الحيوة الدنيا و تزهق انفسهم وهم كافرون (٥٥) .

[أنفقوا] لفظه أمر ومعناه معنى الشرط والجزاء أي إن أنفقتم طائعين أو مكروهين لا تنتفعون بإنفاقكم مع إقامتكم على الكفر قل لهم يا محمّد : إنّ هذا الأمر لن يتقبّل منكم لأنّ الله يتقبّل من المتّقين المخلصين وأنتم فاسقون ومتمرّدون عن طاعة الله .

فإن قيل : كيف يكون الأمر في معنى الخبر ؟

قيل : إذا كان في الكلام دليل عليه جاز كما تكون لفظ الخبر في معنى الأمر و الدعاء كقولك : غفر الله لزيد أي اللّهم اغفره .

قوله : [وما منعهم أن تقبل] أي وما يمنع هؤلاء المنافقين أن يثابوا على نفقاتهم إلّا كفرهم بالله وبرسوله فذلك ممّا يحبط الأعمال و كذلك لايأتون الصلاة إلّا وهم متثاقلين

ولا يؤدّوها على الوجه الّذي اُمروا بها [ولا ينفقون إلّا وهم كارهون] يصلّون وينفقون للتستّر بالإسلام وللرياء .

وفي الآية دلالة على أنّ الكفّار محكومون بالشرائع لأنّه سبحانه ذمّهم على ترك الصلاة والزكاة ، ولولا وجوبهما عليهم لما ذمّوا بتركهما .

[فلا تعجبك أموالهم] الخطاب للنبيّ و المراد الاُمّة أي لا يأخذ بقلبك ماتراه من كثرة أموال هؤلاء المنافقين و كذلك كثرة [أولادهم إنّما يريد الله ليعذّبهم بها في الحياة الدنيا] قد ذكر في معناه وجوهاً :

أحدها : أنّ فيه تقديماً وتأخيراً أي لا يسرّك أموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا إنّما يريد الله ليعذّبهم في الآخرة ، عن ابن عبّاس وقتادة ، فيكون على هذا الظرف متعلّقاً بأموالهم وأولادهم ومثله قوله تعالى « فألقه إليهم ثمّ تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون[1]» والتقدير : فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثمّ تولّ عنهم .

و ثانيها : أنّ معناه إنّما يريد الله ليعذّبهم في الدّنيا بحفظها وجمعها و يكائدون لتحصيلها وجمعها مع حرمان المنفعة بها .

و ثالثها : أنّ معناه إنّما يريد الله ليعذّبهم في الدنيا بسبي الأولاد وغنيمة الأموال عند تمكّن المسلمين من أخذها فيتحسّرون عليها جزاء على كفرهم .

و رابعها: يعذّبهم بجمعها والحزن عليها وخروجهم عنها بالموت و كلّ هذا عذاب .

و اللام في قوله « ليعذّبهم » بمعنى أن أولام العاقبة والتقدير إنّما يريد الله أن يملي بهم ليعذّبهم وتزهق ويهلك أنفسهم بالموت وهم كافرون . والإرادة تعلّقت بالزهوق لا بالكفر و هذا كما تقول : اُريد أن أضربه وهو عاص ، فالإرادة تعلّقت بالضرب لا بالعصيان .

قالت الأشاعرة : إنّ الله أراد إزهاق أنفسهم مع الكفر و من أراد ذلك فقد أراد الكفر. وأجاب الجبّائي أنّ معنى الآية أنّه تعالى أراد إزهاق أنفسهم حال ماكانوا كافرين وهذا لايقتضي كونه تعالى مريداً للكفر ، ألاترى أنّ المريض قد يقول للطبيب : اُريد أن تدخل عليّ وقت مرضي ؛ فهذه الإرادة لاتوجب كونه مريداً للمرض . وقد يقول: السلطان

---

(١) النمل : ٢٨ .

لعسكره:اقتلوا البغاة حال إقدامهم على الحرب . وهذا لايدلّ على كون السلطان مريداً لذلك الحرب فكذا ههنا .

وبالجملة منع الله المؤمنين الإعجاب بكثرة الأموال والأولاد من المنافقين والمقصود الزجرعن الارتكان إلى الدنيا والتهالك في حبّها .

قال ﷺ : من كثرماله اشتدّ حسابه،ومن ازداد من السلطان قرباً ازدادمن الله بعداً.

وقال ﷺ : مالك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت .

والموجودات بحسب القسمة العقليّة على أربعة أقسام :

الاول : أن يكون أزليّاً أبديّاً وهو الله جلّ جلاله .

والثاني : الّذي لايكون أزليّاً ولا أبديّاً وهوالدنيا .

والثالث : الّذي يكون أزليّاًولايكون أبديّاً وهذا محال الوجود؛لأنّه ثبت بالدليل أنّ ماثبت قدمه امتنع عدمه .

والرابع : الّذي يكون أبديّاً ولا يكون أزليّاً وهوجميع المكلّفين والآخرة؛لأنّ الآخرة لها أوّل و ليس لها آخر و كذلك المكلّف سواء كان مطيعاً أو عاصياً فلحياته أوّل و لاآخر له .

و إذا ثبت هذا ثبت أنّ المناسبة بين الإنسان المكلّف وبين الآخرة أشدّ من المناسبة بينه و بين الدنيا؛ويظهر من هذا أنّه خلق للآخرة لا للدنيا فينبغي أن لايشتدّ إعجابه و سروره بالدنيا و أن لايميل قلبه إليها؛فإنّ المسكن الدائميّ الأصليّ له الآخرة .

ثمّ إنّ الإنسان إذاعظم حبّه بالأموال والأولاد فإمّا أن تبقى له هذه إلى آخر عمره أو لاتبقى و تهلك ؛ فإن كان الأوّل فعند الموت يعظم حسرته لأنّ مفارقة المحبوب شديدة و إن كان الثاني و هو أن تهلك و تبطل حال الحياة عظم أسفه عليها و اشتدّ ألم قلبه؛فثبت أنّ الإنسان إذا عظم حبّه بالأموال حصل له العذاب في الدنيا أيضاً . على أنّ الدنيا حلوة خضرة و النفس مائلة إليها يستلذّ منها فكلّما كثرت استغرقت النفس فيها و اشتغلت بها ؛ فهذا الاشتغال سبب لحرمانه عن ذكر الله وطاعته ، و يحصل في قلبه قسوة و

غفلة فصار ذلك سبباً قوياً في زوال حبّ الله و الميل إلى الآخرة عن القلب فهذا الإنسان المستغرق عند الموت ينتقل من البستان إلى السجن فيقوى حسرته ثمّ عندالحشر حلالها حساب و حرامها عقاب .

قوله تعالى : و يحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم و لكنهم قوم يفرقون (٥٦) لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه و هم يجمحون (٥٧) .

أي يقسم هؤلاء المنافقون أنهم لمن جملتكم [و ما هم منكم ولكنّهم قوم] يخافون القتل و الأسر إن لم يظهروا الإسلام [لويجدون] حرزاً أو حصناً أو غيراناً في الجبال .

و قيل : سراديب أو موضعاً يأوون إليه أونفقاً يدخلونها على خلاف رسول الله [لولّوا] و عدلوا [إليه] وأعرضوا عنكم [و هم يجمحون] و يسرعون في الذهاب إليه فلا تظنّوا موافقتهم إيّاكم عن الحقيقة بل عن الاضطرار .

قوله : ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون (٥٨) ولو انهم رضوا ما اتهم الله ورسوله و قالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون(٥٩) .

بيان نوع آخر من قبائحهم وهو أنّه كانوا يقولون : يأخذ الرسول ﷺ الصدقات من الأغنياء و يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودّته ولايراعي العدل .

النزول : قال أبو سعيد الخدريّ : بينا يقسّم رسول الله مالاً من هوازن إذ جاءه المقداد بن ذي الخويصرة التميميّ ، و حرقوص بن زهير أصل الخوارج ، فقالا : اعدل يا رسول الله . فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؛ فنزلت الآية .

قال الكلبيّ : كان رجل من المنافقين يقال له أبو الجواش قال لرسول الله ﷺ : تزعم أنّ الله أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء و المساكين ولم تضعها في رعاة الشاء ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا أبالك ! أما كان موسى راعياً أما كان داودراعياً ؟ فلمّا ذهب قال ﷺ : احذروا هذا و أصحابه فإنّهم منافقون و صار حرقوص رئيس الخوارج . و لمّا قال لرسول الله : اعدل يارسول الله فقال بعض الصحابة للنبيّ ﷺ : ائذن لي أن أضرب عنقه . فقال له النبيّ ﷺ : دعه فإنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم و صومه مع

صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية آيتهم رجل أسود في إحدى ثدييه مثل ثدي المرأة و يخرجون على فترة من الناس .

و بالجملة [و منهم] من هؤلاء المنافقين من يعيبك يا محمّد و يطعن عليك في قسمة الصدقات [فإن اُعطوا] من تلك الصدقات أقرّوا بالعدل و[رضوا وإن لم يعطوا منها] يغضبون .

قال أبوعبدالله عليه السلام : أهل هذه الآية ثلثا الناس .

[ولو أنّهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله] لكان خيراً لهم . وجواب «لو» محذوف ، وحذف الجواب في مثل هذه المواضع أبلغ . والهمّاز واللمّاز أوعده الله الويل .

فتأمّل في حسن ترتيب الآية من بيان مراتب العبوديّة و درجاتها : أوّلها الرضا بما قسم لهم لأنّه حكيم في مصالحه . و ثانيها إظهار باللسان بقولهم حسبنا الله . و ثالثها الاعتماد والوثوق واليقين بمواعيدالله في الآخرة وهي أولى و أفضل . و رابعها أن يقول : « إنّا إلى الله راغبون » أي نحن لانطلب من الإيمان و الطاعة أخذ الأموال و إنّما نطلب الاستغراق في العبوديّة لأنّه قال : « إنّا إلى الله راغبون » ولم يقل : إنّا إلى ثواب الله راغبون .

روي أنّ عيسى عليه السلام مرّ بقوم يذكرون الله فقال عيسى عليه السلام ما الّذي يحملكم على الذكر ؟ قالوا : الخوف من عقاب الله ، فقال : أصبتم . ثمّ مرّ على قوم آخرين يذكرون الله فقال : ما الّذي حملكم عليه ؟ فقالوا : الرغبة في ثواب الله فقال : أصبتم . ثمّ مرّ على قوم آخرين فسألهم فقالوا : لانذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة في الثواب بل لإظهار ذلّة العبوديّة و عزّة الربوبيّة و تشريف القلب بمعرفته ، فقال : عيسى عليه السلام أنتم المحقّون المحقّقون .

قوله تعالى : انما الصدقات للفقراء و المساكين والعاملين عليها و المؤلفة قلوبهم و فى الرقاب والغارمين و فى سبيل الله و ابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم (٦٠) .

لمّا لمزوا رسول الله صلّى الله عليه وآله في الصدقات شرح الله لهم مصارف الصدقات و المراد من الصدقات في الآية الزكاة المفروضة أي ليست إلّا لهؤلاء القوم .

قيل : الفرق بين « الفقير » و « المسكين » أنّ الفقير هو المتعفّف الّذي لا يسأل، والمسكين الّذي يسأل .

وقيل : بالعكس . و جاء في الحديث ما يدل على القول الثاني ؛ فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : ليس المسكين الذي يرده الأكلة والأكلتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنياً فيغنيه ولا يسأل الناس شيئاً ولا يفطن منه فيتصدق عليه .

وقيل : الفقير هو الزمن المحتاج والمسكين هو الصحيح المحتاج .

وقيل : إن الفقير هو الذي أسوأ حالاً من المسكين ؛ فإن الفقير هو الذي لا شيء له والمسكين الذي له بلغة من العيش لا يكفيه ؛ محتجين بهذه الآية وهي «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر[1]» وبأن الفقر مشتق من فقار الظهر فكأن الحاجة والاضطرار قد كسرت فقار ظهره .

ويمكن أنهما صنف واحد و إنما ذكر الصنفين تأكيداً للأمر .

[والعاملين عليها] والمراد سعاة الزكاة و جباتها [والمؤلفة قلوبهم] وكان هؤلاء قوماً من الأشراف في زمن النبي صلى الله عليه وآله وكان يعطيهم سهماً من الزكاة ليألفهم على الإسلام ويستعين بهم على قتال العدو .

ثم اختلف في هذا السهم هل هو ثابت أم لا ؟ فقيل : هو ثابت في كل زمان واختاره الجبائي وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام إلا أنه قال : من شرطه أن يكون إمام عادل يتألفهم على ذلك . وقيل : إن ذلك كان خاصاً بزمن النبي صلى الله عليه وآله ، ثم سقط بعده لأن الله أعز الإسلام .

[و في الرقاب] أي و في فك الرقاب بالعتق و أراد به المكاتبين ، و يشمل قوماً قد لزمهم كفارات في قتل الخطاء و في الظهار و قتل الصيد في الحرم و في الأيمان وليس لهم ما يكفرون وهم مؤمنون فجعل الله لهم سهماً في الصدقات ليكفر عنهم و يفكون رقابهم من الرقية ومن الكفارات .

[والغارمين] وهم قوم ركبهم الدين و أنفقوها في طاعة الله من غير إسراف و معصية فيجب على الإمام أن يقضي ذلك من الصدقات .

[و في سبيل الله] و هو الجهاد و يدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين

(١) الكهف : ٧٨ .

كالمساجد و أمثالها أوقوم من المسلمين ليس عندهم ما يحجّون به أو في جميع سبل الخير ، فعلى الإمام أن يعطيهم من مال الصدقات حتّى يتقوّون به .

[و ابن السبيل] أبناء الطريق الّذين يكونون في الأسفار في طاعة الله فيذهب مالهم و يقطع عليهم ، فعلى الإمام أن يعطيهم و يردّهم إلى أوطانهم من مال الصدقات . والصدقات تنقسم ثمانية أجزاء فيعطى كلّ إنسان من هذه الثمانية على قدر مايحتاجون إليه بلاسرف ولا تقتير .

و الحكمة في إيجاب الزكاة اُمور بعضها مصالح عائدة إلى معطي الزكاة و بعضها عائدة إلى آخذها .

أمّا الراجعة إلى المعطي أنّ المال محبوب بالطبع و أنّ القدرة صفة محبوبة لذاتها لأنّه لايمكن أن يقال : إنّ كلّ شيء فهو محبوب لمعنى آخر و إلّا لزم إمّا الدور أوالتسلسل وهما محالان فوجب في الأشياء المحبوبة الانتهاء إلى مايكون محبوباً لذاته ، و أنّ القدرة و الكمال صفة محبوبة لذاتها كما أنّ النقصان مكروه لذاته فهذه المحبوبيّة يوجب الاستغراق في الدنيا و يذهل النفس عن التأهّب للآخرة وعن حبّ الله .

ثمّ إنّ النفس الناطقة لها قوّتان نظريّة و عمليّة فالنظريّة كمالها في التعظيم لأمر الله والعمليّة كمالها الشفقة على خلق الله فبالزكاة يحصل لجوهر الروح هذا الكمال وهو اتّصافه بكونه محسناً إلى الخلق فيتخلّق بأخلاق الله .

ثمّ إنّ الناس إذا علموا أنّه ساع في إيصال الخير إليهم أحبّوه طبعاً ؛ قال صلى الله عليه وآله : جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها و بغض من أساء إليها . خصوصاً إذا كانوا فقراء أمدّوهم بالدعاء و للقلوب آثار وللأرواح . وقد يكون تصير تلك الدعوات سبباً لبقاء ذلك الإنسان في الخير والنعمة وإليه الإشارة بقوله « وأمّا ماينفع الناس فيمكث في الأرض[1]» و بقوله عليه السلام : حصّنوا أموالكم بالزكاة . ولا تغفل عن دعاء الخير ؛ فقد قيل :

سهام أيدي القانتين في السحر ❊ أنفذ في الأحشاء من وخز الإبر

ثمّ أمر الله بالزكاة مقصوده أنّه يحصل للمزكّي حالة اُخرى و هي أنّه كان له الاستغناء بالشيء فبعد الأداء صار له حالة الاستغناء عن الشيء ، وهذا المقام أعلى وأشرف .

(١) الرعد : ١٨ .

والمال إذا أنفقه الإنسان في وجوه الصلاح و البرّ بقي بقاءً لايمكن زواله ، بخلاف ما إذا بقي في يده كالمشرف على الهلاك و التلف لأنّه على كلّ حال لايحمل معه إلى قبره و إذا أنفقه في طلب الرضوان فقد ذهب به إلى يوم القيامة و نفع المال يكون لذلك اليوم .

ثمّ إنّ شكر النعمة عبارة عن صرف النعمة إلى رضاء المنعم و مرضاته على أنّه إذا فضل المال عن قدر الحاجة و حضور إنسان آخر محتاج فحينئذ للمالك سلطة و له حقّ لأنّه سعى في تحصيله و اكتسابه و للفقير حقّ لاحتياجه فاقتضت الحكمة الإلهيّة إبقاء الأكثر للمالك و المكتسب و اليسير منه للفقير و هو الزكاة ، ومعلوم أنّ المال الفاضل عن الحاجات الأصليّة إذا أمسكه الإنسان وحبسه في بيته بقي المال معطّلاً عن المقصود الّذي لأجله خلق ، وذلك منع عن ظهور حكمة الله وهو غير جائز .

ثمّ إنّ الفقراء عيال الله لقوله : « ومامن دابّة إلّا على رزقها [(١)] » والأغنياء خزّان الله لأنّ الأموال الّتي في أيديهم أموال الله و لولا أنّ الله ألقاها في أيديهم ماملكوا حبّة فكم عاقل يسعى ولايملىء بطنه طعاماً و كم أبله جلف تأتيه الدنيا صفواً و صحيح أنّ الملك أن يقول لخازنه اصرف شيئاً من الخزانة إلى المحتاجين من عبيدي . والمال إذا كان بالكلّيّة في يد الغنيّ مع أنّه غير محتاج إليه ، و إهمال جانب الفقير العاجز عن الكسب لايليق بحكمة الحكيم الرحيم فوجب على الغنيّ صرف طائفة من ذلك المال إلى الفقير .

ثمّ إنّ الأغنياء لولم يقوموا بإصلاح الفقراء ربّما حملهم شدّة الحاجة على الالتحاق بأعداء المسلمين أو الإقدام على الأفعال القبيحة كالسرقة وغيرها فكان إيجاب الزكاة يفيد هذه الفوائد .

قال ﷺ : الإيمان نصفان صبر و شكر ، فالمال محبوب بالطبع فوجدانه يوجب الشكر وفقدانه يوجب الصبر فأعطيتك أيّها الغنيّ المال والنعمة فإن شكرت وصرفت النعمة في رضاي فصرت من الشاكرين ، وبسبب فقدان بعض مالك في أداء الزكاة فصبرت على فقده فصرت من الصابرين ، وأما أنت أيّها الفقير ما أعطيتك المال فصبرت فصرت من الصابرين وحكمت على الغنيّ أن يصرف إليك طائفة من ذلك وأدخلته في ملكك وارتفعت حاجتك

---

(١) هود : ٧ .

وفاقتك فشكرتني فصرت من الشاكرين . فكان إيجاب الزكاة موجباً لصلاح المكلّفين من الطائفتين لتتّصفوا بصفة الصبر و الشكر وإن كان الغنيّ قد أنعم على الفقير بهذا الدينار فقد أنعم الفقير على الغنيّ بأن خلّصه بهذا الدينار عن عذاب النار ، فهذه وجوه في بيان حكمة الزكاة بعضها يقينيّة وبعضها إقناعيّة .

قوله تعالى : ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم (٦١) .

النزول : بيان نوع آخر من جهالات المنافقين كانوا يطعنون النبيّ ﷺ أنّه اُذن أي يقبل كلّما يقال له و يصدّق و « اُذن خير » مرفوعين قرىء ، و قرىء بالإضافة إلى «خير» أي هو اُذن خير لا اُذن شرّ . قال ابن عبّاس : إنّ جماعة من المنافقين ذكروا النبيّ ﷺ بما لا ينبغي من القول فقال بعضهم : لاتقولوا فإنّا نخاف أن يبلغه مانقول . فقال الجلاس بن سويد : بل نقول مانشاء ، ثمّ نذهب إليه ونحلف أنّا ماقلنا فيقبل قولنا وإنّما محمّد اُذن سامعة . فنزلت الآية وقيل : إنّ المنافقين كانوا يقولون: ماهذا الرجل إلّا اُذن من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له .

قوله : [ورحمة] فمن رفع «رحمة» كان المعنى : هو اُذن خير ورحمة وأمّا الجرّ في «رحمة» فعلى العطف على «خير» فإن قيل : هلّا استغني بشمول الخير الرحمة ؛ فالقول منه تخصيص الرحمة بالذكر كقوله تعالى «اقرء باسم ربّك الّذي خلق [(١)]» ثمّ خصّ خلق الإنسان وإن كان قوله : «خلق» يعمّ الإنسان و غيره فكذلك الرحمة .

و بالجملة المعنى أنّ بعض المنافقين يؤذون النبيّ والاُذن ههنا بالقول ، يقولون : هو يستمع إلى مايقولون له ويصغي إليه ويقبله .

[قل] يا محمّد : هو [اُذن خير] أي يستمع إلى ماهو [خير لكم] وهو الوحي وقيل : المراد هو يسمع الخير ويعمل به ، ومن قرأ بعدم الإضافة فمعناه قل : كونه اُذناً أصلح لكم لأنّه يقبل

---

(١) العلق : ١ .

عذركم و يستمع إليكم ولو لم يقبل عذركم لكان شراً لكم فكيف تعيبونه بما هو خير لكم ؟

[يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين] و عدّي الإيمان إلى الله بالباء و إلى المؤمنين باللام لأنّ المراد بإيمان الله التصديق الّذي هو نقيض الكفر ، و الإيمان المعدّى باللام معناه التسليم والتصديق كقوله : «فما آمن لموسى إلّا ذرّيّة من قومه (١)» و قوله تعالى : «وما أنت بمؤمن لنا (٢)»وقوله : «أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون(٣)» .

[ورحمة للّذين آمنوا منكم] معناه أنّ هذا النبيّ الّذي تعيبون عليه بأنّه اُذن ، هذه الصفة صفة مدح لوجوه :

الاول هو اُذن الخير ، وبيّن الخيريّة أنّه يؤمن بالله و كلّ من آمن باللههوخائف من الله ولا يقدم على الإيذاء بالباطل و يتسلّم للمؤمنين قولهم إذا توافقوا على الصلاح ، فيقبل قولهم .

والثاني أنّه رحمة للّذين آمنوا وهذا أيضاً يوجب الخيريّة لأنّه يجري أمركم على الظاهر ولا يبالغ فيالتفتيش عن بواطنكم ولا يسعى في هتك أستاركم . و أمّا على قراءة التنوين أي اُذن سامعة واعية خير لكم من أن لايكون كذلك ورحمة لكم لأنّ من آمن بالله بسبب هدايته إيّاكم خير لكم . والّذين يؤذونه صلى الله عليه وآله [لهم عذاب أليم] فيالآخرة .

قوله تعالى : يحلفون بالله لكمليرضوكموالله ورسوله احق انيرضوه ان كانوا مؤمنين (٦٢) .

بيّن قباحة أفعال المنافقين بأنّهم يقدمون على الأيمانالكاذبة . نزلت في رهط من المنافقين تخلّفوا عن غزوة تبوك فلمّا رجع النبيّ صلى الله عليه وآله أتوه و اعتذروا وحلفوا ليرضوا المؤمنين بيمينهم الكاذبة بأنّ الّذي بلغكم عنّا باطل ، فالله يخبر بأنّ هذه الاعتذار منهم لطلب رضىالناس والله أحقّ أن يرضوه ورسوله أحقّ أن يرضوه و حذف لدلالة الكلام

---

(١) يونس : ٨٣ .
(٢) يوسف : ١٧ .
(٣) الشعراء : ١١١ .

عليه كقول الشاعر :

نحن بما عندنا و أنت بما ✻ عندك راض والرأي مختلف

والمعنى نحن بما عندنا راضون .

ثمّ قال سبحانه : على وجه التقريع لهم قوله سبحانه تعالى :

ألم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ذلك الخزى العظيم (٦٣) .

أي وما علموا أنّ من يجاوز حدود الله الّتي أمر الله المكلّفين أن لا يتجاوزوها فإنّ للمتجاوز خلود النار وذلك الخلود هو الخزي العظيم والهوان والذلّ الشديد .

قوله : يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا ان الله مخرج ما تحذرون (٦٤) .

النزول : قال الحسن: اجتمع اثنا عشر رجلاً من المنافقين على أمر من النفاق فأخبر جبرئيل بأسمائهم فقال صلى الله عليه وآله : إنّ أُناساً اجتمعوا على كيت و كيت فيقوموا وليستغفروا حتّى أشفع لهم فلم يقوموا فقال صلى الله عليه وآله : بعد ذلك : قم يا فلان ويا فلان حتّى أتى على آخرهم فقالوا : نعترف ونستغفر فقال صلى الله عليه وآله : أنا كنت أوّل الأمر أطيب نفساً بالشفاعة والله كان أسرع في الإجابة وأمّا الآن فلا، اخرجوا عنّي اخرجوا عنّي فلم يزل يقول حتّى خرجوا بالكلّيّة .

وقيل : إنّ سبب النزول أنّ عند رجوع النبيّ صلى الله عليه وآله من تبوك وقف على العقبة اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به فأخبره جبرئيل وكانوا متلثّمين في ليلة مظلمة وأمره أن يرسل صلى الله عليه وآله إليهم من يضرب وجوه رواحلهم ؛ فأمر صلى الله عليه وآله حذيفة بذلك فضربها حتّى نحّاهم ، ثمّ قال النبيّ صلى الله عليه وآله لحذيفة : من عرفت من القوم ؟ فقال : لم أعرف منهم أحداً فذكر صلى الله عليه وآله أسماءهم وعددهم له ، وقال : إنّ جبرئيل أخبرني بذلك فقال حذيفة : ألا تبعث إليهم ليقتلوا فقال : أكره أن تقول العرب : قاتل محمّد بأصحابه حتّى إذا ظفر صار يقتلهم بل يكفينا الله ذلك .

فإن قيل : المنافق كافر والكافر كيف يحذر نزول الوحي على الرسول ؟

فالجواب أنّ القوم وإن كانوا كافرين بدين الرسول إلّا أنّهم لمّا شاهدوا مراراً أنّ

الرسول يخبرهم بما يضمرونه فلهذه التجربة كانوا يخافون ويحذرون وبعضهم كانوا شاكّين في صحّة نبوّته صلّى الله عليه وآله وما كانوا قاطعين بفسادها ، والشاكّ خائف لا محالة .

روي عن أبي عبدالله الصادق صلوات الله عليه وعلى آبائه أنّهم ائتمروا بينهم ليقتلوه ، وقال بعضهم لبعض : إن فطن نقول : إنّما كنّا نخوض ونلعب وإن لم يفطن نقتله .

ولئن سألتهم ليقولنّ إنّما كنّا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون (٦٥) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة بأنّهم كانوا مجرمين (٦٦) .

النزول: قيل : إنّ جماعة من المنافقين قالوا في غزوة تبوك : يظنّ هذا الرجل أن يفتح قصور الشام هيهات هيهات فأطلع الله نبيّه على ذلك ، فقال صلّى الله عليه وآله : احبسوا عليّ الركب فدعاهم فقال لهم قلتم كذا وكذا ؟ فقالوا : كنّا نخوض ونلعب وحلفوا على ذلك فنزلت الآية .

وقيل : كان عند منصرفه عن غزوة تبوك إلى المدينة بين يديه أربعة نفر ثلاثة يستهزؤن ويتحدّثون ويضحكون ، وواحدهم يضحك ولا يتكلّم فنزل جبرئيل وأخبر رسول الله فدعا عمّار وقال : إنّ هؤلاء يستهزؤن بي وبالقرآن أخبرني جبرئيل ولئن سألتهم ليقولنّ كنّا نتحدّث بحديث الركب فأتبعهم عمّار وقال لهم : لم تضحكون ؟ قالوا : نتحدّث بحديث الركب فقال عمّار : صدق الله ورسوله .

أي إذا سألتهم عن طعنهم في الدين واستهزائهم بالنبيّ وبالمسلمين يقسمون ويحلفون إنّا كنّا نخوض خوض الركب في الطريق لا على طريق الجدّ ولكن على طريق اللعب واللهو ، قل يا محمّد : أبآياته وحججه وكتابه [كنتم تستهزؤن لا تعتذروا] بالمعاذير الكاذبة فإنّكم بما فعلتموه [قد كفرتم] بعد أن كنتم مظهرين للإيمان .

[إن نعف عن طائفة] عن قوم منهم إذا تابوا [نعذّب طائفة] أُخرى لم يتوبوا وأقاموا على النفاق و « الطائفة » اسم للجماعة لأنّه اسم لما تطيف وتحيط بغيره ، وروي أنّ هاتين الطائفتين كانوا ثلاثة فهزأ اثنان وضحك واحد وهو الّذي تاب من نفاقه ، واسمه مخشيّ بن حمير فعفي الله عنه . وقد يسمّى الواحد طائفة على معنى أنّها نفس طائفة .

قوله : [يستهزئون] المراد الاستهزاء بتكاليف الله أو بذكر الله أو بقدرة الله كما هو عادة بعض الجهلة والملاحدة .

والمراد من الاعتذار محو الذنوب من قولهم : اعتذرت المنازل إذا درست ، يقال : مررت بمنزل معتذر أي مندرس . أخذ هذا المعنى بهذه المناسبة لأنّ المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه .

وقيل : الاعتذار القطع ومنه يقال للقلفة عذرة لأنّها تقطع . وعذرة الجارية من هذا المعنى لأنّها تقطع ، فالعذر لمّا صار سبباً لقطع اللوم سمّي عذراً .

قوله :المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون (٦٧) وعدالله المنافقين والمنافقات والكفار نارجهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم (٦٨) .

المعنى: المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض جملة بعضهم ، وبعضهم مربوط ببعضهم في الاجتماع على النفاق والشرك كقولك : أنا من فلان وفلان منّي أي أمرنا واحد وكلمتنا واحدة . أو بعضهم على دين بعض ذكورهم كإناثهم في العقيدة الخبيثة .

[يأمرون بالمنكر] و لفظ المنكر يدخل فيه كلّ قبيح إلّا أنّ ههنا المراد تكذيب الرسول [وينهون عن المعروف] و يدخل فيه كلّ حسن إلّا أنّ المراد ههنا الإيمان بالرسول [ويقبضون أيديهم] من كلّ خير واجب من زكاة وصدقة وإنفاق في سبيل الله والغرض تخلّفهم عن الجهاد .

[نسوا] طاعة [الله] فترك رحمته لهم وجعلوا الله كالمنسيّ حيث لم يطيعوه فجعلهم الله في حكم المنسيّ عن الثواب ، وذكر ذلك لازدواج الكلام وإلّا فالنسيان لا يجوز عليه سبحانه على سبيل الحقيقة .

ثمّ أخبر سبحانه بأنّ المنافقين خارجون عن الإيمان وهم المتمرّدون الفاسقون ووعد الّذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر وهم المنافقون والكفّار نار جهنّم .

وإنّما فصّل النفاق من الكفر وإن كان النفاق هو الكفر ؟ ليتبيّن الوعيد على كلّ

واحد من الصنفين [خالدين] ودائمين فيهاوحسبهم العقاب فيها كفاية ذنوبهم أي على قدر فعلهم عقوبتهم وأبعدهم من رحمته وخيره [ولهم عذاب] لايزول عنهم .

قوله تعالى : كالذين من قبلكم كانوا اشد منكم قوة واكثر اموالا واولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا اولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والاخرة واولئك هم الخاسرون (٦٩) .

قوله : « كالذين » هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب للالتفات أي فعلتم كأفعال الّذين من قبلكم . شبّه المنافقين بالكفّار الّذين كانوا قبلهم في الأمر بالمنكر و القبائح مع أنبيائهم .

ثمّ قال سبحانه : أولئك الكفّار [كانوا أشدّ منكم قوّة وأولاداً فاستمتعوا] في الدنيا ثمّ بادوا وهلكوا وانقلبوا إلى عذاب الدائم ، فاستمتعوا أُولئك بنصيبهم وحظّهم من الدنيا بأن صرفوها في شهواتهم المحرّمة وفيما نهاهم الله .

فأنتم أيضاً استمتعتم بحظّكم من الدنيا وخضتم في الكفر و الاستهزاء كما خاض الأوّلون .

[أُولئك الّذين] هم كذلك أعمالهم محبوطة ، أي كما أنّ المؤمنين يثابون بأعمال الخير من البرّ والإنفاق وصلة الرحم هؤلاء ليسوا كذلك ؛ لانّ الكفر يحبط العمل ولافائده لهم بها في الآخرة ولهم الخسران .

روي عن ابن عبّاس أنّه قال في هذه الآية : ما أشبه الليلة بالبارحة كالّذين من قبلكم هؤلاء بنو إسرائيل شبّهنا بهم لاأعلم إلّا أنّه قال : والّذي نفسي بيده لتتّبعنّهم حتّى لودخل الرجل منهم جحر ضبّ لدخلتموه .

وروي مثل ذلك عن أبي هريرة عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ قال : لتأخذنّ كما أُخذت الأُمم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع حتّى لو أنّ أحداً من أُولئك دخل جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله : كما صنعت فارس و الروم وأهل الكتاب قال : فهل الناس إلّاهم ؟

وقال عبدالله بن مسعود : أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل تتّبعون عملهم حذو القذّة بالقذّة غير أنّي لا أدري أتعبدون العجل أم لا ؟

قوله : الم ياتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات اتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون (٧٠) .

المعنى : ألم يأت هؤلاء المنافقين الموصوفين أخبار الكفّار الّذين كانوا قبلهم الطوائف الستّة الّذين خالفوا أنبياءهم و عذّبهم الله بطرق العذاب .

فأوّلهم : قوم نوح ، والله أهلكهم بالإغراق .

وثانيهم : عاد ، والله أهلكهم بإرسال الريح العقيم عليهم .

وثالثهم : ثمود ، والله أهلكهم بإرسال الصيحة والصاعقة .

ورابعهم : قوم إبراهيم ، والله أهلكهم بسلب النعمة عنهم ، وسلّط الله البعوضة على دماغ نمرود .

وخامسهم : قوم شعيب وهم أصحاب مدين ، والله أهلكهم بعذاب يوم الظلّة .

وسادسهم : قوم لوط أهل المؤتفكات ، أهلكهم الله بأنّ جعل عالي أرضهم سافلها . ومعنى «الائتفاك» : الانقلاب ، وتلك القرى انقلبت . و«المؤتفكات» صفة القرى [أتتهم رسلهم] بالدلائل الواضحة .

وقوله : « ألم يأتهم » وإن كان بصيغة الاستفهام إلّا أنّ المراد التقرير . وما كان عذابهم ظلماً من الله بل باستحقاقهم .

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم (٧١).

لمّا وصف حال الكفّار وعذابهم شرع في وصف المؤمنين وما أعدّ لهم من الثواب و النعيم أي كما أنّ المنافقين والمنافقات بعضهم من جنس بعض كذلك المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض .

وهذا البيان اتّصال النقيض بالنقيض أي يتولّون بعضهم بعضاً ويلتزم كلّ واحد منهم نصرة صاحبه .

[يأمرون بالمعروف] أي ما أوجب الله فعله عليهم [وينهون عن المنكر] وهو ما نهى الله عن فعله . و يداومون على فعل الصلاة و إخراج الزكاة و يمتثلون أوامر الله [أُولئك سيرحمهم الله] أي الّذين هذه صفتهم سيرحمهم الله في الآخرة [إنّ الله] قادر على الرحمة والعذاب .

وعد الله المؤمنين و المؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن و رضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم (٧٢) .

لمّا ذكر الله الوعد في الآية السابقة على سبيل الإجمال ذكر في هذه الآية على سبيل التفصيل أي إنّ تلك الرحمة أشياء :

أولها : [جنّات تجري من تحتها الأنهار] أراد بها البساتين الّتي يتناولها المناظر لأنّه قال بعده : « ومساكن طيّبة في جنّات عدن » فحينئذ تكون منازلهم في جنّات عدن و مناظرهم الجنّات الّتي هي البساتين بدليل تغاير العطف . وقد كثر الكلام في صفة [جنّات عدن] .

و سأل عمران بن الحصين وأبو هريرة عن رسول الله عن قوله : [و مساكن طيّبة] قال ﷺ : قصر في الجنّة من اللؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كلّ دار سبعون بيتاً من زمرّدة خضراء في كلّ بيت سبعون سريراً على كلّ سرير سبعون فراشاً على كلّ فراش زوجة من الحور العين في كلّ بيت سبعون مائدة على كلّ مائدة سبعون لوناً من الطعام وفي كلّ بيت سبعون وصيفة ، يعطى المؤمن من القوّة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك أجمع . وعن ابن عبّاس أنّها دار الّتي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر . ولعلّ مراده أنّها دار المقرّبين عند الله لأنّه كان أعلم من أن يثبت له داراً .

وقال عبدالله بن عمر : إنّ في الجنّة قصراً يقال له عدن ، حوله البروج و له خمسة آلاف باب ، على كلّ باب خمسة آلاف حرّة لا يدخلها إلّا نبي أو وصي أو صدّيق أو شهيد .
و« العدن» بمعنى الإقامة ، وعلى هذا الاشتقاق والمعنى الجنّات كلّها جنّات عدن ولكنّه

اسم علم لموضع مخصوص .

[ورضوان من الله أكبر] روي أنّه تعالى يقول لأهل الجنّة : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا أن لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول : أما اُعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : وأيّ شيء أفضل من ذلك ؟ قال : اُحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً. فدلالة هذا الحديث أنّ السعادة الروحانيّة أفضل من سعادة الجسمانيّة .

قوله : يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأويهم جهنم و بئس المصير (٧٣) .

الآية تدلّ على أنّ النبيّ مأمور بالجهاد مع الكفّار والمنافقين . والمنافق هو الّذي يظهر الإيمان و يبطن الكفر ومتى كان الأمر كذلك لم يجز محاربته .

وذكروا أقوالاً بسبب هذا الإشكال :

فالقول الأوّل أنّ الجهاد مع الكفّار ، وتغليظ القول مع المنافقين وهذا بعيد ؛ لأنّ ظاهر القول يقتضي الأمر بجهادهما معاً وكذا ظاهر قوله : « واغلظ عليهم » راجع إلى الفريقين .

والقول الثاني : قال الرازي ـ وهو الصحيح ـ : أنّ الجهاد عبارة عن بذل الجهد و ليس في اللفظ ما يدلّ على أنّ ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر . وفي المجمع في قراءة أهل البيت : «جاهد الكفّار بالمنافقين» لأنّ النبيّ لم يجاهد المنافقين بالسيف و عن الصادق عليه‌السلام في قوله تعالى : «جاهد الكفّار والمنافقين» هكذا نزلت ، فجاهد رسول الله الكفّار و جاهد عليّ عليه‌السلام المنافقين فجاهد عليّ عليه‌السلام جهاد رسول الله .

قوله : يحلفون بالله ماقالوا و لقد قالوا كلمة الكفر و كفروا بعد اسلامهم وهموا بمالم ينالوا وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً اليماً فى الدنيا والاخرة ومالهم فى الارض من ولى ولانصير (٧٤) .

هذه الآية تدلّ على أنّ أقواماً من المنافقين قالوا كلمات فاسدة .

ثمّ لمّا قيل لهم : إنّكم ذكرتم هذه الكلمات حلفوا أنّهم ماقالوا .

والمفسّرون ذكروا في أسباب النزول وجوهاً :

قيل : إنّ رسول الله كان جالساً في ظلّ حجرة فقال ﷺ : إنّه سيأتكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان فلم يلبثوا أن جاء رجل أزرق فدعاه رسول الله ، فقال : علامَ تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فأنزل الله الآية ، عن ابن عبّاس .

وقيل : خرج المنافقون مع رسول الله إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبّوا رسول الله وأصحابه وطعنوا في الدين فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم : ما هذا الّذي بلغني عنكم ؟ فحلفوا بالله ماقالوا شيئاً من ذلك ، عن الضحّاك .

وقيل : نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت ، و ذلك أنّ رسول الله خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً وعابهم فقال الجلاس : والله لئن كان محمّد صادقاً فيما يقول فنحن شرّ من الحمير ، فسمعه عامر بن قيس فقال : أجل والله إنّ محمّداً لصادق و أنتم شرّ من الحمير ، فلمّا انصرف النبيّ ﷺ إلى المدينة أتاه فأخبره بما قال الجلاس . فقال الجلاس : كذب يا رسول الله فأمرهما النبيّ ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ثمّ قام عامر فحلف بالله لقد قاله ، ثمّ قال : اللّهمّ أنزل على نبيّك منك الصدق . فقال : النبيّ و المؤمنون : آمين ، فنزل جبرئيل قبل أن يتفرّقا بهذه الآية حتّى بلغ : [فإن يتوبوا يك خيراً لهم] فقام الجلاس فقال : يارسول الله قد عرض عليّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فقبل رسول الله منه .

وقيل : نزلت في عبدالله بن اُبيّ بن سلول حين قال : «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ»(١) .

وقيل : نزلت في أهل العقبة فإنّهم ائتمروا أن يغتالوا يقتلوا رسول الله في عقبة عند مرجعهم من تبوك وقصدوا أن يقطعوا أنساع راحلته ، ثمّ ينخسوا بها فاطّلعه الله على ذلك وكان ذلك من جملة معجزاته ؛ لأنّه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلّا بوحي من الله . وبالجملة أظهر الله أسرار المنافقين فقال : [يحلفون بالله] كاذبين [ما قالوا] ما حكي عنهم .

ثمّ حقّق عليهم ذلك و أقسم بأنّهم قالوا و طعنوا في الإسلام و كفروا بعد إظهار إسلامهم .

---

(١) المنافقون : ٨ .

[وهمّوا بأمر لم ينالوا] الأمر إمّا همّهم بفتك الرسول ليلة العقبة والتنفير لراحلته وإمّا قصدهم بإخراج النبيّ من المدينة أو الفساد والتضريب بين أصحابه .

[وما نقموا إلّا أن أغناهم] أي فعلوا بخلاف مايقتضي فإنّ إغناءهم يوجب شكر النعمة وأنّهم قابلوا الشكر بالكفران و النقمة فإنّه قبل ذلك كانوا في ضنك العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، وبعد قدومه صلى الله عليه وآله أخذوا الغنائم ووجدوا الدولة و ذلك يوجب أن يكونوا محبّين له ، وهم قابلوا بالنقمة والفساد وهذا كقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم * بهنّ فلول من قراع الكتائب

ثمّ قال : [فإن يتوبوا] هؤلاء المنافقون خيراً لهم و إن يعرضوا عن الحقّ يعذّبهم الله عذاباً أليماً وليس لهم وليّ ولا ناصر .

قوله : ومنهم من عاهد الله لئن اتنا الله من فضله لنصدقن و لنكونن من الصالحين (٧٥) فلما اتهم من فضله بخلوا به و تولوا وهم معرضون(٧٦) فاعقبهم الله نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ماوعدوه و بما كانوا يكذبون (٧٧) الم يعلموا ان الله يعلم سرهم و نجويهم و ان الله علام الغيوب (٧٨) .

ومن المنافقين من عاهد الله . نزلت في ثعلبة بن خاطب قال لرسول الله : يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً فقال صلى الله عليه وآله : ياثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لاتطيقه . فراجعه و قال : و الّذي بعثك بالحقّ لئن رزقني الله مالاً لأُعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه .

فدعاله فاتّخذ غنماً ، فنمت كما ينمو الدود حتّى ضاقت بها المدينة فنزل وادياً بها فجعل يصلّي الظهر و العصر ويترك ما سواهما ، ثمّ نمت و كثرت حتّى ترك الصلاة إلّا الجمعة ثمّ ترك الجمعة وطفق يسأل الركبان ويتلقّى الركبان عن الأخبار فسأل رسول الله عنه فأخبره بخبره فقال : ياويح ثعلبة فنزل : « خذ من أموالهم صدقة » فبعث إليه برجلين وقال : مرّا بثعلبة وخذا صدقاته فعند ذلك قال ثعلبة لهما : ما هذه إلّا جزية أو أُخت الجزية ولم يدفع الصدقة ، فأنزل الله هذه الآية .

فقيل له : قد أنزل الله فيك كذا و كذا فأتى رسول الله وسأله أن يقبل صدقته فقال صلى الله عليه وآله :

إنّ الله منعني من قبول صدقتك فحثا التراب على رأسه فقال ﷺ : قدقلت لك فما أطعتني فرجع إلى منزله وقبض رسول الله .

وقيل : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة كان له مال بالشام وأبطأ عليه وجهد لذلك جهداً شديداً فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصدّقنّ فآتاه الله ذلك ولم يفعل .

و«المعاهدة» أن تقول : عليّ عهد الله لأفعلنّ كذا أو عاهدت الله لأفعلنّ كذا فإنّه بذلك قد عقد على نفسه وجوب ما ذكره وقصده .

قوله : [فلمّا آتاهم] وأعطاهم الله ما اقترحوه [بخلوا به] أي شحّت نفوسهم عن الوفاء بالعهد [وتولّوا] عن ماعهدوا [وهم معرضون] عن أمر الله [فأعقبهم] و أورثهم بخلهم بما أوجبوا على أنفسهم [نفاقاً] في قلوبهم فصار البخل سبباً لحصول النفاق في قلوبهم بحرمان التوبة [إلى يوم يلقونه] أي يلقون جزاء البخل ونقض العهد أو يوم يلقون الله وهو اليوم الآخر . وهذا إخبار من الله أنّ هؤلاء المنافقين يموتون على الكفر بما أخلفوا الله ما وعدوه و بتكذيبهم أحكامه .

[ألم يعلموا] هؤلاء المنافقون [أنّ الله يعلم] ما يخفون في أنفسهم وما يتناجون بينهم ؛ أي يجب أن يعلموا أنّه عالم بكلّ ما غاب عن علم كلّ عالم .

ثمّ ههنا مسألة ؛ هل من شرط المعاهدة أن يحصل التلفّظ بها باللسان أولا حاجة إلى التلفظ حتّى لو نواه بقلبه فهو داخل في هذا العهد ؟ قال جماعة : إنّ أصحاب هذا القول الّذي بالنيّة ينعقد العهد قالوا : إنّ قوله : «ومنهم من عاهد الله» كان شيئاً نووه في أنفسهم ؛ ألا ترى أنّه تعالى قال : « ألم يعلموا أنّ الله يعلم سرّهم ونجواهم » ؟

وقال المحقّقون : هذه المعاهدة مقيّدة بالتلفّظ والدليل عليه قوله ﷺ : إنّ الله قد عفى عن اُمّتي ماحدثت به نفوسها ولم يتلفّظوا به . وأيضاً فقوله : «ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ » إخبار عن من تكلّمه فهذا القول و ظاهره مشعر بالقول باللسان .

و بالجملة قال النبيّ ﷺ : ثلاث من كنّ فيه فهو منافق و إن صلّى و صام و زعم أنّه مؤمن : إذا حدّث كذب ، و إذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان .

و عنه ﷺ قال : تقبّلوا لي ستّاً أتقبّل لكم الجنّة : إذا حدّثتم فلاتكذبوا ، و إذا وعدتم فلاتخلفوا ، وإذا ائتمنتم فلاتخونوا ، و كفّوا أبصاركم وأيديكم وفروجكم ؛ أبصاركم عن الخيانة و أيديكم عن السرقة و فروجكم عن الزنا .

قوله : الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الاجهدهم فيسخرون منهم سخرالله منهم ولهم عذاب اليم (٧٩) .

النزول : قال ابن عبّاس : إنّ رسول الله خطبهم ذات يوم وحثّ على الصدقات القوم فجاءه عبدالرحمن بصرّة من دراهم تملأ الكفّ منها ، وجاء عاصم بن عديّ الأنصاريّ بسبعين وسق من التمر و جاء علبة بن زيد الحارثيّ بصاع من تمر وقال: آجرت نفسي ليلتي الماضية لرجل لإرسال الماء على نخيله فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي و أقرضت الآخر ربّي فأمر النبيّ ﷺ بوضعه في الصدقات ، فقال المنافقون على وجه الطعن : ما جاؤوا بصدقاتهم إلّا رياءً و سمعة وأمّا أبوعقيل فقدجاء بصاعه لتذكر مع سائر الأكابر ؛ فعيّبوا على المكثر بالرياء و على المقلّ بالقلّة و قالوا : إنّ الله غنيّ عن صاعه فنزلت هذه الآية أي إنّ المنافقين الّذين يعيبون على المطوّعين المتنفّلين لطاعة الله ومرضاته ويعيبون على فقرائهم مثل أبي عقيل الّذي جهده إتيان صاع من تمر و يسخرون منهم بهذا الفعل أُولئك قوم الله يسخر بهم [ولهم عذاب أليم] .

قوله : استغفر لهم اولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدى الفاسقين (٨٠) .

قال ابن عبّاس : إنّ عند نزول آية « الّذين يلمزون ، إلخ » في حقّ المنافقين قالوا : يا رسول الله استغفر لنا فقال النبيّ ﷺ : سأستغفر لكم و عزم بالاستغفار لهم فنزلت فترك ﷺ الاستغفار .

الصيغة صيغة الأمر والمراد به الإخبار في مبالغة الإياس من المغفرة أي لو طلبت الاستغفار أو تركته سواء في أنّ الله لا يقبلها [إن تستغفر لهم سبعين مرّة] المراد بالسبعين مرّة المبالغة لا العدد المخصوص كقول القائل : لو تقول لي ألف مرّة ما قبلت منك ، وجاء في كلام العرب المبالغة في عدد

السبع والسبعين ، ولهذا قيل : للأسد السبع لأنّهم تأوّلوا منه لقوّته أنّه ضوعفت له سبع مرّات ، و أمّا ما روي أنّه ﷺ قال : والله لأزيد على السبعين فإنّه خبر واحد لا يعوّل عليه .

و يحتمل أن يكون النبيّ ﷺ يرجو أن يكون لهم لطف يصلحون به فعزم على الاستغفار لهم فلمّا نزلت الآية عرف أنّه ليس لهم لطف و ترك العزم .

ويحتمل أن يكون قد استغفر لهم قبل أن يخبر بأنّ الكافر لا يغفر له أو قبل أن يمنع منه و يجوز أن يكون استغفاره لهم واقعاً بشرط التوبة عن الكفر ، فمنعه الله منه و أخبره بأنّهم لا يؤمنون أبداً فلا فائدة في الاستغفار لهم .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ حرمان المغفرة لهم بكفرهم بالله و رسوله [و الله لا يهدي القوم الفاسقين] .

قوله : فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله و كرهوا ان يجاهدوا باموالهم و انفسهم في سبيل الله وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم اشد حرا لوكانوا يفقهون (٨١) فليضحكوا قليلا و ليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون (٨٢) فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستاذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا ولن تقاتلوا معي عدوا انكم رضيتم بالقعود اول مرة فاقعدوا مع الخالفين(٨٣) .

بيان نوع آخر من قبائح أفعال المنافقين أخبر سبحانه أنّ جماعة منهم الّذين خلّفهم رسول الله ولم يخرجهم معه إلى تبوك لمّا استاذنوه في التاخير و القعود فأذن لهم فرحوا بقعودهم عن الجهاد خلاف رسول الله أي بعده . وقيل : معناه لمخالفتهم الرسول

[و كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله وقالوا للمسلمين لاتنفروا في الحرّ] و مقصودهم صدّ المسلمين عن الغزو وكانوا يقولون للمسلمين : لاتخرجوا إلى الغزو سراعاً في هذا الحرّ [قل] لهم يا محمد : [نار جهنّم] الّتي وجبت لهم بالتخلّف عن الرسول و أمر الله [أشدّ حرّاً] من هذا الحرّ فهي أولى بالاحتراز ، إذ لا يعتد بهذا الحرّ بالنسبة إلى ذلك الحرّ [لو كانوا يفقهون] وعيد الله و وعده .

فلوقيل : إنّ هؤلاء المنافقين كانوا متخلّفين لأنّهم احتالوا في التخلّف فكان الأولى أن يقال : فرح المتخلّفون؛ وأجابوا بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله منع أقواماً من الخروج معه لعلمه بأنّهم يشوّشون و يفسدون فحينئذ كانوا مخلّفين لامتخلّفين . ثمّ هؤلاء المتخلّفين صاروا مخلّفين في الآية الآتية وهي قوله : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستاذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقالوا معي عدوّاً» فلمّا منعهم الله من الخروج معه صاروا بسبب المنع مخلّفين .

و قوله : «بمقعدهم» قال ابن عبّاس : يريد المدينة فعلى هذا «المقعد» اسم للمكان ، و قال غيره : بمقعدهم أي بقعودهم و على هذا اسم للمصدر «و خلاف» قيل : معناه خلف أي بعد «رسول الله» وعلى هذا الخلاف اسم للجهة المعيّنة كالخلف الّذي يقابل القدّام في المعنى ، و أنّ الانسان متوجّه إلى قدّامه فجهة خلفه مخالف لجهة قدّامه في كونها جهة متوجّهاً إليها .

قوله : [فليضحكوا قليلاً و ليبكوا كثيراً] هذا تهديد لهم في صورة الأمر أي فليضحك هؤلاء المنافقون في الدنيا قليلاً ؛ لأنّ ذلك يفنى و إن دام إلى الموت و ليبكوا كثيراً في الآخرة لأنّ ذلك يوم مقداره خمسين ألف سنة وهم فيه يبكون فصار بكاؤهم كثيراً جزاء بما كسبوا من النفاق والكفر والتخلّف عن الجهاد .

قال ابن عبّاس : إنّ أهل النفاق في النار عمر الدنيا فلا يرقى لهم دمع ولا يكتحلون بنوم .

و روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال : لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .

قوله تعالى : [فإن رجعك الله] يا محمّد وردّك من غزوتك هذه أي غزوة تبوك إلى طائفة منهم أي من هؤلاء المنافقين الّذين تخلّفوا عنك و عن الخروج معك و استأذنوك للخروج معك في غزوة أُخرى [فقل] لهم : [لن تخرجوا معي أبداً] إلى غزوة [ولن تقاتلوا معي عدوّاً] .

ثمّ بيّن سبحانه سبب ذلك فقال : [إنّكم رضيتم بالقعود أوّل مرة] أي عن غزوة

تبوك [فاقعدوا مع الخالفين] بعد هذا في كلّ غزوة قيل : معناه مع الصبيان والنساء وقيل : مع الّذين تخلّفوا من غير عذر و قيل : أي مع الخالفين قال الفرّاء : يقال : عبد خالف إذا كان مخالفاً .

وقيل : معناه اقعدوا مع الأخسّاء والأدوناء ؛ يقال : فلان خالفة أهله إذا كان أدونهم أوفاسدهم ، ومنه خلوف فم الصائم إذا تغيّرت وفسدت رائحته .

قوله تعالى : ولاتصل على احد منهم مات ابدا ولاتقم على قبره انهم كفروا باللهو رسوله و ماتوا وهم فاسقون(٨٤) .

المراد من الآية تحذير المنافقين لأنّ في الآية السابقة منعهم عن الخروج مع النبيّ ﷺ و في هذه الآية منع الرسول من أن يصلّي على من مات منهم و هذا سبب قويّ في إذلالهم و إهانتهم .

قال ابن عبّاس : إنّه لمّا مرض عبدالله بن اُبيّ بن أبي سلول عاده رسول الله فطلب منه أن يصلّي عليه إذا مات ويقوم على قبره .

ثمّ إنّه أرسل إلى الرسول فطلب منه قميصه ليكفّن فيه فأرسل ﷺ القميص الفوقانيّ فردّه وطلب منه الّذي يلي جلده ليكفن فيه فقال عمر : لم تعطي قميصك الرجس النجس فقال : إنّ قميصي لايغني عنه من الله شيئاً فلعلّ الله أن يدخل به ألفاً في الإسلام وكان المنافقون لا يفارقون عبدالله فلمّا رأوه يطلب القميص و يرجو أن ينفعه أسلم منهم يومئذ ألف كما ظنّ رسول الله ببركة الثوب فلمّا مات عبدالله جاء ابنه وهو اسمه عبدالله ـ وكان مؤمناً ـ وقال لرسول الله : إنّ أبي مات فقال ﷺ له : صلّ عليه و ادفنه فقال : إن لم تصلّ عليه لم يصلّ عليه مسلم فقام ﷺ ليصلّي عليه فنزلت الآية .

فإن قيل : كيف يجوز أن يقال : إنّ رسول الله رغب في أن يصلّي عليه بعد أن علم كونه كافراً وقد مات على كفره و إنّ صلاة الرسول تجري مجرى الإجلال و التعظيم له و ذلك محظور لأنّ الله أعلمه أنّه لايغفر للكفّار البتّة و كذلك دفع القميص إليه ؟ .

الجواب : لعلّ السبب فيه أنّه لمّا طلب من الرسول ﷺ أن يرسل إليه قميصه غلب على ظنّه أنّه انتقل إلى الايمان لأنّ هذا الطلب أمارة للإيمان و ذلك وقت يتوب

فيه الفاجر و يؤمن فيه الكافر فلمّا رأى منه هذا الأمر غلب على ظنّه أنّه أسلم و رغب في أن يصلّي عليه فلمّا نزل جبرئيل عليه السلام و أخبره أنّه مات على كفره ونفاقه امتنع من الصلاة عليه .

و أمّا دفع القميص إليه فذكروا فيه وجوهاً . قيل : إنّ العبّاس عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا اُخذ أسيراً يوم بدر لم يجدوا له قميصاً و كان رجلاً طويلاً فكساه ذلك اليوم عبدالله قميصه . وقيل : إنّ المشركين يوم صلح الحديبية قالوا لعبدالله : إنّا لانقاد لمحمّد صلى الله عليه وآله ، ولكنا ننقاد لك . فقال : لا إنّ لي في رسول الله اُسوة حسنة، فشكر رسول الله صلى الله عليه وآله له ذلك ثمّ إنّ الله سبحانه أمره أن لا يردّ السائل بقوله : «وأمّا السائل فلاتنهر[1]» فدفعه لهذا المعنى . و منع القميص لايليق بأهل الكرم . على أنّ ابنه عبدالله كان من صلحاء الصحابة و أنّ الرسول أكرم ابنه بهذا الأمر . و لعلّ الله أوحى إليه : إذا دفعت إليه قميصك صار ذلك الامر حاملاً لإسلام ألف نفر من المنافقين ففعل ذلك لهذه المصلحة وقد أسلم ألف .

قوله : [ولاتصلّ] أي لا تصلّ على من مات على الكفر أبداً [ولاتقم على قبره] لأنّه صلى الله عليه وآله كان إذا دفن الميّت وقف على قبره و دعا له فمنع منه .

و علّل المنع بسبب أنّهم ماتوا على الكفر والفسق ولمّا علل المنع بسبب الكفر فما الفائدة في وصفه إيّاهم بالفسق و الفسق أدنى من الكفر ؟ فالجواب أنّ الكافر قد يكون عدلاً في دينه وقد يكون خبيثاً ممقوتاً بالنفاق والخداع والكذب والمكر فهؤلاء كانوا كذلك ولذا وصف الفسق . و يوضح بأنّ طريقة النفاق طريقة قبيحة عند أهل العالم .

قوله : ولاتعجبك اموالهم و اولادهم انما يريدالله ان يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون(٨٥) .

اعلم أنّ هذه قدسبق ذكرها في هذه السورة ثمّ ذكرت ههنا مع تفاوت في الجملة ، ففي الآية الاُولى : « فلاتعجبك » بالفاء ، و ههنا بالواو . و في الآية الاُولى : « أموالهم و أولادهم » وههنا كلمة «لا» محذوفة . وفي الآية الاُولى : « إنّما يريدالله ليعذّبهم » وهنا «أن يعذّبهم» و هناك : « في الحياة الدنيا » و هنا « الحياة » محذوفة و المعنيان متقاربان فما

---

(١) الضحى : ١٠ .

الحكمة في التكرير؛ وهي أنّ أشدّ الأشياء جذباً للقلوب في الاشتغال بالدنيا هو الإعجاب والاشتغال بالأموال والأولاد وماكان كذلك يجب التحذير والتنبيه عليه مرّة بعد اُخرى وهذا التكرير للمبالغة في التحذير .

ثمّ إنّه لمّا كان أحبّ الأشياء للرجل المؤمن في المطلوبيّة الرجاء والغفران أعادالله قوله : «إنّ الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» في سورة النساء مرّتين للتصريح كذلك مع الإعجاب بالمال و الأولاد ههنا مرّتين للمبالغة و التنبيه على لزوم هذا الأمر .

وقيل : التكرير أراد بالأُولى قوماً من المنافقين لهم أموال في وقت نزول الآية و أراد بهذه الآية أقواماً آخرين ، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام مختلفين في أوقات مختلفة لم يكن ذكره تكراراً بل يجب ذكره وقد ذكرنا أنّ الإرادة تعلّقت بالإزهاق لا بالكفر في تفسير الآية السابقة .

قوله : وإذا انزلت سورة ان آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استاذنك اولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين (٨٦) رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون (٨٧) .

في هذه الآية بيان تقاعد رؤساء المنافقين عن الجهاد والسورة تطلق على تمام السورة وعلى بعضها كما أنّ القرآن والكتاب يقع على كلّه و على بعضه ، أي متى نزلت آية أو سورة مشتملة على الأمر بالإيمان وبالجهاد مع الرسول استأذن اُولو الثروة والمال منهم في التخلّف عن الغزو وقالوا لرسول الله : [ذرنا نكن مع القاعدين] أي مع الضعفاء والساكنين في البلد وفي تخصيص اُولي الطول بالذكر أنّ الذمّ لهم ألزم لكون وجود القدرة على الجهاد والسفر وأنّ من لامال له ولا قدرة له على السفر لا يحتاج إلى الاستيذان غالباً .

ثمّ عيّرهم بقوله : [رضوا بأن يكونوا مع الخوالف] قال الفرّاء : الخوالف عبارة عن النساء الّتي تخلّفن في البيت فلا يبرحن وقد ذكرنا قبيل هذا معنى الخالف . وكان يصعب على المنافقين هذا التشبيه وعلى العرب . ثمّ قال : سبحانه : [وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون] ومعنى الطبع ذكر مراراً في القرآن وهو عبارة عن بلوغ القلب في الميل إلى الكفر

إلى الحدّ الّذي لايقبل الإيمان وعلامة وسواد في القلب يحصل في القلب بسبب اختيار الكفر بحيث إنّه لايعالج ولايفقهون حكمة الله .

قوله : لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا باموالهم و انفسهم واولئك لهم الخيرات واولئك هم المفلحون(٨٨) اعدالله لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم (٨٩) .

لمّا بيّن حال المنافقين في التخلّف عن الجهاد والدوام على النفاق بيّن في هذه الآية أنّ حال الرسول و الّذين آمنوا به على سبيل الحقيقة بالضدّ حيث بذلوا الأموال و الأنفس في طلب مرضاة الله ، أي إذا تخلّف المنافقون فقد توجّه إلى القبول من هو خير منهم وأخلص عقيدة ونيّة .

فذكر ماحصل للمؤمنين بهمن الفوائد بقوله : [أُولئك لهم الخيرات] ولفظ «الخيرات» يتناول منافع الدارين وقيل : المراد من الخيرات الحور العين لقوله : « فيهنّ خيرات حسان » (١).

ثمّ قال : [واُولئك هم المفلحون] أي متخلّصون من العذاب والعقاب .

ثمّ قال : [أعدّ الله لهم] بسبب قبولهم هذه المرتبة العالية والدرجات الرفيعة .

قوله : وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم و قعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم (٩٠) .

هذه الآية شرح حال المنافقين الّذين كانوا خارجين من المدينه من أعراب البوادي .

«المعذر» بالتخفيف الّذي له عذر ، وبالتشديد الّذي يعتذر بلا عذر وقال : (لعن الله المعذّرين) وقرىء «معذورون» فمن قرأ بالتخفيف أراد الّذين يأتون بالعذر ومن قرأ بالتشديد احتمل أمرين : أحدهما أن يكون المراد المعتذرون سواء كان لهم عذر أولم يكن و إنّما أُدغمت التاء في الدال لقرب مخرجهما والثاني المقصّرين من التعذير .

وبالجملة صنّف الله الأعراب صنفين: صنف اعتذروا بالباطل وليس لهم عذر وصنف قعدت عن الاعتذار وما اعتذروا مطلقاً لا بباطل ولا بحقّ جرأة على الله .

وقيل : إنّ الصنف الأوّل اعتذروا بالحقّ وكان لهم عذر وهم نفر من بني غفار ويدلّ

---

(١) الرحمن : ٧٠ .

على هذا المعنى قوله : « وقعد الّذين كذبوا الله و رسوله » فدلّ على أنّ الأوّلين كانوا صادقين .

قيل : معناه أنّ الأوّلين تصوّروا بصورة العذر وليسوا كذلك و كلاالفريقين كانوا كاذبين . سيصيب الّذين لاعذرلهم و كفروا عذاب موجع .

قوله:ليس على الضعفاء ولاعلى المرضى ولاعلى الذين لايجدون ماينفقون حرج اذا نصحوالله ورسوله ماعلى المحسنين من سبيل والله غفوررحيم(٩١) ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لااجدما احملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الايجدوا ماينفقون(٩٢) انما السبيل على الذين يستاذنوك وهم اغنياء رضوابأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون (٩٣) .

لمّا بيّن الوعيد في حقّ من توهّم الإعذار مع أنّه لاعذر له بيّن أصحاب الأعذار المقبولة أنّه ليس عليهم حكم الجهادوهم معذورون في الحقيقة وهم أقسام .

الأوّل : الصحيح في بدنه الضعيف مثل الشيوخ ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفاً نحيفاً وهم المرادون بالضعفاء ، و الدليل عليه أنّه عطف عليهم المرضى و المعطوف مبائن للمعطوف عليه .

وأمّا المرضى فيدخل فيهم أصحاب العمى والعرج و الزمانة و كل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكّن من المحاربة .

والقسم الثالث الّذين لايجدون الاُهبة من الزاد و الراحلة ؛ لأنّ حضوره في الغزو إنّما ينفع إذا قدر على أمر يعينه ، فإن لم تحصل قدرة له صار كالاً ووبالاً على المجاهدين حتّى يمكن أن يمنعهم وجوده من الاشتغال بالمقصود فقال : سبحانه : لا حرج على هؤلاء أي يجوز أن يتخلّفوا عن الجهاد لكن ليس في الآية ما يدلّ على تحريم خروجهم ؛ لأنّ الواحد منهم لوخرج ليعين المجاهدين بمقدار القوّة إمّا بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لايكون كلاً كان ذلك طاعة مقبولة .

ثمّ إنّه شرط في جوازهذا التاخير [إذا نصحو الله ورسوله] أي إذا أقاموا بالبلد احترزوا عن إلقاء الأراجيف و إثارة الفتنة وسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين الّذين

سافروا إمّا بأن يقوموا بأصلاح مهمّات بيوتهم إلى المجاهدين ؛ فإنّ جملة هذه الأمور إعانة على الجهاد .

ثمّ قال : [ما على المحسنين من سبيل] وقد اتّفقوا على أنّه دخل تحت قوله : «ما على المحسنين» هو أنّه لا إثم عليه بسبب القعود عن الجهاد .

واختلفوا في أنّه هل يفيد العموم في كلّ الوجوه أم لا : فمنهم من زعم أنّ اللّفظ مقصور على هذا المعنى لانّ هذه الآية نزلت فيهم . ومنهم من زعم أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب وقالوا : المحسن هو الآتي بالإحسان ، ورأس أبواب الإحسان قول : لا إله إلّا الله ؛ فكلّ من قالها واعتقدبها كان من المسلمين ومن المحسنين ؛ فهذه الآية بعمومها يقتضي أنّ الأصل في كلّ مسلم عدم توجّه الغير عليه في نفسه أوماله أو عرضه إلّا بدليل منفصل فتصير هذه الآية بهذا الطريق أصلاً معتبراً في الشريعة في تقرير أنّ الأصل براءة الذمّة ؛ فإن ورد نصّ خاصّ يدلّ على وجوب حكم خاصّ في واقعة خاصّة قضينا بذلك النصّ تقديما للخاصّ على العامّ وإلّا فهذا النصّ كاف في تقرير البراءة الاصليّة . و هذا تقرير أصحاب الظواهر مثل داود الإصفهانيّ وأصحابه ونفاة القياس .

قوله : [ولا على الّذين إذا ما أتوك ، الخ] فإن قيل : أليس هؤلاء داخلون تحت قوله : «ولا على الّذين لايجدون ما ينفقون» فما الفائدة في إعادته ؟ نعم فيه فرق ؛ لأنّ الّذين لا يجدون هم الفقراء الّذين ليس لهم النفقة و هؤلاء المذكورون في قوله : « ولا على الّذين إذا ما أتوك » هم الّذين ملكوا قدر النفقة إلّا أنّهم لم يجدوا المركوب .

قال مجاهد : هم ثلاثة إخوة : معقل وسويد والنعمان بنو مقرن سألوا النبيّ ﷺ أن يحملهم على الخفاف المدبوغة والنعال المخصوفة ، فقال ﷺ : لا أجد ما أحملكم عليه فتولّوا وهم يبكون قال ابن عبّاس : سألوا أن يحملهم على الدوابّ فقال : لا أجد ما أحملكم عليه لأنّ الشقّة[١] بعيدة والرجل يحتاج إلى بعيرين بعير يركبه وبعير يحمل عليه ماءه وزاده .

قوله : [إنّما السبيل على الّذين يستأذنوك وهم أغنياء] لمّا نفى السبيل عن الفقراء والمرضى في الآية السابقة أثبت في هذه الآية أنّ السبيل المنفيّ عنهم ثابت في هؤلاء المنافقين

---

(١) المسافة البعيدة .

الأغنياء الّذين يستأذنوك في التخلّف. «ورضوا» جملة مستانفة أي رضوا بالدناءة و الضعة والانتظام في جملة الخوالف وطبع على قلوبهم وبسبب الطبع لايعلمون شيئاً.

يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم قدنبانا الله من اخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب و الشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٩٤) سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس وماويهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون (٩٥) يحلفون لكم لترضوا عنهم فان الله لايرضى عن القاسقين (٩٦) .

النزول : نزلت في جماعة من المنافقين وهم جندب بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وهم ثمانون رجلاً ولمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة راجعاً من تبوك قال : لا تجالسوا هؤلاء القاعدين المتخلّفين ولاتكلّموهم . وقيل : نزلت في عبدالله وأصحابه حلف للنبيّ أن لايتخلّف عنه بعدها وطلب إلى النبيّ ﷺ أن يرضى عنه .

وبالجملة هؤلاء المتأخّرون القاعدون عن الجهاد مع النبيّ [يعتذرون إليكم] من من تأخّرهم عنكم بالمعاذير والأباطيل الكاذبة [إذا رجعتم] إلى المدينة من تبوك [قل] يا محمّد : [لاتعتذروا] لسنا نصدّقكم على ماتقولون [قدنبّأنا الله من أخباركم] و حقيقة أمركم فأعلمنا كذبكم بقوله تعالى : «لوخرجوا فيكم مازادوكم إلّا خبالاً» [وسيرى الله] رسوله فيما بعد [عملكم] هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ثمّ ترجعون بعدالموت إلى الله سبحانه الّذي يعلم ماغاب وماحضر ليجزيكم بأعمالكم كلّها حسنها وقبيحها فيجازيكم عليها أجمع .

قوله : [سيحلفون بالله] أي سيقسم هؤلاء المنافقون [لكم] أيّها المؤمنون إذا رجعتم إليهم أنّهم إنّما يحلفوا العذر وهذه اليمين الكاذبة لأجل أن تصفحوا عنهم حيث إنّ الرسول أمر الأصحاب أن لا يجالسوهم ولايكلّموهم .

ثمّ أمر الله نبيّه والمؤمنين فقال : [فأعرضوا عنهم] أعراض ردّ و إنكار و مقت . ثمّ بيّن سبحانه عن سبب الإعراض فقال : [إنّهم رجس] أي نجس أي إنّهم كالشيء الّذي هو نفس النجاسة والقذارة فاجتنبوهم كما تجتنبون النجاسة .

ثمّ قال : [يحلفون لكم لترضوا عنهم] فإن رضيتم عنهم لجهلكم بحالهم فإنّ الله لايرضى عن من خرج دينه أي لاترضوا عنهم وباعدوهم كما تجتنبون من النجاسات أي إنّ ظاهرهم نجس وباطنهم أيضاً خبث ونجس ؛ فكما أنّه يجب التحرّز عن الأرجاس الجسميّة كذلك يجب الاجتناب عن الأرجاس الروحانيّة بل أولى خوفاً من سريانها إلى الإنسان وحذراً من أن يميل الطبع إلى تلك العقائد والأعمال .

ثمّ قال : [و مأواهم جهنّم جزاءً] على ما اكتسبوا من النفاق و الكفر .

وهذه المعاني مذكورة في الآية السابقة وقد أعادها الله ههنا مرّة اُخرى يمكن أن يكون الأوّل خطاباً مع المنافقين الّذين كانوا في المدينه وهذه الآية خطاب مع المنافقين من الأعراب و أصحاب البوادي ولمّا كانت طرقهما متقاربة من أهل الحضر والبودي لاجرم كان الكلام معهما على مناهج متقاربة ويؤيّد هذا التاويل آية بعدها .

قوله : الاعراب اشد كفرا و نفاقا و اجدران لايعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٩٧) ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما و يتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم (٩٨) .

«رجل عربيّ» إذا كان من العرب وإن سكن البلاد ، و«رجل أعرابيّ» إذا كان ساكناً في البادية والعرب صنفان عدنانيّة وقحطانيّة والفضل للعدنانيّة برسول الله ، يقال : رجل عربيّ إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب . ورجل أعرابيّ إذا كان بدويّاً يطلب مساقط الغيث والكلاء سواء كان من العرب أو من مواليهم ، ويجمع الأعرابيّ على الأعراب والأعاريب فالأعرابيّ إذا قيل له : ياعربيّ فرح ، والعربيّ إذا قيل له : ياأعرابيّ غضب فالعرب سكّان الأمصار والأعراب سكّان البوادي .

وإنّما سمّي العرب عرباً قيل : لأنّ أولاد إسماعيل نشؤوا بعربة وهي موضع تهامة فنسبوا إلى موطنهم وقيل : سمّي العرب عرباً لإبانة كلامهم وفصاحة نطقهم لانّ ألسنتهم معربة عمّا في ضمائرهم .

قيل : إنّ حكمة الروم في أدمغتهم وحكمة الهند في أوهامهم ، وحكمة اليونان في أفئدتهم لكثرة مالهم من المباحث العقليّة ، وحكمة العرب في ألسنتهم وذلك لجزالة ألفاظهم وعذوبة عباراتهم كقوله مثلاً : لاوأيّد الله الأمير .

وبالجملة شرح الله حال منافقي الأعراب بأنّهم أشد كفراً ونفاقاً لأنّهم يشبهون الوحوش ثمّ استيلاء الهواء الحارّ اليابس عليهم وذلك يوجب مزيد التكبّر والنخوة و الفخر . على أنّهم ما كانوا تحت سياسة سائس ولا تأديب مؤدّب فنشؤوا كما شاؤوا ومن كان كذلك خرج على أشدّ الجهات من الفساد ؛ ومن أصبح وأمسى شاهداً لمشاهد المجرّبين المهذّبين ، و تأديبات المحاضر الكاملة كيف يكون مساوياً لمن كان حليّه الودعم ، وعطره القطران ، وصيده اليربوع الأرؤل وإذا أردت أن تعرف الفرق بينهما قابل الفواكه الجبليّة بالفواكه البستانيّة فحينئذ هؤلاء أولى بالجهل و أجدر بأن لا يعرفوا حدود أحكام الله من الحلال والحرام [والله عليم] بأحوالهم [حكيم] فيما يحكم عليهم .

قوله : [ومن] منافقي [الأعراب] من يعتقد أنّ الّذي ينفقه في سبيل الله غرامة و خسران ـ و «المغرم» مصدر كالغرامة ـ لأنّه لا ينفقه إلّا تقيّة ورياء لا لابتغاء ثوابه وينتظر بكم الموت والقتل ويتوقّع أن تنقلب الأُمور عليكم بموت الرسول ويظهر عليكم المشركون فأعاده سبحانه إليهم فقال : [عليهم دائرة السوء] والدائرة إمّا صفة او مصدر كالعاقبة و العافية والصفة أكثر استعمالا وهي خلّة تحيط بالإنسان بحيث لا يكون للإنسان منها مخلص ، واُضيف إلى السوء على وجه التأكيد والزيادة ولو لم يضف لعلم هذا المعنى كقولك شمس النهار .

و «السوء» قرىء بضم السين وبفتح السين ، فبالفتح المصدر وبالضمّ الاسم أي عليهم دائرة البلاء والعذاب وإحاطته أي يكونون محاطون بالعذاب والبلاء والمضرّة ويدور عليهم البلاء فلا يرون في محمد وأصحابه إلّا ما يسوؤهم [والله سميع] بأقوالهم و[عليم] بنيّاتهم .

ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الاخر و يتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألاانها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم (٩٩) .

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ من الأعراب من يتّخذ ما ينفق مغرماً بيّن في هذه الآية أنّ منهم قوماً مؤمنين صالحين مجاهدين يتّخذ إنفاقه في سبيل الله مغنماً .

وفي هذا البيان دلالة على أنّ الأصل في جميع الطاعات الإيمان بالله ورسوله . ثمّ

في البيان دلالة على أنّه شرط في جميع أقسام الإنفاق في سبيل الله أن يكون خالصاً لوجهه . و«قربات» مفعول ثان ليتّخذ أي ماينفقه لأجل القربات و «القربات» جمع قربة أي يتقرّب إلى الله بإنفاقه ويطلب بهرضاه ويطلب به دعاء الرسول بالخير والبركة .

قوله : [ألا إنّها قربة لهم] أي انتبهوا أنّ أدعية الرسول يقرّبهم إلى الله وإلى ثوابه ويمكن أنّ الضمير راجع إلى النفقات أي النفقات سبب تقرّب رضاء الله . وهذه شهادة من الله للمتصدّق بحصول القرب إذا كان خالصاً لوجهه وأكّدها بحرف التنبيه ثمّ بحرف التحقيق وهو قوله : «إنّها» ثمّ زاد في التأكيد بقوله : [سيدخلهم الله في رحمته] ومعلوم أنّ إدخال حرف السين يوجب مزيد التأكيد . وقرىء «قربة» بضمّ الراء وهو الأصل ثمّ خفّفت نحو كتب ورسل وطنب .

قوله : والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه واعدلهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم (١٠٠) .

لمّا ذكر أنّ بعض الأعراب صالحون في الآية السابقة شرح في هذه الآية أنّ بعضاً منهم أعلى درجة في الفضل و هم السابقون الأوّلون قال ابن عبّاس : هم الّذين صلّوا إلى القبلتين وشهدوا بدراً . وعن الشعبيّ : هم الّذين بايعوا بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية . وقيل : الّذين أسلموا قبل الهجرة ونصروا رسول الله و كذلك الّذين اتّبعوا المهاجرين الأوّلين بالدخول في الإسلام ومتابعة منهاجهم وسلوك مدارجهم ويدخل في ذلك من يجيء بعدهم بشرط متابعتهم إلى يوم القيامة هؤلاء الجماعة الموصوفون بهذه الكيفيّة رضي الله عنهم بقبولهم الإسلام وأوامر الرسول وهم رضوا عن الله لمّا أجزل لهم الثواب .

وقوله : [رضي الله] خبر لقوله « السابقون» [وأعدّ] الله [لهم جنّات] يبقون فيها منعّمين ببقاء الله [ذلك الفوز العظيم] الّذي يصغر في جنبه كلّ نعيم .

وأوّل من أسلم عندنا عليّ عليه السلام من الرجال وخديجة من النساء وبه قال ابن عبّاس وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك وزيد بن أرقم ومجاهد وقتادة و أبي إسحاق وجماعة كثيرة غيرهم ؛ قال أنس : بعث النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين وصلّى عليّ عليه السلام وأسلم يوم الثلثاء ،

أسلم وهو ابن عشر سنين . وكان عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله أخذه من أبي طالب وضمّه إلى نفسه يربّيه في حجره وكان معه قبل أن يبعث صلى الله عليه وآله وقيل : أسلم وهو ابن تسع سنين . وقيل : اثنتي عشر سنة ؛ وهو الصحيح .

وفي تفسير الثعلبي روى إسماعيل بن أياس بن عفيف عن جدّه عفيف قال : كنت امرءاً تاجراً فقدمت مكّة أيّام الحج فنزلت على العبّاس بن عبدالمطّلب وكان العبّاس لي صديقاً وكان يختلف إلى اليمن يشري العطر و يبيعه في أيّام الموسم ، بينما أنا والعبّاس بمنى إذجاء رجل شاب حين حلقت الشمس في السماء فرمى ببصره إلى السماء ثمّ استقبل الكعبة فقام مستقبلها فلم يلبث حتّى جاء غلام عن يمينه فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب فركع الغلام والمرأة فخرّ الشاب ساجداً فسجدا معه فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ؛ فقلت : ياعبّاس أمر عظيم فقال : أمر عظيم فقلت : ويحك ماهذا ؟ قال : هذا ابن أخي محمّد بن عبدالله يزعم أنّ الله بعثه رسولاً و أنّ كنوز كسرى و قيصر ستفتح عليه وهذا الغلام عليّ بن أبي طالب و هذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجة محمّد بايعاه على دينه وأيم الله ماعلى ظهر الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء ؛ فقال : عفيف الكندي بعد ما أسلم : ليتني كنت رابعهم .

وروي أنّ أباطالب قال لعليّ : أي بنيّ ماهذا الّذي أنت عليه ؟ قال : ياأبتاه آمنت بالله و رسوله وصدّقت محمّداً فيما جاء به وصلّيت معه لله فقال له : ألا إنّ محمّداً لايدعو إلّا إلى خير فالزمه .

وروى عبدالله بن موسى عن العلاء بن صالح عن المنهال بن عمر عن عبّاس بن عبدالمطّلب قال : سمعت عليّاً عليه السلام يقول : أنا عبدالله وأخو رسوله أنا الصدّيق الأكبر لايقولها بعدي إلّا كذّاب مفتر صلّيت قبل الناس بسبع سنين .

قوله : وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينه مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم (١٠١) واخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم (١٠٢) .

كان جماعة حول المدينة من الأعراب وهم أربع قبائل : أسلم وأشجع وجهينة و غفار .
المراد في الآية ممّن حول المدينة هؤلاء [مردوا] على النفاق و «المارد» العاتي والمتطاول بالكبر والمعاصي و «المرود» الملاسة مأخوذ من الأرض الرملة التي لا تنبت شيئاً .

[لا تعلمهم] مع حدسك وصفاء فهمك [نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين] أي عذاب الدنيا بالقتل والسبي والثاني عذاب القبر . وقيل : المراد بالدبيلة وعذاب القبر . و قيل : إحدى العذابين ضرب الملائكة وجوههم و أدبارهم عند النزع و الآخر عند البعث قبل الورود إلى جهنّم يوكّل بهم عنق من النار في الموقف . وبيان عذاب الدبيلة أنّه ﷺ أسرّ إلى حذيفة اثني عشر رجلاً من المنافقين و قال : ستّة يبتليهم الله بالدبيلة ، سراج من نار يأخذ أحدهم حتّى يخرج من صدره وستّة يموتون .

[ثمّ يردّون إلى عذاب عظيم] أي النار المؤبّدة المخلّدة .

قوله : [وآخرون اعترفوا] قيل : إنّهم قوم من المنافقين تابوا عن النفاق . و قيل قوم من المسلمين تكاسلوا وتخلّفوا عن غزوة تبوك ثمّ ندموا على ما فعلوا وتابوا . روي أنّهم كانوا عشرة ، فسبعة منهم ندموا على قعودهم وتخلّفهم عن الجهاد في غزوة تبوك لمّا بلغهم ما نزل في المتخلّفين فأيقنوا على أنفسهم بالعذاب فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد فقدم رسول الله فدخل المسجد وصلّى ركعتين .

وهذه كانت عادته لمّا يقدم عن سفر فرآهم موثوقين سأل عنهم فذكر له ﷺ أنّهم أقسموا أن لا يحلّوا أنفسهم حتّى يحلّهم رسول الله فقال ﷺ : وأنا أُقسم أنّي لا أُحلّهم حتّى أُومر فيهم فنزلت الآية ، فأطلقهم ﷺ بعد الآية فقالوا بعدما انتحلوا : هذه أموالنا و إنّما تخلّفنا عنك بسببها فخذها و تصدّق بها و طهّرنا فقال : ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزل « خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم ، إلخ » .

وبالجملة [وآخرون اعترفوا] المراد بهم من الأعراب و أهل المدينة و ليس المراد منهم المنافقين أقرّوا [بذنوبهم] و يخلطون و يفعلون أفعالاً حسنة و أفعالاً قبيحة . وأتى بكلمة «عسى» حتّى يكونوا بين إشفاق و طمع فيكون ذلك أبعد من الاتّكال على العفوو إهمال التوبة .

و في هذا دلالة على بطلان القول بالإحباط بأنّه لوصحّ الإحباط لكان أحد العملين إذا طرأ على الآخر أحبطه وأبطله فلم يجتمعا فلا يكون لقوله : « خلطوا» معنى . قال بعض التابعين : ما في القرآن آية أرجى لهذه الاُمّة من هذه الآية .(١)

قوله : [إنّ الله غفوررحيم] هذا تعليل لقبول التوبة من العصاة أي لأنّه غفوررحيم . وعن أبي جعفر عليه السلام أنّ هذه الآية نزلت في حقّ أبي لبابة الّذي شدّ نفسه بسارية المسجد لقضيّة بني قريظة وقد ذكر سابقاً .

خذ من اموالهم صدقة تطهرهم و تزكيهم بها و صل عليهم ان صلوتك سكن لهم والله سميع عليم(١٠٣) .

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه و أمره بأخذ الصدقة قيل : المراد بأخذ الصدقة من هؤلاء التائبين تشديداً للتكليف ، و ليست الصدقة المفروضة الّتي تسمّى بالزكاة و قد أخذ ثلث مال هؤلاء التائبين و ترك ثلثي الباقي لهم حيث إنّهم بذلوا جميع مالهم كفّارة أوّلاً .

و قال جماعة من المفسّرين : المراد من الصدقة في هذه الآية هي الزكاة المفروضة وهو الأصحّ ؛ لأنّ حمله على الخصوص بغير دليل لاوجه له فعلى هذا القول أمر سبحانه نبيّه أن يأخذ من المالكين النصاب الزكاة فمن الورق مثلاً إذا بلغ مائتي درهم ربع العشر ومن الذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً ومن الغنم إذا بلغت أربعين رأساً ومن الإبل إذا بلغت خمس نفر ومن البقر إذا بلغ ثلاثين رأساً و من الغلاّت و الثمار إذا بلغت خمسة أوسق ، تطهّرهم تلك الزكاة عن دنس الذنوب و تزكّيهم .

و ههنا قيل ضمير الخطاب أي أنت تزكّيهم بأخذك منهم هذا المال . و قيل : معنى الخطاب في كلا الضميرين في الفعلين أي أنت تطهّرهم و تزكّيهم أي تدعو لهم بما يصيرون أزكيا مطهّرين .

و قوله : [صلّ عليهم] هذا أمر للنبيّ أن يدعو لمن أخذ منه الزكاة كقوله : بارك الله لك . و روي أنّه صلى الله عليه وآله كان إذا أتاهم قوم بصدقتهم دعا لهم كما قال : اللهمّ صلّ على آل أبي أوفى ؛ حين أتوه بصدقة .

---

(١) و اما عندالائمة عليهم السلام فارجى آية فى القرآن هو قوله تعالى خطاباً لنبيه : «ولسوف يعطيك ربك فترضى» كما ورد عنهم عليهم السلام .

[إنّ صلاتك] أي دعواتك رحمة و اطمينان لنفوسهم بأنّ الله قدقبل منهم [والله سميع] بدعائك و [عليم] بنيّاتهم .

قوله : الم يعلموا ان الله يقبل التوبة عن عباده و ياخذ الصدقات و ان الله هو التواب الرحيم(١٠٤) .

لمّا حكى عن القوم الّذين تقدّم ذكرهم أنّهم تابوا عن ذنوبهم و تصدّقوا و لم يذكر إلّا قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » وما صرّح سبحانه بقبول التوبة رغّب جميع العصاة ومن لم يتب بالتوبة والطاعة وبشّر هؤلاء بقبول توبتهم . وقوله : « ألم يعلموا» وإن كان بصيغة الاستفهام إلّا أنّ معناه التقرير والأمر .

و«الإله»هو الّذي يمتنع تطرّق الزيادة و النقصان إليه و يمتنع أن يزداد و يتغيّر حاله بطاعة المطيعين و أن ينتقص حاله بمعصية المذنبين ، و يمتنع أيضاً أن يكون له شهوة إلى الطاعة و نفرة عن المعصية حتّى يقال : إنّ نفرته وغضبه يحمله على الانتقام ، و شهوته و ميله يحمله على الإنعام . والمذنب لايضرّ إلّا نفسه والمطيع لاينفع إلّا نفسه كما قال : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتم فلها »[١] .

و قبول التوبة وردّها راجع إلى الله وليس إلى غيره هذا الأمر و قالت المعتزلة : قبول التوبة واجب عقلاً على الله . وقالت الأشاعرة : قبول التوبة واجب بحكم الوعد والتفضّل والإحسان ، وأمّا عقلاً فلا .

و قوله : [و يأخذ الصدقات] أي هو عزّ شأنه أخذ الصدقات وهذا تشريف عظيم لهذه الطاعة ، وأضاف الأخذ إلى نفسه كما أضاف التوفّي إلى نفسه بقوله : « و هو الّذي يتوفّاكم[٢] » في الحديث : إنّ الله يقبل الصدقة ولا يقبل منها إلّا الطيّب و إنّه يقبلها بيمينه و يربيها لصاحبه كما يربّي أحدكم مهره وفصيله ، حتّى أنّ اللقمة تكون عند الله أعظم من أُحد وقال ﷺ : و الّذي نفس محمّد بيده مامن عبد مسلم يتصدّق بصدقة فتصل إلى الّذي يتصدّق بها عليه حتّى تقع في كفّ الله ويمين الله ، و كفّه لايوصف ، ليس كمثله شيء .

---

(١) الاسراء : ٧ .

(٢) الانعام : ٦٠

قوله : وقل اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون(١٠٥) .

هذه الآية ترغيب عظيم للمطيعين وترهيب عظيم للعاصين أي اجتهدوا في أعمالكم فإنّ عملكم له حكم في الدنيا وفي الآخرة حكم أمّا في الدنيا فإنّه يراه الله ويعلمه الرسول ويراه المؤمنون فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم و إن كان معصية حصل منه الذمّ في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة .

فلو قيل : إنّه في قوله : « فسيرى الله عملكم و رسوله و المؤمنون » أنّ عملهم لا يراه كلّ أحد .

و الجواب أنّه يصل خبر عملهم غالباً إلى الناس ؛ قال صلى الله عليه وآله : لو أنّ رجلاً عمل عملاً في صخرة لا باب لها ولا كوّة يخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان . ولو أنّ العطف يقتضي التشريك لكنّ التسوية في كلّ مراتب الرؤية فغير لازم ، ومعلوم أنّ رؤية الله غير رؤية الرسول و رؤية الرسول غير رؤية المؤمنين . و «الرؤية» إذا عدّيتها إلى مفعول واحد بمعنى الإبصار و إذا عدّيتها إلى مفعولين فمعناه العلم .

فإن قيل : ما الفائدة في رؤية المؤمنين أو علمهم ؟

الفائدة أنّ المؤمنين شهداء الله يوم القيامة كما قال سبحانه : « و كذلك جعلناكم أُمة وسطاً [١] » و الرسول كذلك شهيد الأُمّة كما قال : « فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيداً [٢] » و الشهادة لا تصحّ إلّا بعد الرؤية و يشهدون يوم القيامة عند حضور الأوّلين والآخرين بأنّكم أهل السداد والرشاد [فينبّئكم] و يجازيكم بما أسررتم و أعلنتم وما عملتم من خير و شرّ .

فحينئذ إذا حملت معنى الرؤية على الإبصار فيكون قوله : « وستردّون إلى عالم الغيب » معناه أنّ ما يرى منكم يتبيّن نفعه و ضرره بعد الردّ إلى عالم الغيب ، و إذا حملت على العلم فيكون جملة « و ستردّون إلى عالم الغيب » جارياً في مجرى التفسير لقوله : « فسيرى الله عملكم » .

---

(١) الاولى أن يذكر بعده وهو : « لتكونوا شهداء على الناس » . البقرة : ١٣٧ .
(٢) النساء : ٤٥ .

و في هذه الآية دلالة صريحة بأنّ الله عالم بالجزئيّات .

قوله : وآخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم و اما يتوب عليهم والله عليم حكيم (١٠٦) .

قرىء « مرجون » بالهمزة و بغير الهمزة .

اعلم أنّ الله قسّم المتخلّفين عن الجهاد ثلاثة أقسام : أوّلهم المنافقون الّذين مردوا على النفاق وبقوا على نفاقهم . والثاني : التائبون وهم المرادون بقوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » و بيّن تعالى قبول توبتهم . والقسم الثالث : الّذين بقوا موقوفين ، وهم المذكورون في هذه الآية . والفرق بين القسم الثاني والثالث أنّ الثاني سارعوا إلى التوبة ، و الثالث لم يسارعوا إليها .

نزلت هذه الآية في ثلاثة : كعب بن مالك و مرارة بن الربيع و هلال بن اُميّة وكانوا متخلّفين عن الجهاد . قال كعب : أنا أفره أهل المدينة جملاً فمتى شئت لحقت الرسول ؛ فتأخّر أيّاماً وأيس بعدها من اللحوق به ﷺ ، فندم على صنيعه و كذلك صاحباه .

فلمّا قدم رسول الله ﷺ قيل لكعب : اعتذر إليه من صنيعتك . فقال : لا والله حتّى تنزل توبتي . و أمّا صاحباه فقد اعتذرا إليه ﷺ فقال ﷺ : ما خلّفكما عنّي ؟ فقالا : لا عذر لنا إلّا الخطيئة ، فنزلت « وآخرون اعترفوا ، إلخ » فوقفهم رسول الله بعد نزول الآية و نهى الناس عن مجالستهم و أمرهم باعتزال نسائهم وأرسلهنّ إلى أهلهنّ ؛ فجاءت امرأة هلال تسأل أن تأتيه بطعام فإنّه شيخ كبير فأذن ﷺ لها في ذلك خاصّة .

و جاء رسول من الشام إلى الكعب يرغّبه في اللحوق بهم فقال كعب : بلغ من خطيئتي أن طمع فيّ المشركون ! قال : فضاقت عليّ الأرض بما رحبت و بكى هلال بن اُميّة حتّى خيف على بصره .

فلمّا مضى خمسون ليلة نزلت توبتهم بقوله : « لقد تاب الله » وبقوله : « وعلى الثلاثة الّذين خلّفوا حتّى إذا ضاقت عليهم الأرض ، إلخ » . وقوله : [إمّا يعذّبهم و إمّا يتوب] و كلمة « إمّا » للشكّ والله منزّه عنه والمراد منه : ليكن أمرهم على الخوف والرجاء ؛ فجعل اُناس يقولون : هلكوا ، وآخرون يقولون : عسى الله أن يغفر لهم . وفي هذه الآية دلالة على

أنّ قبول التوبة على الله ليس بواجب بل هو تفضّل إن شاء قبل وإن لم يشأ لم يقبل ؛ لأنّه لو كان قبولها عليه واجباً لما علّقه بالمشيئة وماجاز تعليقه بها .

قوله : والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون (١٠٧) .

النزول قال ابن عبّاس وعامّة أهل التفسير : إنّ بني عمرو بن عوف اتّخذوا مسجد قبا و بعثوا إلى رسول الله أن يأتيهم فأتاهم وصلّى فيه فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف فقالوا : نبني مسجداً نصلّي فيه ولا نحضر جماعة محمّد صلى الله عليه وآله وكانوا خمسة عشر رجلاً منهم ثعلبة بن خاطب ومعتب بن قشير فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا فلمّا فرغوا منه أتوا رسول الله وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله قد بنينا مسجداً لذوي العلّة و الحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية [١] وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي فيه لنا وتدعو بالبركة فقال صلى الله عليه وآله : إنّي على جناح سفر فلو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلّينا لكم فيه فلمّا انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك نزلت الآية في شأن المسجد فبيّن أنّ جماعة من المنافقين بنوا مسجداً للتفريق بين المسلمين و طلب الغوائل للمؤمنين . والمسجد في الأصل موضع السجود وفي العرف اسم لبقعة مخصوصة بنيت للصلاة فالاسم عرفيّ فيه علاقة معنى اللغة .

[ضراراً] أي مضارّة ، أي بنوا هذا المسجد للضرر بأهل مسجد قبا أو مسجد الرسول ليقلّ الجمع فيهما .

[و كفراً] ولإقامة الكفر فيه وليكفروا فيه بالطعن على الرسول والإسلام [وتفريقاً بين المؤمنين] لاختلاف الكلمة وإبطال الاُلفة عن رسول الله في الناس [وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله] أي اتّخذوا ذلك المسجد رصداً لهذه الاُمور .

و أعدّوا هذا المسجد لأبي عامر الراهب وهو الّذي ترهّب في الجاهليّة ولبس المسوح [٢] فلمّا قدم النبيّ صلى الله عليه وآله المدينة حين الهجرة حسده وحزّب عليه الأحزاب و

---

(١) اى الليلة الباردة فى الشتاء .
(٢) جمع المسح : البلاس ، ينسج من الشعر ويلبس قهراً للجسد .

حارب الله ورسوله ثمّ هرب بعد فتح المكّة إلى الطائف فلمّا أسلم أهل الطائف لحق بالشام وخرج إلى الروم وتنصّر وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة الّذي قتل يوم أُحد وكان جنباً فغسلته الملائكة ، وسمّى رسول الله أبا عامر الفاسق وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدّوا وابنوا مسجداً فإنّي أذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود وأُخرج محمّداً من المدينة فكان هؤلاء المنافقون يتوقّعون مجيء أبي عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم .

[وليحلفنّ إن أردنا إلّا الحسنى] أي هؤلاء يحلفون كاذبين ما أردنا ببناء هذا المسجد إلّا الفعلة الحسنى من التوسعة للمسلمين و الترفّه للمؤمنين والمرضى فأخبر الله نبيّه على فساد طويّتهم وخبث سريرتهم [و الله يشهد] بكذبهم فوجّه النبيّ عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلانيّ ومالك بن الدخشم فقال لهما : انطلقا إلى هذ المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه . وروي أنّه بعث عمّار بن ياسر ووحشيّاً فحرّقاه ، وأمر بأن يتّخذ كناسة يلقى فيها الجيف .

لا تقم فيه ابداً لمسجد اسس على التقوى من اول يوم احق ان تقوم فيه فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين (١٠٨) .

ثم نهى الله أن يقوم في هذ المسجد فقال : [لا تقم فيه أبداً] أي لا تصلّ فيه أبداً ؛ يقال : فلان يقوم بالليل أي يصلّي بالليل ثمّ أقسم فقال : [لمسجد] أي والله لمسجد [اُسّس على التقوى] وبني أصله على تقوى الله وطاعته [من أوّل يوم] أي منذ أوّل يوم وضع أساسه أولى أن تصلّي فيه .

واختلف في هذا المسجد فقيل هو مسجد قبا ، عن ابن عبّاس وجماعة . وقيل : هو مسجد رسول الله ، عن زيد بن ثابت وجماعة . وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : هو مسجدي أو كلّ مسجد بني لوجه الله .

ثمّ وصف المسجد فقال : [فيه] أي في هذا المسجد [رجال يحبّون أن] يصلّون لله تعالى متطهّرين بأبلغ الطهارة أو [يتطهّروا] من الذنوب وقيل : يحبّون أن يتطهّروا بالماء عن الغائط والبول . وروي عن النبي أنّه سأل أهل قبا : ماذا تفعلون في طهركم فإنّ الله قد أثنى عليكم ؟ قالوا : نغتسل أثر الغائط .

قال الزمخشري: لمّا نزلت هذه الآية مشى رسول الله ومعه المهاجرون حتّى وقف على باب مسجد قبا فإذاً الأنصار جلوس فقال ﷺ : أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثمّ أعادها فقال أحد من الصحابة : إنّهم لمؤمنون يا رسول الله . فقال ﷺ : أترضون بالقضاء ؟ قالوا : نعم . قال : أتصبرون على البلاء ؟ قالوا : نعم . قال : أتشكرون في الرخاء ؟ قالوا : نعم قال ﷺ : مؤمنون و ربّ الكعبة . ثمّ قال : يامعشر الأنصار إنّ الله أثنى عليكم فما الّذي تصنعون في الوضوء ؟ قالوا : نتبع الماء الحجر فقرأ النبيّ ﷺ : « فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا ، الخ » .

وفي هذه الآية أي قوله : « و لاتقم فيه » نكتة دقيقة فتأمّل فيها يزيدك آية وهي أنّه إذا لم يكن يجوز أن يصلّي في مسجد ماكان أساسه بني على التقوى ، و كون الصلاة في مسجد بني أساسه على التقوى أولى وأحقّ بالصلاة فيه ؛ وثبت أنّ عليّاً عليه السلام ما كفر بالله طرفة عين فوجب أن يكون هو الأولى بالقيام بالإمامة ممّن كفر بالله في أوّل مرّة ؛ لأنّ أمر الإمامة والخلافة الكلّيّة أهمّ من الصلاة حتماً وإنّ الصلاة تقوم وتبقى بالإمامة وبمن نصبه النبيّ ﷺ علماً للدين .

وبالجملة « لمسجد أُسّس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن ، الخ » فإن قيل : لم قال : « أحقّ أن تقوم فيه » مع أنّه لايجوز قيامه في الأخير ؟ قلنا : المعنى : أنّه لو كان ذلك جائزاً لكان هذا أحقّ أن يقوم فيه فكيف بأنّه لايجوز فبطريق الأولى عدم الجواز .

قوله تعالى : افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرام من اسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نارجهنم والله لايهدى القوم الظالمين (١٠٩) لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم الأأن تقطع قلوبهم و الله عليم حكيم (١١٠) .

اعلم أنّه أرجح سبحانه مسجدهم على مسجد ضرار بأمرين : أحدهما أنّه بني على التقوى ، والثاني بأهلها ؛ فإنّ أهلها رجال متطهّرون . والمراد بهذه الطهارة طهارة عن القذارة و النجاسات الظاهريّة و قد سبق بيانه و طهارة عن الكفر لأنّ الله وصف أهل مسجد الضرار بمضارّة المؤمنين وتفريق بين المؤمنين والكفر ، فوجب كون هؤلاء - أهل مسجد

قبا - بالضدّ في صفاتهم ، وماذاك إلّا كونهم مبرّئين عن هذه الصفات فقال سبحانه :

[أفمن أسّس بنيانه] والبنيان مصدر كالغفران والمراد به المبنيّ وإطلاق لفظ المصدر على المفعول مجاز مشهور ، تقول هذا نسج زيد أي منسوجه ، أي من أسّس بناءً على تقوى من الله أي للخوف من عقاب الله ورغبة في ثواب الله أكمل و أفضل أم من بنى بناءً لداعية الكفر والإضرار بعباد الله ؟

و «الشفا جرف » الشيء وطرفه ، و «الجرف » بسكون الراء وضمّه هو ما إذا سال السيل و الجرف الوادي و يبقى على طرف السيل طين واه مشرف على السقوط يهور إذا انصدع واندفع من خلفه وهو ثابت بعد في مكانه ؛ يقال : فيه جرف هار هائر فإذا سقط فقد انهار وتهوّر .

إذا عرفت هذه الألفاظ فالمعنى أنّ الّذي بنى بنيان دينه على قاعدة قويّة محكمة وهي تقوى الله ورضوانه ليس كمن بناه وأسّسه على أضعف القواعد وأقلّها بقاءً وهو الباطل والنفاق الّذي مثله مثل الجرف الهائر على طرف جهنّم ومشرف على السقوط فيها إذا انهار؛ فإنّه متى يسقط فإنّما ينهار في جهنّم ؛ بناء الأول واجب الإبقاء وبناء الثاني واجب الهدم .

وبالجملة لمّا أمر الرسول بتخريب مسجدهم ظنّوا أنّه إنّما أمر بتخريبه لأجل الحسد فارتفع أمانهم عنه وعظم خوفهم منه ﷺ في كلّ الأوقات وصاروا مرتابين في أنّه هل يتركهم على ماهم عليه أم يأمر بقتلهم ؟

قوله تعالى : [لايزال بنيانهم] أي لايزال هدم بنيانهم خوفاً وغيظاً أثبت في قلوبهم ولا ينفكّ عنهم [إلّا أن تقطّع] قرىء معلوماً بحذف التاء وقرىء مجهولاً أي هذا الحزن و الغيظ باق إلّا أن تقطّع قلوبهم وتتفرّق أجزاءً أجزاءً فحينئذ يسلمون عنها ، وإلّا فما دامت قلوبهم سالمة هذا الريب والحزن باق . و يجوز أن يكون المراد بالتقطّع على سبيل الحقيقة أي عند قتلهم أو في القبور أو في العذاب من النار يفنى هذا الغيظ . وقرىء على صيغة الخطاب يعني أنت يا محمّد - ﷺ - تقطّع قلوبهم بالسيف والقتل . وقيل : المراد من الريب الشكّ في أنّ الله هل يغفر تلك المعصية الّتي هي بناء هذا المسجد أم لا ؟ وقيل : معناه : إلّا أن يتوبوا توبة تنقطع لها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم .

قوله : ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التورية و الانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (١١١) .

قال المفسّرون : لمّا بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكّة وهم سبعون نفساً قال عبدالله بن رواحة: اشترط لنفسك يا رسول الله ولربّك ماشئت فقال ﷺ : أشترط لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً و لنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم و أموالكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا ؟ قال : الجنّة. قالوا : ربح البيع لانقيل ولانستقيل؛ فنزلت الآية .

قال أهل المعاني : لايجوز أن يشتري الله شيئاً في الحقيقة ؛ لأنّ المشتري إنّما يشتري مالايملك ، و كيف يشتري أنفساً هو خلقها ، و أموالاً هو أوجدها و رزقها ؟

لكنّ هذا البيان لحسن التلطّف في الترغيب إلى الطاعة ، وبيّن سبحانه أنّ المؤمن متى قاتل في سبيل الله حتّى يقتل فيذهب روحه ، و ينفق مالاً في سبيله أخذ من الله الأجر الجنّة جزاءً لمافعل ؛ فجعل هذا الأمر استبدالاً وشراءً .

و هذا معنى [اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة] أي بالجنّة و هذه والله بيعة رابحة و كفّة راجحة بايع الله فيها كلّ مؤمن وما على الأرض مؤمن إلّا و دخل في هذه البيعة ؛ قال الصادق عليه السلام : ليس لأبدانكم ثمن إلّا الجنّة فلاتبيعوها إلّا بها وقوله : « وأموالهم » يريد الّتي ينفقونها في سبيل الله وعلى طاعة الله في المثوبات . والمشتري لابدّ له من بايع و ههنا بحسب الواقع البايع والمشتري هو الله ، و بحسب الظاهر المشتري هو الله والبايع الّذين بذلوا أنفسهم و أموالهم في مرضات الله بالجهاد .

و أضاف سبحانه الأنفس والأموال إليهم ؛ لأنّ الإنسان عبارة عن الجوهر الأصليّ الباقي و هذا البدن يجري مجرى الآلة و الأدوات والمركب ، و كذلك المال خلق وسيلة لرعاية مصالح هذا المركب ؛ فالله سبحانه اشترى من الإنسان هذا المركب و هذا المال بالجنّة ؛ لأنّ ذلك الإنسان الّذي عبّرنا عنه بالجوهر الأصليّ مادام يبقى متعلّق الإرادة والقلب بمصالح عالم الجسم المتغيّر المتبدّل وهو البدن والمال امتنع وصوله إلى السعادات

العالية والدرجات الشريفة لاشتغاله بهذين فإذا انقطع التفاته منهما و بلغ ذلك الانقطاع بحيث أن عرض البدن للقتل والفناء والمال عرضه للإنفاق في طلب رضوان الله فقد بلغ أعلى درجة الهدى وفاز بالقدح المعلّى.

قوله : [فيقتلون] المشركين و يقتلهم المشركون فالجنّة جزاؤهم عن جهادهم سواءٌ قتلوا أوقتلوا.

قوله : [وعداً عليه حقّاً] أي إنّما يستحقّ الثمن بتسليم المبيع و إيجاب الجنّة لهم وعداً على الله حقّاً لاشكّ فيه . و « وعداً » مصدر منصوب أي وعدهم الله الجنّة وعداً صدقاً لاخلف فيه . وبقيّة الآية تاكيدات كلّها بعضها تلو بعض.

قوله : [في التوراة والإنجيل] أي هذا الوعد وعد ثابت قد أثبته الله في التوراة و الإنجيل ، و قيل : المراد أنّ الله تعالى بيّن في التوراة والإنجيل أنّه اشترى من أُمّة محمد صلى الله عليه وآله أنفسهم و أخبر موسى و عيسى بهذه المبايعة من أُمّة محمد صلى الله عليه وآله . وقيل : معناه أنّ الأمر بجهاد الكفّار هو موجود في جميع الشرائع.

ثمّ أكّد هذا الوعد وصدّقه بقوله : [ومن أوفى بعهده من الله] أي إنّ نقض العهد كذب وخدعة وهو من القبائح في حقّ الإنسان المحتاج فكيف بالغنيّ بالذات ؟ فهو أولى بإيفائه أي لا أحد أوفى من الله ثمّ أكّد بقوله : [فاستبشروا ببيعكم] أي ابشروا بهذا الربح الّذي هو من عظيم الفوز.

قوله : التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر و الحافظون لحدود الله و بشر المؤمنين(١١٢) .

اعلم أنّه لمّا اشترى من المؤمنين أموالهم و أنفسهم بالجنّة بيّن في هذه الآية أنّ أُولئك المؤمنين موصوفون بهذه الصفات التسعة أي هم التائبون.

قال الزجّاج : لا يبعد أن يكون « التائبون » مبتدءاً وخبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنّة و إن لم يجاهدوا لقوله : « و كلاًّ وعدالله الحسنى» (١) فحينئذ

(١) النساء : ٩٧ .

يكون الوعد حاصلاً لجميع المؤمنين . و يمكن أن يكون « التائبون » مبتدءاً و قوله «العابدون ، الخ » خبراً بعد خبر أي التائبون من الكفر هم الجامعون لهذه الخصال .

و بالجملة الصفات التسع :

فالصفة الأولى : [التائبون] قال ابن عبّاس : المراد التائبون من الكفر و الشرك والنفاق . وقال الأصوليّون : التائبون عن كلّ معصية . و هذا أولى ؛ لأنّ التوبة أعمّ قد تكون من الكفر وقد تكون من المعصية ، و « التائبون » صيغة عموم محلّاة بالألف و اللّام فيتناول الكلّ ؛ فالتخصيص بالتوبة عن الكفر تحكّم .

و حقيقة التوبة إنّما يحصل عند حصول أمور أربعة : أوّلها : احتراق القلب في الحال على صدور تلك المعصية عنه . وثانيها : ندمه على مامضى . وثالثها : عزمه على الترك في المستقبل . ورابعها أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة طلب رضوان الله و عبوديّته ، فإن كان غرضه منها دفع مذمّة الناس أوسائر الأغراض فهو ليس من التائبين .

والصفة الثانية : ثمّ قال : [العابدون] و العبادة عبارة عن إتيان فعل مشعر يدلّ على تعظيم الله حسبما قرّره الشارع . قال قتادة و الحسن : هم قوم عبدوا الله في السرّاء و الضرّاء و أخذوا من أبدانهم في ليلهم و نهارهم .

و الصفة الثالثة قوله : [الحامدون] وهم الّذين يقومون بحقّ شكر الله على نعمه ديناً و دنياً و يجعلون إظهار ذلك عادة لهم و اشتغالهم بالتسبيح و التهليل والتحميد و هذه الصفة كانت صفة الملائكة قبل أن يخلق الله الدنيا لأنّه تعالى أخبر عنهم بقوله : « و نحن نسبّح بحمدك (١)» .

والصفة الرابعة : [السائحون] وفيه أقوال : قال عامّة المفسّرين : هم الصائمون . قال ابن عبّاس : كلّ ماذكر في القرآن من السياحة فهو الصيام ، قال النبيّ ﷺ : سياحة أمّتي الصيام . و قيل : هم الّذين يديمون الصيام . والمناسبة في المعنى أنّ السائح لمّا كان يسيح في الأرض متعبّداً لازاد معه كان ممسكاً عن الأكل ، و الصائم يمسك عن الأكل فلهذه المشابهة سمّي الصائم سائحاً . ثمّ إنّ الإنسان إذا امتنع من الأكل والشرب وأمثاله

(١) البقرة : ٢٨ .

و سدّ على نفسه أبواب الشهوات انفتحت عليه أبواب الحكمة و تجلّت له أنوار الجلال فيصير من السائحين في عالم جلال الله و كماله ، ومن المنتقلين من درجة إلى درجة ومن مقام إلى مقام فيحصل له سياحة في عالم الروحانيّات .

والقول الآخر في السائحين قال عكرمة و وهب بن منبّه : المراد طلاّب علم الشريعة ينتقلون من بلد إلى بلد في طلب العلم . وللسياحة أثر عظيم في تكميل النفس بشرط أن تكون السياحة لاستفادة العلم و تحصيل معرفة الله و شواهد الربوبيّة لا لتفرّج شواهد الكفر كما هو معمول عندنا كأسفار الفرنج وإنّما هي التعرّب بعد الهجرة وهو من الكبائر.

و كانت السياحة في بني إسرائيل أنّ الرجل منهم إذا ساح أربعين سنة رأى ما كان يرى السائحون وقد يكون السائح يلقى في سياحته من الضرّاء والبأساء ويصبر عليها وقد ينقطع زاده فيحتاج إلى التوكّل على الله وقد يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد منهم فوائد مخصوصة و كذلك يرى الأكابر من الناس في الدين فيستحقر نفسه في مقابلتهم فيصل إلى مقامات عالية و تقوى معرفته .

الصفة الخامسة والسادسة : [الراكعون الساجدون] والمراد منه إقامة الصلاة وإنّما جعل الركوع والسجود كناية عن الصلاة ، لأنّ سائر أشكال الصلاة في المصلّي موافق للعادة كالقيام والقعود والّذي يخرج عن العادة في ذلك هو الركوع والسجود وبه يتبيّن الفضل و التميّز بين المصلّي و غيره .

الصفة السابعة و الثامنة : [الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر] و اعلم أنّ كتاب أحكام الأمر و النهي و تفصيله لا يسعه هذا المختصر و في هذا إشارة إلى وجوب الجهاد سيفاً أو عظة لأنّ رأس المعروف الإيمان بالله و رأس المنكر الكفر بالله ، والجهاد يوجب الترغيب في الإيمان والمنع والزجر عن الكفر والجهاد داخل في بابيه .

والواو في قوله : «والناهون» للتسوية ؛ فإنّ التسوية قد يجيء بالواو تارة و بغير الواو اُخرى ؛ قال تعالى : « غافر الذنب وقابل التوب »[١] وجاء بغير الواو مع معنى التسوية ؛ قال تعالى : « شديد العقاب ذي الطول »[٢] فجاء بعض بالواو وبعض بغير الواو ووجه آخر ذكروا

(١ - ٢) المؤمن : ٢ .

لإدخال الواو تنبيهاً على ما يحصل فيها لأهلها المشقّة و المحنة من دون سائر العبادات لظهور الخصومات وتحمّل المشقّات للمكلّف .

الصفة التاسعة : [و الحافظون لحدود الله] و المقصود أنّ فيه تكاليف كثيرة و هي محصورة في نوعين : أحدهما مايتعلّق بالعبادات و الثاني مايتعلّق بالمعاملات .

أمّا العبادات فهي لمصالح مرعيّة في الدين وهي الصلاة والزكاة والصوم والحجّ و الجهاد والإعتاق والنذر و أمثالها .

و أمّا المعاملات فهي إمّا لجلب المنافع أو لدفع المضارّ : أمّا القسم الراجع لجلب المنافع فهي المنافع الحاصلة من طرف الحواسّ الخمسة كالمذوقات و يدخل فيها كتاب الأطعمة والأشربة من الفقه ، ولمّا كان الطعام قد يكون نباتاً وقد يكون حيواناً ؛ فدخل فيه كتاب الصيد والذبائح والضحايا وما يحلّ أكله وما يحرم . و ثانيها الملموسات و يدخل فيها باب أحكام الوقاع و لوازم النكاح كالمهر والنفقات ، و أحوال القسم والنشوز والطلاق والخلع والإيلاء و الظهار واللعان و الأمور المتعلّقة بالملبوس و ما يجوز لبسه ولا يحلّ استعماله كأواني الفضّة والذهب . و ثالثها المبصرات و هي باب مايجوز النظر إليه وما لا يجوز وهي راجعة إلى المحارم وغير المحارم . و رابعها المسموعات و هو باب مايحلّ سماعه وما لايحلّ . و خامسها المشمومات و ليس للفقهاء فيها مجال .

و أمّا مايتعلّق بالمنافع للدنيا فهو المعاملات و هو البيع و أمثاله والبيع إمّا بيع الأعيان أو منفعة الأعيان فأمّا بيع الأعيان كبيع العين بالعين أو بيع الدين بالعين و هو السلم ، و أمّا بيع المنفعة فيدخل فيه الإجارة والجعالة والمضاربة أو الأسباب الموجبة للملك كالإرث و الهبة والوصيّة وإحياء الموات والالتقاط والفيء والغنائم وأخذ الزكوات وأمثال هذه الأمور فمثل هذه الأمور المذكورة ضبط أمور حدود الله و تكاليفه في باب جلب المنافع .

و أمّا تكاليف الله و حدوده في باب دفع المضارّ فأقسام المضارّة كثيرة ؛ إن حصلت في النفوس ففيها أقسام و أحكام منها القصاص أو الدية أو الكفّارة أو الأرش .

وأمّا المضارّ الحاصلة في الأموال كالغصب أو السرقة وأمثاله .

وأمّا المضارّ الحاصلة في الأديان فهي إمّا الكفر أو البدعة فله أحكام.

وأمّا المضارّ الحاصلة في الأنساب فيتّصل به تحريم الزناء واللواط والعقوبة عليهما، وحدّ القذف وأحكام اللعان.

ولمّا كان أنّ كلّ أحد لا يمكنه استيفاء حقوقه من المنافع و دفع المضارّ بنفسه لضعفه أو لعدم علم طريقه أو لوقوع الهرج والمرج إذا باشر بنفسه؛ فلهذا السبب نصب الله الإمام لتنفيذ الأحكام وللإمام نوّاب وقضات.

ولمّا لم يجز أن يكون قول الغير على الغير مقبولاً إلّا بالحجّة فقرّر سبحانه لإثبات الحقّ حجّة مخصوصة وهي الشهادة والبيّنة أو اليمين فهذا ضبط معاقد تكاليف الله وحدوده على وجه الإجمال فالمؤمن هو الّذي يحفظ لحدود الله فهذه الآية تتناول جملة هذه التكاليف المذكورة على سبيل الاختصار.

ولمّا ذكر سبحانه هذه الصفات التسعة قال: [وبشّر المؤمنين].

قوله تعالى: ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين و لو كانوا اولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم (١١٣) وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لاواه حليم (١١٤).

لمّا كان من أوّل السورة الأمر بالبراءة عن المشركين أمر سبحانه أنّه يجب البراءة عن أمواتهم أيضاً أي ليس للنبيّ والمؤمنين أن يطلبوا المغفرة للمشركين الّذين يعبدون مع الله إلهاً آخر ولا يوحّدونه في العبادة [ولو كانوا أُولي قربى] أي ولو كان الّذين يطلبون لهم المغفرة أقرب الناس إليهم من بعد أن يعلموا أنّهم كفّار مستحقّون للخلود في النار.

النزول: إنّ المسلمين قالوا للنبيّ ﷺ: أن نستغفر لآبائنا الّذين ماتوا في الكفر فنزلت فبيّن أنّه «ماكان». وإنّما عبّر سبحانه بقوله: «ماكان» أي ليس له حقّ أصلاً ولم يجعل الله في حكمه و دينه أن يستغفروا للمشركين و لو دعتهم رقّة القرابة إلى الاستغفار لهم.

ثمّ بيّن أنّ الوجه في استغفار إبراهيم لأبيه - سواءٌ كان أبوه لأُمّه أو عمّه على ما

رواه أصحابنا أو أبوه على قول العامـّة ـ أنّ استغفاره عن موعدة وعدها إيّاه أي استغفاره كان عن موعدة .

واختلف في أنّ الواعد هل هو إبراهيم أو أبوه ؟ قيل : إنّ الموعدة كانت من الأب وعد بها إبراهيم أنّه يؤمن إن استغفر له فاستغفر له لذلك .

و قيل : إنّ الموعدة كانت من إبراهيم قال لأبيه : إنّي أستغفرلك ما دمت حيّاً ، و كان يستغفر له مقيّداً بشرط الإيمان فلمّا أيس من إيمانه تبرّأ منه ، وهذا المعنى يوافق قراءة من قرأ « أباه » بالباء لا بالياء و يقوّيه قوله تعالى : « إلّا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ » .(١)

قوله : [إنّ إبراهيم لأوّاه] أي دعّاء كثير الدعاء و البكاء وقيل : « الأوّاه » بلغة الحبشة المؤمن . وقيل : معناه الموقن المستيقن . وقيل : معناه الرّاجع عن كلّ ما يكره الله . وقيل : أي المسبّح الكثير الذكر لله . و قيل : هو المتأوّه شفقاً و فرقاً المتضرّع و لزوماً للطاعة . وقيل : معناه الصبور على الأذى ، الصفوح عن الذنب . وقد بلغ من حلم إبراهيم أنّ رجلاً قد آذاه وشتمه فقال له : هداك الله .

ولمّا أمر الله النبيّ و المؤمنين بالبراءة عن المشركين و نهاهم من الموالات لهم والقيام باُمورهم وعلى قبورهم والصّلاة على موتاهم فمنعهم في هذه الآية الاستغفار والدعاء لموتاهم كناية عن البراءة عن حيّهم وميّتهم سواء كانوا اُولي قربى أو غير اُولي القربى أي رحم ماسّة أو غير رحم ماسّة ؛ فبيّن عذر استغفار إبراهيم لأبيه وبيّن أنّ إبراهيم مع أنّه كان حليماً و رؤوفاً و كونه على هذه الصفة يقتضي أن يكون على خلاص أقربائه أحرص ومع ذلك تبرّأ منه حيث يئس من فلاحه .

قوله : وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هديهم حتى يبين لهم ما يتقون ان الله بكل شيء عليم (١١٥) ان الله له ملك السموات والارض يحيي و يميت و مالكم من دون الله من ولي ولا نصير (١١٦).

النزول : قيل : مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن ينزّل الفرائض فقال

(١) الممتحنة : ٤ .

المسلمون : يارسول الله إخواننا الّذين ماتوا قبل الفرائض كيف حالهم ؟ فنزلت . وقيل : لمّا نسخ بعض الشرائع وقد غاب أناس وهم يعلمون بالأمر الأوّل ويعملون به إذلم يعلموا بالأمر الثاني مثل تحويل القبلة وغيره وقد ماتوا على الحكم الأوّل ؛ فسئل النبيّ عن ذلك فنزلت وبيّن أنّه لايعذّب هؤلاء على التوجّه إلى القبلة الاُولى أوعدم العمل بماشرّع بعد النسخ ولايضلّهم عن الثواب والكرامة بعد إذدعاهم إلى الايمان حتّى يسمعوا النسخ والحكم فيما لم يسمعوا فإذا سمعوا وعلموا بالحكم والناسخ فحينئذ إذا لم يعملوا يعذّبهم الله . و حاصل الأمر أنّ الله لا يؤاخذ بعمل إلّا بعد أن يبيّن لهم أنّه يجب عليهم أن يتّقوه .

ومعنى قوله : [ليضلّ قوماً] أي ليصرفه عن طريق الصلاح والجنّة . ولا يحكم عليهم بالضلال إلّا بعد البيان منه تعالى وعدم القبول عنهم فحينئذ يحكم عليهم بالضلال إنّه عالم بجميع المعلومات .

قوله : [له ما في السماوات] لمّا أمر بالبراءة عن المشركين حيّهم وميّتهم بيّن في هذه الآية أنّ له مافي السماوات والأرض وهوغنيّ عن كلّ شيء وقادر على كلّ شي ، فإذا كان كذلك وهو معكم وناصركم فالكفّار لايقدرون على إضراركم إذا تبرّأتم منهم ولو كان الكفّار آباءكم وأقاربكم ؛ فإنّ المالك للسماوات والأرض والمحيي والمميت لكم يعاونكم إن صرتم محرومين عن معاونتهم ، ولكون الله إلهكم ولكونكم عبيده وجب عليكم أن تنقادون لحكمه وتكليفه وتعرضون عن الكفّار .

قوله : لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم (١١٧) .

أقسم الله تعالى بأنّه قبل توبتهم وإنّما ذكر النبيّ مفتاحاً للكلام ؛ لأنّه سبب توبتهم وإلّا فلم يكن منه صلى الله عليه وآله مايوجب التوبة . روي أنّ عليّ بن موسى الرضا قرأ : لقد تاب الله بالنبيّ على المهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في الخروج معه إلى تبوك .

[في ساعة العسرة] والمراد من «الساعة» الوقت وهي صعوبة الأمر حتّى همّ قوم بالرجوع ثمّ تداركهم لطف الله . وحصلت عسرة الظهر وعسرة الماء و عسرة الزاد و عسرة الحرّ ، وكان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبون بينهم ويتناوبونه في الركوب.

وأمّا عسرة الزاد فربّما مصّ التمرة الواحدة جماعة حتّى لايبقى من التمرة إلّا النواة و كان معهم من شعير مسوس فكان أحدهم إذا وضع اللقمة في فيه أخذ أنفه من نتن اللقمة .

و أمّا عسرة الماء : قال عمر : خرجنا في قيظ شديد و أصابنا فيه عطش شديد حتّى أنّ الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه . والمراد من العسرة هذه الأمور . وبلغ الجهد بهم كادت قلوب بعضهم تزيغ وتضلّ وتميل . ومعنى الزيغ ميل القلب عن الحقّ .

ولمّا اشتدّ الأمر عليهم وقعت الوساوس في قلوب بعضهم وكادوا لايثبتون على اتّباع الرسول في الغزوة . و «كاد» عند بعضهم يفيد المقاربة فقط وعند آخرين يفيد المقاربة مع عدم الوقوع . ويمكن هذه التوبة توبة عن تلك المقاربة .

قيل : كان عبدالله بن خيثمة تخلّف عن تبوك إلى أن مضى رسول الله من مسيره عشرة أيّام ثمّ دخل يوماً على امرأتين له في يوم حارّ في عريشين لهما وقد رتّبتاهما وبرّدتا الماء وهيّأتا له الطّعام فقام على العريشين وقال : سبحان الله رسول الله ﷺ قد غفر الله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر في الضحّ والريح والحرّ والقرّ(١) يحمل سلاحه على عاتقه وأبو خيثمة في ظلال بارد وطعام مهيّأ وامرأتين حسناوين ؟ ما هذا بالنصف ! ثمّ قال : والله لاأكلّم واحدة منكما كلمة ولا أدخل عريشاً حتّى ألحق بالنبيّ ﷺ فأناخ بعيره واشتدّ عليه وارتحل و امرأتاه تكلّمانه ولا يكلّمهما ثمّ سار حتّى إذا دنى من تبوك قال الناس هذا راكب على الطريق . فقال النبيّ : كن أبا خيثمة . فلمّا دنا قال النّاس : هذا أبو خيثمة فأناخ راحلته وسلّم على رسول الله فقال ﷺ : أولى لك ، فحدّثه الحديث فقال له خيراً ودعا له ، وهو الّذي زاغ قلبه للإقامة أوّلاً ثمّ ثبّته الله وقبل توبته .

قوله : وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم (١١٨).

و قرىء خالفوا .

النزول : نزلت في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن اُميّة ، و ذلك

---

(١) الضح : الشمس و ضوؤها . و القر شدة البرد .

أنّهم تخلّفوا عن رسول الله ولم يخرجوا معه لا عن نفاق ولكن عن توان ثمّ ندموا فلمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة جاؤوا إليه يعتذرون إليه فلم يكلّمهم النبيّ ﷺ وتقدّم إلى المسلمين بأن لا يكلّموهم بهجرهم الناس حتّى الصبيان ، وجاءت نساؤهم إلى رسول الله ﷺ فقلن : يا رسول الله نعتزلهم فقال : لا ولكن لا يقربو كنّ . فضاقت عليهم المدينة فخرجوا إلى رؤوس الجبال وكان أهاليهم يجيؤون إليهم بالطّعام ولا يكلّمونهم فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس و لا يكلّمنا أحد منهم فهلّا نتهاجر نحن أيضاً ؟ فتفرّقوا ولم يجتمع منهم اثنان و بقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرّعون إلى الله و يتوبون إليه فقبل الله توبتهم ونزلت الآية .

قوله : [وضاقت عليهم أنفسهم] هذه عبارة عن المبالغة في الغمّ أي ضيّق أنفسهم ضيق صدورهم [وظنّوا] أي أيقنوا أنّه لا يعصمهم من الله موضع يعتصمون به ويلتجئون إليه غيره تعالى ، وأن لا محيص لهم من عذاب الله إلّا التوبة [ثمّ تاب عليهم ليتوبوا] أي سهّل لهم التوبة حتّى تابوا وعادوا إلى حالتهم الأُولى . وقيل : معناه : ثمّ تاب على الثلاثة و أنزل توبتهم على النبيّ ﷺ «ليتوبوا» أي ليتوب المؤمنون من ذنوبهم ويعلمون أنّه سبحانه قابل التوب .

قال المفسّرون : أما والله ما سفكوا من دم ولا أخذوا من مال ولا قطعوا من رحم ولكنّ المسلمين تسارعوا في الشخوص مع رسول الله وتخلّف هؤلاء ، وكان أحدهم بسبب ضيعة له والآخر لأهله والآخر طلباً للراحة ثمّ ندموا وتابوا فقبل الله توبتهم .

قوله : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين (١١٩) .

لمّا حكم بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ذكر في هذه الآية ما يكون كالزاجر عن فعل ما مضى وهو التخلّف عن رسول الله في الجهاد بقوله : [اتّقوا الله] في مخالفة الرسول [و كونوا مع الصادقين] أي مع الرسول وأصحابه في الغزوات .

وهذه الآية دالّة على فضيلة الصدق ؛ روي أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ وقال : إنّي رجل أريد أن أومن بك إلّا أنّي أُحبّ الخمر والزنا والسرقة و الكذب و الناس يقولون : إنّك تحرّم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها بأسرها فإن قنعت بترك واحد منها آمنت بك فقال ﷺ : اترك الكذب فقبل ذلك ثمّ أسلم ، فلمّا خرج عرضوا عليه الخمر

فقال : إن شربت وسألني الرسول عن شربها و كذبت فقد نقضت العهد وإن صدقت أقام عليّ الحدّ فتركها ثمّ عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه و كذلك السرقة فعاد إلى رسول الله وقال : يا رسول الله ما أحسن ما فعلت ! لمّا منعتني عن الكذب انسدّت عليّ أبواب المعاصي ؛ وتاب عن الكلّ . وروي عن ابن مسعود أنّه قال : عليكم بالصدق فإنّه يقرّب إلى البرّ والبرّ يقرّب إلى الجنّة ، وإنّ العبد ليصدق فيكتب عند الله صدّيقاً وإيّاكم والكذب ؛ فإنّ الكذب يقرّب إلى الفجور والفجور يقرّب إلى النار .

وقالوا في قباحة الكذب : إنّ إبليس إنّما ذكر هذا الاستثناء في قوله : «إلّا عبادك منهم المخلصين[1]» لأنّه لولم يذكره لصار كاذباً في ادّعائه فكأنّه استنكف عن الكذب واستثنى ؛ فإذا كان الكذب شيئاً يستنكف إبليس منه فالمسلم أولى بالاستنكاف .

واختلف الناس في أنّ المقتضي لقبحه ماهو ؟ فقال جماعة : المقتضي لقبحه هو كونه مخلّاً لمصالح العالم و مصالح النفس . و قالت المعتزلة : المقتضي لقبحه هو كونه كذباً لقوله تعالى : «يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين[2]» أي لاتقبلوا قول الفاسق فربّما كان كذباً فيتولّد عن قبول ذلك الكذب فعل تصيرون نادمين عليه ، وأيّ قبح أقبح من أن يكون الفعل مبغوضاً عندالله ؟

قوله : ماكان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله و لا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين (١٢٠) و لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله احسن ماكانوا يعملون (١٢١) .

لمّا قصّ الله أحوال الّذين تأخّروا وتقاعدوا عن الخروج مع النبيّ في غزوة تبوك ذكر في هذه الآية على وجه التوبيخ بأنّه لا يجوز لأهل المدينة ولا يجوز لمن حول المدينة من سكّان البوادي من طوائف الأعراب . قيل : إنّهم مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم . وقيل : بل جميع الأعراب الّذين كانوا أطراف المدينة ؛ فإنّ اللفظ عامّ والتخصيص تحكّم .

(١) الحجر : ٤٠ .
(٢) الحجرات : ٦ .

وعلى القولين ليس لهم أن يتخلّفوا عن رسول الله ولا يجوز لهم أن يطلبوا لأنفسهم الراحة والدعة حال مايكون النبيّ في الحرّ والمشقّة ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه أي ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم مايرضاه الرسول لنفسه .

و بعد أن منعهم في صدر الآية عن التأخّر شرع في الترغيب لهم بذكر مثوبات الموافقة في الجهاد بأُمور خمسة : أوّلها : [ذلك بأنّهم لايصيبهم ظمأ] أي ذلك النهي عن التأخّر بأنّهم لايصيبهم عطش في الجهاد [ولا نصب] وعناء و عيّ وتعب [ولا مخمصة] أي جوع وضمور بطن من الجوع . ولا يضعون أقدامهم ولا يضع حافر فرسه ولايضع خفّ بعيره بحيث يصير ذلك سبيلاً لغيظ الكفّار [ولاينالون] أعداءهم [نيلاً] أي أسراً أو قتلاً أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً [إلّا كتب لهم به عمل صالح] وقربة إلى الله . وفي الآية دلالة على أنّ من قصد طاعة الله فقيامه وقعوده و مشيته وحركته و سكونه كلّها حسنات مكتوبة عند الله و كذا القول في طرف المعصية فما أعظم بركة الطاعة وشؤم المعصية ، وإنّ الله لايضيع أجر من أحسن ولا يضيع عمل عامل .

و كذلك [ولا ينفقون] في طاعة الله وجهاده [من نفقة صغيرة] كانت كالتمرة فمافوقها [ولا يقطعون وادياً] والوادي كلّ مفرج بين جبال وآكام يكون مسلكاً للسيل إلّا [كتب] الله [لهم] ذلك الإنفاق وذلك المسير و كتب لهم ذلك [ليجزيهم] على أحسن الجزاء من أعمالهم و أجلّ وأفضل وهو رضاء الله وثوابه .

قوله : وماكان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون (١٢٢).

اعلم أنّه يمكن أن يقال : هذه الآية من بقيّة أحكام الجهاد ويمكن أن يكون كلاماً مبتدءاً مستأنفاً لا تعلّق له في الجهاد ، أمّا الأوّل لمّا بالغ الله في تحذير المتخلّفين عن الجهاد في غزوة تبوك قال المؤمنون : والله لانتخلّف في غزوة من الغزوات بعد هذا ولا عن سريّة فلمّا قدم رسول الله المدينة وأرسل السرايا إلى الكفّار نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت الآية .

المعنى : أنّه لايجوز للمؤمنين أن ينفروا بكلمتهم إلى الجهاد ويتركون النبيّ وحده

بل يجب أن يصيروا طائفتين تبقى طائفة في خدمة الرسول وتنفر اُخرى إلى الغزو و ذلك لأنّ الإسلام حينئذ كان محتاجاً إلى الجهاد وقهر الكفّار وأيضاً كانت التكاليف تحدث و الشرائع تنزل وقتاً بعدوقت وكان بالمسلمين حاجة إلى جماعة مقيمين بحضرة الرسول عليه‌السلام فيتعلّم الشرائع النازلة و يبلّغها إلى الغائبين فكان الواجب انقسام الأصحاب إلى قسمين أحد القسمين ينفرون إلى الغزو و الأُخرى لحفظ الأحكام و إيصالها إلى الناس فالنافرة نائبون عن المقيمين، والمقيمون نائبون عن النافرين في التفقّه وبهاتين الطائفتين يتمّ أمر الدين.

«فلولا» كلمة تستعمل للتحريض والتهديدمثل «هلاّ» و«لوما» وهذه الكلم الثلاثة للترغيب و«هل» كلمةاستفهام وعرض و«لا» كلمة جحدفلوركّبته صارت مركّباًمن الأمرين: الاستفهام والجحد فكأنّك قلت: هل فعلت؟ ثمّ قلت: لا؟ يعني مافعلت فينبّه المتكلّم على وجوب ذلك الفعل أي افعل ولمَ مافعلت؟ فقوله تعالى: [فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين] ويتعلّموا المسائل و بعدالتعلّم يعلّموا قومهم الّذين لايعلمون فيحذّرون الجاهلين و يتعلّمون منهم.(١)

واختلفوا في أنّ النافرة إلى الغزو متفقّهة أم المقيمة متفقّهة قيل: النافرة هم المتفقّهة لأنّهم يرون في الغزو من النصرة والإعجاز والظفر من الله لهم اُموراً فيتبسّطون شواهد الدين ثمّ يرجعون ويبيّنون للناس ماراُوا فيهتدون الناس بهم.

وقيل: المقيمة هي المتفقّهة، و على كلا التقديرين كانوا مأمورين بالتبعيض والطائفتان هم المجاهدون منهم بالسيف ومنهم بالعلم وبيان العلم واللسان، فكلاهما مجاهدان وإليه الإشارة بقوله: مداد العلماء ـ إلى آخره ـ.

والمراد بالنفر في قوله: «فلولا نفر» الخروج لطلب العلم، وفي هذا دلالة على أنّ العلم لايحصل إلّا في الغربة غالباً.

قوله: يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار و ليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين (١٢٣).

---

(١) كذا.

المعنى : قاتلوا من قرب منكم من الكفّار الأقرب منهم فالأقرب في النسب والدار . قيل : إنّ هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافّة ثمّ إنّها نسخت بقوله : «قاتلوا المشركين كافّة » و لكنّ المحقّقون أنكروا هذا النسخ وقالوا : هذه الآية بيان الأصلح و الأصوب وهو أن يبتدأ من الأقرب فالأقرب منتقلاً إلى الأبعد فالأبعد ، ألاترى أنّ أمر الدعوة وقع على هذا الترتيب ؟ قال تعالى : «وأنذر عشيرتك الأقربين(١)» وأمر الغزوات وقع على هذا المنهاج لأنّه حارب قومه ثمّ انتقل منهم إلى غزو سائر العرب ثمّ انتقل منهم إلى غزو الشام ، والمسلمون لمّا فرغوا من أمر الشام دخلوا العراق ؛ ثمّ إنّ مقابلة الكلّ دفعة واحدة متعذّرة ولمّا تساوى الكلّ في وجوب القتال معهم لما فيهم من الكفر و امتنع الجميع وجب الترجيح والقرب مرجّح ظاهر كما في الدعوة و سائر الواجبات كالنهي عن المنكر مثلا فالابتداء بالحاضر أولى من الذهاب إلى البلاد البعيدة .

ثمّ إنّ النفقات في القريب أقلّ من الأبعد ، و المجاورين من الكفّار لدار الإسلام إمّا أن يكونوا أقوياء أوضعفاء ؛ فإن كانوا أقوياء كان إيذاؤهم و تعرّضهم لدار الإسلام أشدّ و أكثر ، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاء المسلمين عليهم أسهل وحصول عزّ الإسلام بسبب انكسارهم أقرب وأيسر فكان الابتداء بهم أولى وإذا اجتمع واجبان و كان أحدهما أيسر حصولاً وجب تقديمه وهذا الحكم جار في جميع الموارد لأنّ الأقرب سهل التناول ؛ أماترى أنّ الأعرابيّ لمّا جلس على المائدة وكان يمدّ يده إلى الجوانب في المائدة الجوانب البعيدة قال صلى الله عليه وآله له : كل ممّا يليك . فإن قيل : ربّما كان التخطّي من الأقرب إلى الأبعد أصلح قلنا : ذاك منفصل بدليل منفصل والمصالح مبنيّة على ماهو أكثر .

قوله : [وليجدوا فيكم غلظة] فيها ثلاث لغات بفتح الغين والكسر و الضمّ ، أي يجدون الكفّار منكم شجاعة وشدّة ، والغلظة ضدّ الرأفة ؛ لأنّ في الغلظة أثراً في الزجر والمنع ، ثم إنّ الأمر في هذا الباب ليس على سبيل الاطّراد بل يحتاج تارة إلى الرفق و اللطف و اُخرى إلى العنف فقوله : « و ليجدوا فيكم غلظة » يدلّ على تعليل الغلظة و

(١) الشعراء : ٢١٤ .

هذه الغلظة في اُمور يرجع إلى الجهاد والقتال وأمّا ما يتّصل بالمعاشرة والمجالسة والمؤاكلة والبيع والشراء وأمثال هذه فلابل بالعكس [واعلموا أنّ الله مع المتّقين] أي من جاهد بسبب تقوى الله لابسبب الغنائم وطلب الجاه والمال .

قوله : واذا ماانزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانافأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناوهم يستبشرون (١٢٤) و أما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتواوهم كافرون (١٢٥) .

لمّا ذكر مخازي الكافرين ذكر من جملة مخازيهم فقال : [وإذا ما اُنزلت سورة]فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعضهم : أيّكم زادته إيماناً بنزول هذه الآية ؟ ومقصودهم تثبّت قومهم على الكفر والنفاق . وقيل : كان المنافقون يقولونه لأقوام من المسلمين وغرضهم صرف المسلمين عن الإيمان . وقيل : بل ذكروه على وجه الهزؤ فحصل للمؤمنين بسبب نزول هذه السورة أمران وحصل للكافرين أمران : أمّا ما حصل للمؤمنين أنّهم زاد إيمانهم و أقرّوا واعترفوا بأنّها حقّ من عندالله والثاني مايحصل لهم من الاستبشار بثواب الآخرة و النصر والغلبة والفرح والسرور .

ثمّ جمع للمنافقين أمرين مقابلين للأمرين المذكورين للمؤمنين فقال : [وأمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم] والمراد من الرجس العقائد الباطلة أي كانوا مكذّبين بالسور النازلة قبل ذلك والآن صاروا يكذّبون بهذه السورة فانضمّ كفر إلى كفر و قيل : إنّهم كانوا قبل ذلك في الحسد و العداوة و إعمال وجوه الكفر و المكر والآن بسبب نزول هذه السورة ازدادت . و الأمر الثاني أنّهم يموتون على كفرهم فكان هذه الحالة ضدّ الاستبشار الّذي حصل للمؤمنين ؛ فالحالة الاُولى من الكفّار كونهم على الرجاسة بسبب الكفر والحالة الثانية ازدياد الرجاسة بمداومتهم وموتهم عليه لحصول الحسد الّذي أورث مزيد الكفر في قلوبهم ، ومن المعلوم أنّ نزول السورة ما أوجب زيادة الكفر في قلوبهم بدليل أنّ الآخرين سمعوا تلك السورة وازدادوا إيماناً فثبت أنّ الرجاسة هم فعلوها من قبل أنفسهم والله تعالى ماصدّهم عن الإيمان كماقالت الأشاعرة .

قوله : أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة او مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون (١٢٦) .

وقرىء «ترون» بالخطاب للمؤمنين ، وفي الآية تقريع للمنافقين عن الاعتبار والنظر كأن المعنى أنّهم لايشعرون أنّ في كل سنة مرّة أو مرّتين يرون اُموراً ينبغي أن يعتبرون بها ؛ يمتحنون بالجهاد مع رسول الله ويرون من نصره الله وما ينال أعداء الله من القتل و السبي . وقيل : بالشدّة والمرض والجوع والقحط . و قيل : يبيّن الله سرائرهم و يخبر الله نبيّه بنفاقهم بنزول الوحي و الآيات في حقّهم و مع ذلك لا ينتبهون و لايتناهون و لا يتوبون عن نفاقهم .

قوله : واذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يريكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون (١٢٧) لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم (١٢٨) فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت و هو رب العرش العظيم (١٢٩) .

هذا نوع آخر في ذكر مخازي المنافقين وهو أنّه كلّما نزلت سورة مشتملة على ذكر المنافقين تأذّوا من سماعها ونظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالّا على الطعن والهزؤبها وأخذوا في التغامز والتضاحك ثمّ قال بعضهم لبعض : [هل يراكم من أحد] أي لو يراكم أحد على هذا النظر و الشكل لضرّكم جدًا لأنّ ذلك النظر دلّ على الإنكار الشديد منهم و النفرة التامّة فكانوا يخافون أن يراهم أحد من المسلمين على هذه الحالة فإذا تحقّق لهم أنّهم لايراهم أحد بالغوا فيه وإن علموا أنّه يراهم أحد من المسلمين كفّوا .

[ثمّ انصرفوا] عن مجلس النبيّ [صرف الله قلوبهم] عن الفوائد الّتي يستفيدها المؤمنون . أو المعنى : صرف الله قلوبهم عن رحمة الله وعن ثوابه عقوبة لهم عن الانصراف عن الإيمان بالقرآن وعن مجلس النبيّ . وقيل : إنّه على وجه الدعاء ودعاء الله على عباده و عيد لهم وإخبار بوقوع العذاب لهم بسبب أنّهم لايفقهون خطاب الله .

ثمّ خاطب جميع المكلّفين وأكّد خطابه بالقسم فقال : [لقد جاءكم رسول من أنفسكم] عنى به محمّداً أي جاءكم رسول من جنسكم من البشر من العرب ثمّ من بني إسماعيل من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهليّة ؛ لأنّ نسب إسماعيل غير مدخول فصاعداً فنازلاً وإنّما منّ الله عليهم بكونه منهم لأنّهم إذا عرفوا مولده ومخبره ومنشأه و شاهدوه صغيراً و كبيراً

وعرفوا صدقه وأمانته ولم يعثروا بنقيصة منه فبالحري أن يكونوا أقرب إلى القبول منه و الانقياد له [شديد عليه] عنتكم وضرركم بترك الإيمان ولا يرضى بهلاككم حريص على إيمانكم رؤوف و ذو رقة بالمؤمنين . وأقر بأنه رؤوف بمن رآه ورحيم بمن لم يره . ولم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا محمداً صلى الله عليه وآله فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وقال سبحانه : « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » .

قوله : [فإن تولوا] و ذهبوا عن الحق و اتباع الرسول و أعرضوا عن قبول نبوتك [فقل حسبي الله] أي يكفيني الله فإنه القادر على كل شيء [لا إله إلا هو عليه توكلت] وعليه اعتمدت وفوضت أموري [وهو رب العرش العظيم] وخص العرش بالذكر تفخيماً لشأنه ولأنه إذا كان رب العرش ومدبره مع عظمته كان رب ما دونه . وقيل : إن العرش عبارة عن الملك والقدرة والسلطان . وقيل : هذه الآية آخر آية نزلت من السماء وآخر سورة وآخر القرآن عهداً بالسماء هاتان الآيتان .

خاتمة سورة البراءة .

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك ايات الكتاب الحكيم (١) .

السورة مكيّة إلّا قوله : « ومنهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن به وربّك أعلم بالمفسدين » أو ثلاث آيات فإنّها نزلت في اليهود بالمدينة .

قرىء بفتح الراء على التفخيم وبكسر الراء على الإمالة ، وقرىء بين الفتح والكسر واتّفقوا على أنّ «ألر» وحده ليس آية وعلى أن «طه» آية لأنّ «الر» لا يشاكل مقاطع الآيات الّتي بعده بخلاف «طه» فإنّه يشا كل مقاطع الآي الّتي بعده قال ابن عبّاس : « ألر » معناه أنا الله أرى . وقيل : معناه أنا الربّ لا ربّ غيري . و الأصحّ أنّ فواتح السور علمها عند النبي ﷺ ومرموزات . وقيل : «الر» و«حم» و«ن» اسم الرحمن .

فعلى بناء أنّ هذه الحروف المقطّعة اسم للسورة فتقديره : هذه السورة مسمّاة بـ(ألر) و الإشارة إليها قبل جريان ذكرها باعتبار كونها على جناح الذكر فصارت في حكم الحاضر وبصدده كما يقال : هذا ما اشترى فلان .

[تلك آيات الكتاب] يحتمل أن يكون إشارة إلى ما في هذه السورة من الآيات ويمكن أن يكون إشارة إلى ما تقدّم هذه السورة من الآيات . والكتاب الحكيم يمكن أن يكون المراد القرآن ، ويمكن أن يكون المراد الكتاب المكنون المخزون عند الله الّذي نسخ كلّ كتاب منه وهو اللوح المحفوظ واُمّ الكتاب فتقدير المعنى : تلك الآيات الموجودة في هذه السورة هي آيات الكتاب الحكيم لأنّه سبحانه وعد رسوله بل وعد أنبياءه قبل أن

ينزل على محمّد كتاباً لايمحوه الماء ولايغيّره كرورالدهر ، فحينئذ المعنى أنّ تلك الآيات الّتي في سورة «ألر» هي ذلك الكتاب المحكم الموعود به الّذي لايمحوهشيء .

وعلى هذا تكون الإشارة إلى الحاضر و«تلك» يشاربها إلى الغائب فكيف يحسن الإشارة بتلك ؟

و اُجيب عن هذا في أوّل سورة البقرة في قوله : « ذلك الكتاب لاريب فيه » قالوا : إنّه لمّا وصل من المرسل إلى المرسل إليه وقع في حدّ البعد كما تقول لصاحبك وقدأعطيته شيئاً : احتفظ بذلك . ثمّ إنّ القرآن لمّا اشتمل على حكم عظيمة و علوم كثيرة يتعسّر اطّلاع القوّة البشريّة عليها بأسرها والآيات وإن كان حاضراً نظراً إلى صورته لكنّه غائب نظراً إلى أسراره وحقائقه ؛ فجاز وصحّ أن يشار إليه كما يشار إلى البعيد الغائب والإشارة وقعت بالغائب لعلوّ شانه و كونه في الغاية القاصية من الشرف وجعله في حكم المتباعد . هذا إذا كان الإشارة إلى هذه الآيات الّتي في هذه السورة وأمّا إذا كان لفظ «تلك» إشارة إلى ماتقدّم هذه السورة من آيات القرآن فالمعنى أنّ تلك الآيات المتقدّمة هي آيات ذلك الكتاب المكنون الّذي يعبّر عنه باُمّ الكتاب و يكون المعنى حينئذ إشارة إلى البعيد و يندفع الإشكال .

و أمّا وصف الكتاب بالحكيم لأنّه يشتمل على الحكمة والصلاح أوأنّه بمعنى الحاكم لأنّه يميّز الحقّ عن الباطل والصواب عن الخطاء ، و حاكم لمحمّد بالنبوّة لأنّ القرآن معجزته الكبرى و يبيّن صدق نبوّته ويحكم برسالته . أوالمراد وصف الكلام بصفة من تكلّم به ؛ قال الأعشى :

و غريبة تأتي الملوك حكيمة * قدقلتها ليقال من ذاقا لها ؟

و يمكن أن يكون الحكيم معناه المحكم و الممتنع عن الفساد والخلل أي لايغيّره طول الدهر و الحكيم في أصل اللغة عبارة عن الّذي يفعل الحكمة و الصواب و لمّا كان القرآن يدلّ على الحكمة و الصواب فوصف القرآن به مجازاً .

قوله : أكان للناس عجباً ان اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس و بشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون ان هذالساحر مبين (٢) .

إنّ كفّار قريش تعجّبوا من تخصيص الله محمّداً بالرسالة والوحي فأنكرالله عليهم ذلك التعجّب و الكفّار بلغوا في الجهالة إلى أن تعجّبوا من كون الإله واحداً كما في قوله : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذالشيء عجاب »(١) فإذا كانالحال كذلك فغير بعيد أن يتعجّبوا من تخصيص النبيّ بالوحيو الرسالة . وكان أهل مكّة يقولون : إنّ الله ماوجد رسولاً إلى خلقه إلّا يتيم أبيطالب ! فأنكرالله عليهم هذا التعجّب بقوله :

[أكان للناس] إلخ ، أيأكانإيحاؤنا إلى رجل منالناس بأن ينذرهم يكون عجباً و ليس هذا موضع التعجّب ، و أمر إرسال الرسلأمر ما أخلى الله شيئاً من أزمنة وجود المكلّفين كما قال : « وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحى إليهم »(٢) فكيف يتعجّب وقد سبق نظائره ؟ ولو كان تعجّبهم اختصاص محمّد بالوحي أيضاًغلط ؛ لأنّه تعالى بعث رجلاً منهم مسلّم عندهم بالأمانة والصدق وطهارة النسب و حسن الأخلاقعند العدوّ والصديق و إذاكان فقره موجباً لتعجّبهم فالله أغنى الأغنياء فيغنيه فحينئذ لاوجه لتعجّبهم .

ثمّ بيّن الوجه الّذي لأجله بعث و ما الّذي أوحى إليه أن أخبرهم بالعذاب و خوّفهم به [و بشّرالّذينآمنوا] أي عرّفهم مافيه من الشرف والخلود في نعيم الجنّة على وجه الإلزام لصالح الأعمال و قوله : [أنّ لهم قدمصدق] أي أجراً حسناً و منزلة رفيعة . وقيل : إنّالمعنى : سبقت لهمالحسنىفيالذكرالأوّل . وقيل : تقديمالله إيّاهم فيالبعث يوم القيامة بيانه : نحن الآخرونالسابقون يومالقيامة .

[قال الكافرون إنّ هذالساحر مبين] يعنون النبيّ ، أي هذا ساحر مظهر للسحر وما أتى به سحر بيّن ، والسحرفعليخفى فيه وجه الحيلة و إنّما قدّم الإنذار في الآية على التبشير ؛ لأنّ التخلية مقدّمة علىالتحليةوإزالة مالاينبغيمقدّم علىفعل ماينبغي .

قوله : ان ربكم الله الذى خلق السموات و الارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش يدبر الامر مامن شفيع الامن بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون (٣) اليه مرجعكم جميعا وعدالله حقا انه يبدء الخلق

---

(١) ص : ٥ .
(٢) الرعد : ١٠٩ .

ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم و عذاب اليم بما كانوا يكفرون(٤).

لمّا حكى عن الكفّار أنّهم تعجّبوا من رسالة رجل منهم أزال تعجّبهم بأنّه لا يبعد البتّة أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يبشّرهم على الأعمال الصالحة و ينذرهم عن الأعمال القبيحة و يؤدّبهم بأدب المعروف . و هذا إنّما يصحّ إذا كان لهذا العالم إله قاهر قادر حكيم يضع كلّ شيء بعد الخلق موضعه ، و يأمرهم و ينهاهم .

ثمّ لابدّ أن يكون الحشر والقيامة والبعث ثابتاً حتّى يحصل الثواب والعقاب اللّذان أخبر الأنبياء عن وقوعهما ، فلاجرم سبحانه ذكر في الآية ما يدلّ على تحقّق هذين الأمرين .

أمّا الأوّل و هو إثبات الإلهيّة فبقوله : [إنّ ربّكم الله الّذي خلق السماوات و الأرض] و أمّا الثاني وهو إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة فبقوله : [إليه مرجعكم جميعاً وعدالله حقّاً] .

والاستدلال في الآية بخلق السماوات والأرض من وجوه ؛ لأنّهما مادّة كلّ شيء ومعلوم أنّ الأجرام الفلكيّة مركّبة من الأجزاء الّتي لاتتجزّى لأنّها قابلة للقسمة العقليّة و كلّما كان مركّباً من الأجزاء و الأبعاض وجب افتقارها إلى مقدّر وخالق لأنّها لمّا تركّبت فقد وقع بعض تلك الأجزاء في داخل ذلك الجرم وبعضها حصلت على سطحها ، فلها داخل و خارج و فوق وتحت وتلك الأجزاء متساوية في الطبع والماهيّة والحقيقة . والفلاسفة أيضاً أقرّوا بصحة هذه المقدّمة حيث قالوا : إنّها بسائط وقالوا : يمتنع كونها مركّبة من أجزاء مختلفة الطبائع .

و إذا ثبت هذا فنقول : حصول بعضها في الداخل و بعضها في الخارج أمر ممكن الحصول جائز الثبوت ، يجوز و يمكن أن ينقلب الظاهر باطناً والباطن ظاهراً و إذا كان الأمر كذلك وجب افتقار هذه الأجزاء حال تركيبها إلى مدبّر وقاهر و مسخّر يخصّص بعضها بالداخل و بعضها بالخارج ، فثبت أنّ الأجرام السماويّة والأرضيّة في تركيبها و شكلها و صفاتها مفتقرة (ظ) إلى مدبّر قاهر متصرّف عليم حكيم .

والوجه الثاني في الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الإله القادر هو أنّه إنّا نرى بالحسّ والعيان أنّ الأفلاك لها حركات وتغيّرات ؛ لأنّ المراد من الحركة والتغيّر التغيّر من حال إلى حال وهذه الحالة أي الحركة والتغيّر تقتضي المسبوقيّة بالحالة المنتقل عنها والأزليّة تنافي المسبوقيّة بالغير فكان الجمع بين الحركة وبين الأزل محالاً فثبت أنّ لحركات الأفلاك وتغييراتها لها بداية وأوّل وأوّليتها و حركاتها مسبوقة بالعدم في الأوّل فافتقرت حركاتها إلى محرّك خالق فيها الحركة و الوجود و هو الإله .

ثمّ قد حصل من هذا الاستدلال والبيان دليل آخر ، وهو أنّه لمّا ثبت افتقارها إلى مدبّر قاهر وتخصيص الأجرام بالحركة في ذلك الوقت المعيّن دون ماقبله ودون ما بعده لابدّ وأن يكون بتخصيص مخصّص وترجيح مرجّح ، وذلك المخصّص يتصرّف فيها كيف يشاء وهو الله . ثمّ إنّ أجزاء الفلك حاصلة فيه لا في الفلك الآخر وأجزاء الفلك الآخر حاصلة فيه لا في الفلك الأوّل فاختصاص كل واحد منها بتلك الأجزاء أمر ممكن ولابدّ للتخصيص من مرجح فثبت المطلوب . فبيان الآية مغن ومبيّن دلائل التوحيد ولذا بعد بيان الإلهيّة ذكر دلائل الوهيّته بذكر السماوات و الأرض اللتين موادّ الموجودات .

وبالجملة [إنّ ربّكم] إلخ أي خالقكم ومنشئكم ومالك تدبيركم والّذي يجب عليكم عبادته [الله الّذي خلق السماوات والأرض] اخترعهما وأنشأهما من غير مثال على ما فيهما من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة [في ستّة أيّام] بلا زيادة ونقصان مع قدرته على إنشائهما دفعة واحدة ، والوجه فيه أنّ في ذلك مصلحة للملائكة وعبرة لمن استخبر عن ذلك ، و كذا تصريف الإنسان حالاً فحالاً من النطفة والعلقة والمضغة ، ثمّ وثمّ ، وإخراج الثمار والأزهار شيئاً بعد شيء مع قدرته على ذلك في أقلّ من لمح البصر لأنّ ذلك أبعد من توهّم الاتّفاق فيه ، و في «الأيّام» قيل : من أيّام الدنيا وقيل : من أيّام الآخرة .

[ثمّ استوى على العرش] قيل : إنّ العرش المذكور هنا هو السماوات والأرض لأنّهن من بنائه والعرش البناء ، وأمّا العرش العظيم الّذي تعبد الله الملائكة حوله و يعظّمونه و عناه بقوله تعالى : «الّذين يحملون العرش ومن حوله» فهو غير هذا «ثمّ استوى» أي استولى عليه بإنشاء التدبير من جهة العرش كما يستوي الملك على سرير مملكته بالاستيلاء على

تدبيره فإنّ تدبير الأمور كلّها ينزل من عند العرش و لهذا ترفع الأيدي في دعاء الحوائج نحو العرش [يدبّر الأمر] أي يقدّره على وجهه ويرتّبه على مراتبه على أحكام عواقبه . وهو مأخوذ من الدبور .

[ما من شفيع إلّا من بعد إذنه] وإنّما قال هذا ولم يجر ذكر للشفعاء لأنّ الكفّار كانوا يقولون : الأصنام شفعاؤنا عند الله فبيّن الله أنّ الشفعاء إنّما يشفعون عنده إذا أذن لهم فالأصنام الّتي لا تعقل فكيف تكون شافعة ؟ [ذلكم الله ربّكم] إنّ الموصوف بهذه الصفات هو إلهكم [فاعبدوه] وحده لأنّه لا إله لكم سواه ولا تعبدوا الأصنام [أفلا تذكّرون] و تتفكّرون ؟

[إليه مرجعكم] « المرجع » يحتمل فيه أن يكون بمعنى المصدر الّذي هو الرجوع والآخر أن يكون بمعنى موضع الرجوع أي إليه موضع رجوعكم يكوّنه إذا شاء [وعد الله] ذاك وعداً [حقّاً] صدقاً [إنّه يبدء الخلق ثمّ يعيدهم] بعد موتهم ليؤتيهم جزاء أعمالهم بالعدل لا ينقص من اُجورهم شيئاً [والّذين كفروا لهم شراب من حميم] ماء حارّ انتهى حرّه في النار [وعذاب أليم] موجع جزاء على كفرهم و اعلم أنّ في هذه الآية دلالات صريحة علي المبدأ والمعاد أمّا المبدأ فقد أشرنا إليه في تحقيق حركات الأفلاك ووضعها وأمّا المعاد فإليه الإشارة بقوله : «إليه مرجعكم» لأنّا إمّا نقول بثبوت النفس الناطقة أولا ؛ فإن قلنا به فزال الإشكال لأنّه كما لا يمتنع تعلّق هذه النفس بالبدن في المرّة الاُولى لم يمتنع تعلّقها بالبدن مرّة اُخرى وإن أنكرنا القول بالنفس فنقول : إنّه سبحانه يركّب تلك الأجزاء المفرّقة تركيباً ثانياً كما خلقها أوّلاً ، ويخلق الإنسان الأوّل بجمع تراكيبها وأجزائها مرّة اُخرى كما ترى الأرض وقت الخريف والشتاء ، و ترى اليبس مستولياً عليها .

ثمّ إنّه ينزل المطر عليها في الشتاء والربيع فتصير متحلّية بالأزهار والأنوار كعام الماضي من غير اختلاف في الصورة والمادّة كما قال تعالى : «والله الّذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور» [(١)] وقال تعالى

---

(١) فاطر : ١٠ .

«ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثمّ يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً ثمّ يجعله حطاماً إنّ في ذلك لذكرى لأُولي الألباب »[1] .

قال ﷺ : إذا رأيتم الربيع فأكثروا ذكر النشور و نعمت المشابهة بين الربيع و النشور و كذلك كلّ إنسان يرى في نفسه من الزيادة والنقيصة والنموّ والذبول بسبب الهزال والمرض ، ثمّ يعود إلى حالته الأُولى من السمن والصحّة فما جاز كون بعضه جاز كون كلّه فظهر أنّ الإعادة غير ممتنعة ، و أنّه تعالى لمّا كان قادراً على إنشاء ذواتكم ثمّ على إنشاء أجزائكم ثانياً حال تركّبكم وحياتكم شيئاً فشيئاً وجب القطع أيضاً بأنّه لايمتنع عليه إعادتكم بعد البلى في القبور لحشر يوم القيامة . وأيضاً كان قادراً على خلقكم أوّلاً من غير مثال سبق فلأن تكون قادراً على إيجاده أُخرى مع سبق المثال أولى وأحرى كما قال : «قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة[2] » .

وهذا المعنى قرّره سبحانه في آيات كثيرة منها في هذه الآية قوله : « يبدىء الخلق ثمّ يعيده » و كذلك قوله تعالى : « يا أيّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب - إلى قوله - ذلك بأنّ الله هو الحقّ وأنّه يحيي الموتى و أنّه على كلّ شيء قدير ✻ وأنّ الساعة آتية لاريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور [3]» و كذلك قوله : «قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الّذي فطركم أوّل مرّة [4]» .

ومن الآيات الدالّة على وقوع الحشر قوله : «أوليس الّذي خلق السماوات و الأرض بقادر على أن يخلق مثلهم [5]» و كذلك قوله : «أولم يروا أنّ الله الّذي خلق السماوات والأرض و لم يعي بخلقهنّ بقادر على أن يحيي الموتى »[6] وأمثال هذه الآيات كثيرة وهي الوجوه المستنبطة على وقوع المعاد فكيف يستنكر الحياة بعد الموت . ووجه الاستبعاد من حيث إنّه

(١) الزمر : ٢٢ .
(٢) يس : ٧٩ .
(٣) الحج : ٦ - ٩ .
(٤) الاسراء : ٥٣ .
(٥) يس : ٨١ .
(٦) الاحقاف : ٣٢ .

يحصل الضدّ بعد حصول الضدّ وهذا غير مستنكر من قدرة الله كما أنّه نجد النار ومادّتها مع حرّها ويبسها توجد وتتولّد من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته فحصل الضدّ من الضدّ فقال سبحانه : «الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون»(١) .

والأُمّة فريقان منهم من يقول : إنّ المعاد واجب على الله عقلاً ، وفريق يقول : لا يجب شيء عليه أصلاً . والقول الثاني ضعيف جدّاً وعلى القول بالوجوب قالوا : يجب أن يكون إله العالم رحيماً عادلاً منزّهاً عن الإيلام والإضرار إلّا لمنافع أجلّ وأعظم منها ؛ ومن الواجب في حكمته وعدله سبحانه أن يأمرهم بما هو خير لهم وينهاهم عمّا يضرّهم فإنّه لو لم يمنع عن القبائح ولم يرغّب في الخيرات قدح ذلك في كونه محسناً عادلاً . ومن المعلوم أنّ الترغيب في الطاعات لا يمكن إلّا بربط الثواب بفعلها والزجر عن القبائح لا يمكن إلّا بربط العقاب بفعلها ، وذلك الثواب المرغّب فيه والعقاب المهدّد به غير حاصل في دار الدنيا فلابدّ من دار اُخرى يحصل هذا الثواب وهذا العقاب وهو المطلوب وهذا هو الدليل الأوّل .

قوله : [ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط] ثم إنّا نرى في هذه الدنيا أنّ أزهد الناس وأعلمهم وأعملهم مبتلى بأنواع الغموم والأحزان والظلم والابتلاء وأجهلهم وأظلمهم في أعظم اللذّات والمسرّات فيحصل القطع بأنّ دار الجزاء يمتنع أن يكون هذه الدار ولابدّ من دار اُخرى ومن حياة اُخرى حتّى يتدارك للمحسن والمسيء وأن لا يجعل من كفر به وجحده وظلم الخلق بمنزلة من أطاعه ، ولمّا وجب إظهار هذه التفرقة فحصول هذه التمايز إمّا في دار الدنيا أو في دار الآخرة ، والأوّل باطل فحقّ الثاني ، وثبت أنّه لابدّ بعد هذه الدار من دار اُخرى وهو المراد من قوله تعالى في سورة طه : «إنّ الساعة آتية أكاد اُخفيها لتجزى كلّ نفس بما تسعى»(٢) وفي سورة ص : «أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار»(٣) .

ثمّ إنّا نشاهد بعقولنا أنّه لو كان لسلطان قادر قاهر جمع من العبيد والحشم وكان

---

(١) يس : ٨٠ .
(٢) الآية : ١٥-١٦ .
(٣) الآية : ٢٧ .

بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء وجب على ذلك السلطان إذا كان عادلاً رحيماً شفيقاً عليهم أن ينتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القوي فإن لم يفعل ذلك كان نقصاً في عدله وكان راضياً بذلك الظلم وحاشاه ؛ فوجب الانتصاف وما وقع في الدنيا فلابدّ من أن يقع في دار أخرى .

وحجّة أُخرى ههنا نذكرها أنّه تعالى خلق هذا العالم وما فيه إمّا لمنفعة ومصلحة أولا وخلقهم لغواً ، والثاني لايليق به وهو منزّه عنه . والأوّل فذلك النفع والصلاح إمّا أن يحصل في هذا العالم أو في دار أُخرى ، والأوّل باطل من وجهين : الأوّل أنّ لذّات هذا العالم لاحقيقة لها إلّا إزالة الألم وإزالة الألم أمر عدمي وهذا العدم كان حاصلاً حال كون كلّ واحد من الخلائق معدوماً وحينئذ لايبقى للتخليق فائدة . والثاني أنّ لذّات هذا العالم ممزوجة بالآلام والمحن بل الدنيا طافحة بالشرّ والآفات والمحن والبليّات ، واللذّة فيها كالقطرة في البحر فعلم أنّ الدار الّتي فيه الصلاح والنفع غير هذه الدار .

فإن قيل : أليس أنّه تعالى يولم أهل النار بأشدّ العذاب لالأجل مصلحة و لالحكمة ؟

قلنا : أوّلاً لانسلّم هذه الصغرى ثمّ على فرض التسليم الفرق في ذلك أنّ الألم و الضرر ضرر مستحقّ على أعمالهم الخبيثة وأمّا الضرر الحاصل في الدنيا فغير مستحقّ فوجب أن يعقبّه خيرات عظيمة ومنافع جابرة لتلك المضارّ السالفة لهذا الزاهد الطائع المظلوم ولو لم يقع جزاء هذا المظلوم و ذلك الظالم لينافي أن يكون أكرم الأكرمين و أرحم الراحين .

وأيضاً ههنا حجّة أُخرى وهي أنّه لو لم يحصل للإنسان معاد لكان الإنسان أخسّ من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف واللازم باطل و الملزوم مثله ؛ بيان الملازمة أنّ مضارّ الإنسان في الدنيا أكثر من مضارّ جميع الحيوانات فإنّ سائر الحيوانات قبل وقوعها في الآلام والأسقام ، تكون فارغة البال طيّبة النفس لأنّه ليس لها فكر وتأمّل ، أمّا الإنسان فإنّه بسبب ما حصل له من العقل يتفكّر أبداً في الأحوال الماضية و الأحوال المستقبلة ؛ فيحصل له بسبب التعقّل في الأحوال الماضية الحزن والتأسّف وبسبب التعقّل في الأمور

المستقبلة الخوف فبحصول العقل وكونه فيه يتألّم بالآلام النفسانيّة الشديدة القويّة وأمّا اللذّات الجسمانيّة فهي مشتركة بين الإنسان وبين سائر الحيوان لأنّ السرقين في مذاق الجعل طيّب كما أنّ اللوز في مذاق الإنسان طيّبة .

إذا ثبت هذا فلو لم يحصل للإنسان معاد ـ وبه تكمل حالته وتظهر سعادته ـ لوجب أن يكون كمال العقل سبباً لمزيد الهموم والغموم من غير جابر يجبر ، وكلّ ما كان كذلك يوجب مزيد الشقاء والتعب الخالي عن المنفعة فثبت أنّه لولا سعادة الآخرة لكان الإنسان أخسّ من الحيوانات حتّى الخنافس والديدان فثبت أنّ الإنسان خلق للبقاء والآخرة لا للفناء والدنيا .

ثمّ ههنا بيان آخر وهو أنّه لا شكّ أنّ الإنسان وبدن الحيوان إنّما تولّد من النطفة وهذه النطفة اجتمعت من البدن ، ومادّة النطفة إنّما تولّدت من الأغذية المأكولة والأغذية تولّدت من الأجزاء العنصريّة وتلك كانت متفرّقة في مشارق الأرض ومغاربها و ألفت الأجزاء إذا اجتمعت فتولّد منها حيوان أو نبات فأكله إنسان فتولّد منه دم فتوزّع الدم على أعضائه فتولّد منها أجزاء لطيفة منويّة فعند استيلاء الشهوة سال من تلك الرطوبات مقدار في فم الرحم فتولّد منه هذا الإنسان فثبت أنّ الأجزاء الّتي تولّد منها بدن الإنسان كانت متفرّقة في العناصر فلمّا اجتمعت بالطريق المذكور تولّد منها هذا البدن ، فإذا مات تفرّقت تلك الأجزاء على مثال تفرّق الأوّل وإذا ثبت هذا وجب القطع بأنّه لا يمتنع أن يجتمع مرّة ثانية على مثال الاجتماع الأوّل مع أنّا نقطع بأنّ هذا الإنسان الشيخ المنحني هو عين ذلك الإنسان الّذي كان في بطن اُمّه ثمّ انفصل وكان طفلاً ثمّ شابّاً و أنّ الأجزاء البدنيّة دائمة التحلّل وأنّ الإنسان هو هو بعينه فالإنسان إمّا أن يكون جوهراً مفارقاً مجرّداً وإمّا أن يكون جسماً نورانيّاً لطيفاً باقياً مع تحلّل هذا البدن ، وعلى التقديرين لا يمتنع عوده إلى الجثّة مرّة اُخرى فيكون هذا الإنسان العائد عين الإنسان الأوّل .

واعلم أنّ إثبات الشيء لا يعقل إلّا بطريقين : أحدهما أن يكون مثله ممكناً فيكون

هذا أيضاً ممكناً . والثاني أن يقال : إنّ ماهو أعظم منه وأعلى حالاً منه ممكن فهو أيضاً ممكن .

فذكر الطريق الأوّل فقال : «قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكلّ خلق عليم » (١) إشارة إلى العود و إلى كمال القدرة والعلم ومنكرو الحشر والنشر لاينكرونه إلّا لجهلهم بهذين الأصلين لأنّهم تارة يقولون : إنّه يمتنع كونه عالماً بالجزئيّات فيمتنع منه تميز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو. وتارة يقولون : إنّه موجب بالذات والموجب بالذات لايصحّ منه القصد إلى التكوين وشبهتهم الفلاسفة في المعاد من هذين الأصلين لاجرم لمّا ذكر الله المعاد أردفه بدفع هذين الأصلين .

ثمّ ذكر بعده الطريق الثاني وهو الاستدلال بالأعلى على الأدنى بقوله : « الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، الخ » (٢) وهو أنّ الحرارة الناريّة أقوى في الحرارة من الحرارة الغريزيّة فلمّا لم يمتنع تولّد الحرارة الناريّة عن الشجر الأخضر مع كمال مضادّتهما ؛ فكيف يمتنع حدوث الحرارة الغريزيّة في جرم الشراب وهو أولى ؟ .

ثمّ حسم مادة الشبهات بقوله : « إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (٣) أي تخليقنا ليس بالأدوات ولايتوقّف على الآلات ، والدليل عليه أنّه خلق الأب الأوّل لاعن أب سابق عليه ، ثمّ تأمّل في هذه الحجّة وهي أنّه قد دلّت الدلائل على أنّ العالم محدث ، وإذا كان كذلك فلابدّ له من محدث قادر عالم بمصالح حدوثه وأوضاعه فحينئذ لايجوز في حقّ هذا الحكيم أن يهمل عبيده من غير أن يأمرهم بماينفعهم وينهاهم عمّا يضرّهم ولايجوز له أن يتركهم سدى حتّى يفعلوا ما يشاؤوا من القتل والنهب والفساد في العالم ، وإيقاع الهرج والمرج ، ويجحدوا ربوبيّته ويأكلوا نعمته ويعبدوا الجبت والطاغوت ؛ لانّ مثل هذه الأمور لايقع ولايليق إلّا بالسفيه البعيد من الحكمة ، وبداهة العقل يحكم بفساده فلابدّ له من أن يأمر وينهى فإذا أمر ونهى ولم يقرن الأمر بالوعد و الثواب ولم يقرن النهي بالوعيد والعقاب لم يتأكّد الأمر والنهي ولم يحصل المطلوب والأثر .

فثبت أنّ الوعد والوعيد لابدّ أن يقع من الحكمة ، وهل يجوز له أن لايفي بوعده

(١-٢) يس : ٧٩ - ٨٠ .
(٣) النحل : ٤٢ .

لأهل الثواب ؟ و لابوعيده لأهل العقاب من الكافرين ؟ ولاشكّ أنّه لايجوز عليه الكذب لأنّه لوجاز ذلك لماحصل الوثوق بوعده و وعيده بل بعدله وبصدقه ، وهو أصدق الصادقين؛ فحينئذ تحقّق الثواب والعقاب أمر لابدّ منه وذلك لايتمّ إلّا بالحشر والنشر ومالايتمّ الواجب إلّا به واجب ، وهذه مقدّمات تتعلّق بعضها ببعض كالسلسلة متى صحّ بعضها صحّ كلّها ومتى فسد بعضها فسد كلّها ، ودلّ مشاهدة أبصارنا لهذه التغيّرات الحاصلة على حدوث العالم وحدوث العالم على وجود المحدث والصانع ، وذلك يكون غنيّاً قادراً عالماً فحينئذ فإن لم يثبت الحشر أدّى ذلك إلى بطلان جميع المقدّمات المذكورة ولزم إنكار العلوم البديهيّة وإنكار العلوم النظريّة العقليّة فثبت أنّه لابدّ لهذه الأجساد البالية ، والعظام النخرة والأجزاء المتفرّقة من البعث بعد الموت ، وهي المراد من الآية لقوله تعالى : « ليجزي الّذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط » هذه البيانات كلّها تقرير المعاد وبه الكفاية .

قوله تعالى : هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الايات لقوم يعلمون (٥) .

هذه الآية تكملة للدلائل الدالّة على الاُلوهيّة أي كما أنّ خلق السماوات والأرض دالّة في الإلهيّة كذلك جعل الشمس والقمر نوع آخر من الأدلّة ، وبهما يتوصّل المكلّف إلى معرفة السنين والحساب فيمكنه ترتيب مهمّاته ومعاملاته من الحرث والنسل وغيرهما في الاُمور الدينيّة والدنياويّة ولمّا وجب في الحكمة للمكلّف معرفة الشهور والأعوام خلق الشمس والقمر مضيئة ومنيراً فخصّص جسم الشمس بضوئها الباهر وشعاعها القاهر ، وجسم القمر بنوره المخصوص الضعيف بالنسبة إلى ضوء الشمس .

وقد قرّرنا أنّ الأجسام من حيث ذواتها متساوية في تمام الماهيّة ، وإذا ثبت هذا فالأشياء المتساوية في تمام الماهيّة تكون متساوية في جميع لوازم الماهيّة فكلّ مايصحّ على بعضها وجب أن يصحّ على الباقي فلمّا صحّ جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر وجب أن يصحّ مثل ذلك الضوء على جرم القمر وبالعكس ؛ فاختصاص الشمس بضوئه والقمر بنوره بقسم آخر غير نور الشمس بتخصيص مخصّص وتقدير مقدّر وهو المطلوب لأنّ هذا الاختصاص بجعل جاعل .

قال أبوعليّ الفارسيّ : « الضياء» لايخلو من أحد أمرين إمّا جمع ضوء كسوط و سياط وحوض وحياض ، أومصدر ضاء يضوء ضياءً كقولك : قام قياماً وصام صياماً وعلى أيّ الوجهين فالمضاف محذوف أي ذات ضياء وذانور ، و يمكن أن يقال : لمّا عظم الضياء والنور فيهما جعلا نفس الضياء والنور مثل زيدعدل ، والضياء والنور كيفيّة قابلة للشدّة والضعف فإنّ الضوء الحاصل في أوّل النهار أضعف من ضوء الحاصل في وسط النهار و كذلك النور القائم بالقمر . واختلف الناس في أنّ الشعاع الحاصل والنور الساطع هل هو جسم أو عرض .

قال الرازيّ : والحق أنّه عرض لقوله : «وقدّرناه منازل» أي قدّر مسيره منازل أو المعنى وقدّره ذا منازل ، والضمير لهما وإنّما وحّد للاتّحاد وإلّا فهو بمعنى التثنية اكتفاء بالمعلوم لأنّ عدد السنين والحساب إنّما يعرف بسير الشمس والقمر ونظيره : « والله ورسوله أحقّ أن يرضوه »(١) وقيل : الضمير راجع إلى القمر وحده لأنّ بسير القمر تعرف الشهور . والشهور والسنين المعتبرة في الشريعة هي الشهور القمريّة .

واعلم أنّ انتفاع الخلق بضوء الشمس ونور القمر عظيم وبحركتهما يحصل الفصول وباختلاف أحوالهما تختلف أحوال رطوبات هذا العالم ويبوساته وتنتظم مصالحه ويتعيّن زمان التكسّب والطلب والدعة والراحة وباختلاف حركاتهما ينشأ النباتات والأغذية من الحيوان والنبات و كلّ ذلك يدلّ على كثرة رحمة الله على الخلق ولمّا تحقّق أنّ الأجسام متساوية فاختصاص كلّ جسم بشكله المخصوص وحيّزه المعيّن وأثر معلوم ماحصل إلّا بتدبير المقدّر العالم الحكيم . والتقرير الّذي قرّرنا يدلّ على أنّ جميع المنافع الحاصلة في هذا العالم بسبب حركات الأفلاك ومسير الشمس والقمر والكواكب وقد حصل بتدبيره سبحانه .

ولمّا قرّر سبحانه هذه الدلائل على وجوه ختمها بقوله : [ماخلق الله ذلك إلّا بالحقّ] أي خلقها على وفق الحكمة والحقيقة كقوله : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً »(٢) قال حكماء الإسلام هذه الآية تدلّ على أنّه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب

---

(١) التوبة : ٦٣ . (٢) ص : ٢٦ .

خواصاً وقوى مخصوصة باعتبارها تنتظم هذا العالم السفلى إذ لولم يكن لها آثار و فوائد لكان خلقها عبثاً وباطلاً ثمّ الفوائد لها في هذاالعالم نراها عياناً ومشهوداً .

قوله : [يفصّل الآيات] والتفصيل ذكر هذه الدلائل الباهرة [لقوم يعلمون] أي يعقلون حتّى يعمّ الكلّ لأنّ العقل يشمل الجميع ، وقيل : المراد العلماء ولايمتنع أنّ يخصّ الله العلماء لهذا الذكر والأوّل أليق .

قوله : ان فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والارض لايات لقوم يتقون (٦) .

استدلّ سبحانه أوّلاً على التوحيد والإلهيّات بتخليق السماوات والأرض ، ثمّ بأحوال الشمس والقمر ، ثمّ في هذه الآية بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وبأقسام الحوادث الواقعة في هذا العالم .

والحوادث أقسام : منها في العناصر الأربعة ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج وأحوال البحار والمدّ و الجزر والصواعق والرلازل والخسف وأمثالها .

ومنها أحوال المعادن . ومنها أحوال النبات و اختلافاتها وخواصّ وجودها ونفعها .

ومنها اختلاف الحيوان وجملة هذه الأمور داخلة في قوله : «وماخلق الله في السماوات والأرض» و جملتها لا تسع في ألف مجلّد بل كلّ ما ذكره العقلاء و الحكماء جزء عن ألف وأقلّ في هذا الباب .

ثمّ قال سبحانه : إنّ هذه الآيات للمتّقين لأنّهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبير ولذا خصّها بالذكر بهم ، قال القفال : إنّ من تدبّر في أحوال هذا العالم وفي بيان هذه الآية علم أنّ الدنيا مخلوقة للعمل والعمل لأمر آخر و هو الثواب والعقاب ، فلابدّ من أمر ونهي ليتميّز المحسن من المسيء و كلّها آلة على صحّة القول بإثبات المبدء والمعاد .

قوله تعالى : ان الذين لايرجون لقاءنا و رضوا بالحيوة الدنيا و اطمأنوا بها و الذين هم عن اياتنا غافلون (٧) اولئك ماويهم النار بما كانوا يكسبون (٨) .

لمّا تبيّن من الآيات صحّة هذه الأمور الإلهيّة من عجيب الخلقة والحشر والثواب والعقاب شرع في بيان أحوال من يكفر بها وهذه الآية ومن يؤمن بها فيما بعد هذه الآية فوصف الكافرين بصفات :

الاولى : وهم [الّذين لايرجون لقاءنا] وفسّر « الرجاء » ههنا بالخوف أي لا يخافون البعث لايؤمنون بها وتفسير الرجاء بالخوف جائز كما قال : « مالكم لاترجون لله وقاراً »[١] قال الهذليّ : «إذا لسعته النحل لم يرج لسعها» وقيل : معنى «الرجاء» معناه الأصليّ والمراد الطمع أي لايطمعون في ثوابنا وهذا القول أصحّ لانّ حمل الرجاء على الخوف وبمعنى الضدّ بعيد ولامانع ههنا من حمل الرجاء على ظاهره البتّة وحسن جعل عدم الرجاء كناية عن عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، والمراد من اللقاء رؤية ثواب الله ولقاء نعم الله من السعادات الأبديّة .

الثانية : [ورضوا] هؤلاء [بالحياة الدنيا] واستغرقوا باللذّات الجسمانيّة وأعرضوا عن كسب السعادات الروحانيّة .

والثالثة : [واطمأنّوا بها] أي ماحصل لهم عند ذكر الله نوع من الوجل والخوف بعكس السعداء لأنّهم إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم ، وهؤلاء حصلت الطمأنينة لهم من الدنيا ، و اشتغلوا بها ولم يبالوا أمور الآخرة مطلقاً فلو قيل : مقتضى اللغة أن يقال : اطمأنّوا إليها إلّا أنّ حروف الجرّ يحسن إقامة بعضها مقام البعض فلهذا السبب قال : « واطمأنّوا بها » .

الرابعة : [والّذين هم عن آياتنا غافلون] بحيث لايخطر بباله طول عمره ذكر الله ولمّا وصفهم سبحانه بهذه الصفات قال : [أولئك مأواهم النار] .

قوله : ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات يديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار فى جنات النعيم(٩) دعويهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام (١٠) واخر دعويهم ان الحمد لله رب العالمين (١١) .

لمّا شرح حال الكافرين ذكر حال المؤمنين المحقّين . اعلم أنّ النفس الإنسانيّة

---

(١) نوح : ١٢ .

لها قوّتان نظريّة وعمليّة والنظريّة كمالها من معرفة الأشياء معرفة الله ، والعمليّة كمالها العمل بخدمة الله من الطاعات و العبادات أي صدقوا بقلوبهم بقوّة النظر وحقّقوا الإيمان بعمل الجوارح ، فشغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة وشغلوا جوارحهم بالخدمة والعبادة فعينهم مشغولة باعتبار كما قال : « فاعتبروا يا أُولي الابصار » (١) وأُذنهم بسماع كلام الله كما قال : « واذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول » (٢) ولسانهم مشغول بذكر الله كما قال : « يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله » (٣) وجوارحهم مشغولة بطاعة الله كما قال : « ألّا يسجدوا لله الّذي يخرج الخبء في السماوات والأرض » (٤) .

ولمّا بيّن مقامهم ذكر درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم قوله : [يهديهم ربّهم إلى الجنة] ثواباً لهم والّذي يدلّ على هذا المعنى قوله : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » (٥) وماروي أنّه عليه السلام قال : إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة ، فيقول له : أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنّة والكافر كذلك إلى الجحيم ، والعمل الصالح عبارة عن العمل الّذي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة والعمل المذموم بخلافه ؛ و كلّما كان العمل أكمل كان النور و الهداية أكمل .

قوله : [تجري من تحتها الأنهار] المراد أنّهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين والأنهار تجري من بين أيديهم ونظيره قوله تعالى : « قد جعل ربّك تحتك سريّاً » (٦) كالجدول و كذلك قوله : « وهذه الأنهار تجري من تحتي » (٧) المعنى بين يديّ وإلّا لا يقعد الإنسان على النهر الجاري أي تجري الأنهار بين أيديهم ومن تحت أُسرتهم وقصورهم .

---

(١) الحشر : ٢ .
(٢) المائدة : ٧٦ .
(٣) الاحزاب : ٤١ .
(٤) النمل : ٢٥ .
(٥) الحديد : ١٢ .
(٦) مريم : ٢٤ .
(٧) الزخرف : ٥٠ .

[دعواهم فيها] أي دعاء المؤمنين في الجنّة أن يقولوا : [سبحانك اللّهم] لاعلى وجه العبادة بل يلتذّون بالتسبيح وقيل : المراد من دعواهم أي ماحصل من التمنّي في قلوبهم من المشتهيات قالوا : « سبحانك اللهم » فيؤتون بما أرادوا فإذا نالوا منه شهوتهم قالوا : « الحمدلله » .

وقال بعض المفسّرين كالكلبيّ : هذه الكلمة علامة مايشتهونه بين أهل الجنّة و الخدام فإذا سمعوا ذلك أتوهم به . وهذا القول ضعيف جدًّا ؛ لأنّه تعالى وعدهم بمايشتهون في الجنّة ويجعلون هذا الذكر المقدّس العالي علامة المأكول والمشروب هذابعيد .

والأنسب في المعاني أنّ تمنّي أهل الجنّة في الجنّة ليس إلّافي تسبيح الله وتنزيهه أي النهاية في سرورهم وعيشهم هذا الذكر ولكن لاعلى سبيل العبادة بل على سبيل الميل والإرادة فيكون مفتتح كلامهم في كلّ شيء التسبيح والتنزيه ، ومختتم كلامهم التحميد فيكون التسبيح في الجنّة بدل التسمية .

وتحيّتهم في الجنّة من الله [سلام] وقيل : تحيّة بعضهم لبعض سلام أوتحيّة الملائكة لهم سلام يقولون : سلام عليكم أي سلمت عن الآفات والمكاره الّتي ابتلي بها أهل النار [وآخردعواهم] التحميد ، وليس المراد أن يكون ذلك آخر كلامهم حتّى لايتكلّموا بعد بشيء بل المراد أنّهم يجعلون هذا التحميد آخر كلامهم في كلّ ما ذكروا .

و«إن» في قوله : « إن الحمد» هي المخفّفة فلذلك لم تعمل لخروجها عن شبه الفعل كقوله : « أن هالك كلّ من يحفى و ينتعل » على معنى أنّه هالك وقيل : «إن» الزائدة والتقدير : و آخردعواهم . وقرىء بنصب الحمد و تشديد «إن» .

قوله : ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم اجلهم فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون (١٣) .

يمكن أن يكون نظم الآية بهذا التقرير وهو أنّه لمّاذكر في الآيات السابقة أنّ القوم تعجبّوا من تخصيص الله محمد بالرسالة فدفع تعجبّهم بقوله : «أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم » (١) وذكر دلائل صحّة التوحيد والمعاد ولازمهما أن يبعث رسولاً من جنسهم فمابقي

(١) السورة : ٢ .

حينئذ للتعجب من نبوته موقع ، ثم إن بعض القوم من شدة كفرهم وحسدهم على النبي كانوا يقولون : اللهم إن كان ما يقول محمد ﷺ حقاً في ادعاء الرسالة فامطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم ، فأجاب الله عن أحوالهم بما ذكر في هذه الآية قيل : هذا هو الكلام في كيفية النظم .

قوله : [ولو يعجل الله للناس الشر] أي إجابة دعوتهم في الشر إذا دعوا بالشر على أنفسهم وأهاليهم عند الغيظ والغضب كقوله : أماتني الله أو لعنة الله علي مثلاً أولا أبقاني الله ساعة كاستعجالهم بالخير ، أي كما يعجل لهم إجابة الدعوة بالخير [لقضي إليهم] أجلهم وهلكوا ولكن الله لا يعجل لهم الهلاك ، بل يمهلهم حتى يتوبوا ويرجعوا .

وقيل : معنى الآية ولو يعجل الله للناس العقاب الذي استحقوه بالمعاصي والكفر كما يستعجل لهم خير الدنيا لفنوا ؛ لأنه لو تعجلت العقاب لزال التكليف بالموت وإذا عوجلوا بالموت لم يبق أحد [فنذر الذين لا يرجون] ولا يخافون البعث والحساب يتحيرون في كفرهم و عدولهم عن الحق إلى الباطل لسوء اختيارهم لأن تركهم في الدنيا لا يوجب ذلك ولاصلاح في إماتتهم فربما آمنوا بعد ذلك وربما خرج من صلبهم من كان مؤمناً وذلك يقتضي أن لا يعاجلهم بإيصال الشر والعقاب إليهم كما استعجلوا لقوله تعالى: «ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» (١).

ثم إنهم لما توعدوا في الآية السابقة وهو قوله : «أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون» استعجلوا ذلك العذاب وقالوا : متى يحصل ذلك ؟ كما قال تعالى : «يستعجل بها الذين لا يؤمنون» (٢).

فلو قيل : كيف قابل التعجيل بالاستعجال ؟

الجواب أن في التعجيل معنى الطلب فقولك : عجلت فلاناً طلبت عجلته ، و كذلك عجلت الأمر إذا أتيته عاجلاً فطلبت فيه العجلة فصح مقابلة الاستعجال بالعجل لأن في كليهما معنى الطلب فحينئذ يصير معنى الآية : لو أراد الله عجلة الشر للناس كما أرادوا

(١) يس : ٤٨ .
(٢) الشورى : ١٧ .

عجلة الخير لهم لقضي إليهم أجلهم و لكن لا يتعجّل للمصالح المذكورة ويمهلهم للمصالح وإلزاما للحجّة .

قوله : واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه اوقاعدا او قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كان لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون (١٢) .

المقصود من هذه الآية بيان جهل الإنسان و غفلته ، ولذلك بيّن كذبهم في استعجال العذاب بأنّهم في هذا الطلب كاذبون لأنّه إذا مسّهم أدنى شيء يضرّه و يؤذيه ؛ فإنّه يتضرّع إلى الله في كشفه و إزالته من محن الدنيا و دعانا لرفع ذلك الضرّ في حال أنّه مضطجعاً كان أو قاعداً كان أو قائماً ، و اجتهد في الدعاء و سؤال العافية فلمّا أزلنا عنه ذلك الضرّ و وهبنا له العافية استمرّ على طريقته الأُولى معرضاً عن شكرنا [كأن لم يدعنا] قطّ لكشف ضرّه .

[كذلك زيّن للمسرفين] يعني كما زيّن لهم الشيطان و لاقترانهم من المشركين ترك الدّعاء والشكر كذلك زيّن للمسرفين عملهم . ويحتمل أن يكون المعنى : زيّن المسرفون بعضهم لبعض هذا العمل وإن لم يضف التزيين إليهم فهو كقولهم : فلان معجب بنفسه وهذه الآية حثّ للذين منحوا الرخاء بعد الشدّة ، والعافية بعد البليّة على أن يتذكّروا حسن صنع الله إليهم ويشكروا له ؛ قال رسول الله ﷺ : من سرّه أن يستجاب له دعوة عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء .

واعلم أنّ المؤمن إذا ابتلي ببليّة ومحنة وجب عليه رعاية أُمور .

أولها أن يكون راضياً بقضاء الله غير معترض بالقلب واللسان لأنّه سبحانه مالك على الإطلاق فله أن يفعل في ملكه ماشاء وما يشاء ولأنّه حكيم على الإطلاق وهو منزّه عن الباطل والعبث فعله حكمة وصواب فإن أبقى على عبده المحنة فهو عدل وإن أزال فهو فضل ؛ فحينئذ يجب عليه الصبر والسكوت وترك القلق والاضطراب .

و ثانيها أنّ العبد في ذلك الوقت يشتغل بذكر الله والثناء عليه بدلاً عن الدعاء وهو أفضل من الدعاء ، حيث يقول عزّ وجلّ : من شغله ـ كري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين ، ولأنّ الاشتغال بالذكر اشتغال بالحقّ والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظّ

النفس ونيل الآمال ولا شكّ أنّ الأوّل أفضل .

وثالثها أنّه سبحانه إذا أزال عنه البليّة يجب عليه أن يبالغ في الشكر ولا يشتغل بالنعم عن المنعم . وقوله : [كأن لم يدعنا] حذف الضمير في «كأن» للتخفيف والوضوح.

قال أبو بكر الأصمّ في السبب الّذي لاجله سمّى الله سبحانه الكافر في هذه الآية مسرفاً : لأنّ الكافر مسرف في نفسه وماله ومضيّع لهما ، أمّا في النّفس فقد جعلها عبدا للوثن وأمّا في المال فلأنّهم يصرفونه في البحيرة والسائبة وأمثالها ولا شبهة في أنّ المرأ كما يكون مسرفاً في ماله كذلك يكون مسرفاً فيما يتركه من واجب ، أو يقدم من قبيح ومحرّم إذا تجاوز الحدّ فيه .

قوله : ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين (١٣) ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون (١٤) .

لما بيّن في الآية السابقة أنّ إهلاكهم وإجابة دعائهم ليس مصلحة لهم لعلّ يتوبون أو يكون من أولادهم مؤمنون ـ على أنّهم في دعائهم كاذبين ـ ذكر هذه الآية على سبيل التهديد بأنّه قد ينزل بهم عذاب الاستيصال ولا يزيله عنهم .

قوله : [ولقد أهلكنا] قال الزمخشري : «لمّا» في الآية ظرف «لأهلكنا» والواو في قوله « وجاءتهم » للحال أي أهلكنا القرون من قبلكم بأنواع العذاب لمّا ظلموا أنفسهم بأنواع العذاب بأن أشركوا وعصوا أنبياءهم مع أنّ الأنبياء أتوا لهم بالمعجزات والدلالات الواضحة . قوله : [وما كانوا ليؤمنوا] هذا الكلام إخبار من الله بأنّ هذه الأمم إنّما أهلكوا لمّا كانوا في المعلوم أنّهم لو بقوا لم يكونوا يؤمنون بالرسل .

و استدلّ أبو علي الجبّائي بهذا على أنّ تبقية الكافر واجبة إذا كان المعلوم أنّهم لو بقوا يؤمنون فيما بعد .

قوله : [كذلك نجزي القوم المجرمين] أي كذلك نعذّب المشركين في المستقبل إذا لم يؤمنوا بعد قيام الحجّة عليهم وعلمنا أنّهم لا يؤمنون ولا يصلحون [ثمّ جعلناكم] يا أمّة محمد خلائفهم [في الأرض] من بعد القرون الّتي أهلكناهم أي أسكنّاكم الأرض خلفهم

لننظر كيف عملكم ، يعني نرى عملكم كيف يقع من عمل أُولئك ؛ أتقتدون بهم فتستحقّون العذاب مثل ما استحقّوه أم تؤمنون فتستحقّون الثّواب ؟ و اللاّم في « ليؤمنوا » لتأكيد النّـفي .

فلو قيل : كيف يطلق النظر على الله وفيه معنى المقابلة ، ثمّ « كيف تعملون » مشعرة بأنّ الله ماكان عالماً بأحوالهم قبل وجود عملهم .

فالجواب أنّ الله يعامل العبد معاملة المختبر الّذي لايعلم الشيء فيجازيه على ما يظهر ولا يجازيهم على ما علم منهم أنّهم يفعلون أولا يفعلون ، والنظر في الحقيقة لايجوز على الله لأنّ النظر إمّا يكون بالقلب وهو التفكّر أو بالعين وهو تقليب الحدقة نحو المرئيّ طلباً للرؤية مع سلامة الحاسّة والمقابلة و كلّها لايجوز على الله حقيقة بل يستعمل في صفاته على وجه المجاز والتوسّع ؛ فإنّ النظر يطلب العلم وهو سبحانه يعامل عباده معاملة مثل من يطلب العلم بالوقوع واللاوقوع ؛ لأنّ الجزاء فرع الوقوع واللاّوقوع وليس الجزاء فرع العلم فتأمّل .

قوله : واذا تتلى عليهم اياتنا قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله قل مايكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى ان اتبع الا ما يوحى الى انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم (١٥).

النزول : قال ابن عبّاس : إنّ خمسة من الكفّار كانوا يستهزئون بالرسول ﷺ وبالقرآن : الوليد بن مغيرة المخزوميّ ، والعاص بن وائل السهميّ ، والأسود بن المطّلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحرث بن حنظلة ؛ فقتل الله كلّ رجل منهم بطريق آخر كما قال : «إنّا كفيناك المستهزئين» .(١)

فشرح الله في هذه الآية حالهم و حال من مثلهم فقال في حالهم : إنّه كلّما تلي عليهم آيات القرآن [قال الّذين لايرجون لقاءنا] أي كونهم مكذّبين للحشر والبعث و القيامة ولا يعتقدون منها فحينئذ حسنت الاستعارة بقوله : « لايرجون لقاءنا» لأنّ من كان

---

(١) الحجر : ٩٥ .

معتقداً بالقيامة يرجو الثواب و يخاف العقاب ، و من لم يكن كذلك لا يعتقد الملاقاة أصلاً .

ثمّ إنّهم طلبوا من رسول الله أحد الأمرين على البدل : الأوّل أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن قيل : إنّ هؤلاء المقترحين غير اُولئك الخمسة المستهزئين الّذين ذكروا و هم عبدالله اُميّة ، ومكرز بن حفص وعمرو بن عبدالله أبي قيس العامريّ ، والعاص بن عامر ابن هاشم ، والوليد بن مغيرة قالوا للنبيّ ﷺ : ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّى ومنات وهبل ولا يكون فيه عيب الأصنام أو بدّله من تلقاء نفسك وغيّر أحكامه من الحلال والحرام وسائر الشرائع . أرادوا بذلك زوال الحظر عنهم وسقوط الأمر منهم و أن يخلّي بينهم وبين ما يريدون .

[قل] لهم يا محمّد [ما يكون لي أن اُبدّله من تلقاء نفسي] وناحيتي وما [أتّبع إلّا] الّذي اُوحي [إليّ إنّي أخاف إن عصيت ربّي] في اتّباع غيره [عذاب يوم] القيامة .

ثمّ ههنا بحث و هو أنّهم طلبوا من النبيّ ﷺ أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن أو التبديل وهذا يؤول إلى أمر واحد لأنّه إذا بدّل هذا القران بغيره فقد أتى بقرآن غير هذا القرآن وإذا كان كذلك كان كلّ منهما شيئاً واحداً و أمراً واحداً ، و الجواب من الله أيضاً يدلّ على أنّ كلّ واحد منهما عين الآخر ؛ لأنّه سبحانه اقتصر في الجواب على نفي أحدهما و هو قوله : «مايكون لي أن اُبدّله من تلقاء نفسي» ولمّا كان كلّ واحد من هذين الأمرين نفس الآخر فإلقاء اللفظ على التخيير باطل .

والجواب أنّ أحد الأمرين غير الآخر لا عين الآخر حتّى يرد الإيراد فالإتيان بكتاب آخر لا على ترتيب هذا القرآن ولا على نظمه يكون إتياناً بقرآن آخر أو يأتي بهذا القرآن و لكن يضع المدح مثلاً محلّ الذمّ كعبادة الأصنام ، أو الرحمة محلّ العذاب و هذا القسم الثاني تبديل و تغيير ، و هذا القسم غير القسم الأوّل فصار اقتراحهم أحد الأمرين .

وأمّا الاكتفاء بالجواب عن أحد الأمرين لا يدلّ على أنّ الأمرين أمر واحد بل الجواب عن الأمر الواحد يكتفي بذكره عن ذكر الجواب الثاني لأنّ الجواب عن أحد

القسمين هو عين الجواب عن القسم الثاني لأنّ علّة المنع في كلا الأمرين واحد و هو عدم القدرة في تبديله أو الإتيان بغيره من تلقاء نفسه .

قوله : قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادريكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون (١٦).

لمّا ظنّ بعض الجاهلون منهم أنّ هذا القرآن هو الّذي يأتي بهمن عند نفسه فرفع الله فساد هذا الظنّ والوهم بهذه الآية بأنّ هؤلاء الكفّار كانوا قد شاهدوا الرسول من أوّل عمره إلى ذلك الوقت وكانوا عالمين بأحواله ورأوا أنّه ﷺ ماطالع كتاباً ولا تلمّذ لأُستاذ وما تعلّم من أحد ، ثمّ بعد انقراض أربعين سنة بهذا الحال جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على أخبار الماضين ونفائس الحكمة وعمدة علم الأُصول والأخلاق المرضيّة وعجز عن معارضته العلماء من اليهود والنصارى والفصحاء والبلغاء فكلّ من كان له عقل يعرف أنّ مثل هذا لايحصل إلّا بالوحي من الله .

قوله : [لوشاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به] يعني لوشاء الله ماتلوت هذا القرآن عليكم بأن كان لاينزله عليّ ولا أعلمكم الله به بأن لا ينزله عليّ فلا أقرؤه عليكم فلا تعلمونه . وقرىء «ولا أدرأتكم به» بصيغة المتكلّم وقرأ ابن عبّاس : ولا أنذرتكم به [فقد لبثت فيكم] مدّة من العمر من قبل هذا الوقت فلم لاأتيتكم بكتاب [أفلا تعقلون] وتتفكّرون و تستدلّون .

قال عليّ بن عيسى : العقل هو العلم الّذي يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب والناس يتفاضلون فيه بالأمر المتفاوت فبعضهم أعقل من بعض إذا كان أقدر على الاستدلال من بعض .

قوله : فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب باياته انه لايفلح المجرمون (١٧) .

أي لاأحد أظلم ممن اخترع على الله كذباً و كذّب بآياته ورسله إنّه لايفلح المشركون الكافرون .

فإن قيل : أليس من ادّعى الربوبيّة أعظم ظلماً ممّن ادّعى النبوّة كذباً ؟

قلنا : إنّ المراد بقوله : «ممّن افترى على الله كذباً» من كفر بالله و قد دخل فيه من ادّعى الربوبيّة وغيره من أنواع الكفر والكفّار فكأنّه قال : لاأحد أظلم من الكفّار . ونظم الآية وتعليقها بما قبلها واضح .

قوله : ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله قل اتنبؤن الله بمالايعلم في السموات ولافي الارض سبحانه و تعالى عما يشركون (١٨) .

لمّا التمسوا من النبيّ صلى الله عليه وآله تبديل القرآن لأنّ فيه شتم آلهتهم ذكر الله في هذه الآية ما يدلّ على قبح عبادة الأصنام وحكى عنهم أمرين : الأوّل أنّهم يعبدونها . والثاني أنّهم يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عندالله ؛ أمّا الأوّل فقد بيّن الله ونبّه الله على فساده بقوله : «مالا يضرّهم ولا ينفعهم» إن عبدوها وإن تركوها لايضرّهم بشيء وإذا كان العابد أنفع من المعبود فالعبادة غلط لأنّ العبادة لايليق إلّا للمنعم وهؤلاء لايضرّ ولا ينفع . و أمّا أمر الثاني وهو الشفاعة فاعلم أنّ من الناس من قال : إنّ اُولئك الكفّار توهّموا أنّ عبادة الأصنام أشدّ في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه ؛ فقالوا : ليست لنا أهليّة أن نشتغل بعبادة الله بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام و إنّها رابطة و واسطة و شفعاء لنا عندالله .

ثمّ اختلفوا في أنّهم كيف قالوا في الأصنام : إنّها شفعاؤنا وذكروا فيه أقوالاً كثيرة فأحدها أنّهم اعتقدوا في أنّ المتولّي لكلّ إقليم من أقاليم العالم روح معيّن من أرواح عالم الأفلاك ؛ فعيّنوا لذلك الروح صنماً معيّناً واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم و مقصودهم عبادة ذلك الروح ثمّ اعتقدوا أنّ ذلك الروح يكون عبداً للإله الأعظم ومشتغلاً بعبوديّته.

وثاني الأقوال أنّهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أنّ الكواكب هي الّتي لها أهليّة عبوديّة الله ، ثمّ إنّهم لمّا رأوا أنّ الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً بعينه واشتغلوا بعبادتها ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب .

وثالثها أنّهم وضعوا طلسمات معيّنة على تلك الأصنام والأوثان ؛ ثمّ تقرّبوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات .

ورابعها أنّهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم و زعموا أنّهم متى اشتغلوا بعبادة هذه الصور و التماثيل فإنّ اُولئك الأكابر يكون شفعاءهم عند الله .

وخامسها أنّهم اعتقدوا أنّ الإله نور عظيم ، وأنّ الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم وعلى صور الملائكة صور اُخر .

وسادسها لعلّ القوم حلوليّة وجوّزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة .

وقد أبطل كلّ هذه الوجوه الباطلة بقوله تعالى : «ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم» وتقريره الوجوه الثلاثة المذكورة قوله : [أتنبّئون الله بما لا يعلم] المعنى : أمر نبيّه أن يقول لهم على وجه الإلزام : أتخبرون الله بما لا يعلم من حسن عبادة الأصنام و كونها شافعة ؟ لأنّ ذلك لو كان صحيحاً لكان تعالى عالماً ففي نفي علمه بذلك نفي المعلوم . وقيل : معناه : أتخبرون الله بشريك أو شفيع لا يعلم شيئاً ولا يفهم ؟ كما قال سبحانه : «ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السّماوات والأرض شيئاً[1]» فكذلك وصفهم ههنا بأنّهم لا يعلمون في السماوات والأرض شيئاً [سبحانه وتعالى عمّا يشركون] وهو منزّه عن الشريك والمثيل .

قوله تعالى : وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون (١٩) .

المعنى : لمّا بيّن سبحانه الدلائل القاهرة على فساد القول بعبادة الأصنام بيّن السبب في كفرهم اختلافهم وسوء اختيارهم فقال : [وما كان الناس إلّا اُمّة واحدة] و ظاهر الآية لا يدلّ على أنّهم اُمّة واحدة فيماذا ، و فيه أقوال : القول الأوّل أنّهم كانوا جميعاً على دين الإسلام .

واحتجّوا عليه باُمور : الأوّل أنّ المقصود من هذه الآيات بيان كون الكفر باطلاً و تزييف طريقة عبادة الأوثان وتقرير أنّ الإسلام هو الدين الفاضل فحينئذ لا يناسب أن يقال : إنّهم كانوا اُمّة واحدة في الكفر فبقي أنّهم كانوا اُمّة واحدة في الإسلام ولا يجوز أن يقال : إنّهم

---

(١) النحل : ٧٣ .

كانوا أُمّة واحدة في الكفر لقوله تعالى : «فكيف إذا جئنا من كلّ أُمّة بشهيد»(١) وشهيد الله لابدّ وأن يكون مؤمناً عدلاً فثبت أنّه ماخلت أُمّة من الأُمم إلّا وفيهم مؤمن ، ثمّ إنّ الأحاديث وردت بأنّ الأرض لا تخلو ممّن يعبدالله و عن أقوام بهم يمطر أهل الأرض وبهم يرزقون على أنّ الحكمة الأصليّة في الخلق العبوديّة فخلوّ أهل الأرض بالكليّة عن هذا المقصود بعيد .

روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : إنّ الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم و عجمهم إلّا بقيّة من أهل الكتاب . و هذا يدلّ على قوم تمسّكوا بالإيمان قبل مجيء الرسول عليه السلام ، فكيف يقال : إنّهم كانوا أُمّة واحدة في الكفر ؟

ثمّ على كون الأُمّة مؤمنة اختلف القائلون بهذا القول أنّهم متى كانوا كذلك ؟ فقال ابن عبّاس ومجاهد و جماعة : كانوا على دين الإسلام في عهد آدم و في عهد ولده واختلفوا عند قتل أحد ابنيه الابن الآخر . و قال قوم : إنّهم بقوا على دين الإسلام إلى زمن نوح وكانوا عشر قرون مسلمين ثم اختلفوا في زمن نوح فبعث الله نوحاً إليهم . وقال آخرون : كانوا على دين الإسلام في زمن نوح بعد الغرق إلى أن ظهر الكفر فيهم . و قال آخرون : كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن غيّره عمرو بن لحيّ . و هذا القائل قال : المراد من الناس في قوله : « وماكان الناس » العرب خاصّة .

إذا عرفت هذا فالمراد من بيان الآية على هذا التقرير أنّ عبادة الأصنام ما كان أصليّاً فيهم و أنّه إنّما حدث بعد أن لم يكن ؛ فعلى هذه الصورة كيف لم يتزيّفوا هذا المذهب ولم تنفر طباعهم عنه ؟ هذا كلّه على بيان أنّ الناس كانوا أُمّة واحدة في الإيمان و يصحّ الوعيد حينئذ ؛ لأنّ الاختلاف وقع بسبب الكفر و ذلك يقتضي الوعيد .

و أمّا إذا فسّرنا بأنّ الناس كانوا أُمّة واحدة في الكفر كما هو منقول عن بعض المفسّرين ففائدة هذا الكلام في هذا المقام هي أنّه تعالى بيّن للرسول أنّه لاتطمع في أن يصير كلّ من تدعوه إلى الدين مجيباً لك قابلاً لدينك فإنّ الناس كلّهم كانوا على الكفر ، و إنّما حدث الإسلام في بعضهم بعد ذلك فكيف تطمع في إيمان كلّهم و اتّفاقهم جميعاً على الإيمان .

---

(١) النساء : ٤٥ .

و قول آخر و لعلّ هو الصحيح و هو أنّ المراد أنّهم كانوا اُمّة واحدة في أنّهم خلقوا على فطرة الإسلام ثمّ اختلفوا في الأديان ، و إليه الإشارة بقوله : عليه السلام كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه و ينصّرانه و يمجّسانه كما قال تعالى : « فطرة الله الّتي فطر الناس عليها »[1] و قوله : [و لولا كلمة سبقت من ربّك] من أنّه لا يعاجل العصاة و الكفّار بالعقوبة إنعاماً منه في التأنّي بهم [لقضي] و فصّل بينهم فيما اختلفوا بأن يهلك العصاة وينجي المؤمنين لكنّه أخّرهم إلى يوم القيامة .

ثمّ حكى عن حال الكفّار بقوله :

و يقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين(٢٠) .

قال الكفّار : هلّا اُنزل على محمّد آية من ربّه تضطرّ الخلق إلى المعرفة بصدقه فلايحتاجون مع تلك الآية إلى الاستدلال والنظر و لم يطلبوا معجزة تدلّ على صدقه ، وإنّما لم يلجئهم الله إلى ما التمسوه لأنّ التكليف يمنع من الاضطرار ، ولوكانت المعرفة ضرورة و قهريّة لما استحقّوا ثواباً و كان ذلك الأمر نقضاً للغرض . فقل يا محمّد : إنّ الّذي يعلم الغيب و يعلم بالمصالح قبل كونها هوالله العالم فمايعرف في إنزاله صلاحاً أنزله ومالم يعرف لايفعل الآية الّتي اقترحوها ذلك الوقت فانتظروا عقاب الله بسبب تمرّدكم والعقاب القهر والغلبة والقتل ، والأسر في الدنيا ، لأنّ الله وعدني بالنصرة عليكم وفي الآخرة العذاب الأليم ، والحاصل أنّهم طلبوا من الرسول آية قاهرة يقهرهم على الإيمان والتصديق بالرسول غير القرآن لأنّه في بدوالأمر كان فيهم من يزعم أنّه يتمكّن من معارضة القرآن كما أخبر الله عنهم أنّهم قالوا : لوشئنا لقلنا مثل هذا . وإذا كان الأمر كذلك لاجرم طلبوا منه شيئاً آخر سوى القرآن فأمر الله رسوله أن يقول لهم : «إنّما الغيب لله» فصلاح إتيان آية وعدم صلاحها منوط بعلمه وأنتم بعد القرآن لاتحتاجون إلى آية اُخرى [فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين] .

---

(١) الروم : ٢٩ .

قوله : واذا اذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر فى اياتنا قل الله اسرع مكرا ان رسلنا يكتبون ما تمكرون (٢١) .

المعنى : بيّن الله عادة هؤلاء القوم المكر واللجاج وعدم الإنصاف وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوه من إرسال آية أخرى فإنّهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم كما روي أنّ الله سلّط القحط على أهل مكّة سبع سنين ثمّ رحمهم وأنزل الأمطار النافعة فخصبت أرضهم .

ثم إنّهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام والأنواء ، فقابلوا النعمة بالكفران فقوله . [وإذا أذقنا رحمة] أي تلك الأمطار النافعة الّتي خلصهم من أكل الزهق والقحط الشديد [إذا لهم مكر في آياتنا] أي أضافوا إلى الكواكب والأصنام وهذا المعنى ذكر في قبل هذه حيث يقول : « وإذا مسّ الإنسان الضرّ [١] » إلّا أنّه في هذه الآية هذه الدقيقة مذكورة ، وهي أنّهم عند وجدان الرحمة والشواهد يمكرون الآية وينسبونها إلى الغير وكلمة « إذا لهم مكر » جواب الشرط كقوله : « وإن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم إذاهم يقنطون [٢] » ويفيد المفاجأة معناه أنّهم فوراً أقدموا على المكر .

وإنّما سمّي تكذيبهم آيات الله بالمكر لأنّ المكر عبارة عن صرف الشيء عن وجه الظاهر بطريق الحيلة وهؤلاء دفعوا آيات الله بإلقاء الشبهات بالسحر وبالأنواء والكواكب والأصنام [قل الله أسرع مكراً] لمّا قابلوا نعم الله بالمكر قابلهم الله بالجزاء والنكال ؛ فإنّ رسل الله يكتبون مكرهم ويحفظونه ويصير ذلك سبباً لمقابلة مكرهم .

قوله : هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٢٢) فلما انجيهم اذاهم يبغون فى الارض بغير الحق يا أيها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحيوة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون (٢٣).

---

(١) التوبة : ١٣ .

(٢) الروم : ٣٥ .

اعلم أنّ هذه الآية كالمفسّرة للآية السابقة على سبيل التمثيل لأنّه سبحانه لمّا قال : « وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مسّتهم» فذكر الله مثالاً جليّاً يكشف عن حقيقة المعنى بقوله : [هو الّذي يسيّركم] أي يمكّنكم من السير [في البرّ والبحر] بماهيّأ لكم من أدوات السير من غير تعب كخلق الدوابّ وتسخيرها لكم وتحملون عليها أثقالكم وهيّأ لكم السفن في البحر [حتّى إذا كنتم] ركبتم [في الفلك] وخصّ الخطاب براكب البحر أي إذا كنتم راكبي السفن في البحر .

[وجرين] السفن بالناس لمّا ركبوا وعدل من الخطاب إلى الغيبة قيل : للايذان بما لهم من سوء الحال الموجب للإعراض لأنّ ضمير الخطاب إذا عدل عنه وانقلب إلى الغياب يفيد هذا المعنى وبالعكس يفيد التقرّب والعلوّ كقوله : «إيّاك نعبدو إيّاك نستعين»(١) والأوّل مثل الآية وهو يدلّ على المقت والتبعيد والطرد ، وبالجملة أي جرين السفن بالناس [بريح] ليّنة يستطبّونها وسرّوا [وفرحوا] بتلك الريح لأنّها تبلغهم إلى مقاصدهم و منازلهم وقيل : إنّ الضمير في «بها» راجعة إلى السفينة حيث حملتهم و أمتعتهم جاءت السفينة ريح شديد الهبوب هائلة وجاءهم اضطراب البحر وأيقنوا أنّهم دنوا على الهلاك أوغلب على ظنّهم الهلاك لمّا أحاط بهم من الأمواج فدعوا الله عند هذه الشدائد والأهوال والتجؤوا إليه على سبيل الخلوص من الاعتقاد من دون تشريك من الأوثان وغيره ، ولم يذكروا الأوثان وقالوا : يا ربّ [لئن أنجيتنا] عن ما نحن فيه من الكرب والبلاء [لنكونن ّ] من جملة من يشكرك على نعمك قوله : « جاءتها ريح » جواب قوله : «إذا كنتم في الفلك » فلمّا خلّصهم الله من الشدّة [إذاهم يبغون] ويعملون المعاصي ويشتغلون بالظلم على أنفسهم وعلى الناس .

[ياأيّها الناس إنّما بغيكم] المعنى أنّهم بعد التضرّع والتخلّص عن المهلكة أقدموا في الحال على البغي في الأرض بغير الحقّ ومعنى البغي قصد الاستعلاء بالظلم والترقّي في الفساد .

فإن قيل : مامعنى قوله « بغير الحقّ » والبغي لايكون حقّ ؟

قلنا : البغي قد يكون بالحقّ وهو استعلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم

(١) الفاتحة : ٤ .

وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله ببني قريظة ، والحاصل أنّه سبحانه نهى عن البغي بأنّه أمر باطل و يؤول ضرره على أنفسكم و [متاع الحياة الدنيا] خبر لقوله « بغيكم » أي بغي بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا : الفانية ، ولا يصلح لكم .

والبغي من منكرات المعاصي قال ﷺ : أسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشرّ عقاباً البغي واليمين الفاجرة . وروي : ثنتان يعجّلهما الله في الدنيا : البغي وعقوق الوالدين . قال ابن عبّاس : لو بغى جبل على جبل لاندكّ الباغي ؛ قال الشاعر :

فلو بغى جبل يوماً على جبل ❊ لاندكّ منه أعاليه وأسفله

[ثمّ إلينا] يرجع الباغي والمبغيّ عليه والغرض الوعيد على العذاب .

قوله : انما مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما ياكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها اتيها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس كذلك نفصل الايت لقوم يتفكرون (٢٤) .

لمّا ذكر في الآية السابقة أنّ البغي أمر قبيح ولا يحصل منه إلّا متاع الحياة الدنيا وهو فاسد أتبعه بهذا المثل العجيب لمن يغترّ بالدنيا ويبغي في الأرض فقال : [إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض] بسبب هذا الماء النازل من السماء وذلك لأنّه إذا نزل المطر ينبت بسببه أنواع من النبات وتكون الأنواع مختلفة ويكون المنبوت قبل المطر لم يترعرع ولم يهتزّ فإذا نزل المطر عليه اختلط النابت واتّصل بذلك المطر ونمى وربما ذلك النبات واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد بقوله : [حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها] وتزيّنت بجميع الألوان من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولا شكّ أنّه متى صار البستان على هذا الوجه وبهذه الصفة فإنّه يفرح المالك به ويعظم رجاؤه في الانتفاع منه .

ثمّ إنّه تعالى يرسل على هذا الزرع والبستان العجيب آفة عظيمة دفعة واحدة من برد أو ريح أو سيل فصارت تلك الأشجار والزروع باطلة هالكة ، فكذلك من وضع قلبه على لذّات الدنيا فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه فشبّه سبحانه الحياة الدنيا بهذا النبات أي عاقبة هذه الحياة الدنيا كعاقبة هذا النبات لأنّ المتمسّك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه

وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت وهو معنى قوله تعالى : «حتّى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون»[١] وبالجملة قوله : [فاختلط به] أي اختلط بذلك المطر نبات الأرض لأنّ المطر يدخل في خلل النبات وقيل : معناه فاختلط بسبب المطر بعض النبات بالبعض فاختلط ما يأكل الناس بما يأكل الأنعام ، وما يقتات بما يتفكّه فقال : [ممّا تأكل] الإنسان كالحبوب والثمار والبقول [والأنعام] كالحشيش وأنواع المراعي .

[وظنّ أهلها] ومالكها [أنّهم قادرون] على الانتفاع بها [أتاها أمرنا] أي عذابنا من برد وآفة وغيره [فجعلناها] محصورة مقطوعة ذاهبة يابسة [كأن لم تغن بالأمس] أي كأن لم تقم وتكن على تلك الصفة بالأمس ولم توجد من قبل [كذلك نفصّل الآيات] أي مثل ذلك نميّز الآيات [لقوم يتفكّرون] أي نذكر آية بعد آية ليكون تواليها وكثرتها سبباً لقوّة اليقين وموجباً لزوال الشكّ و الشبهة .

قوله : والله يدعو الى دار السلام و يهدى من يشاء الى صراط مستقيم (٢٥) .

النظم : لمّا نفّر العاقلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق رغّبهم في هذه الآية بالآخرة . قال النبيّ ﷺ : إنّما مثلي ومثلكم مثل سيّد بنى داراً و وضع مائدة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ورضي عنه السيّد ، ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل و لم يرض منه السيّد فالله السيّد والدار دار الإسلام والمائدة الجنّة و الداعي محمد ﷺ .

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال : مامن يوم تطلع فيه الشمس إلّا وبجنبها ملكان يناديان بحيث يسمع كلّ الخلائق إلّا الثقلين : أيّها الناس هلمّوا إلى ربّكم .

[والله يدعو إلى دار السلام] والمراد من دار السلام الجنّة واختلفوا في السبب الّذي لأجله حصل هذا الاسم على وجوه : الأوّل أنّ السلام هو الله ، والجنّة داره وتسميته تعالى بالسلام لأنّه لمّا كان واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغيّر ، وسلم من احتياجه ذاتاً وصفة إلى الغير ، ثمّ إنّه يوصف بالسلام بمعنى أنّ الخلق سلموا من ظلمه حيث يقول : «وما ربّك بظلّام للعبيد»[٢] .

---

(١) الانعام : ٤٤ .
(٢) فصلت : ٤٦ .

قال المبرّد : إنّه تعالى يوصف بالسلام أي هو ذو السلام والسلام عبارة عن تخليص العاجزين من المكاره ، وعلى هذا التقدير مصدر سلم . وقيل : «سلام» جمع سلامة ؛ فمعنى دار السلام دار السلامة من الآفات كالرضاع بمعنى الرضاعة أو سمّيت الجنّة بدار السلام ؛ لأنّه يسلم على أهلها قال تعالى : « سلام قولاً من ربّ رحيم » (١) والملائكة يسلّمون عليهم ويقولون : « سلام عليكم بما صبرتم » (٢) قوله : [و يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم] أي من أجاب الدعوة وأطاع واتّقى فإنّ الله يهدي إلى تلك الدار ومشيئته تحصل بإجابة الدعوة .

قوله : للذين احسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولاذلة اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون (٢٦) .

لمّا دعا عباده إلى دار السلام ذكر السعادات الّتي تحصل لهم فيها قال ابن عبّاس: أي الّذين ذكروا كلمة لا إله إلّا الله . وقال آخرون : الّذين أحسنوا في كلّ ما تعبّدوا به وأتوا بالمأمور به كما ينبغي واجتنبوا المنهيّات على وجه ما نهوا عنها . و «الحسنى» تأنيث الأحسن والعرب يوقع هذه اللفظة على الحالة المحبوبة الكاملة المرغوب فيها ولذلك لم تؤكّد ولم تنعت بشيء .

وقوله : [وزيادة] وهذه الكلمة مبهمة ولهذا اختلف في تفسيرها :

قيل : المراد منها التفضّل على قدر المستحقّ على الطاعات من الثواب وهي المضاعفة المذكورة في قوله : «فله عشر أمثالها» (٣) هذا أحد الأقوال .

وثانيها : الزيادة ما أعطاهم الله من النعم في الدنيا لا يحاسبهم به في الآخرة عن أبي جعفر عليه السلام .

وثالثها : أنّ الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب عن عليّ عليه السلام .

ورابعها : الزيادة النظر إلى وجه الله أي وجهته لأنّ النظر إلى الله أمر ممتنع

(١) يس : ٥٨ .
(٢) الرعد : ٢٤ .
(٣) الانعام : ١٦١ .

ولايجوز حمل الزيادة على الرؤية كما فسرّه بعض‌الأشاعرة والدلائل العقليّة دلّت على الامتناع على أنّ نفس الآية تدلّ على امتناع هذا المعنى لأنّ الزّيادة يجب أن‌تكون من جنس المزيد عليه‌ورؤية الله‌ليست من جنس نعيم‌الجنّة على أنّ النظر عبارة عن‌تقليب الحدقة إلى جانب‌المرئيّ وذلك يقتضي كون‌المرئيّ في‌الجهة وذلك يلزم التجسّم‌والمقابلة والتحيّز و كلّها ممتنع على‌الله .

قوله : [ولايرهق وجوههم] والرهق لحاق الأمر ومنه‌راهق الغلام إذا لحق بالرجال ورهقه بالحرب إذا‌أدركه والإرهاق‌حمل‌الإنسان‌على مالا يطيقه ومنه «سأُرهقه صعوداً»[1] والمعنى‌في‌الآية : لايغشى ولا يلحق وجوههم سواد وغبرة، ولا أثر ذلّة وهوان و كسوف و كآبة .

وروى الفضل بن يسار عن أبي جعفر الباقر عليه‌السلام قال : قال رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : مامن عين ترقرقت بمائها إلّا حرّم‌الله ذلك الجسد على النار فإن فاضت من‌خشية الله لم يرهق ذلك‌الوجه قتر ولا ذلّة .

قوله : [اُولئك أصحاب الجنّة]مرّ معناه مراراً .

قوله : والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلهاو ترهقهم‌ذلة مالهم من‌الله‌من عاصم‌كانما‌اغشيت وجوههم قطعا من‌الليل مظلما اولئك اصحاب النارهم فيها خالدون (٢٧) .

لمّا شرح حال‌المؤمنين في‌الآية السابقة شرح في‌هذه‌الآية من‌أقدم على السيّئات و ذكر اُموراً أربعة من أحوالهم :

أوّلها : [جزاء سيّئة بمثلها] والمقصودمن هذاالقيد التنبيه على‌الفرق بين‌الحسنات والسيّئات وذكر سبحانه‌من‌فضله أنّه يوصل في‌أعمال البرّ الثواب مع‌الزيادة ، وفي‌أعمال الشرّ بالمثليّة تأكيداً للترغيب في‌الطاعة وذاك تفضّل وهو حسن ولكنّ الزيادة على قدر الاستحقاق‌في‌المعصية ، فهو ظلم و لايفعل سبحانه .

و الثاني من الاُمور الأربعة : [ترهقهم ذلّة] و ذلك كناية عن التحقير والهوان لأنّ‌الإنسان العاصي ناقص عن درجة‌الإنسانيّة‌فإذا مات بقيت‌روحه ناقصة عن‌الكمالات

(١) المدثر : ١٧ .

فإدراكه وعلمه بنقصه يوجب له مذلة وهواناً .

وثالثها قوله : [مالهم من الله من عاصم] فإن قضاءه سبحانه محيط بجميع الكائنات و ليس شيء ينفعه عن قضاء الله .

ورابعها : [كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً] من ظلمة المعاصي والجهل بعكس ماللمؤمنين من الضياء والعلم ونورهم يسعى بين أيديهم .

قوله : [أولئك أصحاب النار] مر تفسيره مراراً .

قوله : ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين اشركوا مكانكم انتم و شركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ماكنتم ايانا تعبدون (٢٨) فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين (٢٩) .

هذا شرح نوع آخر من فضائح أولئك الكفار والضمير في قوله : [ويوم نحشرهم] عائد إلى المذكور السابق وذلك قوله : «والذين كسبوا السيئات» في الآية السابقة وحاصل الكلام: يحشر العابد والمعبود ، ثم إن المعبود يتبرء من العابد ويتبين له أنه مافعل ذلك بعلمه وإرادته . والمقصود أن القوم كانوا يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله فبين الله في هذه الآية أنهم لايشفعون لهؤلاء الكفار بل يتبرؤون منهم . ونظير هذا المعنى قوله تعالى: «إذ تبرء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا »[1].

ومعنى الحشر الجمع من كل جانب إلى موقف واحد و«جميعاً» نصب على الحال أي نحشر الكل حال اجتماعهم «ومكانكم» منصوب بإضمار فعل محذوف أي ألزموا وأثبتوا مكانكم «وأنتم» تأكيد للضمير «وشركاؤكم» عطف عليه والمراد أنه تعالى يقول : للعابدين والمعبودين أثبتوا مكانكم حتى تسألوا وقوله : [فزيلنا] جاءت على لفظ الماضي لأن الذي حكم الله فيه بأنه سيكون صار كالكائن الراهن الآن نظير قوله : «ونادى أصحاب الجنة»[2]. «زيلنا» أي ميزنا وفرقنا و«الزيل» التفريق أي فرقنا بين المشركين وبين شركائهم من الأصنام والآلهة وانقطع ماكان بينهم من التواصل في الدنيا .

وأما قوله : [وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون] وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم

(١) البقرة : ١٦١ . (٢) الاعراف : ٤٢ .

جعلوا نصيباً في أموالهم لأصنامهم فصيّروها شركاء لأنفسهم في تلك الأموال فلهذا قال تعالى : «وقال شركاؤهم» وقيل : المراد بالشركاء الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى : «يوم يحشرهم جميعاً ثمّ يقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون»(١) وقيل : المراد من الشركاء الأصنام لأنّ الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لا يليق بالملائكة .

ثمّ قالوا : إنّ الله يخلق في الأصنام الحياة والعقل والنطق فلاجرم تنطق . وقال آخرون : بل يخلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة والعقل . وقيل : المراد من الشركاء كلّ من عبد من دون الله من صنم وشمس وقمر وإنسيّ وجنّي وملك .

و ههنا مسألة وهي أنّ هذا الخطاب تهديد في حقّ العابدين فهل يكون في حقّ المعبودين ؟

أمّا المعتزلة فإنّهم قطعوا بأنّ ذلك لايجوز لأنّه لاذنب للمعبود ، ومن لاذنب له فإنّه يقبح من الله أن يوجّه التخويف والتهديد إليه .

وأمّا الأشاعرة قالوا : إنّه تعالى لا يسأل عمّا يفعل كسائر أقوالهم في الأفاعيل .

والحاصل : وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون أي يحييهم الله وينطقهم فيقولون : ما كنّا نشعر بأنّكم إيّانا تعبدون أي إنّكم لم تعبدونا بأمرنا ودعوتنا ولم يرد أنّهم لم يعبدوهم أصلاً بل بيان أنّ العبادة لم تكن بأمرنا .

[فكفى بالله شهيداً] وفاصلاً للحكم بيننا وبينكم أيّها المشركون [إن كنّا عن عبادتكم لغافلين» وهذا إذا كان الملائكة فإنّهم ماكان لهم أمر وعلم ورضاء منهم وإن كان الأصنام فما كان للأصنام حسّ و إدراك حتّى يعلموا ويأمروا فهم صادقون فيما ادّعوا .

قوله تعالى : هنالك تبلو كل نفس ماأسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ماكانوا يفترون (٣٠).

هذه الآية تتمّة لما قبلها فقوله : [هنالك] أي في ذلك المقام والموقف [تبلو] و تعلم و قرىء نبلو بالنون ، و قرىء تتلو بالتائين و يختلف المعنى باختلاف القراءة فبالتائين المعنى : كلّ نفس يقرأ ما في صحيفتها . و بالنون أي نختبر كلّ نفس [بما أسلفت] من العمل

---

(١) سبا : ٣٩ .

أي نفعل بها فعل المختبر لقوله : «ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً»[١].

قوله : [وردّوا إلى الله] أي ورددّوا إلى حيث لاحكم إلّا لله وإلى مايظهر لهم من الله من ثواب وعقاب ويلجؤون إلى الإقرار بإلهيّته بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غيره، ولذلك قال تعالى : [مولاهم الحقّ] أي أعرضوا عن المولى الباطل ورجعوا قهراً إلى المولى الحقّ [وضلّ عنهم ما كانوا يفترون] أي يعلمون أنّ كلّ ذلك من أعمالهم باطل وافتراء وكذب لا حقيقة له .

قوله تعالى : قل من يرزقكم من السماء والارض امن يملك السمع و الابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون (٣١) فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فانى تصرفون (٣٢) كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لايؤمنون (٣٣) .

لمّا بيّن فضائح عبدة الأوثان و ما يؤول في القيامة أمرهم شرع بذكر الدلائل الدالّة على فساد مذهبهم و هو أحوال الرزق و الحواسّ و أحوال الموت و الحياة ، أمّا الرزق فإنّه ينزل من السماء والأرض ، أمّا من السماء فبنزول الأمطار النافعة الموافقة ، و أمّا من الأرض لأنّ الغذاء إمّا أن يكون نباتاً او حيواناً أمّا النبات فلا ينبت إلّا من الأرض ، وأمّا الحيوان فهو يتوقّف وجوده و بقاؤه أيضاً إلى الغذاء و لا يمكن أن يكون غذاء كلّ حيوان حيواناً آخر وإلّا لزم الذهاب إلى مالانهاية له وذلك محال فلزم أن يكون غذاء الحيوان ينتهي إلى النبات وتولّد النبات من الأرض .

فثبت أنّ الأرزاق لاتحصل إلّا من السماء والأرض ومدبّر السماوات والأرض هو الله فثبت أنّ الرزق ليس إلّا من الله ، و أمّا أحوال الحواسّ فكذلك لأنّ أشرفها السمع والبصر ؛

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : سبحان من بصّر بشحم وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم .

وأمّا أحوال الموت والحياة قوله : [ومن يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ] أي يخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ويخرج الميّت من الحيّ أي يخرج النطفة

(١) الملك : ٢ .

والبيضة من الإنسان والطائر ، أو المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن لكنّ معنى الأوّل إلى الحقيقة أقرب .

ثمّ ذكر كلاماً كلّياً وهو قوله : [ومن يدبّر الأمر] لأنّ تمام مراتب الأمور هو مدبّره وخالقه من العالم العلويّ والسفليّ ، من الأرواح والأجساد كأنّه لمّا ذكر بعض الأفراد عقّبها بالكلام الكلّيّ الشامل على البواقي .

ثمّ بيّن وقال : إذا سألهم الرسول مثلاً عن خالق هذه الأمور فسيقولون : إنّه الله . وهذا يدلّ على أنّ المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعترفون بالله ولكن كانوا جاعلين أصنامهم شفعاءهم وشركاء الله فعند ذلك [قل] لهم يا محمد [أفلا تتّقون] الشرك والإشراك في المعبوديّة ولم تجعلون هذه الأوثان الّتي لاتنفع ولاتضرّ شركاء الله في العبادة ؟

قوله : [فذلكم الله] أي ومن كان قدرته و رحمته كذلك هو ربّكم الحقّ الثابت ربوبيّته وإذا كان كذلك وجب أن يكون سواه باطلاً لأنّ النقيضين يمتنع أن يكونا حقّين [فماذا بعد الحقّ إلّا الضلال فأنّى تصرفون] أي كيف تستجيزون العدول عن هذا الحقّ الظاهر ؟ واستدلّ الجبّائي بهذه الآية على بطلان قول المجبّرة حيث يقولون : إنّ الله يصرف الكفّار عن الإيمان تعالى الله عن ذلك ؛ لأنّه لو كان كذلك لما جاز أن يقول : «فأنّى تصرفون» وبالجملة لمّا ثبت أنّه ليس بعد الحقّ إلّا الضلال لأنّه ليس واسطة بينهما .

قوله : [كذلك] أي مثل انصرافهم عن الإيمان وجبت العقوبة لهم أي جازاهم الله بمثل انصرافهم عن الحقّ . وقيل : معناه أنّه كما ثبت وحقّ أنّه ليس بعد الحقّ إلّا الضلال كذلك حقّت كلمة ربّك . وقرىء بالجمع كلمات ربّك [على الّذين فسقوا] وخرجوا من الحقّ [أنّهم لايؤمنون] ويعلم أنّهم يبقون على الكفر .

قل هل من شركائكم من يبدء الخلق ثم يعيده قل الله يبدء الخلق ثم يعيده فانى تؤفكون (٣٤) .

احتجاج آخر على التوحيد [قل] يا محمد لهؤلاء المشركين [هل] من هذه الأصنام الّتي جعلتموها شركاء في عبادتي أو جعلتموها شركاء في أموالكم كما قال : «و هذا

لشركائناء[1] [من يبدء الخلق] بالإنشاء بعد أن لم يكن وهو النشأة الأُولى [ثمّ يعيده] في النشأة الثانية فإن قالوا : ليس من شركائنا من يفعل ذلك ويقدر عليه أوسكتوا ـ ويفهم هذا الكلام من الكلام عند الاحتجاج ؛ لأنّ الدليل إذا كان جليّاً فإذا أُورد على الخصم في معرض الإستفهام ثمّ يقول المستدلّ : الأمر كذلك كان تنبيهاً على وضوح الأمر حيث لايحتاج فيه إلى إقرار الخصم سواء أقرّ أو أنكر ـ فقل أنت يا محمّد : الله الّذي يبدء الخلق ثمّ يعيده [فأنّى تؤفكون] وكيف تصرفون عن الحقّ وتقلبون عن الإيمان ؟

واعلم أنّ جمهور العقلاء يقرّون بالصانع سوى جماعة قليلة من ملاحدة الفلاسفة .

ومن أقرّ بالصانع صنفان : موحّد يعتقد أنّ الله واحد لايستحقّ العبادة غيره ، ومشرك وهم ضربان : فضرب جعلوا لله شريكاً في ملكه يضادّه ويوازيه وهم الثنويّة والمجوس ، ثمّ اختلفوا فمنهم من يثبت لله شريكاً قديماً كالمانويّة ومنهم من يثبت شريكاً محدثاً كالمجوس ، وضرب آخر لايجعل لله شريكاً في حكمه وملكه ، ولكن يجعل له شريكاً في العبادة يكون متوسّطاً بينه وبين الله ، وهم أصحاب المتوسّطات ثمّ اختلفوا فمنهم من جعل الوسائط من الأجسام العلويّات كالنجوم و الشمس و القمر ، ومنهم من جعل المتوسّط من الأجسام السفليّة كالأصنام ونحوها فهؤلاء أجمع مشركون ، تعالى الله عن الشرك علوّاً كبيراً .

قوله : قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق افمن يهدى الى الحق أحق ان يتبع امن لايهدى الاان يهدى فمالكم كيف تحكمون (٣٥) .

احتجاج آخر إلزاماً لهم بعد إلزام و إفحام [قل] يا محمّد لهم [هل من] نوع [شركائكم] وأصنامكم من يكون له أدنى مراتب المعبوديّة بوجه من الوجوه وأدنى مراتب المعبوديّة لعبدته إلى مافيه صلاح أمرهم ؟ ويهديكم إلى طريق الحقّ ، و كيف يهدي الجماد الّذي لاحياة له ولا روح ولاحسّ ولا شعور ؟ فحينئذ [قل الله يهدي للحق] قال الزجّاج : هديت إلى الحقّ وهديت للحقّ بمعنى واحد والله تعالى ذكر هاتين اللغتين .

قوله تعالى [أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لايهدّي] وقوله «لايهدّي» أصله يهتدي قرىء ستّ لغات :

(١) الانعام : ١٣٧ .

الأولى : بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، أصله «يهتدي» أدغمت التاء في الدال و نقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء .

الثانية : ساكنة الهاء مشدّدة الدال أدغمت التاء وتركت الهاء على حالها . و هذه قراءة نافع فجمع في هذه القراءة بين ساكنين كما في قوله : «يخصّمون» و لهذا غلّطوا بعض على نافع في هذه القراءة .

الثالثة : بالإشارة إلى فتحة الهاء من غير إشباع فهو بين الفتح والجزم للتخفيف .

الرابعة : بفتح الياء و كسر الهاء وتشديد الدال فراراً من التقاء الساكنين ، والجزم يحرّك بالكسر .

الخامسة : بكسر الياء والهاء أتبع الكسرة للكسرة .

السادسة : يهدي ساكنة الهاء وتخفيف الدال على معنى يهتدي والعرب يقول: «يهدي» بمعنى يهتدي يقال : هديته فهدى أي اهتدى .

وههنا مسألة : وهي أنّ المراد من الشركاء في هذه الآية الأصنام وأنّها جمادات لاتقبل الهداية فكيف تليق بها نسبة الهداية ؟

والجواب من وجوه : الأوّل لايبعد أن يكون المراد من قوله : «قل هل من شركائكم من يبدء الخلق ثمّ يعيده» هو الأصنام والمراد من قوله : «هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ» رؤساء الكفر والدعاة إليها والدليل عليه قوله سبحانه: «اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله - إلى قوله : - لا إله إلّا هو سبحانه عمّا يشركون»[1] فحينئذ المراد و معنى الآية أنّهم لايقدرون على أن يهدوا غيرهم إلّا إذا هداهم الله ؛ فكان التمسّك بدين الله وقول الأنبياء المهتدين بهداية الله أولى من قبول قول هؤلاء الجهّال .

والوجه الثاني في الجواب أنّ القوم لمّا اتّخذوا هذه الأصنام آلهة لا جرم عبّر عنها كما يعبّر عمّن يعلم ويعقل ، ألا ترى أنّه تعالى قال : «إنّ الّذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم »[2] مع أنّها جمادات وقال: «وإن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم »[3] فأجرى

(١) التوبة : ٣١ .
(٢) الاعراف : ١٩٣ .
(٣) فاطر : ١٥ .

اللّفظ على الأوثان على حسب ما يجري على من يعقل ويعلم، فكذا ههنا وصفهم الله بصفة من يعلم وإن لم يكن الأمر كذلك.

الثالث أنّا نحمل على التقدير والفرض، يعني أنّها لو كان بحيث يمكنها أن يهدي فإنّها لا يهدي غيرها إلّا بعد أن يهديها غيرها، و إذا حملنا الكلام على التقدير فزال السؤال بالكلّيّة.

الرابع أنّ الهدي عبارة عن النقل والحركة يقال: هديت المرأة إلى زوجها هداية إذا نقلت إليه، و سمّيت الهديّة هديّة لانتقالها من رجل إلى غيره، و الهدي ما يهدى إلى الحرم من النعم فحينئذ قوله: «أمّن لا يهدّي إلّا أن يهدى» يحتمل أن يكون معناه أنّ هذه الأصنام لا ينتقل إلى مكان إلّا إذا نقل إليه و هي جمادات خالية عن القدرة و الحياة، فكيف يهدي غيره؟

ثمّ لمّا قرّر سبحانه هذه الحجج الباهرة على الكفّار قال سبحانه [فمالكم كيف تحكمون] هذا تعجّب من حالهم كيف يقضون بأُلوهيّة هذه الأصنام و يعتقدون أنّها تستحقّ العبادة.

قوله: وما يتبع أكثرهم الاظنا ان الظن لايغنى من الحق شيئاً ان الله عليم بما يفعلون (٣٦).

ثمّ قال: [وما يتّبع أكثرهم] الكفّار [إلّا ظنّاً] وفيه وجهان: الأوّل: وما يتّبع أكثرهم في إقرارهم بالله إلّا ظنّاً من غير تعقّل وبرهان بل سمعوه من أسلافهم. الثاني قوله: وما يتّبع أكثرهم في قولهم وعقيدتهم أنّ الأصنام آلهة وأنّها شفعاء عند الله إلّا الظنّ.
والقول الأوّل أقوى لأنّا على القول الثاني نحتاج إلى أن نفسّر الأكثر بالكلّ.

ثمّ قال: [إنّ الظنّ لايغني من الحقّ شيئاً].

وتمسّك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: العمل بالقياس عمل بالظنّ فوجب أن لا يجوز.

و أجاب مثبتو القياس فقالوا: الدليل الّذي دلّ على وجوب العمل بالقياس دليل قاطع؛ فكان وجوب العمل بالقياس معلوماً، فلم يكن العمل بالقياس مظنوناً بل كان معلوماً.

وأجابوا بأن لو كان الحكم المستفاد من القياس يعلم كونه حكماً لله لكان ترك العمل

به كفراً لقوله : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (١) ولمّا لم يكن كذلك بطل العمل به .

وقد يعبّرون عن هذه الحجّة بأن قالوا : الحكم المستفاد من القياس إمّا أن يعلم كونه حكماً لله أو يظنّ أولا يعلم ولا يظنّ والأوّل باطل وإلّا لكان من لم يحكم به كافراً لقوله : «ومن لم يحكم» و بالاتّفاق ليس كذلك . والثاني باطل لأنّ العمل بالظنّ لا يجوز لقوله : «إنّ الظن لا يغني» والثالث باطل لأنّه إذا لم يكن ذلك الحكم معلوماً و لا مظنوناً كان مجرّد التشهّي فكان باطلاً .

و أجاب مثبتو القياس بأنّ حاصل هذا الدليل يرجع إلى التمسّك بالعمومات والتمسّك بالعمومات لا يفيد إلّا الظنّ فلمّا كانت هذه العمومات دالّة على المنع من التمسّك بالظنّ لزم كونها دالّة على المنع من التمسّك بها ، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان متروكاً انتهى .

قوله : وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين (٣٧) أم يقولون افتريه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين (٣٨) بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تاويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٣٩).

هذه الآية تتمّة جواب الكافرين حيث قالوا : «لولا أُنزل عليه آية من ربّه» و كانوا يعتقدون أنّ القرآن ليس بمعجز وأنّ محمّداً إنّما أتى به من عند نفسه على سبيل الاختلاق ، وذكر سبحانه عن هذا الكلام أجوبة كثيرة فبيّن في هذه الآية أنّ إتيان محمّد بهذا القرآن ليس على سبيل الكذب والافتراء عليّ بل هو وحي منزل .

ثمّ إنّه تعالى قال : إذا كان الأمر على مايزعمون [فأتوا بسورة مثله] قوله : [وما كان هذا القرآن] بيان هذا المعنى .

وقوله : [أن يفترى] في تأويل المصدر ، و المعنى ماكان افتراء ، أو كلمة «أن» ههنا بمعنى اللام و التقدير : ليفترى كقوله : «و ما كان المؤمنون لينفروا (٢)» و «ماكان الله ليذر

(١) المائدة : ٤٨ .
(٢) التوبة : ١٢٣ .

المؤمنين»(٢) أي لم يكن ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك فكذلك ههنا أي ما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى .
والافتراء من فريت الأديم إذا قدّرته للقطع ، ثمّ استعمل في الكذب [ولكن] هذا القرآن وحي و [تصديق] للكتب الّتي بين يديه من التوراة والإنجيل وغيرهما ، أي شاهد لماتقدّم من الكتب قبله بأنّها حقّ كما أنّها شاهدة لصدقه ، أو المعنى أنّ القرآن والكتب الّتي قبله مصدّقة وشاهدة بالتوحيد والثواب والجزاء والبعث والقيامة .

قوله : [وتفصيل الكتاب] أي هذا القرآن تبيّن المعاني المجملة من الحلال والحرام والأحكام والأدلّة الكلاميّة ، وفيه جميع ماتحتاجون إليه من الأصول والفروع شارح ومميّز بعضه بعضاً ويبلّغكم من أُنزل عليه لأنّه إنّما يعرف القرآن من خوطب به ، وبالجملة لاشكّ أنّه من عند الله ولا يقدر أحد على مثله أن يأتي به من البشر .

قوله : [أم يقولون افتراه] هذا تقرير على موضع الحجّة بعد مضيّ حجّة أُخرى . بل أيقولون افتراه ؟ والتقدير : إذا قالوا : افتراه محمّد فقل والزمهم بإتيان سورة مثله [وادعوا من استطعتم] من الفصحاء للمعاونة واستعينوا بهم للمعاضدة بآية منه [إن كنتم] في دعواكم [صادقين] وهذا البيان غاية في التعجيز والتحدّي .

واعلم أنّ الناس اختلفوا في أنّ القرآن معجز من أيّ الوجوه للنبيّ :

فقال بعضهم : لاشتماله على الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة وإليه الإشارة بقوله: « تصديق الّذي بين يديه » .

ومنهم من قال : إنّه معجز لاشتماله على العلوم الكثيرة وإليه الإشارة بقوله : «وتفصيل كلّ شيء » ولاشكّ أنّ كتاباً يشتمل على تمام علوم الأوّلين و الآخرين من المعاشيّة و المعاديّة ويكون فيه أحكام جميع من يحتاج إلى حكم من غير إبقاء نكتة أو إهمال دقيقة من الخلق بأسرها بحيث لايشذّ عنه حكم واحد من الأفراد حكماً ومحكوماً لايكون إلّا من عند الله ولايتمكّن أحد سواءً كان نبيّاً أو ملكاً أو بشراً أن يأتي به ، ومانعني بالمعجزة إلّا هذا الأمر ؛ لأنّه متى ثبت العجز ثبت المعجز .

وقال بعضهم : إنّ إعجاز القرآن مع قطع النظر إلى اشتماله على العلوم و الدقائق

---

(١) آل عمران : ١٧٣ .

وقطع النظر عن الغيوب الماضية والمستقبلة عجزوا عن تركيب هذه الألفاظ على هذا الأسلوب مع أنّه لسانهم وهم كانوا أفصح العرب، وقال بعض: مع قطع النظر عن هذه الدلائل لمّا أراد الله أن يكون القرآن معجزاً لنبيّه منع الله أفواه جميع الخلق إلى يوم القيامة أن يتمكّنوا من إيتان آية أو سورة منه.

وهذا القول لا يمكن المناقشة فيه؛ حيثما ادّعى أحد ولا تمكّن منه مخلوق وما سمع أن يدّعي أحد فضلاً عن أن يأتي به. وأظنّ القائل بهذا القول الأخير السيّد المرتضى رحمة الله عليه.

قوله: [بل كذّبوا بما لم يحيطوا] أي كذّبوا بما لم يدركوا علمه من القرآن ولم يأتهم تفسيره؛ لأنّهم لم يراجعوا رسول الله حتّى يتعلّموا منه وفي القرآن علوم لا يمكنهم معرفتها إلّا بالرجوع إلى النبيّ لأنّ فيه أموراً يحتاج إلى الفكر والتدبّر والسؤال عن النبيّ، فالكفّار لمّا لم يعرفوا المراد منه كذّبوا به لعدم إحاطة علمهم بتأويله والنبيّ يعرف ذلك ولابدّ أن يستكشفوا منه، ولو راجعوه صلى الله عليه وآله لعلموه.

روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: خصّ هذه الأمّة بآيتين في القرآن أن لا يقولوا إلّا ما يعلمون، وأن لا يردّوا ما لا يعلمون، ثمّ قرأ «ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألّا يقولوا على الله إلّا الحق»(١).

قيل: إنّ من هنا أخذ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قوله: «الناس أعداء ما جهلوا» من قوله تعالى: «بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه».

وأخذ قوله: «قيمة كلّ امرىء ما يحسنه» من قوله تعالى: «فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم»(٢)

وأخذ قوله: «تكلّموا تعرفوا» من قوله: «ولتعرفنّهم في لحن القول»(٣)

قوله تعالى: [كذلك كذّب الّذين من قبلهم] أي مثل تكذيب هؤلاء الّذين في زمانك كذّبت الأمم السالفة رسلها [فانظر] يا محمّد كما كان عاقبة أولئك المكذّبين الهلاك كذلك

---

(١) الاعراف: ١٦٨.
(٢) النجم: ٣١.
(٣) محمد: ٣٢.

يكون عاقبة هؤلاء الظالمين .

ههنا مسألة بيانيّة وهي أنّ المعتزلة تمسّكوا بهذه الآية على أنّ القرآن مخلوق حادث و قالوا : إنّه ﷺ تحدّى العرب بالقرآن وطلب منهم أن يأتوا بمثله ، فلمّا عجزوا عنه ظهر كونه من عندالله ، وظهر صدقه ﷺ ، وهذا التحدّي إنّما يمكن لوكان الإتيان بمثله صحيح الوجود في الوجود ولوكان قديماً لكان الإتيان بمثل القديم محالاً في نفس الأمر فوجب أن لايصح التحدّي به .

تحقيق شريف و هو أنّه قال سبحانه في سورة البقرة : « وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » [١] وههنا قال : « فأتوا بسورة مثله » فما السبب في ذكر «من» هناك وهنا بغير «من» ؟ والسبب أنّ محمّداً ﷺ كان رجلاً أُميّاً لم يتلمّذ عند أحد ، ولم يطالع كتاباً لا بمعنى أنّه ماكان يعرف اللغات أو لايعرف العلوم ، أي تحصيله ماكان بطريق التلمّذ بل من لدن حكيم عليم ، و كان أعلم من عليها .

والحاصل : فليأت بسورة من مثله أي فليأت إنسان يساوي محمّداً في عدم التلمّذ و عدم مطالعة الكتب وممارسة العلماء بسورة تساوي هذه السورة وهذا لايدلّ على أنّ السورة في نفسها معجزة و لكنّه يدلّ على أنّ ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمّد ﷺ معجز . أمّا في هذه السورة بيّن أنّ تلك السورة في نفسها معجز ، وأنّ الخلق وإن تلمّذوا و تعلّموا وتفكّروا وطالعوا فإنّه لايمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور ؛ فلا جرم قال : «فأتوا بسورة مثله» .

واعلم أنّ الكفّار إنّما كذّبوا القرآن وفرضوه افتراء لأمور :

منها ـ وهو الأعظم حبّ ـ : الدنيا الفانية وأنّ القرآن مشحون بذمّ الدنيا و بيان مفاسدها وهذا الأمر على خلاف ميلهم وإراداتهم ويبيّن أنّ الدنيا فاسدة ونهاية كلّ متحرّك سكون وموت ، وغاية كلّ متكوّن أن لايكون ، و كذلك القرآن مملوءٌ من إثبات الحشر والنشر ، والقوم كانوا قد ألفوا المحسوسات فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ولم يتقرّر ذلك

(١) البقرة : ٢١ .

في قلوبهم الفاسدة وعقولهم السخيفة فظنّوا أنّ النبيّ ﷺ إنّما يذكر ذلك على سبيل الكذب .

و كذلك لمّا رأوا أنّ في القرآن أحكاماً راجعة إلى العبادات كالصلاة والصوم ونحوهما و يقولون بأنّ الله غنيّ عنّا وعن عبادتنا ويقيسون برأيهم وباجتهادهم الفاسد أنّ الغنيّ أجلّ من أن يأمرنا بشيء لافائدة فيه ، ثمّ يجرون الأمور على الأحوال المألوفة في عالم المحسوسات والطبيعيّات ولايعرفون أسرارها ولا يطلبون حكمها وعلمها ، و وجوه تأويلها عن النبيّ ﷺ فلاجرم وقعوا في التكذيب والجهل .

و لهذا قال سبحانه : [بل كذّبوا بمالم يحيطوا بعلمه] وهذه الآية إشارة إلى أنّ هذه الأمور من جهلهم في الأسرار .

قوله : ومنهم من يؤمن به ومنهم لايؤمن به وربك اعلم بالمفسدين(٤٠) و ان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم انتم بريؤن مما اعمل و انا بريء مما تعملون(٤١) .

لمّا ذكر في الآية السابقة قوله : « فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» وكان المراد منه تسليط العذاب عليهم في الدنيا شرح أحوال بعضهم بقوله : [و منهم من يؤمن] منبّهاً على أنّ الصلاح عنده تبقية هذه الطائفة دون الاستيصال من حيث كان المعلوم أنّ منهم من يؤمن به . و الأقرب و الأولى إرجاع الضمير إلى القرآن ، و قيل : إلى الرسول يعني أنّ منهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدّله بالإيمان ومنهم من يصرّ على كفره و يبقى عليه .

ثمّ قال سبحانه : [وإن كذّبوك فقل] يامحمّد لهم : [لي عملي ولكم عملكم] أي عملي الطاعة لي وعملكم الشرك لكم ، أوالمعنى : لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم [أنتم بريؤون ممّا أعمل وأنا بريء ممّا تعملون] .

قال بعض المفسّرين : هذه الآية منسوخة بآية السيف . وأنكروا جماعة النسخ لأنّ شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ و مدلول هذه الآية اختصاص كلّ واحد بأفعاله ، وثمرات أفعاله من الثواب والعقاب ، وآية القتال مارفعت شيئاً من مدلولات الآية فالقول بالنسخ باطل .

قوله تعالى : و منهم من يستمعون اليك افانت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون(٤٢) ومنهم من ينظر اليك افانت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون(٤٣) ان الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون(٤٤) .

في الآية قسّم الله الكفّار على قسمين : منهم من يؤمن به و منهم من لايؤمن به وفي هذا القسم ممّن لايؤمن على قسمين : منهم من يكون على غاية البغض والعداوة للرسول، وهو في نهاية النفرة عن قبول دينه ، ومنهم من لايكون كذلك .

فوصف القسم الأوّل فقال : [ومنهم من] يستمع كلامك مع أنّه كالأصمّ من حيث إنّه لاينتفع من الاستماع بذلك الكلام فإنّ الإنسان إذاقوي بغضه لإنسان آخر وعظمت نفرته عنه ، صارت نفسه متوجّهة إلى طلب مقابح كلامه ، معرضة عن جميع جهات محاسن الكلام فالصمّ في الأُذن معنى ينا في حصول إدراك الصوت فكذلك حصول هذا البغض الشديد كالمنافي للوقوف للمحاسن لذلك الكلام ، والعمى في العين معنى ينافي حصول إدراك الصورة ، فكذلك العداوة ينا في وقوف الإنسان على محاسن من يعاديه والوقوف على ما آتاه الله من الفضائل .

فبيّن تعالى أنّ في اُولئك الكفّار من بلغت حالته في البغض والعداوة إلى هذا الحدّ فكما أنّه لايمكن جعل الأصمّ سميعاً ، ولاجعل الأعمى بصيراً فكذلك لا يمكن جعل العدوّ البالغ في العداوة إلى هذا الحدّ صديّقاً تابعاً للرسول ﷺ والمقصود تسلية الرسول بأنّ هذه الطبقة من الكفّار قدبلغوا في مرض الجهل إلى حيث لايقبلون العلاج، والطبيب إذا رأى مريضاً لايقبل العلاج أعرض عنه فلاتستوحش أيّها النبيّ .

و ههنا مسألة : احتجّ جماعة بهذه الآية على أنّ السمع أشرف من البصر ؛ قالوا : إنّ الله قرن ذهاب السمع بذهاب العقل ولم يقترن بذهاب النظر إلّاذهاب البصر فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر لأنّ العقل أشرف الأشياء للإنسان .

ثمّ قالوا : إنّ الله كلّما ذكر السمع و البصر فإنّه قدّم ذكر السمع على البصر ، و كذلك إنّ العمى قد وقع على الأنبياء و أمّا الصمم فغير جائز عليهم لأنّه يخلّ بأداء الرسالة من حيث إنّه إذالم يسمع كلام السائلين تعذّر عليه الجواب فعجز عن تبليغ رسالته و شرائع الله على أنّ القوّة السامعة تدرك المسموعات من جميع الجوانب والباصرة لاتدرك المرئيّ

إلّا من جهة واحدة و هي المقابل .

ثمّ إنّ الإنسان إنّما يستفيد العلم بالتعليم من الأُستاذ و ذلك لايمكن إلّا بقوّة السمع ، واستكمال النفس بالكمالات العلميّة لا يحصل إلّا بقوّة السمع ولايتوقّف على قوّة البصر فكان السمع أشرف .

و من الدلائل على أشرفيّة السمع قوله تعالى : « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أوألقى السمع وهو شهيد»[1] والمراد من القلب‌ههنا العقل فجعل السمع‌قريناً للعقل .

و يتأكّد هذا بقوله تعالى : « و قالوا لو كنّا نسمع أونعقل ما كنّا في أصحاب السعير»[2] .

و من الدلائل أنّ متعلّق السمع النطق و هو شرف الإنسان و متعلّق البصر إدراك الأشكال والألوان ، و ذلك مشترك فيه بين الإنسان و سائر الحيوانات ، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر .

ومن الدلائل على أفضليّة السمع أنّ الأنبياء عليهم السلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم و نبوّتهم ماحصلت بسبب مامعهم من الصفات المرئيّة ، و إنّما حصلت بسبب مامعهم من الكلمات و الأصوات المسموعة فوجب أن يكون‌المسموع أفضل‌من‌المرئيّ . فهذا جملة ما تمسّك به القائلون بأنّ السمع أفضل من البصر .

ومن الناس من قال : البصر أشرف من‌السمع و استدلّوا بوجوه :

الحجّة الأُولى أنّهم قالوا : آلة القوّة الباصرة هي النور وآلة القوّة السامعة‌هي الهواء والنور أشرف من الهواء فالقوّة الباصرة أفضل‌من‌السامعة و في المثل المشهور : ليس وراء العيان بيان و ذلك يدلّ على أنّ أكمل وجوه الإدراك البصر .

الحجّة الثانية أنّ عجائب حكمة الله في تخليق العين أكثر من عجائب خلقته في الأُذن فركّب العين من سبع طبقات و ثلاث رطوبات و خلق لتحريكات العين عضلات كثيرة على صور مختلفة ، و الأُذن ليس كذلك و كثرة العناية في تخليق الشيء تدلّ على كونه أشرف من غيره .

---

(١) ق : ٣٦ .
(٢) الملك : ١٠ .

الحجّة الثالثة أنّ البصر يرى ماحصل فوق سبع سماوات و هو فلك الكرسيّ و نجومها والسمع لايدرك مابعد منه على فرسخ فكان البصر أقوى لرؤيته شواهد الربوبيّة .

قال ابن الأنباريّ : كيف يكون السمع أفضل من البصر و بالبصر يحصل جمال الوجه و بذهابه عيبه وذهاب السمع لايورث الإنسان عيباً ظاهراً مكشوفاً والعرب تسمّي العينين : الكريمتين ولاتصف السمع بمثل هذا ؛ ومنه الحديث يقول الله : من أذهبت كريمتاه فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنّة . انتهى .

فقوله تعالى : [أفأنت تسمع الصمّ] معناه أنّ هولاء الكفّار الّذين يستمعون و يطلبون السمع للردّ عليك لاللفهم فلذلك لزمهم الذمّ وعلى هذا الوجه من الاستماع هم صمّ لم يستمعوه حيث لم ينتفعوا به ، فأنت لاتقدر على أسماع الصمّ فهذا الكلام في حدّ التربية والإرشاد لنبيّه ﷺ لا نكار استماعهم وأوقع الكلام في معرض الاستحاله .

وأكّده بقوله : [ولو كانوا لايعقلون] أي ولو انضمّ إلى صممهم عدم العقل والإدراك فبالحريّ أن لايسمعوا ، لأنّ الأصمّ العاقل ربّما يتفرّس إذا وصل إلى صماخه هوت و أمّا إذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعاً فقدتمّ الأمر و كذلك الأعمى كيف تهديهم أنت وتبيّن لهم الطريق للهداية و ليس لهم أعين ؟ فكيف ينظرون خصوصاً إذا انضمّ إلى العمى عدم البصيرة ؟ فإذا اجتمع عدم البصر وعدم البصيرة فحينئذ تمّ الأمر ؛ لأنّه اجتمع فيه الحمق والعمى .

وجواب «لو» محذوف في الجملتين لدلالة الكلام وهو قوله تعالى : « تسمع الصمّ وتهدى العمى » عليه أي أفأنت تسمع الصمّ لو كانوا يعقلون ، ولو كانوا لا يعقلون لا تسمع أفأنت تهدي العمي لوكانوا يبصرون ولو كانوا لايبصرون ؟ أي على كلّ حال مفروض .

قوله : [إنّ الله لايظلم الناس شيئاً ولكن النّاس أنفسهم يظلمون] المعتزلة والعدليّة احتجّوا بهذه الآية على صحّة مذهبهم وردّ مذهب القدريّة أي الجبريّة ووجه الاستدلال به أنّه يدلّ علي أنّه تعالى ما ألجأ أحداً بالكفر و لا بهذه القبائح و المنكرات لكنّهم باختيار أنفسهم يقدمون عليها ويباشرونها لأنّ الآية صريحة الدلالة على هذا المعنى .

قوله : ويوم يحشرهم كان لم يلبثوا الاساعة من النهار يتعارفون بينهم

قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين (٤٥) وإما نرينك بعض الذى نعدهم او نتوفينك فالينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون (٤٦).

المعنى : لمّا وصف هؤلاء الكفّار بقلّة الإصغاء وترك التعقّل والتدبّر أتبعه بذكر الوعيد فقال : [ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا] مشابهين حالاً من حال من يلبث ساعة من النهار وقوله : [يتعارفون] يجوز أن يكون متعلّقاً بيوم يحشرهم ويجوز أن يكون حالاً بعد حال و«كأن» مخفّفة من المثقّلة والتقدير : كأنّهم لم يلبثوا في الدنيا إلّا ساعة من النهار.

و حاصل المعنى : يوم نجمعهم من كلّ مكان إلى الموقف كأنّهم لم يلبثوا في الدنيا إلّا مقدار ساعة أي استقلّوا أيّام الدنيا فإنّ المكث في الدنيا وإن طال كان بمنزلة مكث ساعة في جنب الآخرة.

وقيل : إنّهم استقلّوا مدّة لبثهم في القبور ، عن ابن عبّاس وجماعة ؛ وقد دلّ القرآن بذلك الوجهين ؛ قال الله : «كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم»[1]

وذكروا في سبب الاستقلال وجوهاً ؛ قيل : لمّا شاهدوا من أهوال الآخرة و دوامها وعظم خوفهم نسوا زمان الدنيا واستقلّوه ، ولمّا طال وقوفهم في الحشر استقلّوا بقاءهم في الدنيا.

قوله : [يتعارفون بينهم] أي إنّ الخلق يعرف بعضهم بعضاً في ذلك الوقت كما كانوا في الدنيا كذلك وقيل : معناه : يعرف بعضهم ممّا كانوا عليه من الخطاء و الكفر.

قال الكلبيّ : يتعارفون إذا خرجوا من قبورهم ثمّ ينقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب ويتبرّء بعضهم من بعض فحينئذ لا يسأل حميم حميماً أو المراد من قوله : [يتعارفون] يوبّخ بعضهم بعضاً فيقول كلّ فريق للآخر : أنت أضللتني يوم كذا و زيّنت لي الفعل الفلانيّ من القبائح فهذا تعارف بين اثنين في التقبيح والتعنيف والتقاطع لا تعارف عطف وشفقة . و كلمة التعارف يشمل القسمين فلا منافاة بين هذه الآية وبين آية «ولا يسأل حميم حميماً»[2].

قوله : [قد خسر الّذين كذّبوا] فيه وجهان : الأوّل : أن يكون التقدير : ويوم يحشرهم

---

(١) المؤمنون : ١١٥ .
(٢) المعارج : ١٠ .

رجال كونهم متعارفين و حال كونهم قائلين : « قد خسر الّذين كذّبوا بلقاء الله» و الوجه الثاني أن يكون «قدخسر الّذين كذّبوا» كلام الله فيكون شهادة من الله عليهم بالخسران أي من باع آخرته بدنياه «فقد خسر» لأنّه أعطى الكثير الشريف الباقي وأخذ الخسيس الفاني .

[وما كانوا مهتدين] إلى رعاية مصالح هذه التجارة لأنّهم اغترّوا بالظاهر و غفلوا عن الحقيقة كمن رأى زجاجة صافية حسنة فظنّها جوهرة نفيسة فاشتراها بكلّ ماملكه فلمّا عرضها على الناقدين خاب سعيه و أخبروه بأنّها زجاجة لا تعادل فلساً ، فوقع في حرقة الروع وعذاب القلب .

قوله : [وإمّا نرينّك بعض الّذي نعدهم] في الدنيا وقيل : إنّه سبحانه وعد محمّداً صلى الله عليه وآله أن ينتقم له من أعدائه إمّا في حياته أو بعد وفاته ولم يعيّن سبحانه الوقت فقال في هذه الآية : إنّ ما وعدناه حقّ إمّا نرينّك يا محمّد في حياتك بعض الّذي نعد هؤلاء الكفّار من العقوبة في الدنيا ، قالوا : ومنها وقعة بدر وبعض الغزوات على الكفّار .

[أو نتوفّينّك] ونميتك قبل أن ينزل ذلك بهم ، وينزل ذلك بهم بعد موتك وستراه في الآخرة أكثر وإلى حكمنا مصيرهم في الآخرة فلا يفوتنا .

[ثمّ الله شهيد] عليهم بأفعالهم ويوفّيهم كفرهم ومعاصيهم .

وقوله : ولكل امة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون (٤٧) .

لمّا بيّن حال محمّد صلى الله عليه وآله مع قومه بيّن حال الأنبياء مع أقوامهم تسلية للرسول .

وهذه الآية تدلّ على أنّ كلّ جماعة ممّن تقدّم قد بعث الله إليهم رسولاً ، و أنّه ما أهمل اُمّة من الاُمم قطّ ويؤيّده قوله تعالى : «وإن من اُمّة إلّا خلا فيها نذير»[١] فإن قيل : كيف يصحّ هذا مع ما نعلمه من أحوال الفترة ؟ ومع قوله سبحانه : «لتنذر قوماً ما اُنذر آباؤهم» [٢] فالجواب أنّ كون كلّ اُمّة أن يكون لها نذير لا يوجب أن يكون الرسول حاضراً مع القوم لأنّ تقدّم الرسول لايمنع من كونه رسولاً إليهم وحكمه باقياً

(١) فاطر : ٢٢ .
(٢) يس : ٥ .

فيهم كما لايمنع تقدّم رسولنا من كونه مبعوثاً إلينا إلى آخر الأبد . ويحمل معنى الفترة على ضعف الدين وارتداد الناس عن الحقّ ووقوع موجبات التخليط فيها .

والحاصل في معنى الآية : لكلّ أُمّة كأُمّة محمّد وأُمّة موسى وأُمّة إبراهيم وأُمّة عيسى بعث الله إليهم وحمل رسله الرسالة الّتي كان مأموراً لتبليغه .

قوله : [فإذا جاء رسولهم] ههنا حذف وإضمار والتقدير فإذا جاء رسولهم و بلغ الرسالة فكذّبه قوم وصدّقه آخرون [قضي بينهم] يهلك المكذّبون وينجي المؤمنون وفصل الأمر بينهم بالعدل وهم لاينقصون عن ثواب طاعاتهم ولا يزدادون في عقاب سيّئاتهم .

قوله : ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (٤٨) قل لا املك لنفسى ضرا ولانفعا الاماشاء الله لكل امة اجل اذا جاء اجلهم فلايستاخرون ساعة و لايستقدمون (٤٩) .

المعنى : لمّا أوعد الله المكذّبين بيّن في هذه الآية أنّهم استعجلوا ذلك الوعيد على سبيل التكذيب والردّ .

قل يامحمّد في جوابهم : [لاأملك لنفسي ضرّا ولانفعاً] ولاأقدر لنفسي على ضرّ أو نفع إلّا ماشاء الله أن يملكني أويقدرني عليه وحينئذ فكيف أقدر لكم ضرّاً أونفعاً أوتقديم القيامة وتعجيل العقوبة قبل الوقت المقدّر ؟ لكلّ أُمّة أجل لعذابها في تكذيب الرسل وموتها فلايتأخّرون عن ذلك الوقت ، ولايتقدّمون . و كلمة «متى» سؤال عن الزمان كما أنّ «أين» سؤال عن الزمان .

واحتجّ المعتزلة بقوله : «قل لاأملك لنفسي ضرّاً ولانفعاً إلّا ماشاء الله» قالوا : هذا الاستثناء يدلّ على أنّ العبد لايملك لنفسه ضرّاً ولانفعاً إلّا الطاعة والمعصية فهذا الاستثناء يدلّ على كون العبد مستقلاً بهما .

قوله : قل أرايتم ان اتكم عذابه بياتا اونهارا ماذا يستعجل منه المجرمون (٥٠) أثم اذا ما وقع آمنتم به الان وقد كنتم به تستعجلون (٥١) ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم به تكسبون (٥٢)

المعنى : هذا جواب آخر لقول الكفّار الّذين يكذّبون النبيّ و كانوا يقولون

لأنبيائهم : أنتم تخوّفونا بالعذاب والبعث والقيامة متى هذا الوعد ولمَ لم يأتنا ؟ ويستعجلون العذاب .

[قل] يا محمّد لهم : [أرأيتم] أي أعلمتم [إن أتاكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون] أي أيّ شيء الّذي يستعجل من العذاب المجرمون ؟

وحاصل الجواب أن يقال لأولئك الكفّار الّذين يطلبون نزول العذاب : بتقدير أن يحصل هذا المطلوب ما الفائدة لكم فيه ؟ فإن قلتم : نؤمن عنده ؛ فذلك باطل ؛ لأنّ الإيمان في ذلك الوقت إيمان إلجاء وقسر ، وذلك لا يفيد قطعاً .

قال أبوجعفر الباقر عليه السلام : يريد بذلك عذاباً ينزل على فسقة أهل القبلة في آخر الزمان أجارنا الله .

قوله : [أثمّ إذا ما وقع آمنتم به] أي أحين وقع بكم العذاب المقدّر الموقّت آمنتم بالله أو بالقرآن أو بالعذاب الّذي كنتم تنكرونه ؟ فيقال لكم : [آلآن] تؤمنون وتصدّقون وقد اضطررتم لحلوله وقد كنتم بالعذاب من قبل تستعجلون و كنتم تستهزئون .

ثمّ يقال يوم القيامة للّذين ظلموا أنفسهم على وجه التقريع : ذوقوا عذاب الدائم . و قوله : [ثمّ قيل للذين ظلموا] عطف على الفعل المضمر قبل كلمة «آلآن» قيل لهم : «آلآن» نظير قوله : «آلآن وقد عصيت»[1] فذوقوا عذاب الدائم بعد عذاب الدنيا .

قوله : [هل تجزون] إلّا بسبب ما كسبتم وأنّكم هديتم من قبل فما اهتديتم ، وبيّن لكم الأدلّة وأُزيحت عنكم العلّة فأبيتم إلّا التمادي في الكفر والامتناع والانهماك في الغيّ ؛ فحينئذ ذوقوا جزاء أعمالكم . و الذوق طلب الطعم و إحساس الكيفيّة . و قيل : لأنّهم يتجرّعون العذاب بدخول أجوافهم .

قوله : « بياتاً» أي ليلاً يقال : بتّ ليلتي أفعل كذا . والسبب فيه أنّ الإنسان يكون في الليل غالباً في بيته ؛ فجعل هذا اللفظ كناية عن الليل و«البيات» مصدر كالوداع والسراج . ويقال في النهار : ظللت أفعل كذا ؛ لأنّ الإنسان في النهار ظاهر في الظلّ . و «ماذا » قيل : كلمة واحدة ويكون منصوب المحلّ ، نحو : «ماذا أراد الله»[2] وقيل : كلمتين ومحلّ «ما»

---

(١) السورة : ٩١ . (٢) البقرة : ٢٥ .

الرفع على الابتداء وخبره « ذا » بمعنى الّذي فيكون معناه : ما الّذي يستعجل منه . و دخول حرف الاستفهام على « ثمّ » كدخوله على الواو و الفاء نحو قوله : « أو أمن أهل القرى » [(١)] للتقريع وإفادة التوبيخ .

واعلم أنّ الآية صريحة الدلالة على أنّ العبد هو المكتسب لأفعاله التكليفيّة وليس إجبار من الله تعالى أبداً خلافاً للجبريّة .

قوله : ويستنبؤنك أحق هو قل اي و ربي انه لحق و ما انتم بمعجزين (٥٣) ولو ان لكل نفس ظلمت مافي الارض لافتدت به و اسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون (٥٤) .

المعنى : قوله : [ويستنبؤنك] عطف على « ويستعجلونك » و وقوع الاستعجال حين قالوا : « متى هذا الوعد » أي يقولون : متى تكون القيامة و العذاب و يستخبرونك أحقّ ما تقول ؟ واختلفوا في الضمير في قوله : « أحقّ هو » قيل : أحقّ ماجئتنا من القرآن والنبوّة والشرائع ؟ وقيل : أحقّ ماتعدنا من البعث والعذاب والقيامة ؟ وقيل : ماتعدنا من عذاب الدنيا ونزوله . فأمر سبحانه نبيّه أن يجيبهم بقوله : [إي وربّي إنّه لحقّ] .

والفائدة أن يستميلهم ويتكلّم معهم بكلام المعتاد ، وأنّ من أخبر عن شيء وأكّده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل والشبهة ، وأدخله في الجدّ و الحقيقة والناس طبقات : فمنهم من لايقبل الشيء إلّا بالبرهان الحقيقيّ ، ومنهم من لاينتفع بالبرهان بل ينتفع ويقنع بالبيانات الإقناعيّة نحو القسم ؛ فإنّ الأعرابيّ الّذي جاء الرسول ﷺ وسأل عن نبوّته اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم . قل يا محمّد ﷺ لهم : نعم وحقّ الله إنّ ما وعدتكم بمجيئه لحقّ لاشكّ فيه .

ثمّ أكّد سبحانه بقوله : [وما أنتم بمعجزين] وسابقين وفائتين لمن وعدكم بالعذاب أن ينزّله عليكم ، لايمكن لأحد أن يمانع ربّه ويدافعه عمّا أراد وقضى .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ هذا الجنس من الكلمات إنّما ينفع لهم ماداموا في الدنيا فأمّا إذا حضروا محفل القيامة وعاينوا قهر الله تعالى وماتوا على كفرهم لاينفعهم شيء أبداً فقال:

---

(١) الاعراف : ٩٦ .

[ولو أنّ لكلّ نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به] والافتداء إيقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه أي لو أنّ لهم جميع ما في الأرض ويعطون بدل عذابهم لايمكن ذلك ؛ لأنّه في ذلك الوقت لا يملك شيئاً كما قال سبحانه : « وكلّهم آتيه يوم القيامة فرداً »[١] و بتقدير أن يملك خزائن الأرض لاينفعه الفداء لقوله تعالى : « ولايؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون »[٢].

وقال في صفة هذا اليوم : « لابيع فيه ولاخلّة ولاشفاعة »[٣].

قوله : [وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب] وجاء بصيغة الماضي لتحقيق وقوعه . و« الإسرار » معناه الإخفاء و الإظهار ضدّ ان فإذا كان بمعنى الإخفاء فظاهر ، وأمّا بمعنى الإظهار من قولهم : سرّ الشيء وأسرّه إذا أظهره فقيل : المراد إخفاء تلك الندامة لأنّهم لمّا رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيّرين فلم يطيقوا عنده بكاء ولاصراخاً سوى إسرار الندم كحالة من يذهب به إلى الصلب ؛ فإنّه يبقى مدهوشاً متحيّراً لاينطق بكلمة ، أولأنّهم أسرّوا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياءً منهم وخوفاً توبيخهم .

فإن قيل : إنّ مهابة ذلك الموقف يمنع الإنسان عن مثل هذه الأمور .

قيل : إنّ ذلك قبل الورود في النار وإلّا فبعد الورود استصرخوا وأظهروا لقوله تعالى : « قالوا ربّنا غلبت علينا شقوتنا »[٤].

وأمّا من قال : المراد بالإسرار الإظهار فظاهر لأنّهم إنّما أخفوا الندامة في الدنيا إمّا لأجل رياستهم وميلهم أو أنّ الندامة ماحصلت لهم حتى يخفوا أو يظهروا ولكن لمّا رأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب فحينئذ أظهروا الندامة .

قوله : [وقضي بينهم بالقسط] والعدل قيل : قضي بين المؤمنين و الكافرين . وقيل : بين الرؤساء والأتباع من أهل الكفر لأنّهم وإن اشتركوا في العذاب لكن لابدّ أن يقضي بينهم بالعدل لأنّه لايمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضاً في الدنيا فيكون في ذلك القضاء

(١) مريم : ٩٦ .
(٢) البقرة : ٤٥ .
(٣) « : ٢٥٥ .
(٤) المؤمنون : ١٠٨ .

تخفيف بعضهم دون بعض وتثقيل بعضهم دون بعض لأنّ العدل يقتضي أن ينتصف للمظلومين من الظالمين ولا سبيل إليه إلّا بأن يخفّف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين .

قوله تعالى : ألا ان لله ما في السموات والارض الا ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لا يعلمون (٥٥) هو يحيي ويميت واليه ترجعون (٥٦)

تعلّق الآية بما قبلها هو أنّه قال قبل هذه الآية : «ولو أنّ لكلّ نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به» فلا جرم بيّن في هذه الآية أنّه ليس للظالم شيء يفتدي به فإنّ كلّ الأشياء ملك الله تعالى وملكه .

وههنا دقيقة أُخرى وهي كلمة « ألا» وهذه الكلمة إنّما تذكر عند تنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وأهل هذا العالم غالباً مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة فيقولون : البستان للأمير ، والدار للوزير ، والغلام لزيد ، والجارية لعمرو ؛ فيضيفون كلّ شيء إلى مالك آخر والخلق لكونهم في رقدة الغفلة يظنّون صحّة تلك الإضافات ؛ فالله سبحانه ينبّه الغافلين بقوله : [ألا إنّ لله] وذلك لأنّه لمّا ثبت بالعقل أنّ ما سوى الواحد الأحد ممكن لذاته والممكن مستند إلى الواجب لذاته فما سواه ملكه أجدّ ، فما سواه له وليس لغيره في الحقيقة .

ثمّ نبّه ثانياً بقوله تعالى أنّ المالك الغنيّ عن كلّ شيء جميع ما وعد به من العذاب والحشر والنشر حقّ وواقع لا محالة .

[ولكنّ أكثرهم] لغفلتهم ولاقتصار فهمهم على المحسوسات المعتادة [لا يعلمون] فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون [هو يحيي ويميت] من غير دخل لأحد في ذلك [وإليه] لا إلى غيره في الآخرة [ترجعون] بالبعث والحشر .

قوله : يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين (٥٧) قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (٥٨) .

المعنى : [يا أيّها الناس] خطاب لجميع الخلق والمكلّفين [قد جاءتكم موعظة] يعني القرآن . والموعظة بيان ما يجب أن يحذر عنه ويرغب فيه و يدعو إلى الصلاح ويزجر

عن الفساد [وشفاء لما في الصدور] كالدواء لإزالة الداء فداء الجهل أضرّ من داء البدن ، و علاجه أعسر وأطبّاؤه أقلّ والشفاء منه أجلّ والصدر موضع القلب ، وهو أجلّ موضع من البدن لشرف القلب [وهدىً] أي القرآن دلالة تؤدّي إلى معرفة الحقّ [ورحمة] أي نعمة لمن تمسّك به وعمل بمافيه .

وإنّما خصّ المؤمنين بالذكر و إن كان القرآن موعظة لجميع الخلق لأنّهم الّذين انتفعوا به .

وقد وصف الله سبحانه القرآن بأوصاف أربعة الموعظة والشفاء لما في الصدور وبالهدى وبالرحمة .

[قل] يا محمد بإفضال الله ونعمته ، ووضع الفضل موضع الإفضال كما وضع النبات موضع الإنبات في قوله : «والله أنبتكم من الأرض نباتاً» [(١)] أي إنباتاً [فبذلك فليفرحوا] بدل من قوله : « بفضل الله» أي بالقرآن فليفرحوا لأنّه خير لكم يا اُمّة محمد وهو أحسن لكم [ممّا يجمعون] الكفّار من الأموال .

وحاصل المعنى أنّه قل يا محمد لهؤلاء الفرحين بأموال الدنيا الجامعين لها : إذا فرحتم بشيء فافرحوا بفضل الله و رحمته : بهذا القرآن و بإرسال محمد صلى الله عليه وآله إليكم فحينئذ إنّكم تحصلون بهما نعيماً دائماً مقيماً . وقيل : «فضل الله هو القرآن و رحمته الإسلام عن أبي سعيد الخدري» . و روى أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : من هداه الله للإسلام و علّمه القرآن ثمّ شكى الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم القيامة .

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : فضل الله رسول الله صلى الله عليه وآله ورحمته عليّ بن أبي طالب عليه السلام . و روى الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس كذلك . و في الآية بيان آخر و طريق صحيح لإثبات النبوّة وهو أنّا نعلم بعقولنا أنّ من جاء ودعى الخلق إلى الحقّ ونهاهم عن الباطل والفساد ، ونقل الناس من الكفر والفساد إلى الإيمان والصلاح و معه آية ومعجزة لا يتمكّن غيره أن ياتي بها فهو النبيّ الحقّ الصادق المصدّق .

ومن المعلوم أنّ نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع الجهل و النقص وحبّ الدنيا

---

(١) نوح : ١٦ .

وطالبين لاستدراك مشتهيات طباعهم ومستلذّاتهم بأيّ نحو كان ومن أيّ وجه حصل .

ولاشكّ أنّ هذا الميل يستدعي إلى ارتكاب جهالات وضلالات غير متناهية ؛ وإذاكان كذلك فالخلق يحتاجون إلى إنسان كامل قويّ النفس مشرق الروح علويّ الملكة بحيث يقوى بكماله نقل هؤلاء الناقصين والجاهلين الفاسدين المفسدين إلى مقام الكمال حتّى لا يقع الهرج والمرج ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكرات .

ونحن نرى أنّ الناس طبقات : الناقصون و هم الجهلة الفسدة ، والكاملون الّذين لا يقدرون على تكميل الناقصين ، والأكملون الّذين يقدرون على تكميل الناقصين ؛ فالطبقة الأولى هي عامّة الخلق ، والقسم الثاني بعض الأولياء ، والثالث هم الأنبياء .

ولمّا كانت القدرة على نقل الناقصين إلى درجة الكمال متفاوتة ومراتبها مختلفة لاجرم كانت درجة الأنبياء في قوّة النبوّة مختلفة ؛ ولهذا السرّ قال ﷺ : علماء امّتي كأنبياء بني إسرائيل .

إذا عرفت هذه المقدّمات وظهر لك إعجاز القرآن ثبت لك نبوّته وهذه الاستدلال أي المعجزيّة على نبوّته برهان الإنّ على اصطلاح المنطقيّين ، و هذه البيانات الّتي نذكرها في تفسير هذه الآية برهان اللمّ وهو أشرف وأعلى فائدة .

اعلم أنّ نور العقل يضعف حيث قويت العلائق الحسيّة والحوادث الجسدانيّة ، يوجب ذلك الاستغراق حصول العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة في جوهر الروح ، وهذه الأحوال تجري مجرى الأمراض الشديدة للروح والبدن فلا بدّ لها من طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات المفيدة وبها حصلت الصحّة وزال السقم ؛ فكان محمّد ﷺ كالطبيب الحاذق والقرآن عبارة عن مجموع الأدوية الّتي بتركّبها تتعالج القلوب المريضة و الأرواح الفاسدة .

والطبيب له مع المريض في المعالجة أحوال أربعة :

الأولى أن ينهاه عن تناول مالاينبغي ويأمره بالاحتراز عن أمور بسببها وقع ذلك المرض و هذا هو الموعظة فإنّه لامعنى للموعظة إلّا الزجر و المنع عمّا يبعّد الإنسان عن مرضاة الله .

والثاني من حال الطبيب الشفاء وهو أن يسقيه أدوية يزيل المرض و أخلاط الفاسدة

عن باطنه ليبرأ المرض فهذا النبيّ الطبيب بهذا الدواء الّذي هو شفاء للصدور يتداوى ذلك المريض كقوله تعالى : «إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي» (١) فصار جوهر الروح مطهّراً من النقوش المانعة .

والمرتبة الثالثة حصول الهداية كما يحصل للمريض حصول العافية ، ويحصل لجوهر النفس الناطقة فيض السعادة والأضواء الإلهيّة ، وفيض عامّ غير منقطع قال ﷺ : إنّ لربّكم في أيّام دهر كم نفحات ألا فتعرّضوا لها . والمنع في حقّه تعالى ممتنع فعلى هذا عدم حصول هذه الأضواء الروحانيّة إنّما كان للعقائد الفاسدة و الأخلاق الذميمة و الظلمة فحينئذ يمتنع حصول النور فإذا زالت تلك الأحوال فيقع ضوء عالم القدس و المريض يصحّ .

وأمّا الحال الرابع للطبيب فهي أن تصير النفس بالغة إلى هذه الدرجات العالية والمعارج الربّانيّة بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر ضياء الشمس على أجرام هذا العالم ، وهو المراد بقوله : «ورحمة للمؤمنين» وهو وجود محمّد ﷺ الّذي جعله الله رحمة انتهى .

قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما و حلالا قل آلله اذن لكم ام على الله تفترون (٥٩) وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيمة ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لايشكرون (٦٠) .

النظم : قيل : لمّا وصف القرآن بأنّه هدى ورحمة وأمرهم بالتمسّك به عقّبه في هذه الآية بذكر مخالفتهم .

و قيل : إنّها اتّصلت بقوله : «قل من يرزقكم من السماء والأرض» فإذا أقرّوا أنّه الرزّاق [قل] لهم يا محمّد لكفّار مكّة وغيرهم من المشركين و«ما» بمعنى «الّذي» منصوب «برأيتم» قل لهم على وجه التقريع ولوكان بصورة الاستفهام : الّذي [أنزل الله لكم من رزق] وإنّما قال : أنزل الله لأنّ أرزاق العباد من المطر الّذي ينزله الله . لم جعلتم بعضه حلالاً و بعضه حراماً أي ما حرّموا من قبل أنفسهم كالسائبة والبحيرة والوصيلة والزروع .

[آلله أذن لكم] في هذه الأمور ؟ ومعناه أنّ الله لم يأذن لكم في شيء من ذلك بل أنتم

---

(١) النحل : ٩٢ .

تكذبون في ذلك على الله سبحانه . وأيّ شيء يظنّ الّذين يكذبون على الله يوم القيامة ؟ أي لاينبغي أن يظنّوا أن نصيبهم على افترائهم على الله إلّا العذاب الشديد . وقرىء «ظن» بصيغة الماضي .

قوله : [إنّ الله لذو فضل على الناس] بما فعل بهم من ضروب الإنعام [ولكنّ أكثرهم لايشكرون] نعمه ويجحدونها وقيل : معناه أنّه لذو فضل على خلقه بترك معاجلته العذاب على من افترى عليه بالعقوبة ، و يمهلهم لعلّهم ينتبهون .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ إمهاله إيّاهم ليس لجهل بحالهم ، فقال :

قوله : وما تكون في شان وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل الاكنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا اصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين (٦١).

[وما تكون] أنت يا محمّد وامّتك في حال من الأحوال من الدين والدنيا [وماتتلو منه] الضمير إلى الله أو ضمير الشأن وما تقرء من الله [من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنّا] عالمين به شاهدين عليكم متى ما دخلتم في ذلك العمل . و«الإفاضة» الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه مأخوذ من انصباب الماء من الإناء من جوانبه .

[ومايعزب] ويغيب عن علم [ربّك] وزن نملة صغيرة [في الأرض ولا في السماء ولا أصغر] من وزن نملة و [لا أكبر إلّا] هو مثبوت ومبيّن في كتاب بيّنه الله فيه ، وهو اللّوح المحفوظ . أو المراد الكتاب الّذي كتبه الملائكة السفرة والحفظة . قال الصادق عليه السلام : كان رسول الله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً .

وهذه الآية ردّ على قول من يقول : إنّ الله ليس عالماً بالجزئيّات .

قوله تعالى : ألا ان اولياء الله لاخوف عليهم و لا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا و كانوا يتقون (٦٣) لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الاخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (٦٤) ولايحزنك قولهم ان العزة لله جميعا هو السميع العليم (٦٥) .

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّه سبحانه عالم بجميع ماتعملون شرح أحوال الصادقين الصدّيقين ونفى الخوف والحزن عنهم بقوله : [ألا إنّ أولياء الله ، إلخ] ولا بدّ أن نعرف

الوليّ فعرّفه سبحانه بقوله : [الّذين آمنوا وكانوا يتّقون] وعن النّبيّ ﷺ : هم الّذين يذكر الله برؤيتهم . والسبب فيه أنّ مشاهدتهم تذكّر أمر الآخرة لما يشاهد منهم من الخشوع والخضوع كما قال سبحانه : «سيماهم في وجوههم من أثر السجود»(١) .

قال أبوبكر الأصمّ : أولياء الله هم الّذين تولّى الله هدايتهم باليقين و تولّوا القيام بحقّ عبوديّة الله والدعوة إليه .

وظهر في علم الاشتقاق أنّ تركيب الواو و اللاّم و الياء تدلّ على القرب ؛ فوليّ كلّ شيء هو الّذي يكون قريباً منه والقرب من الله بالمكان والجهة محال ؛ فالقرب منه إنّما يكون إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفة ؛ الله فإن رأى دلائل معرفة الله ، و إن سمع سمع آيات الله ، وإن نطق نطق بالثناء على الله ، وإن تحرّك تحرّك في خدمة الله فهنالك يكون هذا الإنسان في غاية القرب من الله ويكون وليّ الله وإذا كان كذلك كان الله وليّه كما قال سبحانه : «الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور» (٢) والقرب لايحصل إلّا من الجانبين .

وقال المتكلّمون : وليّ الله من يكون بالاعتقاد الصحيح المبنيّ على الدليل ويكون آتياً بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة . وبالجملة فهؤلاء [لاخوف عليهم ولا هم يحزنون] لأنّ الخوف إنّما يكون في المستقبل والحزن إنّما يكون على الماضي إمّا لأجل أنّه كان قد حصل في الماضي ما كرهه أولأنّه فاته شيء أحبّه .

وليس المراد أنّ الأولياء لايلحقهم في الدنيا خوف وحزن ، بل المراد في الآخرة ؛ لأنّ المؤمن وإن صفا عيشه في الدنيا فإنّه لا يخلو من همّ بأمر الآخرة شديد و حزن على ما يفوته في القيام بطاعة الله ، وقلّما يتّفق أن يكون المؤمن خالياً من قلّة أوذلّة أوعلّة كما في الحديث : الدنيا سجن المؤمن .

قال ابن عطا : بين العبد والربّ بحران عميقان : أحدهما بحر النجاة وهو القرآن والآخر بحر الهلاك وهو الدنيا ؛ فمن ركن إليها هلك ، ليذهب بلال الحبشيّ بالتاج والحلية إلى الفردوس ويذهب بمولاه صاحب الطيلسان الحرير اُميّة بن خلف بالأنكال والحديد و

(١) الفتح : ٢٩ .
(٢) البقرة : ٢٥٨ .

معلوم أنّ ترك اللّذائذ يخفض القوى الجسمانيّة لكي تقوى القوى الروحانيّة ؛ إنّ الملوك إذا دخلوا . . .

قوله : [وكانوا يتّقون] مع ذلك المعاصي [لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة] فيه أقوال :

أحدها أنّ البشرى في الحياة الدّنيا هي ما بشّرهم الله تعالى به في القرآن على الأعمال الصالحة نظير قوله : «وبشّر الّذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق»[1] ونظير قوله تعالى : «يبشّرهم ربّهم برحمة منه»[2]

و ثانيها أنّ البشارة في الحياة الدنيا بشارة الملائكة للمؤمنين عند موتهم بأن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنّة .

و ثالثها أنّها في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له ، وفي الآخرة بالجنّة وهي ما يبشّرهم الملائكة عند خروجهم من القبور وفي القيامة إلى أن يدخل الجنّة حالاً فحالاً وهو المرويّ عن أبي جعفر ، وروي ذلك في حديث مرفوع عن النبيّ صلى الله عليه وآله .

و روى عقبة بن خالد عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : ياعقبة لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلّا هذا الدين الّذي أنتم عليه ومابين أحدكم و بين أن ترى ماتقرّ به عينه إلّا أن تبلغ نفسه إلى هذه - وأومأ بيده إلى الوريد - الخبر بطوله . ثمّ قال : إنّ هذا في كتاب الله وقرأ « الّذين آمنوا وكانوا يتّقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » وقد بيّنّا البشرى أنّ من معناها الرؤيا الصالحة و عنه صلى الله عليه وآله قال : الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليتعوّذ منه و ليبصق عن شماله ثلاث مرّات فإنّه لا يضرّه .

وعنه صلى الله عليه وآله ذهبت النبوّات وبقيت المبشّرات . و عنه صلى الله عليه وآله : الرؤيا الصالحة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة .

وعن ابن مسعود : الرؤيا ثلاثة قصد وهمّ يهمّ به الرجل في النهار فيراه في الليل وحلم الشيطان والرؤيا الصادقة ؛ فإذا رأى منكم رؤياً غير صالحة فليقل: أعوذ بما عاذت به ملائكة

---

(١) السورة : ٢ . (٢) التوبة : ٢١ .

الله من شرّ الرؤيا الّتي رأيتها أن تضرّني في دنياي أو في آخرتي .

قوله : [لاتبديل لكلمات الله] أي لاخلف فيها والكلمة و القول سواء نظيره « ما يبدّل القول لديّ »[١] وهذا دليل على أنّ المراد بالبشرى وعدالله بالثواب والكرامة إنّ هذا [هو الفوز العظيم] .

قال القاضي عبدالجبّار : قوله « لا تبديل » يدلّ على أنّ كلمات الله غير قابلة للتبديل و كلّ ماقبل العدم امتنع القدم (؟) .

قوله : [ولايحزنك قولهم إنّ العزّة لله جميعاً هو السميع العليم] .

النظم : كما أنّه سبحانه أزال الخوف و الحزن عن أوليائه في الآخرة بقوله : «لاخوف عليهم ولاهم يحزنون» أزال الخوف والحزن في الدنيا عن قلبه ﷺ بهذه الآية حيث كان المشركون يهدّدونه بالكثرة و القوّة والمال ، وكانوا يقولون : إنّا أصحاب المال والتبع ونسعى في قهرك وإبطال أمرك .

فإن قيل : فكيف آمنه ولم يزل خائفاً حتّى احتاج إلى الهجرة والهرب .

قلنا : إنّ الله وعده الظفر والنصرة مطلقاً والوقت ما كان معيّناً ؛ فهو كان يخاف من أن لا يكون هذا الوقت المعيّن ذلك الوقت ؛ فحينئذ يحصل الانكسار و الانهزام في هذا الوقت .

قوله : الا ان لله من في السموات ومن في الارض ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وانهم الا يخرصون (٦٦) .

ذكر في الآيات السابقة «أنّ لله ما في السماوات و الأرض » فدلّ على أنّ كلّ ما لايعقل فهو ملك الله .

و أمّا في هذه الآية فكلمة «من» وهي مختصّة بمن يعقل فدلّت على أنّ كلّ العقلاء من الثقلين والملائكة ملك لله فحينئذ ماسواه ملكه و ذلك قدح في جعل الأصنام شركاء لله تعالى .

ثمّ قال : [و ما يتّبع الّذين يدعون من دون الله شركاء] وفي كلمة « ما» قولان :

---

(١) ق : ٢٨ .

الأوّل أنّه نفي وجحد . والمعنى : أنّهم ما اتّبعوا شريكاً وإنّما اتّبعوا شيئاً ظنّوه شريكاً لله لأنّ شريك الله ممتنع . الثاني أنّ «ما» استفهام كأنّه قيل : أيّ شيء يتّبع الّذين يدعون من دون الله شركاء ؟ والمقصود تقبيح فعلهم يعني أنّهم ليسوا على شيء .

ثمّ قال سبحانه : [إن يتّبعون إلّا الظنّ] أي اتّبعوا ظنونهم الباطلة و أوهامهم الفاسدة .

ثمّ بيّن أنّ هذا الظنّ لاحكم له [وإن هم إلّا يخرصون] و «الخرص» الكذب والتقدير بالتخمين أي يقدّرون تقديراً باطلاً .

قوله : هوالذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه و النهار مبصرا ان فى ذلك لايات لقوم يسمعون(٦٧) .

المعنى : أي الّذي مالك السماوات والأرض ومالككم [هو الّذي جعل لكم الليل] وجعله لسكونكم ولأن يزول التعب والكلال عنكم بالسكون فيه ، و جعل [النهار مبصراً] مضيئاً تبصرون وتهتدون به في معاشكم [إنّ في ذلك] الخلق والجعل [لآيات] وحججاً لقوم يسمعون الحجج ، ويفتهمون البيّنات سماع تدبّر وتعقّل . «والمبصر» الّذي يبصر والنّهار يبصر فيه .

و إنّما جعله مبصراً على طريق نقل الاسم من السبب إلى المسبّب .

قوله تعالى : قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات و ما فى الارض ان عندكم من سلطان بهذا اتقولون على الله مالا تعلمون (٦٨) قل ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون (٦٩) متاع فى الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بماكانوا يكفرون (٧٠)

و إنّما قال : « قالوا» وإن لم يكن سبق ذكرهم لأنّهم كانوا بحضرة النبيّ ﷺ وكان يعرفهم ، ويصحّ الضمير والكناية عن المعلوم كما يصحّ عن المذكور . ثمّ حكى الله سبحانه عن صنف من الكفّار أنّهم أضافوا إليه سبحانه اتّخاذ الولد وهم طائفتان : إحداهما كفّار قريش والعرب فإنّهم قالوا : الملائكة بنات الله . والطائفة الأُخرى النصارى الّذين قالوا : المسيح ابن الله [سبحانه] أي تنزيهاً له تعالى عن اتّخاذ الولد .

ثمّ بيّن الوجه فيه فقال : [له ما في السماوات والأرض] أي إذا كان له ما في السماوات

والأرض ملكاً و خلقاً فهوغنيّ عن اتّخاذ الولد ليقوى به من ضعف أويستغني به عن فقر و إذا استحال اتّخاذ الولد حقيقة عليه لاستغنائه بالذات عن كلّ شيء استحال عليه اتّخاذ الولد على وجه التبنّي .

قوله : [إن عندكم من سلطان بهذا] أي ماعندكم من حجّة و برهان بهذا [أتقولون على الله] هذا توبيخ لهم على قولهم .

ثمّ بيّن وعيدهم على ذلك فقال : [قل] لهم يا محمّد [إنّ الّذين] يكذبون [على الله الكذب] باتّخاذ الولد وغير ذلك [لايفلحون] ولايفوزون بشيء من الثواب .

و أصل الافتراء القطع من فريت الأديم أي يقطعون بالكذب الّذي يكذبون به على الله هو [متاع في الدنيا] يتمتّعون به أيّاماً قلايل ثمّ تنقضي ثمّ إلى ما حكمنا مصيرهم [ونذيقهم العذاب الشديد] .

قوله : واتل عليهم نبأ نوح اذقال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم مقامى و تذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا امركم و شركاءكم ثم لايكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون (٧١) فان توليتم فماسألتكم من اجران اجرى الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين(٧٢) فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين(٧٣) .

لمّا بالغ سبحانه في تقرير الأدلّة للكفّار والجواب عن شبهاتهم شرع في قصص بعض الأنبياء لإثبات المطلوب بنوع آخر وهذه صناعة الافتنان و هو الخروج عن فنّ إلى فنّ لأنّ الكلام إذا طال فربّما حصل نوع من الملالة ، فإذا انتقل عنوان الكلام يحصل للمتكلّم به شرح صدر وطاب قلبه و وجد رغبة في الاستماع وقوّة حادثة ، على أنّ في الآية تسلية للرسول بمن سلف من الأنبياء لأنّه صلى الله عليه وآله إذا سمع معاملة الكفّار مع كلّ الرسل خفّت المصيبة عليه ، لأنّ المصيبة إذا عمّت طابت .

ثمّ إذا سمعوا هذه القصص وأنّ مافعل الجهّال قبلهم بأنبيائهم لعلّ أن يقع الخوف في قلوبهم ويرتدعون عمّاهم عليه وهم كانوا يعلمون أنّ هذا النبيّ اُمّيّ ولم يتعلّم من أحد فإخباره لهم بأمثال هذه الاُمور دلائل على نبوّته خصوصاً إذا بيّن لهم هذه الأقاصيص من

غير تفاوت و زيادة و نقصان فلايكون حينئذ إلّا من الوحي والتنزيل .

والحاصل أنّه أمرالله محمداً صلى الله عليه وآله أن يقرأ عليهم أخبار نوح [إذقال] نوح [لقومه] الّذي بعث إليهم : [ياقوم إن كان] ثقل وشقّ وعظم عليكم إقامتي بين أظهركم وفيكم وبينكم وثقيل عليكم تذكيري ووعظي بآيات الله وبحججه و بيّناته على اُصول دينكم من التوحيد والعدل والنبوّة والمعاد وبطلان ماتدينون به .

وفي الكلام حذف وإضمار وهو قوله : وعزمتم على قتلي وطردي وتبعيدي [فعلى الله توكّلت] مع أنّه متوكّل عليه كان في جميع الأحوال ليتبيّن لهم أنّه متوكّل عليه . وفي هذا الإعلام موعظة وزجر لهم أي إلى الله فوّضت أمري فاعزموا على أمركم واجتماعكم واتّفقوا على أمر واحد من قتلي وطردي . وهذا تهديد في صورة الأمر [وشركاءكم] أي الأوثان الّتي تعبدونها و جعلتموها معبوداً لكم أو المراد من شاركهم من أصحابهم في عداوته وقوله : «فعلى الله» جواب الشرط .

[ثمّ لايكن أمركم عليكم غمّة] أي مبهماً و ملتبساً ويكون ظاهراً و منكشفاً [ثمّ اقضوا إليّ ولاتنظرون] أي ثمّ امضوا إليّ بمكروهكم واقطعوا مابيني وبينكم . وقرىء بالفاء أي انتهوا .

وهذا القول من نوح يدلّ على توكّله ويقينه بربّه . ومن قرأ بالفاء معناه أن اسرعوا إلى الفضاء لأنّه إذا صار إلى الفضاء تمكّن من الإسراع و تسلّط على قتله و كان هذا من معجزات نوح لأنّه كان في نفر يسير أو ماكانوا يقدرون أن يقتلوه نعم كانوا يؤذونه ، لكن لم يتمكّنوا من قتله .

قوله : [فإن تولّيتم] أي إن أعرضتم عن قبول قولي فإنّي ما كنت طامعاً منكم شيئاً وماطلبت منكم أجراً ليس أجري إلّا على الله وأنا أطلب الأجر منه ، وأمرني الله أن أكون من المستسلمين لأمره .

[فكذّبوه] ونسبوا إليه الكذب في أنّه نبيّ الله [فنجّيناه ومن معه في الفلك] في السفينة وجعلنا الّذين نجوا مع نوح خلفاء لمن هلك بالغرق قيل : إنّهم كانوا ثمانين نفساً . وأهلكنا المكذّبين بنوح جميعاً من أهل الأرض [فانظر كيف كان عاقبة] المخوّفين بالله وعذابه

كيف أهلكهم الله ؟!

قوله تعالى : ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاءوهم با لبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين (٧٤) .

ثمّ بعد نوح بعثنا رسلاً ولم يسمّهم ، وكان منهم هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام بالمعجزات و الشواهد القاهرة ؛ فأخبر تعالى عنهم أنّهم جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب فما كانوا هؤلاء الأقوام الّذين بعث الله إليهم الرسل ولم يصدّقوا بسبب ما كذّبت به أوائلهم الّذين هم قوم نوح أي كذّبوا هؤلاء كما كذّبوا أُولئك لأنّهم كانوا مثلهم في العتوّ والكفر وكانت الحالتان سواءً عندهم قبل البيّنات وبعد البيّنات .

قوله : [كذلك نطبع على قلوب المعتدين] أي نجعل على قلوب الظالمين لأنفسهم الّذين تعدّوا حدود الله سمة وعلامة على كفرهم يلزمهم الذمّ كما فعلنا ذلك بقلوب هولاء الكفّار حتّى تعرفهم الملائكة .

قوله : ثم بعثنا من بعدهم موسى و هرون الى فرعون و ملائه باياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين (٧٥) فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين (٧٦) قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم اسحر هذا ولا يفلح الساحرون (٧٧) قالوا اجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه اباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الارض ومانحن لكما بمؤمنين (٧٨) .

المعنى : ثمّ بيّن قصّة من بعثه بعد الرسل أو بعد الأُمم [موسى وهارون] نبيّين مرسلين [إلى فرعون وملئه] أي رؤساء قومه بأدلّتنا و معجزاتنا فاستكبروا عن الانقياد لها وكانوا قوماً عاصين لربّهم . فلمّا جاء قوم فرعون الحقّ من عندنا أي جاءهم موسى بالبيّنات والبراهين قالوا إنّ هذا لسحر ظاهر قال : لهم موسى أتقولون للمعجز والحقّ إنّه سحر ؟ والسحر باطل والمعجز حقّ وهما متضادّان ولا يظفرون السحرة بحجّة ولا يأتون على ما يدّعونه ببيّنة وإنّما هو تمويه على الصفة .

و [قالوا] يعني فرعون وقومه لموسى : [أجئتنا] لتصرفنا عن ذلك ولتلوينا عن ديننا الّذي كان آباؤنا على ذلك الدين و [تكون لكما الكبرياء] أي السلطنة و الملك ؛ لأنّ

النبيّ إذا اعترف القوم بنبوّته صارت مقاليد أمر الاُمّة إليه فصار أكبر القوم ، و الرياسة تنتقل إليه في الأرض ؛ ولذا صرّحوا بأن لانؤمن لكما ثمّ لمّا ذكروا هذه المعاني حاولوا في معارضة موسى بأنواع السحر ليظهروا عند الناس ويموّهوا في الأمر .

قوله تعالى : وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم (٧٩) فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا ما أنتم ملقون (٨٠) فلما القوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لايصلح عمل المفسدين (٨١) ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون (٨٢) .

ثمّ جمع فرعون السحرة وأحضرهم [فقال لهم موسى ألقوا ماأنتم ملقون] .

فإن قيل : كيف أمرهم بالكفر والسحر و الأمر بالكفر كفر ؟

قلنا : إنّه عليه السلام أمرهم ليظهر للخلق أنّ ما أتوا به عمل فاسد لا على طريق أنّه عليه السلام أمرهم بالسحر [فلمّا ألقوا] حبالهم وعصيّهم [قال] لهم [موسى ما جئتم به السحر] وهو الباطل والتمويه وأخبرهم بأنّ الله يحقّ الحقّ ويبطل الباطل ويظهر فضيحة صاحبه وقد أخبر الله سبحانه إبطاله في سائر السور [الله لا يصلح عمل المفسدين] ولا يقوّيه ولا يكمّله ، بل يحقّ الحقّ ويكمّله بكلماته أي بحكمه وقضائه .

وفي هذه الآية دلالة على أنّ الله لايهيّىء عمل من قصد إفساد الدين ولا يمضي له ولا يرضى به ، وينصر المحقّين .

والنصرة على وجهين : تارة بالحجّة الحقّة وهي مستمرّة على كلّ حال ، وتارة بالغلبة والقهر وهذا يختلف بحسب المصلحة قد تكون بالتخلية وبالحيلولة اُخرى .

قوله : فما امن لموسى الاذرية من قومه على خوف من فرعون و ملائهم ان يفتنهم وان فرعون لعال فى الارض وانه لمن المسرفين (٨٣) و قال موسى ياقوم ان كنتم امنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين (٨٤) فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين (٨٥) ونجنا برحمتك من القوم الكافرين (٨٦) .

ثمّ بيّن سبحانه من آمن من قوم موسى . أي لم يصدّق موسى فيما ادّعى من النبوّة مع ما أظهره عن المعجزات إلّا ذرّيّة أي أولاد من قوم فرعون . و قيل : من قوم موسى

وهم بنو إسرائيل الّذين كانوا بمصر .

و اختلف من قال بالأوّل فقيل : إنّهم قوم كانت اُمّهاتهم من بني إسرائيل و آباؤهم من القبط ؛ فاتّبعوا اُمّهاتهم وأخوالهم عن ابن عبّاس . وقيل : إنّهم ناس يسير من قوم فرعون منهم امرأة فرعون و مؤمن آل فرعون وجارية وامرأة هي مشّاطة امرأة فرعون .

واختلف من قال بالثاني فقيل : هم جماعة من بني إسرائيل أخذهم فرعون لتعلّم السحر وجعلهم في أصحابه فآمنوا بموسى . وقيل : أراد مؤمني بني إسرائيل ؛ و كانوا ستّمائة ألف ؛ وكان يعقوب دخل مصر باثنين وسبعين إنساناً فتوالدوا حتّى بلغوا ستّمائة ألف و إنّما سمّاهم ذرّيّة لضعفهم .

قوله : [على خوف منه] يعني آمنوا وهم خائفون من معرّة فرعون ومن معرّة أشرافهم ورؤسائهم . وقيل : إنّ الضمير في «ملائهم» راجع إلى الذرّيّة ؛ لأنّ آباءهم كانوا من القبط وكانوا يخافون قومهم من القبط أن يعذّبوهم وأن يفتنهم فرعون عن الدين ويمتحنهم لمحنة لا يمكنهم الصبر عليها فينصرفون عن الدين وكان جنود فرعون يعذبون بني إسرائيل فكان خوفهم منه ومنهم .

[وإنّ فرعون لعال في الأرض] ومستكبر باغ طاغ في أرض مصر و نواحيها و من المجاوزين الحدّ في العصيان ؛ لأنّه ادّعى الربوبيّة وأسرف في القتل والظلم .

[و قال موسى] لقومه الّذين آمنوا به [ياقوم إن كنتم آمنتم بالله] كما تظهرون فأسندوا اُموركم إليه [إن كنتم مسلمين] على الحقيقة . وإنّما أعاد قوله : «إن كنتم مسلمين» بعد قوله : «إن كنتم آمنتم» لتبيّن المعنى أنّ اجتماع الصفتين واجب : التصديق والانقياد ؛ فأخبر الله عن طاعتهم [فقالوا على الله توكّلنا ولا تجعلنا فتنة] أي لا تمكّن الظالمين من ظلمنا بما يحملنا على الانصراف عن ديننا ولا تظهر علينا فرعون وقومه ، ولا تسلّطهم علينا فتفتتن بهم [ونجّنا] برحمتك من فرعون واستعباده إيّانا وأخذهم جماعتنا بالأعمال الشاقّة .

والمصدر ههنا في قوله «فتنة» بمعنى المفتون ، و المصدر بمعنى المفعول شائع كالخلق بمعنى المخلوق .

قوله : واوحينا الى موسى وأخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلوة وبشر المؤمنين (٨٧) .

لمّا ظهر من التوكّل على الله من المؤمنين بموسى أمر سبحانه موسى وهارون عليهما السلام باتّخاذ المساجد والإقبال على الصلوات فقال : [تبوّءا] أي اتّخذاه مكاناً كقوله : «توطّنه» أي اتّخذه وطناً .

قوله : [واجعلوا بيوتكم قبلة] قال الفرّاء : معناه : و اجعلوا بيوتكم إلى القبلة . و اختلفوا في أنّ هذه القبلة أين كانت ؟ فظاهر لفظ القرآن لا يدلّ على تعيّنه إلّا أنّه نقل عن ابن عبّاس أنّه قال : كانت الكعبة قبلة موسى . و بعضهم يقول : الكعبة قبلة كلّ الأنبياء .

وقال آخرون : كانت تلك القبلة جهة بيت المقدّس . وخصّ موسى بالتبشير ليدلّ بذلك الخطاب على أنّ الأصل في الرسالة موسى وأنّ هارون تبع له و كأنّ موسى وقومه كانوا في أوّل الأمر مأمورين بأن يصلّوا في بيوتهم خفية عن الكفرة كما كان المسلمون كذلك في أوّل الإسلام في مكّة .

قوله تعالى : وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملاه زينة واموالا فى الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على اموالهم و اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم (٨٨) قال قداجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون (٨٩) .

المعنى : لمّا بالغ موسى في إظهار البيّنات و رأى القوم مصرّين على الجحود و العناد أخذ يدعو عليهم ،

ولمّا علم أنّ سبب إنكارهم و جحودهم اشتغالهم بزينة الدنيا من الصحّة والجمال و اللذّات [قال موسى] يا ربّ [إنّك آتيت فرعون] و أشراف قومه [زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ليضلّوا عن سبيلك] .

قالت الأشاعرة : اللام ههنا للتعليل وغرضهم من هذا المعنى إثبات مذهبهم الجبر . وذلك فاسد لأنّا قد علمنا بالأدلّة الواضحة أنّ الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلالة ولا يريد منهم الكفر والضلال ، و كذلك لايؤتيهم المال ليضلّوا .

قال القاضي عبدالجبّار المعتزليّ : لايجوز أن يكون اللام بمعنى الغرض و الأجل

قطعاً ؛ لأنّه ثبت أنّه سبحانه منزّه عن فعل القبيح ولاشكّ أنّ إرادة الكفر قبيحة .

ثمّ دليل آخر ههنا : وهو أنّه سبحانه لو أراد ذلك لكان الكفّار مطيعين لإرادته سبحانه بسبب كفرهم لأنّه لامعنى للطاعة إلّا الإتيان بمايوافق الإرادة ، ولوكانوا كذلك لما استحقّوا العذاب و الدعاء عليهم بطمس الأموال و شدّ القلوب كما دعا عليهم موسى و هوسبحانه يجيب .

ثمّ دليل آخر : أنّا لو جوّزناأن يريدالله إضلال العباد لجوّزنا أن يبعث الله الأنبياء للدعاء إلى الضلال وفي هذا الأمر هدم الدين وهذا باطل .

ثمّ لو كان الأمر كذلك كيف يقول سبحانه لموسى وهارون : «فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّر أو يخشى» ؟[١] و كيف يجوز أن يقول : «ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين و نقص من الثمرات لعلّهم يتذكّرون» ؟[٢]

ثمّ إنّه تعالى أراد الضلال منهم وأعطاهم النعم لكي يضلّوا ، لأنّ ذلك عين المناقضة ؛ فلابدّ من حمل أحدهما على موافقة الآخر فوجب أن يتأوّل هذه الكلمة ، و ذلك من وجـوه :

الاول : أنّ اللام للعاقبة في قوله «ليضلّوا» كقوله : «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً[٣]» ولمّا كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال وقد أعلمه الله لا جرم عبّر عن هذا المعنى بهذا اللّفظ .

الثاني : أنّ قوله : «ليضلّوا عن سبيلك» أي لئلّا يضلّوا عن سبيلك فحذف «لا» لدلالة المفعول عليه كقوله «يبيّن الله لكم أن تضلّوا[٤]» والمراد : أن لا تضلّوا . و كقوله تعالى : «قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة» [٥] والمراد : أن لا تقولوا . ومثل هذا الحذف كثير في الكـلام .

---

(١) طه : ٤٤ .
(٢) الاعراف : ١٢٩ .
(٣) القصص : ٨ .
(٤) النساء : ١٧٥ .
(٥) الاعراف : ١٧١ .

الثالث : أن يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجّب المقرون بالإنكار ، و التقدير : كأنّك آتيتهم ذلك لهذا الغرض ؛ فإنّهم لا ينفقون هذه الأموال إلّا فيه فالمعنى يصير : أنّهم يصرفون لأجل الضلال ، ثمّ حذف حرف الاستفهام كما في قول الشاعر :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط * غلس الظلام من الرباب خيالاً

أرادا : أكذبتك عينك ؛ فكذا ههنا .

الرابع : هذه اللام لام الدعاء وهي لام مكسورة تجزم المستقبل و تفتح بها الكلام فيقال : ليغفر الله المؤمنين ، وليعذّب الله الكافرين فحينئذ يكون المعنى : ربّنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك .

الخامس : أنّ الضلال جاء في القرآن بمعنى الهلاك وفي غير القرآن : أمّا القرآن في سورة البقرة «يضلّ به كثيراً[1]» وفسّر بمعنى الهلاك وفي غير القرآن يقال : ضلّ الماء في اللبن أي هلك .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله «ربّنا ليضلّوا عن سبيلك» معناه ليهلكوا و ليموتوا فحينئذ أيضاً اللام بهذا المعنى للعاقبة .

قوله : [ربّنا اطمس على أموالهم] المراد من الطمس على الأموال تغييرها عن جهتها إلى جهة لا ينتفع بها قال عامّة أهل التفسير : صارت جميع ، أموالهم حجارة حتّى السكر و الفانيذ أي الحلوا [واشدد على قلوبهم] قيل : معناه أمتهم بعد سلب أموالهم . وقيل : اطبع على قلوبهم بأن يموتوا على الكفر . و قيل : معناه ثبّتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشدّ عليهم . قال ابن عبّاس : بلغنا أنّ الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثا . والطمس معناه المسخ .

ثمّ قال : [فلا يؤمنون حتّى يروا العذاب الأليم] يجوز أن يكون معطوفاً على قوله : «ليضلّوا» والتقدير : ربّنا ليضلّوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم .

قال الله سبحانه : [قد اُجيبت دعوتكما] والداعي موسى وكان هارون يؤمّن على دعائه ؛ لأنّ المؤمّن أيضاً الداعي [فاستقيما] وأثبتا على أمر كما في دعوة الناس على الإيمان قال ابن جريج : مكث فرعون بعد هذا الدعاء أربعين سنة روي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام

(١) الآية الـ ٢٦ .

قوله : [ولا تتّبعانّ سبيل الّذين لايعلمون] نهاهما عن أن يتّبعا طريقة من لايؤمن بالله ولا يعرفه ولا يعرف أنبياءه .

قوله تعالى : وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون و جنوده بغيا وعدوا حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى امنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين(٩٠) آلان وقد عصيت قبل و كنت من المفسدين(٩١) فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون (٩٢) .

المعنى: أنّه سبحانه لمّا استجاب دعاءهما و اقتضت المصلحة أمر بني إسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ، ويسّر لهم أسبابه وفرعون كان غافلاً عن ذلك فلمّا سمع بخروجهم خرج على عقبهم .

وقوله : [فأتبعهم] أي لحقهم مع جنوده و هو كان مظاهراً للعزّ و شاكي السلاح [بغياً وعدواً] مفعول له أي للعدو والبغي .

روي أنّ موسى عليه السلام لمّا خرج مع قومه وصلوا إلى طرف البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم فوقع أصحاب موسى في خوف شديد لأنّهم وقعوا بين بحر مغرق وجند مهلك ؛ فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم في البحر طريقاً يبساً .

ثمّ إنّ موسى عليه السلام مع أصحابه دخلوا وخرجوا من البحر ، وأبقى الله ذلك الطريق يبساً ليطمع فرعون وجنوده في التمكّن من العبور ، فلمّا دخل مع جمعه أغرقه الله بأن أوصل أجزاء الماء بعضها وأزال الفلق .

ثمّ إنّ سبحانه ذكر أنّه لمّا أدركه الغرق أظهر كلمة الإخلاص ظنّاً منه أنّه ينجيه من تلك الآفة .

و ههنا بيان و هو أنّه لوقيل : كيف يتمكّن الغريق عن هذه المقالة المفصّلة ؟ يمكن أن يكون لمّا كان مشرفاً ومشفياً على الغرق قال هذه الكلمات أو قال بكلام النفس لا بكلام اللّسان .

السؤال : إنّ فرعون آمن ثلاث مرّات أي بثلاث تقرير آمن أوّله قوله «آمنت»

وثانيه قوله : « لا إله إلّا الّذي آمنت به بنو إسرائيل » و ثالثها قوله : « و أنا من المسلمين » فما السبب في عدم قبوله توبته ، والله متعال عن أن يلحقه غيظ عياناً بانة حتّى يقال : ما قبل توبته

وإنّما لم تقبل توبته لأنّ هذه التوبة توبة إلجاء ولا تفيد البتّة لا منه ولا من غيره ؛ لأنّه رأى نزول العذاب فليس من مثل هذه التوبة مقبولة قطعاً ، ولهذا السبب قال تعالى : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا »[1] على أنّه إنّما ذكر هذه الكلمات لدفع تلك البليّة الحاضرة و ما كان مقصوده من هذا الكلام الإقرار بتوحيد الله والاعتراف بعزّة الربوبيّة و ذلّة العبوديّة ، و لمّا لم يكن الكلام مقروناً بالإخلاص فلهذا السبب ما كان مقبـولاً .

ووجه آخر : ذكر جماعة من المفسّرين أنّ بعض الأقوام من بني إسرائيل اشتغلوا بعبادة العجل فلّما قال فرعون : « آمنت أنّه لا إله إلاّ الّذي آمنت به بنو إسرائيل » انصرف ذلك إلى العجل الّذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة في حقّـه سبباً لزيادة الكفر .

والحقّ أنّ هذا الوجه غير وجيه ؛ لأنّ قوله : « آلآن و قد عصيت قبل » ينا في هذا المعنى .

ووجه آخر وهو أنّ الإيمان إنّما كان يتمّ بالإقرار بالوحدانيّة وبالإقرار بنبوّة موسى فههنا لمّا أقرّ بالوحدانيّة ولم يقرّ بالنبوّة لاجرم لم يصحّ إيمانه كما أنّ أحداً من الكفّار يقول ألف مرّة بالتوحيد ولا يقرّ بنبوّته ﷺ فحينئذ لا يصحّ إيمانه و هو كافر .

قال الزمخشريّ في الكشّاف : إنّ جبرئيل عليه السلام أتى بفتيا فيها : ما قول الأمير في عبد نشأ من مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقّه وادّعى السيادة دونه ؟ فكتب فرعون فيها : يقول أبو العبّاس الوليد بن مصعب : جزاء العبد الخارج على سيّده الكافر بنعمته أن يغرق في البحر . ثمّ إنّ فرعون لمّا غرق رفع جبرئيل عليه السلام فتياه إليه .

---

(١) غافر : ٨٥ .

وبالجملة قوله : [آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين] الأخبار دالّة على أنّ القائل بهذا القول جبرئيل . وقيل : هو الله قاله له على وجه التوبيخ . وفي الآية إضمار و التقدير : قيل له : آلآن آمنت حين لا ينفع الإيمان هلاّ آمنت قبل ذلك و كنت من المفسدين بادّعاء الإلهيّة وقتل النفوس ؛

روى عليّ بن إبراهيم بن هاشم بإسناده عن الصادق عليه السلام قال : ما أتى جبرئيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا كئيباً حزيناً ولم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون ، فلمّا أمر الله سبحانه بنزول هذه الآية نزل ضاحكاً مستبشراً فقال صلى الله عليه وآله له : ياجبرئيل ما أتيتني إلّا والحزن في وجهك ظاهر حتّى الساعة . قال : نعم يا محمّد صلى الله عليه وآله لمّا أغرق الله فرعون قال : «آمنت أنّه لا إله إلّا الّذي آمنت به بنو إسرائيل » فأخذت حمأة فوضعتها في فيه ، ثمّ قلت له : «آلان وقد عصيت قبل و كنت من المفسدين» ثمّ خفت أن تلحقه رحمة من عند الله فيعذّ بني الله على مافعلت فلمّا كان الآن وأمرني أن أُؤدّي إليك ماقلته أنا لفرعون أمنت وعلمت أنّ ذلك كان لله راضى .

قوله تعالى : [فاليوم ننجّيك ببدنك] اختلف معناه وقرىء بالحاء المهملة .

قال المفسّرون : لمّا أغرق الله فرعون وقومه أنكر بعض بني إسرائيل غرق فرعون وقالوا : هو أعظم شأناً من أن يغرق ؛ فأخرجه الله حتّى رأوه فذلك قوله : « فاليوم ننجّيك ببدنك» أي نلقيك على نجدة ومكان مرتفع من الأرض بجسدك من غير روح ؛ وذلك أنّه طفا عرياناً .

وقيل : معناه نخلّصك من البحر ببدنك أي بدرعك والبدن الدرع .

قال ابن عبّاس : كانت عليه درع من ذهب يعرف بها ، فالمعنى : نرفعك فوق الماء بدرعك المشهور ليعرفوك [لتكون لمن خلفك آية] فلا يقولوا مثل مقالتك . وقرىء « لمن خلقك » بالقاف ؛ لأنّه كان يدّعي أنّه الربّ .

والمعنى الثالث : ننجّيك ببدنك أي نخرجك من البحر عرياناً من غير لباس .

الرابع بالحاء أي نلقيك بناحية ممّا يلي البحر ، وذلك أنّه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب الساحل كأنّه ثور وما أخرج الله جثّة غيره من هذا الجمع الكثير أحداً بل خصّه بالإخراج .

[وإنّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون] قال الرازيّ : الأظهر أنّه سبحانه في ختم هذه الآية خاطب قوم محمد ﷺ ليكون ذلك زاجراً لهم عن كفرهم .

قوله : ولقد بوانا بنى اسرائيل مبوأصدق و رزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضى بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون (٩٣)

المعنى : ثمّ بيّن سبحانه حال بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون وإنجائهم بقوله تعالى : « مكّناهم مكاناً محموداً » وهو بيت المقدس والشام « مبوء » يجوز أن يكون مصدراً ومنعه لا ثانياً لبوّأت وإنّما قال : [مبوّأ صدق] أي أنزلناهم في موضع خصب وأمن بصدق ما يدلّ عليه من جلالة النعمة . وقيل : مبوّأ صدق لأنّ فضل ذلك المنزل على غيره كفضل الصدق على الكذب . وقيل : يريد به مصر وذلك أنّ موسى عبر ببني إسرائيل البحر ثانياً ورجع إلى مصر وتبوّأ مساكن آل فرعون . وقيل : الشام ومصر .

[ورزقناهم من الطيّبات] أي الأشياء اللذيذة المستطابة .

[فما اختلفوا حتّى جاءهم العلم] معناه : فما اختلفوا في تصديق محمد ﷺ يعني اليهود كانوا مقرّين به من بني قريظة وبني النضير واليهود الساكنين ما بين المدينة والشام قبل مبعثه حتّى جاءهم العلم وهو القرآن الّذي جاء به محمد ﷺ عن ابن عبّاس . وقال الفرّاء : «العلم» محمد ﷺ لأنّه كان معلوماً عندهم بنعته فلمّا جاءهم اختلفوا في تصديقه فكفر به أكثرهم .

وقيل : إنّ معناه : فما اختلف بنو إسرائيل إلّا من بعد ما جاءهم العلم بالحقّ على يد موسى وهارون ؛ فإنّهم كانوا مطبعين ومتّفقين على الكفر قبل مجيء موسى فلمّا جاءهم آمن بعضهم به وثبت على الكفر بعضهم فصاروا مختلفين .

[إنّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون] وهو تعالى يتولّى الحكم يوم القيامة لأنّ هذا النوع من الاختلاف لا حيلة في إزالته في الدنيا فلابدّ أن يقضى في القيامة بينهم ويميّز المحقّ عن المبطل والصدّيق من الزنديق .

قوله تعالى : فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلاتكونن من الممترين (٩٤)

ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين (٩٥) ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون (٩٦) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم(٩٧).

المراد إثبات نبوّته ﷺ بشهادة الأحبار من اليهود كعبدالله بن سلام وابن صوريا وتميم الداريّ وغيرهم للناس والشاكّين والمتوقّفين في نبوّته وإنّما خاطبه كقولهم : «إيّاك عني واسمعي يا جارة» أي أيّها الشاكّين استخبروا من علماء أهل الكتاب .

اختلف المفسّرون في أنّ المخاطب من هو ؛ قيل : هو ﷺ . وقيل : غيره . فأمّا من قال : هو قالوا : إنّ الخطاب معه ظاهراً والمراد غيره وأمثال هذا العنوان في القرآن كثير كقوله تعالى : « يا أيّها النبيّ اتّق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين »[١] ومعلوم أنّه ﷺ ما كان يطيعهم وكقوله : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك »[٢] وكقوله : « ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتّخذوني وأُمّي إلهين »[٣].

والّذي يدل على صحّة هذا التأويل قوله في آخر السورة : «يا أيّها الناس إن كنتم في شكّ من ديني »[٤] فبيّن أنّ المذكور في أوّل السورة على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح .

ثمّ إذا كان ﷺ فرضاً شاكّاً في نبوّته لكان غيره أولى بالشكّ في رسالته ، وهذا باطل .

ثمّ بتقدير أن يكون ﷺ شاكّاً في نبوّة نفسه ؛ فكيف يزول هذا الشكّ بإخبار أهل الكتاب عن نبوّته ؟ مع أنّهم في الأكثر كفّار ؛ فثبت أنّ المراد بالخطاب أُمّته ولو أنّ صورة الخطاب هو ، ومثل هذا معتاد في الكلام فإنّ السلطان اذا كان له أمير وكان تحت راية ذلك الأمير جمع فإذا أراد أن يأمر الرعيّة بأمر مخصوص فإنّه لايوجّه خطابه عليهم بل يوجّه الخطاب إلى الأمير ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم .

وبالجملة في تمام التقرير أنّ قوله تعالى : [فإن كنت في شكّ ممّا أنزلنا إليك

---

(١) الاحزاب : ١ .
(٢) الزمر : ٦٥ .
(٣) المائدة : ١١٩ .
(٤) السورة : ١٠٤ .

فاسأل الّذين ، إلخ] قضيّة شرطيّة والقضيّة الشرطيّة لا إشعار فيها البتّة بأنّ الشرط وقع أولم يقع ، و كذلك لا إشعار فيها بأنّ الجزاء وقع أولم يقع بل ليس فيها إلّا بيان أنّ ماهيّة ذلك الشرط مستلزمة لماهيّة ذلك الجزاء فقط ، مثلاً إنّك إذا قلت : إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين ؛ فهذا الكلام حقّ لكن لا يدلّ على أنّ الخمسة زوج ولا يدلّ على أنّها منقسمة بمتساويين فكذا ههنا الآية تدلّ على أنّه لو حصل هذا الشكّ لكان الواجب فيه السؤال عن أهل الكتاب ، وأمّا وقع الشكّ أولم يقع فلا دلالة عليه .

فالفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول تسكين قلوب المتوقّفين في نبوّته وتقوية لخاطرهم وطمأنينه النفس لهم بتكثير الدلائل وتقريبهم إلى الإيمان بالرسول لأنّهم طالبوه مرّة بعد اُخرى بما يدلّ على نبوّته .

قال أبو عبدالله عليه السلام : إنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يشكّ ولم يسأل . والخطاب لرسول الله وإن لم يشكّ لكنّ الكلام خرج مخرج التقرير والإفهام للناس ، كما يقول القائل لعبده : إن كنت عبدي فأطعني أو يقول لأبيه : إن كنت والدي فتعطّف عليّ . وربّما خرجوا في مبالغة الكلام إلى ما يستحيل كقولهم : بكت السماء لموت فلان أي لو كان سماء تبكي على ميّت لبكت عليه .

قوله تعالى : [لقد جاءك الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين] يعني بالحقّ القرآن والإسلام . ورأيت في تفسير أبي السعود العلّامة في الآية أنّه قال : وإن كنت أيّها السامع في شكّ ممّا أنزلنا إليك على لسان نبيّنا فاسأل الّذين يقرؤون الكتاب فلا تكوننّ من الممترين الشاكّين .

قوله : [ولا تكوننّ من الّذين كذّبوا بآيات الله] واعلم أنّ فرق المكلّفين ثلاثة مصدّقة ومتوقّفة ومكذّبة ، ولا شكّ أنّ الفرقة المتوقّفة الشاكّة أمرهم أسهل من أمر المكذّبة فبيّن تعالى أنّهم من الخاسرين .

قوله تعالى : [إنّ الّذين حقّت عليهم كلمة ربّك لا يؤمنون] أي إنّ الّذين أخبر الله عنهم أنّهم لا يؤمنون ، فنفى الإيمان عنهم ولم ينف القدرة عنهم ؛ فإنّ نفي الفعل لا يكون نفياً للقدرة كما أنّ الله نفى عن نفسه مغفرة المشركين و لم يكن ذلك نفياً لقدرته على مغفرتهم .

وقيل : المعنى : إنّ الّذين وجبت عليهم سخط ربّك لايؤمنون [ولوجاءتهم كلّ آية] ومعجزة [حتّى يروا العذاب الأليم] الموجع فيصيروا ملجئين إلى الإيمان .

قوله تعالى : فلولا كانت قرية امنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما امنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحيوة الدنيا ومتعناهم الى حين (٩٨) .

هذه الآية بيان قصّة ثالثة في هذه السورة : الأولى قصّة نوح ، والثانية قصّة فرعون، وهذه قصّة قوم يونس بن متى . وروى الواحديّ في البسيط قال : قال أبومالك : كلّ ما في كتاب الله من ذكر « لولا » فمعناه « هلاّ » وللتحضيض إلّا حرفين أي إلّا في موضعين : واحد من الموضعين هذه الآية ومعناه النفي أي فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها وكذلك . «فلولا كان من القرون من قبلكم [1]» أي فما كان من القرون ؛ فعلى هذا تقدير الآية : فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس . وانتصب قوله : « إلّا قوم يونس » على أنّه استثناء منقطع عن الأوّل ووقع استثناء القوم من القرية وقرىء بالرفع على البدل . وقيل : إنّ « هلاّ » معناه أي هلاّ كانت قرية واحدة من القرى الّتي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت في الإيمان قبل معاينة العذاب إلاقوم يونس .

وفسّروا المعنى جماعة بأنّه لم يكن فيما خلا من الأمم أن يؤمن أهل قرية بأجمعهم حتّى لايشذّ منهم أحد إلّا قوم يونس فلا كانت القرى كلّها هكذا . وقيل : معناه لم أفعل هذا الأمر بأمّة من الأمم قطّ إلّا قومه لمّا آمنوا عند نزول العذاب كشف عنهم العذاب بعد ماتدلّى عليهم العذاب [كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا] .

وكان من قصّة يونس أنّ قومه كانوا بنينوى من أرض الموصل وكان يدعوهم يونس إلى الإسلام فأبوا فأخبرهم أنّ العذاب مصبحهم إلى ثلثين أو إلى أربعين إن لم يتوبوا فقالوا : إنّا نجرّب عليه فإن بات فيكم ليلة العذاب فليس بشيء فإن لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصبحكم .

فلمّا كان في جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلمّا أصبحوا أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً فهبط حتّى غشي مدينتهم واسودّت سطوحهم . قال ابن عبّاس:

---

(١) هود : ١١٧ .

كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ثلثي ميل فلمّا رأوا ذلك طلبوا نبيّهم فلم يجدوه فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم و نسائهم وصبيانهم و دوابّهم وألبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة و أخلصوا النيّة و فرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام فحنّ بعضها إلى بعض وعلت أصواتها واختلطت أصواتها بأصواتهم وتضرّعوا إلى الله ، وقالوا : آمنّا بما جاء به يونس . فرحمهم ربّهم و كشف عنهم العذاب بعد ما أظلّهم .

قال عبدالله بن مسعود : بلغ من قومه أهل نينوى ان يردّوا المظالم بينهم حتّى أن كان الرجل ليأتي الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه ويردّه . وروي عن أبي مخلّد أنّه لمّا غشيهم العذاب مشوا إلى شيخ من بقيّة علمائهم فقالوا : لقد نزل العذاب بنا فما ترى ؟ قال : قولوا : ياحيّ ياقيّوم ياحيّ حين لاحيّ وياحيّ يا محيي الموتى ويا حيّ لا إله إلاّ أنت . فقالوا ؛ فكشف الله العذاب عنهم . وعن الفضل بن عبّاس أنّهم قالوا : اللّهم إنّ ذنوبنا قد عظمت وجلّت وأنت أعظم منها و أجلّ افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله .

في الحديث ـ بحذف الأسانيد ـ عن أبي عبدالله قال : كان فيهم رجل اسمه مليخا عابد وآخر اسمه روبيل عالم ، وكان العابد يشير إلى يونس بالدعاء عليهم والعالم ينهاه عن الدعاء عليهم ويقول : إنّ الله يستجيب دعائك فلا تدع عليهم ، الله لا يحبّ إهلاك عباده ؛ فقبل يونس قول العابد فدعا عليهم فأوحى الله إليه أنّه يأتيهم العذاب في شهر كذا وفي يوم كذا . فلمّا قرب الوقت خرج يونس مع العابد وبقي العالم فيهم فلمّا كان اليوم الّذي نزل بهم العذاب قال لهم العالم : افزعوا فلعلّه يرحمكم ويردّ العذاب عنكم فاخرجوا إلى المفازة وفرّقوا بين النساء والأولاد وبين سائر الحيوانات وأولادها ، وتضرّعوا إلى الله وابكوا ؛ ففعلوا فصرف عنهم العذاب وكان قد قرب منهم .

ومرّ يونس على وجهه مغاضباً كما حكى الله عنه حتّى انتهى إلى ساحل البحر فإذا سفينة قد شحنت وأرادوا أن يدفعوها فسألهم يونس أن يحملوه فحملوه فلمّا توسّطوا البحر بعث عليهم حوتاً عظيماً فحبس عليهم السفينة فتساهموا فوقع من بينهم السهم على يونس فأخرجوه وألقوه في البحر فالتقمه الحوت ومرّ به في الماء . وقيل : إنّ الملاّحين قالوا : نقترع فمن أصابته

القرعة ألقيناه في البحر فإنّ ههنا عبداً آبقاً فوقعت القرعة سبع مرّات على يونس فقام يونس قال : أنا العبد الآبق وألقى نفسه في الماء فابتلعه الحوت فأوحى الله إلى ذلك الحوت لا تؤذ شعرة منه فإنّي جعلت سجنه بطنك ولم أجعله طعامك فلبث في بطنه ثلاثة أيّام . وقيل : سبعة أيّام . و قيل : أربعين يوماً .

وقد سأل بعض اليهود علياً عليه السلام عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه فقال عليه السلام له : هو الحوت الّذي حبس يونس في بطنه فدخل في بحر قلزم حتّى خرج إلى بحر مصر ثمّ إلى بحر آخر ثمّ خرج من الدجلة .

قال عبدالله بن مسعود : ابتلع الحوت حوتاً آخر فأهوى به إلى قرار الأرض وكان في بطنه أربعين ليلة «فنادى في الظلمات أن لا إله إلّا أنت[1]» فاستجاب له فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر وهو كالفرخ المتمعّط فأنبت الله له شجرة من يقطين فجعل يستظلّ تحتها ووكّل الله به وعلاً يشرب من لبنها فيبست الشجرة فبكى عليها فأوحى الله إليه تبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون وأردت أن أهلكهم .

فخرج يونس فإذاً بغلام يرعى فقال : من أنت ؟ قال : من قوم يونس قال : إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنّك لقيت يونس ؛ فأخبرهم الغلام و ردّ الله عليه بدنه وعافيته ورجع إلى قومه وآمنوا به . وقيل : إنّه أُرسل إلى قوم آخرين غير قومه الأوّلين .

وههنا مسألة : وهي أنّ فرعون تاب في آخر الأمر ولم يقبل توبته وحكى سبحانه عن قوم يونس أنّهم تابوا وقبل توبتهم فما الفرق ؟

الجواب أنّ فرعون قد ذكرنا قبيل هذا بآيتين سبب عدم قبول توبته على أنّ فرعون لو فرضنا أنّه تاب تاب بعد أن شاهد العذاب وبعد مشاهدة العذاب والإلجاء لا يقبل التوبة البتّة . وأمّا قوم يونس فإنّهم ظهرت لهم أمارات دلّت على قرب وقوع العذاب ، وتابوا قبل أن شاهدوا ؛ فظهر الفرق .

قوله تعالى : ولو شاء ربك لامن من في الارض كلهم جميعا افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (٩٩) وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لايعقلون (١٠٠) .

---

(١) الانبياء : ٨٧ .

المعنى : لما تقدم أن إيمان الإلجاء غير نافع بين في هذه الآية أن ذلك لو كان ينفع لأكره أهل الأرض عليه فقال : [ولو شاء ربك] يا محمد لآمن أهل الأرض جميعاً وأكرههم قهراً على الإيمان أي بقدر على هذا الأمر كما قال في موضع آخر : «إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين [١]» و كذلك قال بعده :

[أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين] أي لاينبغي أن تريد إكراههم على الإيمان مع أنك لاتقدر عليه ؛ لأن الله تعالى يقدرعليه ولا يريده لأنه ينافي التكليف. وأراد بهذا المعنى سبحانه تسلية الرسول و تخفيف ما يلحقه من التحسر والحرص على إيمانهم .

وفي هذا أيضاً دلالة على بطلان قول المجبرة : «إنه تعالى لم يزل كان شائياً وإنه لايوصف بالقدرة على أن يشاء» وهذا باطل لأنه تعالى أخبر أنه لوشاء لقدر لكنه لم يشأ فلذلك لم يوجد ولوكانت مشيئته أزلية لم يصح تعليقها بالشرط فصح أن مشيئته فعلية ألا ترى أنه لايصح أن يقال : لوعلم ولو قدر كما صح أن يقال : لوشاء ولو أراد .

قوله : [وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله] المعنى أنه لا يمكن أحد أن يؤمن إلا باطلاق الله له في الإيمان وتمكينه منه و دعائه إليه بما خلق فيه من العقل الموجب لذلك وقيل : إن إذنه ههنا أمره . وقيل : إن إذنه ههنا علمه . أي لاتؤمن نفس إلا بعلم الله .

[ويجعل الرجس] والعذاب [على الذين لا] يتفكرون حتى [يعقلون] والمراد من الرجس قيل : السخط والغضب . و قيل : النتن . والرجز و الرجس واحد . قال أبوعلي الفارسي : الرجس على ضربين أحدهما بمعنى العذاب ، والآخر بمعنى القذر والنجس . فحينئذ المعنى يحكم بأنهم رجس كما في قوله : «إنما المشركون نجس» [٢]

قوله تعالى : قل انظروا ماذا فى السموات والارض وماتغنى الايات والنذر عن قوم لايؤمنون(١٠١) فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين (١٠٢) ثم ننجى رسلنا و الذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين (١٠٣) .

---

(١) الشعراء : ٤ . (٢) التوبة : ٢٩ .

المعنى : [قل] يا محمّد في مقام الإرشاد لمن يسألك الآيات و الشواهد [انظروا] والنظر طلب الشيء من جهة الفكر كما يطلب إدراكه بالعين أي انظروا [ماذا في السماوات والأرض] من الدلائل والعبر من اختلاف اللّيل والنهار ومجاري النجوم والأفلاك وما خلق من الجبال وإنبات الأشجار والثمار وأنواع الحيوانات وفوائدها الّتي يستفيدون منها فإنّ النظر والتدبّر فيها في أفرادها و جملتها يدعو إلى معرفة الصانع والإيمان بوحدانيّته و قدرته وحكمته .

قوله : [وما تغني الآيات والنذر] وهو جمع النذير أي الرسل والأنبياء أو الإنذارات .
والمعنى : وما تغني هذه الآيات والبراهين الواضحة مع ظهورها ولا الرسل المخوّفة عن قوم لا ينظرون في الأدلّة ولا يتدبّرون ولا يريدون الإيمان . وقيل : «ما» استفهاميّة يعني أيّ شيء يغني عنهم إذا لم يستدلّوا بهذه الدلائل ؟

قال النبيّ ﷺ : تفكّروا في الخلق ولا تتفكّروا في الخالق . ولو أنّ الإنسان أخذ يتفكّر في كيفية حكمة الله في تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقلّ مرتبة من مراتب تلك الفوائد و الحكم فنبّه سبحانه على القاعدة الكلّيّة وأمر بالنظر إلى ما في السماوات والأرض حتّى أنّ الإنسان بقدر القوّة البشريّة يشرع في فهم تحصيل حكمته فحينئذ يوجب النظر له اليقين .

و كان الحسن إذا قرأ هذه الآية هتف بها و قال : و ما تغني الحجج عن قوم لا يقبلونها .

قال أبو عبدالله عليه السلام : لمّا أسري رسول الله ﷺ جبرئيل بالبراق فركبها فأتى بيت المقدّس فلقي من لقي من الأنبياء ثمّ رجع فأصبح يحدّث أصحابه أنّي أتيت بيت المقدس ولقيت إخواني من الأنبياء فقالوا : يا رسول الله كيف أتيت بيت المقدس اللّيلة ؟ قال : جاءني جبرئيل بالبراق فركبتها وآية ذلك أنّي مررت بعير لأبي سفيان على ماء لبني فلان وقد أضلّوا جملاً لهم أحمر وهم في طلبه .

فقال القوم بعضهم لبعض : إنّما جاءه راكب سريع ولكنّكم أتيتم الشام وعرفتموها فاسألوه عن أسواقها وأبوابها وتجّارها ؛ فسألوه عن ذلك ، وكان ﷺ إذا سئل عن الشيء

لايعرفه شقّ ذلك عليه حتّى يرى ذلك في وجهه على جهة التفصيل .

قال : فبينا هو كذلك إذ أتاه جبرئيل فقال : يا رسول الله هذه الشام قد رفعت لك فالتفت النبيّ فإذاً هو بالشام فقالوا له : أين بيت فلان و مكان كذا ؟ فأجابهم كلّ ما سألوه عنه فلم يؤمن منهم إلّا قليل وهو قول الله تعالى : «وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون» .

ثمّ قال أبوعبدالله عليه السلام : فنعوذ بالله أن لانؤمن بالله ورسوله .

قوله : [فهل ينتظرون] المعنى أنّ الأنبياء قبلك كانوا يتوعّدون كفّار زمانهم بمجيء أيّام العذاب وهم كانوا يكذّبون بها ويستعجلونها على سبيل السخريّة وكذلك كفّار زمانك هكذا يفعلون وأمر نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله أن يقول : لهم فانتظروا و أنا كذلك منتظر .

ثمّ أخبره بأنّه لو نزل العذاب ، واقتضت الحكمة بنزوله ننجي رسلنا و أتباعهم فهم أهل النجاة .

ثمّ قال سبحانه : مثل ذلك الإنجاء الرسل السابقة ننظر المؤمنين من اُمّتك وتنظرك ونهلك المشركين وحقّ علينا حقّاً بنجاتهم .

قوله : ياايها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذى يتوفيكم وامرت ان اكون من المؤمنين(١٠٤) وان اقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين (١٠٥) ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذامن الظالمين(١٠٦)

أمر سبحانه نبيّه بإظهار دينه وبإظهار المباينة عن المشركين لكي تزول الشبهات وتخرج عبادته من طريقة السرّ إلى الإظهار . وظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ هؤلاء الكفّار ماكانوا يعرفون دين رسول الله .

وفي الخبر أنّهم كانوا يقولون فيه : قدصبأ وهوصابيء .

المعنى : إن كنتم لاتعرفون ديني فأنا اُبيّنه لكم وإنّما أثبت تقديم النفي لقوله : [فلا أعبد الّذين] لأنّ بيان إزالة النقوش الفاسدة عن اللّوح مقدّمة لامحالة على إثبات النقوش الصحيحة في ذلك اللّوح .

[ولكن أعبدالله الّذي يتوفّاكم] والمقصود ترك عبادة الأوثان و الأحجار و يجب الاشتغال بعبادة المعبود الحقّ الموصوف بهذه الصفة أي يتوفّاكم . وإنّما خصّ هذا الوصف بالذكر في هذا المقام لأنّ الموت أقوى من الزجر والردع ، أو المراد : أعبد الّذي خلقكم أولاً ثمّ يتوفّاكم ثانياً ثمّ يعيدكم ثالثاً واكتفى بذكر التوفّي من المراتب الثلاثة لكونه منبّهاً على البواقي .

قوله : [وأُمرت أن أكون من المؤمنين] أي إنّا مأمورون بعبادة الجوارح و قبول الإيمان بالقلب ، يعني لابدّ أن يكون الظاهر مزيّناً بالأعمال الصالحة و القلب منوّراً بالمعرفة والقبول .

قوله : [و أن أقم وجهك للدين] أي وأُمرت بإقامة الوجه إلى طلب الدين كناية عن توجيه العقل بالكلّيّة إلى طلب الدين لأنّ من يريد أن ينظر إلى شيء نظراً بالاستقصاء فإنّه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه والحاصل أي استقم في الدين على ما أُمرت به من القيام بإعباء الرسالة وتحمّل أمر الشريعة بوجهك . وقيل : المعنى : وأقم وجهك في الصلاة بالتوجّه نحو الكعبة [حنيفاً] أي مائلاً إليه ميلاً كلّيّاً معرضاً عمّا سواه إعراضاً كلّيّاً بإخلاص تامّ وترك الالتفات إلى غيره .

[ولا تكوننّ من المشركين] أي لا يكون في العبادة شرك لغير الله .

قال الرازيّ : لا يمكن أن يكون هذا نهياً عن عبادة الأوثان لأنّ ذلك صار مذكوراً بقوله : « فلا أعبد الّذين تعبدون من دون الله » فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو الشرك الخفيّ ؛ لأنّ من عرف مولاه فلو التفت بعد ذلك إلى غيره كان ذلك شركاً ، وتسمّيه أصحاب القلوب الشرك الخفيّ .

قوله : [ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك و لا يضرّك] و كلّ شيء هالك إلّا وجهه فلا نافع ولا ضارّ سوى الله لأنّ غيره ممكن ومعدوم أو سيعدم فما سواه لا وجود له إلّا بإيجاده فلا حكم إلّا له والرجوع إليه فحينئذ إن اشتغلت بطلب المنفعة أو دفع الضرر من غيره [فإن فعلت] ذلك الأمر [فإنّك إذاً] وضعت الشيء في غير موضعه و كنت ظالماً ؛ فإنّ ما سوى الحقّ معزول عن التصرّف لعدم القدرة .

فإن قيل : طلب الشبع من الأكل والريّ من الشرب هل يقدح في ذلك الإخلاص والتوجّه ؟

قلنا : لا لأنّ حصول الشبع من الأكل بتكوين الله وطلب الانتفاع بشيء قدّره الله للانتفاع به لا يكون منافياً للرجوع بالكلّيّة إلى الله بشرط أن يشاهد بعين عقله أنّها معدومة بذواتها وهالكة بأنفسها وباقية بإبقاء الحقّ ويرى ما سوى الحقّ عدماً محضاً بحسب أنفسها ويرى فيض وجوده وإحسانه غالباً على الكلّ .

قوله : وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم (١٠٧) .

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ ما تدعونه وتعبدونه من الأوثان لا يضرّ ولا ينفع عقّبه ببيان أنّه تعالى هو النافع الضارّ أي إن أحلّ الله بك ضرّاً من بلاء أو شدّة أو مرض لا يقدر على كشفه أحد غيره وإن يردك بخير من صحّة ونعمة وخصب ونحوها لا يقدر أحد على منعه . [يصيب] بالخير [من يشاء من عباده] فيعطيه على ما تقتضيه الحكمة و المصلحة [وهو الغفور] لذنوب عباده [الرحيم] بهم .

وفي الآية نكتة دقيقة حيث إنّ المسّ نسبه إلى الضرّ والإصابة نسبها إلى الخير حيث إنّ جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب وهذا يؤيّد قوله سبحانه : «سبقت رحمتي غضبي» والخير مراد بالذات والشرّ مراد بالعرض .

قوله : قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل (١٠٨) .

المعنى : لمّا قرّر الدلائل من أوّل السورة في التوحيد والنبوّة والمعاد بالدلائل والبراهين والأمثلة لتقريب المعنى في الأذهان ختم السورة بقوله : [قل يا أيّها الناس] أي إنّه بيّن التكاليف وأزاح العلّة وقطع المعذرة [فمن] قبل و[اهتدى] فالنفع راجع إليه والهداية تنفعه ، و من لم يصغ بسمع القبول وخالف الهداية واتّبع الضلالة فخاصم نفسه ، ولا يجب عليّ من السعي في إلجائكم إلى الثواب العظيم .

قال بعض المفسّرين كابن عبّاس : إنّ هذه الآية منسوخة بآية القتال .

قوله : واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (١٠٩) .

ثمّ أمر نبيّه باتّباع الوحي والتنزيل فإن وصل إليه ﷺ بسبب ذلك الاتّباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وهو حكم عدل لا جور في قضيّته .

تمّت السورة بحمد الله تعالى .

﴿سورة هود﴾

هذه السورة مكيّة كلّها إلّا آية وهو قوله: «وأقم الصلاة طرفي النهار» فإنّها نزلت بالمدينة.

فضلها: أُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: من قرأها أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء.

وروى الثعلبيّ بإسناده عن أبي إسحاق عن أبي حجيفة قال: قيل: يارسول الله قد أسرع إليك الشيب؟ قال ﷺ: شيّبتني هود و أخواتها. و في رواية أنّه سئل عن إسراع الشيب، قال: شيّبتني هود وأخواتها: الحاقّة و الواقعة و عمّ وهل أتاك حديث الغاشية.

روى العيّاشيّ بحذف الأسانيد عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة هود في كلّ جمعة بعثه الله يوم القيامة في زمرة النبيّين وحوسب حساباً يسيراً ولم تعرف له خطيئة عملها يوم القيامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : الر كتاب احكمت اياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (١) الاتعبدوا الاالله انني لكم منه نذير و بشير (٢) وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى اجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وان تولوا فاني اخاف عليكم عذاب يوم كبير (٣) الى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير (٤) .

لمّا ختم الله سورة يونس بذكر الوحي وأمر النبيّ باتّباع الوحي افتتح هذه السورة ببيان الوحي .

قوله : [الر] اسم للسورة وهو مبتدأ و [كتاب] خبره و « أُحكمت آياته » صفة «للكتاب » قال الزجّاج : لايجوز أن يكون « الر » مبتدءاً وقال : « كتاب » خبر باإضمار هذا كتاب .

وقوله : [أُحكمت آياته] أي لايتطرّق إليها الفساد وآياته محكمة و مفصّلة ببيان الحلال والحرام والأمر والنهي [ثمّ فصّلت] بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقيل: معناه : أُحكمت آياته جملة لايتطرّق إليها الفساد .

[ثمّ فصّلت] أي فرّقت في الإنزال آية بعد آية ليكون المكلّف أمكن في النظر و التدبّر وقيل : معناه أُحكمت في ترتيبها بأن جعلت على أبلغ وجوه الفصاحة حتّى عجزوا عن الإتيان بمثله ثمّ فصّلت بالشرع والبيان المفروض .

و الحاصل يعني هذا الكتاب محكم النظم مفصّل الآيات من الأُمور فليس فيها خلل ولا باطل وتتابعت آياته بعضها على إثر بعض [من لدن] أي أتاكم هذا الكتاب الموصوف بهذه الصفات من عند [حكيم] في تدابيره عليم بأحوال خلقه ومصالحهم .

وفي هذه الآية دلالة على أنّ القرآن كلام محدث لأنّه وصفه بأنّه أُحكمت آياته ثمّ

فصّلت و الإحكام والتفصيل من صفات الأفعال لأنّه قال : هذا التفصيل و الإحكام من لدن حكيم وقعت وصدرت وهذه الإضافة لاتصحّ إلّا في المحدث لأنّ القديم يستحيل أن يكون صادراً من غيره . والحقّ أنّه نعم الدليل على حدوث الكلام .

قوله : [ألّا تعبدوا إلّا الله] في موضع نصب تقديره فصّلت آياته لأن لا تعبدوا أو بأن لاتعبدوا إلّا الله وأنّ هذا الأصل ثابت في كلّ الشرائع ولامحيص عنه .

وحاصل المعنى : اُنزل هذا الكتاب المحكم المفصّل ليأمركم لكي لاتعبدوا الّا الله [إنّني لكم منه نذير و بشير] هذا إخبار من النبيّ أنه مخوّف من مخالفة الله بأليم العذاب و مبشّر على طاعة الله بجزيل الثواب .

قوله : [وأن استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه] أي اطلبوا المغفرة واجعلوها غرضكم ومقصدكم واستغفروا من ذنوبكم الماضية ثمّ توبوا إليه في المستانف وارجعوا إليه . وقيل : إنّ « ثمّ » ههنا بمعنى « الواو » والاستغفار والتوبة واحد فحينئذ على هذا المعنى يكون التوبة تاكيداً للاستغفار .

[يمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمّى] أي إنّكم إذا استغفرتموه وتبتم إليه يمتّعكم في الدنيا بالنعم السابغة من الخفض والدعة والأمن والسعة إلى الوقت الّذي قدّر لكم أجل الموت فيه و يبقيكم و لا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل أهل القرى الّذين كفروا من قبلكم .

[ويؤت كلّ ذي فضل] أي ويعط كلّ ذي إفضال على غيره بمال أو كلام أوعمل بيد أو رجل جزاء إفضاله و الهاء في [فضله] راجع إلى ذي الفضيلة . وقيل : إنّ معناه يعطي الله كلّ ذي عمل صالح ثوابه على قدر عمله وعلى هذا فالأولى أن تكون « الهاء » في « فضله » عائداً إلى اسم الله [وإن تولّوا] وأعرضوا عمّا اُمروا . به وقرىء بالتائين و المراد الخطاب [فإنّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير] شأنه وهو يوم القيامة وهذا الخوف ليس في معنى الشكّ بل بمعنى اليقين أي قل لهم : إنّي أعلم أنّ لكم عذاباً عظيماً .

وإنّما وصف اليوم بالكبير لعظم مافيه من الأهوال . و في ذلك اليوم رجوعكم إلى حكم الله مصيركم إليه ويعيدكم للجزاء وهو قادر على الإعادة والجزاء فاحذروا مخالفته .

قوله تعالى : الا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه الاحين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون ومايعلنون انه عليم بذات الصدور(٥) .

قرىء « يثنوني» على يفعوعل للمبالغة مثل احلولى واخشوشن .

وأصل «الثنّ» العطف تقول : ثنيته عن كذا أي عطفته ومنه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر في المعنى و منه الثناء لعطف المناقب في المدح و منه الاستثناء لأنّه عطف عليه بالإخراج منه .

قوله : [ألا إنّهم] «ألا» حرف تنبيه ولا نصيب لها من الإعراب .

النزول : قيل : نزلت في الأخنس بن شريق كان حلو الكلام يلقى رسول الله بما يحبّ، وينوي بقلبه على ما يكره . وعن أبي جعفر أنّ المشركين إذا مرّوا برسول الله صلى الله عليه وآله طأطأ بعضهم رأسه وظهره هكذا وغطّى رأسه بثوبه حتّى لا يراه رسول الله فأنزل الله هذه الآية . لمّا تقدّم ذكر القرآن بيّن سبحانه فعلهم عند سماعه فقال : ألا إنّ المنافقين والكفّار يطوون صدورهم ويطأطئونها ويحنون صدورهم لكي لا يسمعوا كلام الله .

وحاصل المعنى أنّ طائفة من المنافقين والمشركين قالوا : إذا أغلقنا أبوابنا وأرسلنا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد فكيف يعلم بنا ؟ أي نضمر خلاف ما نظهر ليستخفوا من الله ، فالله سبحانه نبّه بأنّهم لو تولّوا ظاهراً وباطناً لا فائدة لهم بذلك التولّي باطناً لأنّي أعلم سرّهم وعلنهم وأعلم خطرات ما في صدورهم وحديث نفسهم .

قوله : ومامن دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها و مستودعها كل في كتاب مبين(٦) .

لمّا ذكر سبحانه في الآية السابقة على أنّه عالم بجميع المعلومات ذكر آية علمه بأنّه لو لم يكن عالماً لما كان يوصل رزق كلّ حيوان إليه وما حصلت لها هذه المهمّات فقال : [ومامن دابّة] أي ليس ما يدبّ على وجه الأرض من الجنّ والإنس والأنعام والطير والهوامّ والوحوش إلّا والله يتكفّل برزقها ويعلم موضع قرارها من أصلاب الآباء وأرحام الأمّهات ومسكن الأرض ويعلم سبحانه حيث تأوي هذه الأنواع إليه من الأرض و حيث تموت و تبعث منه وأين مكان يستقرّ عملها وإلى أيّ مكان تصير إليه وتستودع فيه وجميع

ذلك مكتوب في كتاب ظاهر وهو اللوح المحفوظ .

وقيل في معنى المستقرّ والمستودع : إنّ المستقرّ هومكانه في الأرض و المستودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار في صلب أورحم أو بيضة أوأصل .

قوله : وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الاسحر مبين (٧) .

لمّا أثبت بالدليل المتقدّم كونه عالماً أثبت بهذا الدليل كونه قادراً على جميع المقدورات فقال : [وهو الّذي] إخبار عن قدرته بأنّه خلق هذه الأجرام العظيمة في هذا المقدار من الزمان لوكان زمان لأنّه لم يكن هناك أيّام تعدّ فإنّ اليوم عبارة عمّا بين طلوع الشمس وغروبها ، والحكمة اقتضت أن ينشئهما في هذا المقدار من الزمان مع قدرته على أن يخلقهما في مقدار لمح البصر .

[وكان عرشه على الماء] وفي هذا دلالة على أنّ العرش والماء كانا موجودين قبل خلق السماوات والأرض و كان الماء قائماً بقدرة الله على غير موضع قرار بل كان الله يمسكه بقدرته وبناء العرش والسماوات والأرض على الماء أبدع وأعجب في القدرة .

قال بعض المفسّرين : خلق الله ياقوتة خضراء ثمّ نظر إليها بالهيبة فصارت ماءً يرتعد ، ثمّ خلق الريح فجعل الماء على متنها ، ثمّ وضع العرش على الماء .

وقالت المعتزلة : في الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما لأنّه خلقهما المنفعة وتلك المنفعة عائدة إلى غيره سبحانه لأنّه غنيّ عن أن ينتفع بشيء ولابدّ أن يكون المنتفع حيّاً وذلك كان في جنس الملائكة .

وبالجملة ففي مقام إثبات القدرة شرح أنّ العرش الّذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله فوق سبع سماوات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه .

[ليبلوكم] ويمتحنكم . ومعنى «الاختبار» في حقّ الله ذكرناه مراراً أي يعاملكم معاملة المختبر ليظهر إحسان المحسن وإساءة المسيء لئلا يتوهّم أنّه سبحانه يجازي العباد على حسب ما في معلومه بل يجازي بعد وقوع العمل وقوله : [أحسن] لأنّه قد يكون فعل

حسن أحسن من حسن آخر .

ومع هذه الدلائل [لئن قلت] لهم يا محمد [إنّكم مبعوثون من بعد الموت] للحساب و الجزاء [ليقولنّ] هؤلاء الكفّار ليس هذا القول إلّا باطلاً وتمويهاً ظاهراً ولا حقيقة له . ومن قرأ «ساحر» أي أنت ساحر والساحر معناه الكذّاب . قال القفال : كانوا يقولون : إنّ هذا القول خدعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذّات الدنيا وإحرازاً لهم إلى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم كما قال بعض الزنادقة في زماننا ويقولون . أجارنا الله من هذه العقائد الرجسة والأقوال النجسة .

قوله : ولئن أخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة ليقولن ما يحبسه الا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون (٨) .

المعنى : لمّا حكى سبحانه عن الكفّار أنّهم يكذّبون الرسول وينسبوا إليه أنّه قوله سحر أو هو ساحر وكاذب حكى في هذه الآية أنّه متى تأخّر عنهم العذاب الّذي توعّدهم النبيّ ﷺ أخذوا في الاستهزاء وكانوا يقولون : ما السبب الّذي حبسه عنّا العذاب ؟ فأجاب الله بأنّه إذا جاء الوقت الّذي عيّنه الله لنزول العذاب لم ينصرف ذلك العذاب عنهم .

واختلفوا في ذلك العذاب أهل التفسير ؛ فمنهم قال : عذاب الدنيا من الأسر والقتل وأمثاله . وقيل : عذاب الآخرة . فنبّه سبحانه بأنّه يوم يأتيهم في القيامة ليس مصروفاً عنهم وليس له صارف وحاق بهم . وإنّما أتى بلفظ الماضي لتقريره وتحقّق وقوعه .

والمراد من قوله : [إلى أُمّة معدودة] قيل : المراد من «أُمّة» الحين والوقت كما في قوله : «وادّكر بعد أُمّة[1]» أي بعد زمان . وقيل : المراد بعد طائفة مجتمعة أي إلى حين تنقضي أُمّة من الناس بعد هذا الوعيد لقالوا : ما ذا يحبسه عنّا ؟ وقد انقرض من الناس . وهذا من باب تسمية الشيء باسم ما يحصل فيه كقولك : كنت عند فلان صلاة العصر أي في ذلك الوقت .

قوله : ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور (٩)

(١) يوسف : ٤٥ .

ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور (١٠) الا الذين صبروا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة واجر كبير (١١).

المراد من الإنسان مطلق الإنسان لأنّه تعالى استثنى منه قوله : « إلّا الذين » والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل فيشمل المؤمن والكافر كقوله : «والعصر * إنّ الإنسان لفي خسر * إلّا الّذين» [1] فبيّن تعالى : عادة الإنسان أن يقابل النعم بالكفران أي إذا أحللنا به نعمة من الصّحة والسعة من المال وغير ذلك من نعيم الدنيا ، ثمّ سلبنا تلك النعمة عنه للمصلحة فيه فعادته اليأس و كفران النعمة .

[ولئن أذقناه] أي أحللنا به بعد أن مسّته الضرّاء وأعطيناه نعمة ثانية [ليقولنّ] عند نزول النعماء ذهبت عنّي الخصال الّتي تسوؤني أي الشدائد والأمراض والآلام ذهبت عنّي ولا تعود إليّ ويغفل ولا يؤدّي شكرها لله الّذي أعطاه [إنّه لفرح] به و [فخور] به على الناس فلا يصبر في المحنة ولا يشكر عند النعمة . إلّا بعض الناس من المؤمنين يقابلون الشدّة بالصبر و النعمة بالشكر ، ويواظبون على الأعمال الصالحة أُولئك لهم الجنّة .

قوله : فلعلك تارك بعض مايوحي اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل عليه كنز او جاء معه ملك انما انت نذير و الله على كل شيء وكيل (١٢) ام يقولون افتريه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين (١٣) فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لااله الا هو فهل انتم مسلمون (١٤).

النزول : روي عن ابن عبّاس أنّ رؤساء مكّة من قريش أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمّد إن كنت رسولاً فحوّل لنا جبال مكّة ذهباً أو ائتنا بملائكة تشهد لك بالنبوّة فأنزل الله الآية .

وروى العيّاشي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام : إنّي سألت الله أن يؤاخي بيني وبينك ففعل وسألت ربّي أن يجعلك وصيّي ففعل فقال بعضهم : و الله لصاع من تمر في شنّ بال أحبّ إلينا ممّا سأل محمّد ﷺ ربّه فهلّا سأله ملكاً يعضده على عدوّه أو كنزاً يستعين به على فاقته ؟ فنزلت الآية .

---

(١) العصر : ١ - ٣ .

المعنى : ثمّ أمر سبحانه رسوله بالثبات على الأمر وحثّه على حجاج القوم بما يقطع العذر فقال : [فلعلّك تارك بعض] القرآن و هو مافيه سبّ آلهتهم و لا تبلّغهم إمّا دفعاً لشرّهم أوخوفاً منهم أي ولعلّك يضيق صدرك بما يقولونه ويلحقك من أذاهم وتكذيبهم مخافة [أن يقولوا] لولا يعني هلاّ [اُنزل عليه كنز] من المال [أو جاء معه ملك] يشهد له .

والحاصل : الحثّ للنبيّ على أداء الرسالة كما يقول أحدنا لغيره وقد علم من حاله أنّه يطيعه و لايعصيه ، لكن لأجل ترغيبه و حثّه يقول له : لعلّك تترك بعض ما آمرك لقول فلان . فيقول الله لنبيّه : لاتترك بعض مايوحى إليك ولا يضيق صدرك بسبب مقالتهم هذه .

[إنّما أنت نذير والله على كلّ شيء وكيل] يجلب النفع ويدفع الضرّ إن أراد .

[أم يقولون] الكفّار اختلقه واخترعه و أتى به من عند نفسه . قيل : ههنا حذف و إنّما الحذف لدلالة ما اُبقي على ما اُلقي وتقديره : أيكذّبونك فيما أتيتهم به من القرآن . أم يقولون افتريته أنت على ربّك [قل] لهم يا محمّد : إن كان على زعمكم مفترى [فأتوا بعشر سور مثله] في الترتيب و النظم و الفصاحة فإنّ القرآن نزل بلغتكم و قد نشأت أنا بين أظهركم فاجتمعوا وأتوا من عندكم بمثل هذه المفتريات ، فإن لم يمكنكم ذلك فاعلموا أنّه من عند الله وهذا صريح في التحدّي .

واعلم أنّه قد أجمع المسلمون على أنّه لايجوز للرسول أن يخون في الوحي ولاقصّر ولا خان أبداً وما ترك بعض مايوحى إليه فما المراد في قوله « فلعلّك » ؟ وهو أنّه لمّا علم سبحانه أنّ قلب النبيّ صلّى الله عليه وآله ضاق بسبب كلماتهم الفاسدة فكان يضيق صدره أن يلقي إليهم مالا يقبلونه فأيّده الله وهيّجه بهذا العنوان لطرح المبالات بكلماتهم الفاسدة وبشرح صدره لأنّه صلّى الله عليه وآله ما بلّغ بعض الوحي . فإن عجزتم عن الإتيان فاعلموا أنّ القرآن اُنزل بعلم الله وليس مفترى ولاشريك في خلقه . فهل أنتم بعد قيام الحجّة والعجز عن الإتيان مستسلمون ومنقادون ولتوحيده معتقدون ، أو بعد في ضلالتكم .

قوله : من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها و هم فيها لايبخسون (١٥) اولئك الذين ليس لهم في الاخرة الا النار و حبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون (١٦) .

المعنى: من كان يريد حسن بهجة الدنيا وزهرتها و لايريد الآخرة نوفّر عليهم جزاء أعمالهم في الدنيا تاماً ولا ينقصون شيئاً منها .

و المراد المشركون الّذين لا يصدّقون بالبعث ويعملون أعمال البرّ كإعطاء السائل وصلة الرّحم والكفّ عن الظلم وإغاثة المظلوم والأعمال الّتي يستحسنها العقل كبناء المرابط والقناطير فإنّ الله يعجّل لهم جزاء أعمالهم في الدنيا بالاستمتاع بما خوّلهم وبصحّة أبدانهم وتوسعة المعاش وصرف المكاره عنهم حتّى قيل : إنّ من مات على كفره قبل استيفاء العوض وضع الله عنه في الآخرة من العذاب بقدره وأمّا ثواب الآخرة فلاحظّ لهم فيه .

وقيل : المراد من الآية المنافقون الّذين كانوا يغزون مع النبيّ للغنيمة دون نصرة الدين جازاهم الله على ذلك بأن جعل لهم ثواب الدنيا .

وقيل : المراد منهم أهل الرياء [اُولئك الّذين] كذا حالهم [ليس لهم في الآخرة إلّا النار وحبط ما صنعوا] في الدنيا من الخير إنّهم ما عملوا لله وماتوا على كفرهم وبطل عملهم بالكفر .

وذكر الحسن في تفسيره أنّ رجلاً من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله خرج من عند أهله فإذا بجارية عليها ثياب وهيئة فجلس عندها ؛ فقامت الجارية فأهوى بيده إلى عارضها فمضت فأتبعها بصره و مضى خلفها ؛ فلقيه حائط فخمش وجهه فعلم أنّه اُصيب بسبب ذلك الذنب فأتى الرسول صلى الله عليه وآله وذكر له ذلك فقال صلى الله عليه وآله : أنت رجل عجّل الله عقوبة ذنبك في الدنيا إنّ الله إذا أراد بعبد شرّاً أمسك عنه عقوبة ذنبه حتّى يوافي به يوم القيامة ، وإذا أراد به خيراً عجّل له عقوبة ذنبه في الدنيا .

والنظم : لمّا قال سبحانه : «فهل أنتم مسلمون» كأنّ قائلاً قال : إن أظهرنا الإسلام سلامة المال والنفس تكون ماذا ؟ فقال الله : من أراد الدنيا دون الآخرة فسبيله هذا .

والقائلون بأنّ المراد المراؤون ذكروا أخباراً كثيرة في هذا الباب .

روي أنّه صلى الله عليه وآله قال : تعوّذوا بالله من جبّ الحزن قيل : وماجبّ الحزن ؟ قال صلى الله عليه وآله : واد في جهنّم يلقى فيها القرّاء المراؤون . وقال صلى الله عليه وآله : أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة من يري الناس أنّ فيه خيراً ولا خير فيه .

وروى أبو هريرة أيضاً أنّه ﷺ قال : إذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن فيقال له : ماعملت فيه ؟ فيقول : يا ربّ قمت به آناء اللّيل والنهار فيقول الله : كذبت بل أردت أن يقال : فلان قارىء وقد قيل .

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله : ألم اُوسّع عليك ؟ فماذا عملت فيما آتيتك ؟ فيقول: وصلت الرحم و تصدّقت ؛ فيقول الله : كذبت بل أردت أن يقال : فلان جواد وقد قيل ذلك .

ويؤتى بمن قتل في سبيل الله فيقول : قاتلت في الجهاد حتّى قتلت فيقول الله : كذبت بل أردت أن يقال : فلان جريء وقد قيل ذلك .

قال أبو هريرة : ثمّ قرب رسول الله ركبتي وقال : يا أبا هريرة اُولئك الثلاثة أوّل خلق تسعر بهم النار يوم القيامة .

قوله تعالى : افمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه و من قبله كتاب موسى اما ما ورحمة اولئك يومنون به و من يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلاتك فى مرية منه انه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يومنون (١٧) .

تعلّق هذه الآية بما قبلها ظاهر والتقدير : أفمن كان على بيّنة من ربّه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ إلّا أنّه حذف الجواب لظهوره .

واختلفوا في أنّ الّذي وصفه الله بأنّه على بيّنة من هو ؟ قيل : المراد به النبيّ ﷺ . و قيل : المراد من آمن به من القوم وهو الأظهر لقوله في الآية «اُولئك يؤمنون به » وهذا صيغة جمع ، فلا يجوز رجوعه إلى النبيّ . والمراد بالبيّنة هو البيان والبرهان الّذي عرف به صحّة الدين الحقّ .

والضمير في «يتلوه» راجع إلى معنى البيّنة وهو البرهان . والمراد بالشاهد القرآن و[منه] أي من الله [ومن قبله] أي من قبل القرآن وقبل مجيئه التوراة [كتاب موسى] وحاصل المعنى أنّ الله يقول : اجتمع في صحّة هذا الدين اُمور ثلاثة : أوّلها البيّنات العقليّة والثاني شهادة القرآن بصحّته والثالث شهادة توراة ، فلا يبقى ريب مع هذه الاُمور .

واختلف في معنى الشاهد أنّه من المراد به ؟ فقيل : الشاهد جبرئيل يتلو القرآن على

النبيّ صلّى الله عليه وآله من الله ، عن ابن عبّاس و مجاهد و الزجّاج .

وقيل : الشاهد من الله محمّد صلّى الله عليه وآله ، عن الحسين بن علي عليهما السلام واختاره الجبّائيّ .

وقيل : الشاهد عليّ بن أبي طالب يشهد للنبيّ وهو منه ومن صنوه وأصله وهذا غاية التشريف لعليّ عليه السلام .

وهو المرويّ عن أئمّتنا أبي جعفر وعليّ بن موسى الرضا عليهما السلام ، رواه الطبريّ بإسناده ، عن جابر بن عبدالله ، عن عليّ عليه السلام .

ومن قبل القرآن التوراة و قد وصف الله كتاب موسى بأنّه [إماماً ورحمة] أي كان مقتدى الخلق ورحمة لهم أي لما كان سبباً للرحمة إطلاقا لاسم المسبّب باسم السبب [أُولئك يؤمنون به] أي إنّ الموصوفين بالبيّنة والهدى في صحّة هذا الدين يؤمنون بالقرآن أو بمحمّد صلّى الله عليه وآله .

وقيل : المعنى المراد أنّ صورة النبيّ صلّى الله عليه وآله ووجهه وخصائله كلّ ذلك يشهد له بالصدق فالتقدير أنّ حصول هذا الشاهد عقيب تلك البيّنة ؛ فحينئذ يكون الشاهد منه كون هذه الأحوال متعلّقة بذات النبيّ صلّى الله عليه وآله .

و ههنا بيان آخر و هو أنّ المطالب على قسمين : منها مايعلم صحّتها بالبداهة والضرورة ومنها يحتاج في تحصيل العلم بها إلى طلب واجتهاد ، و هذا القسم الثاني على قسمين ؛ لأنّ طريق تحصيل المعارف إمّا الحجّة والبرهان المستنبط بالعقل وإمّا الاستفادة من الوحي فهذان الطريقان هما الطريقان اللّذان يمكن الرجوع إليهما في تعريف المجهولات ، فإذا اجتمعا واعتضد كلّ واحد منهما بالآخر بلغا في غاية القوّة .

ثمّ إنّ في الأنبياء كثرة فإذاً توافقت كلماتهم على صحّته وكان البرهان اليقينيّ قائماً على صحّته .

فقوله : [أفمن كان على بيّنه من ربّه] فالمراد الدلائل العقليّة اليقينيّة و قوله : [ويتلوه شاهد منه] إشارة إلى الوحي الّذي حصل لمحمّد صلّى الله عليه وآله [ومن قبله كتاب موسى] إشارة إلى الوحي الّذي حصل لموسى فقد بلغ هذا الدليل و البرهان في القوّة إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه .

ثمّ قال : [ومن يكفر به] أي بالقرآن و بمحمّد ﷺ من أصناف الناس [فالنار موعده] فيدخل فيهم اليهود والنصاري والمجوس وسائر الطبقات من الكفر . روي عن النبيّ ﷺ والراوي أبو موسى روى عنه سعيد بن جبير أنّه ﷺ قال : لا يسمع بي يهوديّ و لا نصرانيّ فلا يؤمن بي إلّا كان من أهل النار . قال أبوموسى : فقلت في نفسي : إنّ النبيّ لا يقول مثل هذا إلّا عن القرآن فوجدت الله يقول : « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » .

قوله : [فلاتك في مرية منه إنّه الحق] أي لاتكن في مرية من صحّة هذا الدين ومن كون هذا القرآن نازلاً من عندالله . و قيل : إنّ المعنى : لا تك في مرية من أنّ موعد الكفّار النار .

ثمّ قال : [ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون] فلا تبال بالجهّال سواء آمنوا أو لم يؤمنوا .

قوله : ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا اولئك يعرضون على ربهم ويقول الاشهاد هولاء الذين كذبوا على ربهم الالعنة الله على الظالمين (١٨) الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالاخرة هم كافرون (١٩).

المعنى: في الآية دلالة على أنّ الافتراء على الله من أعظم أنواع الظلم .

ثمّ إنّه تعالى بيّن وعيد هؤلاء بقوله : [أولئك يعرضون على ربّهم] و ما وصفهم بذلك لأنّهم مختصّون بذلك العرض لأنّ العرض عامّ في كلّ العباد كما قال سبحانه: «وعرضوا على ربّك صفّا» (١) وإنّما أراد أنّهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم : هؤلاء الّذين كذبوا على ربّهم فيحصل لهم من الخزي و النكال مالا مزيد عليه .

فإن قيل : إذالم يجز أن يكون الله تعالى في مكان فكيف يعرضون على ربّهم ؟

فالجواب أنّهم يعرضون على الأماكن المعدّة للحساب الّتي أعدّها الله للحساب والأشهاد الّذين أضيف إليهم القول قيل : الناس وقيل : هم الأنبياء والملائكة الحفظة . و «الأشهاد» جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب و ناصر وأنصار و يجوز أن يكون شهيداً مثل شريف و أشراف .

---

(١) الكهف : ٤٩ .

ثمّ بيّن سبحانه عن حالهم بأنّهم في تلك الحال لملعونون من عندالله وهذه اللّعنة ابتداء خطاب من الله وقيل : من كلام الأشهاد . والمراد من اللّعنة إبعادهم عن رحمته .

ثمّ وصف سبحانه الملعونين الظالمين فقال: [الّذين يصدّون عن سبيل الله] و يغوون الخلق ويصرفونهم عن دين الله ، وقد يكون بإلقاء الشبهة إليهم ويطلبون لسبيل الله زيغاً عن الاستقامة وزيادة ونقيصة في الكتاب ليتغيّر الأدلّة كما فعله اليهود في وصف النبيّ والتحريفات في التأويل والبدع .

[وهم بالآخرة هم كافرون] قال الزجّاج : كلمة «هم» كرّرت على جهة التأكيد بشأنهم في الكفر .

قوله : اولئك لم يكونوا معجزين في الارض وما كان لهم من دون الله من اولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون (٢٠) اولئك الذين خسروا انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٢١) لا جرم انهم في الاخرة هم الاخسرون (٢٢) .

المعنى : اُولئك الموصوفون من الكفّار لم يكونوا معجزين الله بالهرب مفلتين بأنفسهم من أخذه لو أرادوا ذلك في الأرض مع سعتها وأن يهربوا منها كلّ مهرب .

وإنّما خصّ الأرض بالذكر و إن كانوا لا يفوتون الله ولا يخرجون عن قبضته على كلّ حال ؛ لأنّ معاقل الأرض مهرب البشر ومعصمهم عند المخاوف .

قوله : [وما كان لهم] أي ليس لهم وليّ ولا ناصر ينصرهم و يحميهم عن عذاب الله في الدنيا والآخرة [يضاعف لهم العذاب] أي كلّما مضى ضرب من العذاب يعقّبه ضرب آخر مثله أو فوقه دائماً مؤبّداً على قدر الاستحقاق . وقيل : معناه يضاعف العذاب على رؤسائهم للإضلال والصدّ عن الدين .

قوله : [ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون] في معناه وجوه :

أحدها : يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون و بما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون عناداً وذهاباً عن الحقّ فاُسقطت الباء عن الكلام ؛ كما في قول الشاعر :

نغالي اللّحم للأضياف نيّاً ❊ و نبذله إذا نضج القدور

أراد : نغالي باللحم ، فحينئذ «ما» مصدريّة وليست بنافية .

وثانيها أنّه لاستثقالهم استماع آيات الله و كراهتهم تذكّرها جروا مجرى من لا يستطيع السمع و كذلك أبصارهم لم يبصروا كقول الأعشى :

ودّع هريرة إنّ الركب مرتحل ❊ و هل تطيق وداعاً أيّها الرجل ؟

و قد علمنا أنّ الأعشى كان يقدر على الوداع ، و إنّما نفى الطاقة عن نفسه من حيث الكراهة .

و ثالثها : إنّما عنى بذلك آلهتهم وأوثانهم أي اُولئك الكفّار الموصوفون العابدون لآلهتهم إنّ آلهتهم جمادات ليس لها سمع ولا بصر ، وفيه تعسّف .

ورابعها أنّ «ما» ليست للنفي بل يجري مجرى قولهم : لأُواصلنّك ما لاح نجم والمعنى أنّهم معذّبون ما داموا أحياء .

[اُولئك الّذين خسروا أنفسهم] من حيث فعلوا ما استحقّوا به العذاب فهلكوا فذلك خسران النفس ، فأخذوا الخسيس من الدنيا و بدّلوا الشريف [وضلّ] و بطل مفترياتهم و أكاذيبهم [لاجرم] من عمل هذه التجارة الخاسرة [هم الأخسرون] وخسارتهم أضرّ من كلّ تجارة .

قال الزجّاج : كلمة «لاجرم» كلمة «لا» حرف نفي و «جرم» معناه كسب فمعناه لا كسب لهم في النفع بل هذا الكسب خسران الدنيا والاخرة ؛ فيؤول المعنى من كلمة «لا جرم» أنّه حقّ كفرهم وقوع العذاب و الخسران بهم .

قوله تعالى : ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات و اخبتوا الى ربهم اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون (٢٣) .

لمّا شرح خسارة الكفّار وشقاوتهم بيّن في هذه الآيه سعادة المؤمنين . و«الإخبات» مأخوذ من الخبت وهو الأرض المطمئنّة كناية عن من يطمئنّ إلى ربّه و يخضع له أي المؤمنون المطمئنّون إلى الله الخاضعون ، ويعبدون الله و قلوبهم مطمئنّة بذكر الله والخضوع له ، فارغة عن الالتفات إلى ماسوى الله ، وتيقّنوا بصدق ما وعدهم الله .

و أمّا إذا فسّرنا الإخبات بالخشوع كان المعنى : أنّهم يأتون بالأعمال الصالحة لكنّهم خائفون وخاشعون من أن يكونوا لم يأتوا بها من الوجوه الصحيحة ، ووجلون من أن يكون وقوع التقصير والإخلال ، فأُولئك الموصوفون بهذه الصفات أصحاب الجنّة وَ يحصل لهم الخلود .

قوله تعالى : مثل الفريقين كالاعمى و الاصم و البصير و السميع هل يستويان مثلاافلا تذكرون(٢٤) .

لمّا ذكر الله حال الفريقين من المؤمن و الكافر ذكر لهما مثالاً في الآية مطابقاً لها أي مثل فريق المؤمنين كالبصير والسميع ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصمّ ، وأنّ المؤمن ينتفع بهاتين الحاسّتين في الدين والكافر الّذي ليس له هاتان الحاسّتان لاينتفع بها فصارت حاسّته بمنزلة المعدوم . وإنّما دخل الواو ليبيّن أنّ حال الكافر كحال الأعمى عليحدة ، و كحال الأصمّ عليحدة ، وحال من يكون قد جمع بين الصفتين جميعاً .

[هل يستويان] فكما لاتستوي هاتان الحالتان عند العقلاء كذلك لاتستوي حال الكافر و المؤمن [أفلا تذكّرون] و تتفكّرون .

ولقدأرسلنا نوحاًالى قومه انى لكم نذير مبين(٢٥) ان لاتعبدوا الاالله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم (٢٦)فقال الملاء الذين كفروا من قومه مانريك الا بشراً مثلنا ومانريك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الراى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين (٢٧) قال يا قوم أرايتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وانتم لها كارهون (٢٨) .

اعلم أنّه تعالى قدبدأبذكرهذه القصّة في سورة يونس وقد أعادها في هذه السورة أيضاً لما فيها من زوائد الفكر و بدائع الحكم .

[ولقد أرسلنا] وبعثنا [نوحاًإلى] أهل زمانه و [قومه ألّا تعبدوا] أي : أُنذركم أن لاتعبدوا إلّا الله ، ووحّدوا الله ، وتتركوا عبادة غيره . و بدأ بالدعوة إلى الإخلاص في العبادة له سبحانه لأنّه من أهمّ الأُمور ، ولاتصحّ العبادات إلّا بعد التوحيد [إنّي أخاف] وإنّما قال : أخاف مع أنّ عقاب الكفّار مقطوع عليه و ليس مظنوناً به لأنّه ألطف في

الدعوة وأقرب إلى القبول و الإجابة في الغالب .

[فقال الملأ] والأشراف [الّذين] يملؤون المجالس بحاشيتهم وغاشيتهم [من]قوم نوح لنوح : [ما نراك إلّا بشراً مثلنا] ظنّاً منهم أنّ الرسول إنّما يكون من غير جنس المرسل إليه ولم يعلموا أنّ البعثة من الجنس قد يكون أصلح ومن الشبهة أبعد .

ثمّ قالوا : [وما نراك اتّبعك] أي : لم يتّبعك الملأ والأشراف و الرؤساء منّا و إنّما اتّبعك أخسّاؤنا الّذين لا مال لهم ولا جاه [بادىء الرأي] أي في ظاهر الأمر و الرأي لم يتدبّروا ولم يتعمّقوا فيما قلت .

وقال الزّجّاج : معناه اتّبعوك في الظاهر وباطنهم على خلاف ذلك . ومن قرأ بالهمزة فالمعنى : أنّهم اتّبعوك ابتداء الرأي ، ولو فكّروا وتأمّلوا لم يتّبعوك . وقيل : معناه أنّ في مبتدء وقوع الرؤية عليهم يعلم أنّهم أراذلنا و أسافلنا .

قوله : [وما نرى لكم علينا من فضل] أي : ما نرى لك ولقومك علينا من فضل ؛ لأنّ الفضل عندهم بكثرة المال والمنزلة في الدنيا و الشرف في النسب وهكذا عادة أهل الدنيا يستحقرون أرباب الدين إذا كانوا فقراء ويسترذلونهم وإن كانوا هم الأكرمين الأفضلين عند الله .

[بل نظنّكم كاذبين] هذه بقيّة كلام كفّار قوم نوح ، قالوه لنوح ومن آمن به .

[قال] نوح لقومه : [ياقوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي] .

و اختلفوا أنّ قول نوح هذا جواب عمّا ذا من كلامهم ؟ قيل : جواب عن قولهم : « بل نظنّكم كاذبين » وقيل : جواب عن قولهم : «ما نراك إلّا بشراً مثلنا » فالمعنى كأنّه عليه السلام قال : أخبروني أنّكم إن تظنّوني كاذباً فما ذا تقولون إذا أتيتكم بحجّة من الله واضحة ؟ ألا تصدّقونني ؟

هذا إذا كان قوله عليه السلام جواباً عن قولهم « بل نظنّكم كاذبين» . وإذا كان جواباً عن قولهم : « ما نراك إلّا بشراً » فالمعنى: إن كنت بشراً فماذا تقولون إذ أتيتكم بحجّة دالّة على صدقي ؟ و الرسالة تظهر بالمعجزة فلا معنى لاعتبار البشريّة .

قوله : [وآتاني رحمة من عنده] والمراد بالرحمة هنا النبوّة أي وأعطاني نبوّة من

عنده [فعمّيت] وخفيت [عليكم] لقلّة تدبّركم فيها . أتريدون أن أكرهكم و ألزمكم بطريق الإلجاء على تصديق نبوّتي على كره منكم ؟ ذلك غير مقدور لي ؛ لانّ إلزامي إيّاكم على قبول نبوّتي ذلك الإيمان الإضطراريّ وليس من شأني .

قوله تعالى: و يا قوم لا اسالكم عليه مالا ان اجرى الا على الله وما انا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكني اريكم قوما تجهلون (٢٩) و ياقوم من ينصرني من الله ان طردتهم افلا تذكرون (٣٠) ولا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول انى ملك ولا اقول للذين تزدرى اعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله اعلم بمافى انفسهم انى اذا لمن الظالمين (٣١) .

المعنى: ثمّ أنكر نوح استثقالهم التكليف ؛ لأنّ العاقل يستثقل الأمر إذا لزمته مؤونة ثقيلة فقطع عذرهم فقال : إني لا أطلب منكم مالاً لدعوتي ايّاكم إلى الله حتّى تمتنعوا إجابتي خوفاً من بذل المال ؛ لأنّي أطلب أجري من الله و لست أطرد المؤمنين من عندي ، ولا أبعدهم عنّي على وجه الإهانة ؛ لأنّهم سألوه طردهم ليؤمنوا له آنفة من أن يكونوا مع الفقراء سواء .

فكأنّه عليه السلام أجاب عن جميع سؤالاتهم بهذه الآية أي أنّي لا أطلب المال حتّى إذا كان المستجيب لنبوّتي إذا كان فقيرا لم ينفعني ، وإذا كان غنيّاً نفعني و يتفاوت لي ؛ فإن ظننتم أنّي فقير واشتغلت بهذه الحرفة لأتوصّل بها إلى أخذ أموالكم فاعلموا أنّ هذا الظنّ خطاء منكم ولا أطرد الصعاليك عنّي ؛ لأنّهم ملاقوا ربّهم ماوعدهم من البعث و الجزاء فإن طردتهم استخصموني عند الله . و نبّه بهذا المعنى لهم وجود البعث و الجزاء و القيامة ؛ فحينئذ إن فعلت ذلك وخاصموني فمن ينصرني عند الله من مخاصمتهم ؟ و أراكم جاهلين ؛ لانّ تعظيم البرّ المتّقي المؤمن وإهانة الفاجر الكافر حكم بهما الشرع و العقل ؛ فاذا قلبت القضيّة كنت على صدّ أمر الله فحينئذ من يجيرني من هذا الإثم و العصيان ؟

[أفلا] تفقهون و [تتذكّرون] و الفرق بين التفكّر و التذكّر أنّ التذكّر طلب معنى قد كان حاضراً للنفس و التفكّر طلب معرفة الشيء بالقلب و إن لم يكن حاضراً للنفس .

قوله : [ولا أقول لكم عندي] هذا تمام الحكاية عمّا قاله نوح لقومه أي إنّي لا أرفع نفسي فوق قدرها فأدّعي أنّ عندي مقدورات الله فأفعل ما أشاء و أُعطي من أشاء و أمنع من أشاء و مفاتيح الله في الرزق و خزائنه عنده ولا أدّعي علم الغيب حتّى أدلّكم على منافعكم ومضارّكم . ولا أقول إنّي ملك فأُخبر كم بخبر السّماء من قبل نفسي ، وإنّما أنا بشر لا أعلم الأشياء إلّا بتعليم الله .

ثمّ أكد عليه السلام بيانه بقوله : [ولا أقول للّذين تزدري أعينكم] و تستقلّونهم و تستخفّونهم و تنظرون إليهم بعين الحقارة و العيب لما ترونهم من الفقر : لايعطيهم الله في المستقبل خيراً [الله أعلم بما في] قلوبهم من الإخلاص إن قلت منهم مالم أعلم وطردتهم [إذاً] أنا [من الظالمين] .

قوله تعالى . قالوا يانوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين(٣٢) قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين (٣٣) ولا ينفعكم نصحى ان اردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم و اليه ترجعون (٣٤) .

لمّا جاوب الكفارّ بهذه الآية السابقة و صفوه بكثرة المجادلة و حملوا كلامه على الجدل . والمجادلة المقابلة بما يقبل الخصم من مذهبه بحجّة أو شبهة ، والجدل شدّة القتل .

والفرق بين الحجاج والجدال أنّ المطلوب بالحجاج ظهور الحجّة ، والمطلوب بالجدال الرجوع عن المذهب .

وبالجملة [قالوا يانوح] حاججتنا و أكثرت الجدل فأتنا بما تخوّفنا من العذاب فلسنا نؤمن بك إن كنت صادقاً فيما تدّعي .

[قال] نوح : لايأتي بالعذاب إلّا الله متى شاء ، فإن شاء عجّل و إن شاء أخّر وأنتم لاتفوتونه بالهرب والتأخير . وإذ أراد الله عذابكم وأن يعاقبكم لكفركم ، و يجنّبكم من رحمته بسبب سوء اختياركم ، ويحرّمكم ثوابه ، وأغواكم لاينفعكم نصحي إذا أردت أن أنصح ، لأنّكم عامدون على العناد والإنكار .

وقد سمّى الله سبحانه العقاب والعذاب غيّاً بقوله : «فسوف يلقون غيّاً[1]» ويشهد بذلك قول الشّاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغيّ لائماً

وقال بعض المفسّرين : إنّ معنى الآية : إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق و إضلالكم إيّاهم أي يريد عقوبتكم على ذلك الإغواء . ومن عادة العرب أن تسمّي العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه كقوله : وجزاء سيّئة سيّئة مثلها ، ومكروا ومكر الله .

وقيل : معنى الإغواء : الإهلاك إذا أراد الله إهلاككم بسبب كفركم لا ينفعكم نصحي عند نزول العذاب وإن قبلتم نصحي وآمنتم ؛ لأنّ الله حكم بأن لا يقبل الإيمان بعد نزول العذاب . وقد حكي عن العرب أنّهم قالوا : أغويت فلاناً أي أهلكته ، ويقال : غوى الفسيل إذا فسد من كثرة شرب اللّبن .

وقيل : إنّ قوم نوح كانوا يعتقدون أنّ الله يضلّ عباده عن الدّين وأنّ ماهم عليه بإرادة الله ولولا ذلك لأجبرهم على خلافه ؛ فقال نوح على وجه التعجّب من قولهم : إن كان القول كما تقولون وتعتقدون فنصحي لا ينفعكم .

واعلم أنّه لا يجوز أن يكون المراد بالإغواء في الآية فعل الكفر والدعاء إلى الكفر أو الحمل عليه على ما يعتقده المجبّرة ؛ لقيام الأدلّة على أنّ خلق الكفر وإرادته من أقبح القبائح وكالأمر به ، وكما لم يجز أن يأمر به فكذلك لا يجوز أن يفعله أو يريده . ولأنّه لو جاز منه الإضلال لجاز منه أن يبعث من يدعو إلى الضلال [هو ربّكم وإليه ترجعون] فيجازيكم على أعمالكم .

قوله : ام يقولون افتريه قل ان افتريته فعلى اجرامى و انا بريء مما تجرمون (٣٥) .

المعنى : قيل : أيؤمن كفّار محمّد صلّى الله عليه وآله بما أخبرهم به محمّد صلّى الله عليه وآله من نبأ قوم نوح [أم يقولون افتراه] من تلقاء نفسه [فقل] لهم يا محمّد صلّى الله عليه وآله : إن إختلقته وافتريته كما تزعمون فعليّ عقوبتي ولا تؤخذون به وأنا لا أُوخذ بجرمكم .

(١) مريم : ٦٠ .

و قيل : يعني به نوحاً و أنّه يقول على الله الكذب ، عن ابن عبّاس .

قوله تعالى : و اوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قدامن فلاتبتئس بما كانوا يفعلون(٣٦) و اصنع الفلك باعيننا و وحينا ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون(٣٧) و يصنع الفلك و كلما مر عليه ملاء من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون(٣٨) فسوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه و يحل عليه عذاب مقيم(٣٩) .

المعنى : أخبر الله نوحاً أنّه لن يؤمن به أحد من قومه في المستقبل فلاتغتمّ ولاتحزن . و لأنّ العقل لا يدلّ و لايحكم على أنّ قوماً لا يؤمنون في المستقبل و إنّما طريق ذلك السمع فأخبره الله ؛ فلمّا علم أنّ أحداً منهم لايؤمن فيما بعد ولا من قبلهم دعا عليهم « فقال : « ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّاراً * إنّك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً »[1]

فلمّا أراد الله إهلاكهم أمر نوحاً باتّخاذ السفينه له و لقومه المؤمنين فقال سبحانه : [واصنع الفلك] و اعمل السفينة [بأعيننا] و بمرأى منّا أي بحفظنا إيّاك حفظ الرائي لغيره إذا كان يدفع الضرر عنه . وذكر الأعين لتأكيد الحفظ

و قيل : المراد بالأعين الملائكة الموكّلون بك وهم ينظرون إليك بأعينهم . وإنّما أضاف ذلك إلى نفسه إكراماً و تعظيماً لهم .

و قوله : [و وحينا] معناه : على ما أوحينا إليك من صنعتها و كيفيّتها أو المراد : بوحينا إليك أن اصنعها ؛ و ذلك أنّه لم يعلم صنعة الفلك فعلّمه الله بأنّا نوحي إليك بما تحتاج إليه من طوله وعرضه وهيئته [ولاتخاطبني] أي ولاتسألني العفو عن هؤلاء [الّذين] كفروا من قومك ولاتشفع لهم [فإنّهم مغرقون] عن قريب وهذا غاية في الوعيد .

فجعل نوح يصنع الفلك كما أمر الله بيده فجعل ينحت و يسوّيها وأعرض عن قومه . و كلّما مرّ عليه أشراف قومه و رؤساؤهم وهو يعمل السفينة هزؤوا بفعله ؛ لأنّه كان يعملها في البرّ على مبلغ من الطول و العرض ولاماء هناك يحمل مثلها ، فكانوا يتضاحكون و يتعجّبون

(١) نوح : ٢٧ - ٢٨ .

من عمله ، وكانوا يقولون له : يا نوح صرت نجّاراً بعد النبوّة ؟ على طريق الاستهزاء . وقيل : إنّ استهزاءهم له بأن كانوا يقولون : لو كنت صادقاً في دعواك لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاقّ . أو أنّهم مارأوا السفينة قبل ذلك وماعرفوا السفينة إلّا ينتفاع بها فيسخرون و يعدّون عمله سفهاً . ولمّا طالت مدّته مع القوم ، وكان ينذرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى خبراً غلب على ظنونهم كونه كاذباً في ذلك المقال .

ثمّ إنّه سبحانه حكى عن نوح أنّه كان يقول : [إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون] أي إذا وقع الغرق و العذاب نحن نسخر منكم.

فإن قيل : السخريّة من آثار المعاصي فكيف يليق بالأنبياء ؟

قلنا : سمّي المقابلة سخريّة كما في قوله : « وجزاء سيّئة سيّئة مثلها [١]» .

[فسوف تعلمون] أيّنا أحقّ بالسخريّة ، وتعلمون عاقبة سخريّتكم [من يأتيه عذاب يخزيه] يفضحه في الدنيا و ثبت عليه عذاب دائم في الآخرة ، القصّة .

قال الحسن : كان طول السفينة ألف ذراع و مأتي ذراع و عرضها ستّمائة ذراع . و قيل : أقلّ . قال ابن عباس : كانت ثلاث طبقات : طبقة للناس و طبقة للأنعام و الدوابّ و طبقة للوحش والهوامّ ، و جعل أسفلها للوحوش والسباع والهوامّ ، و أوسطها للدوابّ والأنعام ، وركب هو ومن معه في الأعلى مع مايحتاج إليه من الزاد ، وكانت من خشب الساج ، وقيل : من النخل .

و بالجملة لمّا فرغ نوح من عمل السفينة وأراد الله إهلاكهم، روى عليّ بن إبراهيم بحذف الأسانيد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لمّا أراد الله إهلاك قوم نوح عقم أرحام النساء أربعين سنة فلم يولد لهم مولود، وأمر الله نوحاً أن ينادي بالسريانيّة أن يجمع إليه جميع الحيوان ، فلم يبق حيوان إلّا وقد حضر ؛ فأدخل من كلّ نوع من أنواع الحيوان زوجين ماخلا الفأر والسنّور . ثمّ لمّا شكوا القوم من سرقين الدوابّ دعا الخنزير ومسح جبينه فعطس فسقط من أنفه زوج فأرة فتناسلوا و لمّا كثروا و شكوا إليه منها دعا بالأسد و مسح جبينه ؛ فعطس فسقط من أنفه زوج سنّور.

---

(١) الشورى : ٤٠ .

وكان الّذين آمنوا به من جميع الدنيا ثمانين نفراً . وروى الشيخ أبوجعفر في كتاب النبوّة بإسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال : آمن مع نوح ثمانية نفر .

قوله : حتى اذا جاء امرنا و فار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين و اهلك الا من سبق عليه القول و من امن و ما امن معه الا قليل (٤٠) و قال اركبوا فيها بسم الله مجريها و مرسها ان ربي لغفور رحيم (٤١) .

كلمة «حتّى» وقعت غاية لقوله : «ويصنع الفلك» أي فكان يصنعها إلى أن جاء وقت العذاب .

و في « التنّور» قولان : أحدهما أنّه التنّور الّذي يخبز فيه . والثاني أنّه غيره؛ فعلى الأوّل قيل : إنّه تنّور لنوح عليه السلام ، كانوا يخبزون فيه . وقيل : كان لآدم وحوّاء حتّى صار لنوح . واختلفوا في موضعه ؛ قال الشعبيّ : كان بناحية الكوفة . وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه في مسجد الكوفة ؛ قال عليه السلام : وقد صلّى نحوه سبعون نبيّاً . وقيل : بالشام بموضع يقال له وردان . ولكنّ الصحيح ما قاله عليّ عليه السلام ؛ وقيل : فار التنّور بالهند . وقيل : إنّ امرأته كانت تخبز في ذلك التنّور خبزاً ورده من أرض الشام في دار نوح ، فأخبرت نوحاً بخروج الماء فاشتغل في الحال بوضع الأشياء في السفينة ، هذا كلّه على القول الأوّل .

وعلى القول الثاني إنّ المراد وجه الأرض والعرب تسمّي وجه الأرض تنّوراً . و قيل : إنّ التنّور أعلى مكان في الأرض وأشرفها ؛ وقد أخرج الله الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له . وقيل : فار التنّور أي طلع الصبح عن عليّ عليه السلام . وقيل : فار التنّور كقولهم: «حمي الوطيس» بمناسبة وقوع العذاب . وفار أي . نبع على قوّة وشدّة تشبيهاً بغليان القدر . وقد وعد الله المؤمنين النجاة ؛ وجعل هذه الحالة علامة لحدوث الواقعة .

قال الليث : «التنّور » لفظة عمّت بكلّ لسان و وافقت اللغات بهذا المعنى وصاحبه تنّار . لكنّ الأزهريّ قال : إنّ الاسم قد يكون أعجميّاً في الأصل فتعربه العرب فصار عربيّاً نظير ما دخل في كلام العرب من كلام العجم كالديباج والدينار والسندس والاستبرق فإنّ العرب لمّا تكلّموا بهذه الكلمات صارت عربيّة .

قوله : [قلنا احمل] أي قلنالنوح لمّا فار التنّور : احمل في السفينة [من كلّ] نوع من الحيوان [اثنين] .

فإن قيل : الزوجان قدفهم أنّهما اثنان فكيف جاز وصفهما بقوله «اثنين» ؟ إنّما جازللتأكيد كقوله : «لاتتّخذواإلهين اثنين» [1] تقول :أمس الدابر ونفخة واحدة و نعجة واحدة ، والحاصل : احمل في السفينة من الحيوان ذكراً واُنثى .

[و] احمل [أهلك] و ولدك [إلّامن سبق] القول بإهلاكه إلّاامرأته الخائنة ، و اسمها واغلة ، وابنه كنعان . واحمل[من آمن] بك من قومك ، وأخبرالله أنّه ماآمن معه إلّا نفر قليل وهم ثمانون إنساناً . وقيل : اثنان و سبعون رجلاً وامرأته و بنوه الثلاثة ونساؤهم فهم ثمانية و سبعون نفساً وحمل معه جسدآدموقيل : ثمانية أنفس ، عن أبي عبدالله عليه السلام ، وكان فيهم بنوه الثلاثة : سام ، وحام ويافث . وثلاث كنائن [2] لهم ، فالعرب ، والروم ، وفارس و أصناف العجم ولد سام ، والسودان والحبش و الزنج وأمثالهم ولدحام ، والترك والصين و الصقالبة ويأجوج ومأجوج ولديافث .

قوله : [وقال اركبوافيها]أي قال نوح لأهله وقومه : اركبوافي السفينةمتبرّكين [باسم] الله ، أوقائلين : بسم اللهوقت إجرائهاوحركتهاووقت إرسائهاوثبوتها . وقيل : كانواإذا أرادوا أن تجري السفينة قالوا : بسم الله جرت ، و إذا أرادوا أن تقف السفينة قالوا : بسم الله فوقفت .

[إنّ ربّي لغفور رحيم] هذا القول حكاية عمّاقاله نوح لقومه . ووجه اتّصالها بما قبلها : لمّا ثبت النجاة بالسفينة ذكرت النعمة بالمغفرة والرحمة .

قوله تعالى : وهي تجرى بهم في موج كالجبال و نادى نوح ابنه وكان في معزل يا بنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين (٤٢) قال ساوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لاعاصم اليوم من امر الله الامن رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين(٤٣) .

المعنى : إنّ السفينةكانت تجري بنوح و من معه على الماء في أمواج كالجبال في

---

(١) النحل : ٥١ .
(٢) جمع الكن بالفتح : امرأة الابن .

عظمها . وارتفاعها و من التشبيه تبيّن أنّ الموج لم يكن واحداً بل كان كثيراً . وروي أنّ الماء ارتفع فوق كلّ جبل عال ثلاثين ذراعاً . و قيل : إنّ السفينة سارت لعشر مضين من رجب ، فسارت ستّة أشهر ، فطافت الأرض كلّها لا تستقرّ في موضع حتّى أتت الحرم فطافت بموضع الكعبة اُسبوعاً ، ثمّ سارت بهم حتّى انتهت إلى الجوديّ . ومن المعلوم أنّ الأمواج العظيمة في البحر لا تحدث إلّا بعد هبوب رياح عاصفة ، وحدوث هول عظيم و الفزع . ثمّ [نادى نوح ابنه] يا بنيّ [وكان في معزل] من السفينة و إنّه كان يظنّ أنّ الجبل يمنعه عن الغرق . وقيل : إنّه كان بمعزل أي في معزل من الكفّار ، وإنّه انفرد عنهم ، فظنّ نوح أنّ ذلك إنّما كان لأنّه أحبّ مفارقتهم فطمع في إيمانه و ركوبه معه ، ولهذه الجهة ناداه ، وإلّا لما قال : «ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً»[1] كيف يناديه مع كفره ؟ بل قيل : إنّه كان ينافق أباه فظنّ نوح أنّه مؤمن ولولا ذلك لما أحبّ نجاته .

و القول الصحيح أنّه كان ابن امرأته[2] ، و يروى أنّ عليّاً عليه السلام قرأ : ونادى نوح ابنها . قال الباقر عليه السلام : إنّه كان ابن امرأته . قال قتادة : سألت الحسن البصريّ عنه فقال : والله ماكان ابنه ، فقلت إنّ الله حكى عنه قال : إنّ ابني من أهلي وأنت تقول : ما كان ابناً له ؟ فقال الحسن : لم يقل : إنّه منّي ولكنّه قال : من أهلي وهذا يدلّ على قولي و ابن المرأة يدعى بالابن .

و بالجملة فأجابه ابنه فقال : سأرجع وأستقرّ إلى جبل يمنعني من الماء . قال نوح : [لاعاصم] ولا مانع ولا دافع اليوم من عذاب الله إلّا من رحمه الله بإيمانه فآمن بالله يرحمك ، فما قبل قول نوح [وحال بينهما الموج] فصار كنعان و قيل : اسمه يام [من المغرقين] .

قوله تعالى : و قيل يا ارض ابلعي ماءك و يا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر و استوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين (٤٤) .

قال الله للأرض : انشفي ماءك الّذي نبعت به العيون ، واشربي ماءك حتّى لا يبقى على وجهك شيء منه . وهذا إخبار عن ذهاب الماء عن وجه الأرض بأوجز مدّة فجرى مجرى

---

(١) نوح : ٢٧ .

(٢) رواه القمي في تفسيره عن العلاء عن الصادق عليه السلام .

أن قيل لها : ابلعي فبعلت و قال الله للسماء : أمسكي عن المطر و هذا إخبار عن إقشاع السحاب في أسرع زمان فكأنّه قال : له أقلعي فأقلعت .

و المقصود من هذا الكلام وصف آخر لمّا انتهى الطوفان ، بلع الماء إذا شربه دفعة من غير تروّ ، و بلع الطعام إذا لم يمضغه ، وأقلع الرجل عن عمله إذا كفّ و أمسك عن شغله ، وغاض الماء إذا نقص ، لازم متعدّ . و«الغيض» النقص الّذي مابقي منه شيء .

وهذه الآية مشتملة على عظمة الله و كبريائه غاية فقوله : «قيل» يدلّ على أنّه سبحانه في القدرة بحيث إنّه متى قيل : «قيل» لم ينصرف العقل إلّا إليه ولم يتوجّه الفكر إلّا إلى أنّ ذلك القائل هو هو . وهذا البيان تقرير في العقول أنّه لا حاكم في العوالم العلويّ و السفلي إلّا هو و قوله : [يا أرض] فإنّ الحسّ يدلّ على عظمة هذه الأجسام وشدّتها و قوّتها فإذا شعر العقل بوجود قاهر لهذه الأجسام يتصرّف فيها فصار ذلك البيان لوقوف القوّة العقليّة على كمال قوّة الجلال و علوّ قهره و مشيئته سبحانه .

ثمّ إنّ السماء والأرض من الجمادات فقوله : «يا أرض» و «يا سماء» مشعر بحسب الظاهر على أنّ أمره نافذ في الجمادات . فلأن يكون أمره نافذاً على العقلاء كان أولى .

فإن قيل : كيف يليق بحكمة الله أن يغرق الأطفال بسبب جرم الكفّار ؟

فالجواب أنّ كثيراً من المفسّرين يقولون : إنّ الله أعقم أرحام النساء أربعين سنة ، فلم يغرق إلّا من بلغ أربعين سنة فما فوق .

فلو قيل : فما قولكم في إهلاك الطير والوحش مع أنّه لا تكليف عليها ؟ فالجواب على مذهب الأشاعرة : لا اعتراض على فعله ، لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون . وعلى مذهب المعتزلة والعدليّة . ذلك يجري مجرى ذبح البهائم وإعمالها في الأعمال الشاقّة ؛ والله يعوّضهن عوض ألم الذبح والغير بأنواع اللذّة على حسب مراتبها بنوع يتداركه ، و كذلك القول في الأطفال .

قوله : [وقضي الأمر] أي وقع الهلاك على القوم و استقرّت السفينة على الجبل المعروف بالجوديّ . و قيل : الجوديّ اسم لكلّ جبل . قال الزجّاج : هو لناحية أسل . و

قيل : بقرب الموصل . وفي كتاب النبوّة مسنداً إلى أبي بصير عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال :كان نوح لبث في السفينة ماشاء الله وكانت مأمورة فخلّى سبيلها ؛ فأوحى الله إلى الجبال أنّي واضع سفينة نوح على جبل منكن ّ ، فتطاولت الجبال و شمخت وتواضع الجوديّ وهو جبل بأرض الموصل فضرب جؤ جؤ السفينة الجبل فقال نوح عند ذلك : يا ماريا أتقن و هو بالعربيّة يارب ّ أصلح . وفي رواية اُخرى يارهمان اتقن وتأويله : يا ربّ أحسن . قيل : و أرسلت السفينة على الجوديّ شهراً وكان ذلك اليوم عاشوراء .

[و قيل بعداً للقوم الظالمين] أي قال الله : و أبعدالله الظالمين من رحمته . أوقال نوح أبعدالله الظالمين من رحمته ، أوقالت الملائكة هذا الكلام .

ولايخفى على ماقال أهل الفصاحة من الفصاحة في هذه الآية من حسن تقابل المعنى وائتلاف الألفاظ ولطف البيان و الإيجاز من غير إخلال وغير ذلك ممّا يعرفه أهل الأدب و من له معرفة بكلام العرب ومحاوراتهم في الدواوين .

ويروى أنّ كفّار قريش أرادوا في وقت أن يتعاطوا معارضة القرآن ؛ فعكفوا على لباب البرّ و لحوم الضأن و سلاف الخمر[1] أربعين صباحاً لتصفو أذهانهم ؛ فلمّا أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية . فقال بعضهم لبعض : هذا كلام لايشبهه شيء من الكلام وليس كلام المخلوق وتركوا ما أخذوا فيه فافترقوا .

قوله تعالى : و نادى نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق و انت احكم الحاكمين(٤٥) قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلاتسئلن ماليس لك به علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين(٤٦) قال رب اني اعوذ بك ان اسألك ماليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين (٤٧) .

المعنى: [نادى نوح ربّه] إنّك وعدتني وأهلي بالنجاة فقال سبحانه : [إنّه ليس من أهلك] الّذين وعدتك أن اُنجيهم معك ؛ لأنّه ليس من أهل دينك ؛ فالآية تدلّ على أنّ العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ؛ لأنّه نفاه الله بأبلغ الألفاظ بقوله : « إنّه ليس من

---

(١) بالضم ماسال قبل عصر العنب و هو افضل الخمر .

أهلك إنّه عملٌ غير صالح » و قرىء « إنّه عمل َغير صالح » على صيغة فعل الماضي. و«غير» منصوب ونعت لمصدر محذوف أي إنّ ابنك عمل عملاً غير صالح ، وهذا غلط ؛ لأنّه يمتنع أن يقع على الأنبياء شيء من القبائح و هذا السؤال قبيح . و اختار المرتضى رحمه الله أنّه ذو عمل غير صالح كقول الخنساء : «فإنّما هي إقبال و إدبار » أي هي ذات إقبال و ذات إدبار .

فإن قيل : فلمَ قال سبحانه : [فلا تسألن ما ليس لك به علم] و كيف قال نوح [ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم] ؟

قال : لايمتنع أن يكون نهى عن سؤال ماليس لك به علم و إن لم يقع ذلك منه وأن يكون تعوّذ من ذلك وإن لم يوقعه كما نهى الله عن الشرك في قوله : «لئن أشركت ليحبطنّ عملك» (١) وإن لم يجز وقوع ذلك منه وإنّما سأل نوح نجاة ابنه بشرط المصلحة لا على سبيل القطع . وقوله : [إنّي أعظك] واُحذّرك [أن تكون من الجاهلين] أي إنّي أعظك لئلاّ تكون من الجاهلين .

وقيل في معنى « إنّه عمل غير صالح » : الضمير يرجع إلى ابن نوح كأنّه جعل عمل غير صالح للمبالغة كما يجعل الشيء الشخص لكثرة ذلك منه كقولهم : الشعر زهير ، من كثرة حذقه بالشعر .

وقوله : [وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين] وإنّما قال ذلك على سبيل التخشّع و الاستكانة لله وإن لم يسبق منه ذنب ؛ لأنّه دلّت الدلائل الكثيرة بل ضرورة الإسلام عندنا أن تنزّه الأنبياء عن المعصية صغيرة كانت أم كبيرة ، وحصول العقاب و الأمر بالإستغفار لا يدلّ على سابقة الذنب كما قال تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبّح بحمد ربّك واستغفره (٢) » ومعلوم أنّ مجيء نصرة الله والفتح و دخول الناس في دين الله أفواجاً ليست بذنب يوجب الاستغفار ؛ وقال : في موضع آخر : «واستغفر لذنبك وللمؤمنين و المؤمنات (٣)» وليس جميعهم مذنبين .

---

(١) الزمر : ٦٥ .　(٢) الفتح : ١ - ٣ .

(٣) محمد : ١٩ .

والحاصل أنّه تعالى لمّا نهاه عن ذلك السؤال بقوله : « فلا تسألن ما ليس لك به علم» قال نوح : «ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ماليس لي به و إلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » فقال نوح : عند ذلك قبلت يارب هذا التكليف ولا أعود إليه إلا أنّي لا أقدر على الاحترازمنه إلّا بإعانتك وهدايتك ؛ فقال : في الابتداء : إنّي أعوذ بك أن أسألك في المستقبل ما ليس لي به علم أي لا أعود لمثل هذا ، ثمّ اشتغل بالاعتذار عمّا مضى فقال: «وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » وقد حصلت حقيقة التوبة من غير ذنب ، وهذا معنى : حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين .

ومن غيرنا من نسب هذه الزلّة إلى نوح وحاشا منه لم ينصبه إلى معصية بل قال : إنّه أخطأ في اجتهاده حيث ظنّ أنّ ابنه مؤمن كما أنّهم قالوا : إنّ آدم أخطأ في ظنّه بإبليس أنّه لم يقسم على الله كذباً .

قوله : قيل يانوح اهبط بسلام منا و بركات عليك وعلى امم ممن معك وامم سنمتعهم ثم يمسهم مناعذاب اليم (٤٨) .

ثمّ بعد ما استقرّت السفينة على الجبل بعد خراب الدنيا بالطوفان اُمر نوح و قومه بالخروج من السفينة والهبوط من الجبل إلى الأرض المستوية ووعده الله بالسلامة و البركة ؛ لانّ ذلك الغرق لمّا كان عاماً في جميع الأرض وأنّه ما كان في الدنيا شيء ينتفع به نوح بشرّه الله بالبركة والسلامة حتّى يستقرّ قلبه ، ويعلم حصول السلامة من الآفات .

و«البركة» هي الثبات والدوام مأخوذ من بروك الإبل ومنه البركة لثبوت الماء فيها . ومن البركة الحاصلة لنوح أنّ الله جعله آدم الأصغر وأبا البشر ؛ لأنّ الخلق كلّهم من نسله ذرّيّة على قول من قال : إنّه ماكان في السفينة من البشر غير أولاده قالوا : لم يبق منهم ذرّيّة وأنّ من بقي من أولاد نوح و الدليل عليه قوله : «وجعلنا ذرّيّته هم الباقين »(١) فهذا هو المراد من البركات .

قوله : [و على اُمم ممّن معك] أي الأمم الّذين كانوا معه في السفينة . و«الاُمّة» الجماعة المتّفقة على ملّة واحدة . وقيل : معناه: يعني بالاُمم الّذين معه سائر الحيوان الّذين

---

(١) الصافات : ٧٧ .

معه في السفينة بأن يزودون في الدنيا ويكثرون كالأوّل .

قوله : [و أمم سنمتّعهم] أي من نسلهم سنمتّعهم في الدنيا بضروب النعم فيكفرون و نهلكهم [ثمّ يمسّهم] بعد الهلاك بسبب كفرهم [عذاب] مولم . و إنّما ارتفع في قوله « و أمم » لأنّه استأنف الإخبار عنهم .

ثمّ أشار سبحانه بقوله :

تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولاقومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين (٤٩) .

فأشار و قال : تلك الأنباء من أخبار ماغاب عنك معرفتها . ولو قال ذلك بالتذكير جاز لأنّ المصادر يكنّى عنها بالتذكير و التأنيث يقال : قدوم فلان فرحت بها و فرحت به أي بقدمته و بقدومه و هذه الأخبار الّتي أخبرنا كها لم تكن تعلم و كذلك قومك لم يكونوا يعلمون من قبل إيحائنا ؛ لأنّهم لم يكونوا أهل كتاب و سرّ من قبل هذا القرآن .

[فاصبر] على القيام بأمر الله وعلى أذى قومك يا محمّد صلّى الله عليه وآله كما صبر نوح على أذى قومه . و هذا أحد الوجوه الّتي لأجلها كرّر الله قصص الأنبياء ليصبر النبيّ صلّى الله عليه وآله على ما يقاسي من الكفّار والجهلة [إنّ العاقبة] المحمودة والنصرة [للمتّقين] كما كانت لنوح .

قوله تعالى : و الى عاد اخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان انتم الا مفترون(٥٠) ياقوم لااسألكم عليه اجرا ان اجرى الا على الذى فطرنى افلا تعقلون(٥١) و يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولاتتولوا مجرمين(٥٢) قالوا ياهود ما جئتنا ببينه و ما نحن بتاركى الهتنا عن قولك و ما نحن لك بمؤمنين(٥٣) ان نقول الااعتريك بعض الهتنا بسوء قال انى اشهد الله و اشهدوا انى برىء مما تشركون(٥٤) من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون(٥٥) .

هذا هو القصّة الثانية في هذه السورة عطف إلى قوله : «ولقد أرسلنا نوحاً» أي ولقد أرسلنا [إلى] قوم عاد أخاهم في النسب لا في الدين [هوداً] لأنّ هود كان رجلاً من قبيلة عاد وهي قبيلة من العرب وكانو ا بناحية اليمن ، وهذه العبارة مصطلحة يقال : يا أخا تميم ، ويا أخا سليم .

ثمّ حكى سبحانه عن هود ماقال لهم و أمرهم :

الأوّل أنّه أمرهم بالتوحيد و نهاهم عن عبادة غيره [إن أنتم] أي ما أنتم إلّا كاذبون في قولكم : إنّ الأصنام آلهة [ياقوم] لست أطلب منكم على دعوتي لكم بعبادة الله جزاء، ليس جزائي إلّا على الّذي خلقني [أفلاتعقلون] وتتعقّلون أنّ الأمر ما أقوله .

والأمر الثاني الّذي أمرهم هود : دعاهم إلى الاستغفار ثمّ إلى التوبة أي سلوه سبحانه أن يغفر لكم ما قدّمتم من شرككم ، ثمّ ارجعوا إليه بعد الندم ؛ إنّكم متى مافعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم . و إنّما يحصل تكثير النعم في الدنيا بالأمطار ؛ لأنّ الأمطار الموافقة مادّة النعم [ويزدكم قوّةً إلى قوّتكم] أي مع أنّكم متبرّزون و معروفون بالقوّة تزداد قوّتكم . و كانوا صاحب بساتين خصبة مونقة طيّبة لأنّ هذين الحالين كانوا طالبين لأنّ الله لمّا بعث هوداً عليه السلام إليهم و كذّبوه حبس الله عنهم المطر سنين ، و أعقم أرحام نسائهم ، فوعدهم هود بأن إذا آمنوا تنعكس القضيّة فقالوا :

[ياهود ماجئتنا] بحجّة واضحة ـ وقد أظهر المعجزات إلّا أنّ القوم بجهلهم أنكروها ـ ولسنا بتاركين عبادة أصنامنا لأجل قولك . ومعنى «عن» ههنا معنى الباء [وما نحن لك بمصدّقين في شيء ممّا تأتي به من التوحيد وترك عبادة الأصنام ـ وفي هذه العبارة دلالة على شدّة الشكيمة والعتوّ ـ ولولاتقول إلّا قولنا أصابك بعض آلهتنا بجنون وتغيّر مزاج بسبّك إيّاها وصدّك عن عبادتها و حطّك لها عن رتبة الاُلوهيّة .

و بالجملة زعموا بيانات هود من جملة الخرافات فضلاً عن أن يصدّقوا بقوله . أي لانعدّ كلامك إلّا من الهذيانات الصادرة من المجانين .

وقد سلكوا في طريق المخالفة والعناد إلى سبيل الترقّي من الأدنى إلى الأعلى حيث أخبروا بالأوّل أنّ ماجئتنا ليست بحجّة واضحة ثمّ بعد هذا البيان تركوا الامتثال بقولهم : [مانحن بتاركي آلهتنا عن قولك] ونفوا تصديق قوله ، ثمّ نسبوه إلى الجنون .

قال هود لقومه : [إنّي اُشهد الله واشهدوا] أي اُشهدكم بعد إشهاد الله [أنّي بريء ممّا تشركون * من دون الله] أي أنا بريء من أصنامكم الّذي تعبدونها وتزعمون أنّها عاقبتني لطعني عليها . و إنّما أشهدهم على ذلك وإن لم يكونوا من أهل الشهادة من حيث

إنّهم كانوا كفّاراً فسّاقاً إقامة للحجّة عليهم لا لتقوم الحجّة بهم .

[فكيدوني جميعاً] و احتالوا و اجتهدوا أنتم و آلهتكم في إنزال مكروه بي ثمّ لا تمهلوني . قال الزجّاج : وهذا من عظيم الآيات أن يكون الرسول وحده و أُمّته متهاونة عليه فيقول لهم : «فكيدوني» ولا يستطيع واحد منهم ضرّه ، و كذلك نوح عليه السلام قال مثل هذه الكلمة لقومه حيث قال : « فأجمعوا أمر كم و شركاء كم[1]» وقال نبيّنا صلى الله عليه وآله : «فإن كان لكم كيد فكيدون[2]» ولا يصدر هذا الكلام إلّا ممّن يكون واثقاً بنصر الله .

ثمّ قال هود :

انى توكلت على الله ربى و ربكم مامن دابة الاهو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم(٥٦) فان تولوا فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم و يستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ان ربى على كل شيء حفيظ (٥٧) ولماجاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا و نجيناهم من عذاب غليظ (٥٨) و تلك عاد جحدوا بآيات ربهم و عصوا رسله و اتبعوا امر كل جبار عنيد (٥٩) واتبعوا في هذه الدنيا لعنة و يوم القيمة الا ان عادا كفروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود (٦٠) .

قوله تعالى : [مامن دابّة] و ذي حياة يدبّ على وجه الأرض إلّا والله مالكها . وجعل الأخذ بالناصية كناية عن القهر والقدرة لأنّ من أخذ بناصية غيره فقد قهره و أذلّه و مع كونه تعالى قاهراً يعدل ولا يجور و صراطه عدل مستقيم لا عوج فيه .

قوله : [فإن تولّوا] يمكن أن يكون حكاية عن قول هود فالمعنى : فإن تتولّوا أنتم . و يجوز أن يكون قول الله أي فإن تولّوا هم فقل لهم : [قد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم] و ليس لتقصير منّي في إبلاغكم و إنّما هو لسوء اختيار كم في إعراضكم عن نصحي [و يستخلف ربّي قوماً غير كم] و يهلككم ربّي بكفر كم و يستبدل قوماً غير كم يوحّدونه ولا ضرر يترتّب عليه في إهلا ككم [إنّ ربّي على كلّ شيء حفيظ] يحفظه من الهلاك

---

(١) يونس : ٧١ .
(٢) المرسلات : ٣٩ .

إن شاء ويهلكه إذاشاء . وقيل : معناه : إنّ ربّي يحفظني عنكم و عن أذاكم وحفيظ من أعمال عباده يجازيهم عليها .

[ولمّا جاء أمرنا] بهلاك عاد [نجّيناهوداً والّذين آمنوا معه] من الهلاك قيل : إنّهم كانوا أربعة آلاف [برحمة منّا] بما أريناهم من الهداية [ونجّيناهم من عذاب غليظ] أي من عذاب الثقيل العظيم في الآخرة . ويحتمل أن يكون المراد من عذاب الدنيا الّذي عذّب به قوم هود .

ثمّ ذكر سبحانه كفر قوم عاد فقال : [وتلك] أي تلك القبيلة [جحدوا] معجزات الدالّة على صحّة نبوّة هود وعصوا رسله . و إنّما جمع الرسل مع أنّه بعث إليهم هوداً ؛ لأنّ من كذّب رسولاً واحداً فقد كذّب جميع الرسل ؛ لأنّ جميع الرسل يدعون الناس إلى الإيمان بالله وبما اُنزل إليهم من الكتب فلذلك فقد عصوهم واتّبع السفلة و السقاط الرؤساء الّذين يقتلون ويضربون على غضبهم والمعاندين في الدين .

قوله : [واُتبعوا في هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة] رديفاً لهم و متابعاً في الدنيا و الآخرة أي الأبعاد من الرحمة ومن كلّ خير [ألا إنّ عاداً كفروا] بنعمة [ربّهم] فحذف الباء كما في قوله : « أمرتك الخير » أي بالخير [ألا بعداً لعاد قوم هود] من الرحمة . و إنّما فسّر بآخر الآية بكلمة «قوم هود» لأنّ عاداً عادان : القديمة وهو قوم هود ، والثانية عاد إرم ذات العماد ؛ فذكر ذلك لإزالة الاشتباه .

قوله تعالى : والى ثمود اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو انشاكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب (٦١) قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا اتنهنا ان نعبد مايعبد آباؤنا وانّنا لفى شك مما تدعونا اليه مريب (٦٢) قال ياقوم ارايتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فما تريدوننى غير تخسير (٦٣) .

عطف على قوله تعالى : «وإلى عاد أخاهم» وأرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم صالحاً . سمّوا باسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن غابر بن إرم بن سام بن نوح ، أو أنّهم سمّوا بذلك

لقلّة مائهم من «الثمد» وهو الماء القليل من نزّ الأرض .

وهذا هو القصّة الثالثة في هذه السورة ، فأمرهم بالتوحيد ، ومنعهم عن عبادة الأصنام وذكر عليه السلام في تقريره دليلين :

الأوّل : [هو أنشأكم من الأرض] لأنّكم من صلب آدم وهو مخلوق من الأرض ، أو الإنسان مخلوق من النطفة وهي تتولّد من الأغذية ، ومادّتها من الأرض . وقيل : «من» ههنا بمعنى في الأرض وهذا بعيد .

الدليل الثاني قوله : [واستعمر كم فيها] أي جعلكم عمّار الأرض ومكّنكم من عمارتها ، أو المعنى أطال أعمار كم وكانت أعمارهم من الألف إلى ثلاثمائة سنة .

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ❊ و لا يكون له في الأرض آثار

[فاستغفروه] من الشرك و الذنوب . ثمّ دوموا على التوبة [إنّ ربّي قريب] برحمته [مجيب] لمن دعاه . [قالوا يا صالح] قبل ذلك كنّا نرجو منك الخير ، فالآن قد يئسنا منك ومن خيرك بهذا القول ، و كنّا نظنّ بك عوناً لنا في ديننا . و قالوا على سبيل الإنكار : [أتنهانا] ؟ كأنّهم أنكروا أن ينهى الإنسان عن عبادة ما عبده آباؤه .

[وإنّنا لفي شكّ ممّا تدعونا إليه] من الدين شكّ موجب للتهمة والريب ؛ لأنّ آباءنا لم يكونوا في جهالة وضلالة . والفرق بين الشكّ والريب أنّ الشاكّ متوقّف بين النفي والإثبات والمريب هو الّذي يظنّ به السوء أي نرجّح في اعتقادنا فساد قولك .

قال صالح : [يا قوم أرأيتم] أي أخبروني [إن كنت] يعني قدّروا و افرضوا إن كنت في الحقيقة على حجّة ظاهرة ونصرة من ربّي [وآتاني] من قبله سبحانه نبوّة فخالفت نبوّته وعصيته فعذّبني من ينصرني منه ؟ وإنّما أورد كلامه بحرف الشكّ و هو قوله : «إن كنت» مع أنّه عليه السلام كان على يقين من أمره ؛ لأنّ خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب للقبول والإلزام .

ثمّ قال في هذه الصورة : [فما تزيدونني غير تخسير] يعني تخسرون أعمالي و تبطلونها .

قوله تعالى : ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في الارض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (٦٤) فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥) .

قد جرت العادة لمن يدّعي النبوّة بأن يأمرهم بعبادة الله ، ولا بدّ أنّ قومه يطلبون منه المعجزة . يروى أنّ قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معيّنة أشاروا إليها ناقة ؛ فدعا صالح ربّه فخرجت الناقة كما سألوه . وهي كانت معجزة من وجوه : كونها من صخرة ، وخلقها من جوف الجبل ، ثمّ شقّ عنها الجبل ، وحامل من غير ذكر ، وخلقها بتلك الصورة من غير ولادة ولها شرب يوم وللقوم كلّهم شرب يوم ، ويحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم وكلّ واحد من هذه الوجوه معجزة قويّ .

ثمّ قال عليه السلام : [فذروها تأكل في أرض الله] ورفع عن القوم مؤونتها فصارت تنفع ولا تضرّهم ، وكان عليه السلام يخاف من إقدامهم على قتلها بسبب إخفاء هذه المعجزة فلهذا احتاط وقال لهم : [ولا تمسّوها بسوء] وتوعّدهم في وقوع مسّ السوء بعذاب قريب ومع ذلك عقروها لإبطال الحجّة ولأنّها ضيّقت الشرب على القوم ورغبوا في شحمها ولحمها .

فلمّا عقروها قال : تلذّذوا بالمنافع في دنياكم ثلاثة أيّام من غير كذب واقع بكم العذاب بعد المدّة لا محالة ـ والمصدر يقع بلفظ المفعول كالمجلود والمفتون ـ فلمّا كان اليوم الرابع أتتهم الصيحة والصاعقة .

قوله : فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ان ربك هو القوى العزيز (٦٦) و اخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين (٦٧) كان لم يغنوا فيها الاان ثمود كفروا ربهم الا بعداً لثمود (٦٨) .

[فلمّا جاء] أمر العذاب [نجّينا صالحاً] و المؤمنين معه بسبب [رحمتنا] للمؤمنين ونجّيناهم من الخزي والعار الّذي لزمهم ذلك اليوم وظهر فضيحته [إنّ ربّك هو القويّ] الغالب على ما يشاء [العزيز] الّذي لا يمتنع عليه شيء [وأخذ الّذين ظلموا الصيحة] قيل : إنّ الله أمر جبرئيل فصاح بهم صيحة فماتوا عندها . ويجوز أنّ الله خلق تلك الصيحه فماتوا عند

الصياح فأصبحوا في منازلهم ميّتين واقعين على وجوههم أو قاعدين على ركبهم .

و إنّما قال : [فأصبحوا] لأنّ العذاب أخذهم عند الصباح [كأن لم يغنوا فيها] أي كأن لم يكونوا في تلك المنازل قطّ لانقطاع آثارهم بالهلاك إلّا مابقي من أجسادهم الدالّة على الخزي . [ألا إنّ ثمود] بكفرهم نالوا هذا العذاب ، وبعداً لهم .

قوله : ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث ان جاء بعجل حنيذ (٦٩) فلما رءا ايديهم لا تصل اليه نكرهم و اوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط (٧٠) و امرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق و من وراء اسحق يعقوب (٧١) قالت ياويلتى ءألد وانا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشىء عجيب (٧٢) قالوا اتعجبين من امر الله رحمة الله و بركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد (٧٣) .

هذا هو القصّة الرابعة في هذه السورة .

قال النحويّون : دخلت «قد» ههنا لأنّ السامع للقصّة يتوقّع قصّة بعد قصّة و «قد» للتوقّع ، ودخلت اللام للتأكيد في الخبر و«رسلنا» جمع و أقلّه ثلاثة ، و كانوا جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و قيل : أربعة والرابع كرّوبيل . و قيل : اثنا عشر بصورة الغلمان الحسنة .

[بالبشرى] والبشارة فأبشره الله بعد ذلك بقوله : « فبشّرناها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب» وقيل : المراد بالبشارة سلامة لوط وبإهلاك قومه .

وأمّا قوله : [قالوا سلاماً قال سلام] وقرىء «سلم» بكسر السين وبكون اللام بغير ألف ؛ قال الفرّاء : لافرق بين القراءتين كما قالوا : حلّ وحلال لأنّ في التفسير : أنّهم لمّا جاؤوا سلّموا عليه . وقيل : المراد بالسلم خلاف العدوّ والحرب ، وعلى قراءة المشهور «قالوا سلاماً» أي سلّمنا عليك سلاماً قال إبراهيم : سلام ، تقديره : أمري سلام ولست مريداً غير السلامة . أو المراد : سلام عليكم ، وحذف الخبر كما حذف من قوله : «فصبر جميل[1]» أجمل و يحسن هذا الحذف إذا كان المقصود معلوماً بعد الحذف ونظيره قوله تعالى : «فاصفح عنهم وقل سلام[2]» على حذف الخبر . واعلم أنّه إنّما سلّم بعضهم على بعض لقوله تعالى : «لاتدخلوا بيوتاً

(١) يوسف : ١٨ . (٢) الزخرف : ٨٩ .

غير بيوتكم حتّى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها »[١] وأكثر ما يستعمل سلام عليكم بغير الألف واللاّم .

فإن قيل : كيف جاز جعل المبتدأ نكرة . فالنكرة إذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدءاً فالتنكير في هذا الموضع أتمّ وأكمل فكأنّه قيل : سلام كامل شامل تامّ عامّ عليكم نظيره «سلام قولاً من ربّ رحيم»[٢] وأمّا مع الألف واللاّم فصحيح كقوله : «والسلام على من اتّبع الهدى»[٣] والمراد مع الألف واللاّم الماهيّة والحقيقة ؛ فحينئذ بدون الألف واللام يفيد الكمال والمبالغة ، ومع الألف واللام لا يفيد إلاّ الماهيّة .

قوله : [فما لبث أن جاء بعجل حنيذ] قالوا : مكث إبراهيم خمس عشرة ليلة لا يأتيه ضيف فاغتمّ لذلك ، ثمّ جاءه ملائكة فرأى أضيافاً لم ير مثلهم فعجل فما لبث في المجيء به . و«الحنيذ» هو الّذي يشوى في حفرة من الأرض بالحجارة المحماة ، وهو من فعل أهل البادية وأصله محنوذ مثل طبخ ومطبوخ : وقيل : «الحنيذ» الّذي يقطر دسمه عرقاً ومرقاً .

[فلمّا رأى] إبراهيم [أيديهم لا تصل] إلى العجل استنكرهم [فأوجس منهم خيفة] أي أضمر منهم خوفاً . واختلف في سبب الخوف فقيل : إنّه لمّا رآهم شبّاناً أقوياء وكانوا نازلين بطرف من المكان ، وامتنعوا من تناول الطعام لم يأمن أن يكون ذلك لبلاء ؛ وذلك لأنّ أهل ذلك الزمان إذا أكل بعضهم طعام بعض أمنه صاحب الطعام على نفسه وماله ، و كذلك كان يقال : تحرّم فلان بطعامنا أي أثبت الحرمة بأكله الطعام .

وقيل : إنّ سبب خوف إبراهيم أنّه ظنّ أنّهم ليسوا من البشر وأنّهم جاؤوا لأمر عظيم فخاف أن يكون قومه المقصودين بالعذاب حتّى [قالوا] له [لا تخف] يا إبراهيم [إنّا أرسلنا إلى قوم لوط] بالإهلاك قيل : إنّ إبراهيم ما عرفهم أنّهم الملائكة . و قيل : عرفهم لكن ما عرف أنّهم لأيّ أمر أتوا فكان خوفه من هذه الجهة . والصحيح أنّه ما عرفهم أنّهم من الملائكة .

---

(١) النور : ٢٧ .
(٢) يس : ٥٨ .
(٣) طه : ٤٩ .

[و امرأته قائمة فضحكت] هي سارة بنت آزربن باحورا بنت عمّ إبراهيم عليه السلام .

وقوله : « قائمة » من وراء الستر تستمع إلى الرسل . واختلفوا في الضحك : منهم من حمله على نفس الضحك ومنهم من حمل على الطمث أي حاضت لشدّة سرورها . و قيل : ضحكت سروراً من البشارة بإسحاق لأنّها قد هرمت وهي ابنة ثمان وتسعين سنة ، وكان قد شاخ زوجها وكان ابن تسع وتسعين أومائة سنة أومائة وعشرين سنة ولم يرزق لهما ولد في حال شبابهما . فعلى هذا المعنى يكون في الكلام تقديم وتأخير .

وتقديره [فبشّرناها بإسحاق] بابن يسمّى إسحاق ومن بعد [إسحاق يعقوب] ـ قيل : معنى «ومن وراء إسحاق يعقوب» الوراء ولد الولد ـ فضحكت بعد البشارة [قالت] سارة [ياويلتى ءألد] ولم ترد بهذه الكلمة الدعاء على نفسها بالويل ولكنّها كلمة تجري على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ماينعجّبن [و هذا] الّذي تعرفونه [بعلي شيخاً إنّ] هذه البشارة لأمر [عجيب] .

قالت الملائكة لها حين تعجّبت من أن تلد بعد الكبر : [أتعجبين من أمر الله] من أن يفعل بك و بزوجك كذلك و ليس هذا موضع تعجّب لأنّ التعجّب إنّما يكون من الأمر الّذي لايعرف سببه ، و نعمة الله و كثرة خيراته النامية الباقية عليكم . و يحتمل أن يكون دعاء لهم بالرحمة والبركة من الله .

فقالوا : [رحمة الله و بركاته عليكم] يا [أهل البيت] كما يقال : أتتعجّب من هذا بارك الله لك أو يرحمك الله . روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بقوم فسلّم عليهم فقالوا : وعليك السلام و رحمة الله و بركاته و مغفرته و رضوانه . فقال عليه السلام : لاتجاوزوا بنا ماقالت الملائكة لأبينا إبراهيم : «رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت» .

[إنّه حميد] أي محمود في أفعاله [مجيد] أي مبتدىء بالعطيّة قبل الاستحقاق أو المعنى واسع القدرة والنعمة . روي أنّ سارة قالت لجبرئيل : ما آية ذلك فأخذ بيده عوداً يابساً فلوّاه بين أصابعه فاخضرّ .

قوله : فلما ذهب عن ابراهيم الروع و جاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط (٧٤) ان ابراهيم لحليم اواه منيب (٧٥) يا ابراهيم اعرض عن هذا انه

قدجاء امر ربك وانهم آتيهم عذاب غيرمردود (٧٦).

قوله : [فلمّا ذهب عن إبراهيم الروع] والخوف و الفزع الّذي دخله من الرسل [وجاءته البشرى] بالولد [يجادلنا] أي يجادل رسلنا ويسألهم عن قوم لوط ، وتلك المجادلة أنّه قال لهم : إن كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا قال : فأربعون ؟ قالوا : لا . فمازال ينقص و يقولون : «لا» حتّى قال : فواحد ؟ قالوا : «لا» فاحتجّ عليهم بلوط .

و أعلم أنّ هذه المجادلة من إبراهيم ـ ومقصوده منها التخفيف لهم في حكم العذاب ـ لاحتمال أن يتوبوا لا لكونه ما كان راضياً بقضاء الله و يطلب من الرسل مخالفة أمرالله ، و الدليل عليه أنّه سبحانه مدحه عليه السلام بقوله : [إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب] ولو كان هذا الجدل غير هذا لما ذكر عقيبه مايدلّ على المدح العظيم ؛ أوكانت المجادلة بسبب مقام لوط فيهم .

و بالجملة لمّا رأى و علم أنّ مجيء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك و أخذ يتأوّه عليه فلذلك وصفه الله بهذه الصفة و وصفه بأنّه منيب و راجع إلى الله . فقالت الملائكة له : [يا إبراهيم أعرض عن] هذه المجادلة لأنّه [قدجاء أمر ربّك] بإيصال العذاب بهم ، ولاسبيل إلى دفعه عنهم وآتيهم العذاب لامحالة .

قوله تعالى : و لما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا و قال هذا يوم عصيب (٧٧).

فانطلقوا الرسل من عند إبراهيم إلى لوط ـ و بين القريتين أربع فراسخ ـ و دخلوا عليه على صورة شبّاب مرد من بني آدم ، وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط أنّهم من الملائكة و ظنّ أنّهم من الإنس فخاف عليهم خبث قومه و أيضاً ساءه مجيئهم لأنّه ما كان يجد ماينفقه عليهم وأيضاً ساءه لأنّ قومه منعوه من إدخال الضيف داره .

[و ضاق بهم ذرعاً] الذراع يوضع موضع الطاقة والأصل في معناه أنّ البعير يذرع بيديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوته فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف و مدّ عنقه ؛ فيقال : مالي به ذرع أي مالي به طاقة . وقال : إنّ هذا اليوم عصيب عليّ

أي شديد و « العصيب » الشديد في الشرّ خاصّة وأصله من الشدّ قال الراجز :

يوم عصيب يعصب الأبطالا ❊ عصب القويّ سلّم الطوالا .

و حاصل المعنى : أي يوم شديد التفّ الشرّ فيه بالشرّ . و إنّما قال ذلك لأنّه لم يعلم أنّهم رسل الله وخاف من قومه أن يفضحوهم .

قوله تعالى : وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن اطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي اليس منكم رجل رشيد (٧٨) قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد (٧٩) قال لو ان لي بكم قوة او آوى الى ركن شديد (٨٠) قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فاسر باهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه مصيبها ما اصابهم ان موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب (٨١) فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليها حجارة من سجيل منضود (٨٢) مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد (٨٣) .

المعنى : لمّا دخلت الملائكة دار لوط قال الصادق عليه السلام : جاءت الملائكة لوطاً وهو في ذرعه قرب القرية فسلّموا عليه ، ورأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض ، فقال لهم : المنزل ؛ فتقدّمهم ومشوا خلفه . فقال لوط في نفسه : أيّ شيء صنعت إذا آتي بهم قومي وأنا أعرفهم فالتفت وقال : إنّكم لتأتون شراراً من خلق الله فقال جبرئيل : هذه واحدة ـ و كان قد قال الله لجبرئيل : لا تهلكهم حتّى يشهد عليهم ثلاث مرّات ـ ثمّ مشى لوط والتفت إليهم فقال : إنّكم لتأتون شراراً من خلق الله . فقال جبرئيل هذه ثنتان . ثمّ مشى فلمّا بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال : إنّكم لتأتون شراراً من خلق الله . فقال جبرئيل : هذه الثالثة .

ثمّ دخل ودخلوا معه حتّى دخل منزله فلمّا رأتهم امرأة لوط رأت هيئة حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فدخّنت ـ وهذه كانت علامة بينهم ـ فلمّا رأوا الدخان أقبلوا يسرعون بعدوٍ وعجلة لطلب الفاحشة .

قوله : [و من قبل] قيل : معناه من قبل بعثة لوط إليهم [كانوا يعملون] الفواحش مع الذكور .

ولمّا رأى لوط أنّهم همّوا بأضيافه من قصد السوء وجاهروا بذلك عرض عليهم نكاح بناته . واختلف في ذلك فقيل : أراد نكاح بناته لصلبه . وقيل : أراد النساء من اُمّته لأنّهن كالبنات له ؛ فإنّ كلّ نبيّ أبو اُمّته وأزواجه اُمّهاتهم ، و كان يجوز في شرعه تزويج المؤمنة من الكافر و كذلك كان يجوز أيضاً في بدو الإسلام ، وقد زوّج النبيّ صلى الله عليه وآله بنته من أبي العاص بن الربيع قبل أن يسلم ثمّ نسخ ذلك . وقيل: إنّه كان لهم سيّدان مطاعان فيهم فأراد أن يزوّجهما بنتيه اسمهما زعوراء ورثاء .

وقال لهم : [فاتّقوا] من عقابه من هذا العمل الخبيث ولا تلزموني عاراً بالهجوم على أضيافي فإنّ الضيف إذا نزل به معرّة لحق عارها للمضيف [أليس منكم] و في جملتكم رجل يعرف الرشد ويعمل به ويزجر هؤلاء عن قبح فعلهم .

[قالوا لقد علمت] فجاوبوه قومه حين أمر نكاح البنات : [مالنا في بناتك] من حاجة [و إنّك لتعلم ما نريد] وتعلم ميلنا إلى الغلمان دون النساء ؛ فلمّا رأى لوط أنّ الموعظة لم يقبلوها تأسّف على عدم قدرة دفاعهم بأن قال : [لو أنّ لي بكم قوّة] ومنعة وجماعة أتقوّى بها عليكم [أو آوي] وأنضمّ إلى عشيرة منيعة تنصرني ولكن لايمكنني أن أفعل كذلك . فكابروه حتّى دخلوا البيت فصاح به جبرئيل أن يا لوط دعهم يدخلوا ، فلمّا دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قوله : [فطمسنا أعينهم] .

ولمّا رأت الملائكة مالقيه لوط من قومه [قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك] اُرسلنا لهلاكهم فلاتغتمّ به [لن يصلوا إليك] ولاينالونك بسوء أبداً [فأسر بأهلك] ليلاً [بقطع] أي بظلمة من اللّيل أو بعد طائفة من اللّيل ، أو نصفه ولا ينظر أحد منكم وراءه ، أو المعنى لايلتفت أحد منكم إلى ماله ومتاعه بالمدينة . وقيل : إنّ معناه أنّهم أمروه أن لا يلتفتوا إذا سمعوا الوجبة والهدّة [إلّا امرأتك] قيل : إنّها التفتت حين سمعت الوجبة فقالت : ياقوماه فأصابها حجر فقتلها . وقيل : «إلّا امرأتك» أي لاتسر بها [إنّه مصيبها] أي يصيبها من العذاب مايصيبهم فأمروه أن يخلفها في المدينة .

[إنّ موعدهم الصبح] لمّا أخبرت الملائكة لوطاً بأنّهم يهلكون قومه قال لهم لوط : أهلكوهم الساعة لضيق صدره عليهم فقالوا :إنّ موعد إهلاكهم الصبح [أليس الصبح بقريب]

وإنّما قالوا هذه الكلمة تسلية له .

[فلمّاجاءأمرنا] بالعذاب [جعلناعاليهاسافلها] أي قلّبنا القرية أسفلها أعلاها ؛ فإنّ الله أمر جبرئيل فأدخل جناحه تحت الأرض فرفعها حتّى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ، ثمّ قلبها ، ثمّ خسف بهم الأرض يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة .

[و أمطرنا] على القرية على الغائبين منها [حجارة] و قيل : مطرت الحجارة على تلك القرية حين رفعها جبرئيل و إنّما اُمطرت عليهم الحجارة بعد أن قلّبت قريتهم تغليظاً للعقوبة . وقيل : كانت أربع مدائن وهي المؤتفكات : سدوم ، و عامورا ، وداووما ، و صبوايم و أعظمها سدوم كان يسكنها لوط و هي الأربعة كانت من الشامات . قوله : [من سجّيل] أي «سنگ و گل» المتصلّب بمرور الزمان . وقيل : «السجّيل» موضع الحجارة وهي جبال مخصوصة ، ومنه قوله : «من جبال فيها من برد» (١) [منضود] والنضد وضع الشيء بعضه على بعض فعلى هذا يمكن أنّه سبحانه كان قد خلقها في معادنها و نضد بعضها فوق بعض وأعدّها لإهلاك الظالمين و[مسوّمة] أي معلمة بعلامة كان عليها أمثال الخواتيم قال أبوصالح : رأيت منها عند اُمّ هاني حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقيل :مكتوب على كلّ حجر اسم من رمي به .

[وما هي من الظالمين ببعيد] يعني به كفّار مكّة عن أنس أنّه قال : سأل رسول الله ﷺ جبرئيل عن هذه فقال : يعني عن ظالمي اُمّتك ما من ظالم منهم إلّا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة ، أراد بذلك إرهاب قريش . وقال قتادة : ما أجار الله منها ظالماً بعد قوم لوط فكونوا منها على حذر . وذكر أنّ حجراً بقي معلّقاً بين السماء والأرض أربعين يوماً يتوقّع به رجلاً من قوم لوط كان في الحرم حتّى خرج منها فأصابه . قال بعض المفسّرين : وكانوا أربعة آلاف ألف .

قوله تعالى : والى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان انى أرىكم بخير و انى أخاف عليكم عذاب يوم محيط (٨٤) وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولاتبخسوا الناس اشياءهم ولاتعثوا فى الارض مفسدين (٨٥) بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ (٨٦) .

(١) النور : ٤٣ .

هذا هو القصّة السادسة في هذه السورة .

«مدين» اسم لابن إبراهيم ، ثمّ صار اسماً لقبيلة ثمّ صار اسماً لمدينة بناها مدين ابن إبراهيم عليه السلام وعادة الأنبياء كلّهم أن يشرعوا في أوّل الأمر بالدعوة إلى التوحيد .

المعنى : [و]أرسلنا [إلى] أهل[مدين أخاهم] ونسيبهم ؛ لأنّ شعيباً ابن ميكيل بن يشجر بن مدين جدّهم ، وكان يقال له : خطيب الأنبياء لحسن مراجعته و خطابته قومه .

[قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره] .

ثمّ شرع في الأهمّ من الدعوة لأنّ المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان فدعاهم إلى ترك هذه العادة فقال : [ولا تنقصوا المكيال والميزان] والنقص فيه على وجهين: أحدهما الإيفاء من قبلهم فينقصون من قدره والآخر أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من المقدار ، وفي القسمين النقص في حقّ الغير . ثمّ قال لهم : [إنّي أراكم بخير] أي إذا لم تتركوا هذه العادة أراكم بزوال الخير والنعمة عنكم ، أوالمعنى أنّي أراكم بالخير الكثير والخصب فلا حاجة لكم بالتطفيف ، وأنّي أخاف عليكم عذاباً يحيط بكم بحيث لا يخرج أحد منه ، والمحيط في الظاهر صفة اليوم وفي المعنى صفة العذاب .

ثمّ قال : [ويا قوم أوفوا المكيال والميزان] وهذه الكلام الأوّل فما الفائدة في هذا التكرار ؟ لأنّ القوم كانوا مصرّين على هذا العمل فاحتيج إلى التأكيد والمبالغة في المنع ، وأمّا قوله تعالى ثالثاً : [ولا تبخسوا الناس أشياءهم] ليس بتكرير لأنّه تعالى نهى في المرّة الأُولى عن التطفيف والتنقيص ، وفي آية الثانية أمر بالإيفاء على سبيل الكمال والتمام حتّى أنّه لايحصل ذلك باليقين القطعيّ إلّا إذا أعطى قدراً زائداً على الحقّ لحصول البراءة ، وفي الآية الثالثة النهي عن التنقيص في كلّ الأشياء : لأنّ في العنوانين خصّوا بالمكيال و الميزان ، وفي الثالثة عمّ الأشياء فحينئذ لاتكرار .

قوله تعالى : [ولاتعثوا في الأرض مفسدين] فإن قيل : «العثو» الفساد التامّ فقوله : «ولا تعثوا في الأرض مفسدين» جار مجرى قوله : ولاتفسدوا في الأرض مفسدين ؟ المراد من هذا البيان أنّ في البخس و التطفيف و عبادة غير الله فساد دينكم ودنياكم .

ثمّ قال : [بقيّة الله خير لكم] وقرىء «تقيّة الله خير لكم» أي تقواه خير لكم ، المراد : ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير من البخس و التطفيف أي مال الحلال يبقى لكم من تلك الزيادة من التطفيف الحرام وحظّكم من ربّكم خير لكم ؛ فإن حملنا البقيّة من موادّ اُمور الدنيويّة فواضح أنّ النّاس إذا عرفوا الإنسان بالامانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا في المعاملات إليه فيفتح باب الرزق عليه ، كما أنّه إذا عرفوه بالخيانة و التطفيف انصرفوا عنه فتضيق أبواب النعمة والرزق عليه ، وأمّا إن احملنا هذه البقيّة على الاُمور الاُخرويّة من ثواب الله فالأمر ظاهر ؛ لأنّ كلّ الدنيا يفنى و ينقرض و ثواب الله باق .

[إن كنتم مؤمنين] بالله ومقرّين بالثواب والعقاب [وما أنا عليكم بحفيظ] أي إنّي نصحتكم وأرشدتكم إلى الخير ، ولا قدرة لي على منعكم ، أو المعنى ما أنا بحافظ نعم الله عليكم إذا أراد أن يزيلها عنكم بمعصيتكم إيّاه فاطلبوا بقاء نعمته بطاعته ، أو المعنى ما أنا بحافظ كيلكم ووزنكم حتّى توفّوا الناس حقوقهم و لا تظلموهم ، و إنّما عليّ أن أنهاكم عنهم .

[قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا] و إنّما قالوا ذلك لأنّ شعيباً كان كثير الصلاة وكان يقول : إنّ الصلاة رادعة عن الشرّ ناهية عن الفحشاء والمنكر . فقالوا : أصلاتك الّتي تزعم أنّها تأمر بالخير وتنهى عن الشرّ أمرتك بهذا الأمر ؟ ودينك يأمرك بترك دين السّلف ؟ و كنّي عن الدين بالصلاة لأنّها من أجلّ اُمور الدين و إنّما قالوا ذلك على وجه الاستهزاء وأنّها كانت ضحكة لهم حين كان يصلّي [أو أن نترك] فعل ما نشاء في أموالنا من البخس والتطفيف [إنّك لأنت الحليم الرشيد] و إنّهم قالوا هذا القول على وجه الهزؤ والتهكّم و أرادوا به ضدّ ذلك أي السفيه الغاوي كما يقال للبخيل : لو رآك حاتم لسجد لك .

وقيل : إنّهم قالوا ذلك على وجه التحقيق أي إنّك الحليم في قومك و لا تعاجل العقوبة لمستحقّها ومعروف عند الناس بالحكم و الرشد و مع ذلك كيف تنهانا عن دين أسلافنا وطريقة آبائنا ؟ ويستبعد منك من حلمك ورشدك هذا الأمر .

قال شعيب : [يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة] وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه فحوى الكلام والمعنى : أتقولون في شاني ماتقولون ، ونظمتوني في سلك السفهاء والغواة وحسبتم ماصدر عنّي من الأوامر من قبيل مالا يصلح أن يتفوّه به عاقل و جعلتموه من أقسام السفه والجنون واستهزأتم بي حتّى قلتم ما قلتم ؟ فأخبروني إن كنت على بيّنة [من] جهة [ربّي] ثابتاً على النبوّة و الحكمة و رزقني بذلك رزقاً حسناً هل تقولون ما تقولون أيضاً ؟ أوالمعنى : أخبروني إن كنت على بيّنة ومعجزة ممّا آتاني الله من العلم و الهداية والنبوّة [ورزقني منه رزقاً حسناً] ـ لأنّه كان عليه السلام كثير المال ـ فهل ينبغي ويجوزلي مع هذا الإنعام العظيم أن أخون في وحيه وأُخالفه في أمره و نهيه ؟

قوله : [وما اُريد أن اُخالفكم إلى ما أنها كم عنه] أي أسبقكم إلى شهواتكم الّتي نهيتكم عنها واُريد أن أدخل فيه وإنّما أختار لكم ماأختاره لنفسي و ما أقصد بخلافكم إلى ارتكابه ؛ قال الشاعر :

لاتنه عن خلق و تأتي مثله ❊ عار عليك إذا فعلت عظيماً

[إن اُريد إلّا الإصلاح] ولست اُريد إلّا إصلاح دينكم ودنياكم ما قدرت عليه وتمكّنت منه ، وليس توفيقي إلّا بالله فلا يوفّق غيره بل بمعاونته سبحانه ونصرته [عليه توكّلت] و تقديم الخبر يفيد الحصر أي لاينبغي لأحد أن يتوكّل على أحد إلّا الله فأعظم مراتب معرفة المبدأ هو الله جلّ ذكره .

وأمّا قوله : [وإليه اُنيب] إشارة إلى معرفة المعاد و هو أيضاً يفيد الحصر و كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ذكر شعيب عليه السلام قال : ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته في قومه .

قوله : ويا قوم لايجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح اوقوم هود اوقوم صالح وماقوم لوط منكم ببعيد (٨٩) و استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود (٩٠) قالوايا شعيب مانفقه كثيرا مماتقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز (٩١) قال يا قوم ارهطى اعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط (٩٢) ويا قوم اعملو على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من

ياتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا اني معكم رقيب (٩٣) ولما جاء امرنا نجينا شعيبا و الذين آمنوا برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين (٩٤) كان لم يغنوا فيها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود (٩٥) .

المعنى : «جرم» مثل كسب يتعدّى إلى مفعول واحد وإلى مفعولين ، والمراد أنّه قال لقومه : لاتكسبنّكم معاداتكم إيّاي [أن يصيبكم] عذاب الاستيصال في الدنيا [مثل ما أصاب قوم نوح] من عذاب الغرق ، ولقوم هود عن الريح العقيم ، ولقوم صالح من الرجفة ، ولقوم لوط من الخسف .

وأمّا قوله : [وما قوم لوط منكم ببعيد] المراد إمّا نفي البعد في المكان لأنّ قوم لوط قريبة من مدين ، وإمّا نفي البعد في الزمان لأنّ إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات زماناً من زمان شعيب ؛ فكأنّه قال : اعتبروا بأحوالهم واحذروا مخالفة الله [واستغفروا ربّكم] عن عبادة الأوثان [ثمّ توبوا إليه إنّ ربّي رحيم] بأوليائه [ودود] محبّ لعباده .

[قالوا يا شعيب مانفقه كثيراً ممّا تقول] لأنّهم كانوا لايلقون إليه أفهامهم لشدّة نفرتهم عن كلامه ، أو أنّهم فهموه ولكنّهم ماأقاموا لهوزناً فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة ، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بكلامه : ما أدري ما تقول . و المراد من الفقه الفهم أي ما نفهم [وإنّا لنراك فينا ضعيفاً] قيل : ضعيف البصر . وقيل : ضعيف البدن . وقيل : أعمى - وكان أعمى - وحمير سمّى المكفوف ضعيفاً كما قيل : ضرير أي ضرّ ببصره . وقيل : معنى « ضعيفاً » أي مهيناً . و اختلف في أنّ النبيّ هل يجوز أن يكون أعمى ؟ قيل : لا ، لأنّه يوجب النفرة . وقيل : يجوز كسائر الأمراض .

[ولولا رهطك] أي ولولا حرمة عشيرتك وقومك لقتلناك بالحجارة ، وقيل: لشتمناك وسببناك ولم ندع قتلك لعزّتك علينا ، ولكن لأجل عشيرتك . وكان شعيب في عزّ من قومه وكان من أشرافهم .

[قال ياقوم أرهطي أعزّ عليكم من الله] أعشيرتي وقومي أعظم حرمة عندكم من الله فتتركون أذاي لأجل قومي و اتّخذتم الله وراء ظهوركم ونسيتموه ؟ والضمير إلى الله أو

إلى ما جاء به شعيب [إنّ ربّي] محص أعمالكم وخبير بها .

[ويا قوم اعملوا على مكانتكم] وحالتكم هذه و«المكانة» الحالة الّتي يتمكّن بها صاحبها من عمل ـ وهذا تهديد في صورة الأمر ـ أو المعنى : اعملوا أنتم على ما تقولون و أنا أعمل على ما أقول كقوله : «لكم دينكم ولي دين» (١) وفيه دلالة على يأسه من قومه [فسوف تعلمون] أيّنا المخطىء وأيّنا الجاني على نفسه وتبيّن لكم عاقبة الأمر [من يأتيه عذاب يهينه و[يخزيه] ويظهر الصادق من الكاذب ، و انتظروا ما وعدكم ربّكم من العذاب ، إنّي معكم من المنتظرين .

[ولمّا جاء أمرنا نجّينا شعيباً والّذين آمنوا معه برحمة منّا وأخذت الّذين ظلموا الصيحة] صاح بهم جبرئيل صيحة فماتوا [فأصبحوا في] دارهم ملازمين مكانهم باركين على ركبهم لايتحوّلون عن أمكنتهم . وإنّما ذكر «الصيحة» بالألف و اللام إشارة إلى المعهود السابق وهي صيحة جبرئيل في قوم صالح ، فزهق روح كلّ واحد منهم بحيث وقعوا في مكانهم ميّتين كأن لم يقيموا في ديارهم وما كانوا أحياء أبداً . فبعداً بعداً لهم كما الثمود .

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٩٦) الى فرعون وملائه فاتبعوا امر فرعون وما امر فرعون برشيد (٩٧) يقدم قومه يوم القيمة فأوردهم النار وبئس الورد المورود (٩٨) واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيمة بئس الرفد المرفود (٩٩) ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد (١٠٠) وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء امر ربك وما زادوهم غير تتبيب (١٠١) وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه اليم شديد (١٠٢) ان في ذلك لاية لمن خاف عذاب الاخرة ذلك يوم مجموع له الناس و ذلك يوم مشهود (١٠٣) .

هذه هي القصّة السابعة من القصص في هذه السورة .

والمراد بالآيات التوراة مع ما ضمنها من الشرائع و الأحكام ومن السلطان المبين

---

(١) الجحد : ٦ .

المعجزات الظاهرة والتقدير : ولقدأرسلنا موسى بشرائع وتكاليف وأيّدناه بمعجزات باهرة لهعلى صدق نبوّته ، وهي تسع آيات : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، و الضفادع ، والدم ، ونقص من الثمرات والأنفس - ومنهم من أبدل بإظلال الجبل - و التاسع فلق البحر .

والحجّة سمّيت بالسلطان لأنّ صاحب الحجّة يقهر من لاحجّة له كما يقهر السلطان غيره ، قيل : إنّ اشتقاق السلطان من السليط والسليط مايضاء به ، ومن هذا قيل للزيت السليط ، ومن هذا المعنى يقال للسلطان : «ظل الله في الأرض» و قيل : إنّ السلطان مشتقّ من التسليط ، والعلماء سلاطين بسبب كمال قوّتهم العلميّة ، والملوك سلاطين بسبب تسلّطهم بقدرتهم .

قوله : [إلى فرعون و ملائه] و جماعته من الأشراف [فاتّبعوا] الملأ والناس [أمر فرعون]وتركوا أمر الله [وما أمر فرعون] بهادلهم إلى رشد ولاقائدإلى خير ؛ إنّ فرعون [يقدم قومه] و يمشي بين يدي قومه [يوم القيامة] على قدميه حتّى هجم بهم على النار كما تقدّمهم في الدنيا ويدعوهم إلى النار [فأوردهم النار] أتى بلفظ الماضي والمراد المستقبل لأنّ ماعطفه عليه من قوله : « يقدم قومه » يدلّ عليه . [وبئس] الماء الّذي يردونه عطاشاً لإحياء نفوسهم النار . وإنّما أطلق سبحانه على النار اسم «الورد المورود» ليطابق مايرد عليه أهل الجنّة من الأنهار والعيون . وقيل : معناه بئس الشيء الّذي يرده النار ، وبئس النصيب المقسوم لهم النار . وإنّما أطلق لفظ «بئس» وإن كان عدلاً حسناً لما فيه لهم من البؤس و الشدّة .

[وأُتبعوا] وأُلحقوا في الدنيا [لعنة] وهي الغرق [ويوم القيامة] بإبعادهم عن الرحمة وورود العذاب . وقيل : معناه أتبعهم الله في الدنيا لعنة وأتبعهم الأنبياء والمؤمنون بالدعاء عليهم باللعنة [بئس الرفد المرفود] بئس العطاء المعطى النار واللعنة . وإنّما سمّاه رفداً لأنّه في مقابلة مايعطى أهل الجنّة من أنواع النعيم . قال قتادة : ترافدت عليهم لعنتان من الله : لعنة الدنيا ولعنة الآخرة . قال ابن عبّاس والضحّاك : اللعنتان اللتان أصابتهما رفدت

إحداهما الأُخرى .

[ذلك] النبأ الّذي ذكرناه [من أنباء القرى] أي من أخبار البلاد [نقصّه عليك] ونذكره لك تسلية لخاطرك [منها قائم] أي من تلك البلاد معمور و منها [حصيد] وخراب تدأتى عليه الإهلاك ولم يعمر فيما بعد واندرس أثره كالشيء المحصود . وقيل : المعنى : منها قائم أُصولها ينظرون إليها ، وحصيد قد هلك وباد أهلها .

[وماظلمناهم] بإهلاكهم [ولكن ظلموا أنفسهم] بأن كفروا وارتكبوا ما استحقّوا به الهلاك فما أغنتهم و نفعتهم [آلهتهم] وأوثانهم [الّتي يدعون من دون الله] من فائدة [لمّا جاء] عذاب ربّك ، أو [أمر ربّك] بإهلاكهم لم يزيدوا تلك الأصنام إيّاهم غير الهلاك والخسار . وإنّما أضاف الهلاك إلى الأصنام لأنّها السبب في ذلك ولو لم يعبدوها لم يهلكوا . وإنّما قال : « يدعون من دون الله » لأنّهم كانوا يسمّونها آلهة ويطلبون الحوائج منها كما يطلبها الموحّدون من الله .

قوله : [و كذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى] أي كما فعل بأُمم من تقدّم من الأنبياء لمّا خالفوا الرسل وردّ عليهم من عذاب الاستيصال ، بيّن أنّ عذابه ليس مقتصراً على من تقدّم بل الحال في أخذ كلّ الظالمين كذلك . قوله : [وهي ظالمة] الضمير بحسب الظاهر عائد إلى القرى ولكنّ المراد أهلها ونظائره كثيرة كقوله : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة » (١) .

ثمّ أكّد سبحانه هذا البيان بقوله : [إنّ أخذه] ربّك [أليم شديد] وشرح بأن لاينبغي أن يظنّ أحد أنّ هذه الأحكام مختصّة بأُولئك المتقدّمين لأنّه تعالى قال : «و كذلك أخذ ربّك» فحكم بأنّ من شاركهم في فعل مالاينبغي فلابدّ وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الشديد .

قوله : [إنّ في ذلك لآية] أي إنّ في ماقصصنا عليك من إهلاك الجماعة تبصرة عظيمة لمن خشي عقوبة الله يوم القيامة . وخصّ الخائف بذلك لأنّه هو الّذي ينتفع به بالتدبر . ويوم الآخرة يوم يجمع له الناس وفيه الناس كلّهم الأوّلون والآخرون منهم للجزاء و الحساب . والهاء راجعة إلى اليوم [وذلك يوم مشهود] يشهده الجنّ والإنس وأهل السماء

(١) الانبياء ٢١ : ١١ .

والأرض ، وفي هذا دلالة على إثبات المعاد وحشر الخلق .

قوله تعالى : وما نؤخره الا لاجل معدود (١٠٤) يوم يات لاتكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد (١٠٥) فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير و شهيق (١٠٦) خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد (١٠٧) واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ (١٠٨) .

المعنى : أخبر سبحانه عن اليوم المشهود فقال : [وما نؤخّر] هذا اليوم [إلّا لأجل] قد عدّه الله لعلمه أنّ صلاح الخلق في إدامة التكليف عليهم إلى ذلك الوقت وإنّما قال : « لأجل » ولم يقل : « إلى أجل » لأنّ اللام يدلّ على الغرض ، وأنّ الحكمة اقتضت تأخيره ، و كلمة « إلى » لا تدلّ على ذلك . [يوم يأت] القيامة و الجزاء لايتكلّم أحد إلّا بأمره و إذنه ؛ لأنّ الخلق ملجؤون هناك إلى ترك القبائح . والمراد أنّه لايتكلّم أحد في الآخرة بكلام نافع من شفاعة ووسيلة إلّا بإذنه .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية و بين قوله : « هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون »(١) وقوله : « فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولاجان »(٢) وفي موضع آخر « وقفوهم إنّهم مسؤولون(٣) » وهل هذا إلّا التناقض ؟

فالجواب أنّ يوم القيامة يشتمل على مواقف عديدة قد أُذن لهم في الكلام في بعض تلك المواضع ولم يؤذن لهم في بعض المواضع . وبالجملة ويوم يأتي الأمر الهائل المهيب المستعظم أي القيامة .

قال صاحب الكشّاف : فاعل يأتي « الله » . وهذا غير صحيح لأنّه قاس على قوله تعالى : « وجاء ربّك والملك صفّاً »(٤) والكلام فيهما نقول في هذه نقول في تلك ؛ لأنّه إذا تأوّل قوله : « وجاء ربّك » وجاء مر أربّك مع صراحة الفاعل ففي هذه الآية بطريق أولى .

(١) المرسلات : ٣٥ ـ ٣٦ .
(٢) الرحمن : ٣٨ .
(٣) الصافات : ٢٤ .
(٤) الفجر : ٢٣ .

والّذي أوجب لصاحب الكشّاف هذا القول قوله تعالى : « هل ينظرون إلّا أن يأتيهم الله » (١) والحال أنّه حكى الله هذه الآية عن أقوام وهم اليهود ، وإسناد الفعل إلى الله غلط . انتهى .

قوله : [فمنهم شقيّ وسعيد] إخبار من الله بأنّهم قسمان : أشقياؤهم المستحقّون للعقاب ، وسعداؤهم المستحقّون للثواب ؛ والشقيّ من شقي بسوء عمله في معصية الله ، والسعيد من سعد بحسن عمله في طاعة الله . والضمير في قوله : « فمنهم » راجع إلى المجتمعين من الناس والمكلّفين . وقيل : راجع إلى النفس والمعنى واحد .

[فأمّا الّذين شقوا] باستحقاقهم العذاب داخلون في النار ، وأمّا ماروي عنه ﷺ أنّه قال : «الشقيّ من شقي في بطن اُمّه والسعيد سعيد» فإنّ المراد بذلك أنّ المعلوم من حاله أنّه سيشقى بارتكاب القبائح الّتي تؤدّيه إلى النار كما في السعيد ، كما يقال لابن الشيخ الهرم : إنّه يتيم أي سيتم .

قوله : [لهم فيها زفير وشهيق] « الزفير » و « الشهيق » أصوات المكروبين المحزونين و« الزفير » من شديد الأنين بمنزلة ابتداء صوت الحمار . و« الشهيق » الأنين المرتفع جدّاً بمنزلة آخر صوت الحمار . وعلى قول الأطبّاء الزفير استدخال الهواء الكثير والشهيق استخراج الهواء الكثير عند انحصار الطبيعة . عن ابن عبّاس : يريد ندامة ونفساً عالياً وبكاءً لاينقطع [خالدين فيها] في النار [مادامت السماوات والأرض إلّا ماشاء ربّك] .

اختلف العلماء في تأويل هاتين الفقرتين ـ وهما من المواضع المشكلة في القرآن ـ فيه من وجهين أحدهما : تحديد الخلود بمدّة دوام السماوات والأرض ، والآخر معنى الاستثناء بقوله : « إلّا ماشاء ربّك » فالأوّل فيه أقوال :

أحدها أنّ المراد مادامت السماوات والأرض مبدّلتين أي مادامت سماء الآخرة و أرضها وهما لاينفيان إذا اُعيدا بعد الإفناء .

و ثانيها أنّ المراد مادامت سماوات الجنّة والنار وأرضهما . و كلّ ما علاك فأظلّك فهو سماء و كلّما أقلّك واستقرّ عليه قدمك فهو أرض ؛ وهذا قريب من قول الأوّل .

(١) البقرة : ٢٠٦ .

و ثالثها أنّه لايراد به السماء و الأرض بعينها ، بل المراد التبعيد فإنّ للعرب ألفاظاً في معنى التأبيد يقولون : لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار و مادامت السماء والأرض ومانبت النبت وماأطّت الإبل ومادرّ شارق ، وأشباه ذلك ظنّاً منهم أنّ هذه الأشياء لايتغيّر ويريدون منه التأبيد لا التوقيت ، قال عمرو بن معديكرب :

و كلّ أخ يفارقه أخوه ❊ لعمر أخيك إلّا الفرقدان

وأمّا الكلام في الاستثناء ففيه أقوال :

أحدها أنّه استثناء في الزيادة من العذاب لأهل النار والزيادة من النعيم لأهل الجنّة والتقدير : إلّا ماشاء ربّك من الزيادة على هذا المقدار ؛ كما يقول الرجل لغيره : لي عليك ألف دينار إلّا الألفين اللذين أقرضتكهما وقت كذا ؛ فالألفان زيادة على الألف بغير شكّ لأنّ الكثير لايستثنى من القليل فحينئذ يكون « إلّا » بمعنى سوى أي سوى ماشاء ربّك فحينئذ يكون المعنى : إنّهم يكونون في النار في جميع مدّة بقاء السماوات والأرض ؛ فذكر أوّلاً في خلودهم ماليس في العرب أطول منه ثمّ زاد عليه الدوام الّذي لا آخر له بقوله : « إلّا ماشاء ربّك » أي سوى ماشاء ربّك من الزيادة الّتي لاآخر لها .

الثاني أنّ الاستثناء واقع على مقامهم في المحشر والحساب ؛ لأنّهم حينئذ ليسوا في جنّة ولانار و كذلك مدّة كونهم في البرزخ الّذي هو بين الموت والحياة الثانية ؛ لأنّه تعالى لوكان قائلاً : « خالدين فيها أبداً » ولم يستثن لكان يظنّ ظانّ أنّهم يكونون في النار أو الجنّة من لدن انقطاع التكليف فحصل للاستثناء فائدة و لا ينافي الدوام ؛ فحينئذ هذا الاستثناء قبل الدخول فيها لابعدها .

الثالث أن يكون المراد بالّذين شقوا جميع الداخلين إلى جهنّم ممّن اُدخل فيها من أهل التوحيد الّذين ضمّوا إلى إيمانهم وطاعاتهم ارتكاب المعاصي فقال : إنّهم يعاقبون في النار إلّا ماشاء ربّك من إخراجهم إلى الجنّة فاستثنى هؤلاء الموصوفين بهذه الصفة ممّن لم يستحقّ الخلود الأبديّ لإيمانه ؛ فتقدير الآية : إلّا من شاء ربّك أن يخرجه بتوحيده من النار . فحينئذ يكون « ما » بمعنى « من » قالت العرب عند سماع الرعد : سبحان ما سبّحت له . وأمّا في أهل الجنّة فكذلك فهو استثناء من خلودهم أيضاً لما ذكرناه لأنّ من

ينقل إلى الجنّة من النار وخلّد فيها لابدّ في الإخبار عنه بتأبيد خلوده من استثناء ما تقدّم فكأنّه قال : خالدين فيها إلّا ماشاء ربّك من الوقت الّذي أدخلهم النار فيه قبل أن ينقلهم إلى الجنّة « فما » في قوله : « ماشاء ربّك » ههنا على بابه والإستثناء من الزمان

و روى أبو روق عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال : الّذين شقوا ليس فيهم كافر و إنّما هم من أهل التوحيد يدخلون النار بذنوبهم ، ثمّ يتفضّل الله عليهم فيخرجهم من النار إلى الجنّة فيكونون أشقياء في حال سعداء في حال اُخرى .

الرابع أنّ المعنى خالدون في النار ، دائمون فيها مدّة كونهم في القبور مادامت السماوات والأرض في الدنيا ، وإذا فنيتا وعدمتا انقطع عذابهم إلى أن يبعثهم الله للحساب فقوله : «إلّا ماشاء ربّك» استثناء وقع على مايكون في الآخرة ، أورده الشيخ أبو جعفر قدّس الله سرّه ، و قال : ذكره قوم من أصحابنا في التفسير .

الخامس أنّ المراد إلّا ماشاء ربّك أن يتجاوز سبحانه عنهم فلا يدخلهم النار ، وقدّر الاستثناء لأهل التوحيد عن أبي مجلز قال : هي جزاؤهم وإن شاء تجاوز عنهم .

قوله : [وأمّا الّذين سعدوا] بطاعة الله وانتهائهم عن المعاصي [ففي الجنّة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض] أي مدّة دوام السماوات و الأرض [إلّا ماشاء ربّك] يتأتّى فيه جميع أقوال الّتي قلنا في الاستثناء من الخلود في النار إلّا مسألة الخروج من الجنّة ؛ فإنّ إجماع الاُمّة انعقد على أنّ من دخل الجنّة لا يخرج منها [عطاء غير مقطوع .

قوله تعالى : فلاتك في مرية مما يعبد هولاء مايعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانالموفوهم نصيبهم غيرمنقوص (١٠٩) ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم لفي شك منه مريب (١١٠) وان كلالما ليوفينهم ربك اعمالهم انه بمايعملون خبير (١١١) فاستقم كما امرت ومن تاب معك ولاتطغوا انه بماتعملون بصير (١١٢) .

[فلاتك] في شكّ [ممّا يعبد هؤلاء] من دون الله ؛ إنّه باطل ، وإنّ مصيرهم إلى النار ولايكون داعي عبادتهم دون الله إلّا التقليد وإنّما اتّبعوا آباءهم ، وإنّا لمعطوهم جزاء

أعمالهم وعقابهم وافياً من غير نقيصة عن مقدار ما استحقّوا . وقيل : معناه إنّا نعطيهم ما استحقّوه من العذاب بعد أن حكمنا لهم به من الخير في الدنيا .

قوله : [ولقد آتينا] وأعطينا [موسى] التوراة [فاختلف فيه] يريد أنّ قومه اختلفوا في صحّة الكتاب الّذي اُنزل عليه ، وأراد سبحانه بذلك البيان تسلية النبيّ عن تكذيب قومه إيّاه و جحدهم للقرآن [و لو لا كلمة سبقت من ربّك] أي لولا قضاء الله السابق بأنّه يؤخّر العذاب و الجزاء إلى يوم القيامة ، أو يكون المعنى : لولا كلمة «سبقت رحمتي غضبي» لعجّل الثواب والجزاء لأهله . وفصّل بين المؤمنين والكافرين بنجاة هؤلاء ، وهلاك هؤلاء ، وإنّ الكافرين [لفي شكّ] من القرآن ووعد الله ووعيده [مريب] والريب أقوى الشكّ ومعنى « مريب » أي موقع في الريبة .

[وإنّ كلاًّ لمّا ليوفّينّهم] و كلمة «لمّا» مركّبة من « من» الجارّة و « ما» الموصولة فقلبت « النون » « ميماً » للإدغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت اُولاهنّ واللام الأولى موطّئة للقسم ، والثانية في قوله : «ليوفّينّهم» جواب للقسم المحذوف ، والتنوين في « كلاًّ » عوض عن المضاف إليه أي و إنّ كلّ الفريقين المؤمنين و الكافرين لمن الّذين ليوفّينّهم ربّك . وقرىء «لما » بالتخفيف على أنّ ما مزيدة للفصل بين اللامين ، والمعنى : وإنّ جميعهم والله ليوفّينّهم أجزية أعمالهم إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ . وقرىء « لمّاً » بالتنوين أي لمّاً وجمعاً كقوله سبحانه : « أكلاً لمّاً » و قرأ أبو عليّ أنّ معنى « إن » النافية ومعنى « لمّا » بمعنى « إلّا» وحاصل المعنى أنّ من عجّلت عقوبته أو اُخّرت ومن صدّق الرسل أو كذّب فحالهم سواء في جزاء أعمالهم .

قال بعض الفضلاء : إنّ في هذه الآية سبعة أنواع من التوكيدات في الدلالة على الحشر والجزاء : أوّلها كلمة « إنّ» وهي للتأكيد . وثانيها كلمة « كلّ» وهي للتأكيد . وثالثها «اللام» الداخلة على خبر «إنّ » وهي تفيد التأكيد أيضاً . ورابعها حرف « ما » إذا جعلناه موصولاً على قول الفرّاء . وخامسها القسم المضمر فإنّ تقديره : وإنّ جميعهم والله ليوفّينّهم . وسادسها « اللام» الثانية الداخلة على جواب القسم . وسابعها « النون » المؤكّدة في قوله : « ليوفّينّهم » . انتهى .

قوله : [فاستقم كما أُمرت] وهذه الكلمة كلمة جامعة في كلّ مايتعلّق بالعقائد والأعمال سواءً كان مختصّاً به أوكان متعلّقاً بالاُمّة . قال ابن عبّاس : مانزلت على رسول الله ﷺ آية أشدّ على رسول الله من هذه الآية في تمام القرآن ولهذا قال ﷺ : شيّبتني هود وأخواتها ؛ ولا شكّ أنّ البقاء والمواظبة على الاستقامة الحقيقيّة مشكل جدّاً ومن هذا المعنى تبيّن لك سبب خوف الأنبياء والأولياء فالسبب في خشوات أمير المؤمنين في كلّ ليلة سبعين مرّة يتّضح لك فتأمّل . وهذه الآية وهي «فاستقم كما اُمرت» أصل عظيم في الشريعة ؛ و ذلك لأنّ القرآن لمّا ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتّبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله : « فاستقم كما اُمرت » و كذلك مثلاً ورد الأمر بالزكاة بأداء الإبل من الإبل والبقر من البقر وجب أعتبارها ، وفي كلّ ماورد أمر الله به .

قوله : [ومن تاب معك] « ومن » في محلّ الرفع وعطف على الضمير المستتر في قوله : « فاستقم » أي فاستقم أنت ومن تاب معك يعني أنت وهم لأنّ التائب عن الفسق و الكفر يصحّ منه الاستقامة . ثمّ قال : [ولا تطغوا] أي لا تجاوزوا ما اُمرتم به و تعيّن لكم « والطغيان» تجاوز المقدار فتحلّوا حرامه وتحرّموا حلاله [إنّه] سبحانه [بصير] بأفعالكم .

قوله : ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من اولياء ثم لاتنصرون (١١٣) .

والركون هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالمحبّة ؛ ونقيضه النفور. أي ولاتميلوا إلى المشركين في شيء من دينكم ؛ عن ابن عبّاس . وقيل : معناه لايداهنوا الظلمة ؛ عن السدّيّ وجماعة. وقيل : إنّ الركون إلى الظالمين المنهيّ عنه هو الدخول معهم في ظلمهم وإظهار الرضا بفعلهم وإظهار موالاتهم. وقريب من هذا المعنى ماروي عنهم عليهم السلام أنّ الركون المودّة والنصيحة والطاعة .

[فتمسّكم النار] فيصيبكم عذاب النار أي إنّكم إن كنتم إليهم فهذه عاقبة الركون وليس لكم أولياء يخلّصوكم من عذابه ولاتجدون من ينصركم فإذا كان الركون إلى الظالم موجب لمس النار فكيف إذا كان ظالماً هو ؟ فحينئذ أولى بمسّ النار .

قوله تعالى : واقم الصلوة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين (١١٤) واصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين (١١٥) فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض الاقليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين (١١٦) .

[وأقم الصلاة] أي أدّها و أت بأعمالها على وجه التمام في فروضها . وقيل : أدم على فعلها ، والمراد من « طرفي النهار » صلاة الفجر والمغرب و« بزلف الليل» صلاة العشاء الآخرة و « الزلف» أوّل ساعات الليل . قالوا : و ترك ذكر الظهر والعصر إمّا الظهور هما في أنّهما صلاتا النهار فكأنّه قال : وأقم الصلاة طرفي النهار مع المعروفة من صلاة النهار. وإمّا لأنّهما مذكورتان على التبع للطرف الآخر لأنّهما بعد الزوال فهما أقرب إليه وقد قال سبحانه : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل »[(١)] ودلوك الشمس زوالها ، وهذا القول هو المروي عن أبي جعفر عليه السلام . وقيل : صلاة طرفي النهار الغداة والظهر و العصر ، وصلاة زلف الليل المغرب والعشاء الآخرة . قال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : المغرب والعشاء زلفتا الليل وقيل : أراد بطرفي النهار صلاة الفجر وصلاة العصر .

[إنّ الحسنات يذهبن السيّئات] قيل في معناه : إنّ الصلاة الخمس تكفّر ما بينها من الذنوب ؛ لأنّه عرّف الحسنات بالألف واللام . وذكر الواحديّ بإسناده معنعناً عن أبي عثمان قال : كنت مع سلمان تحت شجرة فأخذ غصناً يابساً منها ؛ فهزّه حتّى يتحاتّ ورقه ، ثمّ قال : ياعثمان ألا تسألني لِمَ أفعل هذا ؟ قلت : ولِمَ تفعله ؟

قال : إنّ المسلم إذا توضّأ وأحسن الوضوء ثمّ صلّى الصلاة الخمس تحاتت خطاياه كما يتحاتّ هذا الورق ثمّ قرأ هذا الآية . وبإسناده عن أبي أمامة قال : بينما رسول الله في المسجد ونحن قعود معه إذ جاءه رجل فقال : يارسول الله إنّي أصبت حدّاً فأقمه عليّ فقال: هل شهدت الصلاة معنا ؟ قال : نعم يارسول الله قال : فإنّ الله قد غفر لك حدّك (أوقال : ذنبك) .

---

(١) الاسراء : ٨٠ .

وبإسناده عن الحرث عن عليّ بن أبي طالب قال : كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد ننتظر الصلاة فقام رجل فقال : يا رسول الله إنّي اُصبت ذنباً فأعرض عنه فلمّا قضى النبيّ الصلاة قام الرجل فأعاد القول ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : أليس صلّيت معنا هذه الصلاة و أحسنت لها الطهور ؟ قال : بلى قال : فإنّها كفّارة ذنبك .

ورووا عن أبي حمزة الثمالي قال : سمعت أحدهما عليهما السلام يقول : إنّ عليّاً عليه السلام أقبل على الناس فقال : أيّ آية أرجى عندكم في كتاب الله فقال بعضهم : «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ، الآية»[1] فقال : حسنة وليست إيّاها ، وقال بعضهم : «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه» [2] قال : حسنة وليست إيّاها ، وقال بعضهم : «قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله[3]» قال : حسنة وليست إيّاها ، وقال بعضهم : «والّذين إذا فعلوا فاحشة ، الآية[4]» قال : حسنة وليست إيّاها . قال : ثمّ أحجم الناس فقال : مالكم يا معشر المسلمين ؟ فقالوا : لا والله ما عندنا شيء قال : سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : أرجى آية في كتاب الله «وأقم الصلاة طرفي النهار» وقرأ الآية كلّها ، ثمّ قال : يا عليّ والّذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً إنّ أحدكم ليقوم من وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفتل وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته اُمّه ، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتّى عدّ الصلاة الخمس ، ثمّ قال : يا عليّ إنّما منزلة الصلاة الخمس لاُمّتي بمنزلة النهر الجاري على باب أحدكم فما يظنّ أحدكم لو كان في جسده درن ثمّ اغتسل في ذلك النهر خمس مرّات في كلّ يوم وليلة ، أكان يبقى في جسده درن ؟ فكذلك والله الصلاة الخمس لاُمّتي .

وقيل : «إنّ الحسنات يذهبن السيّئات» معناه أنّ الدوام على فعل الحسنات يدعو إلى ترك السيّئات . وقيل : المراد بالحسنات التوبة فإنّها يذهب بالسيّئات و تسقط عذابها .

---

(١) النساء : ٥١ و ١١٦ .
(٢) « : ١١٠ .
(٣) الزمر : ٥٤ .
(٤) آل عمران : ١٢٩ .

[ذلك ذكرى للذاكرين] يعني ما ذكره من أنّ الحسنات يذهبن بالسيّئات في هذا البيان تذكار وموعظة لمن تذكّر به .

[واصبر] أي اصبر على الصلاة كما قال : «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها»(١) وقيل : معناه : اصبر يا محمّد على أذى قومك وتكذيبهم إيّاك [فإنّ الله لا يضيع] عمل [المحسنين] وقيل : معنى المحسنين ههنا المصلّين .

قوله تعالى : [فلولا] المعنى : لمّا بيّن سبحانه أنّ الأمم المتقدّمة حلّ بهم عذاب الاستيصال بيّن أنّ السّبب فيه أمران : الأوّل أنّه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض والمعنى : فهلاّ كان ؛ وحكى الخليل أنّ كلّ ما كان في القران من كلمة « لولا » فمعناه «هلاّ» إلاّ الّتي في الصافّات .

والمراد من قوله : [أُولو بقيّة] أي أُولو فضل ونعمة وخير وسمّي الفضل والخير «بقيّة» لأنّ الرجل يستبقي ممّا يخرجه أجوده وأفضله يقال : فلان من بقيّة القوم أي من خيارهم ، ويجوز أن يكون البقيّة بمعنى البقوى كالتقيّة بمعنى التقوى أي فهلاّ كان منهم ذوبقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وقرىء «أُولو بقية» بكسر الباء وسكون القاف والبقية المرّة ، والمعنى : فلولا كان منهم أُولو مراقبة وخشية من عذاب الله .

ثمّ قال : [إلاّ قليلاً] ولا يمكن أن يكون المستثنى متّصلاً لأنّه على هذا التقدير يكون أمر البقيّة في النهي عن الفساد إلاّ القليل من الناجين منهم كما تقول : هلاّ قرأ قومك القرآن إلاّ الصلحاء منهم تريد استثناء الصلحاء منهم ، فإذا ثبت هذا فالاستثناء منقطع ، والتقدير : لكنّ قليلاً ممّن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي .

قوله : [واتّبع الّذين ظلموا ما أُترفوا فيه] أي واتّبع المشركون ما عوّدوا من النعم والتنعّم وإيثار اللّذات على أُمور الآخرة وكان هؤلاء المبطرون والمتنعّمون مصرّين على الجرم .

و في الآية دلالة على وجوب النهي عن المنكر ؛ لأنّه سبحانه ذمّهم بترك النهي عن المنكر وأخبر بأنّه أنجى القليل منهم ، ونبّه بأنّه لو كان الكثير كما نهى القليل لما

(١) طه : ١٣٢ .

هلكوا و ما استوصلوا بالعذاب كأنّه بيّن أنّ سبب عذابهم بالاستيصال ترك النهي عن الفساد .

قوله تعالى : وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١١٧) .

المعنى : وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم منه تعالى لهم ولكن إنّما يهلكهم بظلمهم لأنفسهم كما قال : «إن الله لا يظلم النّاس شيئاً ، الآية» (١) هذا أحد وجوه معنى الآية . والثاني أنّ الله لا يؤاخذهم بظلم بعضهم مع أنّ أكثرهم مصلحون ولكن إذا عمّ الفساد وظلم الأكثرون عذّبهم . وثالثها أنّه لا يهلكهم بشركهم وظلم أنفسهم وهم يتعاطون الحقّ بينهم ويتعاملون بينهم بالإصلاح وينصف بعضهم بعضاً .

وحاصل النظم في الآية أنّ السبب في إهلاك الأمم أنّهم أقدموا في إهلاك نفوسهم بعذاب الاستيصال ، ولو كان فيهم مؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن الفساد لما استأصلناهم رحمة منّا ، ولكنّهم لمّا عمّهم الكفر استحقّوا عذاب الاستيصال .

قوله تعالى : و لو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة و لا يزالون مختلفين (١١٨) الا من رحم ربك ولذلك خلقهم و تمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين (١١٩) وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فوادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين (١٢٠) وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون (١٢١) وانتظروا انا منتظرون (١٢٢) ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده و توكل عليه و ما ربك بغافل عما تعملون (١٢٣) .

المعنى : أخبر سبحانه عن قدرته فقال : [ولو شاء لجعل] الكلّ [أُمّة واحدة] وعلى دين واحد فيكونون مؤمنين بأن يلجئهم إلى الإيمان ولكنّ ذلك ينافي التكليف ويبطل الغرض ولذلك لم يشأ الله ذلك ولكنّه سبحانه شاء أن يؤمنوا باختيارهم ليستحقّوا الثواب وقيل : معناه : لو شاء ربّك لجعلهم أُمّة واحدة في الجنّة على سبيل التفضّل ولكنّه شاء لهم بالجنّة لا على سبيل التفضّل بل شاء على سبيل الاستحقاق للجنّة بحسن عملهم و قيل : معناه لو شاء رفع الخلاف فيما بينهم .

(١) يونس ، ٤٤ .

[ولا يزالون مختلفين] في الأديان بين يهودي ونصراني ومجوسي وغير ذلك . وقيل : مختلفين في الأرزاق والأحوال [إلاّ من رحم ربّك] من المؤمنين فإنّهم لا يختلفون ويجتمعون على الحقّ وقد رحمهم ربّهم .

قوله : [ولذلك خلقهم] اختلف في معناه فقيل : وللرحمة خلقهم ؛ عن جماعة كابن عبّاس و مجاهد وقتادة والضحّاك وهذا هو الصحيح . واعترض على ذلك بأن لو أراد ذلك لقال : ولتلك خلقهم لأنّ الرحمة مؤنّثة ؛ وهذا ليس بشيء ؛ لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقي فإذا ذكر فعلى معنى الإنعام والتفضّل وقد قال : سبحانه . «هذا رحمة من ربّي» و «إنّ رحمة الله قريب» (١) ومثله قول امرىء القيس :

برهرهة رودة رخصة * كخرعوبة البانة المنفطر

و لم يقل : المنفطرة لأنّه ذهب إلى الغصن و أمثال ذلك كثير و قيل : « اللام » للعاقبة يريد أنّ الله خلقهم وعلم أنّ عاقبتهم يؤول إلى الاختلاف المذموم كما قال : «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً» (٢) ولا يجوز أن يكون اللام للغرض لأنّه تعالى لا يجوز أن يريد منهم الاختلاف المذموم لأنّه لو أراد منهم ذلك لكانوا مطيعين له في ذلك الاختلاف وحقيقة الطاعة الموافقة للإرادة فحينئذ لم يعذّبهم والاجماع محقّق بعذابهم ويمكن أن يكون «اللام» في الآية للغرض . وهذا إذا كان معنى الآية أنّه سبحانه لو شاء لجعلهم اُمّة واحدة في الجنّة على سبيل التفضّل لكنّه اختار لهم أعلى الدرجتين ليستحقّوا الثواب ولهذا الغرض خلقهم .

وقال المرتضى قدّس سرّه : قد قال قوم : إنّ معنى الآية ولو شاء ربّك أن يدخل الناس بأجمعهم الجنّة فيكونوا في وصولهم جميعهم إلى الجنّة اُمّة واحدة لفعل وأجروا هذه الآية مجرى قوله : «ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها» (٣) وإنّه أراد هداها إلى طريق الجنّة فعلى هذا التأويل يكون لفظة ذلك إشارة إلى إدخال الجميع الجنّة وخلقهم المصير إليها لكنّهم نقضوا هذا الغرض بسوء اختيارهم وهذا المعنى اختيار جمهور المعتزلة قالوا : و لا يجوز أن يفسّر الآية بأنّ الله العادل يخلقهم للاختلاف بل خلقهم للرحمة و هو القول الصحيح .

---

(١) الكهف : ٩٧ . الاعراف : ٥٤ .
(٢) الاعراف : ١٧٨ . (٣) السجدة : ١٣ .

قوله : [وتمّت كلمة ربّك] أي وصل وبلغ وحيه ووعده ووعيده بتمامه إلى خلقه فمن شاء فليكفر ومن شاء فليؤمن . وقيل معناه : وجب قول ربّك ومضى حكمه سبحانه [لأملأنّ جهنّم] بكفرهم إذا كفروا [وكلاًّ] من هذه القصص من أخبار الرسل يتابع بعضها بعضاً ويأتي بعضها أثر بعض ليكون [ما نثبّت به فؤادك] ونقوّي به قلبك ونزيدك به ثباتاً على ما أنت عليه .

قوله تعالى : [وجاءك في هذه الحقّ] قيل : في هذه السورة . وقيل : في هذه الدنيا وقيل : في هذه الأنباء ، والمراد بالحقّ الصدق من الأنباء والوعد . وقيل : معناه : وجاءك في ذكر هذه الآيات الحقّ والموعظة وليس المراد إذا قيل : قد جاءك في هذه الحقّ أن يكون لم يأتك الحقّ إلّا فيه ولكنّ بعض الحقّ أوكد من بعض [وذكرى] وتذكّر [للمؤمنين] .

[وقل] يا محمّد صلى الله عليك [للّذين لا يؤمنون] بآياتنا : [اعملوا] على طريقتكم على الكفر [إنّا عاملون] على طريقتنا على الإيمان [وانتظروا] ما يعدكم الله على الكفر من العقاب [إنّا منتظرون] ما يعدنا الله على الإيمان من الثواب .

[ولله غيب السماوات] أي علم ما غاب في السماوات [والأرض] لا يخفى عليه شيء منه وقيل : معناه ولله خزائن السماوات والأرض المستورات [وإليه يرجع الأمر كلّه] أي إلى حكمه يرجع في المعاد كلّ الأمور لأنّ في الدنيا قد يكون يملك غيره سبحانه بعض الأمر والنهي والنفع والضرّ ولكنّ هناك كلّ الأمور راجعة إليه ؛ فإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أنّه يعبد ويتوكّل عليه ويوثق به وليس هو سبحانه غافلاً عن أعمال عباده من ثواب و موجب عقاب .

قال الطبرسي قدّس سرّه في المجمع : وجدت بعض المشايخ ممّن يتّسم بالعدوان والتشنيع قد ظلم الشيعة الإماميّة في هذا الموضع من تفسيره فقال : هذا يدلّ على أنّ الله يختصّ بعلم الغيب خلافاً لما تقول الرافضة : إنّ الأئمّة يعلمون الغيب. ولا شكّ أنّه عنى بذلك من يقول بإمامة الاثني عشر ويدين ويعتقد بأنّهم أفضل الأنام بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله و ينسب الفضائح والقبائح إلى هذه الطائفة .

قال الطبرسي رحمه الله : ولا نعلم أحداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق حتى النبي صلى الله عليه وآله وإنما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد، وهذه صفة القديم سبحانه العالم لذاته لا يشركه أحد من المخلوقين ومن اعتقد أن غير الله يشركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملة الإسلام .

فأما ما نقل عن أمير المؤمنين ورواه عنه الخاص والعام من الإخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها مثل قوله إلى صاحب الزنج : «كأني به يا أحنف و قد سار بالجيش الذي ليس له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم[1] ولا صهيل خيل يثيرون الأرض بأقدامهم كأنه أقدام النعام» و قوله - يشير إلى مروان - : «أما إن له امرة كلعقة الكلب أنفه و هو أبو الأكبش الأربعة وسيلقى الأمة منه ومن ولده موتاً أحمر» .

وما نقل من هذا القبيل عن أئمة الهدى مثل ما قال أبو عبدالله عليه السلام لعبدالله بن الحسن - وقد اجتمع هو وجماعة من العلوية والعباسية ليبايعوا ابنه محمد - : والله ما هي لابنك ولا لك ولكنها لهم وأشار إلى العباسية وإن ابنيك لمقتولان . ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال له : أرأيت صاحب الرداء الأصفر يعني أبا جعفر المنصور قال : نعم قال : إنا والله نجده يقتله فكان كما قال . فقتله المنصور . ومثل قول الرضا عليه السلام : بورك قبر بطوس وقبران ببغداد فقيل له . قد عرفنا واحداً فما الآخر فقال : ستعرفونه ثم قال : قبري وقبر هارون هكذا وضم إصبعيه وقوله : في حديث علي بن الوشاء حين قدم مرو من الكوفة قال له الرضا عليه السلام : معك حلة في السفط الفلاني دفعتها إليك ابنتك وقالت اشتر لي بثمنها فيروزجاً ؛ الحديث . إلى غير ذلك مما روي عنهم .

فإن جميع ذلك متلقى عن النبي صلى الله عليه وآله بما أطلع الله نبيه والنبي أخبرهم فهذا علم مستفاد وليس بعلم الغيب وأنهم ما ادعوا علم الغيب بل نفوا عن أنفسهم كما قال أمير المؤمنين في خطبة الملاحم لما قالوا بعض أصحابه حين أنشأ تلك الخطبة : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب فضحك عليه السلام وقال للرجل - وكان كلبياً - : يا أخا كليب ليس هو بعلم الغيب ، وإنما هو تعلم من ذي علم وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله بقوله : «إن الله عنده

---

(١) اللجب : صوت الابطال . والقعقعة : صوت السلاح .

علم الساعة ويعلم ما في الأرحام » من ذكر وأُنثى و قبيح وجميل وسخيّ وبخيل وشقيّ وسعيد ، ومن يكون في النار حطباً أو في الجنان وأمثاله فهذا علم الغيب الّذي لا يعلمه أحد إلّا الله وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيّه فعلّمنيه . انتهى .

وفي شرح النهج أنّ صاحب الزنج [1] اسمه عليّ وكان يدّعي أنّه عليّ بن محمّد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، وأرباب السير قدحوا في نسبه وأنكروا ذلك واتّفقوا على أنّه من بني عبد القيس الأسديّ أحد الخارجين مع زيد بن عليّ عليه السلام ، وبعض الناس يرمونه بالزندقة والإلحاد وفي بعض الأخبار أنّ ارتفاع أمره كان قريباً من وفات سيّدنا العسكريّ عليه السلام ، وكان يقتل الرجال والنساء والأطفال والشيخ الفاني والمريض ولا يبقي ، وأكثر أتباعه الدهاقين بالبصرة أوّل أمره ، وكانوا مشاة عراة أقدامهم عراض غلاظ وقد أشار إلى هذا المعنى عليه السلام بقوله : (يثيرون الأرض بأقدامهم) وكناية عن شدّة وطئهم الأرض بأقدامهم الغليظة .

وبالجملة قد ختم سبحانه هذه السورة بخاتمة شريفة جامعة لكلّ المطالب العالية حيث خصّ ذاته الشريفة بعلم الغيب حيث لا يشاركه موجود ، وحقيقة ذات الإله و كنه ربوبيّته غير معلومة للبشر البتّة ، وإنّما المعلوم للبشر والأمر القابل لعلم البشر صفاته سبحانه وصفاته قسمان : صفات الجلال وصفات الإكرام .

أمّا صفات الجلال فهي سلوب كقولك : ليس بجوهر ولا جسم ولا مرئيّ ولا متحيّز وأمثاله وهذه السلوب في الحقيقة ليست صفات الكمال ؛ لأنّ السلوب عدم والعدم المحض و النفي الصرف لا كمال فيه فقولنا : « لا تأخذه سنة ولا نوم » أفاد الكمال لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرّأ عن التغيير ، ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدلّ على كمال

---

(١) من كبار اصحاب الفتن في العهد العباسي وفتنته معروفة بفتنة الزنج لان اكثر انصاره منهم ظهر في ايام المهتدي العباسي سنة ٢٥٥ هـ ، والتف حوله سودان اهل البصرة فامتلك البصرة والابلة وتتابعت لقتاله الجيوش فكان يظهر عليها و يشتتها . ونزل البطائح وامتلك الاهواز و اغار على واسط وعجز عن قتاله الخلفاء حتى ظفر به الموفق بالله في ايام المعتمد فقتله وبعث براسه الى بغداد سنة ٢٧٠ هـ .

وكان يرى راى الازارقة من الخوارج . وفي نسبه طعن كما ذكره المصنف قدس سره و المشهور في اسمه : علي بن محمد العلوي . فوات الوفيات ج ٢ : ٨٣ .

أصلاً ألا ترى أنّ الميّت والجماد لايأخذه سنة ولا نوم ؟ ولكن قوله : «و هو يطعم و لا يطعم [1]» يفيد الجلال والكبرياء لكونه يفيد أنّه واجب الوجود غنيّ لذاته عن احتياج الطعـام .

فتحقّق أنّ صفات العزّ والكمال والعلوّ هي الصفات الثبوتيّة ، وأشرفها وأسناها العلم والقدرة فوصف سبحانه ذاته بهما في معرض التعظيم والثناء .

أمّا العلم بقوله :[ولله غيب السماوات والأرض]أى إنّ علمه نافذ في جميع الكلّيات والجزئيات والحاضرات والغائبات .

وأمّا صفة القدرة بقوله : [وإليه يرجع الأمر كلّه] وإنّما يكون كذلك لو كان مصدر الكلّ ومبدأ الكلّ هو هو والّذي مبدأ الكلّ إليه مرجع الكلّ ، وليس هذا إلّا من عظيم القدرة فحينئذ لاتنبغي العبادة إلّا له وتفويض الأمور إلّا إليه .

فأوّل درجات السير إلى الله هو عبوديّة الله وآخرها التفويض إليه والتسليم له فلهذا السبب قال : [فاعبده وتوكّل عليه]وهو لايضيع طاعات المطيعين ولايهمل أحوال المتمرّدين الجاحدين فقال : [وما ربّك بغافل عمّا تعملون] وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة و يحاسبوا على النقير و القطمير و يعاتبوا في الصغير و الكبير ، ثمّ يحصل عاقبة الأمر فريق في الجنّة و فريق في السعير ، فظهر لك أنّ هذه الآية وافية بالإرشاد إلى جميع المطالب العلويّة ، وروي عن كعب الأحبار أنّه قال : خاتمة التوراة خاتمة سورة هود .

تمّت السورة بحمد الله

إلى هنا تمّ الجزء الخامس من الكتاب و هو مشتمل على ١٠٤ آية
من سورة الأعراف و تمام سور الأنفال و
التوبة و يونس وهود . ولله الحمد

---

(١) الانعام : ١٤

١

الجزء السادس

من كتاب التفسير
المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

اعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندي

مدير

دار الكتب الاسلامية

بازار سلطاني - طهران

مطبعة الحيدري بطهران

١٣٣٧ هـ ش

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى نزل القرآن نوراً وسراجاً وقمراً منيراً . والصلاة والسلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بياناً للناس وهدى و موعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ؛ ثانى الثقلين . ولعنة الله على اعدائهم أجمعين .

وبعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً و حديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن وتبيين لغاته ومشكلاته ؛ ففريق فسروا الفاظه وبينوا حقائقه من مجازه وجمع جمعوا احكامه و بينوا حلاله و حرامه ، و طائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه . وكيفما كان ماوصلوا الا الى مبلغ علمهم ومنتهى هممهم ؛وانى لهم الوصول الى حقائق التنزيل و دقائق التأويل ؟ لان القرآن هو النور الذى انزل الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وآله . الا ان المتمسكين بولاء اهل بيت الوحى المستضيئين بنور علمهم المأمورين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قد اغترفوا من بحار علوم أهل بيت النبى غرفاً وغاصوا فيها واقتنوا منها درراً ؛

وها هى «مقتنيات الدرر» قد اقتناها علم من الاعلام ؛ ثمرة الشجرة الطيبة ، والنخبة من السلالة الطاهرة : « الحاج الميرسيد على الحائرى » تغمده الله بغفرانه ، واوتى كتابه هذا بيمينه ، فقداقتنى من الدرر اعلاها و من الغرر اسناها ؛ فحقيق ان يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

وقدوفق الله تلميذه المستضيء بنور علمه ، المقتفى اثره الحاج ميرزا عبد الحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفر الجليل القيم .

هذا ومن الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القعساء واورمة الفضل الحاج محمود الكاشانى ؛ فانعم عليه وشرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين و اتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب الله رمسه . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ونشكر جميل مساعى الشاب الفاضل الاريب السيد كاظم الموسوى المياموى حيث بذل جل اوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل و تخريج الايات المنثورة فى ثناياه واسناد مايهم من رواياته وبعض الاصلاح فيه . ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لاتمامه بمحمد وآله .

محمد الاخوندى

سورة يوسف

مكيّة إلّا أربع آيات نزلن بالمدينة ، ثلاث من أوّلها و الرابعة « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين »

قال اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله : علّموا أرقاءكم سورة يوسف فإنّه أيّما مسلم تلاها وعلّمها ما ملكت يمينه من العبيد هوّن الله عليه سكرات الموت و أعطاه القوّة أن لايحسد مسلماً .

وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ سورة يوسف في كلّ يوم أو في كلّ ليلة بعثه الله يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف ولا يصيبه فزع يوم القيامة و كان من خيار عباد الله الصالحين وقال : إنّها كانت في التوراة مكتوبة .

وروى إسماعيل بن أبي زياد ، عن أبي عبدالله عن أبيه عن آبائه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تنزلوا نساءكم الغرف ولا تعلّموهنّ الكتابة ولا تعلّموهنّ سورة يوسف وعلّموهنّ الغزل وسورة النور وفيها آية الحجاب وهي «قل للمؤمنين يغضّوا ، إلخ» أقول : قم يارسول الله و انظر في تعليمهنّ البال ، و نسخوا آية الحجاب في سورة النور فلعن الله من خالف سنّتك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لمّا ختم قصّة هود من أنباء الرسل افتتح هذه السورة بأنّ من تلك القصص قصّة يوسف .

الر تلك آيات الكتاب المبين(١) انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون(٢) نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القران و ان كنت من قبله لمن الغافلين(٣) .

«قرآناً» بدل عن «الهاء» أو توطئة للحال وهو «عربيّاً» كقولك : مررت بزيد رجلاً صالحاً .

قوله : [الر] قد سبق تفسيره في فواتح السور [تلك آيات] في معنى الإشارة إشارة إلى ما سيأتي من ذكرها على وجه التوقّع لها . و قيل : إشارة إلى السورة أي سورة يوسف آيات الكتاب الظاهر المبين . الثالث أنّ معناه : هذه الآيات الّتي وعدتم بها في التوراة كما قال : « الم ذلك الكتاب » والمبين المظهر للحلال والحرام والبيان هو الدلالة .

[إنّا أنزلناه] يعني القرآن أي أنزلنا هذا الكتاب ، أو أنزلنا قصّة يوسف و خبره لأنّ علماء يهود قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمّداً لمَ انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وسلوه عن كيفيّة قصّة يوسف [قرانا] بلسان العرب ليتمكّنوا من فهمها والمعرفة بها ، والتقدير : إنّا أنزلنا هذا الكتاب الّذي فيه قصّة يوسف الّتي طلبتموها في حال كونه قراناً عربيّاً و «القرآن» اسم جنس يطلق على البعض والكلّ .

واحتجّوا بحدوث الكلام بوجوه بهذه الآية :

الأوّل : قوله : « إنّا أنزلناه » يدلّ على الحدوث فإنّ القديم لا يجوز إنزاله و تحويله من حال إلى حال .

الثاني : وصفه بكونه عربيّاً والقديم لا يكون عربيّاً ولا فارسيّاً .

الثالث أنّه لمّا قال : « إنّا أنزلناه قراناً عربيّاً » دلّ على أنّه كان قادراً على أن ينزله لاعربيّاً و ذلك يدلّ على حدوثه .

الرابع أنّ قوله : «تلك آيات الكتاب» يدلّ على أنّه مركّب من الآيات والكلمات و كلّما كان مركّباً كان محدثاً .

[لعلّكم تعقلون] و كلمة «لعلّ» يجب حملها على الجزم أي أنزلنا لكي تعقلوا معانيه في اُمور الدين وتعلموا أنّه من عندالله إذا كان عربيّاً وقد عجزتم الإتيان بمثله .

[نحن نقصّ عليك] ونبيّن لك أحسن البيان كقولك : قمت أحسن القيام [بما أوحينا] أي بوحينا [إليك هذا القرآن] وإنّما وصف القرآن بأحسن القصص ودخلت الباء لتبيّن القصص ، إذ القصص تكون قرآناً وغير قرآن وهذه القصص بوحي القرآن لأنّه بلغ النهاية في الفصاحة وحسن المعاني وعذوبة اللفظ مع التلازم المنافي للتنافر ، وجميع ما يحتاج إليه العباد إلى يوم القيامة باعذب لفظ وأحسن نظم .

وقيل : المراد بأحسن القصص سورة يوسف وحدها ، و كيف كان وهو أيضاً من القرآن وهل يجوز أن يقال في حقّه : «قاصّاً» لايجوز ؟ لأنّ الأسماء توقيفيّ كما لايجوز أن يقال : معلّم أو مفتي ولأنّ هذه الإطلاقات والاستعمالات في العرف إنّما يقال لمن تمسّك بهذه الطرق على أنّه سوء الأدب و إن وصف نفسه سبحانه بأنّه علّم القرآن و بأنّه يفتيكم في النساء .

قوله : [وإن كنت من قبله لمن الغافلين] أي وما كنت من قبل أن أوحينا إليك هذا القرآن إلّا من الغافلين عن حكم الّتي في القرآن لا تعلم شيئاً منها . أو المعنى من الغافلين عن قصّة يوسف وعن حكم الّتي فيها .

قوله تعالى : اذ قال يوسف لابيه يا ابت انى رايت احد عشر كوكبا و الشمس والقمر رايتهم لى ساجدين (٤) قال يابنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدومبين (٥) و كذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما اتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم(٦).

واذكر [إذقال يوسف] ويجوز أن يكون العامل في « إذ » نقصّ عليك ولكنّ هذا القول ليس بصحيح ؛ لأنّ الله لم يقصّ على نبيّه هذا القصص في وقت قول يوسف . اذكر واسمع هذه القصّة :

[إذقال يوسف لأبيه] يعقوب وهو إسرائيل الله ومعناه عبدالله الخاصّ الخالص ابن إسحاق نبيّ الله ابن إبراهيم خليل الله . في الحديث عن النبيّ ﷺ : إذا سئل عن الكريم فقولوا : الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

[يا أبت] أصله يا أبي أو أصله يا أبتا فحذف الياء أو الألف ولمّا كثرت هذه الكلمة في كلام العرب ألزموها الحذف والقلب ولذا قرىء بفتح التاء وبكسرها .

قال ابن عبّاس : إنّ يوسف عليه السلام رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر أحد عشر كوكباً نزلن من السماء فسجدن له ورأى الشمس والقمر نزلا من السماء فسجدا له قال : فالشمس والقمر أبواه أي أبوه وخالته ؛ لأنّ أمّه راحيل قدماتت . قال وهب : كان يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصاطوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة وإذاً عصا صغيرة تشبّثت عليها حتّى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال له : إيّاك أن تذكر هذه لإخوتك . ثمّ رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة الرؤيا الثاني فقصّها على أبيه فقال له يعقوب : «لاتقصص رؤياك على إخوتك » وقيل : إنّه كان بين رؤياه وبين مصير أبيه و إخوته إلى مصر اربعون سنة ، وقيل : ثمانون سنة . ويقال : إنّ إخوته لمّا بلغهم رؤياه قالوا : ماارضي أن يسجد له إخوته حتّى يسجد له أبواه .

قوله : [فيكيدوا] أي فيحسدوك ويقابلوك بماهو هلاكك ، وذلك أنّ رؤيا الأنبياء وحي وعلم يعقوب أنّ إخوته يعرفون تأويلها ويخافون علوّ يوسف عليهم . [إنّ الشيطان للإنسان عدوّ] ظاهر .

قوله : [وكذلك يجتبيك ربّك] أي كما أراك ربّك هذه الرؤيا تكرمة لك كذلك يصطفيك ويختارك للنبوّة ، وقيل : لحسن الخلق والخلق [ويعلّمك] من تعبير الرؤيا لأنّ فيه أحاديث الناس عن رؤياهم ويتحدّثون الناس مايرون في مناماتهم ، وسمّي تاويلاً لأنّ مايرى الإنسان في المنام يؤول إلى مايعبّر صحيحاً إذاكان التعبير صحيحاً وتكون الرؤيا

بشرائطها ، قال ابن زيد : كان أعبر الناس للرؤيا .

قوله : [ويتمّ نعمته عليك] بالنبوّة لأنّها منتهى النعمة . وقيل : ويتمّ نعمته عليك بأن يحوّج إخوتك إليك حتّى تنعمهم بعد إساءتهم إليك [وعلى آل يعقوب] بأن يثبّتهم على الإسلام ويجعل فيهم النبوّة .

[كما أتمّها] على إبراهيم بالخلّة والنبوّة والنجاة من النار ، وعلى إسحاق بأن فداه بذبح عظيم عن الذبح ، وهذا على قول من قال : إنّ الذبيح إسحاق مثل عكرمة . ولكن أكثر المفسّرين قالوا بإخراج الأنبياء من صلبه مثل يعقوب وأولاده و قالوا : ليس هو الذبيح و إنّما الذبيح إسماعيل عليه السلام [إنّ ربّك عليم] بمن يصلح للرسالة [حكيم] في اختيار الرسل وفي أحكامه .

قوله تعالى : لقد كان في يوسف و اخوته ايات للسائلين (٧) اذ قالوا ليوسف واخوه احب الى ابينا منا ونحن عصبة ان ابانا لفى ضلال مبين (٨) اقتلوا يوسف اواطرحوه ارضا يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين (٩) قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف والقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين (١٠) .

ثم أنشأ سبحانه في ذكر قصّة [لقد كان في] قصّة [يوسف وإخوته] عبر [للسائلين] عنهم وأعاجيب فمنها أنّهم اجتمعوا على إلقائه في البئر للحسد مع أنّهم أولاد الأنبياء فصفح عنهم لمّا مكّنه الله منهم وأحسن إليهم ولم يعيّرهم بما كان منهم ، وفي هذا العمل عبرة لمن اعتبر به ، ومنها الفرج بعد الشدّة و المنحة بعد المحنة ، ومنها الدلالة على صحّة نبوّة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله لأنّه لم يقرء كتاباً فعلم أنّه لم يأته ذلك إلّا من جهة الوحي فهو بصيرة للذين سألوه أن يخبرهم بذلك .

وكان ليعقوب اثنا عشر ولداً لصلبه ، قال الزمخشريّ : أسماء أولاد يعقوب : يوسف يهودا ، روبيل ، شمعون ، لاوي ، زبالون ، يشجر ، دينة ، دان ، نفتالى ، حاد ، اشر . فالسبعة الأوّلون من ليا بنت خالة يعقوب والأربعة الآخرون من سرّيّتين : زلفة وبلهة . ولعلّ بنيامين إسمه في هؤلاء العدد .

والحاصل أنّ إخوة يوسف [قالوا] بعضهم لبعض : [ليوسف] و اللام جواب للقسم أي والله ليوسف وأخوه من أُمّه وأبيه بنيامين [أحبّ إلى أبينا منّا] لأنّه عليه السلام شديد الحسن وكان يعقوب يحبّه كثيراً ويؤثره على أولاده فحسدوه ، ثمّ لمّا سمعوا بالرؤيا اشتدّ حسدهم عليه وقيل : كان يعقوب لصغرهما يقرّ بهما عنده .

وروى أبو حمزة الثمالي عن السجّاد عليه السلام : أنّ يعقوب كان يذبح كلّ يوم كبشاً فيتصدّق به ويأكل هو وعياله منه ، وأنّ سائلاً مؤمناً صوّاماً اعتبر ببابه عشيّة جمعة عند أوان إفطاره ، وكان مجتازاً غريباً فهتف على بابه واستطعمهم وهم يسمعون قوله فلم يصدّقوا فلمّا يئس الفقير وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكى جوعه إلى الله ، وبات طاوياً وأصبح صائماً حامداً لله وبات يعقوب وآل يعقوب بطّاناً وأصبحوا وعندهم فضلة من طعامهم فابتلاه الله بيوسف وأوحى إليه أن استعدّ لبلائي وارض بقضائي ، والصبر للمصائب فرأى يوسف تلك الليلة الرؤيا ، والحديث طويل .

قوله : [ونحن عصبة] أي نحن جماعة يعين بعضنا بعضاً ونحن أنفع لأبينا [إنّ أبانا لفي ضلال] وخطاء من الراي ولايعتدل بيننا في المحبّة ونحن أقوم له بأمور معاشه ومواشيه .

وقال أكثر المفسّرين : إنّ إخوة يوسف كانوا أنبياء وقال بعضهم : لم يكونوا أنبياء لأنّ الأنبياء لايقع منهم القبائح. وقال المرتضى قدس سرّه : لم يقم لنا دليل بأنّ إخوة يوسف الّذين فعلوا مافعلوا كانوا أنبياء ولايمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء غير هولاء الإخوة الّذين فعلوا بيوسف ماقصّه الله عنهم وليس في ظاهر الكتاب أنّ جميع إخوة يوسف وسائر الأسباط فعلوا بيوسف من الكيد . وقال جماعة من مفسّري أهل الجماعة: إنّ هؤلاء الإخوة الّذين فعلوا وهم في ذلك الحال لم يبلغوا الحلم ، وهذا قول البلخيّ والجبّائيّ قالوا : ويدلّ عليه قوله : « نرتع ونلعب» وروى أبو جعفر بن بابويه في كتاب النبوّة باسناده عن ابن سدير قال قلت لأبي جعفر : أكان أولاد يعقوب أنبياء فقال : لاولكنّهم كانوا أسباط أولاد الأنبياء ولم يفارقوا الدنيا إلّا سعداء تابوا وتذكّروا ماصنعوا .

وقال بعض من أهل الجماعة : كانوا رجالاً بالغين ووقعت تلك منهم صغيرة . قال الرازيّ :

وهم أتوا بما يقدح في العصمة والنبوّة إلّا أنّ المعتبر عندنا عصمة الأنبياء في وقت حصول النبوّة وأمّا قبلها فذلك غير واجب .

قوله تعالى : [اقتلوا يوسف] لمّا قوي الحسد وبلغ النهاية قالوا : لابدّ من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لايحصل إلّا بأحد أمور : القتل أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه . ثمّ ذكروا الفائدة من هذا الأمر قالوا : الفائدة : [يخل لكم وجه أبيكم] ويكون بسبب بعد يوسف عن أبيه قربنا منه وإذا فعلنا هذا الفعل القبيح تبنا إلى الله ونصير من الصالحين بعد التوبة .

واختلفوا في أنّ القائل الّذي أمر بالقتل من كان ؟ قيل : أحد إخوته وهو شمعون . وقيل : هو روبيل . وقيل : إنّهم شاوروا أجنبيّاً فأشار عليهم بالقتل و[قال قائل] من الإخوة إمّا روبيل وإمّا يهودا وكان أقدمهم في الرأي والسنّ [لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ] وقرىء غيابات بلفظ الجمع ويجوز لأنّ للجبّ أقطار ونواحي و « الغيابة » كلّ ماغيّب شيئاً وستره فغيابة الجبّ غوره وماغاب منه عن عين الناظر ؛ فاشار إليهم أن ألقوه في قعر الجبّ وغوره وسمّي بالغيابة لغيبته عن عين الناظر ، والجبّ البئر الّتي لم يطو بعد لأنّها أرض جبّت جبّاً من غير أن يزاد على ذلك شيئاً [يلتقطه] ويتناوله [بعض السيّارة] و مارّة الطريق والمسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى .

ثمّ اختلفوا في ذلك الجبّ فقيل : هو بئر بيت المقدس . وقيل : بأرض الأردن . وقيل: بين مدين ومصر. وقيل : على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب [إن كنتم فاعلين] شيئاً ممّا تقولون في يوسف .

قوله تعالى : قالوا يا أبانا مالك لاتامنا على يوسف وانا له لناصحون (١١) ارسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون (١٢) .

المعنى : ثمّ إنّهم عند اتّفاق آرائهم فيما تآمروا فيه من أمر يوسف سألوا أباهم فقالوا : [يا أبانا مالك] لا تثق بنا ولاتعتمدنا في أمر يوسف وإنّا مخلصون في إرادة الخير له ؟ وفي هذه دلالة على أنّه عليه السلام كان يأبى عليهم أن يرسله معهم [أرسله معنا غداً] إلى الصحراء [نرتع ونلعب[١]] وقرىء بالياء أي نذهب ونجيء وننشط ونلهو والرتع هو التردّد

(١) كذا في الاصل .

يميناً وشمالاً ، وأرادوا اللعب المباح وقد روي أنّ كلّ لعب حرام إلّا ثلاثة : لعب الرجل بقوسه وفرسه وأهله [وإنّا] ليوسف [حافظون] .

وقيل : في الآية تقديم وتأخير ، وذلك أنّ إخوة يوسف قالوا : أرسله . فقال أبوهم : « إنّي ليحزنني أن تذهبوا به ، الآية » فحينئذ قالوا : « يا أبانا مالك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون » ولكن إذا صحّ الكلام من غير تقديم وتأخير فلا معنى لحمله عليه .

قال الحسن : جعل يوسف في الجبّ وهو ابن سبع عشرسنة. وقيل : ابن اثنتي عشرسنة. وقيل : ابن سبع سنين أو تسع وكان في البلاء والمشقّة إلى أن وصل إليه أبوه وهو ابن ثمانين سنة ، وقيل : لمّا وصل إليه أبوه كان عمر يوسف أربعين سنة ولبث بعد الاجتماع ثلاث وعشرين سنة ، وقيل : مات وهو ابن مائة وعشرين سنة .

قوله تعالى : قال انى ليحزننى ان تذهبوا به واخاف ان ياكله الذئب وانتم عنه غافلون (١٣) قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون (١٤) فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه فى غيابة الجب واوحينا اليه لتنبئنهم بامرهم هذا وهم لايشعرون (١٥) وجاؤا اباهم عشاء يبكون (١٦) قالوا ياابانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين (١٧) وجاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون (١٨) .

المعنى : لمّا أظهروا النصح و الشفقة على يوسف همّ يعقوب أن يبعثه معهم و حثّهم على حفظه فقال : [إنّي ليحزنني أن تذهبوا به] أي يغمني أن تغيبوه عنّي [وأخاف] عليه إذا ذهبتم به إلى الصحراء [أن يأكله الذئب] في حال كونكم مشغولين عنه ، و كانت أرضهم مذأبة ، وكانت الذئاب ضارية في ذلك الوقت كثيراً .

قيل : إنّ يعقوب رأى في منامه كأنّ يوسف قد شدّ عليه عشر أذؤب ليقتلوه ، وإذا ذئب يحمي عنه ، فكأنّ الأرض انشقّت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلّا بعد ثلاثة أيّام .

روي عن النبيّ ﷺ قال : لاتلقّنوا الكذب أولادكم فيكذبوا ، فإنّ بني يعقوب

لم يعلموا أنّ الذئب يأكل الإنسان حتّى لقّنهم أبوهم ، وهذا يدلّ على أنّ الخصم لا ينبغي أن يلقّن حجّة .

[قالوا لئن أكله الذئب] ونحن جماعة متعاضدون نرى الذئب قدقصده ولانمنعهمنه [إنّا إذاً لخاسرون] و العصبة الجماعة من عشرة فصاعداً و قيل : إنّ معناه إنّا إذاً عجزة ضعفة .

[فلمّا ذهبوا به] وعزموا جميعاً أن يجعلوه في قعر البئر فأخرجوه من البلدمكرماً فلمّا أصحروا أظهروا له العداوة وجعلوا يضربونه وهو يستغيث بواحد واحد منهم فلا يغيثه ، وكان يقول : ياأبتاه ، فهمّوا بقتله فمنعهم يهودا منه ، وقيل : منعهم لاوي ، فانطلقوا إلى الجبّ فجعلوا يدلونه في البئر وهو يتعلّق بشفير البئر ، ثمّ نزعوا قميصه وهو يقول: لا تفعلوا ردّوا عليّ قميصي أتوارى به ، فيقولون : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً يؤنسنك فدلوه في البئر حتّى إذا بلغ نصفها ألقوه أرادوه أن يموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثمّ آوى إلى صخرة فقام عليها وكان يهودا يأتيه بالطعام .

وقيل : إنّ الجبّ أضاء له وعذب ماؤه ، وكان الماء كدراً فصفا ووكّل الله به ملكاً يحرسه ويطعمه ، عن مقاتل . وقيل : إنّ جبرئيل كان يؤنسه .

وقيل : إنّ الله أمر بصخرة حتّى ارتفعت من أسفل البئر فوقع يوسف عليها و هو عريان كما أنّ إبراهيم لمّا ألقي في النار جرّد و هو عريان فأتاه جبرئيل بقميص من حرير الجنّة فألبسه إيّاه فكان ذلك الثوب عند إبراهيم فلمّا مات ورثه إسحاق فلمّا مات إسحاق ورثه يعقوب فلمّا شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذ وعلّقه في عنق يوسف فكان لايفارقه، فلمّا اُلقي في البئر عرياناً جاءه جبرئيل ، و كان عليه ذلك التعويذ فأخرج منه القميص فألبسه إيّاه . روى ذلك مفضّل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال : وهو القميص الّذي وجد يعقوب ريحه لمّا فصلت العير من مصر ، وكان يعقوب بفلسطين فقال : إنّي لأجد ريح يوسف .

وفي الحديث عن مسمع عن الصادق عليه السلام قال : لمّا ألقى إخوة يوسف يوسف في

الجبّ نزل عليه جبرئيل فقال له : ياغلام من طرحك هنا ؟ فقال : إخوتي لمنزلتي من أبي حسدوني ، قال : أتحبّ أن تخرج من هذا الجبّ قال : ذلك إلى إله إبراهيم وإسحاق و يعقوب ، فقال له جبرئيل : فإنّ إله إبراهيم يقول لك : قل : اللهمّ إنّي أسئلك بأنّ لك الحمد لاإله إلّا أنت بديع السماوات والأرض يا ذاالجلال والإكرام أن تصلّي على محمّد و آل محمّد وأن تجعل لي في أمري فرجاً وترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب . فجعل الله له من الجبّ مخرجاً وفرجاً ومن كيد المرأة مخرجاً وآتاه ملك مصر من حيث لم يحتسب .

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره أنّ يوسف قال في الجبّ : يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ارحم ضعفي وقلّة حيلتي وصغري .

قوله تعالى : [وأوحينا إليه] أي أوحينا إلى يوسف في الجبّ قيل : أعطاه النبوّة والبشارة بالنجاة والملك [لتنبّئنّهم بأمرهم هذا] أي لتخبرنّهم بقبيح فعلهم بعد هذا الوقت يريد بقوله : «هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه» [وهم لا يشعرون] أنّك يوسف ولك جلالة الأمر وكان فيما أوحى الله إليه أن اكتم أمرك واصبر على ما أصابك وقيل : معناه لتجازينّهم على فعلهم يقول العرب : حين يتوعّد لأنبّأنّك أي لأجازينّك .

قوله : [وجاؤوا أباهم عشاءً] وانقلب إخوة يوسف إلى أبيهم ليلاً أو في آخر النهار ليلبسوا على أبيهم وإنّما أظهروا البكاء ليوهموا أنّهم صادقون . وفي هذا دلالة على أنّ البكاء لا يوجب صدق دعوى الباكي لأنّه قد يكون البكاء حقيقة ، والمراد من الباكي تمويه الأمر فلمّا سمع يعقوب بكاءهم فقال : ما بالكم [قالوا ياأبانا إنّا ذهبنا نستبق] ونعدوا على الأقدام لننظر أيّنا أعدى وأسبق لصاحبه . وقيل : معناه ننتضّل ونترامى فننظر إلى السهام أيّها أسبق إلى الغرض ؟ [وتركنا يوسف عند متاعنا] وتركناه عند الرحل ليحفظه [فأكله الذئب وما أنت] بمصدّق لنا وجواب «لو» محذوف أي ولو كنّا صادقين ماصدّقتنا .

وجاؤوا ومعهم قميص يوسف ملطّخاً بدم فقالوا له : هذا دم يوسف حين أكله الذئب .

قيل : إنّهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميصه . وقيل : ظبياً ولم يمزّقوا القميص ولم يخطر ببالهم أنّ الذئب إذا أكل إنساناً فإنّه يمزّق ثوبه . وقيل : إنّ يعقوب قال : لهم أروني

القميص فأروه إيّاه فلمّا رأى القميص صحيحاً قال : يابنيّ والله ما عهدت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزّق قميصه .

ورُوي أنّه ألقى ثوب يوسف على وجهه وقال : يا يوسف لقد أكلك ذئب رحيم أكل لحمك ولم يشقّ قميصك ، ومعنى قوله : «بدم كذب» أي مكذوب عليه كماء سكب أي مسكوب ، وصبّ أي مصبوب .

وقيل : إنّه لمّا قال لهم يعقوب ذلك قالوا : بل قتله اللصوص فقال عليه السلام : فكيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله .

قال يعقوب : ولكن زيّنت لكم أنفسكم أمراً في يوسف غير الّذي قلتموه حتّى سهل عليكم ففعلتموه ، وقيل : إنّما ردّ عليهم يعقوب ذلك الجواب بوحي من الله وقيل : بحدس صائب وذهن صادق ، فصبري صبر جميل لاجزع فيه ولا شكوى إلى الناس أو المعنى فصبر جميل أحسن وأولى من الجزع من غير فائدة ، وإنّ البلاء نزل بيعقوب على كبره وبيوسف على صغره بلاذنب كان منهما فأكبّ يعقوب على حزنه وبوسف على رقّه ، وكلّ ذلك بعين الله يرى ويسمع حتّى أتى المخرج وكلّ ذلك امتحان [والله المستعان] على دفع [ماتصفون] وعلى تحمّل المشقّة والصبر ومكث يوسف في البئر ثلاثة أيّام .

وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام و اسروه بضاعة والله عليم بما يعملون (١٩) وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين (٢٠) .

فأخبر الله عن حال يوسف بعد إلقائه في البئر ، جاء جماعة مارّة من قبل مدين يريدون مصر ، فأخطؤوا الطريق فانطلقوا على غير الطريق حتّى نزلوا قريباً من الجبّ وكان الجبّ في قفرة بعيدة من العمران [فأرسلوا واردهم] أي بعثوا من يطلب لهم الماء رجلاً يقال له مالك بن زعر فأرسل دلوه في البئر ليستقي فتعلّق يوسف بالحبل فلمّا خرج إذا هو بغلام من أحسن الغلمان ، قال النبيّ : أُعطي يوسف شطر الحسن و النصف الآخر لسائر الناس .

و قال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلقة أبيض اللون ، غليظ الساقين و العضدين خميص البطن صغير السرّة وكان إذا تبسّم رئيت النور في ضواحكه وإذا تكلّم رئيت في كلامه شعاع النور يلتهب عن ثناياه و كان حسنه كضوء النهار عند الليل ، و كان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله عزّ و جلّ و صوّره ونفخ فيه من روحه ، قبل أن يصيب المعصية و يقال : إنّه ورث الجمال من جدّته سارة وكانت قد أُعطيت سدس الحسن .

و بالجملة فلمّا رأه المدنيّ [قال يا بشرى هذا غلام] وقيل : إنّه نظر في البئر لمّا ثقل الدلو فرأى يوسف فقال : هذا غلام فأخرجوه . وقيل : إنّ «بشرى» رجل من أصحاب المدنيّ ناداه . وأخفى يوسف الّذين وجدوه من رفقائهم و كتموا أمره مخافة أن يطلبوهم الشركة فقالوا : هذا بضاعة لأهل الماء دفعوه إلينا لنبيعه عنهم ، وقيل : معناه وأسرّ إخوته يكتمون أنّه أخوهم فقالوا : هو عبد أبق واختفى منّا في هذا الموضع وقالوا له : لئن قلت : أنا أخوهم فقتلناك ، فتابعهم يوسف على ذلك لئلاّ يقتلوه [والله عليم بما يعملون] أي بعمل إخوة يوسف .

قوله : [وشروه بثمن بخس] أي باعوه بثمن ناقص قليل و قيل : معنى «البخس» الحرام لأنّ ثمن الحرام حرام و سمّي بخساً لأنّه لا بركة فيه وهو منقوص البركة [دراهم معدودة] أي قليلة و ذكر العدد عبارة عن القلّة و كانت الدراهم عشرين درهماً وهو المرويّ عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال : وكانوا عشرة فاقتسموها درهمين درهمين وقيل : كانت اثنين وعشرين درهماً وقيل : أربعين درهماً .

واختلف فيمن باعه فقيل : إنّ إخوة يوسف باعوه و كان يهودا منتبذاً ينظر إلى يوسف فلمّا أخرجوه من البئر أخبر إخوته فأتوا مالكاً وباعوه منه ، وقيل : باعه الواجدون في بلد مصر . وقيل : إنّ السيّارة اشتروه من الّذين أخرجوه من البئر .

[وكانوا فيه من الزاهدين] يعني أنّ الّذين اشتروه كانوا من الزاهدين في شرائه لأنّهم وجدوا علامة الأحرار وأخلاق أهل البرّ فيه فلم يرغبوا فيه مخافة أن يلحقهم تبعة في استعباده .

وقيل : معناه المراد أنّ الّذين باعوه من إخوته ما كان مقصودهم الرغبة في ثمنه بل كان مقصودهم استبعاده وتبعيده عن يعقوب .

قال ابن عبّاس : إنّ إخوة يوسف لمّا طرحوا يوسف في الجبّ ورجعوا عادوا بعد ثلاثة أيّام يتعرّفون خبره فلمّا لم يروه في الجبّ ورأوا آثار السيّارة طلبوهم فلمّا رأوا يوسف قالوا : هذا عبد أبق منّا فقالت السيّارة لإخوة يوسف : بيعوه لنا فباعوه منهم والمراد من « وشروه » أي باعوه منهم لأنّ الضمير في قوله «وشروه» وفي قوله : «وكانوا فيه من الزاهدين» عائد إلى شيء واحد ، و إذا كان كذلك فمعنى «شروه» باعوه . قال محمّد بن إسحاق : ربّك أعلم ءإخوته باعوه أم السيّارة والضمير في قوله : «فيه» يحتمل أن يكون راجعاً إلى يوسف ويمكن أن يكون راجعاً إلى الشمس .

قوله تعالى : وقال الذى اشتره من مصر لامرأته اكرمى مثوله عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ولنعلمه من تاويل الاحاديث والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لايعلمون (٢١).

اعلم أنّه لمّا ثبت من الأخبار أنّ الّذي اشتراه إمّا من الإخوة أو من الواردين على الماء ذهب به إلى مصر ، وباعه بمصر ، فاشتراه قطفير أو أطفير وهو العزيز الّذي كان يلي خزائن مصر والملك حينئذ ريّان بن الوليد رجل من العماليق وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى ؛ فلمّا اشتراه العزيز أقام في منزله ثلاثة عشر سنة ، وكان بلغ عمره ثلاثين سنة واستوزره ريّان بن الوليد وآتاه الله الملك والحكمة وهو عليه السلام ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفّي وهو ابن مائة وعشرين سنة ، وكان فرعون موسى من أولاد قابوس بن مصعب فرعون يوسف .

وبالجملة فاشتراه العزيز بعشرين ديناراً هذا على قول .

وقيل : أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتّى بلغ مايساوي في الوزن من المسك والورق و الحرير فاشتراه قطفير بذلك الثمن فقال [لامرأته] وكانت المرأة اسمها زليخا ـ وقيل : راعيل ـ: [أكرمي] منزله ومقامه عندك وعلّل ذلك بأن قال : [عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً] يقوم بإصلاح مهمّاتنا لأنّه كان لايولد له ولد وكان حصوراً .

قوله : [و كذلك مكّنّا ليوسف في الأرض] أي كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجبّ مكّنّاه بأن عطفنا عليه قلب العزيز حتّى توصّل بذلك وتمكّن من الأمر والنهي في أرض مصر [ولنعلّمه من تأويل الأحاديث] أي نوفّقه لتعبير المنامات الّتي من عمدتها رؤيا الملك وصاحب السجن فأدّى ذلك التعبير إلى الرياسة العظمى ، ويمكن أن يكون المراد إرساله إلى الخلق بتبليغ الأحكام وتحقّق أمر نبوّته [والله غالب على أمره] فعّال لما يريد لا دافع عن حكمه في أرضه وسمائه يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء كناية عن أنّ أمر يوسف إليها ليس بسعي إخوته لأنّهم أرادوا به كلّ سوء والله أراد له الخير فكان كما أراد .

قوله : [ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً و علماً و كذلك نجزي المحسنين] لمّا صبر يوسف على تلك الشدائد والمحن مكّنه الله في الأرض ، ثمّ لمّا بلغ أشدّه ومنتهى شبابه وقوّته آتيناه الحكم والنبوّة والعلم الشريعة وقيل : الدعوة إلى دين الله . وقيل : أراد سبحانه الحكم على الناس والعلم بوجوه المصالح فإنّ النّاس كانوا إذا تحاكموا على العزيز أمره بأن يحكم بينهم لما رأى من عقله وإصابته في الرأي [و كذلك] أي مثل ما جزينا يوسف بصبره نجزي كلّ من أحسن وصبر على الشدائد .

و قال ابن عبّاس : بلاغ الأشدّ ليوسف لمّا بلغ ثلاثاً و ثلاثين سنة . و هذا القول شديد الانطباق على القوانين الطبيعيّة ، و ذلك لأنّ الإنسان يحدث في أوّل الأمر و يتزايد كلّ يوم شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي لغاية الكمال ، ثمّ يأخذ في التراجع و الانتقاص فكانت حالته كالهلال ضعيفاً ، ثمّ لا يزال يزداد إلى أن يصير بدراً تاماً ثمّ يتراجع إلى أن ينتهي إلى العدم والمحاق ، فبين مدّة دور القمر ثمانية وعشرون يوماً وشيء فإذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام كان كلّ قسم منها سبعة أيّام فلا جرم رتّبوا أحوال الأبدان على الأسابيع ؛ فالإنسان إذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب إلى أن يتمّ له سبع سنين ، ثمّ إذا دخل في السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم و الذكاء و لا يزال في الترقّي إلى أن يتمّ له أربع عشر سنة فإذا دخل في السنة الخامسة عشر دخل في الأسبوع الثالث ، و هناك يكمل العقل و يبلغ إلى حدّ التكليف و تتحرّك فيه الشهوة .

ثمّ لايزال يرتقي على هذه الحالة إلى أن يتمّ السنة الحادية والعشرين وهناك يتمّ الأُسبوع الثالث، ويدخل في السنة الثانية والعشرين و هذاالأُسبوع آخرالأسابيع النشو و النماء.

فإذا تمّت الثانية و العشرون فقد تمّت مدّة النشو و النماء و ينتقل الإنسان منه إلى زمان الوقوف و هو الزمان الّذي يبلغ فيه أشدّه وبتمام الأُسبوع الخامس يحصل للإنسان خمسة و ثلاثون سنة ثمّ إنّ هذه المراتب مختلفة في الزيادة والنقصان.

و ههنا تحقيق و هو أنّ المراد بالحكم صيرورة النفس المطمئنّة قاهرة و حاكمة على النفس الأمّارة بالسوء مستعلية عليها و متى صارت القوّة الشهوانيّة مقهورة ضعيفة فاضت الأنوارالقدسيّة والأضواء الإلهيّة من عالم القدس على جوهرالنفس، وجوهرالنفس خلقت قابلة للمعارف الكليّة و الأنوار العقليّة و جواهر الأرواح البشريّة مختلفة منها زكيّة و منها بليدة و منها خيرة و منها نذلة و شريفة وخسيسة و منها عظيمة الميل إلى عالم الروحانيّات و عظيمة الرغبة في الجسمانيّات فهذه الأقسام كثيرة، و كلّ واحد من هذه المقامات قابل للأشدّ و الأضعف و الأكمل و الأنقص فإذا اتّفق بأن كان جوهر النفس الناطقة جوهراً مشرقاً شديد الاستعداد لقبول الأضواء العقليّة واللوائح الإلهيّة فهذه النفس في حال الصغر لا يظهر منها هذه الأحوال لأنّ النفس الناطقة إنّما يقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسديّة الّتي يعبّر بالحكمة العمليّة وهذه الآلات في حال الصغر تكون الرطوبات و الموانع مستولية عليها، فإذا كبر الإنسان و استولت الحرارة الغريزة على البدن نضجت تلك الرطوبات واعتدلت و قلّت الموانع، فصارت تلك الآلات البدنيّة صالحة لأن يستعملها النفس الناطقة فإذا كانت النفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنيّة تكمل معارفها و تقوى أنوارها و إلى هذا الإشارة بقوله: «و لمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً و علماً» و المراد من العلم و الحكم استكمال النفس في قوّتها العمليّة و النظريّة انتهى.

قوله تعالى: وراودته التي هو في بيتها عن نفسه و غلقت الابواب و

قالت هيت لك قال معاذ الله انه ربي احسن مثواي انه لا يفلح الظالمون(٢٣) .

ثمّ أخبر سبحانه عن امرأة العزيز و ما همّت به و طالب يوسف المرأة التي كان يوسف في بيتها عن نفسه و هي راعيل الملقّبة بزليخا أو بالعكس أي طلبت منه أن يواقعها [و غلّقت الأبواب] على نفسها باباً بعد باب ، و كانت سبعة أبواب أو باب الدار و باب البيت [وقالت هيت لك] أي هلمّ لك و أقبل و بادر . و في كلمة هيت لغات أجودها القراءة المعروفة ؛ قال الشاعر :

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا ※ إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

أي أقبل و يقال : فعلى هذا كلمة «هيت» اسم فعل و أمّا على قراءة «هيئت لك» فهو فعل أي تهيئت لك من هاء يهيىء «والمراودة» المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به وهي كناية عمّا تريده النساء من الرجال .

قال يوسف : [معاذالله] أي عياذاً بالله أن أجيب إلى هذا وأظهر الإباء [إنّه ربّي أحسن مثواي] قال أكثر المفسّرين : الضمير راجع إلى زوجها أي إنّ العزيز زوجك مالكي وأحسن تربيتي وإكرامي فلاأخونه . وإنّما سمّاه ربّاً لما كان بحسب الظاهر رقّاً له ، وقيل : الضمير عايد إلى الله أي إنّ الله رفع من محلّي و أحسن مثواي و جعلني نبيّاً فلا أعصيه أبداً [إنّه لا يفلح الظالمون] ولو فعلت لكنت ظالماً و في هذه الآية دلالة على أنّ يوسف لم يهمّ بالفاحشة لأنّ من همّ بقبيح لايقول مثل ذلك .

قوله تعالى : ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين(٢٤) .

إنّ هذه الآية من المهمّات الّتي تجب الاعتناء بالبحث عنها لأنّ بعض من ادّعى العلم فسّر هذه الآية بما لايجوز أن ينسب الأنبياء و الأولياء إلى مثله .

قال المحقّقون من المفسّرين والمتكلّمين كالفخر الرازي : إنّ يوسف كان بريئاً عن العمل الباطل والهمّ الحرام ، وقطع النظر عن الأدلّة الدالّة على وجوب عصمة الأنبياء الّتي قرّرناها في سورة البقرة في قصّة آدم فذكر وجوهاً .

الحجّة الاُولى أنّ الزنا والخيانة في معرض الأمانة وقصدها من منكرات الذنوب

ومقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة العامّة والعار ، غاية في القبح خصوصاً الصبيّ إذا تربّى في حجر إنسان وهو مكفيّ المؤونة مصون العرض من أوّل صباه إلى زمان شبابه و كمال قوّته ، فإقدام مثل هذا الإنسان على مثل هذا القصد السوء من أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم ، ومثل هذا المعصية لو نسبوها إلى أفسق خلق الله وأبعدهم عن كلّ خير لاستنكف منه فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول ﷺ المؤيّد بالمعجزات القاهرة الباهرة ؟

ثمّ إنّه تعالى قال في عين هذه الواقعة : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » وذلك يدلّ على أنّ ماهيّة السوء والفحشاء مصروفة عنه ولاشكّ أنّ هذه النسبة أعظم أنواع السوء وأفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق بربّ العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء مع أنّه ﷺ قد أتى بأعظم أنواع السوء ؟ ولو فرضنا أنّ الآية لا تدلّ على نفي هذه المعصية عنه إلّا أنّه لاشكّ أنّها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ فلا يليق بحكمة الله أن يحكي عن إنسان مقدم على مثل هذا الفعل الشنيع ، ثمّ إنّه تعالى يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك القبيح ، وإنّ ذلك يستنكر جدّاً مثلما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب ، ثمّ يذكره بأبلغ المدح .

على أنّ الأنبياء متى ماصدرت منهم زلّة استعظموا ذلك وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة ، ولو كان يوسف أقدم على مثل هذا الأمر لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها كما في سائر المواضع فحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنّه ماصدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولامعصية .

الدليل الرابع أنّ كلّ من كان له تعلّق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف من المعصية ، والّذين لهم تعلّق بهذه الواقعة يوسف وتلك المرأة و زوجها و النسوة والشهود وربّ العالمين وإبليس والكلّ بيّنوا براءة يوسف ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يبقى للمسلم توقّف في هذا الباب ؟

أمّا بيان أنّ يوسف ادّعى البراءة عن الذنب فهو قوله : « هي راودتني عن نفسي »

وقوله : « ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه » .

وأمّا بيان أنّ المرأة اعترفت بذلك فلأنّها قالت للنسوة : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » وأيضاً « الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين » .

وأمّا بيان أنّ زوج المرأة أقرّ بذلك فهو قوله : « إنّه من كيد كنّ إنّ كيد كنّ عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك » .

وأمّا الشهود فقوله تعالى : « وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين » .

و أمّا شهادة الله بذلك فقوله : « و كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين » .

فقد شهد الله في هذه الآية على طهارته أربع مرّات: أوّلها « لنصرف عنه السوء » واللام للتأكيد والمبالغة . والثاني قوله : « والفحشاء » ، الثالث قوله : « إنّه من عبادنا » مع أنّه قال : « وعباد الرحمن الّذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً [١] » والرابع قوله : « المخلصون » ورد باسم المفعول والفاعل و بالفاعل يدلّ على أنّه آت بالطاعات والمقرّبات بصفة الإخلاص ، و بصيغة المفعول يدلّ على أنّ الله استخلصه لنفسه و اصطفاه لحضرته وعلى المعنيين فإنّه من أدلّ الألفاظ على كونه منزّهاً عمّا أضافوا إليه .

وأمّا بيان إبليس فإنّه قال : « لأغوينّهم أجمعين * إلّا عبادك منهم المخلصين [٢] » فأقرّ بأنّه لا يمكنه إغواء المخلصين ، ويوسف من المخلصين بشهادة الله ؛ فكان هذا إقراراً بأنّ إبليس ما تمكّن من إغوائه .

قال الرازيّ : إنّ هؤلاء الجهّال الّذين نسبوا إلى يوسف هذا الأمر إن كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله على طهارته ، وإن كانوا من جند إبليس وأتباعه فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ، ولقائل أن يقول : إنّهم كانوا من جند إبليس أوّل الأمر إلى أن تتحرّجنا عليه فردّنا عليه في السفاهة .

---

(١) الفرقان : ٦٣ .

(٢) الحجر : ٣٩-٤٠ . ص٨٢-٨٣ .

ولمّا ثبت بهذه الدلائل أنّ يوسف بريء ممّا قاله بعض الجهّال ؛ فنقوم بتفسير الآية :

قيل : إنّه عليه السلام ماهمّ بها والدليل عليه أنّه تعالى قال : « وهمّ بهالو لا أن رأى برهان ربّه» و «همّ» جواب « لولا » ههنا مقدّم كما يقال : قد كنت من الهالكين لولا أنّ فلاناً خلّصك .

وردّ الزجّاج هذا القول وقال : تقديم جواب « لولا » غير فصيح و « لولا » يجاب جوابها باللام فلو كان المعنى على ما ذكرتم لقال : ولقد همّت ولهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه .

وذكر غير الزجّاج بياناً آخر وهو أنّه لولم يوجد الهمّ لما كان لقوله : « لولا أن رأى برهان ربّه » فائدة .

وكلّها مردود بقوله تعالى : « إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها [1] » وجواب « لولا» باللام جائز لا يلزم من كونه بغير اللام غير جائز ، ثمّ تأخير جواب « لولا » حسن جائز لايمنع من جواز تقديم هذا الجواب .

وفي الآية بيان آخر وهو أن يقول : سلّمنا أنّ الهمّ قد حصل لكن لايمكن حمله على ظاهره لأنّ تعليق الهمّ بذات المرأة محال لأنّ الهمّ من جنس القصد والقصد لايتعلّق بالذوات الباقية وإنّما يتعلّق القصد بالفعل حتّى يكون ذلك الفعل متعلّق القصد ، وذلك الفعل غير مذكور فهم أي جندالإبليس زعموا هو إيقاع الفاحشة و نحن نضمر شيئاً آخر يغاير ماذكروه فوجب أن يحمل الهمّ فيهما على الهمّ الّذي يليق به فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذّة والتمتّع فضلاً عن القرائن في الكلام واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصي عن معصيته وإلى النهي عن المنكر ، فهمّ عليه السلام بدفعها وضربها ومنعها .

فلو قيل : على هذه الصورة لايبقى لقوله : « لولا أن رأى برهان ربّه » فائدة .

قلنا : فيه أعظم الفوائد لأنّ يوسف لو فعل ماكان همّ من ضربها أو دفعها لقتلته

---

(١) القصص : ١٠ .

أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله فأعلمه الله أنّ الامتناع من ضربها أولى صوناً للنفس عن الهلاك أو أنّه لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربّما تعلّقت به فكان يتمزّق ثوبه من قدّام ، والله يعلم أنّ الشاهد يشهد بأنّ ثوبه لو تمزّق من قدّام لكان يوسف يحسب هو الخائن ، وكان يقتل بهذه الشهادة ولو كان ثوبه ممزّقاً من خلف لكانت المرأة هي الخائنة كما وقعت القصّة كذلك .

وفي المسألة تحقيق آخر وهو أن يفسّر « الهمّ » بالشهوة و هذا مستعمل في اللغة الشائعة في العرف يقول القائل فيما لايشتهيه : «مايهمّني هذا» و فيما يشتهيه : «هذا أهمّ الأشياء إليّ » فسمّى الله شهوة يوسف همّاً . معنى الآية : ولقد اشتهته و اشتهاها لولا أن رأى برهان ربّه لدخل ذلك الميل إلى الوجود .

أو معنى « الهمّ » حديث النفس ؛ و ذلك لأنّ المرأة الفائقة في الجمال إذا تزيّنت وتهيّأت للرجل الشابّ القويّ فلابدّ وأن يقع هناك بين شهوة الطبيعة وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات تارة تقوى داعية الشهوة والطبيعة و تارة تقوى داعية العقل والحكمة ، فالهمّ عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبوديّة والتقوى ، مثال ذلك أنّ الرجل الصالح الصائم في الصيف الصائف إذا رأى الجلّاب المبرّد بالثلج فإنّ طبيعته تحمله وتميله على شربه إلّا أنّ دينه وهداه يمنعانه منه فهذا لايدلّ على حصول الذنب بل كلّما كانت هذه الحالة أشدّ كانت القوّة في القيام بلوازم العبوديّة أكمل .

وبالجملة فالمحقّقون المثبتون للعصمة قد فسّروا رؤية البرهان بوجوه :

الاول حجّة الله في تحريم الزنى والعلم بما على الزاني من العقاب .

والثاني طهر نفوس الأنبياء عن الأخلاق الذميمة فالمراد برؤية البرهان حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الإقدام على المنكرات .

والثالث أنّه رأى مكتوباً في السقف « لاتقربوا الزنى إنّه كان فاحشة وساء سبيلاً »[1].

(١) الاسراء : ٣٢ .

والرابع أنّه النبوّة المانعة من ارتكاب الفواحش لأنّ الأنبياء بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح فلو أنّهم منعوا ثمّ أقدموا بأنفسهم على أقبح أنواعها لدخلوا تحت قوله : «يا أيّها الّذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون»(١) وأيضاً إنّ الله عيّر اليهود بقوله : «أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم»(٢) وما يكون عيباً في حقّ اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيّد بالمعجزات ؟

وأمّا الّذين نسبوا المعصية إلى الرسول يوسف عليه السلام ـ أجارنا الله من هذه العقيدة الفاسدة ـ فقد ذكروا في تفسير البرهان اُموراً :

الاول : قالوا : إنّ المرأة قامت إلى صنم مكلّل بالدرّ والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف : لم فعلت ذلك ؟ قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني على معصيته . فقال يوسف : أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحي من إلهي القائم على كلّ نفس بما كسبت ؟ فوالله لا أفعل ذلك أبداً قالوا : فهذا هو البرهان .

الثاني : نقلوا عن ابن عبّاس : أنّه تمثّل له يعقوب فرآه عاضّاً على أصابعه ويقول له : أتعمل عمل الفجّار وأنت مكتوب في زمرة الأنبياء ؟ فاستحيى منه ، وهو قول عكرمة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والضحّاك ومقاتل وابن سيرين ؛ قال سعيد بن جبير : تمثّل له يعقوب فضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامله .

الثالث : قالوا : إنّه سمع في الهواء قائلاً يقول : يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فإذا زنى ذهب ريشه .

قال الرازيّ : ولمّا نقل الواحديّ في البسيط هذه البيانات تصلّف وقال : هذا الّذي ذكرناه قول أئمّة التفسير الّذين أخذوا التأويل عمّن شاهد التنزيل . فيقال له : إنّك لا تأتينا إلّا بهذه التصلّفات الّتي لا فائدة فيها فأين هذا من الحجّة والدليل ؟ وأيضاً فإنّ ترادف الدلائل على الشيء الواحد جائز وإنّه عليه السلام كان ممتنعاً عن الزنى بحسب الدلائل الأصليّة ، فلمّا انضاف إليها هذه الزواجر قوي الاحتراز عن مثل هذه الأقوال .

---

(١) الصف : ٢-٣ .
(٢) البقرة : ٤٤ .

والعجب أنّهم نقلوا أنّ جرواً [1] دخل حجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم وبقي هناك بغير علمه قالوا : فامتنع جبرئيل عليه السلام من الدخول عليه صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً ، وههنا زعموا أنّ يوسف حال اشتغاله بالفاحشة ذهب إليه جبرئيل ، فالأعجب أنّهم زعموا أنّه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبرئيل مع أنّه لو كان أفسق الخلق مشتغلاً بفاحشة فإذا دخل عليه رجل في زيّ الصالحين استحيى منه وفرّ وترك ذلك العمل ، وههنا أنّه رأى يعقوب عليه السلام وعضّ على أنامله ولم يلتفت إليه ثمّ إنّ جبرئيل على جلالة قدره دخل عليه ، ولم يمتنع أيضاً بسبب حضوره حتّى احتاج جبرئيل إلى أن يركضه على ظهره ـ فنسأل الله أن يصوننا عن الغيّ ـ انتهى كلامه .

والفرق بين السوء والفحشاء قيل : إنّ السوء خيانة اليد والفحشاء هو الزنى أو أنّ السوء مقدّمات الفاحشة كالقبلة و النظر بالشهوة ، والفحشاء هو الزنى [إنّه من عبادنا المخلصين] .

قوله تعالى : واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ماجزاء من اراد باهلك سوءا الا ان يسجن او عذاب اليم (٢٥) قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من اهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (٢٧) فلما رای قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم (٢٨) يوسف اعرض عن هذا واستغفری لذنبك انك كنت من الخاطئين (٢٩) .

المعنى : تبادرا إلى الباب وطلب كلّ واحد منهما السبق إلى الباب أمّا يوسف فإنّه كان بقصد أن يهرب منها وأمّا هي فإنّما كانت تطلب يوسف ليقضي حاجتها وتمنع يوسف من الخروج ، وتراوده ثانياً عن نفسه ولحقت يوسف فجذبت قميصه فهرب يوسف وشقّته طولاً من خلفه و هي تعدو من خلفه . قيل : إنّ يوسف رأى الأبواب قد انفتحت فعلم أنّ الصواب الخروج فلمّا خرجا وجدا زوجها عند الباب ، وسمّاه سيّدها لأنّه مالك أمرها .

---

(١) ولد الكلب .

[قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً] يعني أنّ المرأة سبقت بالكلام لتورك الذنب على يوسف فقالت : ليس جزاء من أراد بأهلك خيانة إلّا السجن أو الضرب بالسياط ضرباً وجيعاً .

قال المحقّقون : ولو صدق حبّها لم تقل ذلك ولآثرته على نفسها ولكن كان حبّها له شهوة .

فقال يوسف : هي الّتي طالبتني بالسوء لأنّه عليه السلام لم يجد بدّاً من تنزيه نفسه بالصدق [و شهد شاهد من أهلها] وكان صبيّ في المهد ابن اُخت زليخا و هو ابن ثلاثة أشهر ، وقيل : إنّه شهد شاهد أي كان هناك رجل حكيم من أهلها بتبرئة يوسف قالوا : ولوكان طفلاً لكان قوله معجزاً لايحتاج معه إلى البيان . وقيل : إنّ ذلك الرجل الحكيم ابن عمّ زليخا وكان جالساً مع زوجها عند الباب .

ثمّ في هذا الأمر شواهد على براءة ساحة يوسف عن السوء غير شواهد المذكورة : منها أنّ يوسف عليه السلام في ظاهر الأمر كان عبداً لهم والعبد لايمكنه أن يتسلّط على مولاه إلى هذا الحدّ .

ومنها أنّهم شاهدوا أنّ يوسف عليه السلام كان يعدو عدواً شديداً ليخرج إلى الباب والرجل الطالب للمرأة لايخرج من البيت على هذا الوجه بل يمنع طرفه عن الخروج .

ومنها أنّهم رأوا أنّ المرأة تزيّنت نفسها على أكمل الوجوه وأمّا يوسف فماكان عليه أثر من آثار تزيين النفس فإلحاق هذا الأمر ونسبته إلى المرأة أولى .

ومنها أنّ المرأة مانسبه إلى الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاماً مجملاً مبهماً ، وأمّا يوسف عليه السلام فإنّه صرّح بالأمر ولو كان متّهماً لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فإنّ الخائن خائف .

ومنها أنّ زوج المرأة كان عاجزاً وآثار طلب الشهوة في حقّ المرأة كانت متكاملة ، فإلحاق هذا الأمر بها أولى ، وهذه كلّها أمارات دالّة على صدق يوسف .

وبالجملة فعلى قول أنّ الشاهد كان لها ابن عمّ لها اتّفق في ذلك الوقت أنّه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال : قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشقّ القميص إلّا أنّا

لاندري أيكما قدّام صاحبه ، فإن كان شقّ القميص من قدّامه فأنت صادقة ويوسف كاذب وإن كان من خلفه فيوسف صادق وأنت كاذبة . وقد أفتى بحكمته وعقله ، ونعم ماأفتى ! فلمّا نظروا إلى القميص ورأوا الشقّ من خلفه ، قال ابن عمّها « إنّه من كيد كنّ » أي من عملكنّ ثمّ قال ليوسف : أعرض عن هذا الأمر واكتمه ، وقال لها : «استغفري لذنبك» . وهذا قول طائفة عظيمة من المفسّرين .

وقيل : إنّ الشاهد كان صبيّاً كما ذكرناه أنطقه الله كما أنطق عيسى في المهد .

وههنا قول ثالث بأنّ الشاهد من أهلها المراد شهادة القميص كونه مشقوقاً من دبره ، وهذا القول لايخلو من الضعف ؛ لأنّ إطلاق الشاهد على القميص تعسّف ولا ينسب إلى الأهل .

وقوله : [يوسف أعرض] قيل : إنّه قال العزيز وقيل : قال الشاهد وأمر يوسف بكتمان هذا الأمر للعار الشديد وأمر الزوجة بطلب العفو والصفح عن العزيز . وقيل : من الله لأنّهم و إن كانوا عابدي أصنام ولكنّهم يثبتون الصانع بدليل أنّ يوسف قال : « ءأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهّار [(١)] » ويمكن على هذا أن القائل الزوج .

قوله : [إنّك كنت من الخاطئين] وهذا دليل على أنّ الزوج عرف أنّ الذنب للمرأة وأتى بلفظ التذكير تغليباً للذكور على الإناث ، ويحتمل أن يكون مراده أنّك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل يرى هذا العرق الخبيث فيك .

قوله تعالى : وقال نسوة في المدينة امرات العزيز تراود فتيها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنريها في ضلال مبين (٣٠) فلما سمعت بمكرهن ارسلت اليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما راينه اكبرنه و قطعن ايديهن وقلن حاش لله ماهذا بشرا ان هذا الاملك كريم (٣١) .

«النسوة» اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقيّ فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث

---

(١) السورة : ٣٩ .

كما أنّ «الثبه» اسم لجماعة من الرجال .

المعنى : [قال نسوة] جماعة من النساء أشعن [في المدينة] أي مدينة مصر هذا الخبر أو المعنى أنّ نسوة من أهل المدينة هكذا قالت ـ و كنّ خمساً: امرأة الساقي وامرأة الخبّاز وامرأة صاحب الدوابّ وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب ـ: إنّ [امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبّاً] أي دخل حبّ الفتى الجلد المحيط بالقلب وتجاوز من الجلد و نفذ في القلب بل في حبّة سويداء قلبها ، وهو كناية عن الحبّ الشديد والعشق العظيم ، وقرىء بالعين المهملة أي بلغ إلى حدّ الاحتراق ؛ قال ابن الأنباريّ : الشعف رؤوس الجبال أي ارتفعه حبّه إلى أعلى المواضع من قلبه . و«حبّاً» مصدر على التميز .

[فلمّا سمعت] زليخا [مكرهنّ] أي بمقالتهنّ هذه و إنّما سمّيت المقالة بالمكر لأنّ قصدهنّ من هذه المقالة الخدعة مستدعيات لرؤية يوسف والنظر إلى وجهه لأنّهنّ علمن أنّهنّ إذا قلن هذا الكلام ، وسمعت زليخا تعرّض يوسف عليهنّ ليتمهّد عذرها في حبّه عندهنّ ، أو أنّ زليخا أسرّهن بحبّ يوسف وطلبت منهنّ كتمان هذا السرّ ، فلمّا أظهرن كان ذلك مكراً وغدراً منهنّ ، ولمّا سمعت أنّهنّ يلمنها على تلك المحبّة المفرطة أرادت إبداء عذرها فاتّخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهنّ .

[وأعتدت لهنّ متّكأً] قيل : المتّكأ النمرق الّذي يتّكأ عليه . وقيل : المراد من المتّكأ الطعام والأصل فيه أنّ من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة فسمّي الطعام متّكأً على الاستعارة . وقيل : متّكأ طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكّين لأنّ الطعام متى كان كذلك احتاج الإنسان إلى أن يتّكيء عليه عند القطع . وقيل : متّكا بغير الهمزة مشدّدة التاء أي أنواع الفواكه المحتاجة إلى القطع والأترج . وقرء «متكا» خفيفة ساكنة التاء . وحاصل ذلك أنّها دعت اُولئك النسوة الخمسة مع نساء اُخر يبلغ عددهنّ إلى الأربعين وهيّأت لكلّ واحدة منهنّ مجلساً معيّناً ومائدة معيّنة .

[وآتت كلّ واحدة منهنّ سكّيناً] لأجل أكل الفاكهة أو قطع اللحم ، فأمرت يوسف بأن يخرج إليهنّ وأنّه عليه السلام لايقدر أن يخالفها لأنّها سيّدتها .

[فلمّا رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ] وفي «أكبرنه» قيل : أي أعظمنه . وقيل :

أي حضن؛ قال الأزهري : الهاء للسكت و أكبرت المرأة إذا حاضت وحقيقته : دخلت في الكبر لأنّها بالحيض تخرج عن حدّ الصغر إلى حدّ الكبر ، والسبب فيه أنّ المرأة إذا خافت و فزعت أو وقع عليها أمر شديد ، ربّما أسقطت ولدها إن كانت حبلى أو تحيض .

[وقطّعن أيديهن] من دهشتهن فكانت تظنّ أنّها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يدها ولاتحسّ ، وإنّما أكبرنه للجمال الفائق ، والحسن الكامل ، وكان فضل يوسف على الناس كفضل البدر على الكواكب . وعن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : مررت بيوسف ليلة عرج بي إلى السماء فقلت لجبرئيل : من هذا ؟ فقال : هذا يوسف . فسئل عنه صلى الله عليه وآله : كيف رأيته ؟ قال: كالقمر ليلة البدر . وقيل : كان يوسف إذا سار في أزقّة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها ، وكان يشبه آدم يوم خلقه ربّه .

قوله : [حاشا لله] بإثبات الألف بعد الشين وهي الأصل لأنّ المادّة من المحاشاة وهي التنحية والتبعيد ، والأكثر قرؤوا بحذف الألف للتخفيف وهي كلمة تفيد التنزيه و المعنى ههنا تنزيه الله من العجز حيث قدر على خلق جميل مثله .

قوله : [ماهذا بشراً إن هذا إلّا ملك كريم] لأنّه ركز في الطباع أن لاحيّ أحسن من الملك كما أنّه ركز فيها أن لاحيّ أقبح من الشيطان فلمّا أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف بالحسن لاجرم شبّهنه بالملك ، ويمكن أنّه لمّا نظرن إلى يوسف وسيماه وأنّه لم يلتفت إليهنّ عرفن أنّه بريء من القبائح والشهوة فنزّهنه عن لوث البشريّة وصفة الإنسانيّة ونسبنه إلى الملكيّة صوناً له عن الخطاء .

وبالجملة فقال بعض المفسّرين : إنّهنّ قلن : «حاش لله» أي صار يوسف في حشى وناحية ممّا قذفوه بهذه النسبة فحينئذ نزّهنه عن صفة البشريّة خلقاً أي نعوذ بالله أن نقول : هذا بشر ، بل إنّما هو ملك . وقال آخرون : هذا تنزيه له من شبه البشر لفرط جماله ، و يدلّ على هذا المعنى سياق الآية «ما هذا بشراً » أي ليس هذه الصورة صورة البشر و لا خلقته ، ولكن ملك كريم لحسنه ولطافته .

قوله تعالى : قالت فذلكن الذى لمتننى فيه و لقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين (٣٢) .

المعنى : [قالت] امرأة العزيز للنسوة اللاتي عذلنها على محبّتها يوسف : هذا هو ذلك [الّذي لمتنّني فيه] فأصابكنّ في رؤيته مرّة واحدة ما أصابكنّ من ذهاب العقل و قطع الأيدي ، أي جرح كثير في أيديكنّ ، فكيف عذلتنّني في حبّي إيّاه ؟ و أنا أنظر إليه آناء ليلي ونهاري . والفاء في قوله «فذلكنّ» فاء فصيحة و الإشارة إلى يوسف و الخطاب للنسوة ، واسم الإشارة مبتدأ والموصول خبر أو اسم الإشارة خبر لمبتدء محذوف أي هو العبد الكنعانيّ الّذي سبق القول منكنّ أنّ امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانيّ وقلتنّ فيه وفيّ ما قلتنّ فالآن علمتنّ من هو ؟ وما قلتنّ ؟ والمراد تبكيتهنّ من هذه الدعوة من اللوم على ماصدر منهنّ ، والحقّ أنّها فعلت من التبكيت بما لامزيد عليه .

قال ابن الأنباريّ : أشارت بصيغة ذلك إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس. ثمّ إنّها بعد هذه المقولات والإشفاقات باحت لهنّ ببقيّة سرّها فأقرّت وقالت : [و لقد راودته عن نفسه] حسبما سمعتنّ وقلتنّ [فاستعصم] أي امتنع طالباً للعصمة .

وفي هذا الكلام دلالة على عصمة يوسف وأنّه عليه السلام بريء من هذه التهمة [ولئن لم يفعل] فهدّدته بقولها: ولو لم يفعل [ما آمره] ويوافقني مرادي [ليسجننّ] ويقع في السجن [وليكوناً] من المستصغرين بالإهانة ومن الأذلّاء . والألف في «ليكونا» ألف الوقف بدل من نون الخفيفة كقوله : « و لا تعبد الشيطان و الله فاعبدا » أي فاعبدن فأُبدل في الوقف النون ألفاً .

قوله تعالى : قال رب السجن احب الى مما يدعوننى اليه و الا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين (٣٣) فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم (٣٤) .

المعنى : لمّا هدّدته امرأة العزيز بقولها المذكور وسمعت النسوة اجتمعن على يوسف وقلن: لامصلحة لك في مخالفة أمرها وإلّا وقعت في السجن وفي الهوان . فخاف يوسف على نفسه من هذه الأسباب القويّة من مكر النساء والطاقة البشريّة أن لاتفي قوّة العصمة

التجأ إلى الله وقال :

يا [ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني] وتبيّن من هذا الكلام أنّ النسوة كنّ يدعون يوسف لأنفسهنّ كما تدعو زليخا فحينئذ قال : إلهي إن لم توفّقني لحفظ نفسي عن هذه المعصية أخاف من هذه الأسباب القويّة أن أميل إلى هذا الأمر وأنقلب من الجاهلين العاصين . لأنّه اجتمع له جميع أسباب المعصية والمقتضيات لهذا العمل من الخوف على نفسه والطمع من المال ما لا يحصى والجاه والتمتّع بالمنكوح والمأكول واللذائذ بأجمعها وذلك كلّه موجبات وقوع الفعل . والصبوة لطافة الهوى والميل ، فأجاب له ربّه فيما دعا فعصمه من مكرهنّ .

فإن قيل : ما معنى سؤال يوسف اللطف من الله و هو عالم بأنّ الله يفعله لا محالة ؟

فالجواب أنّه يجوز أن يتعلّق المصلحة بالإلطاف عند الدعاء[1] المجدّد و يستحبّ أن يسأل العبد من ربّه لطفاً والعبد ولو علم أنّ في سؤاله لطف عند الدعاء . إنّه سميع الدعاء ، العليم بإخلاص العبد عند الدعاء .

قوله تعالى : ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين (٣٥) .

ثمّ بعد هذه الوقايع ظهر لهم وبنوا ، وإنّما لم يقل : لهنّ ، مع تقدّم ذكر النسوة لأنّه أراد به الملك وزليخا وأعوانها فغلّب المذكّر ، والمراد بالآيات العلامات الدالّة على براءة يوسف من قدّ القميص وجزّ الأيدي وإقرار زليخا عند النسوة وأمثالها . فبدا لهم أن يسجنوه ، و ذلك أنّ المرأة قالت لزوجها : إن هذا العبد قد فضحني في الناس من حيث إنّه يخبرهم أنّي راودته عن نفسه ولست أطيق أن اعتذر بعذري فإمّا أن تأذن لي فأخرج وأعتذر وإمّا أن تحبسه كما حبستني ، فحبسه بعد علمه ببراءته وكان الغرض من حبسه أن يعلم للناس أنّ الذنب كان له لأنّه إنّما يحبس المجرم وإنّما اقترحت زليخا منه الحبس لأنّ المحبس كان قريباً منها فأرادت أن يكون بقربها حتّى تراه .

و [حتّى حين] أي إلى سبع سنين أو خمس حتّى ينسى حديث الواقعة وتنقطع الخبر

(١) كذا في الاصل .

بالاندراس . وهذه حيلة من العزيز للإقطاع والإنقراض بهذا الحديث و حيلة من زليخا لسبيل الوصول إلى يوسف . وقوله : «ليسجننه» أقيم الفعل مقام الاسم أي بدا لهم السجن ، وإلّا جعل الفعل مخبراً عنه لايجوز وهذا مبحث عميق ليس هنا موضع ذكره . والحين اسم لوقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه والطويل . وحبسوه وحذف ذلك . لدلالة قوله : «ودخل معه السجن فتيان» .

قوله تعالى : ودخل معه السجن فتيان قال احدهما انى ارانى اعصر خمرا وقال الاخر انى ارانى احمل فوق راسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين (٣٦) قال لاياتيكما طعام ترزقانه الانبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما ذلكما مماعلمنى ربى انى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالاخرة هم كافرون (٣٧) واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق و يعقوب ماكان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لايشكرون (٣٨) .

المعنى: في الحديث : لايقولنّ أحدكم: عبدي وأمتي، ولكن: فتاي وفتاتي والمملوك يسمّونه فتى . وسجن يوسف وسجن معه شابّان حدثان ، وقيل : مملوكان لملك مصر الأكبر واسم الملك وليد بن ريّان وكان أحدهما صاحب شرابه والآخر طعامه فنمي إلى الملك أنّ صاحب طعامه يريد أن يسمّه وظن أنّ الآخر ساعده على ذلك قال أحدهما ليوسف : إنّي رأيت في النوم ـ و هو الساقي ـ رأيت أصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وعصرتها في كأس الملك و سقيته إيّاها و تقديره : أعصر عنب خمر أي العنب الّذي يكون عصيره خمراً ، تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه إذا وضح المعنى ، ولم يلتبس؛ يقولون : فلان يطبخ الآجرّ ويطبخ الدبس ، وإنّما يطبخ اللبن والعصير . حكى الأصمعي أنّه لقي أعرابيّاً معه عنب فقال له : ما معك ؟ قال : خمر . فيكون معناه: أعصر عنباً . وقال صاحب الطعام : إنّي رأيت كان فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنتهش منه .

[نبّئنا بتأويله] وأخبرنا بتعبيره ، والتأويل ما يؤول ويرجع إليه المعنى والأمر ، والتعليم تفهيم الدلالة المؤدّية إلى العلم [إنّا نراك من المحسنين] وتؤثر الأفعال الجميلة.

وهو كان عليه السلام في الحبس جميل الأخلاق لأنّه إذا ضاق على رجل مكانه وسّع عليه وإذا احتاج جمع له وإن مرض قام عليه ، ويعين المظلوم وينصر الضعيف ، وقيل : من المحسنين أي ممّن يحسن تأويل الرؤيا وإنّه لمّا دخل السجن أخبر بأنّي عالم في تأويل الرؤيا .

فائدة : لو قيل : ما حقيقة علم التعبير ؟ الجواب : القرآن والبرهان يدلّان على صحّته أمّا القرآن فهو هذه الآية وأمّا البرهان فهو أنّه قد ثبت أنّ جوهر النفس الناطقة خلقه سبحانه بحيث يمكنها الصعود إلى عالم الأفلاك ومطالعة اللوح المحفوظ والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن ، وفي وقت النوم يقلّ هذا التشاغل فيقوى على هذه المطالعة والقوّة فإذا وقعت الروح على حالة من الأحوال تركت آثار مخصوصة مناسبة لذلك الإدراك الروحانيّ إلى عالم الخيال ، فالمعبّر يستدلّ بتلك الآثار الخياليّة على تلك الإدراكات العقليّة ، انتهى .

[قال لا يأتيكما طعام] اعلم أنّ هذا البيان الّذي أجاب يوسف عليه السلام ليس بجواب لما سألا عنه فلمّا كان هنا مطلب أهمّ من تعبير الرؤيا أعرض عن التعبير وبيّن ذلك المطلب ثمّ عبّر رؤياهم وذلك الأهمّ هو أنّه لمّا علم بعلم النبوّة أنّ أحدهما يصلب وهو على الكفر ادّعى الحقيّة والنبوّة والإرشاد في الدين لعلّهم يؤمنون بالله فلاجرم اجتهد في أن يدخله في الإسلام حتّى لا يموت على الكفر وليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة ، فقال عليه السلام : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلّا أخبرتكما أيّ طعام وأيّ لون هو ؟ وكم هو وكيف هو يكون عاقبته ؟ وقيل : كان الملك إذا أراد أن يقتل إنساناً صنع له طعاماً مسموماً فأرسله إليه فقال يوسف : لا يأتيكما طعام إلّا أخبرتكما ، وادّعى عليه السلام علماً غير عاديّ من قبيل المعجزة والغيب وهو يجري مجرى قول عيسى عليه السلام : حيث قال : « وأُنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم »(١) وليس ذلك هذا العلم من قبيل الكهانة والنجامة ، وإنّما أخبرتكما بوحي وعلم حصل بتعليم الله .

ثمّ قال : [إنّي تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله] فأظهر عليه السلام أنّه ليس على دينهم ولعلّه إلى ذلك الوقت ما كان يظهر نبوّته أو إيمانه خوفاً منهم على سبيل التقيّة لأنّه كان

---

(١) آل عمران : ٤٩ .

مملو كالهم ، وتقديم لفظ «هم» للاختصاص لهم بالكفر والتكرار للتأكيد والجهة غير التأكيد؛ لأنّه لمّا دخل بينهما قوله « بالآخرة » صارت الأولى كالملغاة وصار الاعتماد على الثانية كما قال سبحانه : «أيعدكم أنّكم إذا متّم و كنتم تراباً و عظاماً أنّكم مخرجون »(١).

وبالجملة من تأمّل في القرآن المجيد و تفكّر في كيفيّة دعوة الأنبياء علم من إرسال الرسل وإنزال صرف الخلق إلى الإقرار بالتوحيد و المبدء و المعاد و أنّ ما وراء ذلك عبث .

ثمّ قال : [واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب] فبيّن عليه السلام أنّه من أهل بيت النبوّة وجدّه وآباؤه كانوا أنبياء الله ورسله لأنّهم متى ما عرفوه عظّموه ووقّروا كلامه ويكون أقرب للقبول [ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء] لأنّهم كانوا مختلفون في الشرك: فمنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يعبد النار، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة ؛ فردّ عليه السلام على كلّ هؤلاء الفرق .

و[ذلك] التوحيد والتوفيق لنا معاشر الأنبياء والمؤمنين [من فضل الله علينا و على الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون] الله هذه النعمة .

قوله تعالى : يا صاحبى السجن ءأرباب متفرقون خيرام الله الواحد القهار (٣٩) ماتعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وءاباؤكم ما انزل بها من سلطان ان الحكم الا لله امران لاتعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون (٤٠) .

يريد يا صاحبيّ في السجن ، وهذا نداء يوسف للمستفتيين له عن تأويل رؤياهما يا ملازمي السجن [ءأرباب] وأملاك متباينون من حجر وخشب وحيوان لاتضرّ ولاتنفع [خير] لمن عبدها [أم الله الواحد القهّار] الضارّ النافع ؟ لأنّه عليه السلام لمّا ادّعى النبوّة في الآية السابقة وكان إثبات النبوّة مبنيّاً على إثبات الإلهيّات فحينئذ شرع في تقرير الإلهيّات .

ولمّا كان أكثر الخلق مقرّين بوجود الإله العالم القادر ، وإنّما الشكّ في جعل

---

(١) المؤمنون : ٣٥ .

الشريك في العبادة و كانوا يتخذون أصناماً على صورة الأرواح الفلكيّة و يعبدونها و يتوقّعون حصول النفع والضرّ منها ولذا كان أكثر الأنبياء سعيهم في المنع عن عبادة الأوثان ،فاحتجّ عليه السلام بالحجج فذكر :

الأولى : قوله : « «أرباب متفرّقون خير» وقد سبق بيانه .

الحجّة الثانية أنّ هذه الأصنام معمولة ولا عامله ومقهورة ولا قاهرة ولا تأثير لها إذا كانت معمولة ولا عاملة فعبادتها غلط وفاسد وقوله : «متفرّقون» أي الناحت والصانع صنعه صغيراً و كبيراً و كلاً بشكل مخصوص .

الحجّة الثالثة أنّ كونه واحداً يوجب عبادته لأنّه لوكان له ثان لم نعلم من الّذي خلقنا ورزقنا ودفع المكروه عنّا فيقع الشكّ في أنّا نعبد هذا أم ذاك ؟ وفيه إشارة إلى فساد عبادة الأصنام ؛ وذلك لأنّ بتقدير أن يحصل المساعدة منها على كونها نافعة ضارّة إلّا أنّها كثيرة فحينئذ لانعلم أنّ نفعنا ودفع الضرر عنّا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الصنم أو بالمشاركة ؟ فحينئذ يقع الشكّ في أنّ المستحقّ للعبادة هو ذاك أم هذا ؟ فهذا وجه لطيف مستنبط في قوله : « «أرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهّار » .

الحجّة الرابعة أنّ بتقدير أن يساعد هذه الأصنام في النفع والضرّ على ما يقوله أصحاب الطلسمات إلّا أنّه لانزاع في أنّها تنفع في أوقات مخصوصة و بحسب آثار معيّنة والإله قادر على جميع المقدورات على الإطلاق لا على التقييد ، فالاشتغال بعبادته أولى .

الحجّة الخامسة بكونه قهّاراً والقهّار هو أن لا يكون يقهره أحد و يقهر غيره وماسواه . وهذا الوصف يقتضي أن يكون واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكن الوجود لكان مقهوراً لا قاهراً ، وأيضاً يجب أن يكون واحداً إذ لو كان في الوجود واجبان لما كان قاهراً لكلّ ماسواه ، والإله القهّار لا يكون إذا كان واجباً لذاته وواحداً بذاته .فحينئذ يلزم أن يكون الإله غير الفلك وغير الكواكب وغير النور وغير الظلمة وغير العقل والنفس ، و كلّما تراه وتتعقّله ؛ لأنّ كلّما تراه تراه مقهوراً ومتغيّراً بنوع خاصّ والقاهر غيره وهو الله . فأرباب متفرّقون

كلّها حادثة متغيّرة مقهورة و لا تصلح للإلهيّة ، و إنّما سمّاهم يوسف أرباباً بزعمهم و بلسانهم على سبيل الفرض . انتهى .

ثمّ قال: [ماتعبدون من دون الله إلّا أسماء سمّيتموها أنتم و آباؤكم] أي هذه الذوات المسمّية بالآلهة غير موصوفة بصفات الإلهيّة فحينئذ أسماء صرفة من غير المسمّيات ، فاسم محض والاسم لايفيد شيئاً ، ويمكن نظر يوسف بهذا البيان أنّ عبدة الأوثان مشبّهة فإنّهم تصوّروا أنّ الإله هو النور الأعظم وأنّ الملائكة أنوار صغيرة فوضعوا على صورة تلك الأنوار هذه الأوثان وجعلوا معبودهم هو تلك الأنوار السماويّة ، فصار هذا المتخيّل المعبود من الصنم والوثن حينئذ غير موجود فصحّ أنّهم لايعبدون إلّا مجرّد الأسماء وكان غرض يوسف عليه السلام هذا البيان .

قوله : [ما أنزل الله بها من سلطان] وما جعل الله لهذه الأسماء المنتزعة عن المعاني من حجّة وسلطة وليس الحكم إلّا لله وقد أمر سبحانه أن لايكون المعبود إلّا ذاته ذلك الّذي بيّنت لكم من توحيده وترك عبادة غيره الدين المستقيم الّذي لاعوج فيه [ولكنّ أكثر الناس لايعلمون] ماتهيّأ للمطيعين من الثواب وللمتمرّدين من العقاب لعدولهم عن النظر والاستدلال .

قوله : ياصاحبى السجن اما احدكما فيسقى ربه خمرا واما الاخر فيصلب فتاكل الطير من راسه قضى الامر الذى فيه تستفتيان (٤١) وقال للذى ظن انه ناج منهما اذكرنى عند ربك فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين (٤٢) .

المعنى : لمّا أقام عليه السلام الحجّة عليهم في التوحيد شرع في تعبير رؤياهما فقال : أمّا العناقيد الثلاثة فإنّها ثلاثة أيّام تبقى في السجن ثمّ يخرجك الملك اليوم الرابع وتعود إلى ما كنت عليه . وأجرى على مالكه صفة الربّ فأضافه إليه كما يقال : ربّ الدار وربّ الضيعة .

[وأمّا الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه] يريد بالآخر صاحب الطعام ، فقال عليه السلام له : أما السلال الثلاث فإنّها ثلاثة أيّام تبقى في السجن ، ثمّ يخرجك الملك فيصلبك

فتأكل الطير من رأسك . فقال صاحب الطعام : مارأيت شيئاً ، ومازحت و كنت ألعب .

قيل : إنّهما مارأيا في النوم بل لمّا رأوا أنّ يوسف في السجن أظهر لهم علم الرؤيا أرادوا أن يمتحنوه فاخترعوا هذه الرؤيا امتحاناً فعلى هذا تعبير يوسف لهما على جهة الوحي لاعلى جهة التعبير .

وبالجملة لمّا عبّر لهم يوسف وقالوا : كنّا نلعب ونمازح . قال لهما يوسف : [قضي الأمر الّذي فيه] تطلبان الفتوى وهو كما قلت لكم وإنّه نازل بكم البتّة و كائن لا محالة [وقال] يوسف : [للّذي ظنّ أنّه] ناج ، يمكن أن يفسّر الظنّ ههنا بمعنى الظنّ ويمكن أن يكون بمعنى اليقين ، فإذا حملنا بمعنى الظنّ فالمدار من علم التعبير ، وإذا كان بمعنى اليقين فالمدار من الوحي ، والظنّ بمعنى اليقين استعمل كثيراً في القرآن وغيره كقوله : « الّذين يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم »[1] وقال : «إنّي ظننت أنّي ملاق حسابيه» .[2]

وقال للّذي ظنّ أنّه ناج : اذكرني عند سيّدك بأنّي محبوس ظلماً [فأنساه الشيطان ذكر ربّه] واختلف في عود الضمير في قوله : « فأنساه » قالوا : يرجع إلى يوسف يعني أنسى الشيطان يوسف ذكر الله في تلك الحال حتّى استغاث بمخلوق فالتمس من الساقي هذا الأمر أن يذكره عند سيّده ، وكان من حقّه أن يتوكّل على الله في ذلك فلبث لهذه الجهة بضع سنين أي سبع سنين ، روي ذلك عن عليّ بن الحسين و أبي عبدالله عليهما السلام .

وقيل : معناه فأنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف عند الملك ولم يذكره حتّى لبث في السجن سبع سنين ، وهذا القول عن جماعة كأبي مسلم والجبّائي وغيره . روي عنه عليه السلام : لولا كلمته مالبث في السجن سبع سنين ، يعني « اذكرني عند ربّك » .

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : جاء جبرئيل فقال : يا يوسف من جعلك أحسن الناس ؟ قال : ربّي ، قال : فمن حبّبك إلى أبيك ؟ قال: ربّي ، قال : فمن ساق إليك السيّارة ؟ ربّي ، قال : فمن صرف عنك الحجارة ؟ قال : ربّي ، قال : فمن أنقذك من الجبّ ؟ قال : ربّي ، قال : فمن صرف عنك كيد النسوة ؟ قال : ربّي ، قال : فإنّ ربّك يقول : مادعاك إلى أن

---

(١) البقرة : ٤٦ .
(٢) الحاقة : ٢٠ .

تنزل حاجتك بمخلوق دوني ؟ البث في السجن بما قلت بضع سنين . وفي رواية أُخرى قال : فبكى يوسف عند ذلك بكاءً بكى ببكائه أهل السجن فصالحهم على أن يبكي يوماً ويسكت يوماً فكان في اليوم الّذي يسكت أسوء حالاً . قال الطبرسيّ : فلو صحّت هذه الرواية عوتب يوسف في ترك عادته الجميلة من الصبر والتوكّل على الله .

عن أبي عبدالله عليه السلام قال : علّم جبرئيل يوسف في حبسه فقال : قل في عقب كلّ صلاة فريضة : اللهمّ اجعل لي فرجاً ومخرجاً وارزقني من حيث أحتسب ومن حيث لاأحتسب . وروى شعيب العقرقوفيّ عنه عليه السلام قال : ولمّا انقضت المدّة و اُذن له بالدعاء للفرج وضع خدّه على الأرض ، ثمّ قال : اللهمّ إن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي عندك فإنّي أتوجّه إليك بوجوه آبائي الصالحين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، ففرّج الله عنه . قال : فقلت له : جعلت فداك أندعو نحن بهذا الدعاء ؟ فقال : ادعوا بمثله : اللهمّ إن كانت ذنوبي قد أخلقت عندك وجهي فإنّي أتوجّه إليك بوجه نبيّك نبيّ الرحمة محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة (عليهم السلام) .

واعلم أنّ الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة سبباً لاأصالة ، بشرط أن لايغفلوا عن مسبّب الأسباب بالكلّيّة ، وأمّا في حقّ يوسف من باب حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين ، والأولى للصدّيقين أن يقطعوا انظارهم عن الأسباب ، ولاشكّ أنّ الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائز في الشريعة لاإنكار عليه إلّا أنّه لمّا كان مستدركاً عن المحقّقين المتوغّلين في بحار العبوديّة لاجرم صار يوسف مؤاخذاً به .

فعند هذا نقول في جواب الّذين نسبوا بعض المزخرفات إلى يوسف : لمّا صار مؤاخذاً بسبب هذه الكلمة للساقي كيف ماصار مؤاخذاً بتلك الاُمور العظيمة ؟ فلمّا رأينا الله تعالى أخذه بهذا القدر ولم يؤاخذه في تلك القضيّة وماعابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنّه كان مبرّءاً ممّا نسبه الحشويّة والجهّال إليه .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : رحم الله يوسف لولا الكلمة الّتي قالها لما لبث في السجن هذه المدّة الطويلة . قال الحسن ـ وبكى وقال ـ : نحن إذا نزل بنا أمر تضرّعنا إلى الناس .

قوله تعالي : وقال الملك انى ارى سبع بقرات ثمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات يا أيها الملأ فتونى فى رؤياى ان كنتم للرويا تعبرون (٤٣) قالوا اضغاث احلام ومانحن بتأويل الاحلام بعالمين(٤٤) .

ولمّا دنى فرج يوسف رأى ملك مصر وهوريّان في النوم سبع بقرات ثمان خرجن من قهر يابس وسبع بقرات عجاف أي مها زيل فابتلعت العجاف السمان ، ورأى سبع سنبلات خضر قدانعقد حبّها وسبعاً أُخر يابسات فالتوت اليابسات على الخضر حتّى غلبن عليها ، فجمع الكهنة وذكرها لهم . وهو المراد بقوله : [يا أيّها الملأ أفتوني في رؤياي] فقال القوم : هذه الرؤيا مختلطة وهو المراد بقوله [أضغاث] جمع الضغث وهو الحزمة من النبت والحشيش بشرط أن يكون ممّا قام على ساق واستطال ؛ فشبّهوا هذه الرؤيا لاختلاطها من أشياء غير متناسبة بنظرهم بالضغث أي هذه أباطيل [أحلام] وتخاليط [ومانحن بتأويل] هذه [الأحلام] الفاسدة [بعالمين] .

وحكى الأزهريّ أنّ «التعبير» مأخوذ من العبر وهو جانب النهر يقال : عبرت النهر أي قطعته إلى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا : عابر لأنّه يتأمّل جانبي الرؤيا فيتفكّر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين إلى الآخر وبالجملة لمّا قالت الكهنة : إنّ هذه الرؤيا أضغاث أحلام تذكّر الشرابيّ واقعة الحبس فإنّه كان يعتقد فيه كونه متبحّراً لأنّه جرّبه .

وقال الذى نجامنهما وادكر بعد امة انا انبئكم بتاويله فارسلون (٤٥) يوسف ايها الصديق افتنافى سبع بقرات ثمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يا بسات لعلى ارجع الى الناس لعلهم يعلمون (٤٦).

قال الشرابيّ : إنّ في الحبس رجلاً فاضلاً صالحاً كثير الطاعة قصصت أنا والخبّاز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق في الكلّ ولم يخط ؛ فإن أذنت مضيت إليه و جئتك بالجواب فذلك قوله : [وقال الّذي] أي تذكّر بعد مدّة ماوصّاه يوسف في الحبس .

قوله : [فأرسلون] وههنا حذف يدلّ الكلام على المحذوف ، وتقدير الكلام : فأرسل فأتى يوسف في الحبس وقال له : يا [يوسف أيّها الصدّيق] أي كثير الصدق فيما تخبر به

[أفتنا] إلخ فإنّ الملك رأى هذه الرؤيا واشتبه تأويله [لعلّي أرجع] إلى الملك وأصحابه والعلماء الّذين جمعهم للتعبير وعجزوا عنه [لعلّهم يعلمون] فضلك وعلمك و يخرجونك من الحبس ، فعبّر يوسف :

قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تاكلون (٤٧) ثم ياتي من بعد ذلك سبع شداد ياكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تاكلون (٤٨) ثم ياتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون (٤٩) .

[قال] عَلَيْهِ السَّلَامُ في مقام التعبير: [تزرعون] خبر بمعنى الأمر أي ازرعوا كقوله : «والمطلّقات يتربّصن [١] » « والوالدات يرضعن [٢] » وإنّما يخرج الخبر بمعنى الأمر ويخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في الإيجاب فيجعل كأنّه وجد فهو يخبر عنه والدليل على كونه بمعنى الأمر قوله : « فذروه في سنبله » قوله : [دأباً] أي مستمرّاً متوالياً في هذه السنين من غير فتور دائبين على عادتكم أو ازرعوا بجدّ واجتهاد في هذه السنين السبع [فما حصدتم] من الزرع [فذروه في سنبله] لا تدوسوه ولا تذروه ؛ لأنّ السنبل لا يقع فيه سوس وإن بقي مدّة من الزمان وإذا ديس وصفي أسرع إليه الفساد [إلّا قليلاً] تريدون أن تأكلوه .

[ثمّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد] أي سنين مجدبات صعبات يشدّ على الناس تأكلون فيها [ما قدّمتم] في السنين المخصبة لتلك السنين الشديدة ، وإنّما أضاف الأكل إلى السنين لأنّه يقع فيها كما قال الشاعر :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ✻ وليلك نوم والردى لك لازم

وقيل : أراد بالأكل الإفناء والإهلاك كما يقال : أكل السير لحم الناقة، أي ذهب به . قال زيد بن أسلم : كان يوسف يصنع طعام اثنين فيقرّبه إلى رجل فيأكل نصفه حتّى كان ذات يوم قرّبه إليه فأكله كلّه فقال يوسف : هذا أوّل يوم السبع الشداد .

[ثمّ يأتي من بعد ذلك] أي من بعد هذه السنين الشداد [عام فيه] يمطر الناس من الغيث و[يغاث الناس] فيه أي ينجون وينقذون من القحط وفي ذلك الطعام الممطر المخصب يعصرون الثمار

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

(٢) « » : ٢٣٣ .

من العنب للدبس والزيت من السمسم مثلاً و أمثاله أي تكثر النعم، وهذا القول من يوسف بما اطّلعه الله عليه من علم الغيب ليكون من آيات نبوّته .

قال بعض المحقّقين في هذا : التعبير من يوسف يدلّ على بطلان قول من يقول : إنّ الرؤيا على ماعبّرت أوّلاً لأنّهم كانوا قالوا : أضغاث أحلام ، وعبّروها بالأضغاث فلو كان كذلك لكان يوسف لايتأوّلها .

قوله تعالى : وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فسئله مابال النسوة اللاتى قطعن ايديهن ان ربى بكيدهن عليم (٥٠) قال ماخطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الان حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين (٥١) ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب وان الله لايهدى كيد الخائنين (٥٢) وماابرىء نفسى ان النفس لامارة بالسوء الاما رحم ربى ان ربى غفور رحيم (٥٣) .

لمّا رجع الساقي إلى الملك وعرض عليه التعبير الّذي شرحه يوسف استحسنه الملك ؛ فقال : [ائتوني به] وهذا يدلّ على فضيلة العلم ، فعاد الشرابيّ إلى يوسف عليه السلام وقال : أجب الملك . فأبى يوسف أن يخرج من السجن إلّا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة عنه لأنّه لو خرج في الحال فربّما كان يبقى في قلب الملك أثر التهمة ، فالتمس من الملك أن يتفحّص عن تلك الواقعة .

وهذا يدلّ على براءة ساحته لأنّ من كان محبوساً في مدّة اثنتي عشرة سنة إذا طلبه الملك ، وأمر بإخراجه إذا كان فيه مانسبوه إليه لما كان تحدّد الواقعة للتفحّص بل كان تبادر بالخروج فحيث لم يخرج عرف طهارته عن تلك النسبة ، إذ لو كان ملوّثاً لكان خائفاً من مذاكرة هذا الأمر فلمّا جاء الشرابيّ جاذبه يوسف وقال : ارجع إلى سيّدك فاسأله أن يسأل النسوة ماشأن القصّة ليعلم براءتي . وإنّما أتى بهذا القسم من الكلام لئلّا يشتمل اللفظ على مايجري مجرى أمر الملك بعمل أو فعل مراعاة لحسن الأدب في الكلام لأنّ الصغير لايأمر الكبير ، وأيضاً راعى عليه السلام حسن الأدب لمولاتها زليخا وجعل المسؤول النسوة لاهي فاقتصر عليه السلام على قوله : [مابال النسوة اللّاتي قطّعن أيديهن] ثمّ قال : [إنّ ربّي بكيدهنّ عليم] .

وإنّما نسب الكيد إليهنّ لأنّ كلّ واحدة منهنّ طمعت فيه فلمّا لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه إلى القبيح ، ويمكن أنّ المعنى لمّا بالغ كلّ واحدة منهنّ على موافقة سيّدتها فامتنع يوسف فنسبهنّ إلى هذا الكيد . وقد حكي أنّه لمّا التمس يوسف هذا الأمر من الملك أمر الملك باحضارهنّ و قال لهن : ما خطبكنّ ؟ أي ماشأنكنّ وأمركنّ إذ طلبتنّ يوسف وما القصّة ؟ فقلن :

[حاش لله ماعلمنا عليه من سوء] هذه الكلمة أي «حاش لله» كلمة تنزيه أي نزّهن يوسف ممّا اتّهم به فقلن : حاش لله وعياذاً بالله من هذا الأمر وماعلمنا عليه من سوء وخيانة واعترفن ببراءته وبأنّه حبس مظلوماً .

[قالت امرأة العزيز] وكانت حاضرة ، وتعلم أنّ هذه المناظرات إنّما وقعت بسببها فكشفت عن الغطاء وصرّحت بالقول الحقّ وقالت : [الآن حصحص الحقّ] واشتقاقه من الحصّة أي بانت حصّة الحقّ من حصّة الباطل أي وضح الحقّ [أنا راودته عن نفسه] وليس له خيانة [وإنّه لمن الصادقين] .

[ذلك ليعلم] ذلك الردّ من الرسول وامتناعي عن الخروج من الحبس ليعلم الملك أو العزيز [أنّي لم أخنه] في حال غيبته . والضمير في « لم أخنه » إلى العزيز أي ليعلم الملك أنّي لم أخنه أي لم أخن وزيره لأنّ خيانة العزيز خيانة الملك . أو الضمير في قوله : «ليعلم» يرجع إلى « العزيز » يعني أردت أن يعلم العزيز أنّي لم أخنه .

وقيل : إنّ هذا الكلام في قوله : «ليعلم أنّي لم أخنه» من قول امرأة العزيز أي ذلك الإقرار منّي ببراءة يوسف ليعلم يوسف أنّي لم أخنه بترتيب الذنب عليه في الغيبة كما رتّبت عليه في الحضرة . وليعلم [أنّ الله لايهدي كيد الخائنين] وهذه من بقيّة قول المرأة .

قوله : [وما اُبرّىء نفسي] هذا بقيّة كلام يوسف عند أكثر المفسّرين . وقيل : من كلام زليخا أي ما اُبرّىء نفسي عن الخيانة في أمر يوسف [إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي] أي كلّ النفوس كذلك ، أو للعهد أي إنّ نفسي الموصوفة بهذه الصفة

إلّا من رحمه الله فعصمه فيكون «ما» بمعنى «من» نحو «ماطاب لكم من النساء [(١)]» ويجوز أن يكون «ما» معناه إلّا مدّة ما عصم ربّي ومن قال : إنّ هذا الكلام من قول يوسف معناه : لا أُبرّىء نفسي ممّا لاتعتري منه طباع البشر وإنّما امتنعت عن الفاحشة بهدايته ولطفه لا بنفسي لأنّه ﷺ كره أن يكون قد زكّى نفسه [إنّ ربّي غفور] لعباده [رحيم] بهم .

قوله تعالى : وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين (٥٤) قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم (٥٥) وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع اجر المحسنين (٥٦) ولاجر الاخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٧) .

المعنى : لمّا تبيّن أمانة يوسف وبراءته من السوء أمر بإحضاره فقال : [ائتوني به] أجعله خالصاً لنفسي أرجع إليه في تدبير مملكتي وأعمل على صلاحه وإشارته ، وههنا حذف أي فلمّا جاء الرسول وأخرجه من الحبس وأحضره عند الملك و كلّمه قال : إنّك عندنا ذومكانة وشأن مأمون ثقة أي مكّنتك في ملكي وجعلت سلطانك فيه كسلطاني .

قال الكلبيّ : فلمّا خرج من السجن أقبل يوسف وتنظّف من درن السجن ، وأُلبس ثياباً جدداً ، وأتى الملك وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلمّا رآه الملك شابّاً حدث السنّ ، قال : ياغلام هذا تأويل رؤياي ولم يعلمه الكهنة ! قال : نعم . فأقعده قدّامه .

ولمّا خرج من السجن كتب يوسف على باب السجن : هذا قبور الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء . ولمّا دخل على الملك قال : اللهمّ إنّي أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره . ولمّا ورد على الملك سلّم يوسف عليه بالعربيّة ، فقال له الملك : ماهذا اللسان ؟ قال : لسان عمّي إسماعيل . ثمّ دعى له بالعبرانيّة فقال له الملك : ماهذا اللسان ؟ قال : لسان آبائي . وكان الملك يتكلّم سبعين لساناً فكلّما كلّم الملك بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان ؛ فأعجب الملك مارأى منه .

---

(١) النساء : ٣ .

ثمّ قال له الملك : إنّي أحبّ أن أسمع رؤياي منك شفاهاً ، فقال يوسف : نعم أيّها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب كشف لك عنهنّ النيل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهنّ لبناً فبينا تنظر إليهنّ وتعجبك حسنهنّ إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسه فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف شعث غبر مقلّصات البطون ليس لهنّ ضروع ولا أحلاف ، ولهنّ أنياب وأضراس وأكف كأكفّ الكلاب ، وخراطيم كخراطيم السباع ، فاختلطن بالسمان فافترستهنّ افتراس السبع فأكلن لحومهنّ ومزّقن جلودهنّ وحطمن عظامهنّ ، فبينما أنت تنظر وتتعجّب إذاً سبع سنابل خضر وأُخر سود في منبت واحد عروقهنّ في الثرى و الماء فبينا أنت تقول في نفسك : أنّى هذه السنا بل خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والنبت واحد وأُصولهنّ في الماء ؟ إذ هبّت ريح فذرّت الأرفات من اليابسات السود على المثمرات الخضر فاشتعلت فيهنّ النار وأحرقتهنّ وصرن سوداً متغيّرات فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا ثمّ انتبهت من نومك مذعوراً .

فقال الملك : والله ماشأن هذه الرؤيا وإن كانت عجباً بأعجب ممّا سمعته منك ! فما ترى في رؤياي أيّها الصدّيق ؟ فقال : أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة وتبني خزائن والمحارز فتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله ليكون قصبه وسنبله علفاً للدوابّ وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك من الطعام الّذي جمعته لأهل مصر ومن حولها ويأتيك الخلق من النواحي فيمتارون منك بحكمك ويجتمع عندك من الكنوز مالم تجمع لأحد ذلك . فقال الملك : ومن لي بهذا الأمر ؟ ومن يجمعه ويرتّبه ويبيعه ؟

فعند ذلك قال يوسف : [اجعلني على خزائن الأرض فإنّي حفيظ عليم] حافظاً لما استودعتني وعليماً بوضع الأُمور مواضعها .

قيل : معناه كاتب حاسب وحفيظ للحساب عالم بالألسن . وفي هذا دلالة على أنّه يجوز للإنسان أن يعرّف نفسه بالفضل عند من لايعرفه خصوصاً لفائدة ؛ فإنّه عليه السلام عرّف نفسه عند الملك ليقيمه في الأُمور الّتي في أيالتها صلاح العباد والبلاد ولم يدخل

بذلك تحت قوله تعالى تعالى : « فلاتزكّوا أنفسكم [١] » فقال الملك : ومن أحقّ بممنك؟ فوّلاه ذلك .

واختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال : هو العزيز . ومنهم من قال : بل هو الريّان الّذي كان يقال له : الملك الأكبر . وهذا هو الأظهر لقوله : « أستخلصه لنفسي » وهو يدلّ على أنّه قبل ذلك ماكان خالصاً وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز ولأنّ يوسف قال له : «اجعلني على خزائن الأرض » ولأنّ العزيز كان اسمه اطفير والملك الأكبر اسمه ريّان .

فلو قيل : لمَ طلب يوسف الإمارة من سلطان كافر والنبيّ ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة أو لأبي ذرّ : لاتسأل الإمارة ؟ ولمَ طلب الخزائن مع أنّه يورث نوع تهمة؟ وكيف مدح نفسه بقوله : « حفيظ عليم » وترك الاستثناء حيث يقول سبحانه : « ولاتقولنّ لشيء إنّي فاعل ذلك غداً * إلّا أن يشاء الله [٢] » ؟

فالجواب أنّ التصرّف في أُمور الخلق بطريق الصحّة كان واجباً عليه لأنّه كان رسولاً من الله إلى الخلق والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأُمّة ، وقد علم بالوحي أنّه سيحصل القحط والضيق الشديد الّذي يفضي إلى هلاك الخلق العظيم لو لم يباشر الولاية والسعي إلى إيصال النفع والخير إلى المستحقّين ودفع الضرر عنهم أمر راجح عقلاً وهو كان مكلّفاً برعاية مصالح الخلق وماكان يمكنه رعايتها إلّا بهذا الطريق فما لايتمّ الواجب إلّا به فهو واجب فكان هذا الأمر واجباً عليه خصوصاً إذا كانت السلطة الأُولى سلطة كفر .

وأمّا ترك الاستثناء لأنّه لايحصل ترديد للملك بأنّه لعلّ لايتمكّن على ضبط هذه المصلحة فما استثنى . ولمَ مدح نفسه لأنّه لانسلّم أنّه كان مقصوده مدح نفسه بل كان مقصوده بيان هاتين الصفتين النافعتين لحصول المطلوب الواجب عليه وقد غلب على ظنّه أنّه لابدّ من ذكر هذين الوصفين ذهب أنّه وصف نفسه إلّا أنّ مدح النفس إنّما يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصّل إلى غير ما يحلّ ، فأمّا على غير هذا الوجه فلانسلّم أنّه محرّم ؛ فقوله تعالى : « فلاتزكّوا أنفسكم » المراد منه تزكية النفس حال مايعلم كونها غير متزكّية ، أو أن يكون المزكّي مرائياً ، والدليل عليه بعد

---

(١) النجم : ٣٢ . (٢) الكهف : ٢٤ .

الآية بقوله : «هو أعلم بمن اتقى[(١)]» .

وبالجملة روي عن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ أنّه قال : رحم الله أخي يوسف لو لم يقل : «اجعلني على خزائن الأرض» لولّاه من ساعته ولكنّه أخّره إلى سنة فأقام يوسف في بيت الملك سنة فلمّا انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك وتوّجه وردّاه بسيفه وأمر بأن يوضع له سرير من ذهب مكلّل بالدرّ والياقوت ويضرب عليه كلّة من إستبرق ، ثمّ أمره أن يخرج متوّجاً لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه في صفاء وجه يوسف فانطلق حتّى جلس على السرير ، ودانت له الملوك فعدل بين الناس فأحبّه الرجال والنساء وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الأولى بالدنانير والدراهم ، و في الثانية بالحليّ والجواهر ، وفي الثالثة بالدوابّ ثمّ بالضياع والعقار ثمّ برقابهم حتى استرقّهم جميعهم . ثمّ أعتقهم وردّ إليهم أموالهم وذلك قوله :

[وكذلك مكّنّا] أي ومثل ذلك الإنعام الّذي أنعمنا على يوسف أقعدنا يوسف على ما يريد في أرض مصر [يتبوّأ منها حيث يشاء] أي يتصرّف في الملك من غير رجوع إلى الملك بحيث إنّه لا أمر عليه ، وفي الآية دلالة على أنّ ذلك التمكين أو الملك كان بلطف الله ، و فيها دلالة على جواز تولّي القضاء والحكم من جهة الباغي والظالم بشرط أن يتمكّن بذلك من إقامة أحكام الدين ، ثمّ بعد أن ملكهم وأعتقهم جميعاً وردّ ما أخذ منهم ، قال للملك : ما ترى أيّها الملك فيما خوّلني ربّي من ملك مصر وأهلها ؟ أشر علينا برأيك فإنّي لم أُصلحهم لأُفسدهم ولم أُنجهم من البلاء لأكون بلاءً عليهم ولكنّ الله أنجاهم على يدي . قال له الملك: الرأي رأيك . قال يوسف : إنّي أُشهد الله وأُشهدك أنّي أعتقت أهل مصر كلّهم و رددت عليهم أموالهم وعبيدهم ورددت عليك خاتمك وسريرك وتاجك على أن لا تسير إلّا بسيرتي و لا تحكم إلّا بحكمي . قال له الملك : إنّ ذلك لفخري وزينتي ، وفخري أن لا أسير إلّا بسيرك ولولاك لما قويت عليه ولا اهتديت له وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، و أنّك رسوله ، فأقم على ما ولّيتك فإنّك لدينا مكين أمين .

وقيل : إنّ يوسف كان في الأيّام المجدبة لا يمتلىء شبعاً من الطعام فقيل له تجوع

---

(١) النجم ٣٣ .

وبيدك خزائن مصر ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجياع .

والحاصل أنّ المراد من تمكين الله ليوسف وتمكّنه في أرض مصر هذه الأُمور العظيمة المذكورة ثمّ أكّد ثانياً بقوله : [نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين] وهذه شهادة من الله على أنّ يوسف كان من المحسنين ولو صدق أقوال الحشوية فيما نسبوه إليه لامتنع أن يقال : إنّه كان من المحسنين . والأمر متوقّف بين تكذيب الله وهو عين الكفر أو تكذيب الحشويّ وهو عين الإيمان .

قوله : [ولأجر الآخرة خير للّذين آمنوا وكانوا يتّقون] المراد أنّ يوسف و إن كان وصل بصون نفسه إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا إلّا أنّ الثواب الّذي أعدّه الله له في الآخرة خير وأفضل . ولفظ «الخير» قد يستعمل بمعنى التفضيل ، وقد يستعمل بمعني نفس الخير كقولهم : «الثريد خير من .. » . وفي هذه الآية دلالة على أنّه سبحانه يؤتي يوسف في الآخرة من الثواب ماهو خير ممّا آتاه الله من الملك في الدنيا وشهادة منه سبحانه على تقواه ، فكيف يقال فيه ماقالوا ؟ فتأمّل !

قوله تعالى : وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون (٥٨) ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى باخ لكم من ابيكم الاترون انى اوف الكيل وانا خير المنزلين (٥٩) فان لم تاتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون (٦٠) قالوا سنراود عنه اباه وانا لفاعلون (٦١) .

لمّا عمّ القحط في البلاد ووصل إلى البلدة الّتي كان يسكنها يعقوب ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس قال يعقوب لبنيه : إنّ بمصر رجلاً صالحاً يمير الناس فاذهبوا بدراهمكم وخذوا الطعام . فخرجوا إليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف ، وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته وظهور صدق ما أخبر الله ليوسف حين ماألقوه في الجبّ في قوله «لتنبّئنّهم بأمرهم» وكان كلّ من وصل إلى بابه من البلاد البعيدة يتفحّص عنهم ليعرف أنّ الجائين والواصلين هل فيهم إخوته أم لا ؟

فلمّا وصل إخوة يوسف إلى باب داره تفحّص عن أحوالهم ظهر له أنّهم إخوته بو

أمّا أنّهم ماعرفوه لأنّه أمرجبّابه بأن يوصّفوهم من البعد وماكان يتكلّم معهم إلّا بواسطة، لاسيّما مهابة الملك وشدّة الحاجة يوجبان كثرة الخوف .

ثمّ إنّه عليه السلام لمّا ألقوه في الجبّ كان صغيراًثمّ إنّهم رأوه بعد تغيير الزيّ والهيئة واللحية ولبس الملوك فنسوا العلائم لطول المدّة وكان بين أن قذفوه بالجبّ وبين أن دخلوا عليه أربعين سنة ، وكان من عادة يوسف مع الكلّ أن يعطيه حمل بعير لا أزيد عليه ولا أنقص فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا : إنّ لنا أباً شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقي معه ، و ذكروا أنّ أباهم لأجل سنّه وشدّة حزنه لم يحضروأنّ أخاهم بقي في خدمة أبيه ، ولا بدّ لهما أيضاً شيء من الطعام ، فلمّا ذكروا ذلك قال يوسف : فهذا يدلّ على أنّ حبّ أبيكم له أزيد من حبّه لكم ، وهذا أمر عجيب لأنّكم مع جمالكم وأدبكم وعقلكم إذا كانت محبّة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبّته لكم ،وهذا يدلّ على أنّ ذلك أعجوبة في العقل وفي الفضل والأدب فجيئوني به حتّى أراه .

وقيل : إنّهم لمّا دخلوا عليه وأعطاهم الطعام قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهدفجئنا نمتار . فقال : لعلّكم جئتم عيوناً ؟ فقالوا : معاذالله نحن إخوة بنو أب واحد شيخ صدّيق نبيّ اسمه يعقوب . قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنّا اثني عشر فهلك منّا واحد وبقي واحد مع الأب يتسلّى به عن ذلك المفقود ونحن عشرة ، وقد جئناك . قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخ لكم من أبيكم فعند هذا أقرعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون أو يهودا و كان أحسنهم رأياً في يوسف فخلّفوه عنده .

ثمّ إنّ يوسف لمّا طلب منهم إحضار ذلك الأخ جمع بين الترغيب والترهيب أمّا الترغيب فهو قوله : [ألا ترون أنّي اُوف الكيل و أنا خير المنزلين] و أمّا الترهيب فهو قوله : [فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون] وذلك لأنّهم في نهاية الاحتياج إلى الطعام فلمّا سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا : [سنراود عنه أباه] أي سنجتهد و نحتال على أن ننزعه من يده [و إنّا لفاعلون] أن نجيئك به و فاعلون ما في وسعنا من هذا الباب .

قوله : وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها اذا

انقلبوا الى اهلهم لعلهم يرجعون (٦٢) فلما رجعوا الى ابيهم قالوا ياابانا منع منا الكيل فارسل معنا اخانا نكتل وانا له لحافظون(٦٣) قال هل آمنكم عليه الاكما امنتكم على اخيه من قبل فالله خير حافظا و هوارحم الراحمين (٦٤) .

«الفتية» جمع فتى في العدد القليل والفتيان للكثير واتّفق الأكثرون على أنّ إخوة يوسف ما كانوا عالمين ، فجعل البضاعة في رحالهم ومنهم من قال : كانوا عالمين .

ثمّ اختلفوا في السبب الّذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم ؛ لأنّهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أنّ ذلك كان كرماً من يوسف وسخاء فيبعثهم ذلك على العود إليه . وقيل : لأنّه خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرّة اُخرى . ثمّ إنّ أخذ الثمن من الطعام من أبيه وإخوته مع شدّة حاجتهم إلى الطعام لؤم أو لأنّه عليه السلام أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منّة و أراد أن يقابل إساءتهم بالإحسان قال يوسف لعبيده وغلمانه الّذين يكيلون الطعام ـ وقيل : لأعوانه ـ : اجعلوا ثمن طعامهم وماكانوا جاؤوا به في أوعيتهم . قيل : كانت بضاعتهم النعال والأدم . وقيل : كانت الورق [لعلّهم يعرفونها] أي يعرفون متاعهم [إذا] رجعوا [إلى أهلهم لعلّهم يرجعون] لطلب الميرة مرّة اُخرى .

[فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منّا الكيل] في المستقبل لقول يوسف لهم : فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي [فأرسل معنا أخانا نكتل] ويكتل وإنّا ضامنون بحفظه [قال] يعقوب [هل آمنكم عليه إلّا كما أمنتكم على أخيه من قبل] أي إنّكم ذكرتم هذا القول و ضمنتم هذا الضمان في أخيه يوسف يعني كما لم يحصل الأمان هناك كذلك هنا .

ثمّ قال : [فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين] قرىء «حافظاً» علي التميز على تقدير : هو خير لكم حافظاً ، كقولهم : هو خيرهم رجلاً ولله درّه فارساً . وقرىء على الحال والأكثر قرؤوا «حفظاً» بغير ألف أي حفظ الله له خير من حفظكم . وقيل : معناه وثقت بكم في حفظ يوسف فكان ماكان فالآن أتوكّل على الله في حفظ بنيامين . ورد في الخبر أنّ الله سبحانه قال :

فوعزّتي لأردّنهما عليك من بعد ما توكّلت عليّ .

قوله : ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا ابانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا و نمير اهلنا و نحفظ اخانا و نزداد كيل بعير ذلك كيل يسير (٦٥) .

[ولمّا فتحوا] أوعية الطعام [وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم قالوا يا أبانا] ما نطلب وراء هذا أوفى لنا الكيل وردّ علينا الثمن [هذه بضاعتنا] فلا ينبغي أن تخاف على بنيامين ممّن أحسن إلينا هذا الإحسان ومانريد منك دراهم تعطيناه نرجع بها إليه بل تكفينا في الرجوع إليه بضاعتنا هذه [ونمير] ونجلب إلى [أهلنا] الطعام [ونحفظ أخانا] حتّى نردّه إليك [ونزداد كيل بعير] لأجله ؛ لأنّه كان يكال لكلّ رجل وقر بعير [ذلك كيل] سهل ممكن ، وهين على الملك . وقيل : معناه : أنّ ذلك الكيل قليل ونحتاج إلى أن يضيفه كيل بعير أخينا حتّى يزداد كيلنا .

قوله تعالى : قال لن ارسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتاتننى به الا ان يحاط بكم فلما اتوه موثقهم قال الله على نقول و كيل (٦٦) .

أي لن اُرسله معكم حتّى تعطوني عهداً موثوق به . و«الموثق» مصدر بمعنى الثقة أي عهد يوثق به ، مصدر بمعنى المفعول أي عهداً مؤكّداً بإشهاد الله وبسبب القسم بالله ، أي تحلفوا بالله لتأتنّني به وتردّنه عليّ . قال ابن عبّاس : يعني حتّى تحلفوا لي بحقّ محمّد خاتم النبيّين وسيّد المرسلين أن لا تغدروا بأخيكم .

[إلّا أن يحاط بكم] أي إلّا أن تهلكوا جميعاً أو إلّا أن يحال بينكم و بينه حتّى لا تقدرون على الإتيان به ، فلمّا أعطوا مواثيقهم وحلفوا بمحمّد [قال] يعقوب : [الله على ما نقول وكيل] يريد أنّ الله شهيد ووكيل أي هذا العهد موكول إليه فإن وفيتم جازاكم و إن غدرتم كافاكم .

قوله تعالى : وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة وما اغنى عنكم من الله من شيء ان الحكم الا لله عليه توكلت و عليه فليتوكل المتوكلون (٦٧) ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء الا حاجة فى نفس يعقوب قضها وانه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٦٨) .

ولمّا تجهّزوا للمسير [قال] يعقوب : [يابنيّ لاتدخلوا] مصر [من باب واحد] خاف عليهم العين لأنّهم كانوا ذوجمال وغاية وهيئة و كمال ، وهم إخوة بنو أب واحد . وأنكر الجبّائيّ خوف العين ، بل خاف حسد الناس للطف الملك إيّاهم وجوّزه كثير من المحقّقين ،ورووا فيه الخبر عن النبيّ ﷺ ، قال : إنّ العين حقّ والعين تنزّل الحالق . والحالق المكان المرتفع من الجبل فجعل ﷺ العين كأنّها تحطّ ذروة الجبل من قوّة أخذها و بطشها .

وأيضاً ورد في الخبر أنّه ﷺ كان يعوّذ الحسن والحسين بأن يقول : اُعيذ كما بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان و هامة ومن كلّ عين لامة . وروي أنّ بني جعفر كانوا غلماناً بيضاً فقالت أسماء بنت عميس : يارسول الله إنّ العين إليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين فقال : نعم . وروي أنّ جبرئيل رقّى رسول الله و علّمه الرقية و هي بسم الله اُرقيك من كلّ عين وحاسد الله يشفيك . وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : لوكان شيء تسبق القدر لسبقته العين . وفي كيفيّة إصابة العين اختلاف كثير :

قال عمرو بن بحر الجاحظ : إنّه لاينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة تتّصل به وتؤثّر فيه فيكون هذا المعنى خاصيّة في بعض الأعين كالخواصّ في الأشياء . وقد اعترض عليه بأنّه لوكان كذلك لمااختصّ ذلك ببعض الأشياء دون بعض ، ولأنّ الأجزاء تكون جوهراً والجواهر متماثلة ، ولايؤثّر بعضها في بعض .

وقال أبو هاشم : إنّه فعل الله بالعباد لضرب من المصلحة ، وهو قول القاضي ورأيه .

وقال الشريف الرضيّ الموسويّ : إنّ الله يفعل المصالح بعباده على حسب مايعلمه من الصلاح لهم في تلك الأفعال الّتي يفعلها ، فغير ممتنع أن يكون تغيير نعمة زيد مصلحة لعمرو ، وإذا كان يعلم من حال عمرو أنّه لولم يسلب نعمته من زيد أقبل على الدنيا بوجهه ويئس عن الآخرة وإذا سلب نعمة زيد للعلّة الّتي ذكرناها عوّضه فيها وأعطاه بدلاً منها عاجلاً أو آجلاً ؛ فيمكن أن يتأوّل قوله ﷺ : «العين حقّ » على هذا الوجه ، على أنّه قد روي عنه مايدلّ على أنّ الشيء إذا عظم في صدور العباد وضع الله قدره وصغّر أمره فلا ينكر تغيير الحال

لبعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه واستحسانه له ، و فخامته في عينه .

وههنا تحقيق آخر ـ وهو قول الحكماء في هذا الباب ـ وهو أنّه قالوا : ليس من شرط المؤثّر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيّات المحسوسة أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانيّاً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانيّة فيها تعلّق والّذي يدلّ عليه أنّ اللوح الّذي يكون قليل العرض إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان المشي عليه ولو كان موضوعاً بين الجدارين لعجز الإنسان عن المشي عليه ، وماذلك إلّا لأنّ خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أنّ التأثيرات النفسانيّة موجودة .

وأيضاً إنّ الإنسان إذا تصوّر كون فلان موذياً له حصل في قلبه غضب ، ويسخن مزاجه جدًّا فمبدأ تلك الخولة ليس إلّا ذلك التصوّر النفسانيّ ، ولأنّ مبدأ الحركات البدنيّة ليس إلّا التصوّرات النفسانيّة فلمّا ثبت أنّ تصوّر النفس يوجب تغيير بدنه الخاصّ لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدّى تأثيراتها إلى سائر الأبدان .

فثبت أنّه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثّرة في سائر الأبدان وجواهر النفوس مختلفة بالماهيّة ؛ فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثّر في تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه و يتعجّب منه ، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه والنفوس النبويّة نطقت به فعنده لا يبقى في وقوعه شكّ .

قوله : [ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم] ولمّا دخلوا متفرّقين من أبواب متفرّقة ، وكان لمصر خمسة أبواب [ماكان يغني عنهم من الله من شيء] أي لم يكن دخولهم مصر كما أمرهم أبوهم بالتفرّق يغني عنهم أو يدفع منهم شيئاً من مكروه أراد الله إيقاعه بهم من ضرر أو عين أو بلاء ، وهو عليه السلام كان يعلم أنّه لا ينفع من قدر الله شيء والتفرّق ليس مانع شيئاً أراده الله ، ولكن ما قاله لبنيه حاجة في قلبه فقضى تلك الحاجة ؛ فيكون « إلّا » بمعنى لكنّ حاجة قضاها وأظهرها يعني أنّه عليه السلام يعلم أنّ هذه التوصية وهي ورود مصر من أبواب متفرّقة لا تنفعهم إذا أراد الله بهم ، لكن شفقة عليهم من أن يعانوا أظهرها ووصّى بها ، والاستثناء منقطع .

[وإنّه لذو علم] وإنّ يعقوب لذو يقين ومعرفة بالله بتعليمنا إيّاه [ولكنّ أكثر

الناس لايعلمون] بتقديرنا وسرّ أمورنا أولايعلمون كعلمه .

قوله تعالى : ولما دخلوا على يوسف آوى اليه اخاه قال انى انا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون(٦٩) فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم اذن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون(٧٠) قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون (٧١) قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم(٧٢) قالوا تا الله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الارض وماكنا سارقين (٧٣) قالوا فماجزاؤه ان كنتم كاذبين(٧٤) قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين (٧٥) فبدأ باوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه كذلك كدنا ليوسف ماكان لياخذ اخاه فى دين الملك الا ان يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم(٧٦) .

ثمّ أخبر سبحانه عن دخولهم عليه [فلمّا دخلوا على يوسف] قالوا : هذا أخونا الّذي أمرتنا أن نأتيك به . فقال : أحسنتم . ثمّ أكرمهم وأضافهم وقال : يجلس كلّ بني اُمّ على مائدة فجلسوا ، فبقي ابن يامين قائماً فرداً فقال له يوسف : مالك لاتجلس؟ قال : إنّك قلت : ليجلس كلّ بني اُمّ على مائدة وليس لي فيهم ابن اُمّ ، فقال يوسف : فماكان لك ابن اُمّ ؟ قال : بلى ، قال يوسف : فما فعل ؟ قال : زعم هؤلاء أنّ الذئب أكله ! قال : فما بلغ من حزنك عليه ؟ قال : ولدلي أحدعشر ابناً كلّهم اشتققت لهاسماً من اسمه فقال له يوسف : أراك قد عانقت النساء و شممت الولد من بعده . قال بنيامين : إنّ لي أباً صالحاً وقد قال لي : تزوّج لعلّ الله يخرج منك ذريّة تثقل الأرض بالتسبيح . فقال له يوسف : فاجلس معي على المائدة [قال] له [إنّي أنا أخوك] أي اطّلعه على أنّه أخوه ، وقيل : إنّه قال : أنا أخوك مكان أخيك الهالك ، ولم يعترف له بالنسبة ، و لكنّه أراد أن يطيب قلبه . فلاتحزن بشيء سلف من إخوتك .

[فلمّا جهّزهم] وأعطاهم ماجاؤوا لطلبه من الميرة وجعل لكلّ واحد منهم حمل بعير ويسمّى حمل التاجر جهازاً [جعل] الصاع في متاع [أخيه] بنيامين ، وقيل : إنّ السقاية الماعون الّذي كان الملك يشرب منه ، أوالدوابّ كانت يشرب منها ويكال بها ، ثمّ جعل يكال به الطعام ، وكان من ذهب مرصّعة بالجواهر الثمينة . ثمّ ارتحلوا وانطلقوا .

[ثمّ أذّن مؤذّن] و نادى مناد مسمعاً معلماً [أيّتها العير] و القافلة أي يا أهل القافلة . و قيل : كانت القافلة من الحمير [إنّكم لسارقون] إنّما قال ذلك بعض من فقد الصاع من أتباع يوسف من غير أمره ، و لم يعلم بما فعل يوسف من جعل الصاع في رحالهم .

و قيل : إنّ يوسف أمر المنادى بأن ينادي به ، ولم يرد سرقة الصاع و إنّما عنى أنّكم سرقتم يوسف عن أبيه و ألقيتموه في الجبّ. والغرض التسبّب إلى احتباس أخيه عنده ، ويجوز أن يكون هذا أمرمن الله أواستفهام ،وإذاكان إدخال هذا الحزن سبباً مؤدّياً إلى إزالة غموم كثيرة عن الجميع ، وتعلّق بهذاالأمرهذه المصلحة فقد ثبت جوازه.و[قالوا] أصحاب العير [وأقبلوا] على أصحاب يوسف : ما الّذي فقد تموه من متاعكم ؟ [قالوا] : صاعه و سقايته . وقال المنادي : [و لمن جاء] بالصاع فله [حمل بعير] من الطعام [وأنا] بالحمل كفيل و مؤدّ .

قال إخوة يوسف : [تالله لقد علمتم] أيّها القوم [ماجئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين] قطّ أي ظهرلكم من حسن سيرتنا ومعاملتنا معكم أنّه ليس من شأننا السرقة؛قيل: إنّهم لمّا دخلوا مصر شدّوا أفواه دوابّهم كيلا تتناولوا الحرث و الزرع ولهذا قالوا : « لقد علمتم ماجئنا لنفسد » [قالوا فما جزاؤه] أي قال الّذين نادوهم : فما جزاء السارق؟ [قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه] قال : كان في ذلك الزمان يستعبدون كلّ سارق بسرقته ، وكان استعباد السارق في شرعهم تجري مجرى و جوب القطع في شرعنا ، أي ذلك السارق هو جزاء ذلك الجرم [كذلك نجزي الظالمين] يجوزأن يكون بقيّة كلام إخوة يوسف ويمكن أن يكون كلام أصحاب يوسف .

ولمّا اشترط إخوة يوسف بأنّ من وجد المسروق في رحله فجزاؤه أن يسترقّ سنة قال لهم المؤذّن : إنّه لا بدّمن تفتيش أمتعتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف فبدأ يوسف في التفتيش بأوعيتهم لإزالة التهمة .

[ثمّ استخرجها] يعني السقاية [من وعاء أخيه] وأرجع ضمير المؤنّث إلى السقاية ، والمذكّر إلى الصاع،والصواع يذكّر ويؤنّث .

وقيل : إنّ حكم السارق في شريعة يعقوب أن يستخدم ويسترق على قدر سرقته وفي دين الملك الضرب والضمان ضعفين . فسألهم يوسف: ماجزاء السارق عندكم ؟ فقالوا : أن يؤخذ بسرقته كذلك نجزي الظالمين ، قال الإخوة : أي مثل ماذكرنا جزاء السارقين نجزيهم . فأقبل الإخوة على بنيامين و وبّخوه ، وقالوا له : قد فضحتنا وسوّدت وجوهنا متى أخذت هذا الصاع ؟ فقال : وضع هذا الصاع في رحلي الّذي وضع الدراهم في رحالكم .

[كذلك كدنا ليوسف] أي مثل ذلك الكيد الّذي كاد الإخوة بيوسف ألهمنا يوسف ليكيد بأمر تهيّأ له أن يحبس أخاه ليكون سبباً لوصول خبره إلى أبيه فجازيناهم على كيدهم بما فعلوا بيوسف من قبل . وقيل : معنى « كدنا » دبّرنا ودلّلنا بيوسف بدلالة قوله : «وفوق كلّ ذي علم عليم» لأنّه علم من صلاح هذا الأمر مالم يعلمه غيره فحينئذ الكيد استسلامهم لهذا الحكم في حقّ السارق ، وإلقاء الله في قلوب إخوته تقرير هذا الحكم لأنّه ماكان حكم الملك الاسترقاق ، بل كان حكم السارق الضرب و الغرامة مضاعفة .

ولمّا أقرّوا أثبتوا على أنفسهم هذا الحكم لأنّ يوسف [ماكان] يتمكّن [أن يأخذ أخاه في دين الملك إلّا] أنّه تعالى كادله وألهمه هذا الأمر ليتوسّل به إلى أخذ أخيه ، و لفظ « الكيد» مشعر بالحيلة والخدعة ، وذلك في حقّ الله محال لكن أمثال هذه الألفاظ تحمل على نهايات الأغراض المفيدة لاعلى بدايات الأغراض فالكيد إلقاء الإنسان من حيث لايشعر في أمر مكروه عنده ولاسبيل له إلى دفعه لتحقّق المصالح في إيقاعه . فالكيد في حقّ الله تعالى محمول على هذا المعنى لأنّه سبحانه شاء كذلك للمصالح المترتّبة عليه .

[نرفع درجات من نشاء] من العلم و الحكمة كما وقع ليوسف من النبوّة و العلم [وفوق كلّ ذي علم عليم] لأنّ إخوة يوسف كانوا علماء فضلاء إلّا أنّ يوسف كان زائداً عليهم بالعلم والمعرفة .

قوله تعالى : قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل فاسرها يوسف في

نفسه ولم يبدها لهم قال انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون (٧٧) قالوا يا ايها العزيز ان له اباشيخا كبيرا فخذ احدنا مكانه انا نراك من المحسنين (٧٨) قال معاذالله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون (٧٩) فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم الم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله و من قبل ما فرطتم في يوسف فلن ابرح الارض حتى ياذن لي ابي اويحكم الله لي وهوخير الحاكمين (٨٠) .

ثمّ أخبر سبحانه عن إخوة يوسف : أنّهم [قالو] ليوسف : [إن يسرق] بنيامين [فقد سرق أخ له من] أمّ وأب [قبل] ذلك ؛ فليست سرقته أمر بديع فإنّه اقتدى بأخيه يوسف .

واختلف في كيفيّة ما وصفوه به من السرقة على أقوال :

فقيل : إنّ عمّة يوسف كانت تحضنه بعد وفات أمّه راحيل وتحبّه حبّاً شديداً ، فلمّا ترعرع أراد يعقوب أن يستردّه منها ، و كانت أكبر أولاد إسحاق ، و كان عندها منطقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر فاحتالت بحيلة ، و جاءت بالمنطقة و شدّتها على وسط يوسف وادّعت أنّه سرقها ، وكان من سنّتهم استرقاق السارق ، فحبسه بهذا السبب .

وقيل : إنّه سرق صنماً لجدّه من أمّه كان جدّه يعبده فأمرته أمّه أن يسرق ذلك الصنم ويكسره فلعلّه ترك عبادة الأوثان ففعل يوسف ما أمرته اُمّه فهذا هو السرقة .

وقيل : إنّه يسرق من مائدة أبيه الطعام ويدفعه إلى الفقراء .

وقيل : سرق عناقاً من أبيه ودفعه إلى مسكين وكان أبوه راضياً ولكن لا يظهر رضاه لإخوته حذراً من الحسد .

وقيل : إنّهم لحسدهم وعداوتهم القديمة نسبوا السرقة من دون هذه الدواعي .

قوله تعالى : [فأسرّها يوسف في نفسه] أي فأخفى يوسف تلك الكلمة الّتي قالوها ولم يبدها لهم. قال الزجّاج : « فأسرّها» إضمار على شريطة التفسير لأنّ قوله : «أنتم شرّ مكاناً» بدل من «ها» في «أسرّها» والمعنى : فأسرّ يوسف في نفسه .

قوله : [أنتم شرّ مكاناً] وقال : أنتم شرّ مكاناً ، و التفسير بعد الإضمار يقع بمفرد كقولك : «نعم رجلاً زيد » ففي «نعم» ضمير فاعلها و «رجلاً» تفسير لذلك الفاعل المضمر و يقع بجملة مثل «قل هو الله أحد» فمعنى ضمير القصّة والشأن الله أحد . و بالجملة ليس

المعنى أنّه قال هذا الكلام ، وهو «أنتم شرّ مكاناً» بل في نفسه قال ثمّ جهر بقوله : [والله أعلم بما تصفون] .

والصحيح في مذهبنا أنّهم ماكانوا أنبياء والأسباط من أولادهم لأنّ النبيّ لايجوز أن يقع منه القبيح أصلاً حتّى أنّ أغلب أهل السنّة وافقونا على هذا القول؛قال البلخيّ : إنّهم كذبوا واتّهموا أخاهم ولم يصحّ أنّهم كانوا أنبياء .

قوله : [يا أيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه] و سألوه أن يأخذ عنه بدلاً شفقة على والدهم ورقّقوا في الاسترحام بالقول وأنّ أباه كثير السنّ و كبير القدر لا يحبس ابن مثله [إنّا نراك من المحسنين] في الكيل و ردّ البضاعة و في الضيافة و نحن نأمل منك هذا .

فأجابهم يوسف : أعوذ بالله [أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا] و كيف يجوز أن نأخذ بريئاً بمذنب؟أي أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره ، فحينئذ إذا فعلنا كذلك إنّا من الظالمين.

فلوقيل : كيف يجوز للرسول هذه الأمور ؟ الجواب لعلّه كان مأموراً بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب ونهاه الله عن العفو والصفح وأخذ البدل .

قوله تعالى : [فلمّا استيئسوا منه خلصوا نجيّاً] أي لمّا آيسوا من قبول يوسف قولهم تفرّدوا عن سائر الناس وشرعوا يتناجون ويتشاورون فيما وقعوا فيه [قال كبيرهم] في السنّ وهو روبيل أويهودا ، وهو الّذي نهاهم عن قتل يوسف [ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرّطتم في يوسف] .

قال ابن عبّاس : لمّا قال يوسف : « معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده» غضب يهودا وكان إذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل إلّا وضعت و تقوم شعره على جسده فلا يسكن حتّى يضع بعض آل يعقوب يده عليه أو يمسّه فقال يهودا لبعض إخوته: اكفوني أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك ، فقال يوسف لابن صغير له : مسّه،فمسّه فذهب غيظه . و قيل : كان الصبيّ بين يدي يوسف يلعب برمّانة الذهب فأخذ يوسف الرمّانة و دحرجها نحو يهودا فتبعها الصبيّ فمسّ يد الصبيّ يد يهودا فسكن غضبه ، و فعل يوسف ذلك ثلاث مرّات ، فقال يهودا : إنّ في البيت معنا لبعض ولد يعقوب إنسان .

ثمّ بعد اليأس [قال] : لا أُفارق أرض مصر [حتّى يأذن لي أبي] في الانصراف إليه [أو يحكم الله لي] بالخروج أو بالانتصاف ممّن أخذ أخي بخلاصه منه بسبب من الأسباب [وهو خير الحاكمين] والمراد ظهور عذر يزول حياؤه وخجله من أبيه .

قوله تعالى : ارجعوا الى ابيكم فقولوا يا ابانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين (٨١) واسئل القرية التى كنا فيها والعير التى اقبلنا فيها وانا لصادقون (٨٢) .

فقال لهم كبيرهم روبيل أو يهودا في العلم أو في السنّ : [ارجعوا إلى أبيكم فقولوا إنّ ابنك سرق] وقرىء بالتشديد [وما شهدنا] عندك بهذا [إلّا بما شهدنا من الصاع استخرج من رحله [وما كنّا] نعلم الغيب حين سألناك أن تبعث ابن يامين معنا ، ولم ندر أنّ أمره يؤول إلى هذا ، وإنّما قصدنا الخير ولو علمنا ذلك ماذهبنا به وما كنّا بهذا الأمر و وقوعه عالمين .

وقيل : معنى الغيب الكيل بلغة حمير .

ونقل أنّ يعقوب قال لهم : فهب إنّه سرق ولكن كيف عرف الملك أنّ شرع بني إسرائيل أنّ من يسرق يسترقّ بل أنتم ذكرتموه له لغرض لكم ، فقالوا عند هذا الكلام : إنّا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا في هذه الواقعة وما كنّا نعلم أنّ هذه الواقعة نقع فيها . فقوله : «وما كنّا للغيب حافظين» إشارة إلى هذا المعنى .

قوله : [واسأل القرية] أي اسأل أهل القرية [الّتي كنّا فيها] وهي مصر أي سل من شئت من أهل مصر فإنّ هذا خبر شاع وكان بعض أهل مصر قد صاروا إلى الناحية الّتي أبوهم فيها ، واسأل أهل القافلة الّتي كنّا فيها ، وكانوا من أهل كنعان راجعين من مصر خبر ابن يامين [وإنّا لصادقون] فيما أخبرناك ، فلمّا رجعوا إلى أبيهم و قصّوا عليه القصّة ، قال لهم : عندي ليس الأمر على ماتقولونه .

قوله تعالى : قال بل سولت لكم أنفسكم امرا فصبر جميل عسى الله ان ياتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم (٨٣) .

لمّا سمع يعقوب من أبنائه هذا الكلام [قال بل سوّلت لكم أنفسكم] قيل : معناه : سوّلت لكم أنفسكم أمراً خيّلت لكم أنّه سرق وماسرق . قال بعض المفسّرين : «بل سوّلت

لكم أنفسكم أمراً» ليس ههنا المراد الكذب والحيلة ، كما في قوله في واقعة يوسف حين قال : «بل سوّلت لكم أنفسكم» ومراد يعقوب ذكرالتسويل الثاني لاالتسويل الأوّل أي أردتم المنفعة فعاد ذلك شرّاً وضرراً ، وقد كنتم لا تعلمون أنّ قضاء الله جار على خلاف تدبيركم .

[عسى الله أن] يجمعهم [جميعاً إنّه هو العليم] بحالي و[الحكيم] في أفعاله .

قيل : إنّ روبيل أو يهودا لمّا عزم على الإقامة بقوله : «فلن أبرح الأرض » أمره الملك أن يذهب مع إخوته سوى بنيامين فقال : اتركوني وإلّا صحت صيحة لاتبقى بمصر امرأة حامل إلّا وتضع حملها ، فقال يوسف : دعوه .

ولمّا رجع القوم إلى يعقوب وأخبروه بالواقعة بكى ، وقال : يا بنيّ لاتخرجون من عندي مرّة إلّا و نقص بعضكم:ذهبتم مرّة فنقص يوسف وفي الثانية نقص روبيل وبنيامين ، ثمّ بكى وقال : «عسى الله أن يأتيني» لعلّه تعالى أخبره من بعد محنته أنّ يوسف حيّ أو قال ذلك بحسن ظنّه بالله وبقوله : «سيجعل الله بعد عسر يسراً» [1].

قوله تعالى : وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم (٨٤) قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا اوتكون من الهالكين (٨٥) قال انما اشكوا بثى وحزنى الى الله واعلم من الله مالاتعلمون (٨٦) يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولاتيأسوا من روح الله انه لاييأس من روح الله الاالقوم الكافرون (٨٧) .

ولمّا سمع يعقوب كلام أبنائه ضاق صدره جدّاً و أعرض عنهم وفارقهم وفرّ عنهم و عظم حزنه ، وذكر يوسف ، وقال : [يا أسفى على يوسف] وإنّما عظم حزنه لأنّ الحزن الجديد على بنيامين جدّد حزن يوسف لأنّهما من اُمّ واحدة و كلاهما متشابهان ،فقال: «يا أسفى» أي يا طول حزني على يوسف ولمّا كان البكاء من أجل الحزن أضاف بياض البصر إليه فقال : [وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم] أي مملوء من الغيظ ولا يشكوه لأحـد .

قال ولد يعقوب لأبيهم : [تالله تفتؤ تذكر يوسف] أي لاتزال تذكر يوسف حتّى

(١) الطلاق : ٧ .

تكون دنفاً فاسد العقل أوقريباً من الموت . وقيل : معناه هرماً بالياً ، أوتصير من الميّتين . و إنّما قالوا له ذلك إشفاقاً عليه و رحمة له ؛ يقال : ما فتئت و فتيت إذا نسيت و حرف النفي مضمر على معنى ما تفتؤ ؛ قال امرؤ القيس : « فقلت يمين الله أبرح قاعداً » و المعنى : لا أبرح قاعداً . قال يعقوب : في جوابهم إنّما أشكوا همّي و حاجتي إلى الله .

و نقل الفخر الرازيّ رواية عن النبيّ أنّه قال : كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له يوماً : ماالّذي أذهب بصرك وقوّس ظهرك ؟ فقال : الّذي أذهب بصري البكاء على يوسف وقوّس ظهري الحزن على بنيامين .

فأوحى الله إليه أتشكوني إلى غيري فقال : [إنّما أشكوا بثّي] والبثّ ما أبدامن الهمّ والحزن ما أخفاه [وحزني إلى الله]وقال : يارب أماترحم الشيخ الكبير قوّست ظهري وأذهبت ريحانتيّ يوسف وبنيامين ؟

وأتاه جبرئيل بالبشرى وقال : ولو كانا ميّتين لنشرتهما لك فاصنع طعاماً للمساكين فإنّ أحبّ عبادي إليّ الأنبياء والمساكين أو تدري لم أذهبت بصرك وقوّست ظهرك؟لأنّك ذبحت شاة وأتاك مسكين وهو صائم فلم تطعمه شيئاً . فكان يعقوب بعد ذلك إذا أرادالغذاء أمر منادٍ ينادي : ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغدّ مع يعقوب ، و إذا كان صائماً أمر مناديناديٍ : ألا من أراد أن يفطر مع يعقوب فليحضر .

[وأعلم من الله ما لاتعلمون] أي وأعلم من رحمة الله مالا تعلمون . في كتاب النبوّة بالإسناد عن سدير الصيرفيّ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : إنّ يعقوب دعا الله سبحانه في أن يهبط عليه ملك الموت فأجابه فقال له : ما حاجتك ؟ فقال عليه السلام : أخبرني هل مرّ بك روح يوسف في الأرواح ؟ فقال : لا ، فعلم أنّه حيّ فقال : [يابنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه] واستخبروا من شأنهما .

فلو قيل : كيف خفي أخبار يوسف على يعقوب في المدّة الطويلة مع قرب المسافة و كيف لم يعلم يوسف أباه بخبره لتسكن نفسه ويزول وجده ؟

قال المرتضى قدّس سرّه : يجوز أن يكون ذلك له ممكناً وكان قادراً عليه لكنّ الله

سبحانه أوحى إلى يوسف بأن يعدل عن اطّلاعه عن خبره لتشديد المحنة على يعقوب، ولله سبحانه أن يصعب التكليف وأن يسهّله .

وقد بلغ حزن يعقوب حزن سبعين ثكلى ، قيل : عمي من البكاء.وقيل : ماعمي ولكن صار بحيث يدرك إدراكاً ضعيفاً وما جفّت عينا يوسف من وقت فراق يعقوب يوسف إلى حين لقائه ، وتلك المدّة قيل : ثمانون عاماً - وماكان على وجه الأرض عبد أكرم على الله من يعقوب-أوأربعون سنة .

[ولا تيأسوا من]رحمة[الله] ومن فرجه [إنّه لاييأس من]رحمته [إلّا الكافرون]وفي هذه الآية دلالة على أنّ الفاسق المليء لايأس عليه من رحمة الله بخلاف مايقول أهل الوعيد .

قوله تعالى : فلما دخلوا عليه قالوا يا ايها العزيز مسنا وأهلنا الضرو جئنا ببضاعة مزجاة فاوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين (٨٨) قل هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذانتم جاهلون (٨٩) قالوا ءانك لانت يوسف قال انا يوسف وهذا اخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين (٩٠) قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين (٩١) قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم و هو ارحم الراحمين (٩٢) اذهبوا بقميصى هذا فالقوه على وجه ابى يات بصيرا و اتونى بـاهلكم اجمعين (٩٣) .

المعنى : ولمّا قال يعقوب لبنيه « اذهبوا فتحسّسوا من يوسف » خرجوا إلى مصر [فلمّا دخلوا]على يوسف [قالوا يا أيّها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ]أي أصابنا ومن يختصّ بنا الجوع والحاجة من السنين الشداد [وجئنا]بمتاع قليل ندافع بها الأيّام دراهم رديئة زيوفاً لاتنفق في ثمن الطعام،وقيل :كانت البضاعة خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثّة . وقيل : الصوف والسمن.وقيل : الحبّة الخضراء . وقيل : الأقط والنعال والأدم وقيل : صوف المعز. وقيل : دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم الّتي جاؤوا بها ما كان فيها صورة يوسف ، فما كانت مقبولة عند الناس وماكانت رائجة . «والمزجاة» الشيء القليل الّذي يدفع الإنسان في الزمان به .

ولمّا وصفوا شدّة حالهم قالوا : [فأوف لنا الكيل] و مرادهم أن يساهلهم بأن يقيم

الناقص مقام الزائد والرديء مقام الجيد [وتصدّق علينا] بالجيد [إنّ الله يثيب المتصدّقين] على صدقاتهم .

وفي كتاب النبوّة عن أبي عبدالله ـ بحذف الأسانيد ـ أنّ يعقوب كتب إلى يوسف :

(بسم الله الرحمن الرحيم إلى عزيز مصر ومظهر العدل وموفي الكيل ، من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صاحب نمرود الّذي جمع له النار ليحرقه بها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وأنجاه منها . أُخبرك أيّها العزيز إنّا أهل بيت لم يزل البلاء إلينا سريعاً من الله ليبلونا عند السرّاء والضرّاء ، وإنّ المصائب تتابعت عليّ سنين متطاولة أوّلها أنّه كان لي ابن سمّيته يوسف وكان سروري من بين ولدي وقرّة عيني وإنّ إخوته من غير اُمّه سألوني أن أبعثه معهم يرتع و يلعب فبعثته معهم بكره ، فجاؤوا عشاءً يبكون و جاؤوا على قميصه بدم كذب ، وزعموا أنّ الذئب أكله ؛ فاشتدّ لفقده حزني و كثر عن فراقه بكائي حتّى ابيضّت عيناي من الحزن .

وإنّه كان له أخ و كنت به معجباً وكان لي أنيساً ، و كنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدري سكن بعض وجدي ، وأنّ إخوته ذكروا لي أنّك سألتهم عنه وأمرتهم أن يأتوك به فإن لم يأتوك به منعتهم الميرة ، وبعثته معهم ليمتاروا لنا قمحاً فرجعوا إليّ وليس هو معهم و ذكروا أنّه سرق المكيال للملك ، ونحن أهل بيت لا نسرق وقد حبسته عنّي و قد اشتدّ لفراقه حزني حتّى تقوّس ظهري لذلك ، فمنّ عليّ بتخلية سبيله و إطلاقه من حبسك و طيّب لنا القمح وأسمح لنا في العسر وأوف لنا الكيل وعجّل سراح آل إبراهيم) .

قال : فمضوا بكتابه حتّى دخلوا على يوسف في دار الملك وقدّموا الكتاب إلى يوسف فأخذ يوسف كتاب يعقوب و قبّله و وضع على عينيه و بكى و انتحت حتّى بلّت دموعه القميص الّذي عليه ثمّ أقبل عليهم وقال : [هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه] أي بإذلاله وإبعاده عن أبيه وإلقائه في البئر والاجتماع على قتله وبيعه بثمن و كس ، وما فعلتم بأخيه من اُمّه حتّى صار ذليلاً بينكم ؟ ولم يذكر إيّاه تعظيماً له . وحاصل المعنى أنّ ما ارتكبتم ما أعظمه وأقبحه ! و في هذا البيان مصدوق قوله : «لتنبّئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون» وقوله : [إذ أنتم جاهلون] أي فعلتم حين كنتم جاهلين ، و كان هذا الكلام تلقيناً

لهم لما يعتذرون به إليه و هذا هوالكرم إذ صفح عنهم ولقّنهم وجه العذر .

قيل : إنّ يوسف لمّا قال لهم : «هل علمتم ، الآية» تبسّم فلمّا أبصروا ثناياه و كانت كاللؤلؤ المنظوم شبّهوا بيوسف [وقالوا] له : [ءإنّك لأنت يوسف] فرفع التاج عن رأسه فعرفوه [قال أنا يوسف] ولم يقل : أناهو [وهذا أخي قد منّ الله علينا] بالاجتماع [إنّه من يتّق] الله [ويصبر] على المعاصي وعلى المصائب [فإنّ الله لايضيع أجر المحسنين] .

[قالوا تالله لقد آثرك الله] وفضّلك [علينا] وما كنّا [إلّا مخطئين وآثمين فيما فعلنا [قال] يوسف [لاتثريب] ولاتوبيخ وتقريع [عليكم] الآن فيما فعلتم وإنّي أطلب العفو من الله لكم [وهو أرحم الراحمين] في عفوه عنكم [اذهبوا بقميصي هذا] وقد مرّ تفسير القميص [فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وائتوني بأهلكم أجمعين] .

قال يوسف : إنّما يذهب بقميصي من ذهب به أوّلاً فقال يهودا : أنا ذهبت به وهو ملطّخ بالدم فأخبرته أنّه أكله الذئب.قال : فاذهب به أنت أيضاً فأفرحه كما حزنته.فحمل القميص وخرج حافياً حاسراً حتّى أتاه وكان معه سبعة أرغفة وكانت مسافة بينهما ثمانين فرسخاً فلم يستوف الأرغفة في الطريق .

قوله تعالى : ولما فصلت العير قال أبوهم اني لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون (٩٤) قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم (٩٥) فلما ان جاء البشير القه على وجهه فارتد بصيرا قال الم اقل لكم انى اعلم من الله ما لا تعلمون (٩٦) قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين (٩٧) قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم (٩٨) .

[ولمّا] خرجت القافلة وانفصلت من مصر متوجّهة نحو الشام [قال أبوهم] لأولاده الّذين كانوا عنده ولم يخرجوا إلى مصر : [إنّي لأجد ريح يوسف] روي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: وجد ريح يوسف حين فصلت العير من مصر وهو عليه السلام بفلسطين من مسير ثمانين فرسخاً ، و قيل : مسيرة شهر .

قال ابن عبّاس : إنّ الصبا استأذنت ربّها أن يأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير فأذن لها فأتته بها و لذلك يستروح كلّ محزون بريح الصبا ؛ قال الشاعر :

فإنّ الصبا ريح إذاما تنسّمت ❊ على نفس (قلب خل) محزون تجلّت همومها

قوله : [لولا أن تفنّدون] و«التفنيد» تضعيف الرأي و تسفيه الشخص و «الفند» الكذب أي لولا أن تكذّبوني وتقولون : إنّ هذا شيخ خرف وذهب عقله . قالوا إشفاقاً عليه : إنّك لفي ذهابك القديم عن الصواب في حبّ يوسف لأنّه باعتقادهم أنّ يوسف قد مات منذ سنين .

[فلمّا أن جاء البشير] وهو يهودا ، وقيل : إنّه مالك بن زعر [ألقاه على وجهه] فعاد [بصيراً] فعادت قواه أجمع ، فقال يعقوب للبشير : ما أدري ما اُثيبك به ؟ هوّن الله عليك سكرات الموت .

[قال] يعقوب : [ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله مالا تعلمون] أي إنّي كنت أعلم أنّ الله يصدّق رؤيا يوسف و كنتم لا تعلمون قالوا : إنّ الله أعلمه بحياته ولم يعلمه بمكانه. روي أنّ يعقوب لمّا جاءه البشير قال للبشير : كيف يوسف ؟ قال : هو ملك مصر ! قال يعقوب : ما أصنع بالملك ؟ على أيّ دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام . قال : الآن تمّت النعمة .

ثمّ إنّ أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون إليه [وقالوا ياأبانا استغفر لنا] [قال سوف أستغفر لكم] و ظاهر الكلام أنّه لم يستغفر لهم في الحال بل وعدهم .

الأكثرون على أنّه أراد أن يستغفر لهم وقت السحر لأنّ هذا الوقت أوفق للإجابة .

وقال ابن عبّاس : أخّر الاستغفار إلى ليلة الجمعة لأنّه أوفق للإجابة ، أو أنّه أراد أن يعلم أنه هل تابوا على سبيل الحقيقة أم لا ؟ وقد روي أنّ يعقوب كان يستغفر في كلّ ليلة جمعة من نيّف وعشرين سنة . ويقوم إلى الصلاة إلى وقت السحر ولمّا يفرغ من صلاته رفع يده إلى السماء وقال : اللهمّ اغفر جزعي على يوسف و قلّة صبري عليه و اغفر لأولادي مافعلوه بيوسف. فأوحى الله إليه قد غفرت لك ولهم أجمعين .

وروي أن أبناء يعقوب قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف و البكاء : ما يغني عنّا إن لم يغفر لنا فاستقبل الشيخ القبلة قائماً يدعو و يوسف خلفه يؤمّن و قاموا خلفهما أذلّة

خاشعين عشرين سنة حتّى قلّ صبرهم فظنّوا أنّها الهلكة فنزل جبرئيل و قال : إنّ الله تعالى أجاب دعوتك في ولدك .

قوله تعالى : فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين (٩٩) ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وقال ياابت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد احسن بى اذ اخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم (١٠٠) .

المعنى ههنا حذف تقديره : فلمّا خرج يعقوب و أهله من أرضهم و أتوا دخلوا على يوسف ، فجنف السير إلى مصر فرحاً وسروراً في تسعة أيّام فلمّا دخلوا على يوسف في دار الملك اعتنق أباه و قبّلهوبكى ورفعه ورفع خالته على سرير الملك ، ثمّ دخل منزله وا كتحل وادّهن ولبس ثياب العزّ و الملك فلمّا رأوه سجدوا إعظاماً له و شكراً لله عند ذلك ولم يكن يوسف في تلك المدّة يدّهن ولا يكتحل ولا يطيب .

وقيل : إنّ يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة مع ما يحتاج إليه في السفر فلمّا دنا يعقوب من مصر تلقّاه يوسف في الجندو أهل مصر ، فقال يعقوب : يا يهودا أهذا فرعون مصر ؟ قال : هذا ابنك . ثمّ تلاقيا .

قال الكلبيّ : تلاقيا على يوم من مصر فلمّا دنا يعقوب بدأ بالسلام فقال : السلام عليك يامذهب الأحزان .

عن أبي عبد الله - بحذف الأسانيد - قال : لماأقبل يعقوب إلى مصر خرج يوسف ليستقبله فلمّا رآه يوسف همّ بأن يترجّل له ، ثمّ نظر إلى ماهو من الملك فلم يفعل فلمّا سلّم على يعقوب نزل جبرئيل عليه ، وقال يايوسف إنّ الله جلّ جلاله يقول : هل منعك أن تنزل إلى عبدي الصالح ماأنت فيه ؟ أبسط يدك فبسطها فخرج من بين أصابعه نور فقال : ياجبرئيل ماهذا ؟ قال : هذا أنّه لايخرج من صلبك نبيّ أبداً عقوبة على ما صنعت بيعقوب إذ لم تنزل إليه .

وقوله : [آوى إليه أبويه] أي ضمّ يوسف إليه أبويه وأنزلهما عنده وعانقهما . و

قال أكثر المفسّرين : إنّه يعني بأبويه أباه و خالته اُمّ يامين لأنّ يعقوب لمّا مضت اُمّ يوسف في النفاس بأخيه بنيامين تزوّج خالة يوسف ، و«بنيامين» بالعبرانيّة ابن الوجع ، فسمّاها بأحد الأبوين لقيامها مقام الاُمّ ولأنّ الخالة اُمّ كما أن العمّ يسمّى أباً ، ومنه قوله : «و إله آبائك إبراهيم و إسماعيل و إسحاق»[1] وقيل : يريد أباه واُمّه و كانا حيّين .

وقيل : إنّ راحيل اُمّه نشرت من قبرها حتّى سجدت له تحقّقاً للرؤيا . وبالجملة قال لهم يوسف قبل دخولهم مصر : [ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين] و الاستثناء يعود إلى الأمن ؛ لانّهم ماكانوا يدخلون مصر إلّا بجواز ملوك مصر وكانوا يخافون من ملوك مصر وأنّهم لمّا دخلوا مصر كانوا ثلاثة وسبعون إنساناً ، و خرجوا مع موسى وهم ستّمائة ألف وخمسمائة و بضع وسبعون رجلاً .

[ورفع أبويه على العرش] أي رفعهما على سرير السلطنة إعظاماً لهما و «العرش» السرير المرتفع وانحنوا على وجوههم وكان تحيّة الناس بعضهم للملوك يومئذ السجود و التكفير[2]، ولم يكونوا نهوا عن السجود لغير الله في شريعتهم . وقيل : كان سجودهم كهيئة الركوع كما يفعل الأعاجم . وقيل : الهاء راجعة إلى الله أي سجدوا لله شكراً على هذه النعمة . وهذا ينافي الرؤيا . وقيل : توجّهوا في السجود إليه كما يقال : صلّى للقبلة ويراد استقبالها .

و قال عليّ بن إبراهيم : إنّ يحيى بن أكثم سأل مسائل وعرضوها على أبي الحسن عليّ بن محمّد الجواد عليه السلام ، أحدها أن قال : أخبرني أسجد يعقوب و ولده ليوسف وهم أنبياء ؟ فأجاب أبو الحسن : أمّا سجود يعقوب وولده فإنّه لم يكن ليوسف وإنّما كان ذلك طاعة لله منهم و تحيّة ليوسف كما أنّ السجود من الملائكة كان منهم طاعة لله وتحيّة لآدم عليه السلام ، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم ، ألم تر أنّ يوسف يقول في ذلك الوقت : «ربّ قد آتيتني من الملك ، الآية» وقال يوسف : يا أبت هذا تأويل رؤياي وتصديق رؤياي الّتي رأيتها من قبل .

---

(١) البقرة : ١٣٣ . (٢) وضع اليدين على الصدر .

فائدة : إنّ من قرأ «يا أبتِ» بكسر التاء فعلى الإضافة إلى نفسه وحذف الياء لأنّ ياء الإضافة يحذف في النداء وأمّا إدخال تاء التأنيث في الأب فإنّما دخلت في النداء خاصّة والمذكّر قد يسمّى باسم فيه علامة التأنيث ، فالاسم مثل عيسى ونفس، والصفة نحو غلام لقيته ورجل ربعة فلزمت التاء في الأب عوضاً من ياء الإضافة والوقف عليها بأنّه يقول : يا أبه بالهاء . وأمّا يا «أبتَ» بالفتح فعلى أنّه اُبدل من ياء الإضافة ألفاً ثمّ حذف الألف كما حذف ياء الإضافة وبقيت الفتحة وقول رؤبة : «يا أبتا علّك أو عساكا» فلمّا كثرت هذه الكلمة ألزموها الحذف و القلب ، و أمّا الوقف على الهاء لأنّ تاء التأنيث يبدل منها الهاء في الوقف فيغيّر الحرف بذلك في الوقف كما غيّر التنوين إذا انفتح ماقبله ، بأن اُبدل منه الألف .

وبالجملة فيقول الإمام : ثبت أنّ السجود من آل يعقوب إنّما كان لله لا ليوسف قال يوسف : « يا أبت هذا تعبير رؤياي » الّتي رأيتها من قبل قد جعلها حقّاً و واقعاً وصدقاً في اليقظة . و قيل : كان بين الرؤيا و تأويلها ثمانون سنة . و قيل : سبعون ، عن سلمان الفارسيّ . و قيل : اثنتان و عشرون . و قيل ثمانية عشر . و ولد ليوسف من زليخا : إفرائيم ، و ميسان ، و رحمة امرأة أيّوب ، و كان بين يوسف وبين موسى أربع مائة سنة .

قوله : [وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن] أي أخرجني من السجن إلى أن بلغني إلى هذه المرتبة [وجاء بكم من البدو] إلى ههنا في هذا المقام فإنّهم كانوا يسكنون البادية ويرعون أغنامهم فيها ، و«البدو» بسيط الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد ، سمّي المكان باسم المصدر فيقال : «بدو ، وحضر» وقيل : إنّ «بداء» و«شعب» موضعان ؛ قال كثيّر :

وأنت الّذي حبّبت شعباً إلى بدا ※ إليّ ، و أوطاني بلاد سواهما

و على هذا القول ماكانوا بدويّين بل حضريّين . وإنّما بدأ يوسف بالسجن في تعداد نعم الله دون إخراجه من الجبّ ، مع أنّه أهمّ في الذكر ؟ كرماً بصنيع إخوته به .

[من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي] وأفسد اللعين بيننا أي دخل بيننا بالحسد ، وأصل النزع النخس للدابّة وحملها على الجري .

واحتجّوا العدليّة بهذه الآية على بطلان الجبر، لأنّه عليه السلام أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان، ولو كان ذلك أيضاً من الرحمن لوجب أن لاينسب إلّا إلى الله كما في النعم نسبها إلى الله إنّه هو الحكيم في أفعاله العليم بالمصلحة.

قوله تعالى: رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث فاطر السموات والارض انت وليي في الدنيا والاخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين (١٠١) ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون (١٠٢).

وفي كتاب النبوّة بالإسناد عن أبي عبدالله قال: قال يعقوب ليوسف: يابنيّ حدّثني كيف صنع بك إخوتك؟ قال: يا أبه دعني، فقال: أقسمت عليك إلّا ما أخبرتني. فقال له: أخذوني وأقعدوني على رأس الجبّ، ثمّ قالوا: لي انزع قميصك، فقلت لهم: إنّي أسألكم بوجه أبي يعقوب أن لاتنزعوا قميصي ولا تبدوا عورتي، فرفع فلان السكّين عليّ وقال: انزع، فصاح يعقوب وسقط مغشيّاً عليه، ثمّ أفاق فقال: يا بنيّ كيف صنعوا بك؟ فقال يوسف: يا أبه إنّي أسألك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلّا أعفيتني عن هذه المقالة، قال: فتركه يعقوب. وفي رواية أنّ يوسف قال لأبيه: لاتسألني عن صنع إخوتي بي و اسأل عن صنع الله بي.

وبالجملة عاش يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة ودخل مصر على يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة، وكان بمصر سبع عشرة سنة، ثمّ توفّي و نقل إلى بيت المقدس في تابوت من ساج ووافق ذلك يوم مات عيصو أخوه فدفنا في قبر واحد، فمن ثمّ ينقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، ثمّ رجع يوسف إلى مصر بعد أن دفن أباه ببيت المقدس عن وصيّة منه، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة.

وفي كتاب النبوّة عن أبي جعفر أنّه عليه السلام قال: عاش يعقوب مع يوسف بمصر عامين. قال الراوي: سألته فمن كان الحجّة لله في الأرض يعقوب أم يوسف؟ قال: كان الحجّة يعقوب وكان الملك ليوسف وكان ليوسف بعد يعقوب الحجّة و رسولاً نبيّاً، أما تسمع قول

الله : «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات» .(١)

قال أبوعبدالله : ولمّا جمع الله شمل يعقوب و أقرّ عين يوسف وأتمّ له رؤياه ووسّع عليه في ملك الدنيا و نعيمها ، علم أنّ ذلك لا يبقى له ولايدوم فطلب من الله نعيماً لايفنى واشتاقت نفسه إلى الجنّة فتمنّى الموت ودعابه ، ولم يتمنّ ذلك نبي قبله ولابعده فقال :

[ربّ قدآتيتني من الملك] أي أعطيتني ملك النبوّة وملك مصر [وعلّمتني من تأويل الأحاديث] أي تأويل الرؤيا خالق [السماوات والأرض] ومنشئهما لاعلى مثال سبق [أنت وليّي] أي ناصري وحافظي [في الدنيا والآخرة توفّني مسلماً] أي ثبّتني على الإيمان وأمتني مسلماً [وألحقني] بأهل الجنّة .

فتوفّاه الله بمصر وهو نبيّ فدفن في النيل في صندوق من رخام ؛ وذلك أنّه لمّا مات تشاحّ الناس عليه كلّ يحبّ أن يدفن في محلّته لما كانوا يرجون من بركته فرأوا أن يدفنوه في النيل ؛ فيمرّ الماء عليه ثمّ يصل إلى جميع مصر فيكون كلّهم فيه شركاء وفي بركته مستفيضون ، فكان قبره في النيل في صندوق من رخام .

قوله : [ذلك من أنباء الغيب] ثمّ عاد سبحانه بعد تمام القصّة إلى خطاب النبيّ فقال : « ذلك من أنباء الغيب » أي الّذي قصصت عليك من قصّة يوسف من جملة أخبار المجهولة عليك [نوحيه إليك] على ألسنة الملائكة لتخبر به قومك ويكون علمه دلالة على إثبات نبوّتك ومعجزة على صدقك [وما كنت] يا محمّد عند أولاد يعقوب إذعزموا على إلقائه في البئر واجتمع آراؤهم عليه [وهم يمكرون] ويحتالون في أمر يوسف حتّى ألقوه .

قوله تعالى : وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (١٠٣) وماتسئلهم عليه من اجران هو الاذكر للعالمين (١٠٤) و كأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون (١٠٥) وما يؤمن اكثرهم بالله الاوهم مشركون (١٠٦) افامنوا ان تاتيهم غاشية من عذاب الله او تاتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون (١٠٧) .

المعنى : لمّا بيّن الآيات الّتي لوتفكّروا فيها عرفوا الحقّ من جهتها ، ولم يتفكّروا ،

---

(١) المؤمن : ٣٤ .

بيّن في هذه الآية أنّ التقصير من جهتهم لا من جهته سبحانه ولا من جهتك لأنّك دعوتهم فقال : [وما أكثر الناس] بمصدّقين نبوّتك [ولوحرصت بمؤمنين] ـ و«الحرص» طلب الشيء باجتهاد في إصابته ـ لأنّ حرص الداعي لايفيد إذا كان المدعوّ لايجيب .

وسبب نزول الآية أنّ جماعة من اليهود طلبوا بيان هذه القصّة من رسول الله وظنّ رسول الله أنّهم بعد سماع القصّة يؤمنون ، فلمّا ذكرها ﷺ أصرّوا على كفرهم ؛ فنزلت .

وهذا القرآن يشتمل على منافع عظيمة وأنت لا تطلب منهم شيئاً ومالاً جعلاً ، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمرّدوا ؛ لأنّ القرآن تذكرة لهم في دلائل التوحيد والنبوّة ، وحاصل المعنى أنّك ماتطلب منهم أجراً ومالاً حتّى يكون ذلك مانعاً لقبولهم ، فكيف لايقبلون صلاحهم ؟

قوله [و كأيّن من آية] أي كم من آية وحجّة من العدد شئت من العلامات الدالّة على وحدانيّة الله من الشمس والقمر والنجوم والسماوات والجبال والشجر وألوان النباتات و أحوال المتقدّمين [يمرّون عليها] و يبصرونها [وهم معرضون] عن التفكّر فيها .

قوله : [وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون] قريش وعبدة الأصنام كانوا يقرّون بالله خالقاً ومحيياً ومميتاً ، ويعبدون الأصنام ويدعونها آلهة مع أنّهم كانوا يقولون : الله ربّنا و إلهنا ورازقنا . فكانوا مع هذه الإقرار مشركين بسبب عبادة الأصنام فحينئذ إيمانهم شرك .

و قيل : إنّها نزلت في مشركي العرب إذا سئلوا : من خلق السماوات والأرض ، و ينزل المطر؟ قالوا : الله ؛ ثمّ هم في تلبيتهم يقولون : لبّيك لا شريك لك إلّاشريكاً هو لك تملكه وماملك .

وثالث الأقوال أنّهم أهل الكتاب آمنوا بالله واليوم الأخر والتوراة والإنجيل ، ثمّ أشركوا بإنكار القرآن وإنكار نبوّة محمّد ﷺ ، عن علي بن موسى عليه‌السلام .

ورابع الأقوال أنّهم المنافقون يظهرون الإيمان ويشركون في السرّ .

وخامس الأقوال أنّ المراد شرك الطاعة لا شرك العبادة أطاعوا الشيطان في المعاصي الّتي يرتكبونها ممّا أوجب الله عليها النار ، فأشركوا بالله في طاعته ولم يشركوا بالله شرك عبادة فيعبدون غيره ، عن أبي جعفر عليه السلام .

و روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قول الرجل : « لو لا فلان لهلكت » و « لولا فلان لضاع عيالي » جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه و يدفع عنه و هذا الشرك لايبلغ به الكفر .

قوله : [أفأمنوا أن تأتيهم] أي أفاطمأنّوا و أمنوا هؤلاء الكفّار أن يأتيهم عذاب من الله يعمّهم ويحيط بهم كالغاشية الّتي تحيط و تستر السرج ، مجلّلة ، مجلّلة لجميعهم ، وهو عذاب الاستئصال . وقيل : هي الصواعق والقوارع [أوتأتيهم] القيامة [بغتة] فجاءة من غير ترقّب على غفلة منهم [وهم لايشعرون] بقيامها ، قال ابن عبّاس : تهجم الصيحة بهم وهم في الأسواق واللقمة في فيهم والميزان بيدهم .

قوله تعالى : قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى و سبحان الله وما أنا من المشركين (١٠٨) وما ارسلنا من قبلك الارجالا نوحى اليهم من اهل القرى افلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدا الاخرة خير للذين اتقوا افلا تعقلون (١٠٩) .

المعنى : ثمّ أمر نبيّه أن يبيّن للمشركين ما يدعو إليه فقال : [قل] يا محمّد لهم [هذه سبيلي] وطريقتي وسنّتي ومنهاجي الّذي أدعوكم به و [أدعو إلى الله] وتوحيده ودينه على يقين وعلم لا على وجه التقليد [أنا] أدعوكم [ومن] آمن بطريقتي يدعوكم إلى هذا الأمر وتنزيهاً لله عمّا يشركون . والتقدير : قل هذه سبيلي وقل سبحان الله . وقيل : اعتراض بين الكلامين و الواو فيه مثل قولك : « قال الله وهو منزّه عن الشركاء » .

وفي هذه الآية دلالة على أنّ دعوة الخلق إلى دين الله لابدّ وأن يكون على بصيرة من الداعي ويقين وفضيلة فضّلها الله بعض خلقه بها وهي حرفة الأنبياء قال صلى الله عليه وآله : العلماء أُمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون لما يدعونهم إليه .

قوله : [وما أرسلنا من قبلك] أي إنّه سبحانه إنّما أرسل الرسل من أهل الأمصار لأنّهم

أرجح عقلاً وعلماً من أهل البوادي لبعد أهل البوادي عن العلم ؛ قال بعض العلماء : لم يبعث الله نبياً قط من أهل البادية ولا من النساء .

[أفلم يسيروا] هؤلاء المشركون المنكرون لنبوّتك [في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم] من المكذّبين لرسلهم ؟ وكيف أهلكهم بعذاب الاستئصال ؟ فيعتبروا ويحذروا مثل ما أصابهم [ولدار الآخرة خير للّذين اتّقوا] يقول هذا صنيعنا بأهل الإيمان والطاعة ، ولدار الآخرة خير لهم من دار الدنيا وما فيها ، أفلا تفهمون ماقيل لكم؟

قوله تعالى : حتى اذا استيئس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولايرد بأسنا عن القوم المجرمين (١١٠) لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب (١١١) ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون(١١٢) .

أخبر الله نبيّه في هذه الآية عن حال الرسل مع أممهم تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله فقال- وفي الكلام حذف لدلالة الكلام عليه والتقدير : إنّا أخّرنا العذاب عن الأمم السالفة المكذّبة لرسلنا كما أخّرناه عن أمّتك يا محمد حتّى إذا بلغوا إلى حالة يأس الرسل عن إيمانهم وتحقّق يأسهم بإخبار الله تعالى إيّاهم -:

[حتّى إذا استيأس الرسل] من إيمان القوم [فظنّوا] وفي هذا الضمير اختلاف قيل : إنّ الضمير راجع إلى القوم ؛ إنّ القوم لمّا استبطؤوا العذاب ظنّوا أنّ الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر ، فحينئذ « كذبوا » بالتخفيف .

فإن قيل : هذا إضمار قبل الذكر لأنّه لم يجر فيما سبق من الكلام ذكر المرسل إليهم فكيف يجوز عود هذا الضمير إليهم ؟

قلنا : ذكر الرسل يدلّ على المرسل إليهم وإن شئت قلت : إنّ ذكرهم جرى في قوله : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم » فيكون الضمير عائداً إلى الّذين من قبلهم من مكذّبي الرسل .

وأمّا قراءة التشديد فمعناه أنّ الرسل أيقنوا أنّ الأمم كذّبوهم تكذيباً لا يصدر منهم

الإيمان بعد ذلك فحينئذ دعوا عليهم فهنا لك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال .وورود الظنّ بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى : « الّذين يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم (١) » أي يتيقّنون .وفسّر وجوهاً أُخرلا يليق وهو أنّ الظانّين الرسل .

روي أنّ سعيد بن جبير والضحّاك اجتمعا في دعوة فسأل الضحّاك سعيد بن جبير عن هذه الآية فقال : « وظنّوا أنّهم كذبوا » بالتخفيف بمعنى وظنّ المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوهم . فقال الضحّاك : ما رأيت كاليوم قطّ لو رحلت في هذه الآية وتفسيرها إلى اليمن لكان قليلاً .

أقول : ولا يليق أن يقال : إنّ الأنبياء ظنّوا هذا الظنّ الفاسد ؛ قالت عائشة : ماوعد الله محمداً ﷺ شيئاً إلّا وقد علم أنّه سيوفيه ولكنّ البلاء لم يزل بالأنبياء حتّى خافوا من أن يكذّبهم الّذين كانوا قد آمنوا بهم ، وهذا الردّ والتأويل في غاية الحسن .

قوله : [جاءهم نصرنا] أي لمّا بلغ الحال إلى الحدّ المذكور جاءهم نصرنا لهم [فنجّي] قرىء بنون وتشديد الجيم على البناء للمفعول وقرىء بنونين على الاستقبال بمعنى نحن نفعل بهم ذلك ونخلصهم ، وإنّما حكي فعل الحال والقصّة ماضية كقوله : « هذا من شيعته وهذا من عدوّه (٢) » إشارة إلى الحاضر والقصّة ماضية .

قوله : [لقد كان في قصصهم] أي في قصّة يوسف وقصص إخوته أو القصص من البدو إلى الختم اعتباراً لأهل العقل . و« العبرة » عبارة عن العبور عن الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، ويستنبط من المعلوم إلى المجهول بالتأمّل والتفكّر وهو أنّ التأمّل في مثل هذه الأُمور مثل أن ينتهي حال رجل قد ألقوه في البئر وباعوه بثمن وكس ، وحبسوه سنين متطاولة ، و هو وصل من غير سبب و نسب إلى مثل هذه السلطنة العظيمة في الدنيا و الدين ليس إلّا أمر خارج عن حدّ العادة ، ولابدّ أن يكون بمشيئة غيره تحصّل هذا الأمر وليس إلّا بتقدير القادر القاهر .

[وماكان حديثاً يفترى] أي ماكان ما أدّاه محمد حديثاً يختلق كذباً و[لكن] كان[تصديق]

---

(٢) البقرة : ٤٦.

(٣) القصص : ١٥ .

الكتب [الّذي بين يديه] لأنّ هذه القصّة وردت على وجه الموافق للتوراة وسائر الكتب ونصب «تصديقاً» على تقدير ولكن كان تصديقاً كقوله : « ولكن رسول الله وخاتم النبيّين[(1)] » أي هذه القصّة وسائر القرآن تصديق الكتب الّذي بين يديه ، [وتفصيل] بيان [كلّ شيء] من الحلال والحرام والشرائع للمؤمنين ؛ لأنّهم المنتفعون به دون غيرهم .

تمّت السورة بحمدالله

(١) الاحزاب : ٤٠ .

سورة الرعد

مكّيّة كلّها إلّا آخر آية منها نزلت في عبدالله بن سلام ، فإنّها مدنيّة ، وقيل : إنّها مدنيّة إلّا اثنين فإنّهما مكّيّة .

فضلها : عن اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : من قرأها اُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ سحاب مضى وكلّ سحاب يكون إلى يوم القيامة ، وكان يوم القيامة من الموفين بعهدالله .

وقال أبوعبدالله عليه السلام : من أكثر قراءة الرعد لم يصبه الله بصاعقة وإن كان مؤمناً اُدخل الجنّة بغير حساب ، وشفّع في جميع من يعرفه من أهل بيته وإخوانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

المر تلك آيات الكتاب والذى انزل اليك من ربك الحق ولكن اكثر الناس لايؤمنون (١) الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون (٢) .

قدسبق ذكر فواتح السور ، في المعاني عن الصادق عليه السلام : «المر» : أنا الله المحيي المميت الرازق [تلك] إشارة إلى أنّ هذه [آيات الكتاب] الّتي تقدّم الوعد بها ، وليست بمفتريات ولا بسحر بل قرآن وحقّ ، وقيل : إنّ الكتاب عبارة عن التوراة والإنجيل فيكون المعنى: تلك الأخبار الّتي قصصتها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدّمة الدالّة على الأمور المؤدّية إلى المعرفة بالله وأنّ القرآن لايشبه شيئاً من الكلام ولا يشبهه شيء من الكلام في جامعيّته ، و أنّه [الحقّ] فاعتصم به [ولكنّ أكثر الناس] لايصدّقون بأنّه الحقّ وبأنّه منزّل من عندالله .

ولمّا ذكر أنّه منزّل منه تعالى ولكن لايؤمنون به ، ثمّ عرّف الدليل الّذي يوجب التصديق به وبخالقيّته : هو [الّذي رفع السماوات بغير عمد ترونها] قيل : إنّ السماوات لها عمد ودعائم ولكن لاترونها . وقيل : ليس لها دعائم وترونها أنّها فارغة عن العمد . العيّاشيّ قال : قال الرضا عليه السلام : فثمّ عمد ولكن لا ترونها . والعمد جمع العماد ويجوز أن يكون اسم جمع فاستدلّ سبحانه بأحوال السماوات ابتداءً .

والمعنى أنّ هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفة في الجوّ العالي بغير عمد ، ويستحيل أن يكون بقاؤها بذواتها لأنّ الأجسام متساوية في الماهيّة ولو وجب حصول جسم في حيّز معيّن لوجب حصول كلّ جسم في ذلك الحيّز ، ولو وجب حصول جسم في حيّز معيّن لوجب حصوله في جميع الأحياز ضرورة أنّ الأحياز بأسرها متشابهة ، فحصول

الأجرام الفلكيّة في أحيازها وجهاتها المعيّنة ليس أمر واجب لذاته ، والخلأ لانهاية له فحصول جسم معيّن بحيّز معيّن من دون الأحياز مع أنّ الأحياز متساوية والخلأ لانهاية لابدّ من تخصيص مرجّح ومخصّص .

ولا يجوز أن يقال : إنّها اختصّت وبقيت بسلسلة فوقها لأنّه يعود الكلام بتلك السلسلة ولزم المرور إلى مالانهاية له وهو محال،فثبت أنّ هذه الخصوصيّات بمدبّر غيرها تعالى شأنه العزيز ، فهذا برهان قاهر على وجود الإله ، وكذلك في الشمس والقمر والأرض والنبات وما سواه ؛ لأنّ اختصاصيّتها بتحيّزاتها الخاصّ وتكيّفاتها بكيفيّات مختلفة يدلّ على تخصيص مخصّص متصرّف في ذواتها وخارج عنها قاهر عليها .

قوله : [ثمّ استوى على العرش] أي استولى على العرش واستوى واستقرّ أمر العرش بعد خلقه ، والوجه في إدخال كلمة «ثمّ» في الكلام مع أنّه لم يزل كان مقتدراً أنّ المراد اقتداره على تصريفه وتقليبه ولايوصف به إلّا بعد وجود العرش .

قوله : [وسخّر الشمس والقمر] وذلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده ، كلّ واحد منهما يجري ويتحرّك إلى وقت معيّن وهو فناء الدنيا وقيام الساعة الّتي تكوّر عندها الشمس وينخسف القمر وينكدر النجوم أو المراد بالأجل المسمّى منازلهما الّتي ينتهيان إليها ولا تجاوزانها ، وللشمس مائة وثمانون منزلاً تنزل كلّ يوم منزلاً حتّى تنتهي إلى آخر المنازل فلايجاوزه ، وترجع إلى أوّل المنازل ، وينزل القمر كلّ ليلة منزلاً حتّى ينتهي إلى آخر منازله ، فهو سبحانه يدبّر الاُمور كلّها من الإيجاد والإعدام والإغناء والإفقار و يكلّف الخلق من أيّ جهة على كمال القدرة والحكمة .

[تفصيل الآيات] يأتي بآية في أثر آية فصلاً فصلاً مميّزاً بعضها عن بعض ليكون أمكن للاعتبار و التفكّر [لعلّكم بلقاء ربّكم توقنون] لكي توقنوا بالبعث والنشور ، وفي هذا دلالة على وجوب النظر المؤدّي إلى معرفة الله وعلى بطلان التقليد .

قوله تعالى : وهو الذى مدلكم الارض وجعل فيها رواسى وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون (٣) و فى الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع

ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ان فى ذلك لايات لقوم يعقلون (٤) .

لمّا قرّر الدلائل السماويّة أردفها بتقرير الدلائل الأرضيّة [وهو الّذي] بسطها طولاً وعرضاً ليتمكّن الحيوانات من الثبات عليها والاستقرار فيها .

[وجعل فيها رواسي] أي جعل فوق الأرض جبالاً ثابتة باقية متمكّنة في أحيازها يقال : رسى الوتد وأرسيته ، وطبيعة الأرض واحدة فاختصاص البعض بكونه الجبل دون البعض بتخليق الحكيم بالمصالح كما أنّ الأرض واحدة في الطبيعة ، والجبل واحد في الطبع ، وتحصل من الأرض والجبال الفلزّات المختلفة الأثر والمعادن المختلفة الكيفيّة كالزاج و الأملاح والقير والنفط والكبريت ، وهذه اُمور مختلفة من موضع واحديّ الطبع حتّى أنّه يوجد في جبل عين ماء حارّ سخين لايمكن مسّه من شدّة الحرارة وبجنبه عين ماء زلال بارد كالثلج ، وبينهما مسافة شبر بل فتر ، وكيف يمكن أن يتصوّر أنّ طبيعة هذا الفتر من الأرض غير طبيعة ذلك الفتر في طرفيها فرق من جميع الجهات .

قوله : [وأنهاراً ومن كلّ الثمرات] أي وشقّ فيها أنهاراً تجري فيها المياه ليتمكّن من الشرب والسقي ولولا الأنهار لضاع المياه ؛ لأنّ الماء جسم سيّال والأرض منبسطة. ومن كلّ الثمرات [جعل فيها] وفي أصنافها صنفين أسود وأبيض وحلواً وحامضاً ورطباً و يابساً وصيفيّاً وشتويّاً .

والزوج قد يكون فرداً وقد يكون اثنين يقال : زوج نعل وزوجين نعل . وإنّما قال: اثنين إمّا باعتبار هذا المعنى أو للتأكيد والزوج في الحيوان عبارة عن الذكر والاُنثى ، وفي الثمار عبارة عن لونين أو باعتبار الذكورة والاُنوثة ؛ لأنّ جنس من النبات كذلك وإن خفي [يغشي الليل] ضياء [النهار] ليسكن الحيوانات فيه ويأتي بضياء النهار ليمحو ظلام الليل لمعايشهم . [إنّ في ذلك] أي فيما سبق ذكره لدلالات واضحة على وحدانيّة الله لأهل الاستدلال و التعقّل .

[وفي الأرض قطع متجاورات] أي أبعاض متقاربات مختلفات في التفاضل منها جبل صلب لاينبت شيئاً ، ومنها سهل حرّ ينبت مع تقارب بعضها من بعض [وجنّات] وبساتين

[من أعناب وزروع ونخيل صنوان وغير صنوان] أي من أصل واحد يكون النخيل و من نخلات وأُصول شتّى و«الصنو» الأصل و«الصنوان» النخلة تكون حولها النخلات و غير صنوان النخل المتفرّق .

[يسقى] ماذكرناه [بماء واحد] من الأنهار أومن السماء [و]مع ذلك [نفضّل بعضها على بعض] في الطبع والشكل واللون والطعم ، فلو كانت بالطبع لما اختلفت طعومها وألوانها مع كون الأرض والماء والهواء واحداً ، وهذا دليل واضح .

[إنّ في ذلك لآيات لقوم] يعرفون ، مثلاً إنّك ترى وردة واحدة من أصلةواحدة في غاية الرقّة و النعومة في أرضة واحدة أحد وجهها في غاية الحمرة و الوجه الثاني في غاية السواد ، أو نصف الوجه في غاية الحمرة والنصف الآخر في غاية البياض ، و يستحيل أن يقال : وصل تأثير الشمس إلى أحد طرفيه دون الثاني ونعلم أنّ نسبة الطباع والأفلاك بالنسبة إلى هذا الورد المخصوص بالسويّة فمن أين حصل هذا الاختلاف ؟

فهذا التدبّر والتعقّل يوجب لك العلم بوجود مخصّص ومدبّر ، لأنّ العلم بافتقار الحادث إلى المحدث علم ضروري .

قوله : وان تعجب فعجب قولهم ءاذا كنا ترابا ءانا لفى خلق جديد (٥) اولئك الذين كفروا بربهم و اولئك الاغلال فى اعناقهم و اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون (٦) .

العجب والتعجّب هجوم ما لايعرف سببه على النفس [وإن تعجب] يا محمّد من قول هؤلاء بتكذيبك في نبوّتك بعد أن حكموا واعترفوا بصدقك ، أوإن تعجب منهم بعبادتهم مالايضرّ ولا ينفع بعد أن عرفوا بهذه البيّنات من أنّه مدبّر السماوات والأرض وخالق الشمس والقمر والحيوان والنبات [فعجب] إنكارهم البعث حيث قالوا : أنبعث و نعاد بعد ماصرنا تراباً ؟ وهذا منهم في غاية العجب .

وسمّي الإعادة خلقاً جديداً فإذا جاز الإنشاء بالاستحالة الأولى حيث التراب صار إنساناً و الماء صار علقة ثمّ مضغة ثمّ لحماً ثمّ إنساناً فلمَ لا يجوز تعلّقه بالاستحالة الثانية بأن يجعل التراب ثانياً إنساناً لأنّ القادر على الأقوى الأكمل قادر على الأقلّ الأضعف .

هؤلاء المنكرون بالبعث [كفروا بربّهم] فكلّ من أنكر البعث والقيامة فهو كافر بنصّ الآية لأنّ إنكار البعث إنكار القدرة والصدق والعلم [واُولئك الأغلال في أعناقهم] فيه قولان قيل : المراد بالأغلال كفرهم وذلّتهم وانقيادهم للأصنام ونظيره قوله تعالى :«إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً»[1] قال الشاعر : «لهم عن الرشد أغلال وأقياد».

قال العاصي : هذا المعنى وإن كان محتملاً إلاّ أنّ حمل الكلام على الحقيقة أولى أو المراد أنّه تعالى يجعل الأغلال في أعناقهم يوم القيامة و الدليل عليه قوله تعالى : «إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثمّ في النار يسجرون[2]».

[و اُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] و في الآية صراحة على تأبيد عذاب الكفّار .

قوله تعالى: ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات و ان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم و ان ربك لشديد العقاب (٧) .

[ويستعجلونك] يا محمّد هؤلاء المشركون بالعذاب قبل الرحمة ، وبالعقاب الّذي توعّدوا به على التكذيب قبل الثواب الّذي، وعدوا به على الإيمان وذلك حين قالوا : «فأمطر علينا حجارة من السماء»[3] و[قد]مضت [من قبلهم المثلات] أي العقوبات و هو ما حلّ بهم من المسخ والخسف والغرق وقد سلك هؤلاء طريقتهم فكيف يتجاسرون على استعجالهم؟ «المثلة» العقوبة المبيّنة في المعاقب شيئاً من أثرها كتغيّر في الصورة تبقى تغيّر قبح أوخزي وفضيحة، والمعنى: وقد وقعت المثلات بأقوام قبلهم .

[وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم] قال المرتضى : في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمؤمنين من أهل القبلة ؛ لأنّه سبحانه دلّنا على أنّه يغفر لهم مع كونهم ظالمين لأنّ قوله تعالى : «على ظلمهم» إشارة إلى الحال الّتي يكونون عليها ظالمين كقولك : «أنا أودّ فلاناً على عيبه وأصله على هجره » وأصحاب السنّة والجماعة تمسّكوا بهذه الآية

(١) يس :٨.
(٢) غافر : ٧٢.
(٣) الانفال :٣٢.

على أنّه تعالى قد يعفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة [و إنّ ربّك لشديد العقاب] لمن استحقّه .

قوله تعالى : ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه انماانت منذر ولكل قوم هاد (٨) .

[ويقول] الكفّار لم ينزل عليك آية غير القرآن مثل الناقة والعصا ؟ والسبب في هذا الاقتراح أنّهم أنكروا كون القرآن من المعجزات وطلبوا غير الآيات الّتي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى ومثل أن اجعل الصفا لنا ذهباً حتّى نأخذ منه ما نشاء ، و إنّما لم يظهر الله تلك الآيات لأنّه لو أجاب اُولئك لاقترح قوم آخرون آية اُخرى ، و كذلك كلّ كافر فكان يؤدّي إلى غير نهاية .

[إنّما أنت] مخوّف وهاد لكلّ قوم ، وليس إليك إنزال الآيات ، و قيل : معناه إنّما أنت منذر يا محمّد [ولكلّ قوم هاد] يهديهم وداع يرشدهم وفي رواية اُخرى عن ابن عبّاس قال : لمّا نزلت الآية قال رسول الله : أنا المنذر وعليّ الهادي من بعدي يا عليّ بك يهتدي المهتدون .

وروى الحاكم أبوالقاسم الحسكانيّ في كتاب شواهد التنزيل بالإسناد عن إبراهيم ابن الحكم بن ظهير عن أبيه عن حكم الجبير عن أبي بردة الأسلميّ قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بالطهور ، وعنده عليّ بن أبي طالب فأخذ رسول الله بيد عليّ بعدما تطهّر فألزمها بصدره ، ثمّ قال : إنّما أنت منذر ، ثمّ ردّها إلى صدر عليّ ، ثمّ قال : ولكلّ قوم هاد ، ثمّ قال : إنّك منارة الأنام وغاية الهدى وأمير القرى وأشهد على ذلك أنّك كذلك .

قوله تعالى : الله يعلم ماتحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار (٩) عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (١٠) سواء منكم من اسر القول و من جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار (١١) له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم واذا اراد الله بقوم سوءً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال (١٢) .

النظم : إنّه تعالى لمّا قال : « وإن تعجب فعجب قولهم » في إنكار البعث و ذلك

لأنّهم أنكروا البعث بسبب أنّ أجزاء الأبدان عند تفرّقها وتفتّتها يختلط بعضها ببعض و لا يبقى الامتياز فبيّن في هذه الآية أنّه إنّما لايبقى الامتياز في حقّ من لايكون عالماً بجميع المعلومات .

ثمّ احتجّ على كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات بأنّه [يعلم ما تحمل كلّ اُنثى] أي يعلم ماتحمله من الولد أنّه من أيّ الأقسام أهو ذكر أم اُنثى تامّ أوناقص حسن أم قبيح طويل أم قصير وغير ذلك من الحاضرة والمترقّبة فيه [وما تغيض الأرحام] و ما تغيضه الأرحام و « الغيض » النقص والضمير محذوف [وما تزداد] أي تأخذه زيادة ومنه قوله : «وازدادوا تسعاً»[(١)] .

واختلفوا فيما تغيضه الرحم وتزداده على وجوه : الأوّل : عدد الولد من زمن العلوق إلى زمن الولادة و المولود في أقلّ مدّة الحمل و المولود في أكثرها . قيل : إنّ الضحّاك ذوالسلعة ولد في سنتين و هرم ابن حيان في أربع سنين ومن ذلك سمّي هرماً ، ويروى في العدد أنّ شريكاً كان رابع أربعة .

[و كلّ شيء عنده] أي في علمه في كمّه و كيفه بقدر وحدّ لايجاوزه و لا ينقص عنه ، وعالم ماغاب عن الخلق علمه وماشهدوه ، وقيل : الغائب هو المعلوم والشاهد هو الموجود. وهو الكبير السيّد الملك القادر على كلّ شيء بقدرته .

[سواء منكم] و كلمة سواء يطلب في معناه اثنين وإلّا لايفرض التساوي لأنّ التساوي لا يتحقّق إلّا في الاثنينيّة ، و المعنى : ذو سواء أومتساو في علمه [من أسرّ القول] منكم في نفسه وأخفاه أوأعلنه وأبداه [ومن هو] مستتر بالليل و[مستخف] أوظاهر أي يعلم ويرى ما أخفاه الليل بظلمته وأظهره النهار بضوئه .

[له معقّبات] الضمير إمّا راجع إلى «من» في قوله: «من أسرّ القول» أو إلى الله أو إلى النبيّ في قوله : «إنّما أنت منذر» ومن كلّ شيء ما خلف يعقّب ما قبله ، و « المعقّبات » الملائكة الحفظة ووصفهم بالمعقّبات لأنّ ملائكة الليل يعقّب ملائكة النهار وبالعكس ، أولأنّهم يتعقّبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب من أعمالكم ، ومنه العقاب لأنّه يعقّب

---

(١) الكهف : ٢٥.

الجرم ، ومنه العُقاب لأنّه يتبع الصيد ، و أيضاً معقّبات يحفظونكم عن وجوه المهالك والجنّ والإنس والهوامّ ، و يحفظونه بما لم يقدّر نزوله ؛ فإذا جاء المقدّر بطل الحفظ ؛ قال كعب : لولا أنّ الله و كلّ بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم و مشربكم و عوراتكم لتتخطّفكم الجنّ .

[إنّ الله لا يغيّر ما بقوم] من النعمة والحال الجميلة [حتّى يغيّروا ما بأنفسهم] من الطاعة ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا أقبلت عليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر.

قوله : [وإذا أراد الله بقوم سوءاً] وبلاء ومرضاً فلا مردّ لبلائه [وما لهم من دونه من وال] يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم .

فلو قيل : إنّ الملائكة ذكور فلمَ ذكر في جمعها جمع الإناث وهو المعقّبات ؟

قال الفرّاء : واحد المعقّبات معقّب ، والجمع معقّبة ، و معقّبات جمع الجمع كما قالوا : رجالات جمع الجمع من رجال ، وقال الأخفش : إنّما اُنّثت لكثرة ذلك منها نحو علاّمة ونسّابة ، وهو ذكر .

ومعنى يحفظونه من أمر الله على التقديم والتأخير والتقدير : له معقّبات من أمر الله يحفظونه أي أمرهم الله بحفظه . وقيل : فيه إضمار أي ذلك الحفظ ممّا أمر الله به ، فحذف الاسم وبقي خبره كما يكتب على الكلس السفان والمراد الّذي فيه السفان ، و قيل: «من» بمعنى الباء أي بأمر الله ، والدليل عليه أنّه لا قدرة للملائكة على أن يحفظوا أحداً من أمر الله وقضائه.

وهذا البيان يعني أنّ الملائكة الحفظة للإنسان معيّنين لحفظ البشر من المهالك ومدبّرة لاُمورهم كلام مقبول عند الفلاسفة والحكماء وأصحاب الطلسمات ، النهاية أنّهم عبّروا بالأرواح الفلكيّة وخالفوا لسان الشرع بهذه الطريقة المقبوحة ، ومن المعلوم بالبداهة في العقل أن يكون الملك المشتعر الحيّ المقتدر بقدرة الله حافظاً لنوع البشر أقرب للقبول من أن يكون الكوكب حافظاً ومدبّراً للانسان لأنّ المنجّمين يعتقدون على أنّ التدبير في كلّ يوم لكوكب على حدة ، و كذلك في كلّ ليلة على حدة ، و يقولون : إنّ لتلك الكواكب أرواحاً وتلك التدبيرات المختلفة لتلك الأرواح ، و كذلك قولهم في تدبير القمر والهيلاج والكدخدا ، و كذلك أصحاب الطلسمات ، و كذلك يقولون : أخبرني الطباعيّ

التامّ ومرادهم بالطباعي التامّ أنّ لكلّ إنسان روحاً فلكيّة يتولى إصلاح مهمّاته ودفع بليّاته وآفاته.

ومن هذه الأقوال لعلّ انتشاء مذهب التصابؤ . وباليقين أن يكون يؤيّدك ويحفظك ملك من ملائكة الله أحرى بالقبول من أن يؤيّدك و يحفظك المرّيخ مثلاً لأنّ القوّتين ناشئتان من غيرهما ، فإن قلت :منهما ـعياذاً بالله ـ فقد تعدّدت الآلهة إلى عدد لايتناهى ، وإن قلت : من غيرهما .فتعلّق هذه القوّة بالملك أقبل بالقبول من تعلّقها بجرم كمد مجهول الماهيّة والصورة كالقمر مثلاً على أنّ تمام كتب السماويّة ناطقة بذلك، آمنت بما أنزل إليه في كتبه على لسان رسله .

قوله تعالى : هو الذي يريكم البرق خوفاوطمعاوينشيء السحاب الثقال (١٢) ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال (١٣) له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال (١٤) ولله يسجد من في السموات و الارض طوعا و كرها وظلالهم بالغدو والاصال (١٥) .

لمّا بيّن في الآية السابقة بأنّ الله إذا أراد بقوم سوء لا مردّ لقضائه أخبر في هذه الآية كمال قدرته فقال : [هوالذي يريكم البرق] تخويفاً وإطماعاً فأقام الخوف والطمع مقام التخويف والإطماع ، والخوف من الصواعق الّتي يكون معها و طمعاً في الغيث الّذي ينزل ، أوخوفاً لمن يخاف ضرر المطر ، وطمعاً لمن يرجو الانتفاع به فيشبه النعم والإحسان من بعض الوجوه ، ويشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه ؛ قال المتنبّي :

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى * يرجّى الحيا منها و يخشى الصواعق

واعلم أنّ حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله ، وبيانه أنّ السحاب جسم مركّب من أجزاء رطبة مائيّة ، ومن أجزاء هوائيّة وناريّة ، ولا شكّ أنّ الغالب عليه الأجزاء المائيّة ، والماء جسم بارد رطب ، والنارجسم حارّ يابس ، و كون الضد في الضدّ، فظهور الضدّ من الضدّ التامّ على خلاف العقل و العادة ، فلابدّ من صانع مختار يظهر الضدّ من الضدّ .

فإن قيل : إنّ الريح احتبس في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه ، ثم إنّ الريح يمزّقه تمزيقاً عنيفاً فيتولّد من التمزيق الشديد حركة عنيفة والحركة موجبة للسخونة وهي البرق .

وهذا الكلام خلاف المعقول لأنّه لو كان كذلك لوجب أن يقال : أينما يحصل البرق يكون يحصل الرعد لأنّ الرعد صوت حادث من تمزّق السحاب وليس الأمر كذلك؛ فإنّه كثيراً مّا يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد ، ثم إنّ السخونة الحاصلة بسبب قوّة الخرق والحركة تعارضه القوّة المائيّة الموجبة للبرد والرطوبة وعند حصول هذا العارض القوي كيف تحدث النارية ؟ بل نرى النيران العظيمة تنطفيء بصبّ الماء عليها وأنّ السحاب أكثره ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية ؟

على أنّ النار الصرفة لا لون لها بمذهبكم ، فمن أين حدث ذلك اللون ؟ فثبت أنّ حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالص لا يمكن إلّا بأمر خارج من الطبيعة ، وذلك بقدرة الحكيم القادر .

النوع الثاني من الدلائل في هذه الآية قوله تعالى : [وينشيء السحاب الثقال] بالماء و «السحاب» اسم جنس و الواحدة سحابة ، واعلم أنّ هذا أيضاً من دلائل القدرة و ذلك لأنّ هذه الأجزاء المائيّة إمّا أن نقول : إنّها حدثت في جوّ الهواء و يقال : إنّها تصاعدت من وجه الأرض ؛ فإن كان الأوّل وجب أن يكون حدوثها بإحداث محدث قادر ، و أمّا الثاني وهو أن يقال : إنّ تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض ، فلمّا وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت فرجعت إلى الأرض ، فهذا باطل لأنّ الأمطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة ، و اُخرى تكون متباعدة و تارة تدوم مدّة نزول المطر ، وتارة تقصر المدّة فاختلاف هذه الكيفيّة مثلاً في يوم واحد مع أنّ طبيعة الأرض واحدة وطبيعة الشمس المسخّنة للحارّات واحدة من غير تخصيص الفاعل المختار غير معقول ، على أنّ التجربة دلّت على أنّ للتضرّع والدعاء في نزول الغيث أثراً محسوساً فعلم أنّ المؤثّر فيه القدرة لا الطبيعة و الخاصيّة .

ومن آياته الدالّة على القدرة قوله : [ويسبّح الرعد بحمده] تسبيح الرعد دلالته على

تنزيه الله ووجوب حمده فكأنّه هو المسبح ، وقيل : إنّ الرعد هو الملك الّذي يسوق السحاب ويزجره بصوته ، وهو يسبّح الله تعالى ويحمده ، روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : إنّ ربّكم سبحانه يقول : لو أنّ عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أُسمعهم صوت الرعد .

وكان صلى الله عليه وآله إذا سمع صوت الرعد قال : سبحان من يسبّح الرعد بحمده . و روى سالم بن عبدالله عن أبيه قال : كان رسول الله إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللّهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك . وقال ابن عبّاس : من سمع صوت الرعد فقال : سبحان الّذي يسبّح الرعد بحمده و الملائكة من خيفته و هو على كلّ شيء قدير ، فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته .

وفي كيفيّة تسبيح الرعد أقوال : الأوّل أنّ الرعد اسم ملك من الملائكة وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل .

قال ابن عبّاس : إنّ اليهود سألت النبيّ صلى الله عليه وآله عن الرعد ما هو؟ فقال : ملك موكّل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله . قالوا فما الصوت الّذي نسمع؟ قال : زجره السحاب .

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : إنّ الله ينشىء السحاب الثقال فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك فنطقه الرعد وضحكه البرق .

واعلم أنّ البنية ليست شرطاً لحصول الحياة مع الإرادة من الله ، فيخلق الحياة والعلم والنطق في أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلاً له ، و كيف يستبعد ذلك و نحن نرى أنّ السندل يتولّد في النار ، والسمك في الماء ، كما كان يسبّح الجبال في زمن داود وتسبيح الحصيّ في زمن محمّد صلى الله عليه وآله . وقيل : إنّ الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص ولو كان كذلك فإنّ الرعد يسبّح الله ؛ لأنّ التسبيح وما يجري مجراه ليس إلّا وجود لفظ يدلّ على حصول التنزيه لله فلمّا كان حدوث هذا الصوت دليلاً على وجود موجود متعال عن النقص والإمكان فهو في الحقيقة تسبيح وهو معنى قوله : «وإن من شيء إلا يسبّح بحمده»[1]، وهذا تأويل ، وأيّ شيء يلزمنا بهذه التأويلات مع علمنا بالقدرة الإلهيّة ؟ فيحمل الكلام

(١) الاسراء : ٤٤ .

على ظاهره كما نطقت به الشريعة الغرّاء و الكتاب المبين .

قوله ۰ [والملائكة من خيفته] وخشيته قال ابن عبّاس : والملائكة تسبّح الله من خيفته لا كخوف ابن آدم ، ولا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء .

قوله : [ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء] ويصرفها عمّن يشاء إلّا أنّه حذف للدلالة .قال الباقر عليه السلام : إنّ الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب ذاكراً قوله : [وهم يجادلون في الله] أي هؤلاء الجهلة مع مشاهدتهم لهذه الآيات يخاصمون أهل التوحيد أي يفتلون عن مذهب الحقّ ؛ لأنّ معنى الجدال فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج .

و اعلم أنّ آية الصاعقة الناشئة من السحاب أمر عجيب جدّاً ومع أنّها تتولّد من السحاب المملوءة من الماء ربما نزلت وغاصت في البحر و تحرق الحيتان مع أنّها تغوص في لجج البحر ، ولا يؤثّر الماء فيها من قوّتها وحدّتها بل شاهدنا مراراً أنّها تحرق المسامير في الأبواب وتجعلها فحماً . فكيف يمكن أن تتصوّر أنّها قد اُحدثت من اصطكاك السحاب و الخرق ! لأنّها لو كانت من أسباب عالم الطبيعة لابدّ و أن تكون حرارتها أضعف من حرارة الموجودة لمجاورة ماء السحاب و مسّها فضلاً عن غوص البحر ، فاختصاصها بمزيد هذه القوّة الغريبة بتخصيص الفاعل والأمر الغيبيّ علمه عنّا ، فتأمّل (١) .

وبالجملة لمّا بيّن هذه الآيات قال سبحانه : هؤلاء الكفّار مع ظهور هذه الدلائل يجادلون في الله ، ويحرّفون الناس عن الإيمان به والحال أنّه سبحانه شديد الحول والقوّة والعقوبة . وفي لفظ المحال أقوال قيل : الميم زائدة وهو من الحول ونحوه مكان . و قيل : أصليّة لأنّ الكلمة إذا كانت على مثال فعال أوّله ميم مكسورة فهي أصليّة نحو «مهاد و مداس و ملاك و مداد» وقيل : اُخذ مادّته من «محل» إذا عرضه للهلاك و يمحل إذا تكلّف استعمال الهلاك بطريق لا يتوقّعونه أو عبارة عن المدّة سنة ، ماحلة أي شديدة .

قوله : [له دعوة الحقّ] أي لله دعوة الحقّ قيل : دعوة الحقّ قول « لا إله إلّا الله » ودعوته وتنزيهه هي الحقّ والصدق فذكر وجوده بالثناء عليه بالإلهيّة والكمال هو الحقّ في الأذكار واعتقاد وجود واجبيّته هو الحقّ في الاعتقادات .

[و] الآلهة [الّذين] يدعونهم الكفّار غير الله [لا يستجيبون لهم شيء] ممّا يطلبونه

(١) توغل رحمه الله فيما لا ينبغي له .

[إلّا] استجابة كاستجابة باسط [كفّيه إلى الماء] وهو عطشان والماء جماد لا يشعر ببسط كفّيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه و يبلغ فاه ؛ لأنّه لا يحسّ بدعائه ، وقيل : شبّهوا هؤلاء الداعين في قلّة فائدة دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشرب به فيبسطها ناشراً أصابعه ولم يصل كفّاه إلى ذلك الماء [وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال].

قوله : [ولله يسجد من في السماوات طوعاً و كرهاً] اعلم أنّ في المراد بهذا السجود قولين :

الاول السجود الحقيقيّ أي وضع الجبهة على الأرض وعلى هذا المعنى فيه وجهان :

أحدهما أنّ اللفظ وإن كان عامّاً لكنّ المراد به الخصوص وهم المؤمنون في الأرض والملائكة في السماء وبعض المؤمنين يسجدون لله طوعاً بسهولة ونشاط وميل ، ومن المسلمين من يسجد كرهاً لصعوبة ذلك عليه مع أنّه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى .

و الثاني أنّ اللفظ عامّ والمراد أيضاً العامّ . و على هذا ففي الآية إشكال ؛ لأنّه كلّ من الأرض لا يسجدون لأنّ الكفّار لا يسجدون .

والجواب من وجهين : الأوّل أنّ المراد «ولله يسجد من في السماوات» أي شأنهم وجوب السجود ، ويجب عليهم أن يسجدوا فعبّر عن الوجوب بالوقوع والحصول . و الثاني وهو أنّ المراد من السجود الاعتراف بالعبوديّة و كلّ من في السماوات والأرض يعترفون بالعبوديّة على ماقال : «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله [1] » و نظير هذه الآية «بل له ما في السماوات والأرض كلّ له قانتون» [2] أي في نفس الأمر كذلك [3].

قوله : [وظلالهم بالغدوّ والآصال] أي كلّ شخص سواء كان مؤمناً أو كافراً فإنّ ظلّه يسجد لله . في التفسير أنّ الكافر يسجد للصنم و ظلّه يسجد لله . قال ابن الأنباريّ : لا يبعد أنّ الله يخلق للظلال عقولاً وأفهاماً يسجد ويخشع لله كما جعل الله للجبال أفهاماً اشتغلت بتسبيح الله ويظهر فيها أثر للتجلّي . وقيل : إنّ المراد من سجود الظلال وأمثالها ميلانها من جانب إلى جانب فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها .

---

(١) العنكبوت : ٦١ . (٢) البقرة : ١١٧ .
(٣) لم يذكر القول الثاني من القولين في السجود .

وإنما خصّ الغدوّ والآصال بالذكر لأنّ الظلال إنّما تعظم وتكثر في هذين الوقتين .

قوله تعالى : قل من رب السموات والارض قل الله قل افاتخذتم من دونه اولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الاعمى البصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الوحد القهار (١٦) .

لمّا بيّن سبحانه أنّه المستحقّ للعبادة عقّبه بما يجري مجرى الحجّة على ذلك فقال : [قل] يا محمد لهؤلاء الكفّار [من ربّ السماوات والأرض] ومدبّرهما على ما فيهما من البدائع ؛ فإذا استعجم عليهم الجواب ولا يمكنهم أن يقولوا الأصنام المنحوتة ، فقل أنت لهم: الله ربّ السماوات والأرض وما بينهما من الأنواع.

فإذا أقرّوا بذلك [قل] لهم على وجه التبكيت والتوبيخ : [أفاتّخذتم من دونه أولياء توجّهون عبادتكم إليهم و الحال أنّهم [لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً] ، ومن لا يملك لنفسه فبالحريّ والأولى أن لا يملك لغيره فكيف يستحقّ العبادة ؟ واعلم أنّ الأمر الّذي لا يجاب الخصم إلّا به لا يمتنع أن يبادر السائل إلى ذكره ثمّ يورد الكلام عليه تفادياً من التطويل .

ثمّ ضرب سبحانه مثلاً بعد إلزام الحجّة فقال : كما [لا يستوي الأعمى والبصير] والظلمات والنور كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ؛ لأنّ المؤمن يعبد الله الّذي يملك النفع والضرّ والكافر بعكسه .

[أم جعلوا لله شركاء] أي هل هؤلاء الشركاء الّذين جعلهم الكفّار شركاء لله في العبادة خلقوا أشياء أو أُموراً مثل خلق الله من الأجسام والألوان والطعوم و الأرائيح و الحياة ؟ [فتشابه الخلق عليهم] فاشتبه عليهم ذلك حتّى يشتبه لهم ما الّذي خلق الله وما الّذي خلق الأصنام ، فإذا لم يكن إلّا وكذلك ولم يبق شبهة فقل لهم : [الله خالق كلّ شيء وهو الواحد] القديم لذاته لا ثاني له القاهر سواه .

قوله تعالى: انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما توقدون عليه فى النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال (١٧) للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم

يستجيبوا له لو ان لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به اولئك لهم سوء الحساب ومأويهم جهنم وبئس المهاد (١٨).

المعنى : لمّا شبّه المؤمن والكافر والإيمان والكفر بالأعمى والبصير و الظلمات والنور ضرب للإيمان والكفر مثلاً آخر فقال : [أنزل من السماء ماء فسالت أودية] بقدرها ومن حقّ الماء أن يستقرّ في الأودية المنخفضة عن الجبال بمقدار سعة تلك الأودية ومازاد ينبسط على الأرض ومن حقّ الزبد والوغف الّذي يحتمله الماء أن يطفو ويربو عليه ثم يتبدّد في الأطراف ويضمحلّ .

شبّه سبحانه الحقّ والإسلام بالماء الصافي النافع للخلق والباطل بالزبد الذاهب الباطل الّذي لا ينفع للناس أبداً ، فالماء مثل القرآن الّذي يوجب اليقين المفيد ، والوساوس الباطل مثل الزبد الّذي لا يفيد إلّا الشكّ . ثمّ ذكر نوعاً آخر من الزبد غير المفيد الّذي لا يطّهر إلّا بالنار كالذهب والفضّة و الرصاص ممّا يذاب لاتّخاذ الحلية و جواهر الأرض يتّخذ منها الأواني مثل زبد الماء ؛ فإنّ هذه الأشياء الّتي تستخرج من المعادن و توقد عليها النار لتميّز الخالص من الخبيث لها فإنّه أيضاً ينفصل عنها نوع من الزبد والخبيث لا يفيد أصلاً بل يضيّع ويبطل ويبقى الخالص ، فكذلك الكفر والإيمان فالزبد يجمع منها ويذهب ويترك هدراً ويلقى بحيث لا ينتفع به ، والماء الصافي والأعيان من الجواهر فيمكث وينتفع به الناس [كذلك يضرب الله الأمثال] .

قوله : [للّذين استجابوا لربّهم الحسنى] قيل : إنّه تمّ الكلام عند قوله: «يضرب الله الأمثال» ثمّ استانف بقوله : «للّذين» .وقيل : متّصل بما قبله يعني أنّ الّذي يبقى مثل الّذين استجابوا لربّهم والّذي يذهب جفاء مثل الّذين لا يستجيب . والمراد بالّذين استجابوا، الّذين أطاعوه وآمنوا به فلهم الحسنى أي لهم الحالة الحسنة وهي الجنّة .

[والّذين] ما أطاعوه وآمنوا به [لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً و] يضاعف [مثله] جعلوا ذلك فدية عن أنفسهم من العذاب لا يقبل منهم ، ومفعول «افتدوا» محذوف ، هؤلاء الموصوفين لهم عدم قبول عذرهم بالفداء وعدم العفو ـ أجارنا الله من هذه العقوبة ـ و [لهم سوء الحساب] لأنّ كفرهم أحبط أعمالهم [ومأواهم جهنّم وبئس] المقرّ والمأوى وسوء الحساب، أخذهم بذنوبهم كلّها من دون أن يغفر لهم بشيء ، ومن نوقش في الحساب عذّب و الكافر يحاسب

للتقريع والتوبيخ . وقيل : إنّ المراد من سوء الحساب سوء الجزاء .

قوله تعالى : افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولوا الالباب (١٩) الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق (٢٠) والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل و يخشون ربهم و يخافون سوء الحساب (٢١) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار (٢٢) جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم و ذرياتهم و الملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٣) سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار (٢٤) .

المعنى : [أفمن يعلم] بيّن الفرق بين المؤمن والكافر . أخرج الكلام مخرج الاستفهام والمراد الإنكار إشارة إلى المثل المتقدّم ذكره . ولا يكون متساوياً من يعلم [أنّما أُنزل إليك] في هذا القرآن [من ربّك] هو [الحقّ] مع من هو كالأعمى الّذي لا يبصر . إنّما يتعقّل و يبصر من هو ذولبّ و إدراك فحال العالم كالبصير ، و الجاهل كالأعمى والعالمون هم [الّذين يوفون] و يؤدّون ماعهدالله إليهم با تيانه و ألزمهم إيّاه عقلاً وسمعاً فالعقد العقليّ ما جعله في عقولهم من اقتضائه بصحّة اُمور و فساد اُمور كاقتضاء العقل للفاعل والمصنوع للصانع وأنّ للعالم خالق غير العالم ,والعهد الشرعيّ ما أخذه النبيّ على المؤمنين من الميثاق المؤكّد بأن يطيعوه ولا يعصوه في الأوامر منه والنواهي .

قوله : [والّذين يصلون ما أمرالله به أن يوصل] قيل : المراد الإيمان بجميع الأنبياء والكتب وقيل : هو صلة محمّد ومعاونته وقيل : صلة الرحم . وروى أصحابنا أنّ أبا عبد الله لمّا حضرته الوفاة أوصى قال : أعطوا الحسن بن الحسين بن عليّ بن الحسين وهو الأفطس سبعين ديناراً . فقالت له اُمّ ولده : أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة ؟ فقال لها : و يحك أما تقرئين قول الله : « والّذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » و قيل : هو ما يلزم من صلة المؤمنين بالأخوّة : بأن يتولّوهم وينصروهم ويذبّ عنهم ، ويدخل فيه صلة الرحم وغير ذلك ؛ قال رسول الله : صلة الرحم وبرّ الوالدين يهوّنان الحساب ثمّ تلا هذه الآية . و روى محمّد بن الفضيل عن موسى بن جعفر في هذه الآية قال : صلة آل محمّد معلّقة بالعرش يقول : اللّهم صل من وصلني واقطع من قطعني ، وهي تجري في كلّ رحم وروى الوليد بن أبان عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قلت له هل على الرجل في ماله سوى الزكاة ؟ قال : نعم أين ما قال الله : « والّذين يصلون . إلخ » .

قوله : [ويخشون ربهم] ويخافون عقاب ربهم في قطعها [ويخافون سوء الحساب] أي المداقة والمناقشة عند الحساب ، فليكن المؤمن خائفاً من المداقة في الحساب .

قوله : [والذين صبروا ابتغاء] أي الذين صبروا على القيام بما أوجبه الله عليهم وعلى البلاء من الأمراض و العقوبة وعن معاصي الله لطلب ثواب الله . و معنى الوجه عبارة عن الإخلاص وترك غيره تقول في تعظيم الشيء : هذا وجه الرأي وهذا نفس الرأي ، للرأي المعظم ، يريد خالصة وما حضة [وأقاموا الصلاة] أي أدوها بحدودها و داموا على فعلها [وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية] ظاهراً وباطناً [ويدرؤن بالحسنة] أي يدفعون بالطاعة المعصية وبالعمل الصالح العمل القبيح كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : إذا عملت سيئة فاعمل حسنة بجنبها تمحها وقيل : معناه يدفعون إساءة من أساء إليهم بالإحسان ولا يكافئون ، إذا أحرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا وقيل : يدفعون بالتوبة المعصية [أولئك لهم عقبى الدار] أي هؤلاء الموصوفين لهم ثوابهم الجنة والعاقبة المحمودة أي الدار المحمودة هي جنات عدن بساتين إقامة تدوم ولا تفنى وقيل : هي الدرجة العليا وسكانها الشهداء والصديقون . وقيل : قصر من ذهب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حاكم عدل .

ثم بين ما يتكامل به سرورهم من اجتماع قومهم معهم فقال : [يدخلونها ومن صلح] أي أولادهم من آمن منهم لأن من إتمام السرور اجتماعهم بشرط القابلية [والملائكة يدخلون عليهم من كل باب] من أبواب الجنة الثمانية ، وقيل : من كل باب من أبواب البر كالصلاة والزكاة والصوم أو أبواب قصورهم و بساتينهم بالتحية من الله والتحف والهدايا ويقولون : [سلام عليكم] والقول محذوف لدلالة الكلام عليه أي سلمكم الله من الأهوال والمكاره بصبركم على المكاره والشدائد [فنعم] عاقبة [الدار] الجنة ما أنتم فيه من الكرامة في داركم .

واعلم أن الصبر على ترك المعاصي وأداء الطاعات مشروط بكونه ابتغاء لوجه الله لأن يكون مقصود الصابر أن يقال له : ما أصبره وأشد قوته على النوازل ! أو يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع ، أو يصبر لئلا يحصل له شماتة الأعداء ، أو يصبر لعلمه بأن لا فائدة في

الجزع ، و كلّ هذه الأقسام خارج عن شمول الابتغاء . أمّا إذا صبر على البلاء لعلمه بأنّ ذلك البلاء قسمة حكم بها القسّام العلّام المنزّه من الباطل و السفه بل لابدّ أن تكون تلك القسمة مشتملة على حكمة بالغة و مصلحة و رضي بذلك حقيقة ، فهذا وجه الابتغاء و مقام الصدّيقين .

قال الواحديّ : العقبى كالعاقبة ويجوز أن يكون مصدراً كالشورى والقربى والرجعى، وقد يجيء على فعلى كالنجوى والدعوى وعلى فعلى كالضيزى والذكرى .

قوله تعالى : والذين ينقضون عهدالله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار (٢٥) الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحيوة الدنيا وما الحيوة الدنيا في الاخرة الامتاع (٢٦) ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من اناب (٢٧) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الابذكر الله تطمئن القلوب (٢٨) الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (٢٩) .

لمّا بيّن حال السعداء أتبعها بذكر الأشقياء ليكون البيان كاملاً فقال :

[و الّذين ينقضون عهد الله] و ذكرنا معنى العهد ، ونقضوا العهد من أحكامه ، و قطعوا أموراً أمروا بوصلها و أفسدوا في الأرض بالدعاء إلى غيرالله ، أو بقتال النبيّ و المؤمنين أو بالعمل فيها بمعاصي الله والظلم لعباده والتخريب في بلاده [أُولئك لهم] الإبعاد من رحمة الله والتبعيد من جنّته [ولهم سوء الدار] ضدّ العقبى أي عذاب النار والخلود فيها .

[الله يبسط الرزق لمن يشاء] أي يوسّع على من يشاء من عباده بحسب المصلحة ويضيّقه على آخرين إذا كانت المصلحة في التضييق [وفرحوا بالحياة الدنيا] بما أُتوا من حطام الدنيا فرح البطر أي و فرح الّذين بسط لهم الرزق في الحياة الدنيا فكأنّه قيل : لو كانوا أعداء الله هؤلاء المتنعّمين لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللّذات في الدنيا فأجاب الله عنه بأنّه يبسط الرزق ويقدر ولا تعلّق له بالكفر والإيمان فقد يوجد الكافر مرزوقاً ويوجد المؤمن مضيّقاً عليه و الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالمتاع مثل القدح والقصعة والقدر والمعول يتمتّع به زماناً ثمّ ينكسر ويفنى .

قوله : [ويقول الّذين كفروا] هلاّ اُنزل على محمد ﷺ آية نقترحها ولم يعتدّ وابتلك الآيات قل لهم: [إنّ الله يضلّ من يشاء] عن طريق الجنّة بعظم معاصيه وسوء اختياره[ويهدي إليه من أناب] ورجع إليه بالطاعة وهم الّذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله و اعترفوا بتوحيدالله ونبوّة نبيّه ، و استأنسوا بذكر الله ، والمعنى الحاضر للنفس دائماًوهو العمدة. ومعنى «يضلّ من يشاء ويهدي إليه» بيّنا هذا المعنى كراراً ، أي يضلّ من يشاء عقوبة على كفره و هداية إلى رحمته و جنّته استحقاقاً لإيمانه و ليس المراد : إضلالاً عن الدين بالكفر على ما ذهب إليه من خالفنا ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

قوله : [الّذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله] بدل من قوله : «من أناب» قال ابن عبّاس : يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنّت . ولا ينافي الوجل و الاطمئنان وهما ضدّان لأنّهم لمّا فكّروا في المعاصي وذكر العقاب وجلوا ، والطمأنينة حين اشتغالهم بالطاعات وتصوّر المثوبات . وقيل . المرادبالطمأنينة علمهم بكون القرآن حقّاً و دين محمّد حقّاً وأنّ الله صادق في وعده و وجلهم و شكّهم بأنّهم هل ارتكبوا المعاصي ؟ أو هل أتوا بالطاعة المقبولة ؟

[ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب] واعلم أنّ الإكسير إذا وقعت ذرّة منه على الجسم النحاسيّ انقلب باقياً على كرّ الدهور والأزمان و لا يفسده التراب و تكون صابراً على الذوبان في النار فإكسير معرفة الله وجلاله إذا وقع في القلب لذلك يقلبه جوهراً صافياً باقياً نورانيّاً لايقبل التغيّر والفناء والتبدّل فقال : «ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب» .

وبعبارة اُخرى الموجودات على ثلاثة أقسام : مؤثّر لايتأثّر ومتأثّر لايؤثّر وموجود يؤثّر في شيء ويتأثّر عن شيء ؛ فالمؤثّر الّذي لايتأثّر هوالله والمتأثّر الّذي لايؤثّر هو الجسم، فإنّه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار المتنافية وليس له إلّا القبول فقط ، وأمّا الموجود الّذي يؤثّر تارة ويتأثّر اُخرى فهي الموجود الروحانيّة وذلك لأنّها إذا توجّهت إلى الحضرة الإلهيّة صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة الله و قدرته و تكوينه و إيجاده ، و إذا توجّهت إلى عالم الأجسام اشتاقت إلى التصرّف فيها لأنّ عالم الأرواح مدبّر لعالم الأجسام .

وإذا عرفت هذا فالقلب كلّما توجّه إلى مطالعةعالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليها والتصرّف فيها ، أمّا إذا توجّه القلب إلى مطالعة الحضرة الإلهيّة حصل فيه أنوار الصمديّة والأنوار الإلهيّة فيكون هناك ساكناً فاطمئنّت القلوب بذكر الله .

ثمّ إنّ القلب كلّما وصل إلى شيء يريده فإنّه يطلب الانتقال منه إلى حالة أُخرى أشرف منها ؛ لأنّه لاسعادة في عالم الأجسام إلّا وفوقها مرتبة أُخرى من اللذّة أمّا إذا انتهى القلب إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهيّة بقي واستقرّ فلم يقدر على الانتقال منه لأنّه ليس هناك درجة أُخرى في السعادة أعلى منها وإنّما هي الدرجة ليس فوقها غيرها ، نعم هذه الدرجة قابلة للزيادة و التكميل فالاطمينان قد حصل بذكره واستقرّ القلب .

[فالّذين آمنوا] وأعملوا الفكر في المعرفة و القلب بالذكر والطاعة [طوبى لهم] عن رسول الله : أنّ طوبى شجرة في الجنّة غرسها الله بيد قدرته تنبت الحلل والحليّ . قيل: أصلها في دار النبيّ و أغصانها في دور المؤمنين ، و سئل عنه ﷺ عن طوبى قال : شجرة أصلها في داري وفرعها لأهل الجنّة ، ثمّ سئل ثانياً فقال : أصلها في دار عليّ . فقيل له في ذلك ؟ فقال ﷺ : إنّ داري ودارعليّ في الجنّة بمكان واحد . وفي معنى طوبى أقوال أُخر قيل : فرح وقرّة عين .عن ابن عبّاس . وقيل : نعم مالهم . «وطوبى» مصدر من طاب كبشرى وزلفى ، ومعنى طوبى لك أي أصبت خيراً وطيباً .

والحاصل على كلّ التقادير معناها مبالغة في نيل الطيّبات ، ويدخل فيه جميع اللذّات. وقيل : ليست بعربيّة وإنّما هي هنديّة و معناها الجنّة .

قال صاحب الكشّاف : «الّذين آمنوا» مبتدأ «وطوبى لهم» خبره .

[وحسن مآب] أي مرجع .

قوله تعالى : كذلك ارسلناك في امة قدخلت من قبلهاامم لتتلوعليهم الذى اوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب (٣٠) ولو ان قرانا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى بل لله الامر جميعا افلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاءالله

لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى ياتى وعد الله ان الله لايخلف الميعاد (٣١) .

الكاف للتشبيه و وجه التشبيه أي مثل ذلك الإرسال الّذي أرسلنا الأنبياء قبلك أرسلناك .

النزول : نزلت الأولى في صلح الحديبية حين أرادوا كتاب الصلح ، فقال رسول الله لعليّ : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو ، والمشركون قالوا : ما نعرف الرحمن إلّا صاحب اليمامة -يعنون مسيلمة الكذّاب- اكتب بسمك اللّهم ، وهكذا كان أهل الجاهليّة يكتبون . فقال النبيّ : اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله . فقال : مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثمّ قاتلناك وصددناك فقد ظلمناك ، ولكن اكتب: هذا ما صالح محمّد بن عبدالله . فقال أصحاب رسول الله دعنا : نقاتلهم ، قال ﷺ : لا ولكن اكتبوا كما يريدون ، فنزلت الآية .

[كذلك أرسلناك في اُمّة] قد تقدّمتها اُمم [لتتلو] وتقرأ [عليهم] الكتاب العظيم [الّذي أوحينا إليك وهم يكفرون] أي وحال هؤلاء أنّهم يكفرون بالرحمن الّذي رحمته وسعت كلّ شيء ، و كفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن الكريم ، قل لهم : [هو ربّي] الواحد المتعالي عن الشركاء [لا إله إلّا هو عليه توكّلت] في نصرتي عليكم وإليه رجوعي . وقوله : «وهم يكفرون بالرحمن» نزلت في عبدالله بن اُميّة المخزوميّ لمّا قال : أمّا الله فنعرفه وأمّا الرحمن فلا نعرفه إلّا صاحب اليمامة .

[ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال] :

النظم : روي : أنّ أهل مكّة قعدوا في فناء كعبة فأتاهم الرسول و عرض عليهم الإسلام ، فقال له عبدالله بن اُميّة : سوّ لنا جبال مكّة حتّى ينفسح المكان علينا ، واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها أو أحي لنا بعض موتانا لنسأله أحقّ ماتقول أم باطل ؟ فإنّ عيسى كان يحيي الموتى ولست بزعمك بأهون على الله منه ، و كذلك ولست بزعمك أهون على ربّك من داود حيث سخّر له الجبال تسبّح معه ، أوسخّر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضي عليها حوائجنا ثمّ نرجع من يومنا فقد كان سليمان سخّرت له الريح فكما

زعمت لست أهون على ربّك من سليمان فنزلت « و لو أنّ قرآناً » وآية بإنزاله سيّرت الجبال وزعزعت عن مقارّها كما فعل ذلك بالطور لموسى .

[أو قطّعت به الأرض] وشقّقت وجعلت أنهاراً وعيوناً كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه .

[أو كلّم] بسبب تلاوته [الموتى] ويحيون ويتكلّمون كما وقع لعيسى لكان ذلك هذا القرآن لعظم محلّه وجلالة قدره ، ويمكن أن يكون المحذوف من جواب «لو» «لما آمنوا» وحذف جواب «لو» شائع كثير في الكلام ؛ قال امرؤ القيس :

فلو أنّها نفس تموت سويّة * ولكنّها نفس تساقط أنفساً

قوله : [بل لله الأمر] أي لكنّ الأمر لله : إن شاء فعل و إن يشأ لم يفعل .

قوله : [أفلم ييأس الّذين آمنوا] قيل : اليأس ههنا العلم في لغة النخع واحتجّوا بقول الشاعر :

ألم ييأس الأقوام أنّي أنا ابنه * وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً؟

وقال أبو عبيدة :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني * ألم تيأسوا أنّي ابن فارس زهدم؟

أي ألم يعلموا ، و أنكر بعض هذه اللغة كالكسائيّ ، و قيل : معناه أفلم يعلم الّذين آمنوا علماً يئسوا معه من أن يكون غير ماعلموه . وقيل : معناه : أفلم ييأس الّذين آمنوا من إيمان هؤلاء الّذين وصفهم الله بأنّهم لا يؤمنون ، وهذا المعنى قاله الزجّاج ؛ لأنّه قال : أن لو يشاء الله وكانوا قابلين للهداية [لهدى الناس جميعاً] إلى الجنّة لكنّه كلّفهم لينالوا الثواب بالتكليف و قبوله لا على سبيل الإلجاء كما مرّ هذا المعنى في الآيات كراراً .

[ولايزال الّذين كفروا تصيبهم بما صنعوا] من كفرهم وأعمالهم الخبيثة [قارعة] وداهية تقرعهم من الحرب والجدب والأسر للتنبيه والزجر [أوتحلّ] تلك القارعة قريباً من دورهم فتجاورهم حتّى تحصل لهم المخافة لتتنبهّوا . وقيل : إنّ التاء للخطاب أي أو

تحل أنت يا محمد بنفسك [قريباً من دارهم حتى يأتي وعدالله] أي ماوعدالله من فتح مكة عن ابن عباس قال: وهذه الآية مدنية . وقيل: المراد حتى يأتي يوم القيامة [إن الله لايخلف] ميعاده .

قال بعض المعتزلة :كالقاضي عبدالجبار وهذا يدل على بطلان قول من يجوز الخلف على الله في ميعاده ، قال : وهذه الآية وإن كانت واردة في حق الكفار إلا أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، إذ بعمومه يتناول كل وعيد ورد في حق الفساق . و أجاب الرازي بأن الخلف غير و تخصيص العموم غير ، ونحن لا نقول بالخلف ولكنا نخصص عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو . انتهى كلامه .

قوله : ولقد استهزىء برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم اخذتهم فكيف كان عقاب (٣٢) افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم ام تنبؤنه بما لايعلم في الارض ام بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فماله من هاد (٣٣) لهم عذاب في الحيوة الدنيا ولعذاب الاخرة اشق ومالهم من الله من واق(٣٤) .

المعنى : اعلم أن القوم لما طلبوا سائر المعجزات المذكورة من الرسول على سبيل الاستهزاء ، وكان ذلك يشق على الرسول وكان يتأذى من تلك الكلمات فالله أنزل هذه الآية تسلية له وتصبيراً على سفاهة قومه فقال : إن أقوام سائر الأنبياء استهزؤوا بهم فأطلت لهم المدة بتأخير العقوبة وأمهلتهم فلم ينتهوا [ثم أخذتهم فكيف كان] عقابي لهم وهو إشارة إلى تفخيم ذلك العقاب وتعظيمه .

ثم عاد سبحانه إلى الحجاج مع الكفار قوله : [أفمن هو قائم] بالتدبير [على كل نفس] وحافظ على كل نفس أعمالها ويرزقها كمن ليس بهذه الصفة ، والمراد الأصنام التي لاتضر ولا تنفع . ويدل على هذا الحذف قوله : « وجعلوا لله شركاء » يعني أن هؤلاء الكفار جعلوا لله شركاء في العبادة .

[قل] يا محمد [سموهم] بما يستحقون من الصفات أي كما يوصف الله بالخالق والرازق والمحيي والمميت أي إن الصنم لو كان إلهاً لتصور منه أن يخلق الرزق فيحق حينئذ أن تسمي بالخالق

أو الرازق ، يعني سموّهم بالأسماء الّتي هي صفاتهم ، ثمّ انظروا هل يدلّ صفاتهم على جواز عبادتهم واتّخاذهم آلهة ؟ أي سمّوهم ماذا خلقوا أوهل ضرّوا أو نفعوا ؟ هل [تنبّئونه بما لايعلم] يعني أتخبرون الله بشريك له [في الأرض] وهو لا يعلمه على معنى أنّه ليس ولو كان يعلم ، و إنّما يقال للشيء الحقير المستحقر الّذي بلغ في الحقارة إلى أن لايذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمّه إن شئت يعني أنّه أخسّ من أن يسمّى ويذكر ولكنّك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل وإنّما خصّ الذكر بالأرض لأنّهم ادّعوا أنّ له شركاء في الأرض لا في غيرها .

قوله : [أم بظاهر من القول] يعني تموّهون بإظهار قول لاحقيقة له صورة مجازاً وقيل : المراد أم بظاهر كتاب أنزل الله سمّيتم الأصنام آلهة .

قوله : [بل زيّن للّذين] قال الواحدي : بل ههنا دع كأنّه يقول : دع ذكر ما كنّا فيه من الدليل فإنّه لافائدة في ذكره ؛ لأنّه زيّن لهم كفرهم ومكرهم ، فلاينتفعون بذكر هذه البيّنات قال القاضي : لاشبهة في أنّه ذكر ذلك في مقام الذمّ لهم ، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون المزيّن هو الله [وصدّوا عن السبيل] يعني صدّهم الشيطان أو أنفسهم وبعضهم لبعض ، وقرىء بالمعلوم أي أعرضوا وصرفوا غيرهم ، وهو لازم متعدّ ، وحجّة القراءة الثانية قوله : « الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله[1] » .

قوله : [ومن يضلل الله] أي ومن يضلله الله عن ثواب الجنّة لكفره [فماله من هاد] يهديه ، منبىء بأنّ الثواب لاينال إلّا بالطاعة خاصّة [لهم عذاب] في الدنيا بالقتل والأسر [ولعذاب الآخرة أشقّ] وأغلظ للنفس لدوامه وكثرته [ومالهم] من دافع يدفع عنهم العذاب .

قوله تعالى : مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار اكلهادائم وظلهاتلك عقبى الذين اتقوا و عقبى الكافرين النار (٣٥) والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه قل انما امرت ان اعبدالله ولا اشرك به اليه ادعوا واليه مآب(٣٦)

---

(١) النساء ، ١٦٦ .

لمّا ذكر سبحانه عذاب الكفّار أتبعه بذكر ثواب المتّقين فقال : [مثل الجنّة] أي شبهها وصورتها وصفتها الّتي [وعد] بها [المتّقون تجري من تحتها الأنهار أُكلها دائم] وثمارها غير منقطع كثمار الدنيا [وظلّها] لايزول ولذّتها ونعيمها لاينقطع بموت ولاآفة، وقيل : معناه أنّ لذّة أُكل الجنّة باقية في الأفواه [تلك] الجنّة عاقبة المتّقين فالطريق إليها التقوى ، وعاقبة الكافرين أمرهم يؤول إلى النار .

قوله : [والّذين آتيناهم الكتاب] فقيل : المراد بالكتاب القرآن . وقيل : المراد التوراة والإنجيل . فعلى معنى أن تكون الكتاب القرآن المراد أصحاب النبيّ والّذين آمنو معه فرحوا بالقرآن ، والمراد من الأحزاب بقيّة أهل الكتاب وسائر المشركين لأنّه بعض معاني القرآن يخالف أحكامهم ، ولهذا ينكرون . وقيل : « الّذين آتيناهم الكتاب» هم الّذين كانوا من أهل التوراة كعبدالله بن سلام وأصحابه ساءهم قلّة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة فأنزل الله : « قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن[1]» ، ففرحوا بذلك وكفر المشركون بالرحمن وقالوا : مانعرف الرحمن إلّا رحمن اليمامة .

والمراد من الأحزاب الّذين تحزّبوا على رسول الله بالمعاداة [ومن ينكر بعضه] قيل : المراد بذكر الرحمن فحينئذ هو كقوله : « وهم يكفرون بالرحمن[2]» ، [قل] يا محمد [إنّما أُمرت أن أعبد الله ولا أُشرك به] في عبادته أحداً [إليه أدعو] وإلى الإقرار بتوحيده وصفاته . توجيه العبادة إلى الله دعوتي وأدعو [وإليه] مرجعي .

قوله : وكذلك انزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت اهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولاواق (٣٧) .

الخطاب للنبيّ والمراد الأمّة لئن وافقت أهواءهم أي كما أنزلنا الكتب السابقة على الأنبياء بلسانهم ، كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان قومك حكمة عربيّة بلسان العرب ولمّا كان القرآن سبباً للحكم جعل نفس الحكم في التعبير على سبيل المبالغة ، ووصف القرآن بالعربيّ دليل على حدوث الكلام كما أنّ الإنزال يدلّ على الحدوث .

---

(١) الاسراء : ١١٠ .
(٢) السورة : ٣٢

قيل : سبب النزول أنّ المشركين كانوا يدعونه إلى ملّة آبائهم وأن يصلّي إلى قبلتهم ، فنزلت الآية [لئن] وافقت [أهواءهم من بعدما جاءك من العلم] بالله والمعجزات الموجبة للعلم مالك ناصر يعينك ويمنعك عن عذابه ، و«من» زائدة للتاكيد .

قوله تعالى : ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله لكل اجل كتاب (٣٨) يمحوا الله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب (٣٩) واما نرينك بعض الذى نعدهم او نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٤٠) .

النزول : عيّروا رسول الله بكثرة التزويج قالوا : لوكان نبيّاً لشغلته النبوّة عن تزوّج النساء ، فنزلت .

المعنى : [ولقد أرسلنا من] قبل رسالتك [رسلاً وجعلنا لهم أزواجاً] عديدة ونساء وأولاداً أكثر من نسائك وأولادك . وكان لسليمان عليه السلام ثلاثمائة امرأة مهيرة وسبعمائة سريّة ولداود مائة امرأة ، فلاينبغي أن يستنكر منك أن تتزوّج .

ثمّ أوردوا شبهة أخرى وعيّروه بأنّه لوكان نبيّاً من عندالله لكان أيّ شيء طلبنامنه يأتي به فأجاب الله عنها [وماكان لرسول أن يأتي بآية] و معجزة إلّا بمشيئة الله وأمره أظهرها ، وإن شاء منعها ولا اعتراض عليه .

ثمّ إنّه صلى الله عليه وآله في تبليغاته كان يخوّفهم بنزول العذاب وظهور النصرة وذلك الموعود كان يتأخّر احتجّوا بالتأخير على الطعن في نبوّته وقالوا : لوكان نبيّاً صادقاً لما ظهر كذبه فأجاب الله عن شبهتهم بقوله : [لكلّ أجل كتاب] يعني نزول العذاب وظهور النصرة وكلّ أمرله وقت مكتوب معيّن في اللوح ، فالآية الّتي اقترحوها لها وقت أجّله الله لاعلى شهواتهم كتب وقته في كتابه كأجل الحياة والموت وغيره . وقيل : معناه لكلّ كتاب وقت يعمل به فللتوراة وقت وللإنجيل وقت و كذلك يمحوالله مايشاء ويثبت .

ثمّ أوردوا شبهة أخرى قالوا : لوكان في دعوى الرسالة صادقاً لما نسخ الأحكام الّتي كان في الشرائع المتقدّمة نحو التوراة والإنجيل لكنّه نسخها وحرّفها نحو تحريف القبلة وأمثالها فوجب أن لايكون نبيّاً ؛ فأجاب الله بقوله : [يمحوالله] بحسب ما اقتضته مصلحة العباد

[ويثبت] بحسب المصلحة لهم .

و في معنى المحو والإثبات أقوال :

أحدها أنّ ذلك في الأحكام من الناسخ والمنسوخ .

والثاني أنّه يمحو من كتاب الحفظة المباحات ومالاجزاء فيه ويثبت مافيه الجزاء من الطاعات والمعاصي .

والثالث يمحو مايشاء من ذنوب المؤمن فضلاً ورحمة ، ويسقط عقابها ، عن ابن عبّاس، ويثبت ذنوب من يريد عقابه عدلاً واستحقاقاً ، عن سعيد بن جبير .

الرابع أنّه عامّ في كلّ شيء فيمحو من الرزق ويزيد فيه ومن الأجل ويزيد فيه ويمحو السعادة والشقاوة ويثبتهما ، عن ابن مسعود . وروى أبو قلابة عن ابن مسعود أنّه كان يقول : اللهمّ إن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء وأثبتني في السعداء فإنّك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب . وروي ذلك عن أئمّتنا في دعواتهم المأثورة . وروى عكرمة عن ابن عبّاس قال : هما كتابان سوى أمّ الكتاب يمحو الله منه مايشاء ويثبت وأمّا أمّ الكتاب لايتغيّر منه شيء وهو أصل الكتاب الّذي أُثبت فيه الحادثات والكائنات، وروى هذه الرواية عمر بن حصين عن النبيّ صلى الله عليه وآله .

وروى محمّد بن مسلم عن أبي جعفر قال : سألته عن ليلة القدر فقال : ينزل الله فيها الملائكة والكتبة إلى السماء الدنيا فيكتبون في أمر السنة ومايصيب العباد وأمر ماعنده موقوف له فيه المشيئة ، فيقدم منه مايشاء ويؤخّر مايشاء ويمحو ويثبت وعنده أمّ الكتاب .

وروى الفضيل قال : سمعت أباجعفر عليه السلام يقول : العلم علمان : علم علّمه الملائكة ورسله وأنبياءه ، وعلم عنده مخزون لم يطّلع عليه أحد يحدث فيه مايشاء . وروى زرارة عن حمران عن الصادق عليه السلام قال : هما أمران موقوف ومحتوم فماكان من محتوم أمضاه فماكان من موقوف فله فيه المشيئة يقضي فيه مايشاء .

والخامس أنّه في مثل تقتير الأرزاق والمحن والشدائد يثبته ثمّ يزيله بالدعاء والصدقة .

والسادس معناه أنه يمحو بالتوبة جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات يؤيده هذا المعنى قوله : «إلا من تاب و آمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات [١]».

والسابع أنه يمحو مايشاء من القرون ويثبت مايشاء من القرون كقوله : « كم أهلكنا من قبلهم من القرون [٢]» و روي ذلك عن علي عليه السلام .

والثامن أنه يمحو مايشاء يعني القمر ، ويثبت يعني الشمس . «فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة [٣]»

و قيل : إن ابن عباس سأل كعباً عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون.فقال لعلمه : كن كتاباً ، فكان كتاباً و سمي أم الكتاب لأنه الأصل الذي كتب فيه أولاً سيكون كذا و كذا لكل ما يكون فإذا وقع بعد كتب أنه قد كان ما قيل إنه سيكون . و الوجه في ذلك ما فيه من المصلحة لمن تفكرت من الملائكة الذين يشاهدونه إذا قابلوا ما يكون بما هو مكتوب فيه و علموا أن ما يحدث على كثرته قد أحصاه الله .

قوله : [و إما نرينك] يا محمد [بعض الذي نعد] هؤلاء الكفار من العذاب . لما تقدم في الآية أن لكل أمر وقتاً وأجلاً بين أن لعذابهم وقتاً سيفعله إما في حياتك أو بعد وفاتك . وقوله «إما» أصله «إن» الشرطية و« ما » مزيدة للتأكيد . وإن نرينك ما أوعدناهم في حياتك أو بعد مماتك من العذاب ما عليك و إنما [عليك] الابلاغ [وعلينا الحساب] ولا عليك الحساب .

قوله تعالى : اولم يروا انا نأتي الارض ننقصها من أطرافها و الله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب (٤١) وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً يعلم ماتكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار (٤٢) ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب (٤٣) .

---

(١) الفرقان : ٧٠ . (٢) السجدة : ٢٦ .
(٣) الاسراء : ١٢ .

[أولم يروا]هؤلاء الكفّار[أنّا] نقصد[الأرض ننقصها من أطرافها]وجوانبها بالفتوح على المسلمين فننتقص من أهل الكفر وتزيد في المسلمين كما أنّا فتحنا لمحمّد ماحول مكّة من القرى . أو المعنى : أولم يروا مايحدث في الدنيا من الخراب بعد العمارة والموت بعد الحياة والنقصان بعد الزيادة لارادّ لحكمه [وهو سريع] المجازات على أفعال العباد ثواباً وعقاباً .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الكفّار الّذين قبلهم قدمكروا بالمؤمنين واحتالوا في كفرهم ودبّروا في تكذيب الرسل بما في وسعهم فأبطل الله مكرهم كذلك يبطل الله مكر هؤلاء [فللّه المكر] أي له التدبّر والأمر [جميعاً] فيردّ مكرهم بنصب الحجج عليهم . وقيل : معناه : يملك الجزاء على المكر ، وإنّما أتى بلفظ المكر كقوله : « وجزاء سيّئة سيّئة »[١] .

[يعلم ماتكسب كلّ نفس] من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية إلى النفس ، وقد اُسند الفعل إلى العباد وهذا صريح في بطلان قول المجبّرة ، ولو كان حدوث الفعل بخلق الله لم يكن لقدرة العبد فيه أثر فوجب أن لا يكون للعبد كسب وقد أسند سبحانه الكسب إلى النفس [وسيعلم الكفّار لمن عقبى الدار] ولمن العاقبة المحمودة والمذمومة .

[ويقول الّذين كفروا] لك يا محمّد [لست مرسلاً] من جهة الله إلينا [قل]لهم[كفى بالله] شاهداً [بيني وبينكم] بسبب ما أظهر لكم من الآيات الدالّة على نبوّتي [ومن عنده علم الكتاب] واختلف فيه :

قيل : إنّه الله على قراءة «من» بمعنى الموصول ومن قرأ «من» بالكسر على الابتداء أي ومن عنده علم الكتاب .

وقيل ـ على القراءة الأوّلية المشهورة ـ : إنّ المراد شهادة أهل الكتاب من الّذين آمنوا كابن سلام وأصحابه وسلمان الفارسيّ و تميم الداريّ .

وقيل : معناه ومن عنده يعني الّذي يعلم علم القرآن ، فمن علم الكتاب القرآن وعرف جامعيّته من المعارف يعرف أنّه معجزة ودليل على صدق نبوّتك فحينئذ شهادة الله

---

(١) الشورى : ٤٠ .

على نبوّته ﷺ إنزال القرآن على وفق دعواه ، ولا يعلم كون القرآن معجزاً إلّا أن يعلم علم القرآن .

وقيل : إنّ المراد به عليّ بن أبي طالب والأئمّة الهداة ، وهذا القول الأخير عن أبي جعفر وأبي عبدالله . وروي عن بريد بن معاوية عن أبي عبدالله أنّه قال : إيّانا عنى . وعنى أوّلنا ، و أفضلنا و خيرنا بعد النبيّ . وروى عنه عبدالله بن كثير أنّه وضع يده على صدره ثمّ قال : عندنا والله علم الكتاب كملاً .

ويؤيّد ذلك ما روي عن الشعبيّ أنّه قال : ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبيّ من عليّ بن أبي طالب ومن الصالحين من أولاده .

وروى عاصم بن أبي النجود عن أبي عبدالرحمن السلميّ ، قال : ما رأيت أحداً أقرأ من عليّ بن أبي طالب للقرآن أي أعلم . وروى أبو عبدالرحمن أيضاً عن عبدالله بن مسعود قال : لو كنت أعلم أنّ أحداً أعلم بكتاب الله منّي لأتيته ، قال : فقلت له فعليّ ؟ قال : و لم ير في كتاب ولم يسمع في حديث أنّ أحداً يدّعي الأعلميّة أو التساوي في علم القرآن من عليّ بن أبي طالب بعد النبيّ من الخلفاء وغيرهم .

تمّت السورة

سورة ابراهيم

هي مكّيّة إلّا آيتين نزلتا في قتلى بدر من المشركين : قوله : «ألم تر إلى الّذين بدّلوا نعمة الله ـ إلى قوله ـ فبئس القرار» .

فضلها عن اُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من قرأ سورة إبراهيم و الحجر اُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعدد من لم يعبدها . روى عنبسة بن مصعب عن أبي عبدالله قال: من قرأ سورة إبراهيم والحجر في ركعتين جميعاً في كلّ جمعة لم يصبه فقر ولاجنون ولابلوى .

افتتح هذه السورة ببيان الغرض من الرسالة والكتاب ، فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد (١) الله الذى له مافى السموات و الارض و ويل للكافرين من عذاب شديد (٢) الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الاخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا اولئك فى ضلال بعيد (٣) .

اعلم أنّ الكلام في هذه السورة مكّيّة أومدنيّة طريقة الآحاد ومتى لم يكن في السورة ما يتّصل بالأحكام الشرعيّة فنزولها بمكّة والمدينة سواء ، وإنّما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فذلك فيه فائدة عظيمة .

وقوله : [الر] معناه أنّ السورة المسمّاة بالر [كتاب أنزلناه إليك] لغرض أن تخرج جميع [الناس] من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بأمر الله وإطلاقه ، و في هذا دلالة على أنّه سبحانه يريد الإيمان من جميع المكلّفين ، و اللام للغرض لا للعاقبة لأنّه لو كان كذلك لكان الناس كلّهم مؤمنين والمعلوم بخلافه .

ثمّ بيّن النور أنّه الصراط [العزيز الحميد] المؤدّي إلى معرفة الله المنيع في سلطانه المحمود في أفعاله ، ثمّ في الآية دلالة في أنّ طرق الكفر متعدّدة ، وطريق الإيمان و الخير واحد للجمع في الظلمات والإفراد في النور ، و كذلك طرق الجهل كثيرة وطريق العلم واحد. وتكرير «إلى» على البدل كقوله : «للّذين استضعفوا لمن آمن منهم» (١) .

[الله] هو [الّذي] يتصرّف فيهما على وجه لا اعتراض عليه فيه ، و أخبر أنّ الويل والعذاب للكافرين يجحدون نعم الله ولا يعترفون بوحدانيّته فلهم الويل والعذاب الشديد و كلمة «الله» علم لذات الله ، وليس بمشتقّ لكونه لو كان مشتقّاً لكان مفهومه صالحاً لوقوع

(١) الاعراف : ٧٤ .

الشركة فيه ، ويدلّ على هذا القول قوله : «هل تعلم له سميّاً» [١] والمعنى هل تعلم من اسمه الله غيرالله ؟ وهذا يدلّ على أنّ قولنا : الله اسم لذاته المخصوصة .

وبالجملة قوله : [الّذين يستحبّون] وصف الكافرين، يحبّون المقام في هذه الدنيا العاجلة [على] الكون في [الآخرة] ويمنعون غيرهم من اتّباع الطريق المؤدّي إلى معرفة الله و يطلبون طريقاً بعيداً عن الاستقامة و «السبيل» يذكّر ويؤنّث [اُولئك] الموصوفين [في ضلال بعيد] عن الحقّ .

قوله تعالى : وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم ٤) .

شرع في بيان نعمه على الخلق حيث إنّه سبحانه أرسل إليهم رسولاً من خلّصهم من ظلمات الكفر ، وهو من أهل لسانهم [ليبيّن لهم] ماينفعهم ومايضرّهم ، و كذلك كان سنّة المرسلين فيما مضى من لأزمان لابدّ وأن يكون لسانه لسان أهل بلده وقومه المجاورين له حتّى إذا فهموا عنه فهّموا غيرهم من الّذين لسانهم غير لسانهم ، فكأنّه أهل بلده و قومه يكونون تراجمة للغير . وقد أرسل الله محمّداً إلى الخلق كافّة بلسان قومه وهم العرب بدلالة قوله: «وما أرسلناك إلاكافّة للناس بشيراً ونذيراً» [٢] .

وقيل : المعنى أنّا كما أرسلناك إلى الناس بلغة العرب لتبيّن لهم الدين ثمّ إنّهم يبيّنونه للناس كذلك أرسلنا كلّ رسول بلغة قومه ليظهر لهم الدين

ثمّ استانف فقال : [فيضلّ الله من يشاء] من طريق الجنّة إذكانوا مستحقّين العقاب بكفرهم [ويهدي من يشاء] إلى طريق الجنّة ؛ وقيل : يلطف لمن يشاء بمن له لطف . ويضلّ عن ذلك اللّطف من لالطف له ؛ فمن تفكّر وتدبّر اهتدى وثبّته الله ، ومن أعرض عنه خذله الله وهو الغالب [الحكيم] في أفعاله .

قوله : ولقد ارسلنا موسى بآياتنا ان اخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بايام الله ان في ذلك لايات لكل صبار شكور (٥) و اذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجيكم من آل فرعون يسومونكم سوء

---

(١) مريم : ٦٥ .
(٢) سبأ : ٢٨ .

العذاب و يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم و في ذلكم بلاء من ربكم عظيم (٦) .

ثمّ ذكر سبحانه إرساله موسى فقال : [ولقد أرسلنا موسى] بالمعجزات الدالّة على نبوّته بأن [أخرج قومك من الظلمات] إلى سبيل الهداية يعني أمرناه بذلك لأنّهم بسببه خرجوا من الكفر إلى الإيمان [و ذكّرهم بأيّام الله] فيه أقوال : أحدها أن يذكّرهم وقائع الله في الأُمم الخالية و إهلاك من أهلك منهم ليحذروا بذلك . و الثاني : يذكّرهم بنعم الله أي يرغّبهم ويرهّبهم ، مثلاً أيّام موسى منها ما كان أيّام المحنة كما كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون ،ومنها أيّام المنحة والنعماء مثل إنزال المنّ والسلوى وغلبتهم على فرعون و كذا السابقين عن موسى . و كنّي عن الأيّام بالنعمة و النقمة لأنّ الأيّام ظرف لهما .

[إنّ في ذلك] التذكير دلالات لكلّ من عادته الصبر والشكر وهو المؤمن ؛ لأنّه لايخلو من الصبر على البلاء أوالشكر على النعماء .

قوله : [إذقال موسى] أي واذكر يا محمّد إذ قال موسى : لهم [اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم] حين كنتم معذّبين [من آل فرعون يسومونكم] ويذيقونكم أنواع العذاب [ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم] للاسترقاق ولغرض الاسترقاق وإبقاؤهنّ منفردات عن الرجال [بلاء عظيم] للرجال والنساء .

قوله تعالى : واذتاذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد (٧) وقال موسى ان تكفروا انتم ومن في الارض جميعاً فان الله لغني حميد(٨) الم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايدهم في افواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانالفي شك مما تدعوننا اليه مريب (٩) قالت رسلهم افي الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم الي اجل مسمى قالوا ان انتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين (١٠) .

قوله : [وإذ تأذّن] من بقيّة قول موسى حين قال : «اذكروا نعمة الله» أي واذكروا إذا أعلم [ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم] نعمتي [ولئن] جحدتم نعمتي [إنّ عذابي لشديد] لمن كفر بنعمتي . قال أبو عبدالله في هذه الآية : أيّما عبد أنعم الله عليه فأقرّ بها بقلبه وحمدالله عليها بلسانه ثمّ لم ينفد كلامه حتى يأمرالله له بالزيادة .

[وقال موسى إن تكفروا] وتجحدوا نعم الله [أنتم ومن في الأرض جميعاً] من الخلق لم تضرّوا الله شيئاً وإنّما يضرّكم ذلك بأن تستحقّوا عليه العذاب [فإنّ الله لغنيّ] عن شكركم [حميد] في أفعاله لأنّه متى كان غنيّاً لا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين ، وحينئذ لا يتفاوت الكفر والكفران ، أي سواء حمل الآية على الكفر المقابل للإيمان أو الكفران المقابل للنعمة .

قوله : [ألم يأتكم] قيل : هذا الخطاب متوجّه إلى أُمّة نبيّنا . وقيل : إنّه قول موسى فالخطاب إلى أُمّته أي ألم يجئكم [نبأ الّذين من قبلكم] من الأمم مثل [قوم نوح و عاد وثمود والّذين من بعدهم لا يعلمهم إلّا الله] أي لايعلم تفاصيل أحوالهم و عددهم و مافعلوه وما فعل بهم إلّا الله ، قال ابن الأنباريّ : إنّ الله أهلك أُمماً من العرب و غيرها فانقطعت أخبارهم وعفت آثارهم فليس أحد يعرفهم إلّا الله .

وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسّابون . وقيل : إنّ النبيّ ﷺ كان لا يتجاوز في انتسابه معدّ بن عدنان بن أدد وقال : تعلّموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم وتعلّموا من النجوم ما تستدلّون به على الطريق . قال بعض العلماء : وبهذا الطريق لايمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الوقت .

قوله : [جاءتهم رسلهم بالبيّنات] والآيات والأحكام من الحلال و الحرام [فردّوا أيديهم] إلى [أفواههم] في معناه أقوال :

أحدها : عضّوا على أصابعهم من شدّة الإنكار و الغيظ لأنّه ثقل عليهم مكان الرسل و كلامهم ، عن ابن عبّاس وابن مسعود والجبّائيّ .

وثانيها : جعلوا أيديهم في أفواه الأنبياء تكذيباً لهم وردّاً لما جاؤوا به فالضمير في « أيديهم » إلى «الكفّار» وفي «أفواههم» إلى «الأنبياء» كأنّهم لمّا سمعوا كلام الأنبياء

أشاروا بأيديهم إلى أفواه الأنبياء تسكيتاً لهم .

وثالثها : وضعوا أيديهم على أفواههم مؤمين بذلك إلى الرسل أن اسكتوا عمّا تدعوننا إليه كما يفعل الواحد منّا إلى غيره إذا أراد أن يسكته .

ورابعها : أنّ كلا الضميرين إلى المرسل أي أخذوا أيدي الرسل فوضعوها على أفواههم ليسكتوهم وليقطعوا كلامهم .

هذا كلّه إذا حملنا معنى الأيدي والأفواه على الحقيقة ،و من حملها على التوسّع و المجاز ، وإلّا فقيل : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج لأنّ الحجج يخرج من الأفواه. وقيل : معناه كذّبوا رسلهم وتركوا ما اُمروا به. وبعض أنكروا هذا المعنى و قالوا: إنّما المعنى عضّوا على الأيدي حقداً أو غيظاً كقول الشاعر : «يردّون في فيه عشر الحسود» يعني أنّهم يغيظون الحسود حتّى يعضّ على أصابعه العشر .

قوله : [وقالوا إنّا كفرنا] أي جحدنا ما [اُرسلتم به وإنّا لفي شكّ ممّا تدعوننا إليه] من الدين نوقع في الريبة ،الريبة قلق النفس وعدم الاطمئنان [قالت رسلهم] حينئذ : [أفي الله شكّ] مع هذه الحجج ؟ [فاطر السماوات والأرض] وخالقهما لا يقدر على ذلك غيره فوجب أن يعبد وحده ولا يشرك به من لم يقدر أن يخلق [ويدعوكم] إلى الإيمان [ليغفر لكم] وينفعكم لا يضرّكم وقال [من ذنوبكم] أي بعض ذنوبكم لأنّه قد يغفر مادون الشرك ولا يغفر الشرك [ويؤخّركم إلى أجل مسمّى] أي يؤخّركم إلى الأجل الّذي ضرب الله وقدّره لكم أن يميتكم فيه .

[قالوا إن أنتم إلّا] أي قال لهم قومهم : ما أنتم إلّا خلق [مثلنا تريدون] أن تمنعونا [عمّا كان يعبد آباؤنا] من الأصنام[فأتونا بسلطان]وحجّة ، وإنّما قالوا ذلك لأنّهم ما اعتقدوا بأنّ جميع ما جاءت به الرسل معجزة ؛ لأنّهم طلبوا معجزات سوى ما ظهرت منهم. وفي هذه الآية دلالة على أنّ الله لا يريد الكفر والشرك وإنّما يريد الخير والإيمان ، وإنّما بعث الرسل إلى الناس فضلاً ورحمة ، فإنّه سبحانه قال : «يدعوكم ليغفر لكم» .

قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على يشاء من عباده وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١١) وما لنا

ان لانتوكل على الله وقد هدانا سبلنا و لنصبرن على ما ءاذيتمونا و على الله فليتوكل المتوكلون (١٢) .

[قالت لهم رسلهم] لسنا [نحن إلّا بشر مثلكم] في الخلقة والصورة [ولكنّ الله يمنّ على من يشاء] وبنعمه النبوّة ولقد منّ الله علينا ، وليس [لنا أن نأتيكم] بحجّة على صحّة دعوانا [إلّا] بأمر [الله وعلى الله فليتوكّل] المصدّقون به وبأنبيائه ، وأيّ شيء لنا إذا لم [نتوكّل على الله] ولم نفوّض له أمورنا إليه ؟ ولا عذر لنا في أن لانتوكّل عليه [وقد] عرّفنا الطريق و [هدانا] إلى سبيل الإسلام ، و دلّنا على معرفته وضمن لنا على الإيمان جزيل الثواب [ولنصبرنّ على] أذاكم فإنّه تعالى يكفينا أمركم .

وروى الواقديّ عن أبي مريم عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : إذا آذاك البراغيث فخذ قدحاً من الماء فاقرأ عليه سبع مرّات : «ومالنا أن لانتوكّل على الله ، إلى آخر الآية » وقل : فإن كنتم آمنتم بالله فكفّوا شرّكم وأذاكم عنّا ، وترشّ الماء حول فراشك فإنّك بتّ تلك الليلة آمناً من شرّها .

قوله تعالى: وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن فى ملتنا فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين (١٣) ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي و خاف وعيد (١٤) و استفتحوا وخاب كل جبار عنيد (١٥) من ورائه جهنم و يسقى من ماء صديد (١٦) يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ (١٧) مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد (١٨) .

المعنى : [وقال الّذين كفروا] وماقبلوا الإيمان [لرسلهم لنخرجنّكم] من بلادنا إلّا أن ترجعوا إلى أدياننا و مذاهبنا الّتي نحن عليها [فأوحى] الله إلى رسله لمّا ضاقت صدورهم بمالقوا من قومهم إنّا نهلك هؤلاء [الظالمين] الكافرين [ولنسكننّكم الأرض من بعدهم] أي نسكنكم أرضهم ، يريد اصبروا فإنّي أهلك عدوّكم واُورثكم أرضهم . وفي معناه ماجاء : من آذى جاره أورثه الله داره .

[ذلك لمن خاف مقامي] أي ذلك الفوز لمن خاف وقوفه في الحساب للجزاء بين يديّ

في الموضع الّذي اُقيمه فيه ، وأضاف المقام إلى نفسه سبحانه لأنّهم يقومون بأمره [وخاف وعيد] وعقابي ، وإنّما قالوا : «أو لتعودنّ في ملّتنا» ظنّاً منهم ـ بزعمهم الفاسد ـ أنّهم على ملّتهم فطاماً وهذا الزعم لأنّهم نشأوا فيهم .

[و استفتحوا] قيل : استفتح الرسل. وقيل : استفتح الاُمم أي طلبوا النصر على الكافرين أو الاُمم استفتحوا العذاب على وجه التكذيب لهم [وخاب] وخسر [كلّ جبّار عنيد] أي خسر كلّ متكبّر معاند للحقّ من وراء هذا الجبّار المعاند نار [جهنّم] أي يأتيه العذاب من خلفه [و يسقى] ماء ممّا يصيل من النار ، والقيح عن فروج الزواني في النار لونه لون الماء وطعمه طعم الصديد . عن النبيّ ﷺ قال : يقرب إليه ... فإذا دنى منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه ، فإذا شرب قطع أمعاءه حتّى يخرج من دبره .

قال رسول الله ﷺ : من شرب الخمر لم تقبل صلاته أربعين يوماً ، فإن مات و في بطنه شيء من ذلك كان حقّاً على الله أن يسقيه من طينة خبال وهو صديد أهل النار وما يخرج من فروج الزناة فيجتمع ذلك في قدور جهنّم فيشربه أهل النار فيصهر به ما في بطونهم والجلود ، رواه شعيب بن واقد عن الحسين بن زيد عن الصادق عن آبائه عليهم السلام .

قوله : [يتجرّعه] أي يشرب ذلك الصديد جرعة جرعة [ولا يكاد يسيغه] أي لا يقارب أن يشربه كراهة له وهو يشربه ، و «يكاد» نفيه إثبات و إثباته نفي فقوله : «ولا يكاد يسيغه» أي و يسيغه بعد إبطاء ؛ تقول العرب : ما كدت أقوم أي قمت بعد إبطاء كقوله : «وما كادوا يفعلون [1]» يعني فعلوا بعد إبطاء .

قوله : [ويأتيه الموت من كلّ مكان] أي يأتيه شدائد الموت وسكراته من كلّ موضع جسده من ظاهره وباطنه حتّى يأتيه من أطراف شعره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه و شماله ، ومع إتيان أسباب الموت والشدائد الّتي يكون من الموت لا يموت فيستريح [ومن ورائه عذاب غليظ] أي يستقبله ويتلقّى بعد هذا العذاب المذكور عذاب أشدّ منه و هو الخلود في النار ؛ قال المفضّل : المراد بعد العذاب الأوّل و قبل الخلود قطع الأنفاس و حبسها في الأجساد [2] .

[مثل الّذين كفروا بربّهم] أي مثل أعمال الّذين كفروا بربّهم ، حذف المضاف

(١) البقرة : ٧١ . (٢) اى وذلك العذاب الغليظ قطع الانفاس .

لدلالة الكلام الواقع بعد المضاف إليه في قلّة انتفاعها [أعمالهم كرماد اشتدّت به الريح] و ذرّته ونسفته [في يوم عاصف] أي شديد الريح فكما لا يقدر أحد على جمع ذلك الرماد المتفرّق فكذلك هؤلاء الكفّار لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء من أعمالهم ومثله قوله: «ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً»(١).

[ذلك هو الضلال البعيد] عن النفع والخطاء البعيد عن الصواب. و في هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول المجبّرة لأنّه سبحانه أضاف العمل إليهم ولو كان العمل مخلوقاً له لما صحّ الإضافة إليهم.

قوله: الم تر ان الله خلق السموات و الارض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٩) وما ذلك على الله بعزيز (٢٠) و برزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا اجزعنا ام صبرنا ما لنا محيص (٢١).

المعنى: بيّن في هذه الآية أنّه إنّما خلق الخلق ليعبدوه وليؤمنوا به لا ليكفروا فقال: [ألم تر] وتعلم، لأنّ الرؤية قد تكون بمعنى العلم كما يكون الإدراك للبصر [أنّ الله خلق السماوات والأرض] على ما تقتضيه الحكمة، والخلق معناه فعل الشيء على تقدير وترتيب [بالحقّ] أي للغرض الصحيح وهو الدين والعبادة [إن يشأ] يهلككم ويفنيكم [ويأت] بقوم آخرين مكانكم لأنّ من قدر على بناء الشيء كان على هدمه أقدر وما هلاككم بأمر ممتنع ولا متعذّر على الله.

[وبرزوا] إنّ الخلق يبرزون [لله جميعاً] ورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال لأنّ كلّ ما أخبر الله صار كأنّه حصل ودخل في الوجود نظيره «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنّة»(٢) والمراد من البروز خروجهم من القبور وانكشفوا. وقيل: برزت سرائرهم والأحوال الكامنة فيهم للحاكم الحكيم، فإن كانوا من السعداء برزوا بصفاتهم القدسيّة ووجوههم المشرقة وأرواحهم المستنيرة، فتجلّى لها نور الجلال فما أجلّ تلك الأحوال! وإن كانوا من الأشقياء

---

(١) الفرقان: ٢٣.
(٢) الاعراف: ٤٩.

برزوا للمواقف العظيمة ذليلين مهينين خائفين واقعين في خزي الخجالة ، وموقف الإهانة و الفزع، نعوذ بالله منها .

ثمّ يقول الضعفاء للرؤساء من أهل الضلال : هل تقدرون على دفع عذاب الله عنّا ؟ [إنّا كنّا لكم تبعاً] في الكفر [فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله] شيئاً من عذاب واقع؟ قال المتّبعون للأتباع : [لو هدانا الله] أي لو خلصنا لخلصنا كم ولو هدانا الله إلى طريق الخلاص أو هدانا إلى طريق الرجعة إلى الدنيا فنصلح ما أفسدناه [لهدينا كم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص] يعني أنّ الصبر والجزع سواء ، لالنا مهرب من عذاب الله .

قوله تعالى : وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخى انى كفرت بما اشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم (٢٢) .

لمّا بيّن الله المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنسان بيّن في هذه الآية المناظرة التي وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس فقال: [وقال الشيطان] أي لمّا استقرّ أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار أخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه ؛ فيقوم في النار خطيباً لهم على منبر من نار ، فقال رسول الله : إذا جمع الله الخلائق و قضى بينهم يقول الكافر : قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ماهو إلّا إبليس هو الّذي أضلّنا فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول :

[إنّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم] وقوله : وعد الحقّ من باب إضافة الشيء إلى نفسه كقوله : «حبّ الحصيد» و«مسجد الجامع» على قول الكوفيّين . وعلى قول البصريّين يكون التقدير وعد اليوم الحقّ فوعدكم وصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وعدتكم أن لا جنّة ولا نار ولا حشر ولا حساب [وما كان لي عليكم] من قدرة وقهر فأقهركم على الكفر والمعاصي وأُلجئكم إليها [إلّا أن دعوتكم] بوسوستي وتزييني .

[فلا تلوموني ولوموا أنفسكم] ما أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثي ومعيني . وفي هذه الآية دلالة على أنّ الكفر والمعصية لو كان بتخليق الله لوجب أن يقول إبليس : لاتلوموني

ولا أنفسكم وإنّما الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه . وكذلك تدلّ على أنّ الشيطان لاقدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وعلى إزالة العقل عنه كما يقوله العوامّ .

قوله : [إنّي كفرت بماأشركتمون من قبل]أي كفرت الآن بماكان من إشراككم إيّاي مع الله في الطاعة ، يعني جحدت أن أكون شريكاً لله فيما أشركتموني فيه من قبل هذا اليوم. ولعلّ مراده استكباره عن سجود آدم [إنّ الظالمين لهم عذاب شديد] قيل : إنّه من تمام قول الشيطان . وقيل : استئناف وعيدالله لأهل النار .

وبقي ههنا سؤال : كيف يتعقّل ويتمكّن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الإنسان وإلقاء الوسوسة إليه؟ فيه قولان :

الاول أنّ ما سوى الله بحسب القسمة العقليّة على أقسام ثلاثة : المتحيّز والحالّ في المتحيّز والّذي لايكون متحيّزاً ولا حالاً فيه . وهذا القسم الثالث هو المسمّى بالأرواح ، فهذه الأرواح إن كانت طاهرة مقدّسة في عالم الروحانيّات فهم الملائكة وإن كانت خبيثة شريرة داعية إلى الشرور وعالم الأجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين ، فعلى هذا التقدير الشيطان لايكون جسماً يحتاج إلى الولوج في داخل البدن ، بل هو جوهر روحانيّ خبيث الفعل ؛ فعلى هذا التقدير لايبعد في أن يلقي شيء من تلك الأرواح أنواعاً من الوساوس والأباطيل إلى جوهر النفس الناطقة بالمشاكلة وتلك الوسوسة تؤثّر في النفس الناطقة فيحصل الإضلال من غير ولوج ؛ فهذه المشاكلة تختلف فإن كانت مشاكلة الخير والبركة كان ذلك من الملك إلهاماً ، وإن كانت المشاكلة من أبواب الشرّ كان وسوسة من الشيطان ، وهذا التقرير على القول بإثبات جواهر مبرّأة عن الجسميّة والتحيّز ، والقول بالأرواح الخبيثة والطاهرة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لأحد أن ينكر وجود الشيطان والجنّ والملائكة على أن نطقت به الشرائع والشريعة الأحمديّة فمن أنكر أنكر القرآن .

والقول الثاني وهو أنّ الملائكة والشياطين لابدّ وأن تكون أجساماً لكن أجساماً لطيفة والله سبحانه ركّبها تركيباً عجيباً وهي أن تكون مع لطافتها لاتقبل التفرّق والتمزّق

والفساد والبطلان، ونفوذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة غير مستبعد كما في الروح، فإنّه نفذ في داخل عمق البدن ؛ فإذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ أنواع كثيرة من الأجسام اللطيفة في داخل هذا البدن ؟ كالشيطان مثلاً و كماء الورد في الورد ودهن السمسم في السمسم فكذلك القول في الشيطان والجنّ . فلمّا ثبت القول في إمكان وجودهما فحينئذ الأولى أنّ الملائكة يكونون من النور مخلوقين، والشياطين مخلوقون من اللهب والدخان كما قال الله: «والجانّ خلقناه من قبل نار السموم»[1] . انتهى .

قوله تعالى : و ادخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام (٢٣) الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت و فرعها فى السماء (٢٤) توتى اكلها كل حين باذن ربها و يضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) و مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار (٢٦) .

المعنى : لمّا تقدّم وعيد الكفّار عقّبه بالوعد المؤمنين فقال سبحانه : [وأُدخل الّذين]صدّقوا بالله ورسوله [وعملوا]الطاعات[جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها] بأمر[ربّهم تحيّتهم فيها سلام] بعضهم يحيّي بعضهم بهذه الكلمة والملائكة يحيّونهم بهذه الكلمة والربّ الرحيم يحيّيهم بهذه الكلمة كما قال : « سلام قولاً من ربّ رحيم »[2] و كذلك قال : «والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم»[3] والتحيّة التلقّي بالكرامة في المخاطبة و الجمع التحيّات لأنّه كان الملوك يحيّون بتحيّات مختلفة يقال لبعضهم : أبيت اللعن . ولبعضهم : أسلم و أنعم . و لبعضهم : عش ألف سنة .

وبالجملة ثم [ضرب الله] مثالين للمؤمن والكافر أي بيّن الله شبهاً وضرب وجعل مثل الكلمة الطيّبة ، وهي كلمة التوحيد أعني كلمة لا إله إلّا الله أو كلّ كلام أمر الله به من الطاعات ، وإنّما سمّاها طيّبة لأنّها نامية زاكية لصاحبها بالخيرات مثل شجرة

---

(١) الحجر : ٢٧ .　(٢) يس : ٥٨ .
(٣) الرعد : ٢٥ .

طيّبة المنظر والشكل والرائحة والثمرة اللّذيذة المستطابة المتولّدة منها ، و كثيرة المنفعة بسبب أكلها جامعة لهذه الوجوه ؛ لأنّ الطيّب يصدق على جميع هذه المراتب ويكون أصل الشجرة [ثابت] راسخ في الأرض باق آمن من الانقلاع والزوال لأنّ الطيّب إذا كان في معرض الانقراض ولو أنّه يحصل الفرح بسبب و جوده إلّا أنّه يعظم الحزن بسبب زواله فليس بطيّب . ويكون [فرعها في السماء] وهذه الصفة تدلّ على قوّتها من التصاعد مرتفعة وبعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فحينئذ ثمرتها نقيّة طاهرة عن جميع الشوائب .

[تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها] والشجرة الموصوفة بهذه الصفات ثمراتها دائمة حاضرة في كلّ الأوقات وليست مثل سائر الأشجار ، ومن المعلوم بالضرورة أنّ الرغبة في تحصيل هذه الشجرة بحسب أن تكون عظيمة وأنّ العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملّكها فلا يجوز له أن يتغافل عنها في الفوز بها ، فالمعرفة بالله والاستغراق في إطاعته ومحبّته تشبه هذه الشجرة بهذه الصفات المذكورة ، وهيهات من هذه اللذّة والالتذاذ بالفاكهة أين الثرى والثريّا ؟ لأنّ المدرك من تلك اللّذة جوهر النفس القدسيّة والمدرك معرفة الجلال، والمدرك من هذه القوّة الذائقة الفانية والمدرك الفاكهة ونسبة أحد المدركين إلى الأخرى كنسبة أحد اللذّتين إلى الأُخرى لأنّ اللذّة الحاصلة بتناول الفاكهة سريعة الاستحالة شديدة التغيّر ، و لذّة المعرفة و كمال جلال الله ممتنع التغيّر . و بالجملة ، فالمراد من هذه الشجرة روي عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ أنّ هذه الشجرة الطيّبة هي النخلة وقيل: إنّها شجرة في الجنّة . وروى ابن عقدة عن أبي جعفر عليه السلام أنّ الشجرة رسول الله و فرعها عليّ وعنصر الشجرة فاطمة وثمرها أولادها ، و أغصانها و أوراقها شيعتنا ، ثمّ قال : إنّ الرجل من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة و إنّ المولود من شيعتنا ليولد فيورق مكان تلك الورقة ورقة . وروي عن ابن عبّاس قال : قال جبرئيل للنبيّ : أنت الشجرة و عليّ غصنها وفاطمة ورقها والحسن والحسين ثمارها . وقيل : المراد بالكلمة الطيّبة الإيمان وبالشجرة الطيّبة المؤمن .

قوله : «تؤتي أُكلها» أي تخرج هذه الشجرة ما يؤكل منها كلّ حين ، قيل: المراد كلّ السنة . وقيل : كلّ غدوة وعشيّة . وقيل : معناه في جميع الأوقات لأنّ التمر يكون

أوّلاً طلعاً ثمّ بلحاً ثمّ بسراً ثمّ رطباً ثمّ تمراً ، فيكون تمره موجوداً في كلّ الأوقات ، ويدلّ على أنّ الحين بمنزلة الوقت ، قول النابغة في صفة الحيّة :

يبادرها الراقون منسوء سمّها ＊ تطلّقه حيناً و حيناً تراجع

وقيل : إنّ معنى آية «تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها » مايفتي به الاثنا عشر من آل محمّد شيعتهم في الحلال والحرام .

[ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكّرون] لكي يتدبّروا .

[ومثل كلمة خبيثة] وهي كلمة الكفر والشرك ، وقيل : كلّ كلام في معصية الله [كشجرة خبيثة] غير زاكية وهي شجرة حنظل . وقيل : شجرة لاقرار لها في الأرض.وقيل : إنّها الكشوث . وعن أبي جعفر عليه السلام :أنّ هذا مثل بني اُميّة [اجتثّت من فوق الأرض] أي اقتطعت واستأصلت واقتلعت جثّتها من الأرض مالتلك الشجرة من ثبات ؛ فإنّ الريح يكشفها وتذهب بها ، فكما أنّ هذه الشجرة لاثبات لها ولاينتفع بها أحد فكذلك الكلمة الخبيثة لاينتفع بها صاحبها ، ولا يثبت له منها نفع ولا ثواب .

وروي عن ابن عبّاس أنّها شجرة لم يخلقها الله بعد و إنّما هو مثل ضربه بهذا و حقيقة الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله فإنّه أوّل الآفات ورأس الشقاوات . وقيل:المراد بالشجرة الخبيثة الثوم لأنّه صلى الله عليه وآله وصف الثوم بأنّها شجرة خبيثة.وقيل : الشوك.وبالجملة لمّا كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعاً في المطلوب .

قوله تعالى : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الاخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء (٢٧) .

لمّا ذكر الكلمة الطيّبة عقّبه بذكر ما يحصل لصاحبها من المثوبة و الكرامة ، فقال : [يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا] ويثبّتهم في الآخرة في كرامته وثوابه بقولهم الثابت الّذي قالوا ، وهو كلمة الإيمان و كلمة التوحيد حتّى لايزلّوا ولا يضلّوا عن طريق الحقّ في الدنيا ولا يضلّوا عن طريق الجنّة [في الآخرة] وبإسكانهم فيها .

وقال أكثر المفسّرين : إنّ المراد بقوله : «في الآخرة» في القبر وقالوا : الآية وردت في سؤال القبر ، وهو المروي عن أئمّتنا عليهم السلام .

وروى محمد بن يعقوب الكليني في كتاب الكافي بإسناده عن سويد بن غفلة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال : إنّ ابن آدم إذا كان آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة مثّل له ماله وولده وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول : والله إنّي كنت عليك لحريصاً شحيحاً فما لي عندك؟فيقول : خذ منّي كفنك . فيلتفت إلى ولده فيقول : والله إنّي كنت لكم محبّاً ومحامياً فمالي عند كم ؟ فيقولون نؤدّيك إلى حفرتك نواريك فيها . قال : فيلتفت إلى عمله فيقول والله إنّي كنت فيك لزاهداً وإن كنت عليّ لثقيلاً فمالي عندك؟فيقول : أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتّى أُعرض أنا وأنت على ربّك .

قال : فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً ورياشاً فقال: ابشر بروح وريحان وجنّة نعيم ومقدمك خير مقدم!فيقول له:من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح قرينك أو تحلّ إلى الجنّة،وإنّه ليعرف غاسله و يناشد حامله أن يعجّله فإذا أُدخل قبره أتاه ملكا القبر يجرّان أشفارهما ويخدّان الأرض بأنيابهما أصواتهما كالرعد القاصف ، وأبصارهم كالبرق الخاطف ، فيقولان له : من ربّك ومادينك ومن نبيّك ؟ فيقول : الله ربّي وديني الإسلام ونبيّي محمد . فيقولان : ثبّتك الله بالقول الحقّ ، وهو قوله سبحانه : «يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» ثمّ يفسحان له مدّ نظره ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنّة ثمّ يقولان له : نم قرير العين نوم الشابّ الناعم فإنّ الله يقول : «أصحاب الجنّة يومئذ خير مستقرّاً وأحسن مقيلاً» (١) .

قال : وإذا كان لربّه عدوّاً فإنّه يأتيه أقبح خلق الله زيّاً وأنتنه ريحاً فيقول : ابشر بنزل من حميم وتصلية جحيم ، وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحبسوه فإذا أُدخل القبر أتاه ملكا القبر فألقيا أكفانه ، ثمّ يقولان له : من ربّك وما دينك ومن نبيّك ؟فيقول: لاأدري . فيقولان : لادريت ولاهديت،فيضربان يافوخه بمرزبة معهما ضربة ما خلق الله دابّة إلّا تذعر بها ماخلا الثقلين ثمّ يفتحان له باباً من النار ثمّ يقولان له : نم بشرّ حال فيه مثل ما فيه القناة من الزحّ حتّى أنّ دماغه ليخرج من بين ظفره ولحمه ويسلّط الله حيّات الأرض و عقاربها وهوامّها ، فتنهشها حتّى يبعثه الله من قبره وأنّه ليتمنّى قيام الساعة بسبب ماهو

(١) الفرقان : ٢٤ .

فيه من الشرّ، نعوذ بالله من عذاب القبر .

[ويضلّ الله] عن هذه التثبيت في الدنيا وفي الآخرة [الظالمين] بسبب اختيارهم الظلم وإنّما فسّر الآخرة ههنا بالقبر بسبب أنّ الميّت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا و دخل في أحكام الآخرة [ويفعل الله ما يشاء] من الإمهال والانتقام و ضغطة القبر ومساءلة منكر ونكير ولا اعتراض عليه .

الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار (٢٨) جهنم يصلونها و بئس القرار (٢٩) وجعلوا لله انداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار (٣٠) .

نزلت في أهل مكّة حيث أسكنهم الله حرمه الأمن وجعل عيشهم في السعة والدعة وبعث فيهم محمّداً ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ، ثمّ حكى عنهم أنواعاً من الأعمال القبيحة من تبديل [نعمة الله كفراً] أي بدّلوا الشكر بالكفر [وأحلّوا قومهم دار] الهلاك وهي جهنّم وأخرجوهم إلى بدر وأنزلوهم جهنّم بدعائهم إيّاهم إلى الكفر . وسئل علي عليه السلام عن هذه الآية فقال : هم الأفجران من قريش بنو أُميّة وبنو المغيرة . وقيل : إنّهم جبلة بن الأيهم ومن اتّبعوه من العرب تنصّروا ولحقوا بالروم .

[جهنّم] يدخلونها [وبئس القرار] قرارهم في النار [وجعلوا] هؤلاء الكفّار [لله] نظراء وأمثالاً للعبادة زيادة على كفرهم [ليضلّوا عن سبيله] وقرىء «ليضلّوا» بفتح الياء فحينئذ معنى اللام للعاقبة أي صار عاقبة أمرهم الهلاك، ومن قرأ بضمّ الياء أي ليضلّ الناس عن سبيل الله، وعلى هذه القراءة فاللام لام «كي» للغرض . وكانوا يصرّحون الشريك لله في القول والعمل لأنّهم كانوا يعبدون الأصنام ويقولون في الحجّ: لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هو لك تملكه وما ملك .

[قل] يا محمّد لهؤلاء الكفّار : [تمتّعوا] وانتفعوا قليلاً [فإنّ مصيركم إلى النار] والمراد التهديد وإن كان بصورة الأمر .

قوله تعالى: قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل ان ياتى يوم لا بيع فيه ولا خلال (٣١) الله الذى خلق

السموات والارض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار (٣٢) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (٣٣) وآتكم من كل ما سالتموه وان تعدوا نعمت الله لاتحصوها ان الانسان لظلوم كفار (٣٤) .

المعنى : لمّا أمر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتّع بنعيم الدنيا أمر المؤمنين في هذه الآية بترك التمتّع بالدنيا والمجاهدة بالنفس والمال فقال :

[قل] يا محمد [لعبادي الّذين آمنوا] أقيموا وأنفقوا ، وهو في المعنى أمر محذوف منه اللام أي ليقيموا ولينفقوا ، وإنّما جاز حذف اللام لأنّ قوله : «قل» عوض منه كقولك : قل لزيد يضرب عمراً ، وإنّ الإنسان بعد الفراغ من الإيمان مأمور بالصلاة و أداء الزكاة ، وهما بذل النفس في مجاهدة الصلاة وبذل المال في إنفاق الزكاة ، فهذه الأُمور الثلاثة هي الطاعات المعتبرة ، لقوله : « الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون» [١] .

[سرّاً وعلانية] أي قل لهم : أنفقوا في النوافل سرّاً لتدفعوا عن أنفسكم تهمة الرياء وفي الفرائض تهمة المنع [من قبل أن يأتي يوم] القيامة ، وهو يوم لايمكن فيه إعطاء الفدية للتخلّص عن النار ولا مصادقة ولا مخاللة لأنّ المصادقة والمخاللة إنّما تحصل بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس وفي ذلك اليوم تنقرض هذه الموادّ الطبيعيّة .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله : «الأخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقون» [٢]؟ .

الجواب أنّ إثبات الخلّة للمؤمنين في تلك الآية بسبب عبوديّة الله ومحبّة حاصلة لابسبب ميل الطبيعة .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه المستحقّ للإلهيّة فقال : [الله الّذي خلق السماوات والأرض] وأنشأهما من غير شيء ومثال ورويّة ، وبدأ بذكرهما لعظم شأنهما في القدرة ولأنّهما مادّة كلّ شيء [وأنزل من السماء] غيثاً ومطراً [فأخرج به من الثمرات] أرزاقكم لأنّ الماء مادّة الثمرات [وسخّر لكم] السفن والمراكب [لتجري] الفلك في البحر بأمر الله لأنّها تسير بالرياح

(١) البقرة : ٢ .
(٢) الزخرف : ٦٧ .

والله هو المنشىء للرياح [وسخّر لكم الأنهار] الّتي تجري بالمياه الّتي ينزلها من السماء وتجريها في الأودية وينصبّ منها في الجداول ولولا النهار لما انتفع الناس من المياه دائماً وذلّل لمنافعكم [الشمس والقمر] في سيرهما لتنتفعوا بضوء الشمس نهاراً وبضوء القمر ليلاً وليبلغ به الثمار والنبات في النضج الحدّ الّذي عليه يتمّ النعمة [دائبين] ومستمرّين لايفتران [وسخّر لكم اللّيل والنهار] ومهّدهما لمنافعكم لتسكنوا في الليل للراحة ولتبغوا المعاش والرزق في النهار من فضله .

[وآتاكم من كلّ ما سألتموه] لأنّ الإنسان قديسأل الله العافية فيعطى والنجاة من المهالك فيعطى والغنى فيعطى والعزّ فيعطى فهذه الأُمور من مسؤولاته يعطي الله لهمالم يكن مفسدة ، فأين يذهب هذا الانسان مع هذه النعم الّتي لاتحصى كثرة عن الله ويعبد غيره ؟ وإنّما قال : «من كلّ ما سألتموه» لأنّه سبحانه لايعطي جميع ماسأله العبد لاختلال عالم نظام الأُمور في عالمه أو عالم غيره .

[وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها] لكثرتها و«النعمة» هنا اسم أُقيم مقام المصدر ، ولذلك لم يجمع وفيه معنى الجمع ، وكيف يقدر العبد أن يحصي أمراً غير متناهي ؟ لأنّ الشيء إذا لم يتناهى لم تحص ، كيف لا وما من فرد من أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس مبتلى بأنواع البلايا والرزايا لو تأمّلته ألفيته منقلباً في نعم لاتحدّ ومنن لاتحصى كأنّه قد أُعطي كلّ ساعة وآن من الله لنعماء ما حواها حيطة الإمكان ؟

وإن كنت في ريب من هذا فتأمّل في حال ملك ملك الأقطار ودانت له كافّة الأُمم أذعنت لطاعته السراة ، وخضعت لهيبته رقاب العتاة ، ونال كلّ منال وفاز بكلّ مراح وحاز جميع ما في الدنيا من أصناف الجواهر والأموال والنفائس والأغلاق ، وصارت أحجار الجبال بأسرها يواقيت غالية ومدر الأرض درر نفيسة من غير ندّ يزاحمه ، أو شريك يساهمه ثمّ اتّفق هذا الملك في فلاة قد نزل وفقد مشروب أومطعوم في حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ماله من الدنيا بلقمة تنجيه عن جوعه ؟ أو شربة ترويه من ظمائه أم يختار الهلاك ؟ كلاّ ! بل يبذل لذلك كلّ مايملك وليس في صفقته شائبة الخسران فإنّ تلك اللقمة والشربة خير ممّا في الدنيا بألف رتبة . أوقدّر أنّ ذلك الملك احتبس عليه

النفس فلا دخل منه ماخرج ولا خرج منه ما ولج،والحين حان وأتاه الموت من كلّ مكان أما يعطي ذلك كلّه بمقابلة نفس واحد ؟ بل يعطيه و هو لرأيه حامد ؛ فانظر حينئذ ذلك الفقير المبتلى يقدر أن يحصي نعم الله عليه ؟ فكيف بغيره ؟ على أنّ الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهيّة من العلاقة لما استقرّ له القرار ولا اطمأنّت به الدار إلاّ في مطمورة العدم، لكن يفيض عليه من الجنّاب الأقدس تعالى شأنه في كلّ زمان يمضي و كلّ آن يمرّ وينقضي من أنواع الفيوض المتعلّقة بقدرته المنيعة ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلم مقداره إلاّ العليم الخبير .

وبالجملة قال طليق بن حبيب : إنّ حقّ الله تعالى أثقل من أن يقوم به العباد ونعمه أكثر من أن يحصيها الخلق ، و لكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين [إنّ الإنسان] كثير الظلم لنفسه كثير الكفران لنعم ربّه .

والنظم في الآية : لمّا ذكر ماهم عليه من اتّخاذ الأنداد بيّن في هذه الآية أنّ المستحقّ للعبادة واجب الوجود هو الله الّذي خلق السماوات ، إلخ .

قوله : واذقال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام (٣٥) رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى و من عصانى فانك غفور رحيم (٣٦) ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٣٧) ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الارض ولا فى السماء (٣٨) الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء (٣٩) رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى وتقبل دعاء (٤٠) ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب (٤١) .

لمّا بيّن سبحانه في الآيات السابقة المنع عن عبادة غيره حكى عن نبيّه إبراهيم مبالغته في إنكار عبادة الأصنام :

واذكر يا محمّد [إذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد] يعني مكّة وحولها من الحرم.

وإنّما دعا إبراهيم بهذا الدعاء لمّا فرغ من بناء الكعبة، وإنّما ذكر البلد هنا معرّفاً وفي البقرة منكّراً ، لأنّ النكرة إذا تكرّرت وأُعيدت صارت معرفة ، ومثله : «مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة» [1] فاستجاب الله دعاءه حتّى كان الإنسان يرى قاتل أبيه فيها فلا يتعرّض له و يدنو الوحوش فيها من الناس فيأمن منهم .

قوله : [واجنبني وبني] أي والطف لي ولبنيّ لطفاً نجتنب به عن عبادة الأصنام وكان سؤاله مخصوصاً بمن علم الله من حاله أن يكون مؤمناً لا يعبد إلّا الله و قد أذن له في الدعاء ؛ لأنّ النبيّ لا يدعو بدعاء بغير إذن الله ، واستجاب دعاءه فيهم .

[ربّ] إنّ الأصنام بسببهنّ وعبادتهنّ ضلّ كثير من الناس كما يقال فتنتني فلانة وفلان أضلّ بعيره أي ضلّ بعيره لأنّ أحداً لا يضلّ بعيره قاصداً إلى إضلاله [فمن تبعني] من ذرّيّتي الّذي أسكنتهم هذا البلد على ديني في عبادة الله وحاله كحالي [ومن عصاني فإنّك] ساتر على العباد معاصيهم [رحيم] بهم .

ثمّ قال إبراهيم : [ربّنا إنّي أسكنت] بعض أولادي أي إسماعيل مع أُمّه هاجر وهو أكبر ولده ، وروي عن الباقر أنّه قال : نحن بقيّة تلك العترة ، و قال عليه السلام : كانت دعوة إبراهيم لنا خاصّة [بواد غير ذي زرع] يريد وادي مكّة وهو الأبطح لأنّه يومئذ لم يكن بها زرع ولا ضرع [عند بيتك المحرّم] لأنّ البيت قد كان قبل ذلك و قد خربه طسم وجديس أو رفعه الله إلى السماء أيّام الطوفان وإنّما سمّاه الله محرّماً ؛ لأنّه حرّم فيه ما أُحلّ في غيره من البيوت من الجماع والملابسة بشيء من الأقذار والدماء . وقيل: معناه : العظيم الحرمة .

[ربّنا ليقيموا الصلاة] أي أسكنتهم هذا الوادي ليداوموا على الصلاة و يقيموا بشرائطها [فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم] هذا سؤال من إبراهيم أن يجعل الله قلوب الخلق تحنّ إلى ذلك الموضع ليكون ذلك أُنساً لذرّيّته بمن يرد عليهم من الوفود ، إمّا للدين كالحجّ والعمرة وإمّا للتجارة ، وروي عن مجاهد أنّه قال : إنّ إبراهيم لو قال : «أفئدة الناس» لازدحمت عليه فارس والروم. قال سعيد بن جبير : لو قال : «أفئدة الناس» لحجّت اليهود

(١) النور : ٣٥ .

والنصارى والمجوس ولكنه قال: «من الناس» فهم المسلمون [وارزقهم من الثمرات] لكي يشكروا لك ويعبدوك .

[ربّنا إنّك تعلم ما نخفي و ما نعلن] قال إبراهيم : لمّا طلب التيسير في المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم ذكر أنّه لايعلم عواقب الأُمور أحد ، وأنّك عالم بأحوالنا ومصالحنا من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني و بين إسماعيل وما نعلن من البكاء ، و ما نخفي من الحزن المتمكّن في القلب و «ما نعلن» يريد ما جرى بينه و بين هاجر حيث قالت له عند الوداع : إلى من تكلنا ؟ فقال : إلى الله أكلكم ،قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا نخشى .

ثمّ قال إبراهيم : [وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء] قيل : هذا من كلام إبراهيم وقيل : كلام الله تصديقاً لإبراهيم .

ثمّ استحمد الله وقال : [الحمد لله الّذي وهب لي على الكبر] والشيخوخة [إسماعيل وإسحاق] فأمّا مقدار السنّ فغير معلوم من القرآن لكنّ الروايات تدلّ على أنّه لمّا ولد إسماعيل كان سنّ إبراهيم تسعاً و تسعين ، و لمّا ولد إسحاق كان سنّه مائة واثنتي عشرة سنة ، وإنّما ذكر هذا الاستحماد بعد مدّة من الدعاء و ما كان متّصلاً هذا الكلام بالدعاء .

[ربّ اجعلني مقيم الصلاة] وبعض [ذرّيّتي] لانّ «من» للتبعيض لأنّه علم بإعلام الله إيّاه أنّه يكون في ذرّيّته جمع من الكفّار وذلك قوله : «لاينال عهدي الظالمين[1]» ولمّا دعا الله بهذا الدعاء فقال : [ربّنا وتقبّل دعاء] يريد أجب دعوتي فإنّ قبول الدعاء إنّما هو الإجابة وقبول الطاعة الإثابة .

[ربّنا اغفر لي ولوالديّ] واستدلّوا أصحابنا بهذه الآية على أنّ أبوي إبراهيم لم يكونا كافرين لأنّه إنّما يسأل المغفرة لهما ليوم القيامة فلو كانا كافرين لما سأل ذلك لأنّه يعلم أنّ الله لم يكن ليغفر الكافر أبداً ؛ لأنّه قال : «فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ لله تبرّأ منه»[2] فصحّ أنّ أباه الّذي كان كافراً إنّما هو جدّه لأُمّه أوعمّه على الخلاف فيه، ولا يمكن أن يكون حال أبويه مجهولاً عنده وهو على سنّ الشيخوخة حتّى أنّه يقال :

(١) البقرة : ١٢٤ . (٢) التوبة : ١١٥ .

إنّه بعد علمه تبرّأ منه [وللمؤمنين] أي واغفر للمؤمنين يوم [يقوم الخلق] للحساب كما يقول : قامت السوق .

قوله تعالى : ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار (٤٢) مهطعين مقنعي رءوسهم لايرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء (٤٣) وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل اولم تكونوا اقسمتم من قبل مالكم من زوال (٤٤) وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال (٤٥) .

المعنى : قوله : [ولا تحسبنّ الله] في الآية دلالة على وجود القيامة لأنّه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لزم أن يكون إمّا غافلاً عن ذلك المظلوم والظالم أو عاجزاً عن الانتقام أو كان راضياً ، والثلاثة محال على الله ؛ فامتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم ، ولمّا كان امتناع هذه الغفلة معلوماً لاجرم عدم الانتقام كان محالاً ، وهذا البيان تهديد للظالم و تعزية للمظلوم ولمّا ثبت الانتقام ثبت المعاد .

[وإنّما يؤخّر] عقابهم [اليوم] تبقى عيونهم مفتوحة لا يطرفها لأجل الدهشة والهول و مع شخوص أبصارهم مسرعين إلى نحو ذلك العذاب على ما يقتضي حال المدهوش أذلّاء خاشعين [مقنعي رؤوسهم] أي رافعين رؤوسهم على خلاف ما يقتضي حال الذليل ؛ لأنّه من يشاهد العذاب يطرق رأسه لكي لا يراه أحد وهؤلاء على خلاف ذلك يرفعون رؤوسهم شاخصة أبصارهم على الدوام ، وقلوبهم خالية عن الشواغل حيث لا قوّة فيها ولا تشغلها الخواطر و الأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ، ومن كلّ رجاء وأمل لما تحقّقوه من العذاب خوفاً و فزعاً وقيل : خالية من كلّ سرور وطمع في الخير كالهواء الّذي بين السماء والأرض. وقيل: معناه أنّ أفئدتهم زائلة عن مواضعها قد ارتفعت إلى حلوقهم لا تخرج ولا تعود إلى أماكنها بمنزلة الشيء الذاهب في جهات مختلفة ، المتردّد في الهواء .

قوله : [وأنذر الناس] معناه دم يا محمّد على شغلك و إنذارك الناس بتخوّفهم يوم القيامة [فيقول الّذين ظلموا أنفسهم] بارتكاب المعاصي [ربّنا أخّرنا إلى أجل قريب] أي ردّنا في الدنيا واجعل ذلك مدّة قريبة [نجب دعوتك] فيها [ونتّبع الرسل] فيما يدعوننا

إليه فيقول الله مخاطباً لهم أو يقول الملائكة بأمره :

[أو لم تكونوا] حلفتم [من قبل] في دار الدنيا [مالكم من زوال] أي كنتم تعتقدون أنّه ليس لكم انتقال من الدنيا إلى الآخرة ، وتكذّبون بها .

قوله : [وسكنتم مساكن الّذين] كذّبوا رسلهم من قبلكم فأهلكهم الله و عرفتم ما أنزل بهم من البلاء والعذاب المعجّل لقوم عاد وثمود ، والمقتولون ببدر ، وبيّنّا لكم أخبار الماضين قبلكم لتعتبروا بها [وضربنا لكم الأمثال] في القرآن فلم تتّعظوا وهي الأمثال المنبّهة على الطاعة والزاجرة عن المعصية .

وفي هذه الآية دلالة على أنّ الإيمان من فعل العباد ولو كان من فعل الله لم يكن لتمنّي العود إلى الدنيا معنى .

قوله تعالى : وقد مكروا مكرهم و عندالله مكرهم و ان كان مكرهم لتزول منه الجبال (٤٦) فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام (٤٧) يوم تبدل الارض غير الارض و السموات و برزوا لله الواحد القهار (٤٨) وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الاصفاد (٤٩) سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار (٥٠) ليجزى الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب (٥١) هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولوا الالباب (٥٢) .

المعنى : ثمّ أبان سبحانه عن مكر الكفّار و دفعه عن رسله تسلية لنبيّه فقال : [وقد مكروا] بالأنبياء قبلك ما أمكنهم من المكر كما مكروا بك فعصمهم الله كما عصمك [وعندالله مكرهم] أي جزاء مكرهم ، وحذف المضاف كما حذف من قوله : «ترى الظالمين مشفقين ممّا كسبوا وهو واقع بهم[1]» أي جزاؤه واقع بهم [وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال] قرأ بعض بفتح اللام الأولى ورفع اللام الأخرى والأكثر بكسر الأولى ونصب الثانية ؛ أمّا القراءة الأولى فمعناها أنّ مكرهم كان مكراً عظيماً معدّاً لأن تزول منه الجبال ، وليس المراد الإخبار عن وقوعه بل المبالغة في الشدّة والتهويل أي إنّهم مكر وافي إبطال الحقّ وإثبات الباطل مكرهم العظيم الّذي ينبغي من عظمه أن تزول الجبال عن مقارّها .

(١) الشورى : ٢٢ .

فحينئذ تكون «إن» وصليّة وهو كقوله : «تكاد السماوات يتفطّرن منه» [١] وأمّا القراءة الثانية وهي أن تكون اللام الأُولى مكسورة و الثانية مفتوحة ، فحينئذ «إن» إن النافية بمعنى «ما» و الجبال مثل لأمر الدين والحجج الإلهيّة أي لم يكن مكرهم ليبطل أمرك يا محمّد الّذي هو كالجبال في الثبات وأثبت من الجبال .

[فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله] من النصر والظفر بالكفّار [إنّ الله عزيز] غالب على أمره ينتقم من أعدائه .

قوله : [يوم تبدّل الأرض] بيّن سبحانه زمان انتقامه . وعظّم في البيان حال ذلك اليوم ؛ لأنّ تعبير السماوات والأرض أمر عظيم في العقول والنفوس وليس أمر بأعظم منه، يقال : بدّلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وسوّيتها ونقلتها من شكل إلى شكل . وروي عنه قال : تبدّل آكامها وآجامها وجبالها وأشجارها والأرض تبقى أرضاً نقيّة بيضاء كالفضّة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، وتبدّل السماوات فيذهب بشمسها وقمرها ونجومها. وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : يبدّل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العكاظي فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثمّ يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في هذه المبدّلة مثل مواضعهم من الأُولى .

وقيل : إنّ المعنى تبدّل الأرض و تنشأ أرض غيرها والسماوات كذلك تبدّل بغيرها وتفنى هذه . وفي تفسير أهل البيت بالإسناد عن زرارة ومحمّد بن مسلم وحمران بن أعين عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام ، قالا : تبدّل الأرض خبزة نقيّة يأكل الناس منها حتّى يفرغ من الحساب . وروى سهل بن ساعدة عن النبيّ أنّه قال : يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء كقرصة النقيّ ، ليس فيها معلم لأحد . وروي عن ابن مسعود أنّه قال : تبدّل الأرض بنار فتصير الأرض كلّها يوم القيامة ناراً والجنّة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها ، ويلجم الناس العرق ، ولم يبلغ الحساب بعد . و قال كعب : تصير السماوات أجناناً ويصير مكان النحر النار ، وتبدّل الأرض غيرها .

وروى أبو أيّوب الأنصاريّ قال : أتى النبيّ حبر من أحبار اليهود فقال : أرأيت إذ

---

(١) مريم : ٩١ .

يقول الله تعالى في كتابه : «يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات» فأين الخلق عندذلك ؟ فقال : أضياف الله فلن يعجزهم مالديه . وقيل : تبدّل الأرض لقوم بأرض الجنّة ، ولقوم بأرض النار وقال الحسن : يحشرون على الأرض الساهرة وهي أرض غير هذه وهي أرض الآخرة وفيها تكون جهنّم . وتقدير الكلام : وتبدّل السماوات غير السماوات ، إلّا أنّه حذف لدلالة الكلام .

[وبرزوا لله] أي يظهرون من أرض قبورهم للمحاسبة لا يسترهم شيء لله الغالب الّذي لا يقهره شيء ، ولمّا وصف ذاته سبحانه بالقدرة والقهر بيّن عجزهم وذلّتهم أي المجرمين يومئذ بصفات :

الاولى كونهم [مقرّنين] في القبور يقال : قرنت الشيء بالشيء إذا شددته و وصلته و«القرآن» اسم للحبل الّذي يشدّ به الشيئان أي كلّ كافر مع شيطان . و قيل : قرنت أيديهم بها إلى أعناقهم أو يقرن بعضهم إلى بعض ، و هو المراد بقوله : « و إذا النفوس زوّجت» (١) .

و **الثانية** [سرابيلهم من قطران] أي قميصهم من قطران وهو ما يطلى به الإبل شيء أسود لزج منتن يطلّون به كالقميص عليهم ، ثمّ يرسل النار فيهم ليكون أسرع عليهم و أبلغ في الاشتعال وأشدّ في العذاب.وقيل : نحاس أو صفر مذاب قد انتهى حرّه . وجوّزوا على المعنيين أن يسربلوا سربالين أحدهما من القطران ، و الآخر من القطران الآني . و « القطران » بمعنى الأوّل شيء يتحلّب من شجر اسمه الأبهل ، فيطبخ ويطلى به الابل الجربي فيحرق الجرب بحرارته وحدّته وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف ، ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار وهذا أسود اللون منتن الرائحة فتطلى به جلود أهل النار حتّى تصير ذلك الطلى كالسرابيل فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب : لذع القطران وحرقته وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح ، والتفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين ، وإذا كان القطران معناه الصفر المذاب والآني المتناهي حرّه وتلك النار لاتبطل ذلك القطران ولا تفنيه كما لا تهلك النار أجسادهم و الأغلال الّتي كانت عليهم .

---

(١) التكوير : ٧ .

و **الثالثة** [وتغشى وجوههم النار] وإنّما خصّ الذكر لأنّ في هذا العضو تبيّن الأثر أكثر من سائر الأعضاء كما أنّ القلب كذلك . ومعنى «تغشى» أي تتغشّى قوله : [ليجزي الله كلّ ما كسبت] المراد أنفس الكفّار لأنّ ماسبق لا يليق أن يكون جزاء لأهل الإيمان ، ويمكن إجراء اللفظ على عمومه لأنّ الجزاء لائق بالعمل والكسب .

ثمّ قال : [إنّ الله سريع الحساب] ولا يزيد على عقابهم الّذي يستحقّونه . قوله : [هذا بلاغ] إشارة إلى القرآن أي هذا القرآن عظة [للناس] بالغة كافية أو إشارة إلى الوعيد المذكور [ولينذروا] وليبلّغوا غيرهم بما فيه .

[وليعلموا أنّما هو إله واحد] لاشريك له [وليذكّر اُولو الألباب] و أهل النهى والعقل ، وفي هذه الآية دلالة على أنّ القرآن كاف في جميع ما يحتاج إليه الناس في أمر الدين جملها و تفاصيلها يعلم بالقرآن إمّا بنفسه و إمّا بواسطة ؛ فيجب على المؤمن المجتهد لاُمور الدين أن يشمّر عن ساق الجدّ في طلب فهم القرآن ويصرف عنايته بمعرفته مكتفياً به عمّا سواه ، لينال السعادة .

وفي قوله : «وليعلموا أنّما هو إله واحد» دلالة على أنّه أراد عن الناس علم التوحيد خلافاً لأهل الجبر في قولهم : إنّه سبحانه أراد من النصارى التثليث ومن المجوس التشبيه والاثنينيّة ، تعالى الله عن ذلك .

تمّت السورة بحمدالله .

سورة الحجر

مكّيّة إلّا آيتين.

فضلها أُبيّ بن كعب عن النبيّ قال: من قرأها اُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمّد صلى الله عليه وآله.

ولمّا ختم الله السورة أي سورة إبراهيم بأنّ القرآن بلاغ وكفاية لأهل الإسلام افتتح هذه السورة بذكر القرآن وأنّه مبيّن للأحكام فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١) ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٢) ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الامل فسوف يعلمون (٣) وما اهلكنا من قرية الا و لها كتاب معلوم (٤) ما تسبق من امة اجلها و ما يستأخرون (٥)

المعنى : قد تقدّم الكلام في [الر] كراراً . قوله : [تلك] أي هذه السورة تلك الآيات [الكتاب] الموعود به محمد صلى الله عليه وآله [وقرآن] عطف على الكتاب وإن كان هو الكتاب باعتبار اختلاف اللفظين ووصفه بالقرآن لأنّه ممّا يؤلّف و يجمع بعض حروفه إلى بعض .

و«ربّ» لايدخل على الفعل إلّا إذا فصلت كلمة «ما» بينها وبين الفعل ، و يقال : لم جاز «ربما يودّ الّذين كفروا » و الكفّار كثيرون وهي للتقليل ؟

وجوابه على وجهين : أحدهما أنّه أبلغ في التهديد كما يقول : ربّما ندمت على هذا ، وأنت تعلم أنّه يندم ندماً طويلاً أي يكفيك قليل الندم ، فكيف كثيره ؟ والثاني أنّه يشغلهم العذاب عن تمنّي ذلك إلّا في أوقات قليلة لأنّهم يتمنّون الإسلام إذا صار المسلمون إلى الجنّة والكفّار إلى النار .

وروي عن ابن عبّاس قال : ما يزال الله يدخل الجنّة ويرحم ويشفع حتّى يقول : من كان من المسلمين فليدخل الجنّة فحينئذ [يودّ الّذين كفروا لو كانوا مسلمين] و قال الصادق عليه السلام : ينادي مناد يوم القيامة يسمع الخلائق : إنّه لايدخل الجنّة إلّا مسلم فثم يودّ سائر الخلق أنّهم كانوا مسلمين . وروي مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : اجتمع أهل النار في النار و معهم من يشاء الله من أهل القبلة ، قال الكفّار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم و قد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله ماقالوا فأمر من كان في النار من أهل الإسلام فأُخرجوا

منها ، فحينئذ يقول الكفّار : ياليتنا كنّا مسلمين !

قوله تعالى : [ذرهم يأكلوا ويتمتّعوا] أي دعهم يأكلوا في دنياهم أكل الأنعام و يستلذّوا حالاً بعد حال و يشغلهم آمالهم الكاذبة عن اتّباع الدين و القرآن [فسوف يعلمون] وبال ذلك حين يحلّ بهم العذاب يوم القيامة، وفي هذه الآية دلالة على أنّ الإنسان يجب أن يكون مستعدّاً للموت مسارعاً إلى التوبة ولا يأمل الآمال المؤدّية إلى الصدّ عنها ؛ قال أمير المؤمنين : «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى وطول الأمل ؛ فإنّ اتّباع الهوى يصدّ عن الحقّ وطول الأمل ينسي الآخرة» .

قوله : [ماتسبق من أُمّة] أي لم تكن اُمّة فيما مضى تسبق أجلها قبل ذلك ولا تتأخّر عن أجلها الّذي قدّر لها ، بل إذا استوفت أجلها أهلكها الله .

قوله تعالى : وقالوا يا ايها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون (٦) لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين (٧) ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين (٨) انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (٩) ولقد ارسلنا من قبلك في شيع الاولين (١٠) و ما يأتيهم من رسول الاكانوا به يستهزءون (١١) كذلك نسلكه في قلوب المجرمين (١٢) لايؤمنون به وقدخلت سنة الاولين (١٣) ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون (١٤) لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون (١٥) و لقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين (١٦) وحفظناها من كل شيطان رجيم (١٧) الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين (١٨) .

المعنى : وقال المشركون للنبيّ : [يا أيّها الّذي] بزعمه أنّه [نزّل عليه] القرآن [إنّك لمجنون] وفيه احتمالان : الأوّل أنّه صلى الله عليه وآله كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فزعموا أنّها جنون. أو أنّهم[1] كانوا يستبعدون منه كلاماً يسمعون منه كترك العبادة للآلهة وأمثاله فنسبوه إلى الجنون لبعدما يذكره من طريقتهم .

قوله : [لوما تأتينا] ولوما وهلاّ ولولا للتحريض بمعنى واحد أي هلاّ تأتينا الملائكة

---

(١) هذا ثاني الوجهين .

يشهدون بصدق نبوّتك [إن كنت] صادقاً في دعواك ، ويحتمل أن يكون المعنى أنّ النبيّ ﷺ كان يخوّفهم بالعذاب النازل ؛ فكانوا يقولون ويطالبوه بالعذاب : لو ما تأتينا بالملائكة ينزلون علينا بذلك العذاب الّذي تخوّفنا به .

فأجاب سبحانه [وما تنزّل الملائكة إلّا بالحقّ] الّذي هو الموت لايقع فيه تقديم و تأخير أو هو عذاب الاستئصال ، و نحن ما حكمنا عليهم بعد بعذاب الاستئصال للإمهال بهم و علمنا من إيمان بعضهم ومن إيمان أولاد الباقين [و] إذا أنزلنا الملائكة [ما كانوا] ممهلين ومؤخّرين أي لايمهلون ساعة .

ثمّ زاد سبحانه في البيان [إنّانحن نزّلناالذكر] أي القرآن [وإنّا له لحافظون] عن الزيادة والنقصان والتحريف ومثله «لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه[1]» عليه متكفّل يحفظه إلى آخر الدهر عصراً بعد عصر لقيام الحجّة به . ويحتمل أن يكون الهاء راجعة إلى النبيّ ﷺ لدلالة حافظون للنبيّ عن كيد المشركين . وفي هذا دلالة على حدوث القرآن إذ المحفوظ المنزل لايكون إلّا حادثاً .

[ولقد أرسلنا من قبلك] يا محمد رسلاً - فحذف المفعول لدلالة الكلام عليه - في فرق الأوّلين والأمم السابقين عليك [وما] كان [يأتيهم من رسول إلّا] كانت الأمم [به يستهزئون] وهنا تسلية للنبيّ . واستهزاؤهم استنكارهم لهم .

قوله : [كذلك نسلكه] وفي إرجاع الضمير قولان :

الاول يرجع إلى الشرك و الاستهزاء والكفر وهوقول علماء الجبريّة ، وهذا كلام بديهيّ البطلان ؛ لأنّه تعالى لو كان هو الّذي يسلك الكفر و الشرك في قلب الكافر و يخلقه فيه فما أحد أولى بالعذر من هؤلاء الكفّار ، و لكان على هذا التقدير يمتنع أن يذمّهم في الدنيا وأن يعاقبهم في الآخرة عليه ولكان الكفّار محمودين إذا كانوا لا يؤمنون، ولاخلاف في أنّ الآية وردت على سبيل الذمّ لهم ولوكان الله قدسلك الكفر في قلوبهم لسقط عنهم الذمّ ولما جاز أن يقول لهم : « كيف تكفرون و أنتم تتلى عليكم آيات الله لقدجئتم شيئاً إدًّا * تكاد السماوات يتفطّرن منه[1]» ، وكيف ينكرعليهم هذا الإنكار وهو الواضع

---

(١) مريم : ٩٠ ،

في قلوبهم ذلك الكفر ؟ و كيف يأمرهم بإخراجه من حيث وضعه فيه ؟ تعالى عن ذلك .

والقول الثاني ـ وهو الصحيح ـ أنّ الضمير في «نسلكه» عائد إلى الذكر وهو القرآن أي هكذا نسلك القرآن أي نسمعهم ونخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن كما سلكنا دعوة الرسل في قلوب من سلف من الأُمم .

وبعبارة أوضح كما سلكنا كتب رسل ممّن تقدّم دعوتهم في قلوب اُممهم كذلك سلكنا القرآن والذكر في قلوب قومك يا محمّد ومع ذلك [لايؤمنون به] وماضين على سنّة الجهل في تكذيبهم أنبياءهم وقد مضت [سنّة الأوّلين] على هذه الطريقة .

قوله : [ولو فتحنا] على هؤلاء المشركين، اعلم أنّ هذا الكلام هو المذكور في سورة الأنعام « ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الّذين كفروا إن هذا إلّا سحر مبين»(١) وهذه الآية في قوله : «ولو فتحنا» وقعت عن قوم مخصوصين سألوا الرسول إنزال الملائكة فبيّن الله في هذه الآية أنّه إنّا لو فتحنا عليهم [باباً من السماء] ينظرون إليه [فظلّوا فيه يعرجون] يعني لو يرون الكفّار أنّ الملائكة تصعد و تنزل من ذلك الباب ، أو المعنى أنّ هؤلاء المشركين يعرجون إلى السماء من ذلك الباب وشاهدوا ملكوت السماء [لقالوا إنّما سكّرت] وسدّت وغطّيت وعميت [أبصارنا بل نحن قوم] سحرنا محمّد فيخيّل الأشياء إلينا على خلاف حقيقتها .

ثمّ ذكر سبحانه دلالات التوحيد فقال : [ولقد] هيّأنا و[جعلنا في السماء بروجاً] أي منازل الشمس والقمر [وزيّنّاها للناظرين] بالكواكب النيّرة ، وهي اثنا عشر برجاً [وحفظنا] السماء [من كلّ شيطان] مرجوم مرميّ بالشهب أوملعون مشؤوم ، وحفظ الشيء عبارة عن نفي تطرّق الفساد فيه، وحفظ السماء من الشيطان المنع من ورود الشياطين إليها لاستراق السمع ، والمراد بالسمع المسموع [إلّا من استرق السمع] أي حاول أخذ المسموع من السماء في خفية فلحقه شعلة نار ظاهرة لأهل الأرض بيّن لمن رآه .

وروى ابن عبّاس أنّه كان في الجاهليّة كهنة ومع كلّ واحد شيطان ، فكان يقعد من السماء مقاعد للسمع فيستمع من الملائكة ماهو كائن في الأرض فينزل ويخبر به الكاهن

(١) الانعام : ٧ .

فيفشيه الكاهن إلى الناس ، فلمّا بعث الله عيسى منعوا من ثلث من السماوات ولمّا بعث محمّداً منعوا من الكلّ وحرست السماوات بالنجوم ، فالشهاب من معجزات نبيّنا لأنّه لم ير قبل زمانه والمارد من الشياطين يعلو فرمى بالشهاب فيحرقه ولا يقتله ، و منهم من يخبله فيصير غولاً يضلّ الناس في البراري .

قوله : والارض مددناها والقينا فيهارواسيوانبتنا فيها من كلشيء موزون (١٩) وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (٢٠) و ان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الابقدر معلوم (٢١) وارسلناالرياح لواقح فانزلنا من السماءماء فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين (٢٢) واناالنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون (٢٣) و لقد علمنا المستقدمين منكم و لقد علمنا المستأخرين (٢٤) وان ربك هويحشرهم انه حكيم عليم (٢٥) .

لمّا تقدّم ذكر السماء وما فيها من الأدلّة والنعم أتبعه بذكر الأرض فقال:[والأرض مددناها] أي بسطناها وجعلناها طولاً وعرضاً[وألقينا] وطرحنا [فيها] جبالاً ثابتة[وأنبتنا]في الأرض[من كلّ شيء موزون] مقدّر معلوم ، وقيل : يعني من كلّ شيء يوزن في العادة كالذهب والفضّة والصفر ونحوها ، أوما يخرج من الأرض وإنّما خصّ الموزون بالذكر دون المكيل لأنّ غاية المكيل تنتهي إلى الوزن .

[وجعلنا لكم في الأرض معايش] من زرع ونبات ومطاعم ومشارب تعيشون ، وقيل : هي التصرّف في أسباب الرزق . قال ابن عبّاس : لمّا بسط الله الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله بالجبال الثقال لكي لاتميل والضمير في قوله : «وأنبتنا فيها» الضمير إلى الأرض ، وقيل : إلى الجبال الرواسي لأنّ المعادن إنّما تتولّد من الجبال .

واعلم أنّ هذا العالم عالم الأسباب والله تعالى إنّما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم فلا بدّ وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص و من الماء والهواء كذلك ومن تأثير الشمس والكواكب في الحرّ والبرد مقدار مخصوص ، ولو قدّرنا حصول الزيادة على القدر المخصوص أوالنقصان لم تتولّد المعادن والنبات والحيوان فكأنّه تعالى وزنها بميزان الحكمة .

قوله : [ومن لستم له برازقين] أي وجعل لكم من لستم له برازقين من العبيد والدواب يرزقهم الله ولا ترزقونهم . وليس [من شيء] ينزل من السماء وينبت في الأرض [إلا عندنا خزائنه] ونحن مالكوه وقادرون عليه ، وخزائن الله مقدوراته . وقيل : المراد به الماء الذي منه النبات وهو مادة كل شيء [وأرسلنا الرياح] ملقحة للسحاب محملة بالمطر [فأنزلنا من السماء ماء] أي مطراً فأسقيناكم ذلك الماء [وما أنتم] أيها الناس لذلك الماء [بخازنين] و حافظين بل الله يحفظه ثم يرسله من السماء ثم يحفظه في الأرض ثم يخرجه من العيون بقدر الحاجة. قوله : «وما أنتم له بخازنين» المطر وقادرين على تحفظه بأن تنزلوه على وفق الحاجة موقع الاحتياج لأنه هو السبب الأتم لمعايش الخلق والأرزاق لبني آدم وغيرهم .

قوله : [وإنا لنحن نحيي ونميت] هذه الآية من دلائل التوحيد أنه لا يقدر أحد على الإحياء والإماتة و أنه إذا مات جميع الخلائق يزول ملك كل أحد أي تزول هذه الملكية العارية عن جميع الخلق ويكون الله باق المالك للكل وحده فكان هذا الأمر شبيهاً بالإرث فكان وارثاً من هذا الوجه .

وأما قوله : [ولقد علمنا المستقدمين] يريد أهل الطاعة [والمستأخرين] يريد المتخلفين عن طاعة الله ، وقيل : أراد بالمتقدمين الصف الأول من أهل الصلاة و بالمستأخرين الصف الآخر.روي أنه ﷺ رغب في الصف الأول في الصلاة فازدحم الناس عليه فأنزل الله هذه الآية . والمعنى أنا نجزيهم على قدر نياتهم . وقيل : المراد في صف القتال.وقيل : ـ والقائل ابن عباس ـ قال في رواية أبي الجوزاء :كانت امرأة حسناء تصلي خلف رسول الله ﷺ وكان قوم يتقدمون إلى الصف الأول لئلا يروها و آخرون يتخلفون و يتأخرون ليروها و إذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت آباطهم فأنزل الله هذه الآية . وقيل : المراد بالمستقدمين الأموات و بالمستأخرين الأحياء . وقيل : المراد بالمستقدمين الأمم السالفة و بالمستأخرين أمة محمد.وقيل : المستقدمين من خلق والمستأخرون من لم يخلق،يعني لا يخفى على الله خافية منهم في الحدوث والوجود والطاعة والمعصية [وإن ربك] عالم بأحوالهم و[هو يحشرهم] فيثيبهم ويعاقبهم ، و[حكيم] في أفعاله [عليم] باستحقاقهم .

قوله تعالى : و لقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون (٢٦)

و الجان خلقناه من قبل من نار السموم (٢٧) و اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون (٢٨) فاذا سويته و نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (٢٩) فسجد الملائكة كلهم اجمعون (٣٠) الا ابليس ابى ان يكون مع الساجدين (٣١) قال يا ابليس مالك الاتكون مع الساجدين (٣٢) قال لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون (٣٣) قال فاخرج منها فانك رجيم (٣٤) وان عليك اللعنة الى يوم الدين (٣٥) .

لمّا ذكر سبحانه عالم الحياة والموت والبعث في الآية السابقة عقّبه ببيان النشأة الأولى فقال :

[ولقد خلقنا الإنسان] يعني آدم من طين يابس متصلصل أي له صوت يسمع عند النقر ويقعقع . وقيل : طين صلب يخالطه الكثيب . وقيل : منتن [من حمأ] متغيّر إلى السواد [مسنون] أي مصبوب كأنّه أُفرغ كما يصبّ الذهب و الفضّة .

واعلم أنّه ثبت بالدلائل والبراهين أنّه يمتنع القول بوجود حوادث لا أوّل لها و إذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث إلى حادث أوّل هو أوّل الحوادث ، و إذا كان كذلك فلابدّ انتهاء الناس إلى إنسان هو أوّل الإنسان ، فذلك الإنسان الأوّل غير مخلوق من الأبوين فيكون مخلوقاً لامحالة بقدرة الله .

فقوله : «خلق الإنسان» إشارة إلى ذلك الإنسان الأوّل ، والمفسّرون أجمعوا على أنّ المراد منه هو آدم عليه السلام ونقل حديث عن محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام أنّه قال : قبل آدم الّذي هو أبونا قد انقضى ألف ألف آدم أو أكثر . وهذا لايقدح في حدوث العالم بل الأمر كيف كان فلا بدّ من الانتهاء إلى إنسان أوّل هو أوّل الناس . واعلم أنّ الجسم محدث فوجب القطع بأنّ آدم وغيره من الأجسام يكون مخلوقاً عن عدم محض ، فحينئذ بيّن أنّه خلقه أوّلاً من تراب ثمّ من طين ثمّ من حمأ مسنون ثمّ من صلصال يتصلصل و هو غير مطبوخ وإذا طبخ فهو فخار .

قال المفسّرون خلق الله آدم من طين فصوّره وتركه في الشمس أربعين سنة ، فصار صلصالاً يتقرقع كالخزف مصوّر بهذه الصورة الحسنة إلى أن نفخ فيه الروح فكانت الريح

إذا مرّت به سمع له صلصلة .

وقوله : «حمأمسنون» وهو الطين الأسود المنتن، والمسنون المتغيّر من قوله: «لم يتسنّه»[(١)]، أي لم يتغيّر ولا تناقض ؛ لأنّ هذه الأمور مراتب من الترابيّة إلى الطينيّة إلى التصلصل إلى الحمئيّة إلى نفخ الروح .

قوله : [والجانّ خلقناه من قبل] أي من قبل خلق آدم [من نار] لها ريح حارّة تقتل . قيل : هي نار لا دخان لها ، والصواعق تكون منها . والجانّ ، قيل : إنّه إبليس وقيل : هو أب الجنّ . وسمّي جانّاً لتواريه عن أعين الناس كما يسمّى الجنين جنيناً لهذا السبب . فالجانّ يمكن أن يكون بمعنى الفاعل لأنّه تستر نفسه عن الأعين ، و يمكن أن يكون بمعنى المفعول كماء دافق وعيشة راضية .

واختلفوا في الجنّ فقيل: إنّهم جنس غير الشيطان. والأصحّ أنّ الشياطين قسم من الجنّ فكلّ من كان منهم مؤمناً يسمّى الجنّ و كلّ من كان كافراً يسمّى الشياطين وليس فيهم نتاج إنّما يبيض ويفرخ وولده ذكور وليس فيهم إناث .

والقمّي قال : الجنّ من ولد الجانّ منهم مؤمنون وكافرون يهود ونصارى ، ويختلف أديانهم ، والشياطين من ولد إبليس ، وليس فيهم مؤمن إلّا واحد اسمه هام بن هيم بن لاقيس ابن إبليس ، جاء إلى رسول الله فرآه جسيماً عظيماً وأمراً مهولاً ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا هام بن هيم كنت يوم قتل قابيل هابيل غلاماً أبا أعوام ، أنهى عن الاعتصام وآمر بإفساد الطعام . فقال رسول الله : بئس لعمري الشباب المؤمّل والكهل المؤمّر فقال : دع عنك هذا يا محمّد فقد جرت توبتي على يد نوح ، ولقد كنت معه في السفينة ، فعاتبته على دعائه على قومه ، ولقد كنت مع إبراهيم حيث أُلقي في النار فجعلها الله برداً وسلاماً ، و لقد كنت مع موسى حين غرق الله فرعون و نجّى بني إسرائيل ، ولقد كنت مع هود حين دعا على قومه فعاتبته ، ولقد كنت مع صالح فعاتبته على دعائه على قومه ، ولقد قرأت الكتب فكلّها يبشّرني بك والأنبياء يقرؤنك السلام ، ويقولون : أنت أفضل الأنبياء و أكرمهم. فعلّمني ممّا أنزل الله إليك شيئاً فقال رسول الله لأمير المؤمنين علي عليه السلام: علّمه. فقال هام : إنّا

(١) البقرة : ٢٥٩ .

لانطيع إلّا الأنبياء أو وصيّ نبي فمن هذا ؟ قال : هذا أخي ووصيّي ووزيري ووارثي عليّ ابن أبي طالب . قال هام : نعم نجد اسمه في الكتب إليا . فعلّمه أمير المؤمنين فلمّا كانت ليلة الهرير جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

قوله تعالى : [و إذ قال ربّك للملائكة]واذكريا محمد إذ قال ربّك : [إنّي] سأخلق [بشراً] أي آدم ، وسمّي بشراً لأنّه ظاهر الجلد غير متوار بشعر وصوف ونحوه [من صلصال من حمأ مسنون] قال سيبويه : المسنون هو المصوّر بصورة، مرّ معناه [فإذا سوّيته] بإتمام الخلقة وتعديل صورته وأجريت فيه الروح فخرّوا [له ساجدين] وأضاف الروح إلى نفسه تكرمة له كنسبة البيت إليه للتعظيم كإضافة الملك إليه .

[فسجد الملائكة كلّهم أجمعون] تأكيد بعد تأكيد. وقيل : إنّ « أجمعون » تأكيد للسجود بأنّ السجود وقع في حالة واحدة دفعة و كلمة « كلّهم » تأكيد للساجدين [إلّا إبليس]امتنع أن يسجد معهم [قال يا إبليس] وهذا خطاب من الله أي أيّ شيء وقع لك في امتناعك عن السجود كما سجدوا ؟ والخطاب وقع على لسان بعض رسله لأنّه لا يصحّ أن يكلّمه الله بلا واسطة في زمان التكليف [قال]إبليس مجيباً [لم أكن لأسجد]ولاينبغي أن [أسجد لبشر خلقته من صلصال] لأنّي أشرف أصلاً منه . ولم يعلم الخبيث أنّ التفاضل بالدين والامتثال لا بالبنية والأصل .

[قال] الله [فاخرج منها] من الجنّة [فإنّك]مطرود وملعون، وقوله تعالى: « فاخرج منها» قيل : المراد أي من جنّة عدن .وقيل : من السماوات. قيل : من زمرة الملائكة . وقوله: [وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين] مشعر بأنّ اللعن ثابت له إلى يوم القيامة أي انتهاء الغاية يوم القيامة وعند القيامة يزول اللعن ، وأجابوا بأنّ ذكر الغاية للتأبيد وذكر القيامة لأنّها أبعد غاية يذكرها الناس في كلامهم كقولهم « مادامت السماوات والأرض » أو المراد أنّك مذموم ملعون إلى ذلك اليوم من غير عذاب فإذا جاء ذلك اليوم يفنى اللعن ويأتي العذاب وبسبب شدّة العذاب يذهل اللعن .

قوله تعالى : قال رب فانظرني الى يوم يبعثون (٣٦) قال فانك من المنظرين (٣٧) الى يوم الوقت المعلوم (٣٨) قال رب بما اغويتني لازينن

لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين (٣٩) الاعبادك منهم المخلصين (٤٠) قال هذا صراط عليّ مستقيم (٤١) ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الامن اتبعك من الغاوين (٤٢) لان جهنم لموعدهم اجمعين (٤٣) لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم (٤٤) .

المعنى : ثم بيّن سبحانه ماسأله إبليس عند إياسه من الآخرة فقال : ربّي فأمهلني وأخّرني [إلى يوم] يحشرون للجزاء ، استنظره لئلا يموت إلى يوم القيامة فلم يجبه الله إلى ذلك بل [قـ ل]ـه [فإنّك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم] وغرض إبليس أن لا يموت أبداً لأنّه إذا أنظره سبحانه إلى يوم القيامة فحينئذ لا يموت أبداً لأنّ يوم القيامة لا يموت أحد ولذا لم يجبه الله إلى مسؤوله .

وإنّما أنظره إلى الوقت المعلوم عنده سبحانه ولا يعلم ذلك العلم غيره وهو وقت النفخة الأُولى حين يموت جميع الخلائق وقيل : الوقت المعلوم يوم القيامة أنظره الله في رفع العذاب عنه إلى يوم القيامة .وقيل : هو الوقت الّذي قدّره الله أجله فيه .

قوله تعالى : [ربّ بما أغويتني لأُزيّنن لهم] قيل فيه أقوال :

أحدها أنّ الإغواء الأوّل والثاني بمعنى الإضلال أي كما أضللتني لأُضلّنّهم . وهذا لايجوز لأنّ الله سبحانه لايضلّ عن الدين لأنّ هذه الصفة لو كان في إنسان لكان قبيحاً عنه فكيف بالله الغنيّ؟ إلّا أن يحمل على أنّ إبليس كان معتقده معتقد من فسّر هذه الآية بهذا المعنى و هو الجبر .

و ثانيها بمعنى التخييب أي بما خيّبتني من رحمتك لأُخيّبنّهم بالدعوة إلى معصيتك كما قال الجبّائي .

و ثالثها أنّ معناه بما أضللتني عن طريق جنّتك لأُضلّنّهم بالدعاء إلى معصيتك .

و رابعها بما كلّفتني السجود لآدم الّذي غويت عنده فسمّي ذلك غواية كما قال : «فزادتهم رجساً إلى رجسهم [١] ، وجزاء سيّئة سيّئة [٢] » والباء في قوله «بما أغويتني» للقسم وقيل : بمعنى السبب أي بكوني غاوياً لأُزيّننّ كما يقال : بطاعته لتدخل الجنّة وبمعصيته

(١) التوبة : ١٢٦ . (٢) الشورى : ٤٠ .

لتدخل النار ، ومفعول التزيين محذوف أي لأزيّننّ الباطل لهم .

واعلم أنّ إمهال الله إبليس هذه المدّة ما أجبر الخلق على الكفر والمعاصي ومانفى الاختيار عن المكلّف ، وإنّما للمكلّف الاختيار فإطاعته لإبليس من سوء اختيار المكلّف و حكم إمهال إبليس كحكم خلق السمّ وإنّما خلق السمّ لمصلحة اُخرى فأنت إذا شربته وهلكت فهل على خالق السمّ بأس فالشيطان كذلك.وإنّما أمهله جزاء على عبادته ومنعك أيّها المكلّف عن إطاعته و أكدّ البيان لك بأنّه عدوّ مبين فهلاّ أطعت مولاك و خالفت عدوّك فتسعد ؟

ثمّ إنّ الشيطان يعترف بأنّه ما كان له عليكم من سلطان وقدرة قاهرة . و إنّما يأتيكم بالوسوسة ، والكافر والعاصي بسبب ميله إلى ذلك الأمر يقبل تلك الوسوسة نهاية الأمر أنّ عدم الوسوسة أسهل حالاً من الوسوسة ، و التكليف لابدّ فيه من صعوبة ولا يمنع الحكيم من فعله .

قوله : [إلّا عبادك منهم المخلصين] وهم الّذين أخلصوا عبادتهم لله وامتنعوا عن إطاعة الشيطان وانتهوا عمّا نهاهم الله عنه ، ومن قرأ بصيغة المفعول فهم الّذين أخلصهم الله ووفّقهم لذلك ليس للشيطان عليهم سبيل .

قوله : [قال هذا صراط عليّ مستقيم] قيل : في تفسيره وجوهاً : الأوّل أنّ إبليس لمّا قال : «إلّا عبادك منهم المخلصين» فقوله «هذا» إشارة إلى الإخلاص ، والمعنى أنّ الإخلاص طريق عليّ وإليّ ويؤدّي إلى كرامتي وهو طريق مستقيم : وقيل : «عليّ» بمعنى «إليّ» . وقيل : معناه هذا الإخلاص صراط من مرّ عليه فكأنّه مرّ عليّ وعلى رضواني وهو كقولك : طريقك عليّ . وقيل : «عليٌّ» بالتنوين بمعنى الصفة يعني صراط عال رفيع مستقيم لاعوج فيه . وقيل : معناه أنّ هذا صراط حقّ عليّ أن اُراعيه مستقيم و هو أن لا يكون لك سلطان على المخلصين. وقيل : «صراط عليّ» بالإضافة ، عن السجّاد ، أي صراط عليّ أمير المؤمنين مستقيم ، قاله العيّاشيّ و جماعة .

قوله : [إلّا من اتّبعك] لأنّ من قبل منه صار له عليه سلطاناً يعدله عن الهدى فاستثنى من الّذين ليس له عليهم سلطة فصار متّصلاً . وقيل : إنّ الاستثناء منقطع والمراد :

لكن من اتّبعك من الغاوين جعل لك على نفسه سلطاناً .

[وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين] أي موعد الإبليس ومن تبعه [لها سبعة أبواب] فيه قولان : أحدهما ما روي عن أمير المؤمنين أنّ جهنّم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض ، ووضع إحدى يديه الشريفة على الأخرى فقال : هكذا ، وإنّ الله وضع الجنان على العرش، ووضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها «جهنّم» وفوقها «لظى» و فوقها «الحطمة» وفوقها «السقر» وفوقها «الجحيم» وفوقها «السعير» و فوقها «الهاوية» . و في رواية الكلبيّ أسفلها «الهاوية» وأعلاها «جهنّم» .

و قيل : سبعة أدراك بعضها فوق بعض فأعلاها لأهل التوحيد يعذّبون على قدر أعمالهم وأعمارهم في الدنيا ، ثمّ يخرجون . والثاني فيه اليهود ، والثالث فيه النصارى ، والرابع فيه الصابئون ، والخامس فيه المجوس ، والسادس فيه مشركو العرب ، والسابع فيه المنافقون و ذلك قوله : «إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار» (١) . [لكلّ باب منهم] أي من الغاوين [جزء مقسوم] ونصيب مفروض وذلك أنّ مراتب الكفر مختلفة بالشدّة والخفّة .

قوله تعالى : ان المتقين فى جنات وعيون (٤٥) ادخلوها بسلام آمنين (٤٦) ونزعنا مافى صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين (٤٧) لايمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين (٤٨) نبىء عبادى أنى انا الغفور الرحيم (٤٩) وان عذابى هو العذاب الاليم (٥٠) .

لمّا ذكر سبحانه عبادة المخلصين عقّبه بذكر حالهم في الآخرة فقال : [إنّ المتّقين] الّذين يتّقون عقاب الله باجتناب معاصيه في بساتين خلقت لهم [وعيون] من ماء وخمر وعسل تفور من الفوّارة ثمّ تجري في مجاريها يقال لهم : [ادخلوا] الجنّات بسلامة من الآفات و المكاره [آمنين] من الإخراج منها ساكني النفس ، وأزلنا عن صدور أهل الجنّة ما فيها من أسباب الحسد والعداوة و التنافس حال كونهم [إخواناً] متوادّين ، فيصفو لذلك عيشهم كائنين [على سرر] متواجهين ينظر بعضهم إلى وجه بعض حتّى قيل : إنّ أهل الجنّة لايرى الرجل قفا زوجته ، ولاترى زوجته قفاه لأنّ الأسرّة تدور بهم كيف ما شاؤوا حتّى يكونوا

(١) النساء : ١٤٤ .

متقابلين في عموم أحوالهم [لا يمسّهم] في الجنّة عناء وتعب ويبقون فيها مؤبّدين .

[نبّىء عبادي] ثمّ أمر سبحانه نبيّه أن يخبر عباده بكثرة رحمته لأوليائه و شدّة عذابه لأعدائه . قال الرازيّ : واعلم أنّه قد ثبت في أصول الفقه أنّ ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علّة لذلك الحكم ففي الآية وصفهم بكونهم عباداً له ثمّ ذكر بعد هذا الوصف بكونه غفوراً رحيماً، ومن خالف عبادته وأنكر كان مستوجباً للعقاب الأليم .

قوله تعالى : ونبئهم عن ضيف ابراهيم (٥١) اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون (٥٢) قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم (٥٣) قال ابشرتموني على ان مسني الكبر فبم تبشرون (٥٤) قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين (٥٥) قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون (٥٦) قال فما خطبكم ايها المرسلون (٥٧) قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين (٥٨) الا آل لوط انا لمنجوهم اجمعين (٥٩) الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين (٦٠) .

لمّا ذكر سبحانه الوعد للمتّقين والوعيد للعاصين وشرح أحوال السعداء والأشقياء أتبعه بذكر قصص الأنبياء ليكون سماعها مرغّباً في الطاعة ومحذّراً عن المعصية فبدأ بقصّة إبراهيم عليه السلام، والضمير في قوله : «ونبّئهم» عائد إلى قوله : «عبادي» والضيف الوارد إلى غيره لطلب القرى، هو في الأصل مصدر يقع على الواحد والاثنين والجمع وصف به ، وقد تجمع على الضيفان والضيوف والأضياف .

قوله : [إذ دخلوا عليه] يعني الملائكة لأنّهم وردوا بصورة الضيف [فقالوا سلاماً] أي سلّموا عليه سلاماً على وجه التحيّة وبشّروه بالولد وبإهلاك قوم لوط [قال] إبراهيم [إنّا منكم] خائفون وإنّما خاف منهم لأنّهم وردوا بغير إذنه ولم يأكلوا [قالوا] لا تخف [إنّا نبشّرك] ونخبرك بما يسرّك بولد يكون غلاماً ويكون عليماً إذا بلغ .

[قال] إبراهيم : [أبشّرتموني] بالمولود في حال الكبر الّذي يوجب اليأس [فبم تبشّرون] أبأمر الله فأثق به أم من جهة أنفسكم ؟ ومعنى «مسّني الكبر» أي غيّرني الكبر

[قالوا بشرناك]على وجه الحقيقة بأمر الله فلا [تكن من] الآيسين فأجابهم إبراهيم : [ومن يقنط] أي ومن الّذي ييئس [من رحمة] الله [إلّا الضالّون] عن الحقّ الجاهلون بقدرته . و قولهم لإبراهيم : «فلا تكن من القانطين» لايدلّ على أنّ إبراهيم كان قانطاً ونهي الإنسان عن الشيء لايدلّ على كون المنهيّ فاعلاً للمنهيّ عنه كما في قوله : «و لا تطع الكافرين والمنافقين» (١).

ثمّ قال بعد ذلك للملائكة : [فما خطبكم أيّها المرسلون] أي ماشأنكم ؟ وسمّاهم مرسلين لأنّه ﷺ علم أنّهم ملائكة [قالوا إنّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين] و أخبروه بهلاكهم [إلّا آل لوط] وهم خاصّته وإنّما استثناهم وما كانوا مجرمين من حيث إنّهم كانوا من قوم لوط [إنّا لمنجّوهم أجمعين * إلّا امرأته] لأنّها كانت كافرة [قدّرنا إنّها] وقضينا وحكمنا بحكم الله أنّها من الباقين في المدينة مع المهلكين .

قوله تعالى : فلما جاء آل لوط المرسلون (٦١) قال انكم قوم منكرون (٦٢) قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون (٦٣) و آتيناك بالحق و انا لصادقون (٦٤) فاسر باهلك بقطع من الليل واتبع ادبارهم ولا يلتفت منكم احد وامضوا حيث تؤمرون (٦٥) و قضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين (٦٦) وجاء اهل المدينة يستبشرون (٦٧) قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون (٦٨) واتقوا الله ولا تخزون (٦٩) قالوا أولم ننهك عن العالمين (٧٠) قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين (٧١) لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون (٧٢) .

ثمّ لمّا خرجوا من عند إبراهيم أتوا لوطاً يخبرونه بهلاك قومه [فلمّا جاء] المرسلون إلى لوط بهيئة حسنة وجمال لم ير مثلهم أنكر شأنهم وهيئتهم وما عرفهم [قال إنّكم] غير معروفين عندي عرّفوني أنفسكم قالت الملائكة : [قالوا بل جئناك] بأمر كانوا يشكّون في وقوعه إذا كنت تخوّفهم ولا يصدّقون بقولك [و آتيناك] بالعذاب المستيقن به [وإنّا لصادقون] فيما أخبرناك .

[فأسر بأهلك] الإسراء سير الليل أي سر بأهلك بعد ما يمضي أكثر الليل وتبقى

---

(١) الاحزاب : ١ .

قطعة منه واقتف آثار أهل بيتك و كن وراءهم لتكون عيناً عليهم فلا تتخلّف أحد منهم [ولا يلتفت منكم أحد] إلى ما خلّف وراءه في المدينة أي لا ينظر منكم وراءه لئلاّ يرون العذاب فيفزعوا [وامضوا حيث] أمركم الله بالذهاب إليه وهو الشام ، وحاصل المعنى : إذا بقي من متاعكم شيء في المدينة فلا ترجعوا إليه وامضوا حيث تؤمرون ، لأنّ جبرئيل أمر لوطاً أن ينزل قرية معيّنة لم يعملوا عمل قوم لوط [إنّ دابر هؤلاء مقطوع] أي آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح ومستأصلون بالعذاب على وجه لا يبقى منهم أثر ولا نسل ولا عقب .

[وجاء أهل المدينة] يبشّرون بعضهم بعضاً بنزول من هو في صورة الأضياف بلوط طمعاً في أن ينالوا الفجور منهم [قال] لوط لهم : [إنّ هؤلاء ضيفي] ولا تخزون في ضيفي [قالوا] له : [أو لم ننهك] أن تجير أحداً ؟ وإنّما قال لوط لهم هذا الكلام قبل أن يعلم أنّهم الملائكة بعثوا لإهلاك قومه [قال] لوط لقومه لمّا قصدوا السوء : [هؤلاء بناتي] فتزوّجوهنّ لكم إن كان لكم رغبة وتطلبون التزويج ، قيل : إنّه عرض بنات قومه عليهم وقد كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر ، أو بناته من صلبه لرئيسهم حتّى يسلم من شرّهم .

[لعمرك إنّهم لفي سكرتهم يعمهون] أي لعمرك قسمي أي وحياتك يا محمّد ومدّة بقائك وقال المبرّد : هو دعاء ومعناه أسأل عمرك . قال ابن عبّاس : ماخلق الله عزّ وجلّ ولا ذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمّد وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلّا بحياته . لفي غفلتهم يتحيّرون ويتردّدون فلا يبصرون طريق الرشد .

قوله تعالى : فاخذتهم الصيحة مشرقين (٧٣) فجعلنا عاليهـا سافلها و امطر عليهم حجارة من سجيل (٧٤) ان في ذلك لايات للمتوسمين (٧٥) وانها لبسبيل مقيم (٧٦) ان في ذلك لاية للمؤمنين (٧٧) .

[فأخذتهم] صيحة جبرئيل أو مطلق الصيحة [مشرقين] أي وقت بزوغ الشمس وطلوعها وعذّبوا بثلاثة أنواع من العذاب : أحدها الصيحة الهائلة المنكرة . والثاني أنّه جعل عاليها سافلها ، والثالث أنّه أُمطر عليهم حجارة من سجّيل [إنّ في ذلك] الأُمور الواقعة دلالات للمتفرّسين المتدبّرين ، قال صلى الله عليه وآله : إنّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسيم . قال الصادق عليه السلام : نحن المتوسّمون ، والسبيل فينا مقيم والسبيل طريق الجنّة . و الوسم العلامة .

قوله : [وإنّها لبسبيل مقيم] والضمير عايد إلى مدينة قوم لوط أي هذه القرى وما ظهر فيها من آثار قهر الله و غضبه لبطريق مسلوك ثابت يسلكها الناس في حوائجهم ويرونها ، لأنّ آثارها باقية وهي مدن أربعة ، أكبرها سدوم بين المدينة والشام ، وهي عبرة [للمؤمنين] وأمّا الّذين لا يؤمنون فإنّهم يحملونها على حوادث العالم و وقائع القرانات الكوكبيّة و الاتّصالات الفلكيّة .

قوله : و ان كان اصحاب الايكة لظالمين (٧٨) فانتقمنا منهم و انهما لبامام مبين (٧٩) ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين (٨٠) وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين (٨١) وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين (٨٢) فاخذتهم الصيحة مصبحين (٨٣) فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٤) .

هذه القصّة الثالثة ، الأولى قصّة إبليس وآدم ، الثانية قصّة إبراهيم ولوط ، وهذه قصّة أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب كانوا أصحاب غياض فكذّبوا شعيباً فأهلكهم الله بعذاب يوم الظلّة ، والأيكة الشجر الملتفّ يقال : أيكة وأيك كشجرة وشجر . وقيل : الأيك شجرة المقل . وقيل : الأيكة الغيض .

[وإن كان] «إن» هي المخفّفة أي إنّ الشأن كان [أصحاب] شعيب أهل [الأيكة] فكانوا ظالمين ومتجاوزين عن الحدّ [فانتقمنا منهم] بالعذاب من الطائفتين من قوم شعيب ومن قوم لوط والانتقام نقيض الإنعام [وإنّهما لبإمام مبين] أي وإنّ مدينتي قوم لوط وشعيب بطريق يؤمّ ويتّبع ويهتدى به ، وسمّي الطريق إماماً لأنّ الإنسان يؤمّه . وقيل : معناه أنّ حديث مدينتيهما لمكتوب مذكور في اللوح المحفوظ نظير قوله : «و كلّ شيء أحصيناه في إمام مبين[1]» والمبين الظاهر .

قوله : [ولقد كذّب أصحاب الحجر المرسلين] هذا هو القصّة الرابعة وهي قصّة صالح ، الحجر اسم واد كان يسكنها ثمود . قوله : «المرسلين» المراد صالح وحده . لعلّ القوم كانوا براهمة منكرين لكلّ الرسل [وآتيناهم آياتنا] يريد الناقة وكان في الناقة آيات كثيرة [فكانوا عنها معرضين] أو المعنى أنّ المراد من تكذيب صالح تكذيب تمام المرسلين لأنّ تكذيب

---

(١) يس : ١٢ .

نبيّ واحد تكذيب الأنبياء لأنّهم بأجمعهم يدعون الناس إلى توحيد الله و ليس فيهم اختلاف .

وكان قوم صالح أقوياء [ينحتون] لمساكنهم [من الجبال بيوتاً] وكانوا [آمنين] من خرابها [فأخذتهم الصيحة] في وقت الصبح [فما أغنى] ونفع ودفع ما كانوا جامعين من الأولاد والمال وأنواع الملاذّ .

قوله تعالى : وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لاتية فاصفح الصفح الجميل (٨٥) ان ربك هو الخلاق العليم (٨٦) ولقد ءاتيناك سبعا من المثاني والقرءان العظيم (٨٧) لاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين (٨٨) وقل انى انا النذير المبين (٨٩) كما أنزلنا على المقتسمين (٩٠) الذين جعلوا القرآن عضين (٩١) .

النظم : تصبير النبيّ على سفاهة قومه فإنّه إذا سمع مكرّراً أنّ الأمم السالفة يعاملون أنبياءهم بمثل هذه المعاملات الفاسدة سهل عليه تحمّل تلك السفاهات . ولمّا ذكر في الآيات السابقة الإهلاك والتعذيب فكأنّه قيل : الإهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم الكريم ؟ فأجاب عنه بأنّي إنّما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين بالعبادة و الطاعة فإذا تركوها وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير وجه الأرض منهم فقال :

[وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ] أي إنّا ماخلقنا خلقاً عبثاً بل لما اقتضته الحكمة وما خلقنا أمراً باطلا ، بل خلقناهم ، ثمّ نجازيهم بما عملوا [وإنّ الساعة لآتية] وجائية للمجازاة وإنّ الله لينتقم ممّن خالف دين الحقّ . ثمّ صبّره وأمره أن يعرض عنهم في موضع الإعراض ويتحلّم ويعفو عنهم عفواً جميلاً ويعظهم . قال أمير المؤمنين : إنّ الصفح الجميل هو العفو من غير عتاب وتوبيخ وتعنيف .

[إنّ ربّك هو الخلاّق] للأشياء عليم بمصالح الأمور وهو يعلم المصالح فتارة يأمرك بالعفو وتارة يأمرك بالسيف ، وهذه الآية صريحة على أنّ الله لم يخلق الباطل والكفر أبداً و لايرضى به وما أبقى حجّة للجبريّة ونقضت غزلهم .

قوله : [ولقد آتيناك سبعاً من المثاني] ولمّا أمر بالصفح والتجاوز أتبع بذكر النعم العظيمة الّتي خصّ الله محمّد بها فقال : «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني» والمثاني جمع واحدته مثناة ، والمثناة كلّ شيء يثنى أي يجعل اثنين من قولك : ثنّيت الشيء إذا عطفته أوضممت إليه آخراً ، ومنه يقال لمرفقي الدابّة : مثاني ، لأنّها تثنّى بالعضد ، فمفهوم سبع المثاني سبعة أشياء من جنس الأشياء الّتي تثنّى .

وبالجملة للناس فيه أقوال :

الاول عن عليّ عليه السلام وجمع من الصحابة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قرأ الفاتحة وقال : هي السبع المثاني ، والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة أنّها سبع آيات تثنّى في كلّ صلاة ويقرأ مرّتين ولأنّها قسّمت قسمان ثناء و دعاء يقول الله : قسّمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين : نصف حقّ الربوبيّة و نصف حقّ العبوديّة وهو الدعاء . أولأنّ كلماتها مثنّاة مثل الرحمن الرحيم إيّاك نعبدو إيّاك نستعين .

ثمّ ههنا تحقيق وهو أنّ إفرادها بالذكر مع كونها جزءاً من أجزاء القرآن بقوله : «سبعاً من المثاني والقرآن العظيم» يدلّ على مزيّة فضل وشرف في هذه السورة ، ثمّ إنّه لمّا رأينا أنّ رسول الله واظب على قراءتها في جميع الصلوات وما أقام سورة غيرها مكانها في شيء من الصلوات و قوله : لاصلاة إلّا بفاتحة الكتاب و لا يجوز الإبدال دلّ على خصوصيّة شرافتها ، هذا هو القول الأوّل من الأقوال .

الثاني : هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والأنفال والتوبة معاً قالوا : وسمّيت هذه السور بالمثاني لأنّ الفرائض والحدود والأمثال والعبر ثنّيت فيها .

و أنكروا هذا القول وقالوا : هذه الآية مكّيّة وأكثر هذه السور السبعة مدنيّة فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها ؟

و أجابوا بأنّ الله تعالى أنزل القرآن كلّه إلى السماء الدنيا ثمّ أنزله نجوماً فلمّا أنزله إلى السماء الدنيا فهو من جملة ما أتاه وإن لم ينزل عليه بعد . وأجابوا عن هذا الجواب بأن الإتيان إنّما يصدق إذا وصل إلى محمّد فأمّا الّذي أنزله إلى السماء الدنيا وهو لم يصل إليه بعد لايصدق عليه الإتيان .

و قيل أقوال آخر ذكرها يوجب التطويل .

قوله : [والقرآن العظيم] يعني وآتيناك القرآن العظيم لأنّه يتضمّن جميع ما يحتاج إليه من اُمور الدين بأوجز لفظ وأحسن نظم .

قوله : [لا تمدّن عينيك] أي لا تنظر ولا ترفع عينيك من هؤلاء الكفّار [إلى ما متّعناهم] وأنعمنا عليهم من زهرات الدنيا فإنّها في معرض الزوال والفناء معما يتبعها من الحساب والجزاء به [أزواجاً منهم] منصوباً على الحال والمراد به أشباهاً و أمثالاً من النعم يشبه بعضها بعضاً ، و قيل : أزواجاً منهم يعني أصنافاً من الكفّار ، والزوج في اللغة الصنف .

وبالجملة فالمراد أنّه لاتنظر إلى ما متّعناهم من النعم ، فإنّ ما أنعمنا عليك وعلى من إتّبعك من أنواع النعم خير وأحسن كالإسلام والقرآن والنبوّة وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاينظر إلى ما يستحسن من الدنيا ، ومنه الحديث : ليس منّا من لم يستغن بالقرآن و من اُوتي القرآن فرأى أنّ أحداً اُوتي من الدنيا أفضل ممّا اُوتي فقد صغّر عظيماً و عظّم صغيراً .

وقيل : وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بني قريظة و النضير فيها أنواع البزّ والطيب والجواهر وسائر الأمتعة فقال المسلمون : لوكانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها و لأنفقناها في سبيل الله ، فقال الله لهم : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع .

وروي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم نظر إلى نعم بني المصطلق وقد عبست في أبوالها وأبعارها فتقنّع في ثوبه وقرأ هذه الآية . و«عبست في أبوالها» المراد سمنها و كثرة شحومها ولحومها . الخطاب وإن كان له إلّا أنّ المراد اُمّته .

قوله : [ولا تحزن عليهم] أي على الكفّار إن لم يؤمنوا أو نزل بهم العذاب و بما يصيرون إليه من عذاب النار بكفرهم ولما أنعمت عليهم دونك [واخفض جناحك للمؤمنين] أي وألن لهم جانبك وارفق بهم ، وفلان خافض الجناح إذا كان وقوراً حليماً ، وأصله أنّ الطائر إذا ضمّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثمّ خفضه ، أي تواضع للمؤمنين لكي يتّبعك الناس في دينك .

[وقل إنّي أنا النذير المبين] أي أنا المعلم بموضع المخافة ، فيدخل تحت كونه نذيراً كونه مبلّغاً لجميع التكاليف ؛ لأنّ كلّ ماكان واجباً ترتّب على تركه عقاب و كلّ ما كان حراماً ترتّب على فعله عقاب ، فكان الإخبار بحصول العقاب داخلاً تحت لفظ النذير .

قوله : [كما أنزلنا على المقتسمين] قيل : هم الّذين اقتسموا طرق مكّة يصدّون الناس عن الإيمان برسول الله ويقرب عددهم من أربعين . وقيل : كانوا ستّة عشر رجلاً بعثهم الوليد ابن مغيرة أيّام الموسم فاقتسموا عقبات مكّة يقولون لمن يسلكها : لا تغترّوا بالخارج منّا يدّعي النبوّة ؛ فإنّه مجنون . وكانوا ينفّرون الناس عنه بأنّه ساحر أو كاهن أو شاعر فأنزل الله عليهم خزياً فماتوا شرّ ميتة . والمعنى أنذرتكم مثل ما نزل على المقتسمين . وفي بعض الروايات أنّ المقتسمين هم اليهود والنصارى واختلفوا في أنّ الله لم سمّاهم مقتسمين ؛ لأنّهم [جعلوا القرآن عضين] آمنوا بما وافق التوراة و كفروا بالباقي ، وقيل : لأنّهم اقتسموا القرآن استهزاء به كقسمة الجزور ، فقال بعضهم : سورة كذا لي وسورة كذا لي . أوقال بعضهم: سحر . وقال بعضهم : شعر . وقال بعضهم : أساطير الأوّلين ، وأنزل الله على المقتسمين عذاباً فرمتهم الملائكة بالحجارة حتّى ماتوا شرّ ميتة ، فالتشبيه يرجع إلى هذا .

المعنى : وقل إنّي أنا النذير المبين عذابا كما أنزلنا على المقتسمين ، أو المعنى إنّا آتيناك السبع المثاني كما آتينا العذاب على المقتسمين ، و الجملة المعترضة بقوله : «و لا تمدّنّ عينيك» وقعت بين المشبّه والمشبّه به للتسلية من حال الرسول . ومفرد « العضين » عضة مثل ثبة ، وأصلها عضوة أي قطعة والتعضية التجزية فالمعنى جزّؤوا القرآن أجزاءً متفرّقة .

قوله تعالى : فوربك لنسئلنهم اجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣) فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين(٩٤) انا كفيناك المستهزئين (٩٥)الذين يجعلون مع الله الهاً آخر فسوف يعلمون (٩٦)ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون (٩٧) فسبح بحمد ربك و كن من الساجدين (٩٨) واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (٩٩) .

لمّا بيّن سبحانه كفرهم بالقرآن عقّبه بأنّهم المسؤولون أجمعون وأقسم بنفسه أنّهم المسؤولون أو جميع الخلق مسؤولون عن الكفر وغيره من عامّة أفعالهم [فاصدع] و فرّق بين

الحقّ والباطل وأبن ماأمرتك لهم ، وتكلّم جهاراًلهم ، وتأويل الصدع في الزجاج بتباين بعض عن بعض [وأعرض عن المشركين] ولا تلتفت إلى لومهم ولا تبال بهم .

[إنّا كفيناك المستهزئين] وشرّهم بأن أهلكناهم ، وبيان إهلاكهم أنّ جبرئيل أتى النبيّ والمستهزئون يطوفون بالبيت فأشار جبرئيل إلى بعض منهم بساقه وإلى بعض برأسه وبعينه فمرضوا في برهة قليلة من الزمان وماتوا شرّ ميتة .

قوله : [ولقد نعلم أنّك يضيق صدرك] من سفاهة قومك واستهزائهم لك فقل : سبحان الله وبحمده واحمد ربّك على نعمه إليك ، وكن من المصلّين ، قال ابن عبّاس : كان رسول الله إذا حزنه أمر فزع إلى الصلاة [واعبد ربّك] إلى أن [يأتيك] الموت و هذا أمر بالإقامة على العبادة أبداً مادام حيّاً ، والفائدة في هذا التوقيت أنّ الإنسان يكون مادام عمره لابدّ أن لا يخلو عن النظر في عبوديّته بلحظة واحدة .

تمّت السورة .

سورة النحل

بعضها مكيّة وبعضها مدنيّة .

فضلها أُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ : من قرأها لم يحاسبه الله على النعم الّتي أنعمها عليه في الدنيا واُعطي من الأجر كالّذي مات وأحسن الوصيّة وإن مات في يوم تلاها أوليلة كان له من الأجر كالّذي مات و أحسن الوصيّة .

وروى محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : من قرأ سورة النحل في كلّ شهر كفي المغرم في الدنيا وسبعين نوعاً من أنواع البلاء أهونه الجنون والجذام والبرص ، وكان مسكنه في جنّة عدن وهي وسط الجنان .

واعلم لمّا ختم سورة الحجر بوعيد الكفّار افتتح هذه السورة بوعيدهم أيضاً فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

اتى امر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون (١) ينزل الملائكة بالروح على من يشاء من عباده أن انذروا انه لا اله الا انا فاتقون (٢) .

البيان : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخوّف المشركين بعذاب الدنيا ، تارة بالقتل والاستيلاء عليهم كما حصل ، وتارة بعذاب يوم القيامة وهو الّذي يحصل عند قيام الساعة ، ثمّ إنّ القوم لمّا لم يشاهدوا شيئاً من ذلك أقاموا على تكذيبه وطلبوا منه الإتيان بالعذاب وقالوا له : ائتنا به .

في معنى الآية أقوال :

أحدها أنّ معناه قرب أمر الله و كلّما هو آت قريب أي قرب عقاب هؤلاء المشركين المقيمين على التكذيب .

و ثانيها أنّ أمر الله أحكامه وفرائضه .

و ثالثها أنّ أمر الله يوم القيامة فيكون «أتى» بمعنى «يأتي» ومستقبل هو محقّق الوقوع يأتي بلفظ الماضي فصار بمنزلة ما مضى لأنّ الله سبحانه قرّب أمر الساعة وقال : « اقتربت الساعة»[١] .

و بالجملة قال الكفّار فيما بينهم : إنّ محمّداً يزعم أنّ القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتّى ننظر ماهو كائن ، فلمّا امتدّت الأيّام قالوا : يا محمّد ما نرى شيئاً ممّا تخوّفنا به ، فنزلت :

[أتى أمر الله] فوثب رسول الله صلى الله عليه وآله ورفع الناس رؤوسهم فنزل : [فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى] هذه كلمة تنزيه عمّا لا يليق به و بصفاته من أن يكون له شريك في العبادة

---

(١) القمر : ١ .

[ينزّل] الله الملائكة بالوحي أوبالقرآن[من أمره] لأنّه حياة القلوب بسبب الإرشاد إلى حسن العاقبة والدين [على من يشاء من عباده] ممّن يصلح للنبوّة والسفارة بينه وبين خلقه [أن أنذروا أنّه لا إله إلّا أنا فاتّقون] هذا تفسير للروح المنزل وبدل منه . أي أيّها الأنبياء مروهم بتوحيدي واتّقوا مخالفتي . ويبيّن سبحانه أنّ الحال حال التكليف لاحال نزول العذاب وأنّه لايأخذ أحداً حتّى يحتجّ عليه بالإنذار وبيان الأدلّة .

ثمّ شرع في ذكر الدليل فقال :

قوله تعالى : خلق السموات و الارض بالحق تعالى عما يشركون (٣) خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين(٤) و الانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون(٦) و تحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرءوف رحيم (٧) .

المعنى : خلقهما على سبيل الحقيقة فيستدلّ بهما على معرفته ويتوسّل بالنظر إليهما إلى العلم بكمال قدرته وينتفعون بهما في الدين والدنيا فليعمل العامل [بالحقّ] تقدّس من أن يكون له شريك . ثمّ بيّن دليلاً آخر فقال : [خلق الإنسان من نطفة] و « النطفة » اسم للماء القليل ثمّ في العرف صار اسماً لماء الفحل ، حتّى صارت هذه النطفة في تقلّب الأحوال إنساناً يخاصم عن نفسه ؛ فبيّن أضعف أحواله وأنقصها وأكملها منها على كمال قدرته ، أو المعنى مجادل بالباطل مبين ظاهر الخصومة ، وفيه تعريض لفاحش ما ارتكبه من تضييع حقّ نعمة الله عليه .

ثمّ بيّن سبحانه نعمته في خلق الأنعام فقال : [والأنعام خلقها] أكثر ما يتناول الأنعام الإبل والبقر والغنم ، وفي اللغة هي ذوات الأخفاف والأظلاف دون ذوات الحوافر [لكم فيها دفء] أي لباس و ما يستدفأ به ممّا يعمل من صوفها ووبرها و شعرها ومنافع اُخر من الحمل و الركوب و إثارة الأرض و الزرع و النسل [و منها تأكلون] من لحومها .

[ولكم فيها] حسن منظر وزينة حين تردّونها من سراحها وحيث تأوي إليه ليلاً

[وحين تسرحون] أي حين ترسلونها بالغداة إلى مراعيها والجمال حين الإراحة أكثر من حين التسريح لأنّها تقبل ملائي البطون والضروع مع الثغاء والرغاء ويعظم موقعها عند الناظر [وتحمل أثقالكم] إلى البلاد ولم تكونوا تبلغون لولاها إلّا بالمشقّة ، والشقّ نصف الشيء والمشقّة ، والمعنيان مناسبان . ثمّ عطف علي الأنعام :

قوله تعالى: و الخيل والبغال و الحمير لتركبوها و زينة ويخلق مالا تعلمون (٨) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهديكم اجمعين (٩) هو الذى انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) ينبت لكم به الزرع و الزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لاية لقوم يتفكرون (١١) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ان فى ذلك لايات لقوم يعقلون (١٢) وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا الوانه ان فى ذلك لاية لقوم يذكرون (١٣) .

لمّا ذكر في الآية السابقة منافع الحيوانات الّتي ينتفع بها الإنسان من المنافع الضروريّة والحاجات الأصليّة ذكر في هذه الآية المنافع الغير الضروريّة فقال :

[و] خلق [الخيل والبغال والحمير] للركوب وللزينة ، ونصب «زينة» على المفعول له .

واحتجّ القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية فقالوا : منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب فلو كان الأكل جائزاً لكان هذا المعنى أولى بالذكر وحيث لم يذكر علمنا أنّه يحرم أكله ، ثمّ إنّه سبحانه قال في صفة الأنعام : «ومنها تأكلون» وهذه الكلمة تفيد الحصر فيقتضي أن لا يجوز الأكل من غير الأنعام فوجب أن يحرم أكل لحم الخيل بمقتضى هذا الحصر .

وأجابوا بأنّه لو كان الأمر كذلك لكان قول عامّة المفسّرين والمحدّثين : «إنّ لحوم الحمير الأهليّة حرّمت عام خيبر » باطلاً لأنّ التحريم لمّا كان حاصلاً قبل هذا اليوم لم يبق لتخصيص هذا التحريم فائدة . وقد روى البخاريّ في الصحيح مرفوعاً إلى أسماء بنت أبي بكر قالت : أكلنا لحوم الفرس على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله .

قوله : [ويخلق مالاتعلمون] من أنواع الحيوان والنبات والجماد لمنافعكم [وعلى الله قصد السبيل] أي واجب على الله في عدله بيان الطريق المستقيم والهداية من الضلالة ليتّبع الهداية ويترك الضلالة [ومنها جائر] أي ومن السبيل ما هو جائر أي مائل عن الحقّ وهو أنواع الكفر ، والسبيل يذكّر ويؤنّث [ولوشاء لهداكم أجمعين] على طريق الإلجاء ولكنّه ينافي التكليف ، والإيمان مقدور للمكلّفين .

وحاصل المعنى من هذه الآيات بيان فوائد نعم الله من النعم المفيدة لدينكم و لمعايشكم كخلق الأنعام للفوائد الّتي تحتاجونها لدنياكم وترون فوائدها وخلق مالاتعلمون فوائدها وهو مفيدة لكم ، وقد ذكره بطريق الإجمال لأنّ أصنافها وأنواعها خارجة عن الإحصاء ولوخاض الإنسان في شرح عجائب أحوالها لكان المذكور في المجلّدات الكثيرة كالقطرة في البحر .

قال ابن عبّاس . إنّ على يمين العرش نهراً من نورمثل السماوات السبع ومثل الأرضين السبع والبحار السبعة ، يدخل فيه جبرئيل كلّ سحر ويغتسل فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله ثمّ ينتفض فيخلق الله من كلّ نقطة تقع من ريشه كذا و كذا ألف ملك يدخل منهم كلّ يوم سبعون ألفاً البيت المعمور ، وفي الكعبة سبعون ألفاً ثمّ لايعودون إلى أن تقوم الساعة « وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها »[(١)] .

وفي الآية دلالة على أنّه سبحانه لايضلّ أحداً ولا يغويه ولايصدّه عن الحقّ لأنّه لوكان فاعلاً للضلال لقال : « و على الله قصد السبيل و عليه جائرها » .

قوله تعالى : [هوالّذي أنزل] اعلم أنّه أشرف أجسام العالم السفلى بعد الحيوان النبات فاستدلّ سبحانه به ، ومادّة النبات الماء ، والمنزل المنزل من السحاب أومن السماء و [لكم] من ذلك الماء [شراب] تشربونه أي منه لشربكم [ومنه] لشرب الشجر وسقيه وحذف المضاف كقول زهير : « أمن اُمّ أوفى دمنة لم تكلّم » أي أمن ناحية اُمّ أوفى دمنة لم تكلّم [تسيمون] أي ترعون أنعامكم ، و السوم الرعي ، من غير كلفة والتزام مؤونة لعلفها .

---

(١) ابراهيم : ٣٤ . السورة : ١٨ .

قال ابن قتيبة : المراد في هذه الآية من «الشجر» الكلاء وفي حديث عكرمة : «لا تأكلوا ثمن الشجر فإنّه سحت» يعني الكلاء . و قيل : النجم ما ينجم من الأرض ممّا ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق ، وعطف الجنس على النوع والنوع على الجنس شايع ، ولفظ الشجر مشعر بالاختلاط يقال : تشاجر القوم إذا اختلط أصواتهم .

قوله : [ينبت لكم به الزرع] فذكر بعد ما ينفع للحيوان ماينفع للإنسان ، ينبت بالماء المنزل من السماء ماهو غذاء للإنسان والغذاء للإنسان حيواني ّوقد ذكر في خلق الأنعام، ونباتيّ وهو الحبوب والفواكه من [الزيتون والأعناب ومن كلّ الثمرات] من أنواعها ومنافعها لاتعدّ و لاتحصى ، مثلاً العنب قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ولحمه وماؤه حار ان رطبان لطيفان ونسبة الطبائع السفليّة إلى هذا الجسم متشابهة ونسبة التأثيرات الفلكيّة والكوكبيّة إلى الكلّ متشابهة ومع التشابه ترى هذه الأجسام مختلفة في الطبع والطعم واللون و لصفة وليس ذلك إلّا لتقدير فاعل حكيم قادر [إنّ] في هذه الأُمور لآيات لمن تفكّر و اعتبر .

قوله : [وسخّر لكم الليل والنهار والشمس] في حركاتها المختلفة بأوقاتها وهي مقهوره بنسق لايختلف بأمره القاهر فلوفرضنا أنّ حدوث الحوادث في العالم السفلي مستندة إلى الاتّصالات الفلكيّة والتشكّلات الكوكبيّة إلّا أنّه لابدّ لحركاتها من أسباب ، وأسباب تلك الحركات إمّا ذواتها وإمّا أُمور مغايرة لها والأوّل باطل لأنّ ذات الجسم لوكانت علّة لحصول هذه الجزء من الحركة لوجب دوام هذا الجزء من الحركة بدوام تلك الذات ولو كان كذلك لوجب بقاء الجسم على حالة واحدة من غير تغيّر أصلاً وعدم التغيّر يوجب كونه ساكناً لذاته و يمتنع من كونه متحرّكاً فالقول بأنّ الجسم متحرّك لذاته يوجب كونه ساكناً لذاته ، وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلاً .

وبعبارة أُخرى أوضح من هذا : إنّ الأجسام متماثلة في الجسميّة فلوكان جسم علّة لصفة لكان كلّ جسم واجب الاتّصاف بتلك الصفة وهو محال فثبت أنّ تخصّص ذلك المخصّص بغيره لابذاته ولابدّ من أن ينتهي لبطلان التسلسل ؛ فثبت أنّ الغير قادر عليه مباين له متصرّف فيه كيف يشاء وهو الله [إنّ في ذلك] لدلالات للعقلاء .

[وماذرأ] وخلق [لكم في الأرض] لقوام أبدانكم من المطاعم والملابس والمناكح من الحيوان والنبات والمعادن [مختلفاً ألوانه] وأشكاله لايشبه بعضها بعضاً فيها دلالات للمتذكّرين والمتدبّرين . واختلاف الألوان دليل قاهر على أنّ المؤثّر غير الطبيعة لأنّ الطبيعة الواحدة في المادّة الواحدة يجب أن يكون متشابهاً ومتشاكلاً مثلاً إذا وضعت الشمعة فإذا استضاء ذراع من جوانب الشمع وجب أن يكون الضوء في هذا الذراع متساوياً ولا يمكن أن يكون الضوء مختلفاً في الفضاء من الذراع بحسب النور .

إذا ثبت هذا فنقول : إنّ نسبة الشمس والقمر والأنجم والأفلاك والطبائع بالنسبة إلى ورقة لطيفة من الورد نسبة واحدة ومتى كانت نسبة المؤثّر واحدة لابدّ وأن يكون الأثر متشابهاً ونحن نرى أنّ الأثر غير متشابه فنصفه في غاية السواد ونصفه في غاية البياض فاختلاف الأثر دليل قاهر على أنّ الطبيعة بنفسها ليست مؤثّرة بل هي أيضاً متأثّرة والمؤثّر غيرها وهو الله .

قوله تعالى : وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها و ترى الفلك مواخر فيه و لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون (١٤) والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون (١٥) وعلامات و بالنجم هم يهتدون(١٦) أفمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون (١٧) وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ان الله لغفور رحيم(١٨) .

ثمّ عدّد نوعاً آخر من النعم فقال : [وهو الّذي سخّر البحر] وإنّما عبّر بالتسخير لأنّه تعالى لمّا دبّر الأمور على طريقة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنقاد المطاع فلذا أطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير .

واعلم أنّ علماء الهيئة قالوا : ثلاثة أرباع الأرض غائصة في الماء وذاك هو المحيط وهو كلّيّة عنصر الماء وحصل في هذا الربع المسكون سبعة من البحار كما قال سبحانه : «والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر» [١] والبحر الّذي سخّره الله تعالى للناس هو هذه البحار السبعة ومعنى التسخير جعلها بحيث يتمكّن الإنسان من الانتفاع بها إمّا بالركوب أو بالغوص ، و

(١) لقمان : ٢٧ .

مناقع البحر كثيرة لكن ذكرسبحانه ثلاثة أنواع في الآية :

الاول [لتأكلوامنه لحماًطريّاً] وهوالسمك مع أنّه خرج من البحر الملح الزعاق(١) مثل هذا الحيوان الّذي لحمه في غاية العذوبة فعلم أنّه إنّما حدث لابحسب الطبيعة بل بقدرة الله حيث أظهر الضدّ من الضدّ.

والثاني من منافع البحرقوله : [وتستخرجوا منه حلية تلبسونها] و المراد اللؤلؤ والمرجان وتزيّنون بها .

المنفعة الثالثة [وترى الفلك مواخر فيه] مخر السفينة شقّ الماء بصدرها ؛ قال ابن عبّاس ، : مواخر أي جواري لتركبوها للتجارة فتطلبوا الربح من فضل الله بسفر البحر وتحصيل التجارة فيه فلعلّكم إذا وجدتم فضل الله وإحسانه تقدمون بالشكر له .

قوله : [وألقى في الأرض رواسي] أي جبال عاليات ثابتات لئلاّ تميد و تتحرّك و تضطرب وجعل فيها أنهاراً و طرقاً لكم قوله : [أن تميدبكم] كقوله : « يبيّن الله لكم أن تضلّوا(٢) » أي كراهة أن تضلّوا ومعنى الإلقاء الجعل والخلق كقوله تعالى : « وألقيت عليك محبّة منّي(٣) » وجعل في الأرض [سبلاً] وطرقاً لكي تهتدوا وأظهر فيها [علامات] حتّى يتمكّن الإنسان من الاستدلال بها فيصل بواسطتها إلى مقصوده ، و هذه العلامات هي الجبال و الرياح حتّى قيل : إنّ جماعة كانوا يشمّون التراب ويتعرّفون الطرق .

قوله : [وبالنجم هم يهتدون] وقرىء بضمّتين والمراد بالنجم .قيل : المراد بالنجم الثريّا والفرقدان وبنات النعش والجدي . قال ابن عبّاس : سألت رسول الله عن النجم فقال : الجدي علامة قبلتكم وبه تهتدون في برّكم وبحركم . وقال أبوعبدالله : نحن العلامات و النجم رسول الله . وقال : إنّ الله جعل النجوم أماناً لأهل السماء وجعل أهل بيتي أماناً لأهل الأرض .

قوله تعالى : [أفمن يخلق كمن لايخلق] لمّا ذكر الدلائل على وجود القادر وشرح أنواع النعم أتبعه بذكر إبطال عبادة غيره و كيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة ماسواه ؟ فقال : [أفمن يخلق كمن لايخلق] ولايقدر ؟ أفلاتنبّهون وتلتفتون !

(١) ماكثر ملحه .　(٢) النساء : ١٧٥ .　(٣) طه : ٣٩ .

[وإن تعدّوا نعمةالله] أي إنّكم لاتعرفونها على سبيل التمام و الكمال ، و إذا لم تعرفوها امتنع منكم الشكر كاملاً ولذلك قال : [إنّ الله لغفور] للتقصير الصادر عنكم في القيام بالشكر و [رحيم] بكم حيث لم يقطع نعمه عنكم بسبب تقصيركم .

قوله تعالى : والله يعلم ماتسرون و ما تعلنون (١٩) والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون (٢٠) اموات غير احياء وما يشعرون ايان يبعثون (٢١) الهكم اله واحد فالذين لايؤمنون بالاخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون (٢٢) لاجرم ان الله يعلم مايسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين (٢٣) .

لمّا تقدّم سبحانه الدعاء إلى عبادته بذكر نعمه عقّبه بذكر علمه بسريرة كلّ أحد وعلانيته وذكر بطلان الإشراك في عبادته فقال : [والله يعلم ماتسرّون] وماتظهرونه فيجازيكم على أفعالكم .

[و الّذين يدعون] غيره ، المراد به الأصنام الّتي لايمكنها خلق شيء بل هي مخلوقة منحوتة من الحجر والخشب ونحوهما ، ثمّ قال :

هي [أموات] ثم أكّد بقوله : [غير أحياء] ونفى الحياة عنها على الإطلاق فإنّ من الأموات من سبقت له الحياة أو من الأشياء ماله حالة منتظرة في الحياة بخلاف الأصنام فإنّه ليس له حياة سابقة ولامنتظرة . وقيل : إنّ المراد إنّ الّذين يعبدون الأصنام أموات وفي حكم الكفّار لذهابهم عن الدين والحياة الأبديّة .

قوله : [و ما يشعرون أيّان يبعثون] قيل : المراد الكفّار لا يعلمون متى يبعثون . و قيل : المراد الأصنام . و الضمير في « و ما يشعرون » عائد إلى الأصنام ، و الضمير في « يبعثون » إلى الكفّار يعني أنّ الأصنام لا يشعرون متى تبعث عبدتهم ولا تعلم وقت بعث عبدتهم ، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبدتهم ؟ و قيل : إنّ ناساً كانوا يعبدون الملائكة فقال الله : إنّهم أموات أي سيموتون و غير باقية حياتهم وما يشعرون الملائكة متى يبعثون ولا علم لهم بموتهم وبعثهم .

ثمّ قرّر بأنّ [إلهكم إله واحد فالّذين لايؤمنون بالآخرة] أي الّذين يؤمنون

بالآخرة يرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العذاب الدائم إذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب ، وأمّا الّذين لايؤمنون بالآخرة وينكرونها فيبقون منكرين لكلّ كلام يسمعونها ويخالف قولهم ويستكبرون عن الرجوع من كفرهم فلا [جرم] وهذه الكلمة بمنزلة اليمين أي حقاً . ومعنى الجرم الكسب يعني لايحتاج علم هذا الأمر إلى اكتساب علم ، بل هو معلوم [أنّ الله يعلم] سرّهم وعلنهم و [إنّه لايحبّ الّذين] يأنفون أن يكونوا أتباعاً للأنبياء ويتكبّرون .

قوله تعالى : واذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا اساطير الاولين (٢٥) ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيمة و من اوزار الذين يضلونهم بغير علم الاساء مايزرون (٣٥) قد مكر الذين من قبلهم فاتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم و اتيهم العذاب من حيث لا يشعرون (٢٦) ثم يوم القيمة يخزيهم و يقول اين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين اوتوا العلم ان الخزى اليوم و السوء على الكافرين (٢٧) الذين تتوفيهم الملائكة ظالمى انفسهم فالقوا السلم ماكنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بماكنتم تعملون (٢٨) فادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين (٢٩) .

[وإذا قيل] لمشركي قريش [ماذا أنزل ربّكم] على محمّد ، أجابوا هذا المنزل في زعمكم هو عندنا أحاديث الأوّلين الكاذبين ، وروي أنّها نزلت في المقتسمين إذا سألهم الناس عمّا أنزل الله على رسول الله [قالوا] أحاديث [الأوّلين] ليصدّون الناس عن رسول الله ، على كلّ عقبة على طريق مكّة أيام الحجّ أربعة منهم .

[ليحملوا أوزارهم] واللام للعاقبة أي كان عاقبة أمرهم حين فعلوا ذلك أن حملوا أوزار كفرهم تامّة [يوم القيامة ومن أوزار الّذين يضلّونهم بغير علم] أي يحملون بعض أوزار الّذين أضلّوهم عن الحقّ وأغووهم وهو وزر الإضلال ، ولم يحملوا وزر غوايتهم وضلالهم وعلى هذا ماروي عن النبيّ أنّه قال : أيّما داع دعى إلى الهدى فاتّبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً وأيّما داع دعى إلى ضلالة فاتّبع عليه فإنّ عليه مثل أوزار من اتّبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً [ألاساء] أي بئس الوزر والحمل حملهم .

[قد مكر الّذين من] قبل هؤلاء المشركين بأنبيائهم من جهة التكذيب . [فأتى الله بنيانهم] أمر الله الّتي بنوها من أطراف قواعد بنيانهم فهدمها ، عن ابن عبّاس : المراد منهم نمرود بن كنعان ، بنى صرحاً عظيماً ببابل طوله خمسة آلاف ذراع ـ وقيل : فرسخان ـ ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها فأرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر وخرّ عليهم الباقي ، هو(١) البناء الّذي بناه بخت النصّر . وقيل : هو مثل لبناء الكفر . فحينئذ المعنى: عاد ضرر الكفر على الكافرين .

قوله : [فخرّ عليهم السقف] وإنّما قال : [من فوقهم] مع أنّ السقف لا يكون إلاّ من فوق لأحد وجوه : منها أنّه للتوكيد كقولهم : «مشيت برجلي» ومنها أنّما قال ذلك ليدلّ على أنّهم كانوا تحته [وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون] أي جاءهم عذاب الاستئصال من حيث لا يعلمون ولا يتوقّعون العذاب .

[ثمّ] مع ذلك [يوم القيامة يخزيهم] ويفضحهم يوم القيامة [ويقول] الله [أين شركائي] في زعمكم واعتقادكم [تشاقّون] وتعادّون المؤمنين أو تعادّوني وتشاركونهم معي .

[قال الّذين أُوتوا العلم] بالله وبدينه من المؤمنين ـ وقيل: هم الملائكة ـ : [إنّ الخزي اليوم والسوء على الكافرين] و الجاحدين لنعم الله [الّذين تتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم] أي يقبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم ففارقوا الدنيا وهم ظالمون لأنفسهم [فألقوا السلم] أي استسلموا وانقادوا حين لا ينفعهم الانقياد ويقولون عند الموت أو عند القيامة : [ما كنّا نعمل] من شرك ، والمراد بالسوء الشرك فقالت الملائكة ردّاً عليهم .

ثمّ اختلفوا فالّذين جوّزوا الكذب على أهل القيامة قالوا : هذا القول منهم على سبيل الكذب لغاية الخوف . والّذين لا يجوّزون الكذب قالوا : معنى « ما كنّا نعمل من سوء» باعتقادنا وعند أنفسنا .

فردّ عليهم [بلى] عملتم السوء والشرك [إنّ الله عليم] بعملكم [فادخلوا] طبقات [جهنّم] ودركاتها حال كونكم مؤبّدين فيها [فلبئس] المثوى [مثوى] المتعظّم عن قبول الحقّ ، واللام للتأكيد .

---

(١) كذا في الاصل .

قوله تعالى : وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيرا للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الاخرة خير ولنعم دار المتقين (٣٠) جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الانهار لهم فيها مايشاءون كذلك يجزى الله المتقين (٣١) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعلمون (٣٢) هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة اوياتى امر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون (٣٣) فاصابهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون (٣٤) .

لمّا ذكر حال الكافرين وأقوالهم عقّبه بذكر أقوال المؤمنين فقال :

[وقيل للّذين اتّقوا] الشرك والمعاصي وهم المؤمنون [ماذا] أي أيّ شيء [أنزل ربّكم قالوا] : أنزل الله [خيراً] لأنّ القرآن كلّه هدى وشفاء وخير . قوله تعالى : [للّذين أحسنوا] يجوز أن يكون هذه جملة مستأنفة ابتداء كلام من الله للمحسنين [في هذه الدنيا] حسنة ومكافاة لهم ، وهي الثناء والمدح على ألسنة المؤمنين والتوفيق للإحسان .

[ولدار الآخرة] أي و ما يصل إليهم من ثواب الآخرة [خير] ممّا يصل إليهم في الدنيا ، ويجوز أن يكون من كلام المتّقين [ولنعم دار المتّقين] أي و الآخرة نعم دار المتّقين الّذين اتّقوا عقاب الله .

والظاهر أنّ هذا الكلام كان في أيّام الموسم يأتي الرجل مكّة فيسأل من المشركين عن محمد ﷺ وأمره فيقولون : إنّه ساحر وكاهن و كذّاب . ويأتي المؤمنين و يسألهم عن محمد ﷺ وما أنزل الله عليه فيقولون: خيراً . وقيل : المراد «ولنعم دار المتّقين» المراد الدار الدنيا للمتّقين لأنّهم نالوا فيها الثواب الجزيل والجزاء الحسن .

وقيل : المعنى : و لنعم دار المتّقين [جنّات عدن يدخلونها] عدن دائم يدخلونها [تجري من] تحت الجنات [الأنهار لهم فيها ما يشاؤون] ويشتهون من النعم [كذلك يجازي الله] الّذين اتّقوا الشرك والمعاصي وهم [الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين] الأعمال صالحين طاهرين القلوب من دنس المعاصي طيّبة نفوسهم لعلمهم بما لهم عند الله من الثواب يقول الملائكة لهم : سلامة لكم من كلّ سوء [ادخلوا الجنّة] أي حصلت لكم الجنّة ، وقيل : إنّما يقولون ذلك عند خروجهم عن قبورهم .

قوله : [هل ينظرون] أي إنّ هؤلاء المكذّبين بنبوّتك ، ولايزجرون عن الكفر ولا يقبلون القرآن [إلّا] إذا جاءتهم [الملائكة] يشهدون على صدق نبوّتك أو يأتيهم عذاب الاستئصال [كذلك فعل] القوم [الّذين من قبلهم] بالأنبياء فأصابهم العذاب المعجّل .

[وما ظلمهم الله] ولكن هم ظلموا أنفسهم واستوجبوا ما نزل بهم [وأصابهم سيّئات] أعمالهم [وحاق] ونزل بهم على وجه الإحاطة بجوانبهم عقاب استهزائهم .

قوله تعالى : وقال الذين اشركوا لوشاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين (٣٥) و لقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله و منهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (٣٦) ان تحرص على هديهم فان الله لايهدى من يضل وما لهم من ناصرين (٣٧) .

[وقال الّذين أشركوا] مع الله إلهاً آخر [لوشاء الله] وأراد [ماعبدنا من دونه شيئاً] من الأصنام والأوثان [نحن ولا آباؤنا] الّذين اقتدينا بهم كما تقوله الجبريّة [ولاحرّمنا من دونه] من البحيرة والسائبة وغيرهما بل شاء منّا ذلك .

فأنكر الله سبحانه هذا القول عليهم وقال : [كذلك فعل الّذين من قبلهم] من الكفّار كذّبوا رسل الله وقالوا مثل قولهم وفعلوا مثل فعلهم [فهل على الرسل إلّا البلاغ] الظاهر ، وهذا الإنكار من الله ردّ صريح على مذهب الجبريّة حيث وبّخهم على هذا القول .

[ولقد بعثنا في كلّ] جماعة وقرن [رسولاً] كما بعثناك ليقول الرسول لهم [أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت] ويعني بالطاغوت الشيطان و كلّ داع إلى الضلالة [فمنهم من] هداه [الله] بأن لطف له بما علم أنّه يؤمن عنده فآمن فسمّي ذلك اللطف هداية ، ويجوز أن يريد: فمنهم من هداه الله إلى الجنّة بإيمانه . ولايجوز أن يكون المعنى [١] . ويريد بالهداية هنا نصب الأدلّة كما في قوله : «فأمّا ثمود فهديناهم [٢]» لأنّه سبحانه سوّى في ذلك بين المؤمن والكافر وسوّى التوفيق بين الضعيف والشريف .

---

(١) كذا في الاصل . (٢) حم السجدة : ١٧ .

قوله : [ومنهم من حقّت عليه الضلالة] أي ومنهم من أعرض عمّا دعا إليه الرسول فخذله الله فثبت عليه الضلالة ولزمته فلا يؤمن ووجبت عليه الضلالة وهي العذاب ، وقد سمّى الله العقاب ضلالاً بقوله : «إنّ المجرمين في ضلال وسعر»(١) قوله : [فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين] الّذين عاقبهم الله إن لم تصدّقوني وانظروا كيف صارت عاقبتهم .

[إن تحرص على هداهم] أي على أن يؤمنوا [فإنّ الله لا يهدي من يضلّ] هذا تسلية للنبيّ في دعائه لمن لا يفلح بالإجابة لانهماكه في الكفر . وفي هذا البيان إعلام للنبيّ بأنّهم لا يؤمنون أبداً وإذا كان الأمر كذلك فإنّ الله لا يهديهم بل يضلّهم على المعنى الّذي فسّرناه أي يعاقبهم ، وليس المراد ما فسّره أهل الجبر .

قوله : و اقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقا و لكن اكثر الناس لا يعلمون (٣٨) ليبين لهم الذى يختلفون فيه و ليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين (٣٩) انما قولنا اذا اردناه ان نقول له كن فيكون (٤٠) .

النزول : قالوا : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه فوقع في كلامه : والّذي أرجوه بعد الموت إنّه لكذا . فقال المشرك : وإنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت و أُقسم بالله «لا يبعث الله من يموت» فأنزل الله الآية ، عن أبي العالية . أي حلفوا بالله مجتهدين في أيمانهم وبلغوا في القسم كلّ مبلغ [لا يبعث الله من يموت] و لا يحشرهم يوم القيامة و لا يحيي من يموت بعد موته .

فكذّبهم الله بقوله : [بلى] يحشرهم الله وعدهم به وعليه سبحانه إنجازه وتحقيقه [حقّاً] ذلك الوعد ليس فيه خلف إذ لولا البعث لما حسن التكليف لأنّ التكليف إنّما يحسن لإثابة أو لعقوبة [ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون] صحّة ذلك ووجه الحكمة فيه ؛ لأنّ الله إنّما يحشر الخلائق [ليبيّن لهم] الحقّ فيما كانوا فيه يختلفون [و ليعلم الّذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين] في الدنيا .

---

(١) القمر : ٤٧ .

وإنّما أنكروا البعث بزعمهم يدّعون بالعلم الضروري بأنّ الشيء إذا فنى و صار عدماً محضاً ونفياً صرفاً فإنّه بعدالعدم لايعود بعينه بل العائد يكون شيئاً آخر ، والحال في أمر القدرة أنّ البنية ليست شرطاًفي الإيجاد وأنّه تعالى كونه موجداًللأشياء ومكوّناً لها لايتوقّف على سبق مادّة ولا مدّة ولاآلة وإنّمايكوّنها بمحض مشيئته وقدرته فقال : [إنّما قولنا لشيء اذا أردناه أن] يكون [نقول له كن فيكون] و لا يتعذّر عليه سبحانه شيء .

ولو قال قائل : إنّ قوله : «كن» إن كان خطاباً مع المعدوم فهو محال و إن كان خطاباً مع الموجود كان أمراً بتحصيل الحاصل .

فالجواب أنّ هذا تمثيل لنفي الكلام من تعقّلاتهم و ليس خطاباً للمعدوم لأنّ ما أراد الله كائن ، والغرض من الإيجادالإسراع بالإرادة كقوله : «وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر» (١) .

قوله تعالى : والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولاجر الاخرة اكبر لوكانوا يعلمون (٤١) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٤٢) ومارسلنا من قبلك الارجالانوحي اليهم فاسئلوااهل الذكران كنتم لاتعلمون (٤٣) بالبينات والزبر و انزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون (٤٤) .

نزلت الآية الاُولى في المعذّبين بمكّة مثل صهيب وعمّار وبلال وخباب وغيرهم مكّنهم الله بالمدينة ، وذكر أنّ صهيباً قال لأهل مكّة : أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم وإن كنت عليكم لم يضرّكم فخذوا مالي و دعوني فأعطاهم ماله و سار إلى رسول الله فقال له بعض أصحاب النبيّ : ربح البيع يا صهيب .

المعنى : [والّذين] فارقوا أوطانهم وديارهم فراراً بدينهم واتّباعاً لنبيّهم في سبيله [من بعدما] ظلمهم المشركون وعذّبهم الكافرون وبخسوا حقوقهم [لنبوّئنّهم] ولننزلنّهم بلدة [حسنه] بدل أوطانهم وهي المدينة أو لنعطينّهم حالة حسنة [ولأجر الآخرة أكبر] ممّا أعطيناهم في الدنيا.وهذا صهيب هوالّذي قال عمر في حقّه : نعم الرجل صهيب لولم يخف الله

---

(١) القمر : ٥٠ .

لم يعصه . وهو ثناء عظيم بريد : لولم يخلق الله النار لأطاعه وما خالفه. والضمير في قوله تعالى : «يعلمون» عائد إلى الكفّار أو المستضعفين أو المهاجرين .

قوله : [الّذين صبروا] بدل من قوله : «الّذين هاجروا» أي صبروا على الشدائد في طاعة الله وتوكّلوا في اُمورهم على الله .

[وما أرسلنا من قبلك] من الاُمم الماضية [إلّا رجالاً] من البشر ، وذلك أنّ مشركي قريش كانوا ينكرون أن يرسل إليهم بشر مثله فبيّن الله سبحانه أنّه لا يصلح من يكون رسولاً إلّا وأن يكون من جنسهم حتّى يخاطبهم ويخاطبونه ويباشرون ويعاشرون معه .

[فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون] وفي أهل الذكر أقوال :

احدها أنّ المقصود بأهل العلم العلماء بأخبار من مضى من الأمم سواءً كانوا مؤمنين أو كافرين ، وسمّي العلم ذكراً لأنّ الذكر هو ضدّ السهو فهو بمنزلة السبب المؤدّي إلى العلم فحسن أن يقع موقعه .

وثانيها أنّ المراد بأهل الذكر أهل الكتاب ويخاطب مشركي قريش وأنّهم كانوا يصدّقون أخبار اليهود والنصارى من كتبهم .

وثالثها أنّ المراد بأهل الذكر أهل القرآن لأنّ الذكر هو القرآن ، ويقرب منه ما رواه جابر ومحمّد بن مسلم عن أبي جعفر أنّه قال : نحن أهل الذكر ، وقد سمّى الله رسوله ذكراً في قوله : «ذكراً * رسولاً»[1] .

واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية فقالوا : المكلّف إذا نزلت به واقعة فإن كان عالماً بحكمها لم يجز له القياس وإن لم يكن عالماً بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالماً بها لظاهر هذه الآية ، ولو كان القياس حجّة لما وجب عليه سؤال العالم لأجل أنّه يمكنه استنباط الحكم بواسطة القياس فتجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر هذه الآية ، فوجب أن لا يجوز .

وأجاب مثبتو القياس كالرازيّ بأنّ جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة والإجماع أقوى .

---

(١) الطلاق : ١٠ .

قوله : [بالبيّنات والزبر] متعلّق بأرسلنا أي أرسلنا الرسل و أرسلناك بالبشرى والكتب ، أوأرسلناهم بالبيّنات والكتب [وأنزلنا إليك] القرآن [لتبيّن للناس مانزّل إليهم] من الأحكام و الدلائل على توحيدالله والشرائع [و لعلّهم يتفكّرون] بالنظر المؤدّي إلى المعرفة .

قوله تعالى : افامن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون (٤٥) اوياخذهم فى تقلبهم فماهم بمعجزين (٤٦) او ياخذهم على تخوف فان ربكم لرءوف رحيم (٤٧) اولم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين و الشمائل سجداً لله وهم داخرون (٤٨) ولله يسجد مافى السموات و مافى الارض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون (٤٩) يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون (٥٠) .

المكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء ، و التقدير في الآية : المكرات السيّئات . والمراد الّذين كانوا يسعون في إيذاء رسول الله ﷺ على سبيل الخفية فهدّدهم الله بأُمور أربعة :

الاول [أن يخسف الله بهم الأرض] كما خسف بقارون .

و الثاني أن [يأتيهم العذاب من حيث لا يعلمون] و يفجؤهم بغتة كمافعل بقوم لوط .

والثالث أن [يأخذهم في تقلّبهم] في أسفارهم و يهلكهم وهم لا يعجزون الله بسبب ضربهم في البلاد البعيدة بل يدركهم حيث كانوا أو يأخذهم بالليل والنهار في إقبالهم و إدبارهم و ذهابهم ومجيئهم .

و الرابع [أو يأخذهم على تخوّف] وقرىء بالحاء المهملة من الحافة إذا تنقّصته من حافاته . وقوله : «على تخوّف» أي يعذّب أهل قرية ويخوّف به أهل قرية اُخرى فيخافون أن ينزل بهم العذاب كما نزل بتلك أو بأن ينقص من أموالهم و أنفسهم بالبلايا و الأسقام إن لم يعذّبهم بعذاب الاستئصال . وإنّما أمهلكم لتتوبوا وترجعوا [فإنّ ربكم لرؤوف] بكم و[رحيم] عليكم .

قوله : [أولم يروا] وينظروا هؤلاء الكفّار الّذين جحدوا وحدانيّة الله و كذّبوا نبيّه[إلى ماخلق الله من شيء]له ظلّ من شجر وجبل و بناء وجسم فإنّ يتميّل [ظلاله عن] جانب [اليمين] وجانب اليسار كالشمس مثلاً إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة كان الظلال قدّامك و إذا ارتفعت الشمس كان الظلال عن يمينك فإذا كان بعد ذلك كان خلفك فإذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك فهذا تفيّؤ الشيء ، و معنى سجود الظلّ دورانه من جانب إلى جانب لا نقياده بالتسخير [وهم داخرون] ومسخّرون و ذليلون .

فإن قيل : الظلال ليست من العقلاء فكيف جازجمعها بالواو و النون ؟ لأنّه لمّا وصفهم بالانقياد والطاعة أشبهوا العقلاء .

والسجود على قسمين : سجود على سبيل الحقيقة كسجود المسلمين لله تعالى ، وسجود هؤلاء عبارة عن الانقياد ويرجع حاصل هذا السجود إلى أنّها تذلّ بانقيادها بأنّها ممكنة الوجود والعدم قابلة لهما وأنّه لا يترجّح أحد الطرفين إلّا لمرجّح .

وبالجملة فمن الناس من قال : المراد بالسجود المذكور في الآية السجود بمعنى الانقياد والتواضع والدليل عليه أنّ اللائق بالدابّة ليس إلّا هذا السجود . و منهم من قال : المراد بالسجود هو المعنى الحقيقي ، أويكون السجود في حقّ الملائكة والمسلمين على سبيل الحقيقة وفي الباقي بمعنى الانقياد الحقيقي ، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنّه قال : إنّ لله تعالى ملائكة في السماء السابعة سجوداً منذ خلقهم الله إلى يوم القيامة يرعد فرائصهم من مخافة الله لا تقطر من دموعهم قطرة إلّا صارت ملكاً فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم و قالوا : ماعبدناك حقّ عبادتك .

قوله تعالى : وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحدفاياى فارهبون (٥١) وله ما في السموات و الارض وله الدين و اصبا افغير الله تتقون (٥٢) وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذامسكم الضر فاليه تجأرون(٥٣) ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون (٥٤) ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون (٥٥) .

لمّا بيّن في الآية الأولى أنّ كلّ ماسوى الله سواء كان من عالم الأرواح أو من

عالم الأجسام منقاد خاضع لجلال الله أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك بقوله :

[لاتتّخذوا إلهين اثنين] أي لاتعبدوا مع الله إلهاً آخر فتشركوا بالعبادة بينهما و ذكر اثنين ـ كما يقال : فعلت ذلك الأمرين اثنين ـ للتأكيد [فإيّاي] فارهبوا عقابي وسطواتي ولا تخشوا غيري ، وهذا رجوع من الغيبة إلى الحضور للالتفات ، ويفيد الكلام الحصر لأنّ الموجود إمّا قديم وإمّا محدث فالقديم هو الإله فهو واحد فما سواه محدث ، وحدث بتخليق ذلك القديم وإذا كان كذلك فلا رغبة إلّا إليه ولا رهبة إلّا منه .

ثمّ قال : وبتخليقه خلقت السماوات والأرض وله الطاعة دائمة واجبة على الدوام أي إنّه يعبد دائماً وغيره إنّما يعبد في وقت دون وقت . وقيل : معنى « واصباً » أي خالصاً [أفغير الله] تخشون ؟ استفهام بمعنى التوبيخ أي كيف تعبدون غيره ولا تتّقونه ؟

[ومابكم من نعمة] ولكم من الصحّة والرزق فكلّ من جهة الله [ثمّ إذا مسّكم الضرّ] من المرض والبلاء وسوء الحال [فإليه] تتضرّعون وتستغيثون لصرفه [ثمّ إذا كشف الضرّ عنكم] ورفع ماحلّ بكم من الضرّ والشدّة عاد طائفة منكم إلى الشرك بربّهم في العبادة جهلاً منهم ، ويقابلون النعمة بالكفران ، وهذا عجب من فعل العاقل المميّز .

قوله : [ليكفروا بما آتيناهم] قيل : إنّ اللام للعاقبة أي آل أمرهم في مقابلة إنعامنا عليهم إلى الكفر . وقيل : اللام للأمر على وجه التهديد أي ليفعلوا ماشاؤوا فإنّ الله يجازيهم جزاءهم وتمتّعوا أيّها الكفّار في الدنيا قليلاً [فسوف تعلمون] مايحلّ بكم في العاقبة من العقاب وأليم العذاب .

قوله : ويجعلون لما لايعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون (٥٦) ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون (٥٧) واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم (٥٨) يتوارى من القوم من سوء مابشر به ايمسكه على هون ام يدسه فى التراب الاساء مايحكمون (٥٩) للذين لا يؤمنون بالاخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم (٦٠) .

ثمّ ذكر سبحانه فعلاً آخر من أفعال المشركين فقال : [ويجعلون] المشركون

[لما لايعلمون] ولا يفهمون ولا يضرّون ولا ينفعون [نصيباً] من أموالهم من الحرث والزرع وغيره بقولهم : هذا لله و هذا لشركائهم ، و ربّما اعتقدوا في بعض الأشياء أنّه إنّما حصل بإعانة بعض الأصنام كما أنّ المنجّمين يوزّعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة فيقولون بزعمهم : لزحل كذا من المعادن والنبات ، وللمشتري كذا ، فكذا ههنا .

فأقسم الله سبحانه بنفسه أنّه يسألهم ، وهذا تهديد شديد . قيل : هذا السؤال يقع عند الموت ومعاينة ملائكة العذاب . وقيل : عند عذاب القبر . وقيل : في الآخرة .

[و] من كلماتهم الفاسدة أنّهم [يجعلون لله البنات] وهم خزاعة و كنانة الّذين يقولون : الملائكة بنات الله . ويضيفون إليه ما يكرهونه ويجعلون لأنفسهم ما يحبّونه ويشتهونه لأنّهم كانوا يكرهون البنات ويحبّون البنين ، فنزّه نفسه عن هذه المقالة . وإنّما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لأنّهم لمّا كانوا مستورين عن العيون أشبهوا النساء في الاستتار ، كما أنّ قرص الشمس يجري مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر فأطلقوا عليه لفظ التأنيث .

قوله : [وإذا بشّر أحدهم] بأنّه قد ولد لهم بنت [ظلّ وجهه] أي صار وجهه متغيّراً إلى السواد لما يظهر فيه أثر الكراهة والكآبة وهو ممتلىء غيظاً و كراهة ، والكظيم المغموم الّذي يطبق فاه لايتكلّم من الغيظ والحزن ، مأخوذ ممّا يشدّ به فم القربة .

قوله : [يتوارى من القوم] أي يستخفي من القوم الّذين يستخبرونه عمّا ولد له استنكافاً منه وخجلاً وحياء [من سوء ما بشّر به] من الأنثى ، وقبحه عنده وبنظره يميل نفسه ويتدبّر في أمر البنت المولود له أيمسك المولود على ذلّ وتحمّل العار ؟ أم يخفيه في التراب ويدفنه حيّاً ؟ وهو الوئد الّذي كان من عادتهم دفنه [ألا ساء ما يحكمون] في ارتكاب هذا الأمر الشنيع وكانوا يفعلون هذا الفعل خوفاً من الفقر وخوفاً من لحوق العار .

وكان الرجل في الجاهليّة إذا ظهر آثار الطلق بامرأته اختفى من القوم إلى أن يعلم ما يولد له ، فإن كان ذكراً انبسط روح قلبه ووصل إلى الأطراف لاسيّما الوجه فأشرق الوجه وتلألأ واستنار وظهر الفرح في بشرته من تلك البشارة ، وإن كان أنثى احتبس الروح في

باطن القلب فاغبرّ واسودّ وجهه وبشرته و كمد .

وروي أنّ قيس بن عاصم قال : يا رسول‌الله إنّي وارت ثماني بنات في الجاهليّة ، فقال عليه السلام : أعتق عن كلّ واحدة منهنّ رقبة . وقال صلى الله عليه وآله : ما كان في الجاهليّة فقدهدمه الإسلام وماني الإسلام يهدمه الاستغفار . وكانوا مختلفين في قتل البنات : فمنهم من يحفر الحفيرة ويدفنها حيّاً فيها إلى أن تموت ، و منهم من يرميها من شاهق جبل ، و منهم من يغرقها ، ومنهم من يذبحها فبئس الحكم حكمهم .

ثمّ قال سبحانه : [للّذين لايؤمنون بالآخرة] أي إنّ لهؤلاء الكفّار الّذين وصفهم الله [مثل السوء] وهي الصفة القبيحة كسواد الوجه والحزن والجهل والاحتياج والخوف من الفقر [ولله المثل الأعلى] والصفة الحسنة من السلطنة والقدرة والاستغناء عن الولد والصاحبة .

فلو قيل : كيف يمكن الجمع بين قوله : « ولله المثل الأعلى » وقوله : « فلاتضربوا لله الأمثال » ؟[1]

الجواب أنّ المراد بالأمثال الأشباه أي لاتشبّهوا الله بشيء ، والمراد بالمثل الأعلى الوصف الأعلى وهو كونه قادراً عالماً حيّاً قيّوماً وأمثاله ، وهو الغالب المقتدر على حكمه .

قوله تعالى : ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى فاذاجاء اجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون (٦١) ويجعلون لله ما يكرهون وتصف السنتهم الكذب ان لهم الحسنى لاجرم ان لهم النار وانهم مفرطون (٦٢) تالله لقدارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم (٦٣) وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٦٤) والله انزل من السماء ماءآ فاحيابه الارض بعد موتها ان فى ذلك لاية لقوم يسمعون(٦٥) .

احتجّ الطاعنون بعصمة الأنبياء بقوله : [ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم] فأضاف الظلم إلى كلّ الناس ولاشكّ أنّ الظلم من المعاصي وهذا يقتضي كون كلّ إنسان آتياً بالذنب والمعصية .

(١) السورة : ٧٤ .

والجواب أنّه ثبت بالدليل والنصّ أنّ كلّ الناس ليسوا ظالمين لأنّه تعالى قال : « ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد ومنهم سابق »[1] ولو كان المقتصد والسابق ظالماً لفسد ذلك التقسيم ، فعلم أنّ المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين ، ولايجوز أن يقال : كلّ الخلق ظالمون .

وبالجملة المعنى : أخبر سبحانه أنّه لو كان يؤاخذ الكفّار والعصاة ويعاجلهم بالعقوبة لما ترك على ظهر الأرض من الظالمين من أحد ولكن يمهلهم ويؤخّرهم إلى وقت معلوم مسمّى وهو يوم القيامة أو وقت لايكون في بقائهم مصلحة كما إذا كان يعرف أنّهم لايؤمنون ولا يخرج من نسلهم مؤمن ، وإنّما يؤخّرهم تفضّلاً منه سبحانه ليراجعوا التوبة أو لما في ذلك من المصلحة .

قالت المعتزلة : إنّ الآية صريحة على أنّ الظلم والمعاصي ليست فعلاً لله بل يكون أفعال العباد لأنّه تعالى أضاف ظلم العباد إليهم وما أضافه إلى نفسه ؛ فلو كان خلقاً لله لكانت مؤاخذتهم لها ظلماً من الله تعالى ، ولمّا منع الله الظلم عن العباد فبأن يكون سبحانه منزّهاً عن الظلم أولى .

ويدلّ أيضاً دليل آخر على هذا المعنى وهو أنّ أعمالهم مؤثّرة في وجوب الثواب والعقاب .

وههنا مسألة : وهي أنّ الّذي معلوم من حاله أنّه لايؤمن فيما بعد هل يجوز اخترامه[2] أولا ؛ فقال بعض : يجوز لأنّ التكليف تفضّل فلاتجب التبقية ، وهو قول أبي هاشم وإليه ذهب المرتضى قدّس روحه. وقال آخرون : لايجوز اخترامه ويجب تبقيته، وهو قول البلخي وأبي علي الجبّائي وإليه ذهب الشيخ المفيد أبوعبدالله .

فلو قيل : إنّ الظالم يستحقّ العقوبة بظلمه فما بال الحيوانات تؤخذ بغير جرم كزمان نوح مثلاً ؟ لأنّ الظالم يظلم نفسه وغيره حتّى أنّ الحبارى تهلك في أوكارها بظلم الظالم .

فالجواب أنّه لها كالأمراض النازلة بالأولياء وغير المكلّفين فيعوّضون عنها، ثمّ إنّها

(١) فاطر : ٣٢ . (٢) الاخترام : الإهلاك .

خلقت للمكلّفين فإذا هلك المكلّف فلافائدة في بقائها بعدهم .

قوله تعالى : [فإذا جاء أجلهم] سبق معناه كراراً .

قوله : [ويجعلون لله مايكرهون] حكى عن الكفّار أنّهم يجعلون مايكرهون لأنفسهم لله أي البنات الّتي يكرهونها يصفون الله بذلك ويحكمون به له [وتصف ألسنتهم الكذب] وهو مايقولون : [أنّ لهم الحسنى] أي لهم البنون.وقيل : معناه أنّهم مع قبح قولهم يزعمون أنّهم فازوا برضوان الله بسبب هذا القول القبيح وأنّهم يعتقدون بأنّهم على الدين الحقّ والمذهب الحسن ويحكمون لأنفسهم بالجنّة و الثواب من الله .

فإن قيل : كيف يحكمون بهذا الحكم وهم كانوا منكرين للقيامة والحشر ؟

قلنا : كلّهم ماكانوا منكرين للقيامة وكان في العرب جمع يقرّون بالبعث ، و كذلك كانوا يربطون البعير النفيس والفرس الجواد على قبر الميّت ويتركونه إلى أن يموت ويقولون: إنّه يحشر فيكون معه مركوبه . وكان بعضهم يقول: إن كان محمّد صادقاً فيما يقول من أمر البعث والآخرة فنحن أهل الجنّة ، وهذا القول منهم كذب ألسنتهم .

وقرىء « الكذب » بضمّ الذال و الباء(١) على معنى الصفة للألسنة جمع كاذب .

فردّ سبحانه قولهم ، فقال : [لاجرم أنّ لهم النار] أي ليس الأمر على ما وصفوا و كسب فعلهم وقولهم حقّاً أنّ لهم النار أولابدّ أنّ لهم النار [وأنّهم مفرطون] قرىء بصيغة الفاعل أي إنّهم مفرطون على أنفسهم بالذنوب و الافتراء على الله ، أو المعنى أي صاروا ذوي فرط وسبقة وعجلة إلى النار ، كأنّهم أرسلوا من يهيّىء مواضع في النار . وأمّا بصيغة المفعول المعنى أنّهم متروكون في النار ؛ قال الكسائيّ : ما أفرطت أي ماتركت أو مفرطون أي معجّلون .

ثمّ أقسم سبحانه بأنّ هذا الصنع الّذي يصدر من مشركي قريش قد صدر عن سائر الأمم قبلك [فزيّن لهم الشيطان] تسويلاتهم وكفرهم [فهو] أي الشيطان [وليّهم اليوم] في الدنيا ويتّبعون إغواءه فأمّا يوم القيامة فيتبرّء بعضهم من بعض . وقيل : المراد باليوم يوم القيامة لشهرة ذلك اليوم [ولهم] أي التابع والمتبوع [عذاب أليم] موجع .

قالت المعتزلة : الآية تدلّ على فساد قول المجبّرة من وجوه :

(١) بضم الكاف والذال . ظ .

الاول : لولاكان خالق أعمالهم هوالله فلافائدة في التزيين .

والثاني أنّ ذلك التزيين لمّا كان بخلق الله لم يجزم الشيطان بسببه .

والثالث أنّ التزيين هو الّذي يدعو الإنسان إلى الفعل ، وإذا كان حصول الفعل فيه بخلق الله كان ضرورياً فلم يكن التزيين داعياً .

الرابع أنّ على قولهم ، الخالق لذلك العمل أجدر أن يكون وليّهم من الداعي لهم .

والخامس أنّه تعالى أضاف التزيين إلى الشيطان ، ولو كان ذلك المزيّن هوالله لكانت إضافته إلى الشيطان كذباً .

قوله : [وماأنزلنا عليك الكتاب] ثمّ بيّن أنّه ما أنزلنا عليك القرآن [إلّالتبيّن لهم] بواسطة بيانات هذا القرآن الأشياء الّتي اختلفوا فيها ، وما اختلفوا فيه هوالدين مثل التوحيد والشرك والطاعة والمعصية وإثبات المعاد ونفيه ومثل الأحكام من الواجب والحرام وغيره ، وأنزلناه [هدى ورحمة لقوم يؤمنون] .

ثمّ أخبر عن بعض نعمه فقال : [والله أنزل من السماء] غيثاً و مطراً فأحيا بذلك الماء الأرض بعد موتها أي أحياها بالنبات بعد جدوبها وقحطها ويبسها [إنّ في ذلك] الإنزال لحجّة وآية [لقوم يسمعون] الأدلّة بعين الإنصاف والتدبّر .

قوله تعالى : وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين(٦٦) ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان في ذلك لاية لقوم يعقلون(٦٧) واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لاية لقوم يتفكرون (٦٩) والله خلقكم ثم يتوفكم ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا ان الله عليم قدير (٧٠) .

اعلم أنّ المقصود الأعظم من القرآن العظيم الإلهيّات والنبوّات والمعاد والأحكام فلاجرم يذكر في الأدلّة نفي الإلهيّات بالأجرام الفلكيّة والإنسان والحيوان والنبات وعجائب الأرض والبحار وأمثالها فعطف هذه الآية على ماتقدّم فقال :

[وإنّ لكم في الأنعام] أي الأنعام الثلاثة من الإبل والبقر والغنم لعظة واعتباراً ودلالة على قدرة الله [نسقيكم ممّا في بطونه] أي من بعض ما في بطونه ، قال الكسائيّ : لفظ « الأنعام » مفرد ومعناه جمع كالرهط والقوم فيجوز أن يؤتى الضمير بالتذكير والتأنيث كما قال في سورة المؤمنين « في بطونها »(١) [من بين فرث ودم] قال ابن عبّاس : إذا استقرّ العلف في الكرش صار أسفله وثفله فرثاً أي سرجيناً وأعلاه دماً وأوسطه لبناً فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث وهو السرجين فذلك قوله : « من بين فرث ودم لبناً خالصاً » لا يشوبه الدم ولا الفرث [سائغاً] مريئاً في حلوقهم ، وإنّ من قدر على إخراج لبن أبيض من بين الفرث والدم من غير أن يختلط بهما قادر على إخراج الموتى من الأرض وأيضاً لكم طريق استدلال وعظة فيما أخرج لكم .

[ومن ثمرات النخيل والأعناب] ما [تتّخذون منه سكراً] وماء الموصولة مضمرة في الكلام كقوله سبحانه : « وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً (٢) » والتقدير : ما ثمّ رأيت نعيماً ، كذلك ههنا .

وفي تفسير السكر وجوه : الأوّل الخمر سمّيت بالمصدر من سكر سكراً و سكراً نحو رُشداً و رشَداً .

فإن قيل : الخمر محرّمة فكيف ذكرها الله في معرض الإنعام ؟ فأجابوا أنّ هذه السورة مكّيّة وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة فكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر .

وقيل : لا حاجة إلى إلزام النسخ لأنّه خاطب المشركين و عدّ أنعامه عليهم من الثمرات ، والخمر من أشربتهم فكانت نعمة عليهم .

وقيل : المراد بالسكر ما يشرب من أنواع الأشربة ممّا يحلّ والرزق الحسن ممّا يؤكل فالمعنى حينئذ : تتّخذون منها أصنافاً من الأشربة والأطعمة .

وقال ابن عبّاس : السكر ما حرّم من ثمرها والرزق الحسن ما أُحلّ من ثمرها وأنّه نبّه سبحانه في هذه الآية على تحريمها لأنّه ميّز بينهما وبين الرزق ، فوجب أنّ الرجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة وهذا إنّما يكون كذلك إذا كانت محرّمة .

---

(١) الآية : ٢١ . (٢) الدهر : ٢٠ .

قال الطبرسي : وقد أخطأ من تعلّق بهذه الآية في تحليل النبيذ لأنّه سبحانه إنّما أخبر أنّه خلق هذه الثمار لينتفعوا بها فاتّخذوا منها ماهو محرّم عليهم ، ولا فرق بين قوله هذا وبين قوله : « تتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم[١] » .

[إنّ في ذلك] وهذه الأحوال لا يقدر عليها إلّا إله ، فيحصل بالتفكّر فيها حجّة لمن تفكّر و تعقّل .

وههنا تحقيق وهو أنّه أنّ اللبن والدم يتولّدان في الكرش بمادّتهما ولذلك ماترى في كرشها دماً ولا لبناً ولكنّ الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك الغذاء إلى معدته إن كان إنساناً وإلى كرشه إن كان من الأنعام فإذا طبخ وحصل الهضم الأوّل فما كان صافياً انجذب إلى الكبد ، وماكان كثيفاً نزل إلى الأمعاء . ثمّ ذلك المجذوب منه في الكبد ينضج وينطبخ في الكبد ويصير دماً ، وذلك هو الهضم الثاني ، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائيّة . فماكان من الصفراء فيذهب إلى المرارة ، وماكان من السوداء فيذهب إلى الطحال ، وما كان من الماء فيذهب إلى الرئة والكلية ومنها إلى المثانة وما صفى من الدم فإنّه يدخل في الأوردة وهي العروق النابتة من الكبد و هناك يحصل الهضم الثالث ، وبين الكبد و الضرع عروق كثيرة فيصبّ الدم من تلك العروق إلى الضرع ، والضرع لحم غدديّ رخو أبيض فيقلّب الله الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الأبيض الغدديّ الرخو من صورة الدم إلى صورة اللبن .

فإن قيل : هذه المعاني حاصلة في الحيوان الذكر ، فلم لم يحصل منه اللبن ؟ لأنّ مزاج الذكر من كلّ حيوان يجب أن يكون حارّاً يابساً ومزاج الأنثى بارداً رطباً والحكمة فيه أنّ الأنثى لابدّ من مزيد الرطوبة ورطوبة كثيرة لتولّد الولد ولولا الرطوبة الكثيرة غالبة لما كان بدن الأمّ قابلاً لتمدّد الولد وماكان يحصل الاتّساع لأن يكبر الولد ، ثمّ إنّ الرطوبات تصير مادّة لنموّ بدن الجنين فحينئذ عند انفصال الجنين تنصبّ إلى الثدي والضرع لتصير مادّة لغذاء الطفل فالسبب الّذي لأجله يتولّد اللبن من الدم في الأنثى غير حاصل في الذكر فظهر الفرق . فالمراد من قوله : « من بين فرث ودم » يعني هذه الثلاثة

(١) السورة : ٩٢ .

تتولّد في موضع واحد وبداهة العقل يحكم بأنّ هذه الكيفيات المختلفة المتفاوتة المتضادّة ، لاتحصل إلّا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبّر الرحيم .

قوله : [وأوحى ربّك إلى النحل] أي ألهمها ، والوحي على وجوه : منها وحي النبوّة ، ومنها الإلهام كقوله : « وأوحينا إلى أمّ موسى » (١) ومنها الإشارة كقوله : « فأوحى إليهم أن سبّحوا » (٢) وأصل الوحي عند العرب أن يلقي الإنسان إلى صاحبه شيئاً بالإخفاء والاستتار . والمعنى : ألهم الله النحل اتّخاذ المنازل والمساكن والأوكار والبيوت في الجبال والشجر بيوتاً [وممّا يعرشون] ويسقفون من الكروم وأمثالها لأجل الخلايا الّتي تعسل فيها . وإنّما أتى بلفظ الأمر وإن كانت النحل ممّا لايعقل الأمر اتّساعاً .

قوله : [ثمّ كلي من كلّ الثمرات] فانظر أيّها الإنسان إلى هذه الدلائل كيف يهديك إلى معرفة الخالق ؟! لأنّه سبحانه بيّن إخراج الألبان من النعم بذلك الترتيب المذكور ، ثمّ إخراج السكر والرزق الحسن من الأثمار ، ثمّ إخراج العسل من هذا الحيوان الضعيف بهذا الترتيب الّذي ينبّه بأنّها تبني البيوت من أضلاع متساوية لايزيد بعضها على بعض ، والعقلاء من البشر لايمكنهم مثل تلك البيوت إلّا بآلات وأدوات كالمسطر والفرجار .

وقد ثبت في الهندسة أنّ تلك البيوت لو كانت مشكّلة بأشكال سوى المسدّسات فإنّه كان يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة ، فإهداء هذا الضعيف إلى هذه الحكمة الخفيّة ليس إلّا بإلهام الخالق الحكيم .

ثمّ إنّ النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقيّة وهو عظيم الجثّة ونافذ الحكم على البقيّة وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران ، وذلك من الأعاجيب ، ثمّ إنّها قد تنفر من وكرها وتذهب مع الجمعيّة إلى موضع آخر فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والآلات الموسيقيا وبواسطة تلك الألحان يقدرون على عودها ، وهذه حالة عجيبة فمعنى الوحي بالنسبة إلى الموحى إليه معنى خاصّ .

---

(١) القصص : ٧ . (٢) مريم : ١١ .

وإنّما سمّي هذا الحيوان نحلاً لأنّ الله سبحانه نحل الناس العسل الّذي يخرج منها ، والنحل يذكّر ويؤنّث ، وبلغة أهل الحجاز مؤنّثة وكذلك كلّ جمع ليس بينه و بين واحده إلّا الهاء .

وبالجملة قوله : « ثمّ كلي من كل الثمرات » اعلم أنّ الله تعالى دبّر هذا العالم على وجه لطيف كلّه ، مثلاً يحدث في الهواء أحياناً طلّ لطيف في الليالي ويقع ذلك الطلّ على أوراق الأشجار وأزهارها وتكون تلك الأجزاء الطلّيّة صغيرة متفرّقة على الأزهار والأوراق بحيث لا يرى ، وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة كالترنجبين والمنّ ، والقسم الأوّل من الطلّ فهو الّذي ألهم الله هذا النحل حتّى تلتقط تلك الذرّات غير المرئيّة في الأزهار بأفواهها وتأكلها وتغتذي بها فإذا شبعت التقطت مرّة أُخرى من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك مدّخرة لنفسها غذاءها فإذا اجتمعت المدّخرة فذاك هو العسل .

ومن الناس من يقول : إنّ النحل يأكل من تلك الأجزاء الطلّيّة من الأزهار والأوراق العطرة أشياء ثمّ إنّه تعالى يقلّب المأكول في داخل بدنها عسلاً ثمّ إنّها تقيء مرّة أُخرى فذاك هو العسل ، والقول الأوّل أقوى لأنّ طبيعة الترنجبين أقرب من العسل لأنّا نشاهد أنّ هذا النحل إنّما يتغذّى بالعسل ، ولذلك أنّا إذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقيّة من ذلك لأجل أن يتغذّى بها .

فقوله : « كلي » معناه ثمّ كلي من كلّ ثمرة تشتهينها من هذه الأجزاء الطلّيّة على الأزهار فإذا أكلتها فاسلكي في طريق الّذي ألهمك الله و ذلّل ذلك الطريق وسخّره لك .

وقيل : إنّ « ذللاً » حال عن النحل لا عن الطريق أي فاسلكي منقادة ومقهورة لأمر ربّك هذا ، وإنّ الله سبحانه جعل لنظم العالم لكلّ فئة وجماعة يعسوباً هو آمرها يقدّمها ويحامي عنها ويسوسها ، والجماعة تتبعه وتقتفي أثره ومتى فقدته انحلّ نظامها وتفرّقت شذرمذر ، وإلى هذا المعنى أشار علي عليه السلام وقال : أنا يعسوب المؤمنين .

ثمّ قال : [يخرج من بطونها] وهذا الكلام رجوع من الخطاب إلى الغيبة للالتفات

لأنّ الغرض من هذا البيان أن يحتجّ المكلّف به على قدرة الله وحسن تدبيره فكأنّه عدل عن خطاب النحل بما سبق ذكره وخاطب الإنسان أي إنّا ألهمنا النحل بذلك الترتيب لأجل أن يخرج من بطونها [شراب مختلف ألوانه] والمراد من بطونها أي من أفواهها وكلّ تجويف في داخل البدن فإنّه يسمّى بطناً ألاترى أنّهم يقولون : بطون الدماغ . هذا على معنى القسم الأوّل وعلى معنى القسم الثاني بكونها تقيء ، فالمعنى على سبيل الحقيقة وكونه شراب معلوم لأنّه تارة يشرب وحده وتارة يتّخذ منه الأشربة ، وكونه مختلف اللون منه أحمر وأصفر وأبيض .

والمقصود من هذا الكلام إبطال القول بالطبع لأنّ هذا الجسم مع كونه متساوي الطبيعة لمّا حدث على الألوان المختلفة دلّ على أنّ حدوث تلك الألوان بتدبير الفاعل المختار لا لأجل الطبيعة لأنّ الطبيعة الواحدة لاتختلف [1] .

قوله : [فيه شفاء للناس] وفيه قولان : الأوّل ـ وهو الصحيح ـ أنّه صفة للعسل ، فإن قيل : كيف يكون شفاء للناس وهو يضرّ بالصفراء ويهيّج المرار ؟ قلنا : إنّه لم يقل لكلّ الناس ولمّا كان شفاء للبعض صلح بأن يوصف . والقول الثاني أنّ الضمير عائد إلى القرآن وعلى هذا المعنى فقصّة النحل تمّت عند قوله : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه » ثمّ ابتدأ وقال : « فيه شفاء للناس » أي في هذا القرآن ماهو شفاء للناس من الكفر والبدعة .

ويؤيّد قول من قال : إنّ الضمير عائد إلى العسل ما روي عن أبي سعيد الخدريّ أنّه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال : إنّ أخي يشتكي بطنه فقال ﷺ : اسقه عسلاً . فذهب الرجل ورجع وقال : قد سقيته فلم يغن عنه شيئاً ، فقال ﷺ : اذهب واسقه عسلاً . فذهب فسقاه فكأنّما نشط من عقال فقال ﷺ : صدق الله وكذب بطن أخيك . وحملوا قوله ﷺ : على قوله تعالى : « فيه شفاء للناس » .

قوله : [إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكّرون] أي إنّ في تلك الدقائق والمعارف دلالات على وجود الواحد الأحد المدبّر للأمور لمن تفكّر واعتبر .

---

(١) اختلاف الالوان ناش عن صغر النحل و كبرها . والدليل على الله اظهر من ان تحتاج الى هذه التكلفات .

قوله : [والله خلقكم ثمّ يتوفّاكم ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً إنّ الله عليم قدير] أي أوجدكم وأنعم عليكم بضروب النعم الدينيّة والدنيويّة ، ثمّ يميتكم ويفنيكم ومنكم من يبقيه حتّى يصير إلى أدون العمر ويصل إلى حال الهرم والخرف فيظهر النقصان في جوارحه وحواسّه ،ورووا عن علي عليه السلام أنّ أرذل العمر خمس وسبعون سنة . وقيل : تسعون سنة .

قوله : « لكيلا يعلم بعد علم » أي ليرجع إلى حال الطفوليّة بنسيان ما كان يعلم لأجل الكبر فيصير كأنّه لا يعلم شيئاً ممّا كان علمه ، إنّ الله عليم بمصالح عباده قدير على تغيير أحوالهم .

و ههنا تحقيق شريف : وهو أنّ الطباعيّين قالوا : إنّ بدن الإنسان مخلوق من المنيّ ومن دم الطمث ، والمنيّ والدم جوهران رطبان حارّان والحرارة إذا عملت في الجسم الرطب قلّلت رطوبته وأفادته نوع يبس فلا يزال ما في هذين الجوهرين من قوّة الحرارة يقلّل ما فيه من الرطوبة حتّى تتصلّب الأعضاء فإذا تمّ تكوّن البدن وكمل بتفصّل الجنين .

ثمّ إنّ ما في البدن من الحرارة يعمل في الرطوبة ويقلّلها وتحصل للبدن ثلاثة أحوال :

الأولى أن تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته وحينئذ تكون الأعضاء قابلة للتمدّد والنماء والازدياد ، وذلك هو سنّ النشوء والنماء وذلك نهايته إلى ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة .

الحالة الثانية أن تصير رطوبات البدن أقلّ ما كانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزيّة إلّا أنّها لا يكون زائدة على قدر الرطوبة وهذا هو سنّ الوقوف وغايته خمس سنين ، وعند تمامه يتمّ الأربعون .

الحالة الثالثة أن تقلّ الرطوبات وتصير بحيث لا تكون وافية بحفظ الحرارة الغريزيّة وعند ذلك يظهر النقصان ، ثمّ هذا النقصان قد يكون خفيّاً وهو سنّ الكهولة ، وتمامه إلى ستّين سنة ، ثمّ يكون ظاهراً وهو سنّ الشيخوخية وتمامه إلى مائة وعشرين سنة . هذا تمام القول منهم .

قال الرازيّ : وهذا القول ضعيف جداً لأنّا نقول : إنّ الحرارة الغريزيّة في بدن الإنسان الكامل إمّا أن يكون هي عين ما كان حاصلاً في جوهر النطفة أوصارت أزيد ممّا كانت والأوّل باطل ، لأنّ الحارّ الغريزيّ الحاصل في جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ولاشكّ أنّ جرمها كان قليلاً صغيراً فهذا البدن بعد كبره لولم يحصل فيه من الحرارة الغريزيّة إلّا ذلك القدر كان في غاية القلّة ولم يظهر فيه أثر في هذا البدن أصلاً ، وأمّا الثاني بأنّ الحرارة الغريزيّة تتزايد بحسب تزايد الجثّة والبدن وإذا تزايدت الحرارة الغريزيّة ساعة فساعة وثبت أنّ تزايدها موجب تزايد القوّة والصحّة ساعة فساعة فوجب أن يبقى البدن الحيوانيّ أبداً في التزايد والتكامل ، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أنّ ازدياد حال البدن الحيوانيّ وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة بل بسبب الفاعل المختار .

قوله تعالى : والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت ايمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون (٧١) والله جعل لكم من أنفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون (٧٢) ويعبدون من دون الله مالايملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا ولا يستطيعون (٧٣) فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم وانتم لاتعلمون (٧٤) .

وهذا بيان آخر من أحوال الإنسان حال حياته وذلك أنّا نرى أكيس الناس وأكثرهم فهماً وعقلاً يفنى عمره في طلب القدر القليل من المال ولايتيسّر له ذلك ، ونرى أجهل الناس وأقلّهم عقلاً تنفتح عليه أبواب الدنيا ، وكلّ شيء خطر بباله فإنّه يحصل له في الحال ولوكان السبب جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أغنى وأفضل ، لكنّ الأمر ليس كذلك ؛ قال المتنبّي :

بالجدّ لابالمساعي يدرك الشرف ✻ تمشي الجدود بأقوام وإن قعدوا

وقال ابن الراونديّ :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ✻ وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

فلمّا رأينا أنّ الأعقل أقلّ نصيباً والأخسّ والأجهل أوفر نصيباً علمنا أنّ ذلك بقسمة القسّام كما قال سبحانه : «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا» .(١) قال الشافعيّ :

ومن الدليل على القضاء و كونه　※　بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وهذا التفاوت غير مختصّ بالمال بل في الذكاء والبلادة ، و الحسن والقبح ، والعقل والحمق ،و الصحّة والسقم ، وبالجملة توسّع سبحانه على بعض وقتر على بعض على حسب المصلحة .

قوله : [فما الّذين فضّلوا برادّي] أي بجاعلي [رزقهم] في المعنى قولان :

أحدهما أنّ الخلق لايشركون عبيدهم وأزواجهم في أموالهم حتّى يكونوا سواء ، ويرون ذلك نقصاً فلا يرضون لأنفسهم هذا الأمر فكيف يشركون عبدي ومخلوقي في ملكي وسلطاني ، و يوجّهون العبادة إليهم ؟ وكيف أنتم أيّها النصارى تشركون عيسى عبدي معي شريكاً في العبادة ؟ قيل : نزلت في نصارى نجران .

والمعنى الثاني أنّ الّذين فضّلهم الله في الرزق من الأحرار لايرزقون مماليكهم ، بل الله رازق المالك و المملوك ؛ لأنّ الّذي ينفقه المولى على المملوك إنّما ينفقه ممّا رزقه الله فالله رازقهم جميعاً .

[فهم فيه سواء] أي المالك والمملوك في ذلك الرزق . ولمّا كان المعطي لكلّ الخيرات والرزق هو الله فمن أثبت شريكاً لله فقد أضاف إليه بعض تلك الخيرات فكان جاحداً لكونها من عند الله كما أنّ أهل الطبائع وأهل النجوم يضيفون أكثر هذه النعم إلى الطبائع وإلى النجوم وهذا معنى [أفبنعمة الله يجحدون] .

قوله : [والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً] وهذا نوع آخر في تعداد نعم الله على عبيده ، المراد أنّه سبحانه خلق حوّاء ابتداءً ثمّ الحكم عامّ في جميع الذكور والإناث أي إنّه خلق النساء من أنفسكم وأصلكم وسنخكم ليتزوّج بهنّ الذكور ، ومن أنفسكم أي بعضكم من بعض .

قال الطبيعيّون : إنّ المني إذا انصبّ إلى الحصّة اليمنى من الذكر وانصبّ منها إلى الجانب الأيمن من الرحم كان النسل ذكراً تامّاً في الذكورة ، وإن انصبّ إلى الحصّة

(١) الزخرف : ٣٢ .

اليسرى من الرجل وانصبّ منها إلى الجانب الأيسر من الرحم، كان النسل أُنثى تامّاً في الأُنوثيّة، وإن انصبّ إلى الحصّة اليمنى، ثمّ انصبّ إلى جانب الأيسر من الرحم كان الولد ذكراً في طبيعة الإناث، وإن انصبّ إلى الحصّة اليسرى، ثمّ انصبّ منها إلى الجانب الأيمن من الرحم كان النسل أُنثى في طبيعة الذكور، وكلّها بتقدير العزيز العليم.

قوله: [وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة] والحفيد من يسرع في العمل بطاعتك والأعوان والخدام والمراد أنّه يحصل لكم من نسائكم لكم بنين وأعوان. وقيل: الحفيد قوم المرأة.

[ورزقكم من الطيّبات] من المطعومات اللذيذة سواء كانت من النبات أو من الحيوان، ومع ذلك يصدّقون الباطل أنّ لي شريكاً وصاحبة وولداً، ويكفرون بنعمة الله أي يحرّمون ما أحلّ الله ويحلّلون ما حرّم الله [ويعبدون] غير [الله ما لا يملك لهم] ولا يقدر على قليل ولا كثير [ولا يستطيعون] وذكر الجمع بالواو والنون، وهو مختصّ بأهل العلم لأنّه سبحانه عبّر على عقيدتهم كما أنّه سبحانه عبّر «بما» كما هو الحقيقة في نفس الأمر.

[فلا تجعلوا [لله] الأشباه والأمثال في العبادة [والله يعلم] ضرر عبادتكم للغير وإثبات الشريك [وأنتم لا تعلمون].

قوله تعالى: ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لايقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون (٧٥).

أكّد إبطال مذهب عبدة الأصنام بهذا المثل، المراد أنّا لو فرضنا [عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء] وفرضنا حرّاً كريماً غنيّاً كثير الإنفاق سرّاً وجهراً فصريح العقل يحكم بأنّه لا يجوز التسوية بينهما في الإجلال والتعظيم فلمّا لم يجز التسوية بينهما مع أنّهما مستويان في البشريّة فكيف يجوز للعاقل أن يسوّي بين الله القادر على الرزق والحياة وبين الأصنام الّتي لا تملك ولا تقدر؟ وقيل: إنّ هذا المثل للكافر والمؤمن لأنّ الكافر لا خير عنده والمؤمن يكسب الخير.

قوله: [ومن رزقناه] يريد حرّاً ملّكناه مالاً ونعمة [فهو ينفق] من ذلك المال [سرّاً

وجهراً]لايخاف من أحد ، وإنّما قيّد العبد بالمملوك احترازاً عن المكاتب ، أوالمرادعباد الله لأنّهم أيضاً عبيد .

واحتجّ الفقهاء بهذه الآية على أنّ العبد لايملك شيئاً ، فإن قيل : ظاهر الآية تدلّ على أنّ عبداًمن العبيدلايقدرعلى شيء ، فلمَ قلتم : كلّ عبد كذلك ؟ لأنّه ثبت في أُصول الفقة أنّ الحكم المذكور عقيب الوصف المناسب مشعر بالعلّيّة لذلك الحكم فكونه عبداً وصف مشعر بالمقهوريّة والذلّة .

وقوله : « لايقدرعلى شيء » حكم مذكور عقيبه؛فهذا يقتضي أنّ العلّة ـلعدم القدرة على شيء ـ كونه موصوفاً بالعبديّة فثبت العموم .

وههنا دليل آخر وهوأنّه تعالى قال بعده : «ومن رزقناه منّا رزقاً حسناً » فميّز هذا القسم الثاني عن القسم الأوّل وهو العبد بهذه الصفة فوجب أن لايحصل هذا الوصف للعبد حتّى يحصل الفرق بين القسم الثاني و القسم الأوّل ، ولو ملك العبد لكان الله قد ملّكه رزقاً حسناً .

ثمّ قال : [هل يستوون] على سبيل الإنكار أي لايستوون .

قوله : [الحمدلله] المعنى : حقيقة الحمدلله ، وليس الحمد للأصنام . أوقل يامحمّد : الحمد لله . ولكن مع هذه البيانات [أكثرهم] لايفهمون .

قوله : وضرب الله مثلارجلين احدهما ابكم لايقدر على شيء وهو كل على موله اينما يوجهه لايأت بخير هل يستوى هو ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم(٧٦) ولله غيب السموات والارض وما امر الساعة الا كلمح البصر أوهو أقرب ان الله على كل شيء قدير (٧٧) .

ثمّ[ضرب]سبحانه [مثلاً] آخرلإبطال عبدة الأصنام وهوأنّ الأبكم العاجز العيّ المعجم المقطوع اللسان ، أو معنى « الأبكم » المطبق الّذي لا يسمع ولايبصر مع أنّه غير قادر على أمر من الأُمور حقيراً كان الأمر أو جليلاً ، الصفة الثانية [وهو كلّ] وثقيل على مولاه .

الصفة الثالثة[أينما]يرسل [مولاه] لأمر يرجع خائباً[هل يستوي]مثل هذا الرجل مع

رجل فصيح [يأمر بالعدل] والحقّ ويدعو إلى الخير والرشد [وهو على صراط] و دين قويم لا يستوون البتّة .

وحاصل المعنى أنّ الأبكم العاجز إذا لايكون مساوياً في الفضل مع الناطق الكامل مع استوائهم في البشريّة فلأن يحكم بأنّ الجماد لايكون مساوياً لربّ العالمين في المعبوديّة كان أولى .

قوله : [ولله غيب السماوات] ولمّا مثّل المؤمن بالّذي يأمر بالعدل ، والكافر بالأبكم وصف نفسه سبحانه أنّه المختصّ بعلم الغيب وهو ماغاب عن جميع الخلائق . ثمّ قال بعد ذكر العلم ذكر القدرة : وما أمرنا في الساعة إلّا كطرف العين أو كردّ البصر ولا يقتدر عليه شيء . قيل : معنى «أو» بل هو في الأمر أقرب من ذلك ؛ لأنّ الله على كلّ شيء قدير .

قوله تعالى : والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون (٧٨) الم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن الا الله ان فى ذلك لايات لقوم يؤمنون (٧٩) والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها واوبارها وأشعارها اثاثاً ومتاعاً الى حين (٨٠) .

المعنى : ثمّ عدّد نعماً بقوله تعالى : [والله أخرجكم من بطون اُمّهاتكم] منعماً عليكم بذلك وأنتم [لاتعلمون شيئاً] من منافعكم ومضارّكم ، وتفضّل عليكم بالحواسّ الصحيحة الّتي هي طرق المدركات ، وأنعم عليكم بالقلوب الّتي تفقهون بها الأشياء لتعقلوا عظمة الله .

والأفئدة جمع فؤاد نحو أغربة و غراب ولم يجمع فؤاد على أكثر العدد و إنّما جمع على القلّة لأنّ السمع والبصر كثيران وإنّ الفؤاد قليل ؛ لأنّ الفؤاد خلق للمعارف الإلهيّة وأكثر الخلق ليسوا كذلك بل مشغولون بالأفعال البهيميّة والصفات السبعيّة فكأنّ فؤادهم ليس بفؤاد ولهذا أتى بجمع القلّة .

قوله : [لعلّكم تشكرون] أي لكي تشكروه وتحمدوه .

قوله : [ألم يروا] وقرىء بالتاء ، ألم يتفكّروا وينظروا [إلى الطير] مذلّلات للطيران من غير أن يعتمد على شيء [ما يمسكهنّ إلّا الله]من السقوط على الأرض من الهواء فيمسك الهواء تحت الطير حتّى لا تقع كإمساك السابح في الماء حتّى لا ينزل فيه فخلق الطير خلقة معها يمكنه الطيران وأعطاه جناحاً يبسطه مرّة ويكسره مرّة مثل ما يسبح السابح في الماء ، وخلق الهواء خلقة لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقه والنفاذ فيه ، وجسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه في الجوّ معلّقاً من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه فحينئذ الممسك هو الله .

[إنّ في ذلك] لدلالات للمؤمنين لأنّهم المنتفعون به .

ثمّ عدّد نعمة أخرى بقوله : [والله جعل لكم من بيوتكم سكناً] أي موضعاً تسكنون فيه ممّا تتّخذون من الحجر والمدر والخشب والآلات وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله بل الإنسان ينتقل إليه ، والقسم الثاني القباب والخيام والفساطيط وإليها الإشارة بقوله : [وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفّونها يوم] حركتكم [ويوم إقامتكم]ويمكن نقله وتحويله من مكان إلى مكان وكانت العرب تعمل البيوت من الأدم والشعر [ومن أصوافها] والصوف الغليظ منها والوبر اللطيف منها للأكسية والشعر منها للجول وأثاث البيت أو الصوف من الضأن ، والوبر من الإبل ، والشعر من المعزى ، والمتاع ما يفرش ويزيّن به في البيت إلى زمان .

قوله تعالى : والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون (٨١) فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين (٨٢) يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون (٨٣) .

ثمّ عدّد نعماً أخر أضافها إلى ما عدّده فقال : [والله جعل لكم ممّا خلق] من الأشجار والأبنية أشياءً تستظلّون بها في الحرّ والبرد [وجعل لكم أكناناً] أي مواضع تسكنون بها من كهوف وثقوب و تأوون إليها .

[وجعل لكم سرابيل] أي ماتلبسونه من قميص و كساء من القطن والكتّان و غيرهما [تقيكم الحرّ] ولم يقل : وتقيكم البرد لأنّ مايقي الحرّ من شأنه أن يقي البرد و الّذين خوطبوا بذلك أهل حرّ في بلادهم فحاجتهم إلى وقاية الحرّ أكثر وذكر أحد الضدّين تنبيه على الآخر ؛ لأنّ العلم بأحد الضدّين يستلزم العلم بالضدّ الآخر ؛ لأنّ الإنسان متى خطر بباله الحرّ خطر بباله البرد [وسرابيل تقيكم] شدّة الطعن والضرب ويدفع عنكم سلاح أعدائكم يوم البأس والشدّة .

[كذلك يتمّ نعمته عليكم] أي مثل ماجعل لكم هذه الأشياء وأنعمها عليكم . [لعلّكم] ياأهل مكّة تعلمون وتدبّرون أنّ أحداً لايقدر على هذا غيره فتوحّدوه وتصدّقوا رسله .

[فإن تولّوا] وأعرضوا عن الإيمان والتصديق بك يا محمّد [فإنّما عليك] التبليغ والبلاغ اسم والتبليغ المصدر مثل الكلام والتكليم .

ثمّ أخبر سبحانه عن الكفار أنّهم [يعرفون نعمة الله ثمّ ينكرونها] أي يعرفون نعم الله عليهم بما يجدونه من خلق نفوسهم وإكمال عقولهم وخلق المنافع الّتي ينتفعون بها ، ومع ذلك ينكرون أنّها من جهة الله خاصّة بل يضيفونها إلى أوثان ويشكرون ويشركون الأوثان عليها ويقولون : رزقنا بشفاعة آلهتنا .

وقيل : المعنى أنّهم يعرفون محمّداً أنّه من نعم الله لهم ثمّ يكذّبونه ويجحدون نبوّته [وأكثرهم الكافرون] لأنّ منهم من لم تقم الحجّة عليه إذ لم يبلغ حدّ التكليف لصغره ، أو كان ناقص العقل أو لم تبلغه الدعوة فلايقع عليه اسم الكفر أو لأنّه علم سبحانه أنّ فيهم من يؤمن ويصدّق نبوّته . وقيل : إنّه من الخاصّ في الصيغة والعامّ في المعنى وأراد جميعهم الكافرون .

قوله تعالى : ويوم نبعث من كل امة شهيدا ثم لايؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون (٨٤)واذارای الذين ظلموا العذاب فلايخفف عنهم ولاهم ينظرون (٨٥) .

لمّا بيّن حال منكري النعمة وكفرهم عقّبه بوعيدهم فقال : واذكر يا محمّد حين

[نبعث من كلّ أُمّة شهيداً] وهم الأنبياء والعدول من كلّ عصر يشهدون على الناس بأعمالهم ، قال الصادق عليه السلام : لكلّ زمان وأُمّة إمام ، تبعث كلّ أُمّة بإمامهم . وفائدة الشهادة مع علم الله بذلك أنّ ذلك أهول للنفس و أعظم للعذاب و الخزي و الفضيحة بحضرة الملأ مع جلالة الشهود ولأنّ الناس إذا علموا أنّ العدول يشهدون عند الله بين يدي الخلائق فإنّ ذلك يكون زجراً لهم عن المعاصي .

[ثمّ لايؤذن] للكفّار بالكلام والاعتذار ولايسمع لهم العذر ولايسمع لهم [ولا هم يستعتبون] أي لاعتاب هناك لهم لأنّه إنّما يقع العتاب إذا كان الأمر على طريق أنّه إذا عاتبه رجع إلى الرضا . وهذا دليل على أنّه سبحانه راسخ في غضبه وسطوته .

[و إذا رأى الّذين ظلموا] أنفسهم بالكفر والعذاب ، و وصلوا إليه فعند ذلك لا [يخفّف عنهم] وهم لايمهلون وتحقيقه مايقوله المتكلّمون من أنّ العذاب يجب أن يكون خالصاً عن شوائب النفع .

قوله : واذا رءا الذين اشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فالقوا اليهم القول انكم لكاذبون (٨٦) والقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ماكانوا يفترون (٨٧) الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بماكانوا يفسدون (٨٨) ويوم نبعث في كل امة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٨٩) ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون (٩٠) .

المعنى أنّه تعالى يبعث الأصنام الّتي كان يعبدها المشركون ، والمقصود من إعادتها أنّ المشركين يشاهدونها في غاية الذلّة والحقارة ، و كلّ ذلك ممّا يوجب زيادة الغمّ و الحسرة و تكميل العذاب لهم و إنّما وصفهم بالشركاء لأنّهم جعلوها شركاء في العبادة مع الله ، وجعلوا لها نصيباً من أموالهم فحكى الله عن المشركين أنّهم إذا رأوا تلك الشركاء . [قالوا ربّنا هؤلاء شركاؤنا الّذين كنّا ندعو من دونك] والمقصود من هذا القول من المشركين إحالة هذا الذنب على الأصنام وظنّوا أنّ هذا القول ينجيهم من عذاب الله

أو ينقص من عذابهم فعند ذلك تكذّبهم الأصنام .

[فألقوا إليهم القول إنّكم لكاذبون] يعني أنّ الله يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الأصنام حتّى تقول هذا القول ، و يقولون للمشركين : إنّا ما أمرناكم بعبادتنا ولكنّكم اخترتم الضلال لأنفسكم وأنّكم لكاذبون في قولكم : إنّا آلهة .

وقوله : [وألقوا إلى الله يومئذ السلم] يعني استسلم المشركون وماعبدوهم من دون الله لأمر الله في ذلك اليوم ، وانقادوا لحكمه قسراً لااختياراً واعترفوا بماينكرونه من توحيد الله ، و بطل ما كانوا يأملونه ويتمنّونه من الأمانيّ الكاذبة من أنّ آلهتهم تشفع لهم .

قوله : [الّذين كفروا] وأعرضوا غيرهم عن اتّباع الحقّ أوالمراد صدّوا المسلمين عن البيت الحرام [زدناهم عذاباً فوق العذاب] على صدّهم عن دين الله زيادة على كفرهم . قيل : زدناهم الأفاعي والعقارب في النار لها أنياب كالنخل الطوال ، عن ابن مسعود . وقيل : هي أنهار من صفر مذاب كالنار يعذّبون بها أوزيدوا على عذاب الكفر حيّات كأمثال الفيلة والبخت وعقارب كالبغال الدلم تلسع إحداهنّ فيجد صاحبها سمّها أربعين خريفاً . وقيل : يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدّة عذاب البرد إلى النار بصدّهم عن دين الله .

[ويوم نبعث في كلّ أمّة شهيداً عليهم من أنفسهم] أي من أمثالهم من البشر ويجوز أن يكون ذلك الشهيد نبيّهم الّذي أرسل إليهم ويمكن أن يكون المؤمنون يشهدون عليهم بما فعلوه من المعاصي [وجئنابك] يا محمّد [شهيداً على هؤلاء] أي قومك وأمّتك وتمّ الكلام .

ثمّ قال : [ونزّلنا عليك الكتاب] يعني القرآن بياناً لكلّ أمر مشكل و كلّ مايحتاجون إليه فإنّه ما من شيء يحتاج الخلق إليه في أمر دينهم إلّاوهو بيّن في الكتاب إمّا بالتنصيص عليه أو من بيان النبيّ الّذي يستنبطه منه ويستنبطه الحجج القائمون

مقامه بنصه [وهدى ورحمة] أي القرآن هدى ورحمة وبشارة لهم بالنعيم المقيم .

[إنّ الله يأمر بالعدل] وهو الإنصاف بين الخلق الّذي ليس فيه ميل ولا اعوجاج وقوله : [الإحسان] أي الإحسان إلى الناس والتفضّل والبذل في السعي الجميل لأُمورهم . وقيل : المراد من العدل التوحيد ومن الإحسان أداء الفرائض . وقيل : العدل في الأفعال والإحسان في الأقوال . و يأمركم بإعطاء الأقارب حقّهم و صلتهم ، وقيل : المراد بذي القربى قرابة النبيّ صلى الله عليه وسلم الّذين أرادهم الله بقوله : « فإنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى »[1] وهو المرويّ عن أبي جعفر قال عليه السلام : نحن هم .

وهذه الآية وهي « أنّ الله يأمر ، إلخ» أجمع آية في القرآن من الفرائض والسنن و مكارم الأخلاق .

روي عن ابن عبّاس أنّ عثمان بن مظعون الجمحيّ قال : ما أسلمت أوّلاً إلّا حياءً من محمّد صلى الله عليه وسلم ، و لم يتقرّر الإسلام في قلبي فحضرته ذات يوم ، فبينما هو يحدّثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء ، ثمّ خفضه عن يمينه ، ثمّ عاد لمثل ذلك ؛ فسألته فقال : بينما أنا أُحدّثك إذاً بجبرئيل نزل عن يميني فقال : يا محمّد إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان العدل شهادة أن لا إله إلّا الله والإحسان القيام بالفرائض وإيتاء ذي القربى أي صلة ذي القربى [و ينهى عن الفحشاء] الزنى [والمنكر] ما لا يعرف في شريعة ولا سنّة [والبغي] الاستطالة قال عثمان : فوقع في قلبي الإسلام .

وعن ابن مسعود هي أجمع آية في القرآن ، وليس من خلق سيّىء إلّا نهى الله عنه في هذه الآية وليس من خلق حسن كان يعمل ويستحبّ إلّا أمر الله به في هذه الآية .

وقال القاضي في تفسيره ، عن ابن ماجة عن عليّ عليه السلام أنّه قال : أمر الله نبيّه أن يعرض نفسه على قبائل العرب فخرج صلى الله عليه وسلم وأنا معه وأبو بكر فوقفنا على مجلس عليهم الوقار فقال أبو بكر : ممّن القوم ؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فدعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه ، فإنّ قريش كذّبوه ، فقال يقرون بن عمرو الشيبانيّ إلى م تدعونا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان ، إلخ » فقال يقرون بن

عمرو : دعوت والله إلى مكارم الإخلاق و محاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذّبوك وظاهروا عليك .

وعن عكرمة أنّه ﷺ تلا هذه الآية على الوليد بن مغيرة فاستعاده ، ثمّ قال : وإنّ عليه لطلاوة وأنّ له لحلاوة .

وعن النبيّ ﷺ أنّه كتب الإحسان على كلّ شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته .

وقيل : معنى قوله تعالى : « وينهى عن الفحشاء » كلّ الذنوب سواءً كانت صغيرة أو كبيرة وسواءً كانت في القول أو في الفعل . وقيل في المنكر : إنّه الكفر . وقيل في البغي : البغي مطلق الظلم .

واعلم أنّ الله لمّا أمرك بالعدل فهو أحقّ بالعدل وأن لايظلم أحداً بل يتفضّل .

قوله تعالى : واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ماتفعلون (٩١) و لاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون امة هى اربى من امة انما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيمة ماكنتم فيه تختلفون (٩٢) ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عماكنتم تعملون (٩٣) ولاتتخذوا ايمانكم دخلابينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم (٩٤) .

المعنى : لمّا أمر الله سبحانه بالعدل والإحسان ونهى عن المنكر والعدوان أمر في هذه الآية الأمر بالوفاء بالعهد والنهي عن نقض الإيمان فقال : [وأوفوا بعهدالله إذا عاهدتم] قال ابن عبّاس : الوعد من العهد . وقال المفسّرون : العهد الّذي يجب الوفاء به والوعد هو الّذي يحسن فعله وإذا عاهد الله ليفعلنّه فإنّه يصير واجباً عليه .

[ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها] هذا نهي عن حنث الأيمان وحنث الأيمان هو أن ينقضها بمخالفة موجبها وارتكاب مايخالف عقدها . والمراد بقوله : « بعد توكيدها »

أي بعد عقدها وإبرامها وتوثيقها باسم الله وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين بخلاف لغو اليمين .

قوله : [وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً] أي جعلتم الله حسيباً فيما عاهدتموه عليه وذلك أنّ من حلف بالله فكأنّه أكفل الله بالوفاء بما حلف [إنّ الله يعلم ماتفعلون] من نقض العهد والوفاء به .

وهذه الآية نزلت في الّذين بايعوا النبيّ على الإسلام فقال سبحانه للمسلمين الّذين بايعوه : لايحملنّكم قلّة المسلمين و كثرة المشركين على نقض البيعة أي أثبتوا على ماعهدتم عليه الرسول صلى الله عليه وآله . وقيل : نزلت في قوم حالفوا قوماً فجاءهم قوم آخر وقالوا : نحن أكثر عدداً وأقوى ، فنقضوا ذلك العهد .

قوله : [ولا تكونوا كالّتي نقضت غزلها] أي لا تكونوا كالمرأة الّتي غزلت ثمّ نقضت غزلها [من بعد] فتلها وإصراراً وإبراماً . وهي امرأة حمقاء مشهورة بالحمق كانت تغزل مع جواريها إلى انتصاف النهار ، ثمّ تأمرهنّ أن ينقضن ماغزلن ولا يزال دأبها ، واسمها ربطة بنت عمر بن كعب ، وكانت تسمّى خرقاء مكّة . و [أنكاثاً] أي جعلت غزلها أنكاثاً وأقطاعاً وأجزاءً أي ردّت المغزولة بعد الغزل بحالة الصوفيّة و « أنكاثاً » إمّا مفعول ثان لنقضت أوحال .

وقوله [تتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم] أي تجعلون يمينكم خيانة ومكراً لأنّهم كانوا حين يعاهدون ويحلفون يضمرون الخيانة والناس يسكنون إلى عهدهم .

وقوله : [أن تكون اُمّة هي أربى من اُمّة] أي لاتنقضوا العهد بسبب أن تكونوا أعلى وأقوى وأكثر من قوم ، أي لاتجعلوا أيمانكم سبباً لخديعة ومكر في اُموركم لمداراة مقاصدكم بل عليكم الوفاء بالعهد واليمين [وإنّما] يختبركم [الله] بالأمر بالوفاء . والهاء في « به » على الأمر بالوفاء وهذا الاختبار ليقع الجزاء بحسب العمل . وليفصّلنّ [لكم يوم القيامة ما كنتم] في صحّته [تختلفون] .

[ولو شاء الله لجعلكم] كلّكم مهتدين ، ويعني بالمشيئة القدرة على سبيل الإلجاء [ولكن يضلّ من يشاء] بالخذلان وبالحكم على الضلال بسبب سوء اختيارهم واستحقاقهم

[ويهدي من يشاء] بالتوفيق والحكم عليه بالهداية بسبب الإطاعة والاستحقاق ؛ والدليل على أنّ المراد من المشيئة الإلجاء أنّه تعالى قال : بعده [لتسألنّ عمّا كنتم تعملون] ولو كانت أعمال العباد بخلق الله لكان سؤا لهم عنها عبثاً .

قوله : [ولاتتّخذوا أيمانكم دخلاً] نهى سبحانه عن إضمار الخلف والحنث في العهد واليمين فتضلّوا عن الرشد بعد أن كنتم على هدى من الإيمان [وتذوقوا] العذاب بما منعتم الناس عن دين الله .

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : نزلت هذه الآية في ولاية علي عليه السلام ، وماكان من قول رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال : صلى الله عليه وآله سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين . وروي عن سلمان أنّه قال : تهلك هذه الأمّة بنقض مواثيقها .

ثمّ أكد هذا التحذير بقوله تعالى :

ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا انما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون (٩٥) ماعندكم ينفدوما عندالله باق ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ماكانوا يعملون (٩٦) من عمل صالحاًمن ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حيوة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ماكانوايعملون(٩٧) فاذا قرأت القران فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٩٨) انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٩٩) انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (١٠٠) .

النزول : قال ابن عبّاس : إنّ رجلاً من حضر موت يقال له : «عبدان الأسوع» قال : يا رسول الله إنّ امرأ القيس الكنديّ جاورني في أرضي فاقتطع من أرضي فذهب بها منّي والقوم يعلمون أنّي لصادق ولكنّه أكرم عليهم منّي ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله امرأ القيس عنه فقال : لاأدري مايقول . فأمره أن يحلف فقال عبدان : إنّه لفاجر لايبالي أن يحلف . فقال : إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه ، فلمّا قام يحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله تعالى : « ولاتشتروا بعهد الله ، الآيتان» فلمّا قرأهما رسول الله صلى الله عليه وآله قال امرأ القيس : أمّا ماعندي فينفد وهو صادق فيما يقول ، لقد اقتطعت أرضه ولم أدر كم هي ، فليأخذ من

أرضي ماشاء ومثلها معها بما أكلت من ثمرها ، فنزل فيه : «من عمل صالحاً» .

المعنى : [ولاتشتروا] أي لاتخالفوا عهد الله بسبب شيء يسير تنالوه من حطام الدنيا فتكونوا قد بعتم عظيم ما عندالله بالشيء الحقير ، إنّ الّذي عند الله من الثواب على الوفاء بالعهد [خير لكم] وأشرف ممّا تأخذونه من عرض الدنيا فإنّ القليل الّذي يبقى خير من الكثير الّذي يفنى ، فكيف بالكثير الّذي يبقى في مقابلة القليل الّذي يفنى ؟ [إن كنتم تعلمون] وتميـّزون بين الخير والشرّ [ماعندكم ينفد] ويفنى [وماعندالله باقولنجزينّ الّذين صبروا] على الطاعات [أجرهم] وثوابهم .

وإنّما قيّد سبحانه بقوله : [بأحسن ماكانوا يعملون] لأنّ الجزاء يترتّب بالطاعات من الواجبة والمندوبة وأمّا المباحة لاتقع عليه الجزاء ولذا قال : «بأحسن ماكانوا يعملون» .

وقوله : [من عمل صالحاً من ذكر وأُنثى] سواءً كان العامل ذكراً أو أُنثى .

فإن قيل : إنّ لفظة «من عمل صالحاً» تفيد العموم فما الفائدة في ذكر الذكر والأُنثى ؟

الجواب أنّ الآية في الوعد للخيرات والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة ، وإثباتاً للتأكيد ودفعاً لإزالة وهم التخصيص .

وقوله : [وهو مؤمن] يفيد أنّ العمل الصالح يفيد الأثر بشرط الإيمان ، وظاهر قوله : «فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره[1]» يفيد العموم ويدلّ على أنّ العمل الصالح يفيد الأثر ، سواءً كان مع الإيمان أومع عدم الإيمان .

فالجواب أنّ إفادة العمل الصالح للحياة الطيّبة الباقية الدائمة مشروطة بالإيمان ، وأمّا الجزاء المنقطع أوتخفيف العذاب وأمثاله ، فيقع أيضاً للكافر والمؤمن .

[فلنحيينّه حياة طيّبة] قيل : المراد الرزق الحلال . وقيل : القناعة والرضا بما قسم الله . وقيل : إنّها الجنّة لأنّه لايطيب لأحد حياة إلّا في الجنّة وقيل : رزق يوم بيوم وقيل : حياة طيّبة في القبر .

قوله : [فإذا قرأت القرآن] أي إذا أردت يامحمّد أن تقرأ القرآن [فاستعذ بالله]

(١) الزلزلة : ٧ .

[من] شرّ [الشيطان] المرجوم المطرود . والاستعاذة استدفاع الأدنى بالأعلى على وجه الخضوع والتذلّل وتأويله : استعذ بالله من وسوسه الشيطان عند قراءتك لتسلم عند قراءتك من الزلل والخلل والوسواس.

[إنّه ليس له سلطان] يعني أنّ الشيطان ليس له قدرة قاهرة [على الّذين آمنوا] بالله والمتوكّل عليه ، أي لا يقدر على أن يكرههم على المعاصي [إنّما] سلطته [على الّذين] يطيعونه ويقبلون دعاءه ويتّبعون إغواءه [والّذين هم] بسبب طاعة الشيطان [مشركون بالله] ويشاركون غير الله مع الله في العبادة . وإنّما خصّ القرآن لأنّ القرآن هو العمدة في اُمور الدين .

قوله تعالى : واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل أكثرهم لايعلمون (١٠١) قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين (١٠٢) ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين (١٠٣) ان الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذاب أليم (١٠٤) انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله و اولئك هم الكاذبون (١٠٥) .

النزول : قال ابن عبّاس : كان إذا نزلت آية فيها شدّة ثمّ نزلت آية فيها لين قالت كفّار قريش : إنّ محمّداً يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وغداً يأمر بأمر وإنّه لكاذب ويقول من عند نفسه ، فأجاب سبحانه عن شبهتهم بأنّ الله أعلم بمصالحهم وينزّل ما ينزّل على ما توجب المصلحة و هم [لايعلمون] سبب ورود النسخ .

المعنى : ثمّ أخبر عن حال الكفّار [وإذا] نسخنا [آية] وآتينا آية اُخرى مكانها .

[قل] يا محمّد [نزّله روح القدس] أي أنزل الناسخ جبرئيل [من ربّك بالحقّ] الصحيح الثابت [ليثبّت الّذين آمنوا] بما فيه من الحجج والبيّنات فيزدادوا يقيناً ، ومعنى تثبيته سبحانه معونته وتوفيقه عزّ وجلّ إلى الثبات على الإيمان والطاعة [وهدى وبشرى] أي وهو أي النازل هدى وبشارة بالجنّة والثواب .

قوله : [ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشر] ثمّ أجاب سبحانه عن شبهة

اُخرى من المشركين أي إنّا نعلم أنّ الكفّار يناقشون ويقولون : إنّ القرآن ليس من عند الله وإنّما يعلّم النبيّ إنسان .

واختلفوا في ذلك الإنسان قيل : هو عبد لبني عامر بن لؤي اسمه «يعيش» وكان يقرأ الكتب. وقيل: «عداس» .وقيل : كان بمكّة نصراني أعجميّ اللسان اسمه بلقام يتكلّم بالروميّة. وقيل : سلمان الفارسيّ. وقال عبدالله بن سلام : كان غلامان نصرانيّان من أهل عين التمر كانا يقرءان كتاباً لهما بلسانهم و كان رسول الله ﷺ ربّما مرّ بهما واستمع لقراءتهما فقالت قريش : إنّما يتعلّم منهما .

فألزمهم الله الحجّة وأكذبهم بهذه الآية بأن قال : [لسان الّذي يلحدون إليه] ويضيفون إليه التعليم ويميلون وينسبون إليه القول [أعجميّ] ولم يقل سبحانه : عجميّ لأنّ العجميّ هو المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً ، والأعجميّ هو الّذي لا يفصح وإن كان عربيّاً . فردّ سبحانه قولهم بأنّ لسان هذا البشر الّذي يزعمون أنّه يعلمك أعجميّ لا يفصح ولا يتكلّم صحيحاً و فصيحاً ، فكيف يتعلّم منه من هو في أعلى طبقات الفصاحة و البيان ؟

[وهذا] القرآن [لسان عربيّ] ظاهر وقد عجز جميعهم عن الإتيان بسورة وآية مثله ، وهو بلغتهم فكيف يأتي الأعجميّ الخارج عن الفصاحة بمثله ؟ ثمّ إنّ أمر التعليم والتعلّم لا يتأتّى بجلسة ولا جلستين ولا يتمّ بالخفية بل التعليم والتعلّم يحتاج إلى أزمنة متطاولة ، ولو كان كذلك لاشتهر فيما بين الخلق ، ثمّ الاحتجاج بهذه الكلمات الركيكة دلالة على نبوّته ﷺ .

ثمّ أتبع بالوعيد لهم على ما قالوه بقوله : [إنّ الّذين لا يؤمنون بآيات الله] ومعجزات القرآن [لا يهديهم الله] إلى طريق الجنّة بسبب عدم الإيمان والقابليّة ، والمراد بالهداية الهدى الّذي يكون ثواباً على الإيمان .

ثمّ قال : [إنّما يفتري] ويخترع [الكذب الّذين] لا يصدّقون [بآيات الله] دون من آمن لأنّ الإيمان يحجز عن الكذب [واُولئك هم الكاذبون] لا أنت يا محمّد ، فحصر سبحانه فيهم الكذب بمعنى أنّ الكذب لازم لهم ومن عادتهم وهذا كقولك للكاذب :

كذبت وأنت كاذب. زيادة في الوصف بالكذب كما قال : إنّما يفتري الكذب .

وفي الحديث مرفوعاً أنّه قيل : يارسول الله المؤمن يزني ؟ قال : قد يكون ذلك ، قيل: يارسول الله المؤمن يسرق ؟ قال ﷺ : قد يكون ذلك ، قيل : يارسول الله المؤمن يكذب ؟ قال : لا ، ثمّ تلا هذه الآية .

قوله تعالى : من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم (١٠٦) ذلك بانهم استحبوا الحيوة الدنيا على الاخرة وان الله لايهدى القوم الكافرين (١٠٧) اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون (١٠٨) لاجرم انهم في الاخرة هم الخاسرون (١٠٩) ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم (١١٠) .

في هذه الآية بيان من يكفر بلسانه وقلبه ومن يكفر بلسانه دون قلبه .

النزول : قيل : نزل قوله : « إلّا من اُكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان » في جماعة اُكرهوا وهم عمّار وياسر أبوه واُمّه سميّة وصهيب و بلال و خباب عذبوا وقتل ياسر و امرأته وأعطاهم عمّار بلسانه ما أرادوا منه ، فأخبر سبحانه بذلك رسول الله ، فقال قوم : كفر عمّار ! فقال : كلّا إنّ عمّاراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه . وجاء عمّار إلى رسول الله وهو يبكي، فقال ﷺ :ماوراءك ياعمّار ؟ فقال شرّ يارسول الله، ماتركت حتّى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . فجعل رسول الله يمسح عينيه ويقول : إن عادوا لك فعدلهم بماقلت ، فنزلت الآية .

وقيل : نزلت في ناس من أهل مكّة آمنوا وخرجوا يريدون المدينة فأدركهم قريش وفتنوهم فتكلّموا بكلمة الكفر كارهين . وقيل : إنّ ياسر أوسميّة أبوي عمّار أوّل شهيدين في الإسلام .

وجواب الشرط في قوله : « من كفر » قوله : « فعليهم غضب من الله » بمعنى أنّه جواب من قوله : « من شرح بالكفر صدراً » وهذا الجواب الثاني يغني عن جواب قوله : « من

كفر بعد إيمانه» مثل قولهم : «من يأتينا فمن يحسن نكرمه» فجواب الأوّل محذوف .

وقوله : [ثمّ إنّ ربّك للّذين هاجروا] نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الرضاعة وأبي جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن مغيرة و غيرهم من أهل مكّة فتنتهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا ، ثمّ إنّهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا ، فنزلت الآية .

وبالجملة فتلخيص المعنى أنّ من كفر بالله وارتدّ بعد الإسلام وشرح بالكفر صدراً ، أي فتحه ووسّعه لقبول الكفر .

فلو قيل : إنّ المكره ليس بكافر فكيف صحّ الاستثناء ؟ لأنّ المكره لمّا ظهر منه الكفر كرهاً والكافر طوعاً فصحّ المشاكلة فصحّ الاستثناء .

وهؤلاء المكرهين قد عذّبوا وأُخذوا وأُلبسوا الدروع الحديد واُجلسوا في الشمس ، فبلغ منهم الجهد بحرّ الحديد والشمس ، وأتاهم أبو جهل يشمتهم ويوبّخهم ويشتم سميّة ، ثمّ طعن الحربة في عضوها . وقيل : ما نالوا غير بلال فإنّهم جعلوا يعذّبونه فيقول : أحد أحد حتّى ملّوا فكتفوه وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به حتّى ملّوه فتركوه ، قال عمّار : كلّنا تكلّم بالّذي أرادوا غير بلال ، فهانت عليه نفسه . قال خبّاب : لقد أوقدوا لي ناراً على ودك ظهري .

قوله : [إلّا من اُكره] على وجه التقيّة خوف الإتلاف مكرهاً وقوله : [وقلبه مطمئنّ بالإيمان] ساكن ثابت بالإيمان ، وهذا يدلّ على أنّ محلّ الإيمان هو القلب إمّا الاعتقاد وإمّا كلام النفس .

قوله : [ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة] والتلذّذ فيها والركون إليها طلباً لها دون الآخرة [وإنّ الله لا يهدي القوم الكافرين * اُولئك الّذين طبع الله] وختم [على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم] بسوء اختيارهم الكفر ، وأنّهم بمنزلة الغافلين .

ثمّ قال : [لاجرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون] وهذا تأكيد لحكم الخسار عليهم لأنّهم المحرومون من الجنّة وعذّبوا بالنار . ثمّ قال سبحانه : [ثمّ إنّ ربّك للّذين هاجروا من بعد مافتنوا] وعذّبوا في الله فأعطوا بعض ما أرادوا الكفّار ليسلموا من شرّهم ، [ثمّ جاهدوا] مع النبيّ ﷺ [وصبروا] على الدين والجهاد [إنّ ربّك من بعد] تلك الفتنة

والفعلة التي فعلوها من التفوّه بكلمة الكفر [لغفور رحيم] .

قوله تعالى : يوم تاتى كل نفس تجادل عن نفسها و توفى كل نفس ما عملت وهم لايظلمون (١١١) وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف بما كانوا يصنعون (١١٢) ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون (١١٣) فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا و اشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون (١١٤) انما حرم عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير وما اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم (١١٥) .

الظرف إمّا متعلق بقوله : « إنّ ربّك لغفور رحيم » أو الكلام على سبيل العظة و التذكير أي اذكر [يوم تأتي] والمراد باليوم يوم القيامة [تجادل] وتخاصم الملائكة [عن نفسها] كلّ نفس ويقول : «والله ربّنا ما كنّا مشركين»[1] ويحتجّ بما ليس فيه حجّة و[توفّى كلّ نفس] جزاء [ما عملت] من خير وشرّ [وهم لا يظلمون] في ذلك [وضرب الله مثلاً] والمراد أنّ مثلكم يا أهل مكّة كمثل تلك القرية ، أي مثل قرية [كانت آمنة] مأمون أهلها لا يغار عليهم قارة ساكنة لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بخوف أو ضيق يحمل إليه الرزق الواسع [من كلّ] بلد [فكفرت بأنعم الله] أي كفر أهل تلك القرية ، ولم يؤدّ شكرها فأخذهم الله بسوء صنيعهم بالخوف والجوع ، وسمّي أثر الجوع والخوف لباساً لأنّ أثر المشقّة يظهر على الإنسان كما يظهر اللباس والزيّ على الإنسان ، ويشملهم المشقّة كما يشمل اللباس البدن . وقيل : المراد بالقرية مكّة فعذّبهم الله بسوء صنيعهم بالجوع سبع سنين حتّى أكلوا القدّ والعلهز والجيف وهو الوبر يخلط بالدم وهم مع ذلك خائفون وجلون من أصحاب النبيّ ، وذلك حين دعا عليهم النبيّ ﷺ فقال : اللهمّ اشدد وطأك على مضر واجعل عليهم سنين كسني يوسف عليه السلام .

ونقل : أنّ ابن الراونديّ الزنديق المعروف قال لابن الأعرابيّ الأديب : هل

---

(١) الانعام : ٣٢ .

يذاق اللباس ؟ فقال ابن الأعرابيّ : لا بأس أيّها النسناس هب أنّك تشك أنّ محمّداً ما كان نبيّاً أماكان عربيّاً ؟ وكان مقصود ابن الراونديّ الطعن في الآية ، و هذا الأحمق كأنّه ماقرع سمعه الاستعارة أما سمع قول الشاعر الأعرابيّ حيث قال :

ومن يذق الدنيا فإنّي طعمتها * وسيق إلينا عذبها وعذابها

و العذاب ليس من المذوقات و قد استعمل كثيراً ، فالمراد بهذه الاستعارة أنّ الجوع أحاط بهم من الجهات وأشملهم فأشبه اللباس .

قوله [ولقد جاءهم رسول منهم] لمّا ذكر سبحانه المثل ذكر الممثّل فقال : « ولقد جاءهم» يعني أهل مكّة «رسول منهم» أي من سنخهم يعرفونه بأصله ونسبه [فكذّبوه فأخذهم العذاب] قيل : القتل يوم بدر . وقيل : المجاعة المعروفة الّتي أكلوا الجيف والعظام . وذلك بسبب ظلمهم و كفرهم فاتركوا الكفر والشرك حتّى تأكلوا فلهذا السبب قال : [فكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيّباً] وخاطب المؤمنين والراجعين عن الكفر ، والمراد من الأمر الإباحة أي كلوا من الغنائم وما رزقكم الله وأحلّها لكم [واشكروا] عليه [إن كنتم] [تعبدون] الله .

قوله : [إنّما حرّم عليكم ، الآية] أي إنّكم لمّا آمنتم وتركتم الكفر فكلوا الحلال الطيّب واتركوا الخبائث وهي [الميتة والدم ولحم الخنزير] ومالم يذكر اسم الله عليه حين الذبح ، وذكر اسم الآلهة عليه - والتفصيل وذكر في سورة البقرة - إلّا حين الاضطرار ، فإنّه يجوز حين الاضطرار من غير تعدّ في حدود الله و بغي فحينئذ [إنّ الله غفور رحيم] .

قوله تعالى : ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال و هذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون(١١٦) متاع قليل ولهم عذاب اليم (١١٧) .

أكّد سبحانه بهذه الآية أن لايخالفوا الأوامر والنواهي في التحليل والتحريم ، أي [لاتقولوا لما] أحللتموه بلسانكم[الكذب هذا حلال وهذا حرام] كالميته تقولون : هذا حلال ، وكالصائبة تقولون : هذاحرام ، لتكذبوا[على الله] في إضافة التحليل والتحريم إليه ،

[إنّ الّذين يفترون على الله الكذب] و « الكذب » وصف للألسنة بمعنى الكاذب أو بمعنى الكلم الكواذب ، أو هو جمع الكذّاب أي المفترين على الله لاينجون من عذاب الله ولاينالون خيراً [متاع قليل] ينتفعون به أيّاماً قلائل [ولهم عذاب أليم] في الآخرة .

قوله : وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل وماظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون (١١٨) ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم (١١٩) .

لمّا بيّن مايحلّ ويحرم لأهل الإسلام أتبعه ببيان ماخصّ به اليهود من المحرّمات فقال : [وعلى] اليهود [حرّمنا ماقصصنا عليك من قبل] في سورة الأنعام بقوله : «وعلى الّذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظفر[1]» إلى آخر الآية وهي نزلت قبل [وماظلمناهم] ولكن ظلموا بالكفر و العصيان و الجحود بأنبياء الله و استحقّوا بذلك تحريم هذه الأشياء عليهم .

ثمّ ذكر حال التائبين فقال : [ثمّ إنّ ربّك] الّذي خلقك [للّذين عملوا السوء] والمخالفة لأمر الله لايمنعهم من التوبة و حصول المغفرة والرحمة [بجهالة] السيّئات أو بجهالتهم العاقبة وعدم التدبّر بعقابه لغلبة الشهوة [ثمّ تابوا من بعد] ماعملوا وعلموا [وأصلحوا] أعمالهم أو دخلوا في الصلاح وأصلحوا أحوالهم و أفعالهم [إنّ ربّك] من بعد التوبة والجهالة أو المعصية [لغفور رحيم] وأعاد قوله : «إنّ ربّك» للتأكيد ، والضمير في «بعدها» يعود إلى الفعلة والمقصود التأكيد والمبالغة بأنّ ربّك من بعد الرجوع عن السوء والتوبة لغفور لذلك السوء ، رحيم يثيب على طاعته ، والغرض إظهار العناية من حضرته الكريم ، والتعريض لوصف الحال والربوبيّة ، والإضافة إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر في التائبين للإيماء إلى أنّ إفاضة آثار الربوبيّة من المغفرة والرحمة عليهم بتوسّطه عليه السلام ، و كونهم من أتباعه وأُمّته .

وحاصل الكلام أنّ الإنسان و إن كان قد أقدم على المعاصي دهراً دهيراً وأمداً مديداً فإذا تاب عنه وآمن وأتى بالأعمال الصالحة فهو غفور له ورحيم به ، ويخلصه من العذاب .

---

(١) آية : ١٤٦ .

قوله تعالى : ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا و لم يكن من المشركين (١٢٠) شاكرا لانعمه اجتبيه وهديه الى صراط مستقيم (١٢١) و آتيناه في الدنيا حسنة وانه في الاخرة لمن الصالحين (١٢٢) ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين (١٢٣) انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وان ربك ليحكم بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون (١٢٤) .

المعنى : [إنّ إبراهيم كان أُمّة] أي قدوة ومعلّماً للخير ، قال ابن الأعرابيّ : يقال للرجل العالم : أُمّة - أو المعنى إمام هدى . وقيل : سمّاه أُمّة لأنّ قوام الأُمّة كان به وقام بأمر الأُمّة وانفرد في دهره بالتوحيد فكان مؤمناً والناس كلّهم كانوا كفّاراً . وإنّ إبراهيم حاز من الفضائل البشريّة مالاتكاد توجد في أحد بزمانه حسبما قيل . ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد فكيف لاوهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أهل التحقيق ، جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببيّنات باهرة لاتبقي و لاتذر وأبطل مذاهبهم الزائفة بالبراهين القاطعة .

[قانتاً] ومطيعاً ودائماً على عبادة الله [حنيفاً] مستقيماً غير مائل عن الحقّ وهو الإسلام [ولم يكن من المشركين * شاكراً] لأنعم الله معترفاً بها [اجتباه] الله واختاره [وهداه إلى صراط مستقيم] وهو الإسلام والتوحيد .

[وآتيناه] وأعطيناه [في الدنيا حسنة] ونعمة سابقة في نفسه وفي أولاده وهو قول الأُمّة : كماصلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم . أو النبوّة والرسالة . وقيل : المراد بالنعمة هي أنّه ليس من أهل دين إلّا وهو يرضاه ويتولّاه .

وقد اجتهد في تقرير دلائل التوحيد مع ملك زمانه بقوله : « ربّي الّذي يحيي ويميت[1] » ثمّ أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله : « لاأُحبّ الآفلين[2] » ثمّ كسر الأصنام حتّى آل الأمر إلى أن ألقوه في النار [وإنّه في الآخرة لمن الصالحين] ولم يقل في أعلى منازل الصالحين مع اقتضاء حاله ذلك ترغيباً في الصلاح ودرجة الصالحين ، وناهيك بهذا الترغيب في الصلاح و بهذا المدح لإبراهيم .

قوله : [ثمّ أوحينا إليك] أي أمرناك باتّباع [ملّة إبراهيم حنيفاً] أي مائلاً إلى

(١) الحج : ٢٥٦ .　(٢) الانعام : ٧٦ .

الحق وخلع الأنداد ، و متى قيل : إن نبينا كان أفضل منه فكيف أمر الفاضل باتباع المفضول ؟ فالجواب أن إبراهيم سبق إلى اتباع الحق لسبقة زمانه ولا يكون في سبق المفضول إلى متابعة الحق نقص الفاضل في اتباعه ، ولما وصف سبحانه بأن إبراهيم [ماكان من المشركين] فيقتضي أن يكون محمد صلى الله عليه وآله مأموراً بهذا الأمر وليس المعنى أنه صلى الله عليه وآله مأمور بجميع شريعة إبراهيم .

قوله : [إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه] وبيان الآية أن موسى عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة ، وأن يكون ذلك اليوم الجمعة ، فأبوا عليه وقالوا : نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض وهو السبت ، إلا شرذمة منهم رضوا بالجمعة ، فأذن الله لهم في السبب وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ، ثم جاءهم عيسى بالجمعة أيضاً فقالت النصارى : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ، واتخذوا الأحد .

فالمراد من قوله : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه » على نبيهم موسى حين أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت ، فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيهم موسى في ذلك اليوم .

وليس المعنى أن اليهود اختلفوا فيه ، فمنهم من قال بالسبت ، ومنهم من لم يقل به ؛ لأن اليهود اتفقوا على ذلك .

وفي العقل وجه يدل على أن الجمعة أفضل من السبت ، وذلك لأن أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى خلق العالم في ستة أيام ، وبدأ بالخلق والتكوين من يوم الأحد وتم في يوم الجمعة وهو يوم الكمال والتمام ، وحصول الكمال يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم ، فحينئذ جعل يوم الجمعة يوم العيد أولى من غيره .

وفي الآية قول آخر في معنى اختلافهم بأنهم أي اليهود أحلوا الصيد في السبت تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة .

ثم قال سبحانه : [وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون] أي سيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين بالعقاب .

والنظم أنّه لمّا أمر سبحانه باتّباع الحقّ حذراً من وقوع الاختلاف ذكر في هذه الآية مفاسد الاختلاف الّذي وقع لليهود في اختلاف السبت ، وآل أمرهم بأن مسخوا قردة وخنازير .

قوله تعالى : ادع الى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين (١٢٥) وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين (١٢٦) واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون (١٢٧) ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (١٢٨) .

المعنى : أمر الله نبيّه بالدعوة إلى الخلق فقال : [ادع] الخلق إلى دين الله لأنّه الطريق إلى مرضاته [بالحكمة] أي بالقرآن ، وسمّي القرآن حكمة لأنّه يتضمّن الأمر بالحسن والنهي عن القبيح ، وأصل الحكمة معناه المنع ، وإنّما قيل لها : حكمة ، لأنّها بمنزلة المانع عن الفساد وما لا ينبغي أن يختار ، وقوله : [والموعظة الحسنة] أي الوعظ الحسن وتليين القلوب بما يوجب القبول والخشوع [وجادلهم] وناظرهم بالقرآن وبأحسن ما عندك من الحجج ، والكلمة الّتي [هي أحسن] و التقدير : أن ادع الناس بأحد هذه الطرق الثلاث بالقرآن وبالموعظة الحسنة والمجادلة بالطريق الأحسن .

ولمّا كان سبحانه عالماً بأنّ جواهر النفوس البشريّة مختلفة فبعضها مشرقة صافية قليل التعلّق بالجسمانيّات كثيرة الانجذاب إلى عالم الروحانيّات وبعضها مظلمة كدرة قويّة التعلّق بالجسمانيّات عديمة الالتفات إلى الروحانيّات ، ويمتنع زوالها فقال : اشتغل أنت بالدعوة ولا تطمع في حصول الهداية للكلّ فإنّه تعالى أعلم بضلال النفوس الضالّة الجاهلة ، وبإشراق النفوس المشرقة الصافية المهتدية .

قوله : [وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به] أي و إن أردتم معاقبة غيركم على وجه المكافاة ، فعاقبوا بقدر ما عوقبتم به ولا تزيدوا عليه .

قيل : إنّ المشركين لمّا قتلوا حمزة ومثّلوا بقتلى اُحد وبحمزة عليه السلام فشقّوا بطنه وأخذت هند بنت عتبة بن أبي سفيان كبد فجعلت تلوكه ، وجدعوا أنفه واُذنه ، قال

المسلمون : لئن أمكننا الله منهم لنمثّلن ّ بالأحياء فضلاً عن الأموات ، فنزلت الآية . وقيل : نزلت الآية قبل أن يؤمر النبيّ ﷺ بقتل المشركين على العموم وأمر بقتال من قاتله في هذه الآية .

قوله : [ولئن صبرتم] وتركتم المكافاة والقصاص وجرعتم مرارته [لهو خير للصابرين] وأنفع لهم ، وليس يا محمد إلّا بتوفيق الله وتيسيره [ولا تحزن] يا محمد على المشركين في إعراضهم عنك ؛ فإنّه يكون الظفر لك عليهم . [ولا تك]صدرك [في ضيق] من مكرهم بك وبأصحابك ، فإنّ الله يردّ كيدهم في نحورهم و يحفظكم من شرورهم [إنّ الله مع الّذين اتّقوا] الشرك والفواحش والكبائر بالنصرة والحفظ ، ومع الّذين أحسنوا بالقيام فيما فرض عليهم .

سورة بنى اسرائيل

مكّيّة إلّاخمس آيات أوثمان آيات ، عدد آيها مائة آية و عشر آيات .

روى اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله : من قرأ سورة بني إسرائيل ثمّ رقّ قلبه عند ذكر الوالدين اُعطي من الجنّة قنطارين من الأجر ، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية ، والأوقية منها خير من الدنيا ومافيها . وروى الحسن بن أبي العلا عن الصادق عليه السلام أنّه قال : من قرأ سورة بني إسرائيل في كلّ ليلة جمعة لم يمت حتّى يدرك القائم ويكون من أصحابه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير (١) .

« سبحان » منصوب على المصدر أي أُسبّح الله تسبيحاً وسبحاناً ، فالتسبيح هو المصدر و «سبحان» علم للتسبيح كعثمان للرجل ، وحيث كان المسمّى معنى لا عيناً وجنساً لا شخصاً لم تكن إضافته مثل حاتم طيّ . وانتصابه بفعل محذوف من جنسه ومعنى التسبيح التباعد والتنزّه .

نزلت الآية في إسرائه ، وكان ذلك بمكّة صلّى المغرب في المسجد الحرام ، ثمّ اُسري به في ليلته ثمّ رجع فصلّى الصبح في المسجد الحرام . فأمّا الموضع قيل : اُسري به من المسجد بعينه ، وهو الّذي يدلّ عليه القرآن ، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذاً أتاني جبرئيل بالبراق . وقيل : اُسري به من دار اُمّ هاني بنت أبي طالب . فعلى هذا القول المراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد . وعن ابن عبّاس : الحرم كلّه مسجد لالتباسه به . ولمّا وصل صلى الله عليه وآله إلى الدرجات العالية في المعارج أوحى الله عزّ وجلّ يا محمّد بم اُشرّفك ؟ فقال صلى الله عليه وآله : بأن تنسبني إلى نفسك بالعبوديّة فأنزل الله سبحانه فيه :

[سبحان الّذي أسرى بعبده] وقوله [ليلاً] مع أنّ الإسراء لا يكون إلّا بالليل أراد بالتنكير تقليل مدّة الإسراء أي بعض الليل ؛ فإنّ قولك : سرت ليلاً ، كما يفيد بعضيّة زمان سيرك من الليالي يفيد بعضيّة من فرد واحد منها بخلاف ما إذا قلت : سرت الليلة ، فإنّه يفيد استيعاب السير له جميعاً .

والقول بمعراج الروح دون الجسد باطل جدّاً من وجوه :

الأوّل تصدير الآية بالتنزيه ومايتضمّن من التعجّب فإنّ الروحانيّ ليس بمثابة الاستنكار والاستبعاد والمعجزة ، ولولم يكن مستبعداً ما كذّبت قريش .

و اختلفوا في ذلك الليل ، قيل : كان قبل الهجرة بسنة و قبل البعثة . والمسجد الأقصى البيت المقدّس ، وإنّما قال : « الأقصى » لبعد المسافة بين المسجد الحرام و بينه مسيرة أربعين ليلة .

وقوله : [بار كناحوله] بالثمار و الأزهار و الخصب والفواكه ، أوبسبب أنّه مقرّ الأنبياء ومهبط الملائكة .

و قد وردت روايات كثيرة في عروج نبيّنا إلى السماء ، رواها كثير من الصحابة ، مثل ابن عبّاس ، وابن مسعود ، وأنس ، وجابر بن عبدالله ، وحذيفة ، وعائشة ، وأُمّ هانيء وغيرهم ، عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، وزاد بعضهم ونقص بعض وينقسم جملتها إلى أربعة أوجه :

أحدها : مايقطع على صحّته لتواتر الأخبار به وإحاطة العلم بصحّته .

وثانيها : ماورد في ذلك ممّا يجوّزه العقول ولاتأباه الأصول فنحن نجوّزه ، ثمّ نقطع على أنّ ذلك كان في يقظته دون منامه .

وثالثها : مايكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول إلّا أنّه يمكن تأويلها علي وجه يوافق المعقول ، فالأولى أنّ نأوّله على مايطابق الحقّ .

ورابعها : مالايصحّ ظاهره ولايمكن تأويله إلّا على التعسّف فالأولى أن لانقبله ، ولكنّ الكلّ متّفقون على الجملة أنّه صلى الله عليه وآله عرج بجسده إلى السماوات ، إنّما الاختلاف في بعض الكيفيّات .

أمّا الوجه الأوّل من الوجوه الأربعة المقطوع به أنّه اُسري به على الجملة .

و أمّا الثاني فمنه ما روي أنّه أطاف في السماوات و رأى الأنبياء و العرش و السدرة المنتهى والجنّة والنار ، ونحوذلك وذلك أيضاً مقبول . وأمّا الثالث فنحو ماروي أنّه رأى قوماً في الجنّة يتنعّمون فيها وقوماً يعذّبون فيها ، فيحمل على أنّه صلى الله عليه وآله رأى صفتهم أو أسماءهم . وأمّا الرابع الغير المقبول فنحو ماروي أنّه صلى الله عليه وآله كلّم الله سبحانه جهرة ورآه

وقعد معه على سريره ، ونحو ذلك ممّا يوجب ظاهره التشبيه والتجسّم والله تعالى تقدّس عن ذلك ، و كذلك ماروي أنّه شقّ بطنه وغسل إلّا أنّه كان طاهراً مطهّراً من كلّ سوء وعيب ، و كيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد بالماء ؟ ولوأنّ هذه الفقرة أي شقّ البطن ممكن التأويل .

وبالجملة فمن جملة ماروي في قصّة المعراج أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : أتاني جبرئيل و أنا بمكّة فقال : قم يا محمّد فقمت معه ، وخرجت إلى الباب فإذاً جبرئيل ومعه ميكائيل وإسرافيل فأتى جبرئيل بالبراق وكان فوق الحمار دون البغل خدّه كخدّ الإنسان وذنبه كذنب البقر وعرفه كعرف الفرس ، وقوائمه كقوائم الإبل ، عليه رحل من الجنّة ، وله جناحان من فخذيه ، فقال لي جبرئيل : اركب ، فركبت ومضيت حتّى انتهيت إلى بيت المقدس .

ثمّ ساق الحديث إلى أن قال صلى الله عليه وآله : فلمّا انتهيت إلى بيت المقدس إذاً بملائكة من السماء نزلت بالبشارة والكرامة من عند ربّ العزّة وصلّيت في بيت المقدس . وفي بعض الروايات بشّرني إبراهيم في رهط من الأنبياء ثمّ وصف موسى وعيسى ، ثمّ أخذ جبرئيل بيدي إلى الصخرة فأقعدني عليها فإذاً معراج إلى السماء لم أرمثلها حسناً وجمالاً ، فصعدت إلى السماء الدنيا ورأيت عجائبها و ملائكتها يسلّمون عليّ ، ثمّ صعدبي جبرئيل إلى الثانية فرأيت فيها عيسى بن مريم ويحيى بن زكريّا ، ثمّ صعدبي إلى الثالثة فرأيت فيها يوسف ، ثمّ إلى الرابعة فرأيت فيها إدريس ، ثمّ إلى الخامسة فرأيت فيها هارون ، ثمّ صعدبي إلى السادسة فإذاً فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض وفيها الكرّوبيّين ، ثمّ إلى السماء السابعة رأيت إبراهيم . قال : ثمّ جاوزناها متصاعدين إلى أعلى علّيّين ووصف صلى الله عليه وآله ذلك إلى أن قال : ثمّ كلّمني ربّي و كلّمته ، ورأيت الجنّة والنار والعرش والسدرة ، ثمّ رجعت إلى مكّة فلمّا أصبحت حدّثت به الناس فكذّبني أبوجهل والمشركون ، وقال مطعم ابن عديّ : أتزعم أنّك سرت مسيرة شهرين في ساعة ؟ أشهد أنّك كاذب ، ثمّ قالت قريش : أخبرنا عمّا رأيت ، فقال صلى الله عليه وآله : مررت بعير بني فلان وقد ضلّوا بعيراً لهم وهم في طلبه وفي رحلهم قعب مملوء من ماء فشربت الماء ثمّ غطّيته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء في القدح ؟

قالوا : هذه آية ، قال صلى الله عليه وآله : مررت ببعير بني فلان فنفر بكرة فلان فانكسرت يدها فاسألوهم عن ذلك ، فقالوا : هذه آية اُخرى ، ثمّ خرجوا يشتدّون نحو الثنيّة ، وهم يقولون : لقد قضى محمد بيننا وبينه قضاء بيّناً وجلسوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذّبوه ، فقال قائل : والله إنّ الشمس قد طلعت . وقال الآخر : والله هذه الإبل قد طلعت يقدمها أورق فبهتوا ولم يؤمنوا .

وفي تفسير العيّاشي عن أبي عبدالله قال : لما اُسري برسول الله إلى السماء الدنيا لم يمرّ بأحد من الملائكة إلّا استبشر ، قال : ثمّ مرّ بملك حزين كئيب ، فلم يستبشر به فقال صلى الله عليه وآله : ياجبرئيل مامررت بأحد من الملائكة إلّا استبشر بي إلّا هذا الملك فمن هذا ؟ فقال : هذا مالك خازن جهنّم وهكذا جعله الله ، فقال له النبيّ : ياجبرئيل اسأله أن يرينا ، قال : فقال جبرئيل : يا مالك هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد شكا إليّ فقال : مامررت بأحد من الملائكة إلّا استبشر بي إلّا هذا فأخبرته أنّ هكذا جعله الله وقد سألني أن أسألك أن تريه جهنّم ، قال : فكشف له عن طبق من أطباقها ، قال : فمارئي بعد ذلك رسول الله ضاحكاً حتّى قبض .

وعن أبي بصير قال : سمعت أباعبدالله الصادق أنّ جبرئيل احتمل رسول الله حتّى انتهى به إلى مكان من السماء ، ثمّ تركه وقال له : ماوطىء نبيّ قطّ مكانك .

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم القميّ عن الباقر عليه السلام أنّه عليه السلام ـ أي الباقر ـ كان جالساً في المسجد الحرام فنظر إلى السماء مرّة وإلى الكعبة مرّة وقال : « سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » و كرّر ذلك ثلاث مرّات ثمّ التفت إلى إسماعيل الجعفيّ فقال : أيّ شيء يقولون أهل العراق في هذه الآية ياعراقيّ ؟ قال : يقولون : اُسري به من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، فقال عليه السلام : ليس كما يقولون ولكنّه اُسري من هذه إلى هذه ـ وأشار بيده إلى السماء ـ وقال : مابينهما حرم .

والعيّاشي عن الصادق أنّه سئل عن المساجد الّتي لها الفضل فقال : المسجد الحرام ومسجد الرسول . قيل : والمسجد الأقصى ؟ فقال : ذلك في السماء اُسري إليه رسول الله . فقيل

له : إنّ الناس يقولون : إنّه بيت المقدس . فقال : مسجد الكوفة أفضل منه .

وفي الكافي عنه عليه السلام أنّه سئل : كم عرج برسول الله ؟ فقال : مرّتين .

وفي العيون عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : إنّ الله سخّر لي البراق وهي من دوابّ الجنّة فلو أنّ الله أذن لها لجالت الدنيا والآخرة في جرية واحدة .

والقمّي عن الصادق : جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى رسول الله فأخذ واحد بالركاب وسوّى الآخر ثيابه عليه فتضعضعت البراق فلطمها جبرئيل ثمّ قال : اسكني يا براق فما ركبك نبيّ قبله ولا يركبك بعده ، فرفعته ارتفاعاً ليس بالكثير ومعه جبرئيل يريه الآيات في السماوات والأرض قال صلى الله عليه وآله : فبينا أنا في سيري إذ نادى مناد عن يميني : يا محمّد ، فلم أُجبه ولم ألتفت إليه ، ثمّ نادى مناد عن يساري : يا محمّد ، فلم أُجبه ولم ألتفت إليه ، ثمّ استقبلتني امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كلّ زينة الدنيا فقالت : يا محمّد انظرني حتّى أُكلّمك . فلم ألتفت إليها ثمّ سرت فسمعت صوتاً أفزعني فجاوزت فنزل بي جبرئيل فقال : صلّ ، فصلّيت ، فقال : تدري أين صلّيت ؟ فقلت : لا ، فقال : صلّيت بطيبة وإليها مهاجرك .

ثمّ ركبت فمضينا ما شاء الله ، ثمّ قال لي : انزل فصلّ ، فنزلت وصلّيت ، فقال : أتدري أين صلّيت ؟ قلت : لا ، قال : صلّيت بطور سينا حيث كلّم الله موسى تكليماً . ثمّ ركبت فمضينا ماشاء الله ثمّ قال لي : انزل فصلّ ، فنزلت وصلّيت ، فقال : أتدري أين صلّيت ؟ قلت : لا ، قال : صلّيت ببيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى بن مريم .

ثمّ ركبت فمضينا حيث انتهينا إلى بيت المقدس فربطت البراق بالحلقة الّتي كانت الأنبياء تربط بها فدخلت المسجد وجبرئيل إلى جنبي فوجدنا إبراهيم وموسى وعيسى فمن شاء من أنبياء الله فقد جمعوا إليّ وأُقيمت الصلاة فلمّا اصطفّوا واستووا أخذ جبرئيل بعضدي فقدّمني وأممتهم ولا فخر ، ثمّ أتاني الخازن بثلاث أوان : إناء فيه لبن و إناء فيه ماء وإناء فيه خمر ، وسمعت قائلاً يقول : إن أخذ الماء غرق وغرق أُمّته وإن أخذ الخمر غوى و غوت أُمّته وإن أخذ اللبن هدي وهديت أُمّته ، قال : فأخذت اللبن وشربت منه فقال جبرئيل : هديت وهديت أُمّتك ، ثمّ قال جبرئيل : ماذا رأيت في مسيرك ؟ فقلت : ناداني مناد عن يميني ، فقال : أوأجبته ؟ قلت : لا ، فقال : ذاك داعي اليهود ولو أجبته لتهوّدت أُمّتك من بعدك . ثمّ

قال : ماذا رأيت ؟ قلت : ناداني منادٍ عن يساري ، فقال : أوأجبته ؟ قلت : لا ، فقال : ذاك داعي النصارى ولو أجبته لتنصّرت أُمّتك من بعدك . ثمّ قال : ماذا استقبلك ؟ قلت : رأيت امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كلّ زينة الدنيا ، وقالت لي : انظرني أُكلّمك يا محمد . فقال لي : أو كلّمتها ؟ قلت : لا ، فقال : تلك الدنيا ولو كلّمتها لاختارت أُمّتك الدنيا على الآخرة .

ثمّ سمعت صوتاً أفزعني فقال جبرئيل : هذه صخرة قذفتها في جهنّم منذ سبعين عاماً فهذا حين استقرّت ـ قالوا : فما ضحك رسول الله حتّى قبض ـ قال : فصعد جبرئيل وصعدت معه إلى سماء الدنيا وعليها ملك يقال له : إسماعيل وهو صاحب الخطفة الّذي قال الله : «إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (١)» وتحت حكمه سبعون ألف ملك . فقال إسماعيل : ياجبرئيل من هذا معك ؟ فقال : محمد ، قال : أوقد بعث ؟ قال : نعم ، ثمّ فتح الباب فسلّمت عليه وسلّم عليّ واستغفرت له واستغفر لي وقال لي : مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح .

وتلقّتني الملائكة حتّى دخلت السماء الدنيا فما لقيني ملك إلّا ضاحكاً مستبشراً حتّى لقيني ملك من الملائكة لم أر خلقاً أعظم منه كريه المنظر ظاهر الغضب ، فقال لي مثل ما قالوا من التحيّة إلّا أنّه لم أر فيه الاستبشار فيمن رأيت من البشارة من الملائكة ، فقلت : من هذا ياجبرئيل ؟ فإنّي قد فزعت منه ، فقال جبرئيل : ينبغي أن تفزع منه فكلّنا نفزع منه ، إنّ هذا مالك خازن النار لم يضحك قطّ ولم يزل منذ ولّاه الله جهنّم يزداد غيظاً وغضباً على أعداء الله فينتقم الله به منهم ، ولو ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك ، ولكنّه لا يضحك ، فقلت لجبرئيل ـ وجبرئيل بالمكان الّذي وصفه الله « مطاع ثمّ أمين (٢) » ـ ألا تأمره أن يريني النار ؟ فقال جبرئيل : أرمحمداً النار ، فكشف عنها غطاءً وفتح منها باباً وخرج لهيب ساطع في السماء وفارت فارتفعت حتّى ظننت لتناولني ممّا رأيت ، فقلت : ياجبرئيل : قل له فليردّ عليها غطاءها ، فأمرها : ارجعي فرجعت إلى مكانها الّذي خرجت منه .

ثمّ مضيت فرأيت رجلاً آدم جسيماً فقلت : من هذا ياجبرئيل ؟ فقال : هذا أبوك آدم ، فإذا هو يعرض عليه ذرّيّته ، فيقول : روح طيّب وريح طيّبة من جسد طيّب ، ثمّ تلا

(١) الصافات : ١٠ . (٢) التكوير : ٢١ .

رسول الله سورة المطففين على رأس سبع عشر آية : « كلّا إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين * وما أدراك ما علّيّون * كتاب مرقوم * يشهده المقرّبون[١] » إلى آخرها ، قال : فسلّمت على أبي آدم وسلّم عليّ واستغفرت له واستغفر لي وقال : مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح والمبعوث في الزمن الصالح .

ثمّ مررت بملك من الملائكة جالس على مجلس ، وإذا جميع الناس بين ركبتيه وبيده لوح من نور ينظر فيه ، مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لايلتفت يميناً وشمالاً مقبلاً عليه كهيئة الحزين ، فقلت : ياجبرئيل من هذا ؟ قال : هذا ملك الموت دائب في قبض الأرواح . فقلت : ياجبرئيل ادنني منه حتّى اُكلّمه فأدناني منه فسلّمت عليه ، فقال له جبرئيل : هذا محمّد نبيّ الرحمة الّذي أرسله الله إلى العباد فرحّب بي وحيّاني بالسلام ، وقال : ابشر يامحمّد فإنّي أرى الخير كلّه في اُمّتك ، فقلت : الحمدلله المنّان ذي النعم على عباده ، ذلك من فضل ربّي ورحمته عليّ . فقال جبرئيل : هو أشدّ الملائكة عملاً . فسألت منه أكلّ من مات أو يموت فيما بعد هذا يقبض روحه ؟ قال : نعم ، قلت : ويراهم حيث كانوا ويشهدهم بنفسه ؟ فقال : نعم . فقال ملك الموت : ما الدنيا كلّها عندي فيما سخّرها الله لي ومكّنني عليها إلّا كالدرهم في كفّ الرجل يقلّبه كيف يشاء وما من دار إلّا وأنا أتصفّحه كلّ يوم خمس مرّات وأقول إذا بكى أهل الميّت على ميّتهم : لاتبكوا عليه فإنّ لي فيكم عودة وعودة حتّى لايبقى منكم أحد . فقال رسول الله ﷺ : كفى بالموت طامّة ياجبرئيل ، فقال جبرئيل : إنّما بعد الموت أطمّ وأطمّ من الموت .

قال : ثمّ مضيت فإذا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيّب ولحم خبيث يأكلون اللحم الخبيث ويدعون الطيّب ، فقلت : من هؤلاء ياجبرئيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الحرام ويدعون الحلال وهم من اُمّتك .

فقال رسول الله : ثمّ رأيت ملكاً من الملائكة جعل الله أمراً عجيباً نصف جسده النار ونصف الآخر ثلجاً فلا النار يذيب الثلج ، ولا الثلج يطفىء النار ، وهو ينادي بصوت رفيع : سبحان الّذي كفّ حرّ هذه النار وكفّ برد هذا الثلج ، اللّهمّ مؤلّف بين الثلج و

(١) آية : ١٨-٢١ .

النار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين . فقلت : من هذا يا جبرئيل ؟ فقال : هذا ملك وكّله الله بأكناف السماء وأطراف الأرض وهو أنصح ملئكة الله لأهل الأرض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما تسمع منذ خلق . وملكان يناديان في السماء أحدهما يقول : اللهمّ أعط كلّ منفق خلفاً . والآخر يقول : اللّهمّ أعط كلّ ممسك تلفاً .

ثمّ مضيت فإذاً بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل يقرضون اللحوم من جنوبهم ويلقون في أفواههم ، فقلت : من هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الهمّازون اللمّازون .

ثمّ مضيت فإذاً أنا بأقوام يرضخ رؤوسهم بالصخر ، فقلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الّذين ينامون عن صلاة العشاء .

ثمّ مضيت فإذاً بأقوام تقذف النار في أفواههم وتخرج من أدبارهم ، فقلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء « الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً »(١) .

ثمّ مضيت بأقوام يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر من عظم بطنه فقلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الّذين يأكلون الربى لا يقومون إلّا كما يقوم الّذي يتخبّطه الشيطان من المسّ ، وإذاهم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً يقولون : ربّنا متى تقوم الساعة ؟

قال : ثمّ مضيت فإذاً بنسوان معلّقات بثديهنّ فقلت : من اُولات ؟ فقال : النساء اللواتي يورثن أموال أزواجهنّ أولاد غيرهم ، ثمّ قال النبيّ : واشتدّ غضب الله على امرأة أدخلت على قوم في نسبهم من ليس منهم فاطّلع على عورتهم وأكل خزائنهم .

ثمّ مررنا بملائكة الله خلقهم الله كيف شاء ووضع وجوههم كيف شاء ليس من أطباق أجسادهم إلّا وهو يسبّح الله ويحمده من كلّ ناحية بأصوات مختلفة أصواتهم مرتفعة بالتحميد والبكاء من خشية الله ، فسألت جبرئيل عنهم ، فقال : كما ترى خلقوا إنّ الملك منهم إلى جنب صاحبه ما كلّمه قطّ ولا رفعوا رؤوسهم إلى ما فوقها ولا خفضوها إلى ما تحتها خوفاً لله وخشوعاً . فسلّمت عليهم فردّوا عليّ إيماءً برؤوسهم لا ينظرون إليّ من شدّة الخشوع فقال لهم جبرئيل :

---

(١) النساء : ٩ .

هذا محمّد نبيّ الرحمة أرسله الله على العباد رسولاً ونبيّاً، وهو خاتم النبوّة أفلا تكلّموه؟ فلمّا سمعوا ذلك من جبرئيل أقبلوا عليّ بالسلام وأكرموني وبشّروني بالخير لي ولاُمّتي.

ثمّ صعدنا إلى السماء الثانية فإذاً فيها رجلان متشابهان فقلت: من هذان؟ قال: ابناء الخالة يحيى وعيسى فسلّمت عليهما وسلّما عليّ واستغفرت لهما واستغفرا لي وقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح.

ثمّ صعدنا إلى السماء الثالثة فإذاً فيها رجل فضل حسنه على سائر الخلق كفضل قمر ليلة البدر على سائر النجوم، فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أخوك يوسف، فسلّمت عليه وسلّم عليّ واستغفرت له واستغفرلي وقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح والمبعوث في الزمن الصالح. وإذاً فيها ملائكة عليهم من الخشوع مثل ما وصفت في السماء الاُولى والثانية، وقال لهم جبرئيل في أمري مثل ماقال للآخرين وصنعوا لي مثل ما صنعوا.

ثمّ صعدنا إلى السماء الرابعة وإذاً فيها رجل فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس رفعه الله مكاناً عليّاً، فسلّمت عليه وسلّم عليّ واستغفرت له واستغفرلي، وإذاً فيها من الملائكة مثل ما في السماوات فبشّروني بالخير لي ولاُمّتي، ثمّ رأيت ملكاً جالساً على سرير تحت يديه سبعون ألف ملك تحت يد كلّ ملك سبعون ألف ملك فوقع في نفس رسول الله ﷺ أنّه هو فصاح به جبرئيل وقال: قم، فهو قائم إلى يوم القيامة.

ثمّ صعدنا إلى السماء الخامسة فإذاً فيها رجل كهل عظيم العين لم أر كهلاً أعظم منه حوله ثلّة من اُمّته فأعجبني كثرتهم فقلت: من هذا؟ فقال: هذا هارون بن عمران، فسلّمت عليه وسلّم عليّ، وكذلك.

ثمّ صعدنا إلى السماء السادسة وإذاً فيها رجل آدم طويل عليه سمرة ولولا أنّ عليه قميصين لنفذ شعره فيهما. وسمعت يقول: يزعم بنو إسرائيل أنّي أكبر ولد آدم على الله وهذا رجل أكبر على الله منّي، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران، فسلّمت عليه وسلّم عليّ وكذلك من الملائكة مثل ما في السماوات.

ثمّ صعدنا إلى السماء السابعة فما مررت بملك من الملائكة إلّا قالوا: يا محمّد احتجم

وأمر اُمّتك أن يحتجموا . وإذاً فيها رجل أشمط الرأس واللحية جالس على كرسيّ فقلت : ياجبرئيل من هذا الّذي في السماء السابعة؟ فقال : هذا أبوك إبراهيم و هذا محلّك ومحلّ من اتّقى من اُمّتك ، ثمّ قرأ «إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه و هذا النبيّ و الّذين آمنوا والله وليّ المؤمنين» (١) ، فسلّمت عليه وسلّم عليّ و قال : مرحباً بالنبيّ الصالح و الابن الصالح والمبعوث في الزمن الصالح . و إذاً فيها من الملائكة الخشّع مثل ما في السماوات فبشّروني بالخير لي ولاُمّتي .

قال رسول الله : ورأيت في السماء السابعة بحار من نور يتلألأ يكاد تلألؤها يخطف بالأبصار ، وفيها بحار مظلمة فكلّما فزعت ورأيت سألت جبرئيل فقال : ابشر يا محمّد واشكر كرامة ربّك واشكر الله ما صنع إليك ، قال : فثبّتني الله بعونه وقوّته حتّى كثر قولي لجبرئيل ويعجبني فقال جبرئيل : يا محمّد تعظم ماترى ؟ إنّما هذا خلق من خلق ربّك فكيف بالخالق الّذي خلق ماترى ومالاترى أعظم من هذا من خلق ربّك إنّ بين الله و بين خلقه تسعين ألف حجاب وأقرب الخلق إلى الله أنا وإسرافيل بيننا وبينه أربعة حجب : حجاب من نور وحجاب من ظلمة وحجاب من الغمام وحجاب من ماء .

قال ﷺ : ورأيت من العجائب الّذي خلقه الله وسخّر به على ما أراد ديكاً و رجلا في تخوم الأرضين السابعة و رأسه عند العرش وله جناحان إذا نشرهما جاوزا المشرق و المغرب فإذا كان في السحر نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح يقول : سبحان الملك القدّوس سبحان الله الكبير المتعال لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم ، فإذا قال ذلك صاح ديك الأرض كلّها ، ولذلك الديك زغب (٢) أخضر وريش أبيض كأشدّ بياض . وبالجملة فالحديث طويل فأسقطت منه بعضاً إلى أن ينتهي الحديث :

قال رسول الله : فلمّا انتهيت إلى سدرة المنتهى فإذاً الورقة منها تظلّ اُمّة من الاُمم فكنت منها كما قال الله : «قاب قوسين أو أدنى» (٢) فناداني «آمن الرسول بما اُنزل إليه من ربّه (٣)» وقد مضى شرحه في سورة البقرة ؛ ثمّ سمعت الأذان فإذاً ملك يؤذّن فقال :

---

(١) آل عمران : ٦٨ .
(٢) الزغب : صغار الشعر .
(٣) النجم : ٩ .
(٤) البقرة : ٢٨٥ .

الله أكبر الله أكبر، فقال الله : صدق عبدي . فقال : أشهد أنّ لا إله إلّا الله ، فقال الله : صدق عبدي أنا الله لا إله غيري، فقال : أشهد أنّ محمداً رسول الله، فقال الله : صدق عبدي ، إنّ محمداً عبدي ورسولي أنا بعثته وانتجبته ، فقال : حيّ على الصلاة، فقال : صدق عبدي دعا إلى فريضتي فمن مشى إليها راغباً فيها محتسباً كانت كفّارة لما مضى من ذنوبه ، فقال : حيّ على الفلاح ، فقال الله : هي الصلاح والنجاح والفلاح .

ثمّ أممت الملائكة في السماء كما أممت الأنبياء في بيت المقدس .

ثمّ غشيني ضبابة (١) فخررت ساجداً فناداني ربّي أنّي قد فرضت على كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة وفرضتها عليك وعلى أمّتك فقم بها أنت في أمّتك . فقال النبيّ : فانحدرت إلى إبراهيم فلم يسألني عن شيء حتّى انتهيت إلى موسى ، فقال : ماصنعت يا محمد ؟ فقلت : قال ربّي : فرضت على كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة وفرضتها عليك وعلى أمّتك . فقال موسى : إنّ أمّتك آخر الأمم و أضعفها و إنّ ربّك لا يردّ ك شيئاً فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لأمّتك فرجعت إلى ربّي حتّى انتهيت إلى السدرة فخررت ساجداً ، ثمّ قلت : فرضت عليّ وعلى أمّتي خمسين صلاة فخفّف عنّي . فوضع عنّي عشراً فرجعت إلى موسى فأخبرته ، قال : ارجع واسأل التخفيف ، وهكذا في كلّ رجعة أفعل حتّى وصلت إلى خمس فرجعت إلى موسى وأخبرته فقال : لاتطيق أمّتك ، فقلت : قد استحييت من ربّي ولكن أصبر عليها ، فناداني مناد كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين كلّ صلاة بعشر ومن همّ من أمّتك بحسنة يعملها فعملها كتبت له عشراً وإن لم يعمل كتبت له واحدة ، ومن همّ بسيّئة من أمّتك فعملها كتبت عليه واحدة وإن لم يعملها لم أكتب عليه . فقال الصادق عليه السلام : جزى الله موسى عن هذه الأمّة خيراً .

فهذا مختصر تفسير قوله تعالى : «سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً ، الآية » فكلمة «سبحان» معناه إبراء الله وتنزيهه عمّا لا يليق به من الصفات، وقد يراد به التعجيب يعني سبحان الّذي سيّر عبده محمداً ! وهذا الأمر من عجيب قدرة الله ، تعجيب ممّن لم يقدّر الله حق قدرته و أشرك في عبادته غيره ، ولمّا كان هذا الأمر مشاهدة العجب حسن التسبيح .

---

(١) الغمام الرقيق يغشى الارض .

قال أكثر المفسّرين : أُسري برسول‌الله من دار اُمّ هانيء اُخت عليّ بن أبي‌طالب وزوجها هبيرة بن أبي وهب المخزوميّ وكان ﷺ نائماً تلك الليلة في بيتها ، وإنّ المراد بالمسجد الحرام هنا مكّة و الحرم ، و مكّة كلّها مسجد . و قيل : الإسراء من نفس المسجد الحرام .

[إلى المسجد الأقصى] أي بعيد المسافة وقد بورك حوله من الأثمار والأشجار والزرع والنبات والأمن ، أولأنّه مقرّ الأنبياء و معبد لهم ومقدّس عن الشرك ، واجتمع فيه بركة الدين والدنيا [لنريه من] عجائب حججنا لأنّ كلّما رآه ﷺ في تلك اللّيل آيات باهرات [إنّه] تعالى [سميع] بأقوال من صدق بذلك أو كذب ، البصير فيما فعل من الإسراء والمعراج .

وههنا تحقيق للرازيّ وهو إثبات الجواز العقليّ لأنّ الحركة الواقعة في السرعة إلى هذا الحدّ ممكنة في نفسها و الله قادر على جميع الممكنات و الدليل على أنّ الحركة الواقعة إلى هذا الحدّ من السرعة ممكنة أنّ الفلك الأعظم يتحرّك من أوّل الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور فعلى هذا أن يقال : إنّ رسول‌الله ﷺ ارتفع من مكّة إلى مافوق الفلك الأعظم فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر ، فلمّا حصل في ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور ، فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان ؛ فهذا برهان قاطع على أنّ الارتقاء من مكّة إلى مافوق العرش في مقدار ثلث من الليل أمر ممكن في نفسه ، وإذا كان كذلك كان حصوله في كلّ الليل أولى بالإمكان .

ثمّ إنّه ثبت في الهندسة أنّ قرص الشمس يساوي كرة الأرض مائة وستّين و كذا مرّة وإنّا نشاهد أنّ طلوع الشمس والقمر يحصل في زمان سريع أقلّ من دقيقة ، فذلك يدلّ على أنّ بلوغ الحركة في السرعة إلى الحدّ المذكور أمر ممكن في نفسه .

و ههنا وجه آخر و بيان أوضح و هو أنّه كما يستبعد في العقل صعود الجسم الثقيل من مركزه إلى مافوق العرش فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحانيّ الخفيف من فوق العرش إلى مركز الأرض ، فإن كان القول بمعراج محمّد ﷺ في الليلة الواحدة ممتنعاً في العقل كان القول بنزول جبرئيل من العرش إلى مكّة في اللحظة الواحدة ممتنعاً ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعناً في نبوّة جميع الأنبياء وطعناً في أصل النبوّة فثبت أنّ القائلين بامتناع

حصول حركة سريعة إلى هذا الحد يلزمهم القول بامتناع نزول جبرئيل في اللحظة الواحدة من العرش إلى مكّة ، ولمّا كان ذلك باطلاً كان ما ذكروه باطلاً .

فإن قالوا : نحن لا نقول : إنّ جبرئيل جسم ينتقل من مكان إلى مكان وإنّما نقول : المراد من نزول جبرئيل هو زوال الحجب الجسمانيّة عن روح محمّد صلى الله عليه وآله حتّى يظهر في روحه من المكاشفات و المشاهدات بعض ما كان حاضراً متجلّياً في ذات جبرئيل .

قلنا : تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء و أمّا جمهور أهل الإسلام مطلقاً فهم مقرّون أنّ جبرئيل جسم وأنّ نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكّة كما أنّ الّذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس مع حجمه من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر ، وإذا كان هذا ممكناً كان ذاك ممكناً ؛ على أنّ الاُمور الإعجازيّة لابدّ وأن يكون خارجة عن الطبيعة العاديّة و إلّا لم يكن معجزة كما في عصا موسى ، فلمّا صحّ حصول مثل هذه الحركة السريعة في بعض الأجسام صحّ إمكانها في سائر الأجسام والأجسام متماثلة في تمام الماهيّات ، وإذا كانت الرياح تسير بسليمان إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة كما قال سبحانه : «غدوّها شهر ورواحها شهر» [1] فكيف لا يتعقّل أنّ البراق مع أمر الله أقلّ قوّة من الهواء المتموّج .

وعلى قول من يقول : الحيوان إنّما يبصر المبصرات لأجل أنّ الشعاع يخرج من عينيه و يتّصل بالمبصر في لحظة واحدة وهذا الأمر من الحسّيّات فالّذي أودع في إنسان العين هذه القوّة السريعة أسرى بعين الإنسان أعني أحمد صلى الله عليه وآله هذا السرى ، وفي هذا المقدار من البيان كفاية لمن أسلم وجهه لقدرة الله ؛ فثبت أنّ هذا الأمر ممكن الوجود في نفسه وقد نطق به الكتاب والسنّة وأقصى ما في الباب أنّه من العجائب فانقلاب عصى صغيرة ثعباناً يبلع سبعين ألف حبلاً وخروج الناقة العظيمة من الجبل الأصمّ أيضاً عظيم ، فيلزم للمنكر بفساد القول بجميع المعجزات والنبوّات .

قوله تعالى : وآتينا موسى الكتاب و جعلناه هدى لبني اسرائيل الا تتخذوا من دوني وكيلا(٢) ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا(٣) .

(١) سبا : ١٢ .

لمّا ذكر في الآية السابقة إكرامه محمّداً بالإسراء ذكر في هذه الآية إكرام موسى بالكتاب يعني التوراة ، وجعلنا بواسطة التوراة خروج بني إسرائيل من ظلمات الجهل إلى هداية الإيمان ، وقلنا لهم : لاتتّخذوا غيري ربّاً ، وقرىء «يتّخذوا» بالياء . وفي هذه الآية صنعة الالتفات وصنعة الالتفات كقوله تعالى : «وانطلق الملأ منهم أن امشوا»(١) فكذلك الصرف من الغيبة إلى الخطاب والنهي بقوله : «ألّا تتّخذوا» وحاصل الكلام من ذكر تشريف محمّد بالإسراء ومن تشريف موسى بالتوراة و حاصل هذا التشريفات و الهدايات التمحّض في التوحيد والنهي عن الاتّكال بغير الله .

ثمّ قال سبحانه : [ذرّيّة من حملنا مع نوح] و في نصب ذرّيّة قولان : قيل : منصوب على النداء يعني لاتتّخذوا يا ذريّة من حملنا مع نوح في السفينة ؛ لأنّ الناس كلّهم ذرّيّته لأنّه كان معه في السفينة سام وحام ويافث كقوله : «ياأيّها الناس(٢)» . وقيل : النصب على المفعوليّة و التقدير : لاتتّخذوا ذرّيّة نوح من دوني تكلون إليهم أمور كم أي لاتكلون أمور كم إلى غير الله .

ثمّ وصف نوحاً بالشكر وقال : [إنّه كان عبداً] كثير الشكر ، و روي أنّه عليه السلام كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به ، فإن وجده محتاجاً آثره به ، وروي أنّه عليه السلام كان إذا أكل قال : الحمد لله الّذي أطعمني ولوشاء أجاعني ، وإذا شرب قال : الحمد لله الّذي أسقاني و إن شاء أظمأني ، و إذا اكتسى قال : الحمد لله الّذي كساني و لوشاء أعراني ، وإذا احتذى قال : الحمد لله الّذي حذاني ولوشاء أحفاني .

ووجه ملاءمة الآية لما قبله تفسير لما قال تعالى : « لا تتّخذوا من دوني وكيلاً » ووحّدوني ، وأنّ العبد لو يرى حصول نعمة وشكر ربّه ولايرى تلك النعمة إلّا من فضل الله فوحّده فقال : اقتدوا به ووحّدوني ولاتشركوا بي شيئاً .

قوله تعالى : وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الارض مرّتين ولتعلنّ علوا كبيرا (٤) فاذا جاء وعد اوليهما بعثنا عليكم عباداً لنا

---

(١) ص : ٦ .
(٢) الحج : ١ .

اولى باس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا (٥) ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم باموال وبنين و جعلناكم اكثر نفيراً (٦) .

القضاء فصل الأمر على إحكام و بمعنى الخلق و الإحداث قال : « فقضاهنّ سبع سماوات »[١] وبمعنى الإيجاب كما قال : «وقضى ربّك ألّا تعبدوا إلّا إيّاه» [١] و بمعنى الإعلام والإخبار بما يكون من الأمر وهو المعنيّ ههنا .

أي أوحينا إليهم و أخبرناهم في التوراة أنّ أنتم يا بني إسرائيل [لتفسدنّ] وستفسدون في البلاد الّتي تسكنونها وهي بيت المقدس كرّتين ، والمراد بالفساد الظلم وأخذ المال وسفك الدماء وقتل الأنبياء . وفسادهم الأوّل : قتل زكريّا ، والثاني : قتل يحيى . وتستعلون على الناس استعلاءً عظيماً .

[فإذا جاء] وقت انتقام فساد الأوّل [بعثنا عليكم] قوماً [اُولي بأس] و نجدة أي خلّينا بينكم وبينهم وغلبوكم وخذلوكم . واختلف أنّهم من هم ؟ فقيل : شابور ذو الأكتاف من ملوك فارس في قتل زكريّا وسلّط عليهم في قتل يحيى بخت نصّر . وقيل : الفساد الأوّل قتل شعيا والثاني قتل يحيى وأنّ زكريّا مات حتف أنفه . وقيل : كان الأوّل داود قتل جالوت ، والثاني بخت نصّر .

قوله : [فجاسوا خلال الديار] أي فطافوا وسط الديار يتردّدون وينظرون هل بقي منهم أحد لم يقتلوه ؟ وكان موعود الله كائناً لاخلف فيه .

قوله : [ثمّ رددنا لكم الكرّة] يا بني إسرائيل وعاد ملككم على ماكان [وأمددناكم بأموال] وأكثرنا لكم أموالكم وأولادكم ورددنا لكم الكرّة والعدّة والقوّة [وجعلناكم أكثر] عدداً وأنصاراً من عدوّكم ، قالوا : إنّ في الفساد الأوّل سلّط الله عليهم بخت نصّر فقتل منهم أربعين أوسبعين ألفاً ممّن يقرأ التوراة وذهب بالبقيّة إلى بابل فبقوا هناك في الذلّ إلى أنّ قيّض الله ملكاً آخر فغزا أهل بابل واتّفق أن تزوّج بامرأة من بني إسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يردّ بني إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل و بعد مدّة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن ماكانوا فهو قوله : «ثمّ رددنا لكم الكرّة» . وقيل :

(١) السورة : ٢٣ .

إنّ الله ألقى الرعب من بني إسرائيل في قلوب المجوس ، فلمّا كثرت معاصيهم أزال الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وإهلاكهم .

وحاصل الكلام أنّ إضافة هذا الفعل من حيث الأمر جزاء على فعلهم والمراد من هذا البعث التخلية وعدم المنع و هذه التخلية بسبب إقدامهم على الفساد و سوء اختيارهم ، فوقع الأمر جزاء أوعقوبة .

قوله تعالى : ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها فاذا جاء وعد الاخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا (٧) عسى ربكم ان يرحمكم و ان عدتم عدنا و جعلنا جهنم للكافرين حصيرا (٨) .

شرح الله في الآية بأن إذا أطعتم فقد أحسنتم إلى أنفسكم وإن أصررتم على المعصية والكفر فقد أسأتم على أنفسكم ، أي إذا أطعتم يفتح الله لكم أبواب الخيرات والبركات وإذا خالفتم يفتح الله لكم أبواب العقوبات . ومعنى «فلها» أي فإليها وعليها ، وحروف الإضافه والنسبة يقوم بعضها مقام بعض كقوله : « بأنّ ربّك أوحى لها» (١) أي أوحى إليها . وإنّما قال : «فلها» للتقابل وذكر الإحسان في الآية مرّتان والإساءة مرّة إشعاراً بأنّ جانب الرحمة غالب على جانب العقوبة .

قوله : [فإذا جاء وعد الآخرة] معناه وعد المرّة الأخيرة وهي إقدامهم على قتل يحيى [ليسوءوا وجوهكم] وإنّما عزّ الإساءة إلى الوجوه لأنّ آثار الأعراض النفسانيّة الحاصلة في القلب إنّما تظهر على الوجه ، فحسنت النسبة إلى الوجوه ، لأنّ المبعوثين هم الّذين يسوءونهم بالقتل والأسر فتبيّن أوّلاً هذا الأثر في الوجه . وقرىء «ليسوء» بفتح الهمزة ، وقرىء بالنون «لنسوء» والقراءة المشهورة «ليسوءوا» بقرينة «وليدخلوا المسجد» أي مسجد بيت المقدس ونواحيه .

أي وليستولوا على البلد لأنّه لايمكنهم دخول المسجد إلّا بعد الاستيلاء على البلد [كما دخلوه أوّل مرّة] أولئك [وليتبّروا] ويدمّروا ماغلبوا ويهلكوا من بلادكم

(١) الزلزلة : ٥ .

تدميراً ، مدّة علوّهم وغلبتهم [عسى ربّكم] يا بني إسرائيل [أن يرحمكم] بعد انتقامه منكم إن تبتم ورجعتم إلى طاعته [وإن عدتم] إلى الفساد [عدنا] بكم إلى العقاب لكم والتسليط عليكم كما فعلنا فيما مضى . قيل : إنّهم عادوا بعد الاُولى والثانية فسلّط الله عليهم المؤمنين يقتلون ويأخذون منهم الجزية .

[وجعلنا جهنّم للكافرين] سجناً ومحبساً ، وكان بين الفساد الأوّل والثاني الّذي قتل في الفساد الثاني يحيى مائة سنة ، وقتل بخت النصّر من بني إسرائيل مائة ألف وثمانين ألفاً وخرّب بيت المقدس إلى أن بناه أصحاب رسول الله .

قوله تعالى : ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً (٩) وأن الذين لايؤمنون بالاخرة اعتدنا لهم عذاباً اليما (١٠) ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا (١١) وجعلنا الليل والنار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين و الحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا (١٢) .

النظم : لمّا بيّن في الآية السابقة إنّا آتينا موسى الكتاب كذلك آتيناك يا محمّد القرآن [إنّ هذا القرآن يهدي] إلى الأحسن الأقوم من جميع الأديان والكتب ، ويرشد إلى الكلمة الّتي هي أعدل الكمالات وهي كلمة التوحيد والإيمان به وبرسله والعمل بطاعته [ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصالحات] بأنّ لهم ثواباً عظيماً على طاعتهم ويبشّر أيضاً بأن [الّذين لايؤمنون بالآخرة] هيّأنا لهم عذاب النار الموجع وإنّما سمّي الثواب الأجر ؛ لأنّه يستحقّ في مقابلة العمل كالأجرة الّتي في مقابلة العمل .

قوله : [ويدع الإنسان بالشرّ] أي إنّ الإنسان ربّما يدعو في حال الغضب والزجر على نفسه وأهله وولده بما لاينبغي أن يستجاب له فيه كما يدعو لنفسه بالخير فلو أجاب إليه دعاءه لأهلكه لكنّه لايجيب دعاءه بفضله ورحمته ، وقيل : معناه أنّ الإنسان قد يطلب الشرّ لاستعجاله المنفعة المتصوّرة عند نفسه ويدعو في طلب المحظور كدعائه في طلب المباح [وكان الإنسان عجولاً] بالدعاء في الشرّ عجلته بالدعاء في الخير أي إنّ

الإنسان ضجر لاصبر له لا على ضرّاء ولاعلى سرّاء ، و روي عنه أنّه أراد به آدم عليه السلام لمّا انتهت النفخة إلى سرّته أراد أن ينهض فلم يقدر فشبّه الله ابن آدم بأبيه في الاستعجال وطلب الشيء قبل وقته ، والقياس في « يدع » بالواو إلّا أنّه حذف في المصحف عن الكتابة لكن لم يحذف في المعنى لأنّها في موضع الرفع ونظيره « سندع الزبانية » (١) ونظير « وسوف يؤت الله المؤمنين (٢) » ونظير « يوم يناد المناد (٣) » ولو كان بالواو لكان صواباً أيضاً ، هذا كلام الفرّاء .

[وجعلنا الليل والنهار] ولمّا ذكر في الآية السابقة النعمة الدينيّة من القرآن والرسول أتبعه بذكر النعم الدنيويّة ، أي كما أنّ القرآن ممتزج من المحكم والمتشابه، فكذلك الدهر مركّب من الليل والنهار ، فالمحكم كالنهار ، والمتشابه كالليل ، وأردف بذكر الدلائل التوحيديّة وهو عجائب العالم العلويّ والسفليّ أي جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا ، أمّا الدين فمن تغييرهما يستنبط الإنسان على وجود الإله القادر المقدّر لأنّ كونهما متعاقبين على الدوام ومتغيّرين أقوى دليل على أنّهما غير موجودين لذاتهما ، ولابدّ لهما من فاعل ، وأمّا في الدنيا فلأنّ مصالح الدنيا لاتتمّ إلّا بالليل والنهار .

[فمحونا آية الليل] بالنهار وآية النهار بالليل يعني طمسنا آية الليل وهي القمر ومحونا نورها [وجعلنا آية النهار] أي الشمس [مبصرة] ونيّرة مضيئة للأبصار يبصر أهل النهار بها ، والمراد من المحو مالا يبصر كالشيء الممحوّ من الكتاب وآية الليل نفسه وظلمته وآية النهار ضوؤه .

ثمّ بيّن سبحانه الغرض في ذلك فقال : [لتبتغوا فضلاً من ربّكم] و لتسكنوا و تستريحوا بالليل و تطلبوا المعاش في النهار بأنواع الأمور المباحة ، و هذا الاختلاف فيه فائدة اُخرى وهي أنّه تعلمون منه عدد أشهركم وسنينكم وحسابكم بعضاً لأوقات معاملاتكم وصومكم وصلاتكم وحجّكم وسائر الاُمور المتعلّقة بالأوقات .

---

(١) العلق : ١٨ . (٢) النساء : ١٤٥ .
(٣) ق : ٤١ .

قوله تعالى : وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيمة كتاباً يلقه منشوراً (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (١٤) من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولاتزر وازرة ورزاخرى وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا (١٥) .

المعنى : الإنسان يقع على المذكّر والمؤنّث وإذا أردت الفصل قلت : رجل وامرأة . وكذلك فرس يقع على المذكّر والمؤنّث ، واشتقاقه من الإنس ، وهو فعلان عند البصريّين ، وعند الكوفيّين هو من النسيان حذفت الياء تخفيفاً ، والطائر ههنا عمل الإنسان شبّه بالطائر الّذي يسنح ويتبرّك به ، والطائر الّذي يبرح فيتشأّم به ، وعند العرب أنّه إذا كان الطير سانحاً أمكن الرأي وإذا كان بارحاً لا يمكنهم بزعمهم ، قال الكميت :

ولا أنا ممّن يزجر الطير همّه * أصاح غراب أم تعرّض ثعلب

وإنّما خصّ العنق بالذكر أي لازم ولاصق العمل بالعنق كلزوم القلادة للعنق ، والعرب يقيم هذا العضو مقام الذات يقال : أعتقت الرقبة ، أي كلّ العبد . يريد أنّ الطوق يزين المحسن والغلّ يشين المسيء فعمل الإنسان شبه الطائر الميمون والطائر المشئوم .

[ونخرج له يوم القيامة كتاباً] كتبه الحفظة من أعمالهم يرى ذلك الكتاب مفتوحاً [منشوراً] عليه ليقرأه ويعلمه ، والهاء في «له» عائد إلى العامل أو العمل يقال له : [اقرأ كتابك كفى بنفسك] أن جعل نفسك محاسباً لنفسك وذلك اليوم يقرأ من لم يكن في الدنيا قارئاً .

[من اهتدى] في الدنيا إلى دين الله وطاعته فمنفعته اهتدائه راجعة إليه [ومن ضلّ] عن الدين في الدنيا فإنّما ضرره وضرر ضلاله راجع إلى نفسه ، ولاتحمل نفس حاملة حمل اُخرى وثقل ذنوب غيره أي لايعاقب أحد بذنوب غيره ، وفي هذه الآية دلالة على بطلان قول من يقول : إنّ أطفال الكفّار يعذّبون مع آبائهم في النار .

[وما كنّا معذّبين] أي مانعذّب قوماً بعذاب الاستئصال إلّا بعد الإعذار إليهم والإنذار لهم بأبلغ الوجوه وهو إرسال الرسل إليهم مظاهرة في العقل و إن كان يجوز مؤاخذتهم على العقليّات معجّلاً كالإيمان بالله .

وبالجملة قال بعض : إنّ الآية عامّة في العقليّات والسمعيّات ، وقال الأكثرون من المفسّرين ـ وهو الأصحّ ـ : إنّ المراد من الآية أنّه لا يعذّب أحداً في الدنيا ولا في الآخرة إلّا بعد البعثة . فتكون الآية خاصّة فيما يتعلّق بالسمع في الشرعيّات ، وأمّا ما كانت الحجّة فيه من جهة العقل وهو الإيمان بالله فإنّه يجوز العقاب بتركه وإن لم يبعث الرسول عند من قال : التكليف العقليّ ينفكّ من السمعيّ . على أنّ المحقّقين منهم يقولون : إنّه وإن جاز التعذيب عليه قبل بعثة الرسل لكنّه سبحانه لا يفعل ذلك ولا يعاقب أحداً حتّى ينفذ المنبّهين إلى الحقّ الهادين إلى الرشد تقوية للحجّة وزوالاً للريبة ، وقد أخبر سبحانه في هذه الآية عن هذا الأمر وهذا لا يدلّ على أنّه لو لم يبعث رسولاً لم يحسن منه أن يعاقب العبد إذا ارتكب القبائح العقليّة .

قوله تعالى : واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا (١٦) وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيراً (١٧) من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصليها مذموماً مدحوراً (١٨) ومن أراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكوراً (١٩) كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً (٢٠) انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللاخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا (٢١) لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموماً مخذولا (٢٢) .

اللغة : قرىء « آمرنا » بالمدّ و « أمّرنا » بالتشديد ، وعلى القراءة المشهورة يكون المعنى [إذا أردنا أن نهلك] أهل [قرية أمرنا] رؤساءهم ومتنعّميهم ومتموّليهم بالطاعة والإيمان واتّباع الرسل أمراً بعد أمر تكريراً عليهم ، وبيّنة بعد بيّنة إعذاراً لهم وتوكيداً للحجّة عليهم [ففسقوا فيها] بالخلاف والتمادي في العصيان [فحقّ عليها] الوعيد [فدمّرناها] وأهلكناها إهلاكاً .

وإنّما خصّ المترفين بالذكر لأنّ غيرهم تبع لهم فيكون الأمر لهم أمراً لأتباعهم فيكون حينئذ قوله : «أمرنا مترفيها» جواباً لإذا ، وإليه يؤول ما روي عن ابن عبّاس و سعيد

ابن جبير أنّ معناه . أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا ، كقولك : أمرتك فعصيتني . ويشهد بصحّة هذا المعنى الآية المتقدّمة وهي قوله : « من اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ـ إلى قوله ـ وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً » على أنّه لم يجز في العقول تقديم إرادة العذاب على المعصية لأنّه عقوبة عليها ويستحقّه لأجلها ، فمتى لم توجد المعصية لم يحسن فعل العقاب ، وإذا لم يحسن فعله لم يحسن إرادته .

وقد ذكروا وجوهاً اُخر وهو أنّ قوله : « أمرنا مترفيها » من صفة القرية وتقديره : وإذا أردنا أن نهلك قرية صفتها أنّا كنّا قد أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . فلا يكون لإذا جواب ظاهر في اللفظ للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه ، ونظيره « حتّى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ـ إلى قوله ـ ونعم أجر العاملين [1] » فلم يأت لإذا جواب في طول الكلام للاستغناء عنه .

و وجه آخر أنّ الآية محمولة على التقديم و التأخير و تقديرها : إذا أمرنا في قرية بالطاعة فعصوا أردنا إهلاكهم . و ممّا يمكن أن يكون شاهداً لهذا الوجه قوله : « وإذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم [2] » و الطهارة إنّما تجب قبل القيام إلى الصلاة ، والأصحّ القول الأوّل .

قال الكعبيّ : إنّ سائر الآيات دلّت على أنّه لايبتدىء بالتعذيب و الإهلاك لقوله : « إنّ الله لا يغيّر ما بقوم ، الآية [3] » و قوله : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم [4] » و قوله : « و ما كنّا مهلكي القرى إلّا و أهلها ظالمون [5] » و قوله : « من اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها [6] » ومن المحال أن يقع بين آيات القرآن تناقض فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات ، ولأنّه تعالى لايعذّب أحداً بما يعلمه منه مالم يعمل به .

قوله : [فحقّ عليها القول] أي وجب حينئذ على أهلها الوعيد والهلاك .

قوله : [و كم أهلكنا من القرون] والاُمم الماضية المكذّبة [من بعد] زمان [نوح] إلى

(١) الزمر : ٧٣ . (٢) المائدة : ٧ .
(٣) الرعد . ١٢ . (٤) النساء : ١٤٦ .
(٥) القصص : ٥٩ . (٦) السورة : ١٥ .

زمانك هذا، لأنّ «كم» للتكثير كما أنّ «ربّ» للتقليل. والقرن مائة وعشرون سنة، وقيل: مائة سنة. وقيل: أربعون سنة. و قيل: ثمانون سنة. و[كفى] ربّك عالماً [بذنوب] خلقه [بصيراً] بها يجازيهم عليها.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه يدبّر عباده بحسب مايراه من المصلحة فقال: [من كان يريد العاجلة] أي النعم العاجلة وهي الدنيا فعبّر عنها بصفتها [عجّلنا له فيها مانشاء] من البسط والتقتير، وعلّق ذلك بمشيئته لابمشيئة العبد وقديشاء العبد مالايشاؤه الله فلايعطيه لكونه مفسدة لمن يريد إعطاءه بحسب المصلحة [ثمّ جعلنا له جهنّم يصلاها] ويحترق بنارها [مذموماً مدحوراً] مبعّداً من الرحمة.

قوله: [ومن أراد الآخرة] بشرط أن ينبغي لها بالأعمال الصالحة والنيّات الصادقة لأنّ الأعمال بالنيّات وأنّ استفادة القلب بمعرفة الله لاتحصل إلّا بعد الخلوص، وبكون السعي و العمل بموجب ما اقتضته الشريعة النبويّة من غير تبديل و تحريف كعبدة الأوثان، فهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات يصير [سعيهم] مقبولاً و مبروراً و يكونون مشكورون على طاعتهم.

قوله: [كلاًّ نمدّ] التنوين عوض عن المضاف إليه أي كلّ واحد من الفريقين ممّن يريد الدنيا وممّن يريد الآخرة أي البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر نعطيهم في الدنيا من المال والنعمة، وأمّا الآخرة فللمتّقين خاصّة [وماكان] رزق [ربّك] ممنوعاً عن الكافر لكفره وعن الفاجر لفسقه.

فإن قيل: هل يجوز أن يريد المكلّف بعمله العاجل والآجل؟ نعم إذا جعل العاجل تبعاً للآجل كالمجاهد في سبيل الله يقاتل لإعزاز دين الله ويجعل الغنيمة تبعاً ولكن بالعكس لايجوز.

[انظر] يا محمّد صلّى الله عليه وآله [كيف فضّلنا بعضهم على بعض] بأن جعلنا بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء وبعضهم موالي وبعضهم عبيداً وبعضهم أصحّاء وبعضهم مرضى حسب ماعلمناه من المصلحة [وللآخرة أكبر درجات] أي درجات الآخرة ومراتبها أعلى وأفضل وهي مستحقّة على قدر الأعمال فينبغي أن يكون سعيهم لها أكثر.

و [لاتجعل] أيّها الإنسان [مع الله إلهاً آخر] في عملك واعتقادك وفي رغبتك ورهبتك فإنّك إن فعلت ذلك بقيت ما عشت [مذموماً] على لسان العقلاء والأنبياء والملائكة و [مخذولاً] في الآخرة ولا ينصرك الله ويكلك الله إلى ما أشركت به . ومعنى القعود الذلّ والخزي والخسران .

والنظم في الآية مربوط بعضه ببني إسرائيل وما فعل بهم في الكرّة الأولى والثانية فبيّن سبحانه أنّه من عادته أنّ من يستحقّ العذاب ويريد إهلاكه فإنّما يهلك القرى بعد أن أمر مترفيها بالطاعة ففسقوا ، فيكون إهلاكهم بالاستحقاق لا على الابتداء .

قوله تعالى : وقضى ربك الاتعبدوا الاإياه وبالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهماقولا كريماً (٢٣) واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً (٢٤) ربكم اعلم بمافي نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا (٢٥) .

لمّا ذكر في الآية السابقة ماهو الركن الأعظم في الإيمان أتبعه بذكر ما هو من شعائر الإيمان فقال سبحان : [وقضى ربّك] أي أمر ربّك أمراً باتّاً وألزم وأوجب [أن لاتعبدوا إلّا إيّاه] فإن قيل : إنّ الأمر لايكون أمراً بأن لا يكون الشيء ؛ لأنّ الأمر يقتضي إرادة المأمور به والإرادة لاتتعلّق بأن لايكون الشيء وإنّما تتعلّق الإرادة بحدوث الشيء . فالجواب أنّه أراد منكم عبادته على وجه الإخلاص وكره عبادة غيره وعبّر من ذلك بقوله :

أمر أن لا تعبدوا إلّا إيّاه [و] قضى وأمر [بالوالدين] وأوصى لهما [إحساناً] لأنّ الوصيّة أمر،وأردف هذا الأمر بالأمر الأوّل لأنّ السبب الحقيقيّ في وجود الإنسان هو تخليق الله وإيجاده والسبب الصوريّ والظاهريّ هو الأبوان ، والشكر للمنعم الحقيقيّ واجب والمنعم الحقيقيّ في كلّ النعم هو الله ، وقد يكون أحد من المخلوق منعماً عليك بالسببيّة وشكره حسن لقوله ﷺ : من لم يشكر الناس لم يشكر الله .

فإن قيل : الوالدان إنّما طلبا تحصيل اللذّة لنفسهما فلزم منه دخول الولد في

الوجود وحصوله في عالم الآفات فأيّ إنعام للأبوين على الولد؟

حكي أنّ واحداً من المتّسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول : هو الّذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرض للموت والفقر ، وأظنّ أنّه أخ لأبي العلاء المعرّي في طريقة الزندقة ؛ لأنّ أبا العلاء لمّا مات أوصى أن يكتب على قبره : هذه جناة أبي علي وماجنيت على أحد .

وليت شعري كيف نطق هذا الجاهل في الدين ؟ حيث اعتقد هذا الاعتقاد الرجس ، فهو عارض الله في ملكه وأمره ؛ لأنّ الروح من أمره . فالجواب من هذه المناقشة الملعونة أنّه هب أنّهما في أوّل الأمر طلبا اللذّة إلّا أنّ الاهتمام بإيصال الخيرات ودفع الآفات من أوّل دخول الولد في الوجود إلى وقت بلوغه أو أكثر أليس إنّه أعظم وأشدّ من جميع ذلك . والحاصل أنّ المعنى أمر ربّك أن تحسنوا إلى الوالدين . وأتي بكلمة «إحساناً» منكّراً ليدلّ على العموميّة في الإحسان .

وقوله : [إمّا يبلغنّ] و«إن» كلمة شرطيّة و«ما» أيضاً شرطيّة كقوله : «ما ننسخ من آية»[1] فلمّا جمع هاتين الكلمتين أفاد التأكيد في معنى الاشتراط إلّا أنّ علامة الجزم لم تظهر مع نون التأكيد لأنّ الفعل مبنيّ مع نون التأكيد أي إن عاش [عندك] أيّها الإنسان [أحدهما] من الوالدين حتّى يكبر ، يريد أن يبلغ [أو] يبلغا [كلاهما] في السنّ مبلغاً يصيران في السنّ بمنزلة الطفل الّذي يحتاج إلى متعهّد وخصّ بحال [الكبر] وإن كان من الواجب إطاعة الوالدين على كلّ حال لأنّ الحاجة في تلك الحالة أكثر إلى التعهّد والخدمة وقيل : إنّ الكبر في الآية راجع إلى المخاطب أي أنت إذا بلغت الكبر وقد بقي معك أبواك أو أحدهما [فلا تقل لهما أفّ] قال الصادق عليه السلام : لو علم الله لفظة أوجز في عقوق الوالدين لأتى به . وفي خبر آخر : أدنى العقوق أفّ ولو علم الله شيئاً أيسر منه و أهون منه لنهى عنه ، فليعمل العاقّ مايشاء أن يعمل فلن يدخل الجنّة . و قيل : معنى قوله : بلغا من الكبر ما يبولان ويحدثان فلا تتقذّر منهما وأمط عنهما كما كانا يميطان عنك في صغرك . و كلمة أفّ فيها سبع لغات : كسر الفاء و فتحها ، وضمّها منوّناً وغير

---

(١) البقرة : ١٠٦ .

منوّن فهذه ستّة ، والسابعة بالياء «اُفّي» بالإضافه إلى نفسه ، وهي كلمة تدلّ على الضجر وكلمة كراهة .

قوله : [ولاتنهرهما] أي لاتزجرهما بصياح و غلظة ولاتمتنع من شيء أراداه كما قال : «وأمّا السائل فلاتنهر»(١) وخاطبهما بقول رقيق حسن بعيد عن اللغو والقبيح . وقيل : معناه : قل لهما قول العبد المذنب للسيّد والمولى [واخفض لهما جناح الذلّ] أي بالغ لهما في التواضع والخضوع قولاً وفعلاً و شفقةً عليهما ، من خفض الطائر جناحه إذا ضمّ فرخه إليه كأنّه قال تعالى : ضمّ أبويك إلى نفسك كما كانا يفعلان بك و أنت صغير . قال أبوعبدالله عليه السلام : معناه لاتملأ عينيك من النظر إليهما إلّا برأفة ورحمة ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولايديك فوق يديهما ولاتتقدّم قدّامهما وادع لهما بالمغفرة والرحمة في حياتهما وبعد مماتهما جزاء لتربيتهما إيّاك في صباك وهذا إذا كانا مؤمنين .

و [ربّكم أعلم بما في نفوسكم] تضمرون من البرّ والعقوق [إن تكونوا صالحين] وطائعين لله ممّن بدرت منه نادرة ، وهو لايضمر عقوقاً فإنّ الله للراجع عن دينه غفور . وروى هشام بن سالم عن أبي‌عبدالله عليه السلام قال : صلاة أربع ركعات يقرأ في كلّ ركعة خمسين مرّة سورة التوحيد هي صلاة الأوّابين . وقيل : الّذين يصلّون بين المغرب والعشاء .

قوله تعالى : وآت ذاالقربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا (٢٦) ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا (٢٧) واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا (٢٨) ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا (٢٩) ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيراً بصيراً (٣٠) .

قيل في تفسير العامّة : وصّى سبحانه لغير الوالدين من القرابات والمساكين وأبناء السبيل بأن توفّى حقوقهم بعد أن وصّى للوالدين . وقيل : المراد بذي القربى قرابة

---

(١) الضحى : ١١ .

النبيّ صلى الله عليه وآله . والقميّ : عنى قرابة رسول الله خاصّة فاطمة ونزلت الآية فيها فجعل لها فدك ، و المراد بالمسكين من ولد من فاطمة وابن السبيل من ذرّيتها . وسنورد قصّة فدك مفصّلة في سورة الروم إن شاء الله .

وفي الكافي عن الكاظم عليه السلام في حديث له مع المهديّ العبّاسيّ : إنّ الله لمّا فتح على نبيّه فدك وما والاها لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فأنزل الله هذه الآية على النبيّ « وآت ذا القربى حقّه » ولم يدر رسول الله من هم ، فراجع في ذلك جبرئيل وراجع جبرئيل ربّه فأوحى الله إليه أن ادفع فدك إلى فاطمة فدعاها رسول الله وقال : يافاطمة إنّ الله أمرني أن أدفع إليك فدك ، فقالت : قدقبلت يارسول الله من الله ومنك ، الحديث .

وفي العيون عن الرضا في حديث له مع المأمون ، والآية الخامسة قول الله : « وآت ذا القربى » خصوصيّة خصّهم الله العزيز الجبّار بها واصطفاهم على الأمّة فلمّا نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله قال : ادعوا لي فاطمة فدعيت له فقال صلى الله عليه وآله : يافاطمة ، قالت : لبّيك ، فقال : هذه فدك هي ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب وهي لي خاصّة دون المسلمين فقد جعلتها لك لمّا أمرني الله به ، فخذيها لك ولولدك . وبالجملة فالأخبار في هذا المعنى مستفيضة .

قوله تعالى : [ولاتبذّر تبذيراً] قيل : إنّ المبذّر الّذي ينفق المال في غير حقّه والتبذير في اللغة إفساد المال وإنفاقه في السرف ، قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف في المسجد مع مجاهد فرفع رأسه إلى أبي قبيس وقال : لو أنّ رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن سرفاً ولو أنفق درهماً واحداً في معصية الله كان من المسرفين ، وأنفق بعضهم نفقة في خيرفأكثر فقيل له : لاخير في السرف ، فقال : لاسرف في الخير .

ثمّ قال تعالى : [إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين] والمراد من هذه الأخوّة التشبّه بهم في هذا الفعل القبيح أي قرناؤهم في الدنيا والآخرة ، كما قال سبحانه : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين »[1] قوله : [وكان الشيطان لربّه كفوراً] أي كان الشيطان من قديم مذهبه كثير الكفر يكفر مرّة بعد أخرى . قال بعض العلماء :

---

(١) الزخرف : ٣٦ .

خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب و ذلك لأنّهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب و الغارة ، ثمّ كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء و التفاخر و كان المشركون ينفقون أموالهم ليصدّوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله ، فنزلت هذه الآية تنبيهاً على قبح أعمالهم .

قوله : [وإمّا تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربّك ترجوها] أي إنّك إن اعتراك الاضطرار بأن تعرض عنهم حياء فلا تعرض عنهم وقل لهم إلخ ؛ لأنّه ﷺ إذا سئل ولم يكن له شيء يعرض حياء . إنّك إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالردّ بسبب الفقر والقلّة [فقل لهم قولاً] سهلاً ليّناً وقوله : «ابتغاء رحمة من ربّك» كناية عن الفقر لأنّ فاقد المال يطلب إحسان الله فلمّا كان فقد المال سبباً لهذا الطلب أطلق اسم السبب على المسبّب فسمّي الفقر بابتغاء رحمة الله ، و الحاصل أنّ عند حصول الفقر لاتترك تعهّدهم بالقول الجميل والكلام الحسن بل تعدهم بالوعد الجميل و الردّ بالطريق الأحسن في القول .

قوله : [ولا تجعل يدك مغلولة] لمّا أمر سبحانه رسوله بالإنفاق في الآية المتقدّمة علّمه أدب الإنفاق نظير ماوصف عباده المؤمنين في الإنفاق في سورة الفرقان فقال في السورة: «والّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً» (١) فهنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال : «ولا تجعل يدك» أي لاتمسك عن الإنفاق بحيث تضيّق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم و سبيل الخيرات للفقراء كالمغلولة الممنوعة من الانبساط كالّذي يداه مشدودة ولا تتوسّع توسّعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في كفّك شيء وتعطي بجميع ماعندك [فتقعد] من العمل وتلوم نفسك وتلام [محسوراً] كالبعير المنقطع له وسط الطريق ، وتبقى متحسّراً مغموماً .

روي أنّ امرأة بعثت ابنها إلى رسول الله ﷺ وقالت : قل له : إنّ أمّي تستكسبك درعاً فإن قال : حتّى يأتينا شيء ، فقل له : إنّها يطلب قميصك ، فأتاه وقال له ما قالت له ، فنزع ﷺ قميصه ودفعه إليه ولم يجد ﷺ شيئاً يلبسه ولم يمكنه الخروج إلى الصلاة فلامه الكفّار ، وقالوا : إنّ محمّداً اشتغل بالنوم واللهو عن الصلاة .

(١) الفرقان : ٦٧ .

[إنّ ربّك يبسط الرزق] ويوسّع تارة [و يقدر] أُخرى بحسب المصلحة مع سعة خزائنه إنّه عليم بأحوالهم بصير بمصالحهم .

قوله تعالى : ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا (٣١) ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة و ساء سبيلا (٣٢) ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا (٣٣) ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا (٣٤) و أوفوا الكيل اذا كلتم و زنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير و أحسن تاويلا (٣٥) .

النظم : لمّا ذكر سبحانه في الآية السابقة أنّه المتكفّل بالرزق حيث قال : « إنّ ربّك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» وعلّم البرّ بالوالدين أتبعه في هذه الآية كيفيّة البرّ بالأولاد و عدم الخوف من الفقر بقوله : [ولا تقتلوا أولادكم] خوف الفقر لأنّ العرب كانوا يئدون البنات خوف الفقر لعجز البنات عن الغزو والكسب وعدم قدرتهنّ على النهب و الغارة و يخافون أنّ فقرها ينفّر كفاءها عن الرغبة فيها ، فيحتاجون و يضطرّون إلى إنكاحها بغير كفوها فيلحقهم بذلك عار فقال تعالى : «ولا تقتلوا أولادكم » و الولد وصف مشترك بين الذكور و الإناث ، ثمّ قال : [نحن نرزقهم و إيّاكم] و أخبر سبحانه بأنّه متكفّل برزقهم ورزق آبائهم [إنّ قتلهم] في الجاهليّة [كان] إثماً عظيماً عندالله وهو اليوم كذلك .

قوله : [ولا تقربوا الزنى] وهووطي المرأة حراماً بلا عقد ولا شبهة عقد [إنّه كان فاحشة] ومعصية كبيرة عظيمة وبئس الطريق الزنى . وفيه إشارة إلى أنّ العقل يقبّح الزنى من حيث إنّه لايكون للولد نسب معلوم إذليس بعض الزناة أولى به من بعض فيؤدّي ذلك إلى قطع الأنساب وإبطال المواريث وصلة الرحم وحقوق الآباء على الأولاد وذلك مستنكر في العقول .

قال عثمان بن الخطّاب المعروف بأبي الدنيا : سمعت عليّاً أميرالمؤمنين يقول :سمعت رسول الله ﷺ يقول : في الزنى ستّ خصال ثلاث في الدنيا ، وثلاث في الآخرة ؛ فأمّا اللواتي

في الدنيا فيذهب بنور الوجه ، ويقطع الرزق ، ويسرع الفناء ، وأمّا اللواتي في الآخرة فغضب الربّ ، وسوء الحساب ، والدخول في النار ، أو الخلود في النار .

قوله : [ولا تقتلوا النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ] وهو أن يجب عليه القتل إمّا لكفره أو لردّته أو لأنّه قتل نفساً بغير حقّ أو زنى وهو محصن [ومن قتل مظلوماً] بغير حقّ [فقد جعلنا لوليّه سلطاناً] أي آتينا لوليّه سلطان القود على القاتل أو الدية أو العفو، و أكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل قال ﷺ : الآدميّ بنيان الربّ، ملعون من هدم بنيان الربّ . والوليّ من يلي أمره بعد وفاته . سلطاناً أي تسلّطاً بالقصاص والمؤاخذة، وينبغي أن يكتفي باستيفاء القصاص دون الزيادة .

وفي الكافي عن الكاظم عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية قيل : ما هذا الإسراف الّذي نهى الله عنه؟ قال عليه السلام : نهى أن يقتل غير قاتله أو يمثّل بالقاتل، قيل : فما معنى « إنّه كان منصوراً » قال : و أيّ نصرة أعظم من أن يدفع القاتل إلى أولياء المقتول فيقتله ولا تبعة تلزمه من قتله في دين ولا دنيا .

وفي الكافي والعيّاشيّ عنه عليه السلام إذا اجتمع العدّة على قتل رجل واحد حكم الوليّ أن يقتل أيّهم شاء وليس له أن يقتل أكثر من واحد ، إنّ الله يقول : «ومن قتل مظلوماً» إلى قوله : «فلا يسرف في القتل» .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام نزلت في الحسين عليه السلام لو قتل أهل الأرض به ما كان مسرفاً .

قوله تعالى : [ولا تقربوا مال اليتيم] هذا هو النوع الثالث من المنهيّات ، الأوّل الزنى لأنّه كان يوجب انقطاع النسل وذلك يوجب المنع من دخول الناس في الوجود ولأنّ اختلاط الأنساب موجب لمنع الاهتمام بتربية الأولاد وذلك يوجب انقطاع النسل فثبت أنّ الزنى والقتل يرجع حاصله إلى النهي عن إتلاف النفوس فلمّا ذكر الله هذين الأمرين أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال وأحقّ الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم هو اليتيم لأنّه لصغره و كمال عجزه يعظم ضرره بإتلاف ماله لأنّه لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه فلهذا خصّهم بالنهي عن إتلاف أموالهم .

وفي تفسير قوله : [إلّا بالّتي هي أحسن] وجهان : الأوّل إلّا بالتصرّف الّذي ينميه و يكثره . الثاني إذا احتاج احتياجاً شديداً أكل بالمعروف فإذا أيسر قضاه كما قال سبحانه : «ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنيّاً فليستعفف »[1] و اعلم أنّ الوليّ تبقى ولايته على اليتيم إلى أن يبلغ أشدّه وهو بلوغ النكاح كما بيّنه في آية أُخرى قال : «وابتلوا اليتامى حتّى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم»[2] والمراد بالأشدّ بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله وعند ذلك تزول ولايته عن اليتيم .

قوله تعالى : [وأوفوا بالعهد إنّ العهد] واعلم أنّ كلّ عقد يقدم لأجل توثيق الأمر وتوكيده فهو عهد ، وبالجملة مقتضى الآية أنّ كلّ عقد و عهد مشروع جرى بين إنسانين فإنّه يجب عليهما الوفاء بمقتضاه كعقود البيع والشركة واليمين والصلح والنكاح إلّا ماخرج بدليل منفصل فإنّه غير مشروع .

و يؤكّد هذا النص أيضاً آيات أُخر دالّة على الوفاء بالعهود و العقود كقوله : «والموفون بعهدهم إذا عاهدوا»[3] وقوله تعالى : « والّذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون[4]» فالأصل في العقود الصحّة ووجوب الالتزام به نعم لووجدنا نصّاً أخصّ من هذه النصوص يدلّ على البطلان والفساد قضينا به تقديماً للخاصّ على العام و بهذا الطريق تصير أبواب المعاملات على طولها مضبوطة معلومة ويكون الإنسان مطمئنّ القلب في العمل ، ثمّ قال سبحانه : [إنّ العهد كان مسئولاً] يراد صاحب العهد كان مسئولاً عنه .

[وأوفوا الكيل إذا كلتم] و المقصود منه إتمام الكيل و ذكر الوعيد الشديد في نقصانه في موضع آخر بقوله : « ويل للمطفّفين[5]» [وزنوا بالقسطاس المستقيم] وهو الميزان صغر أم كبر والمستقيم الّذي لابخس فيه ولا غبن وهو العدل أي مايكال و ما يوزن فلا بدّ و أن يكون بالتمام من دون نقص ، و[ذلك خير ثواباً] وأقرب الى الله [وأحسن] عاقبة ومرجعاً ،

---

(١) النساء : ٥ .　(٢) النساء : ٥ .
(٣) البقرة : ١٧٧ .　(٤) المؤمنون : ٨ . المعارج : ٣٢ .
(٥) المطفّفين : ١ .

والقسطاس في معنى الميزان. وقيل : القبّان .وقيل : إنّه بالروميّة واستعملته العرب. والأصحّ أنّه لغة العرب ومأخوذ من القسط والاستقامة والاعتدال الّذي لايميل إلى أحد الجانبين .

قوله : ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا (٣٦) .

قوله : [ولاتقف] مأخوذ من القفا،أي لاتتّبع ولا تقفما لاعلم لك به من قول أوفعل وحاصله يرجع إلى النهي عن الحكم بمالا يكون معلوماً وهذه قضيّة كلّيّة يندرج تحتها أنواع كثيرة . وفيه وجوه و كلّ واحد من المفسّرين حمله على واحد من تلك الأنواع :

الاول نهى المشركين عن المذاهب الّتي كانوا يقلّدون آباءهم في الإلهيّات فقال : «إن هي إلّا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان إن تتّبعون إلّا الظنّ » (١) .

والقول الثاني نقل عن محمّد بن الحنفيّة أنّ المراد منه شهادة الزور . قال ابن عبّاس : لاتشهدوا إلّا بمارأته عيناك وسمعته اُذناك و وعاه قلبك .

والقول الثالث المراد منه النهي عن القذف و رمي المحصنين و المحصنات بالأكاذيب .

والقول الرابع المراد منه النهي عن الكذب أي لاتقل : سمعت ولم تسمع و علمت ولم تعلم .

والقول الخامس أنّ القذف هو البهت أي لاتقل في قفا غيرك كلاماً يسوؤه ، وهو معنى الغيبة .

واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية قالوا : القياس لايفيد إلّا الظنّ ، و الظنّ مغائر للعلم فالحكم في دين الله بالقياس حكم بغير المعلوم فوجب أن لايجوز لقوله : « ولا تقف ماليس لك به علم» .

وأجاب مثبتو القياس بأنّ الحكم في الدين بمجرّد الظنّ جائز بإجماع الاُمّة في صور كثيرة : أحدها أنّ العمل بالفتوى عمل بالظنّ و هو جائز ، و العمل بالشهادة عمل

---

(١) النجم : ٢٣ .

بالظنّ و إنّه جائز ، والاجتهاد في طلب القبلة لايفيد إلّا الظنّ وأنّه جائز ، وقيم المتلفات واُروش الجنايات لاسبيل إليها إلّا بالظانّ و هو جائز ، و كون هذه الذبيحة ذبيحة المسلم مظنون لا معلوم و بناء الحكم عليه جائز . و قوله صلى الله عليه وآله : «نحن نحكم بالظاهر» تصريح بأنّ الظنّ معتبر في مثل هذه الأنواع .

قوله : [إنّ السمع والبصر] يسأل عمّا سمع والبصر عمّا رأى و القلب عمّا عزم عليه ؛ إنّ أصحابها مسؤولون و كلّ اُولئك الجوارح وأصحابها مسؤولون .

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره عن أبي حمزة الثماليّ عن أبي جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا يزول قدم عبد يوم القيامة بين يدي الله حتّى يسأل عن أربع خصال : عمرك فيما أفنيته وجسدك فيما أبليته ؟ و مالك من أين كسبته ؟ و أين وضعته ؟ و عن حبّنا أهل البيت .

قوله : ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا (٣٧) كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها (٣٨) ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله اله آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحوراً (٣٩) أفأ صفكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما (٤٠) .

«المرح» شدّة الفرح أي [لاتمش] على وجه البطر والخيلاء والتكبّر [إنّك] أيّها الإنسان [لن] تشقّ [الأرض] من تحت قدمك بكبرك [ولن تبلغ الجبال] بتطاولك ، فما وجه هذه المنابزة ؟ لأنّ من الناس من يمشي في الأرض بطراً يدقّ قدميه عليها ليرى بذلك قدرته وقوّته و يرفع رأسه و عنقه ، فبيّن سبحانه أنّه ضعيف لا يقدر أن يخرق الأرض بدقّ قدميه على الأرض حتّى ينتهي إلى آخرها وأنّ طوله كلّما يتطاول لا يبلغ طول الجبال ، فعلّم الله عباده التواضع والوقار .

قوله : [كلّ ذلك] إشارة إلى جميع ما تقدّم من المنهيّات كان معصيته عند الله [مكروهاً] لايريدها ولا يرضاها ، وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول المجبّرة بأنّه تعالى يكره السيّئات وإذا كرهها فكيف يريدها ويخلقها ؟ وهذا أمر ممتنع .

قوله : [ذلك ممّا أوحى إليك ربّك من الحكمة] إشارة إلى جميع ما تقدّم في هذه الآيات من الأوامر والنواهي وهي تقرب من واحد وعشرين حكماً :

فأوّلها قوله : «ولا تجعل مع الله إلهاً آخر» وقوله : « وقضى ربّك أن لاتعبدوا إلّا إيّاه » فهذا اثنان والثالث قوله : « و بالوالدين إحساناً » والرابع « فلا تقل لهما أُفّ » و الخامس «ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً» و السادس « واخفض لهما جناح الذلّ » و السابع «وقل ربّ ارحمهما» والثامن والتاسع والعاشر «وآت ذاالقربى حقّه والمسكين وابن السبيل » والحاديعشر «ولا تبذّر تبذيراً » والثاني عشر « وإمّا تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربّك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً » والثالث عشر « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك» والرابع عشر « ولا تقتلوا أولادكم » والخامس عشر « ولا تقتلوا النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ » والسادس عشر «ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً » و السابع عشر « فلا يسرف في القتل» والثامن عشر « وأوفوا بالعهد » والتاسع عشر « وأوفوا الكيل إذا كلتم» والعشرون « ولا تقف ماليس لك به علم » والواحد والعشرون «ولاتمش في الأرض مرحاً» .

و بالجملة هذه الأُمور ممّا أوحى الله من الحكمة المؤدّية الى المعرفة بالحسن و القبيح .

[ولاتجعل مع الله إلهاً آخر] في إقرارك واعتقادك وفعلك ، والخطاب للنبيّ والمراد به الأُمّة فإنّك إذا فعلت ذلك طرحت [في جهنّم ملوماً مدحوراً] مبعداً عن رحمة الله .

قوله : [أفأصفاكم ربّكم بالبنين واتّخذ من الملائكة إناثاً] هذا خطاب لمن جعل الملائكة بنات الله . قوله : «أفأصفاكم» أي أخلصكم الله بالبنين وخصّكم بهم و اتّخذ لنفسه البنات ، وأضفتم إلى الله مالم ترضوا لأنفسكم ؟ نظير قوله : «ألكم الذكر وله الأُنثى [1]» ونظير قوله : «أم له البنات ولكم البنون» [2] وفي جعل الشريك جعلوا الأرفع لأنفسهم و الأدون له أي اختصّ الاتّخاذ بالبنين لكم و اتّخذ لنفسه البنات و الإناث ، و جعلها مشتركة بينه وبينكم أي اختصّ لنفسه الأدون ولكم الأرفع [إنّكم لتقولون قولاً عظيماً]

(١) النجم : ٢١ . (٢) الطور : ٣٩ .

كثير الإثم وهوجعل الشريك والجزء لله سبحانه .

قوله تعالى : ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا (٤١) قل لوكان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا (٤٢) سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً (٤٣) تسبح له السموات والارض السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا (٤٤) .

التصريف عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة نحو تصريف الرياح و تصريف الأمور ثمّ تستعمل لفظ التصريف كناية عن التبيين لأنّ من حاول بيان شيء فإنّه يصرف كلامه من نوع إلى نوع ، ومن مثال إلى مثال ليقوى ويوضح البيان .

قوله : [ولقد صرّفنا] أي بيّنّا [في هذا القرآن] ضروباً من كلّ بيان و مثل . ومفعول «صرّفنا» محذوف[ليذّكّروا] و يتفكّروا فيها فيعلمون الحقّ و ليؤمنوا و لكنّهم يعكسون الأمر[ومايزيدهم] تصريف البيان [إلّا] تباعداًعن الحقّ . و شبّههم الله بالدوابّ النافرة .

قوله : [قل لوكان معالله آلهة] أي لوفرضنا وجود آلهة مع الله لغلب بعضهم بعضاً وحاصله ، يرجع إلى دليل التمانع ولطلبوا الآلهة سبيلاً إلى مغازة مالك العرش و مغالبة ومنازعته والكفويّة معه ليصفو له الملك .

ثمّ نزّه سبحانه نفسه من أن يكون له شريك في الإلهيّة فقال : [سبحانه و تعالى عمّا يقولون] عن قولهم [علوّاً كبيراً] وليس المراد من هذا التعالي العلوّ المكاني بل التعالي عن النظير و الشريك و جعل مصدراً مكان مصدر كقوله : « أنبتكم من الأرض نباتاً »[1] و كقوله : «وتبتّل إليه تبتيلاً »[2].

قوله : [يسبّح له السماوات] معنى التسبيح ههنا الدلالة على توحيدالله و عدله وجرى ذلك مجرى التسبيح باللفظ وربّما يكون التسبيح من طريق الدلالة أقوى لأنّه يؤدّي إلى العلم وليس في شيء من الموجودات إلّا ويسبّح بحمدالله من جهة خلقته إذ كلّ موجود سوى القديم حادث ، و حدوثه يدعو إلى صانع غير مصنوع و قيل : إنّ كلّ شيء

(١) نوح : ١٧ . (٢) المزمل : ٨ .

على العموم من الحيوان و النبات و الجماد يسبّح الله حتّى صرير النبات و خرير الماء [ولكن لاتفقهون تسبيحهم] حيث لم تنظروا فتعلموا كيف دلالتها على توحيده [إنّه كان حليماً] يمهلكم على كفركم [غفوراً] لكم إذا تبتم .

قوله تعالى : و اذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجاباً مستوراً (٤٥) وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه و في آذانهم وقرا واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا (٤٦) نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذهم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الارجلا مسحورا (٤٧) انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا (٤٨) .

نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على الناس : روي أنّه ﷺ كان كلّما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان و عن يساره آخران من ولد قصيّ يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار .

و عن أسماء أنّه ﷺ كان جالساً و معه رجل من أصحابه إذاً أقبلت أمّ جميل امرأة أبي لهب و بيدها فهر تريد رسول الله ﷺ و هي تقول : مذمّماً أتينا ، ودينه قلينا ، وأمره عصينا ، فقال أبوبكر : يارسول الله معها حجر أخشاها عليك ، فتلا ﷺ هذه الآية فجاءت ومارأت رسول الله .

وروى ابن عباس أنّ أباسفيان والنضر بن الحرث وأباجهل وغيرهم كانوا يجالسون النبيّ ﷺ ويستمعون إلى حديثه فقال النضر يوماً : ما أدري أنّ محمّداً مايقول ، غير أنّي أرى شفتيه يتحرّك بشيء . وقال أبوجهل : هو مجنون . وقال أبولهب : هو كاهن . وقال حويطب بن عبدالعزّى : هوشاعر ، فنزلت هذه الآية .

وكان النبيّ ﷺ إذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات وهي قوله في سورة الكهف : «إنّا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً»[١] وفي النحل «أولئك الّذين طبع الله على قلوبهم »[٢] وفي حم الجاثية «أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه »[٣] إلى

---

(١) آية : ٥٨ . (٢) آية : ١٠٨ .
(٣) آية : ٢٢ .

آخر الآية ، فكان الله يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين وهو المراد من قوله : [جعلنا بينك وبين الّذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً] .

فلو قيل : يقتضي أن يقال : حجاباً ساتراً ، الجواب : حجاب يخلقه الله في عيونهم بحيث يمنعهم ذلك الحجاب عن رؤية النبيّ وذلك الحجاب شيء لا يراه أحد فكان مستوراً من هذا الوجه ، أو كما يجوز أن يقال : لابن وتامر يعني ذو لبن و ذو تمر فكذلك يقال : مستور معناه ذو ستر ، والدليل عليه قولهم : مرطوب أي ذو رطوبة ، ولا يقال : رطيبة . ويقال : جارية مغنوجة أي ذات غنج . وقال الأخفش : ههنا المستور بمعنى الساتر ، فإنّ الفاعل قد يجيء بلفظ المفعول كما يقال : مشؤوم وميمون ، وإنّما هو شائم و يامن .

[وجعلنا على قلوبهم أكنّة وفي أذانهم وقراً] وستراً بسبب عدم قبولهم قول الحقّ وشدّة امتناعهم عن قبول نبوّته ، وإنّما نسب الله ذلك الكنّ والحجاب إلى نفسه لأنّه لمّا خلّاهم مع أنفسهم وما منعهم بطريق الإلجاء صارت تلك التخلية كأنّها هي السبب لوقوعهم في تلك الحالة ، كما أنّ السيّد إذا لم يراقب حال عبده بسوء فعله فإذا ساءت سيرته فيقول السيّد : أنا الّذي ألقاك في هذه الحالة بسبب أنّه ما رقبت حالك . لكنّ السبب الواقعيّ هو سوء فعل العبد واختياره ، فلذلك صحّت الإضافة .

قوله : [وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده] أي وإذا ذكرت الله بالتوحيد وأبطلت الشرك تركوا ذلك المجلس و[ولّوا على أدبارهم نفوراً] نافرين فيكون المصدر بمعنى الفاعل أو «نفور» جمع نافر مثل شهود جمع شاهد وقعود جمع قاعد .

ثمّ قال سبحانه : [نحن أعلم بما يستمعون به] أي ليس يخفى علينا حال هؤلاء المشركين وغرضهم من الاستماع إليك بل معلوم عندنا ونعلم حال ما يصغون إلى سماع قراءتك وحال ما يقومون من عندك ويتناجون فيما بينهم ويستهزءون ، ويقولون : هو شاعر وكاهن ومجنون .

قوله : [وإذهم نجوى] أي ذوي نجوى ويقولون : ما [تتّبعون إلّا رجلاً] قد سحر و اختلط عليه أمره وإنّما كانوا يقولون ذلك للتنفير عنه . و قيل : المسحور ههنا بمعنى

الساحر . وقيل : المسحور الفاسد المخدوع المعلّل . ثمّ قال سبحانه : على وجه التعجّب من قبيح فعالهم :

[انظر] يا محمد [كيف ضربوا لك الأمثال] أي شبّهوا لك الأشباه بقولهم : شاعر و ساحر . و ضلّوا بهذه الأقوال عن قبول الحقّ [فلا يستطيعون سبيلاً] أي لا يجدون حيلة وطريقاً إلى بيان تكذيبك إلّا البهت الصريح و ضلّوا عن الطريق المستقيم وهو دين الإسلام .

قوله تعالى: وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا (٤٩) قل كونوا حجارة أوحديدا (٥٠) أوخلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم اول مرة فسينغضون اليك رءوسهم و يقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا (٥١) يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده و تظنون ان لبثتم الاقليلا (٥٢) .

قال المنكرون للبعث من المشركين : إنّا إذا متنا و انتشر لحومنا و صرنا عظاماً وتراباً وغباراً أنبعث بعد ذلك [خلقاً جديداً] ؟ و إنّما قالوا ذلك على وجه الإنكار بصورة الاستفهام [قل] لهم يا محمد [كونوا حجارة أوحديداً] أي اجهدوا في أن تكونوا حجارة أوحديداً في الشدّة والقوّة [أوخلقاً] هو أعظم من ذلك عندكم وأصعب فإنّكم لا تفوتون الله وسيحييكم بعد الموت .

وقال ابن عبّاس : المراد بقوله : [أوخلقاً ممّا يكبر في صدوركم] هو الموت والمقصود المبالغة أي لوصارت أبدانكم نفس الموت فالله يعيدها فضلاً عن التراب و الرفات مثل أن يقال : لو كنت عين الموت فالله يحييك .

وحاصل المعنى أنّ القوم استبعدوا أن يردّهم إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً ، لأنّها صفات منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر فبيّن الله سبحانه بأنّه قدّروا أنّ انتهاء أجسامكم بعد الموت إلى صفة اُخرى أشدّ مناقاة لقبول الحياة من التراب و العظام مثل أن تصير حجارة أو حديداً فإنّ المنافاة بين الحجريّة و الحديديّة و بين قبول الحياة أشدّ من المنافاة بين العظميّة والترابيّة وبين قبول الحياة ؛ فبتقدير أن تصير

أبدان الناس موصوفة بالحديديّة بعدالموت أوأ كبرفالله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حيّاً عاقلاً كماكان .

قوله : [فسيقولون من يعيدنا] أي إنّك يا محمّد إذا قلت لهم : البعث ، سيقولون لك من يحيينا ؟ [قل الّذي] خلقكم [أوّل مرّة] فإنّ من قدر على ابتداء الشيء كان على إعادته أقدر ، وإنّما قال ذلك لهم لأنّهم كانوا يقرّون بأنّ النشأة الأُولى خلقها الله [فسينغضون] أي يتحرّكون إليك[رءوسهم] تحريك المستهزىء المستخفّ المستبطىء ويقولون : [متى يكون البعث ؟ [قل عسى أن يكون قريباً] لأنّ ماهو آت قريب ، قال الحسن : وكأنّك بالدنيا لم تكن وكأنّك بالآخرة لم تزل .

قوله : [يوم يدعوكم] معناه عسى أن يكون بعثكم قريباً أيّها المشركون يوم يدعوكم من قبوركم إلى الموقف على ألسنة الملائكة فيقولون : أيّها العظام النخرة و الجلود البالية عودي كما كنت[فتستجيبون] مضطرّين معترفين بأنّ الحمد لله هناك لأنّ المعارف يومئذ ضروريّة ، قال سعيدبن جبير : يخرجون من قبورهم يقولون : سبحانك و بحمدك ، لكن لاينفعهم الحمد في ذلك اليوم ، لأنّ إبليس ذلك اليوم موحّد .

قوله : [وتظنّون إن لبثتم إلّا قليلاً] أي تظنّون أنّكم لبثتم قليلاً في الدنيا لسرعة انقلاب الدنيا إلى الآخرة وإنّما استقصروا لبثهم في الدنيا لعلمهم بطول مكثهم في الآخرة . وقيل : إنّ معنى الآية من قوله : «يوم يدعوكم فتستجيبون ، إلخ» خطاب للمؤمنين لأنّهم يستجيبون الله ويحمدونه على إحسانه ويستقلّون مدّة لبثهم في البرزخ لكونهم في قبورهم منعّمين غير معذّبين ، وأيّام السرور والرخاء قصار .

قوله تعالى : وقل لعبادى يقول التى هى احسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا (٥٣) ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحمكم أوان يشأ يعذبكم وماأرسلناك عليهم وكيلا (٥٤) وربك اعلم بمن فى السموات والارض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا (٥٥) .

المراد من العباد في الآية المؤمنون لأنّ لفظ العباد في أكثر الآيات مختصّ بالمؤمنين

كقوله : « فبشّر عباد * الّذين يستمعون القول [١] » وقال : « فادخلي في عبادي [٢] » وقال : « عيناً يشرب بها عباد الله [٣] » .

ولمّا ذكر سبحانه الحجّة اليقينيّة في إبطال الشرك بقوله : « لو كان معه آلهة كما تقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً [٤] » بدليل التمانع وذكر الحجّة اليقينيّة في صحّة المعاد بقوله : « قل الّذي فطركم أوّل مرّة » قال في هذه الآية بقوله : [وقل لعبادي] إذا أردتم إيراد الحجّة على المخالفين فاذكروا الدليل بالطريق الأحسن وهو أن لا يكون ذكر الحجّة بالشتم والسبّ ، وذلك لأنّ ذكر الحجّة لو اختلط به شيء من السبّ والشتم لقابلوكم بمثله كما قال : « ولا تسبّوا الّذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم [٥] » ويزداد الغضب وتتكامل النفرة ، ويمتنع حصول المقصود [إنّ الشيطان ينزغ بينهم] أي متى صارت الحجّة ممزوجة بالبذائة صارت سبباً لثوران الفتنة ، ثمّ قال سبحانه : [إنّ الشيطان] عداوته مع الإنسان قديمة .

وسبب النزول أنّ المشركين كانوا يؤذون النبيّ وأصحابه وكان الأصحاب يقولون للنبيّ : ائذن لنا في قتالهم . فأنزل الله هذه الآية ، ثمّ قال سبحانه : [ربّكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم] بإخراجكم من مكّة وتخليصكم من إيذائهم [وإن يشأ يعذّبكم] بتسليطهم عليكم وهو أعلم بالمصلحة . وقيل : معناه إن يشأ يرحمكم بفضله وإن يشأ يعذّبكم بعدله ، فيكون الخوف منه والرجاء إليه .

ثمّ خاطب النبيّ ﷺ فقال : [وما أرسلناك عليهم حفيظاً] لأعمالهم بل إنّا أرسلناك داعياً لهم إلى الإيمان شاؤوا أم أبوا فإن أجابوك ، وإلّا فلا شيء عليك فإنّ عقاب ذلك يحلّ بهم . وقيل : إنّ المراد من قوله : « وقل لعبادي » ههنا الكفّار ولا يبعد في هذا الخطاب ليكون سبباً لجذب قلوبهم وميل طباعهم إلى الدين .

قوله : [وربّك أعلم بمن في السماوات والأرض] لمّا ذكر « ربّكم أعلم بكم » ذكر أنّ علمه غير مقصور عليكم بل علمه متعلّق بجميع الموجودات السماويّة والأرضيّة ولهذا

---

(١) الزمر : ١٧ ، ١٨ . (٢) الفجر : ٣١ .
(٣) الدهر : ٦ . (٤) السورة : ٤٢ .
(٥) الانعام : ١٠٨ .

السبب فضّل بعض الناس على بعض وبعض النبيّين على بعض .

وإنّما خصّ داود بالذكر لوجوه :

الاول أنّ داود كان ملكاً عظيماً ، ثمّ إنّه لم يذكر ما آتاه من الملك تنبيهاً على أنّ التفضيل الّذي ذكره التفضيل بالعلم لا بالمال .

و الوجه الثاني في التخصيص أنّه كتب في الزبور أنّ محمّداً خاتم النبيّين وأنّ اُمّته خير الأمم كما قال سبحانه : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون (١) » وهم محمّد واُمّته ، والزبور عبارة عن المزبور .

والوجه الثالث أنّ كفّار قريش ماكانوا أهل نظر بل كانوا يرجعون إلى اليهود في استخراج الشبهات ، واليهود كانوا يقولون : إنّه لانبيّ بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة ، فنقض الله كلامهم بإنزال الزبور على داود .

قوله تعالى : قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلايملكون كشف الضر عنكم ولاتحويلا (٥٦) اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محظورا (٥٧) .

النزول : كان بعض المشركين يقولون : نحن نعبد بعض المقرّبين من عباد الله فقوم عبدوا الملائكة ، وقوم عبدوا عزيراً ، وقوم عبدوا المسيح ، وقوم عبدوا نفراً من الجنّ ؛ فنزلت الآية : إنّ [الّذين] تزعمونهم آلهة لا [يملكون كشف الضرّ عنكم] وجلب النفع لكم [ولاتحويلاً] للحالة الّتي تكرهونها إلى حالة تحبّونها ومن كان بهذه الصفة فإنّه لايصلح للإلهيّة ولايستحقّ العبادة .

ثمّ رجع سبحانه إلى ذكر الأنبياء والموحّدين في الآية الاُولى فقال : [اُولئك الّذين يدعون] إلى الله ويطلبون القربة و[الوسيلة] بالعبادة إليه [أيّهم] أفضل و[أقرب] وذكر ذلك حثّاً على الاقتداء بهم وترك هذه الطريقة الخبيثة . فليكن الإنسان يرجو رحمة الله و يخاف عذابه [إنّ عذاب ربّك] يجب أن يحذر منه .

قوله تعالى : وان من قرية الانحن مهلكوها قبل يوم القيمة أو معذبوها

(١) الانبياء : ١٠٥ .

عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطورا (٥٨) ومامنعنا ان نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالايات الا تخويفا (٥٩) واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس وماجعلنا الرؤيا التي اريناك الافتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الاطغيانا كبيرا (٦٠) .

ثمّ أرشد سبحانه الخلق فقال : [وإن من قرية إلّا نحن مهلكوها] بإماتة أهلها [أو معذّبوها عذاباً شديداً] وهو عذاب الاستئصال فيكون هلاك الصالحين بالموت وهلاك الطالحين بالعذاب في الدنيا فإنّه يفنى الناس ويخرب البلاد قبل يوم القيامة ثمّ يقوم القيامة . وقيل : المراد بذلك قرى الكفر والضلال دون قرى الإيمان والمراد بالهلاك التدمير .

[كان ذلك في الكتاب مسطورا] وذلك كائن البتّة وهذا الحكم في الكتاب الكبير مكتوب وواقع لامحالة .

قوله :[ومامنعنا أن نرسل بالآيات] الّتي يقترحونها المشركون منك كقولهم : «اجعل لنا الصفا ذهبا» وأمثاله ، إلّا تكذيب الاُمم المتقدّمة لأنّهم اقترحوا من أنبيائهم وآتيناهم الآيات الّتي اقترحوها ولم يؤمنوا مع ذلك فاستحقّوا معاجلة العذاب فعذّبناهم بعذاب الاستئصال فحال قومك كذلك لو نأتيهم ما يقترحون لوجب أن نعذّبهم بعد الإتيان وعدم إيمانهم والحكمة اقتضت إمهالهم فلذلك السبب منعنا بإتيان الآيات المقترحة كما أنّه [آتينا قوم] [ثمود] آية المقترحة وهي [الناقة] وما آمنوا فعذّبناهم لأنّهم ظلموا بالآيات وأنكروها ، لكنّ الحكمة اقتضت أن تكون شريعتك مؤبّدة إلى يوم القيامة وهذا ينافي عذاب الاستئصال .

وقوله : [مبصرة] أي آية يستدلّ بها على صدق الرسول [فظلموا] وجحدوا بأنّها من عند الله وظلموا أنفسهم بوقوع العذاب عليهم [وما نرسل بالآيات إلّا] زجراً و [تخويفاً] لهم من عذاب الله .

ثمّ خاطب نبيّه فقال : واذكر الوقت الّذي [قلنا لك] يا محمد [إنّ ربّك أحاط بالناس] علماً بأحوالهم وبما يفعلون من الطاعة والمعصية أي إنّ حكمته وقدرته محيطة بالناس فهم

في قبضته والمقصود أنّهم لايقدرون على أمر من الأمور في إيذائك ونحن ننصرك حتّى تبلغ رسالتك وتظهر ديني كما قال في موضع : «والله يعصمك من الناس»[١] وقيل : معنى قوله : «إنّ ربّك أحاط بالناس» المراد بالناس في هذه الآية أهل مكّة وإحاطة الله بهم هو أنّه يفتحها للمؤمنين ويظهر دولتك عليهم .

قوله : [وماجعلنا الرؤيا] فيه أقوال :

أحدها أن المراد بالرؤيا رؤية العين وهي ما ذكره في أوّل السورة من إسراء النبيّ صلى الله عليه وآله من مكّة إلى بيت المقدس وإلى السماوات في ليلة إلّا أنّه لمّا رأى ذلك ليلاً وأخبر بها حين أصبح سمّاها رؤيا وسمّاها فتنة لأنّه أراد بالفتنة الامتحان ليعرض للمصدّق بذلك جزيل ثوابه والمكذّب به أليم عقابه .

وثانيها أنّها رؤيا نوم رآها صلى الله عليه وآله أنّه سيدخل مكّة وهو بالمدينة فقصدها فصدّها المشركون في الحديبيّة عن دخولها حتّى شكّ قوم منهم عمر ، ودخلت عليهم الشبهة فقالوا : يارسول الله أليس قد أخبرتنا أنّا ندخل المسجد الحرام آمنين ؟ فقال صلى الله عليه وآله : أوَ قلت لكم أنّكم تدخلونها العام ؟ قالوا : لا ؛ فقال : لندخلنّها إن شاء الله ، ورجع ثمّ دخل مكّة في العام القابل فنزل : «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ»[٢] وإنّما كان ذلك فتنة وامتحاناً .

وثالثها أنّ ذلك رؤياً رآها النبيّ في منامه أنّ قروداً تصعد منبره وتنزل ، فساءه ذلك واغتمّ به ، ولم ير بعد ذلك ضاحكاً حتّى مات صلى الله عليه وآله وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قالوا : إنّ الشجرة الملعونة في القرآن هي بنو اُميّة . و روي عن منهال ابن عمرو قال : دخلت على عليّ بن الحسين فقلت له : كيف أصبحت يا ابن رسول الله ؟ فقال : أصبحنا بمنزلة بني إسرائيل من آل فرعون يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وأصبح خير البريّة بعد رسول الله يلعن على المنابر وأصبح من يحبّنا منقوصاً ومغصوباً حقّه بحبّه إيّانا ، ثمّ بكى وقال عليه السلام : واذلّاه لاُمّة قتل ابن دعيّها ابن بنت نبيّها .

(١) المائدة ٧٠ .

(٢) الفتح : ٢٧ .

وممّا يؤكّد هذا المعنى قول عائشة لمروان : لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنه الله .

فلو قيل : إنّ رسول الله ماكان له منبر بمكّة . فالجواب أنّه رأى أنّ له بالمدينة منبراً يتداوله بنو اُميّة .

وقيل : إنّ الشجرة الملعونة في القرآن أي الزقّوم وإنّما سمّي فتنة لأنّ المشركين كانوا يقولون : إنّ محمّداً يوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثمّ يزعم أنّه تنبت فيها الشجرة .

وقوله : [في القرآن] معناه : الّتي ذكرت في القرآن ، قوله : [ونخوّفهم] أي نرهبهم بما نقصّ عليهم في هلاك الاُمم الماضية وبما نرسل من الآيات [فما يزيدهم] ذلك [إلّا طغياناً] وعتوّاً في الكفر عظيماً لأنّهم لايرجعون عن كفرهم .

قوله : واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس قال ءاسجد لمن خلقت طينا (٦١) قال ارايتك هذا الذى كرمت على لئن اخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا (٦٢) قال اذهب فمن تبعك منكم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا (٦٣) و استفزز من استطعت منهم بصوتك و اجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا (٦٤) أن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا (٦٥) .

النظم : لمّا وصفهم بقوله : «فما يزيدهم إلّا طغياناً كبيراً » وإنّ القوم نازعوا رسول الله وأنكروا رسالته لأجل الكبر والحسد شرح في هذه الآية أنّ الّذي حملهم على هذا الأمر وهو الكبر حمل إبليس على ماحمل .

قوله : [وإذ قلنا للملائكة] قدّمر تفسيره في سورة البقرة [قال] إبليس [ءأسجد لمن خلقت طيناً] وهو استفهام بمعنى الإنكار ، استكبر عن السجود نظر بأصله حيث إنّه من نار وأصل آدم من طين ، ولم يعرف أنّ الأصل ليس بالبنية بل بالإطاعة ، وإنّما جاز أن يأمرهم بالسجود لأنّ السجود يترتّب من التعظيم وليس كذلك العبادة ، والعبادة خاصّة لله .

ثمّ قال اللعين : أخبرني عن هذا الّذي فضّلته عليّ ؛ لمَ فضّلته عليّ وأنا خير منه ؟ واختصر الكلام لكونه مفهوماً من سياق الكلام ، و الكاف لتأكيد الخطاب لا محلّ لها من الإعراب ، أي أخبرني أنت عن هذا الّذي كرّمته عليّ وأمرتني بالسجود له ، لم كرّمته عليّ و مقصوده الاستصغار و الاستحقار أي أهذا من الّذين كرّمته عليّ ؟ و حذف حرف الاستفهام من هذا استغناءً عنه بسبب الاستفهام الأوّل في « أرأيتك » .

[لئن أخّرتني] حياً [إلى يوم القيامة] واللام توطئة للقسم، وجوابه [لأحتنكنّ ذرّيّته] أي لأستأصلهم [إلّا قليلاً] مأخوذ من احتنك الجراد الأرض إذا جرّد ماعليها ، أو المعنى لأقودنّهم ، من حنكت الدابّة واحتنكتها إذا جعلت في حنكها الأسفل حبلاً تقودها به ، وإنّما ادّعى اللعين هذا الأمر لأنّه قد جرت بوسوسة آدم فلم يجدله عزماً فعلم أنّ أولاده أضعف منه .

[قال] تعالى [اذهب] يا إبليس [فمن تبعك] من ذرّيّته واقتفى أثرك و قبل منك [فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً] كاملاً [واستفزز من استطعت] أي استزلّ من اقتدرت [منهم] بوسوستك وأضلّهم بدعوتك وهذا تهديد بصورة الأمر [بصوتك] أي بالغناء والمزامير والملاهي أو كلّ صوت يدعا به إلى الفساد فهو من صوت الشياطين .

[واجلب عليهم بخيلك ورجلك] أي اجمع عليهم من مكائدك وأتباعك وأعوانك ، و كلّ راكب أوماش في معصية الله من الإنس والجنّ فهو من جند إبليس من خيله ورجله . و« الباء» زائدة وقوله : «واجلب عليهم بخيلك ورجلك» أي استعن على إغوائهم بخيلك ورجلك ، وقرىء بكسر الجيم وبضمّها وعلى هذا المعنى يكون الباء غير زائدة [وشاركهم في الأموال والأولاد] أمّا المشاركة في الأموال عبارة عن كلّ تصرّف قبيح في المال سواء كان ذلك التصرّف بسبب أخذه من غير حقّه أو وضعه في غير حقّه فيدخل فيه المعاملات الفاسدة كالربى والغصب والسرقة وغيرها والبحيرة والسائبة وتبتيك آذان الأنعام وجعل المال لغير الله ، وأمّا المشاركة في الأولاد الدعاء إلى الزنى وتسمية أولادهم بعبد اللات والعزّى وترغيب أولادهم في الأديان الباطلة

وقتل الأولاد ووأدهم وكل تصرّف في الأولاد على وجه يؤدّي ذلك إلى ارتكاب منكر أو قبيح .

[وعدهم] بالأمانيّ الكاذبة وطول الأمل [وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً] أي يزيّن لهم الخطاء أنّه صواب [إنّ عبادي ليس لك] يعني الّذين يطيعونني لانفاذ لك [عليهم و كفى بربّك] حافظاً لعباده من الشرك إن أطاعوه .

قوله : ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما (٦٦) واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان الانسان كفورا (٦٧) افامنتم ان يخسف بكم جانب البر او يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا (٦٨) ام امنتم ان يعيدكم فيه تارة اخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا (٦٩) .

لمّا تقدّم ذكر الشيطان و عبدته من المشركين احتجّ في هذه الآية بدلائل التوحيد ؛ فقال :

[ربّكم] أي خالقكم الّذي يجري لكم السفن في البحر بما خلق على وجه يمكن جري السفن على الماء لتطلبوا من فضل الله بركوب السفن لصلاح دنياكم من التجارة والأمن من الغرق [إنّه كان بكم رحيماً] حيث أنعم عليكم بهذه النعمة .

[وإذا مسّكم الضرّ في البحر] والخوف الشديد من الغرق فسد [من تدعون إلّا إيّاه] أي في تلك الحالة لايتضرّع إلى الصنم والشمس والقمر وإنّما يتضرّع إلى الله [فلمّا نجّاكم] من المهلكة والغرق وأخرجكم [إلى البرّ أعرضتم] من الله والإخلاص [وكان الإنسان كفوراً] النعم الله بسبب أنّه عند الشدّة يتمسّك برحمته وعند الراحة يعرض عنه ويتمسّك بغيره .

قوله تعالى : [أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرّ] و المراد أنّه كما هو قادر على أن يغيبهم و يغرقهم من جانب البحر تحت الماء كذلك قادر على أن يغيبكم في الأرض تحت التراب أي هبوا أنّكم نجوتم من هول الغرق فكيف أمنتم من هول البرّ ؟ فمن جانب البحر إذا حصل الهلاك فبالغرق ، ومن جانب البرّ يحصل بالخسف فكيف تأمنون أن يأتيكم من جانب الفوق بإمطار الحجارة عليكم ؟ و «الحاصب» التراب الّذي فيه حصباء والحاصب كاللابن والتامر أي ذو الحصباء [ثمّ لا تجدوا] ناصراً ينصركم ويصونكم من عذاب الله أو يرسل عليكم ريحاً كاسراً قويّاً تكسركم وتكسر أشجاركم بسبب

كفركم ، ثمّ لاتجدوا لكم من يتبعنا بإنكار مانزل بكم بأن يصرفه عنكم ويؤاخذنا و يطالبنا بدمائكم ويقول : لم فعلت هذا بهم ؟ وليس لكم ثائر وناصر .

وقوله : ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر و البحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٧٠) يوم ندعوا كل اناس بامامهم فمن اوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرءون كتابهم و لا يظلمون فتيلا (٧١) ومن كان فى هذه اعمى فهو فى الاخرة اعمى واضل سبيلا(٧٢) .

لمّا تقدّم قول «إبليس هذا الّذي كرّمت عليّ» ذكر في هذه الآية تكرمة بني آدم بأنواع الإكرام وفنون الإنعام فقال : [ولقد كرّمنا] بأُمور بالقوّة المدركة والنطق واُمور عديدة منها تسليطهم على غيرهم وتسخير الحيوانات لهم وجعل محمّد ﷺ من البشر وأنّهم يعرفون الله ويأتمرون بأمره اختياراً وأشياء كثيرة لاتعدّ ، بها فضّل الله بني آدم على غيره ، والاُناس يذكر بعضها .

اعلم أنّ الإنسان جوهر متركّب من النفس والبدن فالنفس الإنسانيّ أشرف النفوس السفليّة وبدنه أشرف الأجسام السفليّة وللإنسان والحيوان قوى متشاركة كالاغتذاء والنموّ والتوليد والحسّاسيّة والحركة فهذه القوى الخمسة متشاركان .

ثمّ إنّ الإنسان اختصّ بقوّة اُخرى وهي القوّة العاقلة المدركة للكلّيّات وحقائق الأشياء كما هي وهذه القوّة من تلقيح الجواهر القدسيّة الإلهيّة فهذه القوّة لا نسبة لها في الشرف إلى تلك القوى الخمسة النباتيّة والحيوانيّة ؛ فظهر أنّ الإنسان أشرف النفوس الموجودة في عالم السفليّ .

وأمّا شرافة الّتي تتعلّق بالبدن الإنسانيّ بالنسبة إلى أبدان غيره من الشرف أحدها : روى ميمون بن مهران عن ابن عبّاس في تفسير قوله : «ولقد كرّمنا» قال : كلّ شيء يأكل إنّما يأكل بفيه غير ابن آدم فإنّه يأكل بيده . قيل : إنّ الرشيد اُحضرت عنده أطعمة فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له : قدجاء في التفسير عن جدّك في قوله تعالى : «ولقد كرّمنا بني آدم» جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فردّ الرشيد الملاعق وأكل بعد ذلك بيده وأصابعه .

ثمّ إنّ الإنسان فضّل بالكلام وقادر على بيان مقصوده كاملاً من بيان حاجة أو

ألم أو لذّة فيستريح نفسه بالبيان وإن كان أخرساً فبالإشارة يريح نفسه و يظهر مقصوده بخلاف سائر الموجودات . ثمّ فضّل الإنسان بحسن الصورة و الدليل عليه قوله تعالى : «وصوّركم فأحسن صوركم ،»(١) وتبارك الله أحسن الخالقين» (٢) .

والخامس من الفضائل المختصّة للإنسان أن آتاه الله الخطّ لأن يتمكّن أن يودع معلوماته في الكتاب ولا يضيع علمه المستنبط ، وإلى هذه الفضيلة الكاملة أشار سبحانه «اقرأ وربّك الأكرم * الّذي علّم بالقلم * علّم الإنسان مالم يعلم» (٣) .

والفضيلة السادسة أنّ أجسام هذا العالم من البسائط والمركّبات مسخّرة و خادمة للإنسان ، أمّا البسائط كالأرض والماء والهواء والنار مسخّرة لفوائد الإنسان و هو دائماً ينتفع بها فالأرض كالأمّ المربّية والمهد وتربية المنافع للإنسان ، وأمّا الماء فمعلوم نفعه للزرع والضرع ، وأمّا الهوى فهو مادّة حياتنا ولولاهبوب الرياح لاستولى النتن على هذه المعمورة ، وأمّا النار ففيها طبخ الأغذية وقائمة مقام الشمس والقمر في ليالي مظلمة، والدافعة لضرر البرد ، وأمّا المركّبات فهي أيضاً مسخّرة لهذا العالم الّذي ينتفع منه الإنسان من المعادن و آثار العلويّة والنبات والحيوان و أمثالها فهذا العالم بأسره جار مجرى قرية معمورة وجميع منافعها مصروفة ومعدّة للإنسان ، فهو كالرئيس المخدوم والملك المطاع والباقي كالخدم و كلّ ذلك يدلّ على كونه مخصوصاً من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل . بقي القول في أفضليّته من الملك أم لا فهو على القول بالاختلاف .

والسابعة أنّ الموجودات إمّا أن يكون أزليّاً وأبديّاً معاً وهو الله سبحانه ، وإمّا أن يكون لا أزليّاً ولا أبديّاً وهو عالم الدنيا مع كلّ مافيه من النبات و الحيوان والجماد وهذا أحسن الأقسام ، وإمّا أن يكون أزليّاً لا أبديّاً وهو ممتنع الوجود ؛ لأنّ ما ثبت قدمه امتنع عدمه ، وإمّا أن لايكون أزليّاً ولكنّه أبديّ وهو الإنسان والملك و لا شكّ أنّ هذا القسم أفضل من القسم الثاني والثالث فثبت أنّ الإنسان أشرف أكثر المخلوق .

والثامن أنّ العالم العلويّ أشرف من العالم السفليّ وروح الإنسان من جنس

---

(١) التغابن : ٣ . (٢) المؤمنون : ١٤ .

(٣) اقرأ : ٣-٥ .

الأرواح العلوية والجواهر القدسية وليس في موجودات العالم السفلي شيء حصل فيه شيء من العالم العلوي إلّا الإنسان ؛ فوجب كون الإنسان أشرف موجودات العالم السفلي .

والتاسع أنّ أشرف الكلّ من الموجودات هو الله وكلّ موجود كان قربه من معرفة الله أتمّ وجب أن يكون أشرف فلاشكّ أنّ الإنسان إذا كان قلبه مستنيراً بمعرفة الله ولسانه مشرّفاً بذكر آلاء الله وجوارحه مكرّمة بطاعة الله أشرف من غيره من الموجودات السفليّة . ولمّا ثبت أنّ الإنسان موجود ممكن لذاته والممكن لذاته لايوجد إلّا بإيجاد الواجب لذاته فكلّما حصل للإنسان من المراتب العالية فهي حصلت بإحسان الله إليه وإنعامه تعالى فلهذا المعنى قال : « ولقد كرّمنا بني آدم ».

قوله : [وحملناهم في البرّ] على الخيل والبغال والحمير والإبل [و] في [البحر] على السفن وهذا من مؤكّدات التكريم لأنّه تعالى سخّر هذه الدوابّ له حتّى يركبها ويغزو ويحمل عليها وكذلك تسخير السفن والمياه له [ورزقناهم من الطيّبات] لأنّ الأغذية إمّا حيوانيّة وإمّا نباتيّة وكلا القسمين إنّما يتغذّى الإنسان منها بألطفها وأطيبها بعد التنقية الكاملة والنضج التامّ البالغ بخلاف غيره [وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً] بأُمور خلقيّة ذاتيّة كالعقل واكتساب المعارف الإلهيّة .

والّذين توقّفوا على أفضليّة البشر من الملك كابن عبّاس والزجّاج استدلّوا بهذه الآية ؛ لأنّ قوله تعالى : « وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً » يدلّ على أنّه قد حصل في مخلوقات الله شيء لايكون الإنسان مفضّلاً عليه وكلّ من أثبت هذا القسم قال: إنّه هو الملائكة فيقتضي أنّ الملك أفضل من البشر . وأجابوا عن هذا القول وقالوا : إنّ المراد بالتفضيل مافضّلهم الله من فنون النعم الّتي عددنا بعضها ، وقالوا : إنّ المراد بالكثير في الآية الجميع بوضع الكثير موضع الجميع ، ثمّ إنّه إذا سلّم أنّ المراد بالتفضيل زيادة الثواب وأنّ لفظة «من» في قوله : «ممّن خلقنا» يفيد التبعيض فلايمتنع أن يكون جنس الملائكة أفضل من جنس بني آدم والفضل من بني آدم يختصّ بالأنبياء بقليل من كثير

فعلى هذا غير منكر أن يكون الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كان جنس الملائكة أفضل من جنس بني آدم .

واحتجّوا في تفضيل بني آدم بماروي عن زيد بن أسلم أنّه قال : قالت الملائكة ربّنا إنّك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويتنعّمون ولم تعطنا ذلك فأعطناه في الآخرة فقال الله : وعزّتي وجلالي لا أجعل ذرّيّة من خلقت بيدي كمن قلت له : كن فكان .

قوله تعالى : [يوم ندعو كلّ أُناس بإمامهم] وقرىء بالياء والنون أي أن ينادي يوم القيامة هاتوا متّبعي إبراهيم هاتوا متّبعي موسى هاتوا متّبعي محمّد صلى الله عليه وآله فيقوم أهل الحقّ الّذين اتّبعوا أنبياءهم فيأخذون كتبهم بأيمانهم ، ثمّ ينادي هاتوا متّبعي الشيطان وهاتوا متّبعي رؤساء الضلال . و روي عن عليّ عليه السلام : إنّ الأئمّة إمام هدى و إمام ضلالة . وقيل : معناه المراد من الإمام كتابهم الّذي اُنزل عليهم من أوامر الله ونواهيه فيقال ياأهل القرآن ويا أهل الإنجيل وهكذا . وقيل : معناه : بمن يأتمّون به عن علمائهم وأئمّتهم .

ويجمع هذه الأقوال ماروي عن الرضا عليّ بن موسى عليه السلام بالأسانيد الصحيحة أنّه روى عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : يدعى كلّ أناس بإمام زمانهم و كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم . وروي عن الصادق أنّه قال : ألا تحمدون الله إذا كان يوم القيامة يدعى كلّ قوم إلى من يتولّونه ودعينا إلى رسول الله ودعيتم إلينا قال : فإلى أين ترون يذهب بكم ؟ إلى الجنّة وربّ الكعبة قالها ثلاثاً . وقيل : يعني بكتابهم الّذي فيه أعمالهم . وقيل : بأُمّهاتهم صوناً عن افتضاح أولاد الزنى ورعاية لشرف عيسى والجنين ، فحينئذ إمام جمع أمّ .

[فمن أُوتي كتابه بيمينه] وأُعطي كتاب عمله الّذي فيه طاعاته بيمينه [فأُولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً] فرحين مسرورين لا يستنكفون عن قراءته لما يرون فيه الجزاء من الثواب ولا ينقصون ثواب أعمالهم مقدار فتيل وهو المفتول الّذي في شقّ النواة ، والفتيل الّذي في بطن النواة والنقير في ظهرها والقطمير قشر النواة ، وإعطاء الكتاب باليمين علامة الرضا والخلاص ، وباليسار ومن وراء الظهر علامة الهلاك .

قوله : [ومن كان في هذه أعمى] هذه إشارة إلى ماتقدّم من النعم أي ومن كان من هذه النعم والعبر أعمى [فهو في الآخرة أعمى] وقيل : إشارة إلى الدنيا أي من كان في الدنيا عن آيات الله أعمى ضالّاً عن الحقّ ذاهباً عن الدين فهو في الآخرة أشدّ تحيّراً عن طريق الجنّة ؛ فإنّ من ضلّ عن معرفة الله في الدنيا يكون يوم القيامة منقطع الحجّة فالأوّل اسم وأعمى الثاني أفعل التفضيل من العمى . وقيل : المعنى من كان في الدنيا أعمى القلب فإنّه في الآخرة يحشر أعمى العين عقوبة له على ضلالته في الدنيا . وقيل : من كان في الدنيا ضالّاً فهو في الآخرة أضلّ لأنّه لايقبل توبته ، والتأويل أنّه إذا عمي في الدنيا وقد عرّفه الله الهدى وجعل له التوبة وصلة فعمي عن رشده فلم يتب فهو في الآخره أشدّ عمى وأضلّ سبيلاً .

قوله : وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لا تخذوك خليلا (٧٣) ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا (٧٤) اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجدلك علينا نصيراً (٧٥) .

سبب النزول فيه أقوال :

الاول : أنّ قريشاً قالت للنبيّ : لاندعك تستلم الحجر حتّى يستلم بآلهتنا فحدّث نفسه وقال : ماعليّ في أن ألمّ بها والله يعلم أنّي لكاره لها ويدعو إلى استلام الحجر ، فنزلت وهذا قول سعيد بن جبير .

وثانيها : أنّهم قالوا : كفّ عن آلهتنا وشتمها واطرد هؤلاء السقاط الّذين رائحتهم رائحة الصنان حتّى نجالسك و نسمع ما تقول ، فطمع ﷺ في إسلامهم فنزلت .

وثالثها : أنّ رسول الله ﷺ أخرج الأصنام من المسجد فطلبت قريش منه أن يترك صنماً كان على المروة فهمّ بتركه ثمّ أمر بعده بكسره فنزلت . رواه العيّاشيّ بأسناده .

ورابعها : أنّها نزلت في وفد ثقيف قالوا : نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال :

لاننحني أي لانصلّي ، ونكسر أصنامنا بأيدينا وتمتّعنا باللات سنة فقال ﷺ : لاخير في دين ليس فيها ركوع ولا سجود ، فأمّا كسر أصنامكم بأيديكم فذاك لكم وأمّا الطاعة للات فإنّي غير ممتّعكم بها . وقام رسول الله ﷺ وتوضّأ فقال عمر بن الخطّاب : ما بالكم آذيتم رسول الله إنّه لايدع الأصنام في أرض العرب ؟ فمازالوا به حتّى أنزل الله هذه الآية ، عن ابن عبّاس .

وخامسها : أنّ وفد ثقيف قالوا : أجّلنا سنة حتّى نقبض مايهدى لآلهتنا فإذا قبضنا ذلك كسرناها وأسلمنا . فهمّ ﷺ بتأجيلهم ، فنزلت ، عن الكلبيّ عن عطيّة عن ابن عبّاس .

المعنى : « إن » مخفّفة و اللام هي الفارقة بينها وبين النافية أي إنّ الشأن قاربوا أن يفتنوك ويخدعوك فاتنين فيوقعوك في الفتنة ويصرفونك عمّا [أوحينا إليك] أي القرآن وحكمه لأنّ إعطاءهم ماسألوا مخالف لحكم القرآن [لتفتري علينا] غير ما اُوحي إليك [وإذاً] لوفعلت مايريدون [لاتّخذوك خليلاً] .

[ولولا] ولولا عصمتنا لك وتثبيتنا إيّاك على الحقّ [لقد كدت] تميل [إليهم] ركوناً [قليلاً] أي لقد قاربت بسبب سكوتك عن جوابهم طمعاً في إيمانهم أن تعطيهم بعض سؤالاتهم ولم تفعله ، ولو فعلته لعذّبناك العذاب المتضاعف ألمه ، لأنّ الذنب منك أعظم ، أو المراد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، ولاشكّ أنّ مراده سبحانه تخويف اُمّته لئلاّ يركن أحد من المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من اُمور الدين وأحكام الله ، وإنّ رسول الله معصوم ، ولو أنّه لو حدثت نفسه لهذا الأمر أيضاً ليس معصية لأنّه رفعت عن اُمّته ما حدثت به نفسهم مالم تعمل به ، أو تتكلّم به .

قوله : [ثمّ لاتجد لك علينا] ناصراً ينصرك ، فلمّا نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ : اللّهم لاتكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً .

قوله تعالى : وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها و اذا لايلبثون خلافك الا قليلا (٧٦) سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا (٧٧) .

النزول : نزلت في أهل مكّة لمّا همّوا بإخراج النبيّ من مكّة ، وقيل : نزلت في اليهود بالمدينة لمّا قدم رسول الله المدينة قالوا : إنّ هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء وإنّما أرض الأنبياء الشام فامض إلى الشام .

المعنى : أرادوا وقربوا أن يزعجوك من أرض مكّة بالإخراج . وقيل: «ليستفزّونك» معناه ليقتلوك ، وإنّهم لو أخرجوك لكانوا لا يلبثون بعد خروجك [إلّا قليلاً] من الزمان ومدّة يسيرة . وقيل : المراد إلّا ناساً قليلاً منهم ، يريد من انفلت منهم يوم بدر وأسلموا . والّذين سعوا في إخراجه من مكّة قتلوا يوم بدر وما لبثوا . كما أنّه [سنّة] من قبلك من الأمم الّذين فعلوا بأنبيائهم كذلك وأخرجوا أنبياءهم عذّبناهم و استأصلناهم و هذه عادتنا من قبل في الأمم [ولا تجد] لعادتنا تغييراً .

قوله : اقم الصلوة لدلوك الشمس الى غسق الليل و قرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا (٧٨) ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا (٧٩) وقل رب ادخلني مدخل صدق و اخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا (٨٠) وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً (٨١) .

النظم : لمّا قال سبحانه : « و إن كادوا ليستفزّونك » أخرج الكلام في مخرج هذا المعنى أنّك يا محمّد لا تبال بسعيهم في إخراجهم إيّاك من بلدك ولا تلتفت إليهم واشتغل بعبادة الله وداوم على الصلاة ؛ فإنّه يدفع عنك شرّهم و يجعل دينك غالباً على أديانهم نظير قوله : « فاصبر على ما يقولون و سبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس و قبل غروبها » [١] .

واختلفوا في معنى الدلوك قيل : معناه دلوكها أي غروبها ، وسمّي الغروب دلوكاً لأنّ الناظر يدلّك عينيه ليتبيّنها . وقيل : الدلوك زوالها و ميلها إلى غروبها لأنّ الناظر إليها أيضاً يدلّك عينيه لشدّة شعاعها وعليه الأكثرون ؛ فعلى هذا يتعلّق الحكم بميلها عن كبد السماء إلى وقت الظلمة . وغسق الليل هو أوّل بدء الظلمة وسواده . و قيل : غسق

(١) طه : ١٣٠ .

الليل انتصاف الليل ، عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام . فحينئذ المراد من الآية بيان الصلوات الخمس لا بيان صلاة واحدة بأنّ الله جعل من دلوك الشمس الّذي هو الزوال إلى غسق الليل وقتاً للصلوات الأربع إلّا أنّ الظهر والعصر اشتركا في الوقت من الزوال إلى الغروب والمغرب و العشاء الآخرة اشتركا في الوقت من الغروب إلى الغسق أي شدّة سواد الليل و انتصافه .

ثمّ أفرد سبحانه صلاة الصبح بالذكر وعطف على قوله : [و] أقم [قرآن الفجر] فهذا بيان وجوب الصلوات الخمس وبيان أوقاتها ، ويؤيّد ذلك ما رواه العيّاشي بالإسناد عن عبيد بن زرارة عن أبي عبدالله قال في هذه الآية : إنّ الله افترض أربع صلوات أوّل وقتها من زوال الشمس إلى انتصاف الليل إلّا أنّ هذه قبل هذه . وإلى هذا ذهب المرتضى في أوقات الصلاة ، و قال في قوله تعالى : « و قرآن الفجر » يدلّ على أنّ الصلاة لا يكون إلّا بقراءة لأنّ قوله : أقم الصلوة وأقم قرآن الفجر قد اُمر فيه أن يقيم الصلاة بالقراءة حتّى سمّيت الصلاة قرآناً فلا يكون الصلاة إلّا بقراءة .

قوله : [إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً] أي إنّ صلاة الصبح تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار .

و اعلم أنّ منشأ الاختلاف في الآية أنّ قوله : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل » هل بيان أوقات الصلوات الأربع أو الثلاث راجع إلى اختلاف معنى الدلوك والغسق كما عرفت ؛ فإن حملت معنى الغسق على أوّل دخول الظلام لم يدخل فيه إلّا الظهر والعصر والمغرب ، وإن حملت معنى الغسق على اشتداد الظلمة و انتصاف الليل دخلت فيه الصلوات الأربع كما هو الصحيح ، فعلى هذا بأن يكون الزوال وقتاً و الغسق وقتاً و الفجر وقتاً وهذا يقتضي أن يكون الزوال وقتاً للظهر والعصر فيكون هذا الوقت مشتركاً بين هاتين الصلاتين و أن يكون أوّل المغرب وقتاً للمغرب و العشاء ، فيكون هذا الوقت مشتركاً أيضاً بين هاتين الصلاتين ؛ فهذا يقتضي جواز الجمع على الترتيب أي بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقاً .

وسئل عن الصادق عليه السلام عن أفضل المواقيت في صلاة الفجر فقال : مع طلوع الفجر

إنّ الله يقول : « وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً» يعني صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل والنهار . ومعنى الفجر انكشاف ظلمة الليل عن نور الصباح ، وهذا يدلّ على أنّ التغليس أفضل من التنوير والفقهاء بيّنوا أنّ السنّة أن يكون القراءة في هذه الصلاة أطول من القراءة في غيرها ولعلّ معنى قوله : «حتّى يعرف الصديق من العدوّ» لاينافي كون التغليس أفضل من التنوير لطول القراءة فينتهي إلى التنوير ؛ لأنّ الإنسان إذا شرع في الصلاة في الظلمة وامتدّت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت الملائكتان وعرجت ونزلت وشهدت لهم عندالله بصلاتهم فيقول الله للملائكة : اشهدوا أنّي قدغفرت لهم . وهذا معنى قوله : «إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً» .

قوله : [ومن الليل فتهجّد به نافلة لك] الهجود في اللغة النوم ؛ وقال ابن الأعرابيّ : هجد الرجل إذا نام ، وهجد الرجل إذا صلّى من الليل . فعند هذا يكون من الأضداد . وقيل : الهجود لغة النوم وشرعاً لمن قام من النوم إلى الصلاة يقال له : المتهجّد ؛ فحينئذ يحمل على إلقاء الهجود عن نفسه للصلاة يقال : رجل متحرّج متأثّم و متحوّب أي ملقي الحرج والإثم والحوب عن نفسه .

و قال الحجّاج بن عمر المازنيّ : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل فصلّى حتّى يصبح أنّه قد تهجّد إنّما تهجّد الصلاة بعد الرقاد ثمّ صلاة اُخرى بعد رقده هكذا كانت صلاة رسول الله . إذا عرفت هذا فلا يبعد أنّه سمّي تهجّداً لهذا السبب . و قوله : « من » في قوله : « ومن الليل » لابدّ له من متعلّق ، و الفاء في قوله : « فتهجّد » لابدّ له من معطوف عليه ، والتقدير قم : من الليل أي في بعض الليل فتهجّد بالصلاة المشتملة على القرآن . ومعنى النافلة زيادة على الأصل .

واختلفوا بأنّ صلاة الليل هل كانت واجبة على النبيّ أم لا ؟

في التهذيب عن الصادق عليه السلام قال : فريضة على رسول الله .

وفي الخصال فيما أوصى به النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً : يا عليّ ثلاث فرحات للمؤمن في الدنيا : لقاء الإخوان و الإفطار من الصيام و التهجّد في آخر الليل . و في العلل عن

الصادق عليه السلام : عليكم بصلاة الليل فإنّها سنّة نبيّكم و دأب الصالحين قبلكم ، ومطردة الداء من أجسادكم .

وعن السجّاد عليه السلام أنّه سئل ما بال المتهجّدين بالليل من أحسن الناس وجهاً ؟ قال : لأنّهم خلوا بالله فكساهم الله من نوره .

وبالجملة في أخبارنا أنّ الله أوجب على نبيّه صلاة الليل له نافلة ولاُمّته غير واجبة ، ولهم كفّارة وفضيلة ؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن له ذنب حتّى تكون له كفّارة بل زيادة الدرجات ولاُمّته كفّارة الذنوب . ووجوب صلاة الليل عليه صلى الله عليه وآله من خصائصه من الخلق وتبيّن من قوله : «نافلة لك» أنّ وجوب التهجّد مخصوص به ، و وجوب الصلوات الخمس به وباُمّته لتقييد الأمر بالتهجّد بهذا القيد وإلّا لم يكن لهذا القيد فائدة في الكلام .

ثمّ قال : [عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً] قال أهل المعاني «عسى» كلمة من الله واجب لأنّها يفيد الإطماع و من أطمع إنساناً ثمّ حرّمه كان عاراً . و في معنى المقام قيل : إنّه الشفاعة . قال المفسّرون : على أنّه مقام الشفاعة كما قال صلى الله عليه وآله في هذه الآية : هو المقام الّذي أشفع لاُمّتي فيه ، وقالوا : إنّ الحمد إنّما يكون على الإنعام وهذه الشفاعة أنعم الله رسوله فحمدوه على الإنعام . وممّا يؤكّد هذا المعنى الدعاء : وابعثه المقام المحمود الّذي يغطبه به الأوّلون والآخرون ، واتّفقوا على أنّ المراد منه الشفاعة ، وقيل ـ والقائل حذيفة ـ : يجمع الناس في صعيد فلا تتكلّم نفس ؛ فأوّل مدعوّ محمّد صلى الله عليه وآله فيقول صلى الله عليه وآله : لبّيك وسعديك والشرّ ليس إليك ، والمهديّ من هديت و عبدك بين يديك و بك و إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك تباركت وتعاليت سبحانك ربّ البيت ؛ فهذا هو المراد من المقام .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه أهل المحشر : ثمّ يجتمعون في موطن آخر يكون فيه مقام محمّد صلى الله عليه وآله وهو المقام المحمود ؛ فيثني على الله بما لم يثن عليه أحد قبله ، ثمّ يثني على كلّ مؤمن ومؤمنة يبدأ صلى الله عليه وآله بالصدّيقين والشهداء ثمّ بالصالحين فيحمد أهل السماوات وأهل الأرض فذلك قوله عزّ و جلّ : «عسى أن يبعثك ، إلخ» فطوبى لمن كان له في ذلك اليوم حظّ و نصيب ، و ويل لمن لم يكن له حظّ و نصيب .

وفي روضة الواعظين عن النبي صلى الله عليه وآله : هو المقام الّذي أشفع لأُمّتي ، قال : وقال صلى الله عليه وآله : إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أُمّتي فيشفّعني الله فيهم والله لا تشفّعت فيمن آذى ذرّيّتي .

و عنه عليه السلام أنّه سئل عن شفاعة النبيّ يوم القيامة فقال : يلجم الناس يوم القيامة العرق فيقولون انطلق بنا إلى آدم يشفع لنا ، فيأتون آدم فيقولون له : اشفع لنا عند ربّنا ، فيقول : إنّ لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح ؛ فيأتون نوحاً فيردّهم إلى من يليه حتّى ينتهوا إلى عيسى عليه السلام فيقول : عليكم بمحمّد صلى الله عليه وآله ، فيعرضون أنفسهم عليه فيقول : انطلقوا . فينطلق بهم إلى باب الجنّة ويستقبل باب الرحمن ويخرّ ساجداً ، فيمكث ماشاء الله فيقول : ارفع رأسك واشفع تشفّع ، وسل تعط ، وذلك قوله : «عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً» وهو المقام الّذي يعطى فيه لواء الحمد فيوضع في كفّه و يجتمع تحته الأنبياء و الملائكة فيكون أوّل شافع و أوّل مشفّع .

قوله تعالى : [وقل] يا محمّد [رب أدخلني مدخل صدق] أي أدخلني في جميع ما أرسلتني به إدخال صدق [وأخرجني] منه إخراج [صدق] أي أعنّي على الوحي والرسالة. وقيل : معناه أدخلني المدينة وأخرجني منها إلى مكّة للفتح . وقيل : إنّه أُمر بهذا الدعاء إذا دخل في أمر أوخرج من أمر . وقيل : أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق و أخرجني منه عند البعث مخرج صدق ما يحمد عاقبته . وقيل : أدخلني في الصلاة مع الصدق والإخلاص وأخرجني مع الإخلاص والقبول .

[واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً] أي اجعل لي عزّاً أمتنع به ممّن يحاول صدّي عن إقامة أمرك أوحجّة على أن أتقوّى بها على من عاداني فيك أقهر بها العصاة فنصر صلى الله عليه وآله بالرعب حتّى خافه العدوّ على مسيرة شهر .

[وقل] يا محمّد [جاء الحقّ] وهو الإسلام [وزهق الباطل] وهو الكفر و الشرك . وقيل : الحقّ القرآن والباطل الشيطان . روي عن عبدالله بن مسعود أنّه قال : دخل النبيّ مكّة وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنماً فجعل يطعنها ويقول : جاء الحقّ و زهق الباطل ،

فجعل الصنم ينكبّ لوجهه حين يقرأ ﷺ هذه الآية ، و يقولون أهل مكّة : مارأينا رجلاً أسحر من محمد ﷺ .

قوله تعالى : وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الاخسارا (٨٢) واذا انعمنا على الانسان اعرض ونآ بجانبه و اذا مسه الشر كان يؤسا (٨٣)قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلا (٨٤) .

المعنى : اعلم أنّ «من» في الآية للجنس لا للتبعيض أي [وننزّل من] هذا الجنس من الكلام الّذي هو القرآن [ماهو شفاء] من الأمراض الروحانيّة والعقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة ؛ لأنّ أشدّ المفاسد فساد العقائد الفاسدة في الإلهيّات والنبوّة والبعث ، و القرآن مشتمل على رفع هذه المفاسد بالدلائل الواضحة ويدفع العيوب الباطنة فكان شفاء من هذا النوع من المرض .

وأمّا كونه شفاء من الأمراض الجسمانيّة فلأنّ التبرّك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض واعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأنّ لقراءة الرقيّ المجهولة والعزائم الّتي لايفهم منها شيء آثار عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المضارّ فلأن تكون القراءة من القرآن سبباً لحصول المنافع ودفع المضارّ كان أولى ، على أن وردت أخبار في بعض الآيات لأمور ، ويؤيّد هذا المعنى ماروي أنّ النبيّ ﷺ قال : من لم يستشف بالقرآن فلاشفاه الله .

و أمّا كونه رحمة للمؤمنين و نعمة لهم لأنّهم المنتفعون من القرآن ، ولكنّ الظالمين لا يزدادون عنده إلّا الخسار و العقاب لكفرهم به و لعلّ المعنى أنّ القرآن يظهر ماهم فيه من الكيد والمكر فيفتضحون بذلك .

قوله : [و إذا أنعمنا على الإنسان] و كثرت نعمته [أعرض] عن ذكرنا وولّى و بعد بنفسه وجانبه عن القيام بحقوق إنعامنا وشكرنا وتباعد عنّا عن الشكر والدعاء وتكبّر [وإذا مسّه الشرّ] وأسباب المحنة وأصابه الفقر لم يصبر ويكون قنوطاً ومأيوساً من رجاء

الفرج بخلاف المؤمن فإنّه يرجو الفرج والروح على هذا ، فيكون المراد بالآية خاصّاً وإن كان اللفظ عامّاً .

[قل] يا محمّد لهم : [كلّ يعمل] على طبيعته وطريقته الّتي تخلّق بها من المؤمن و الكافر حسب عادته ولهذا قال : [فربّكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً] أي يعلم أيّ الفريقين على الهدى وأيّهما على الضلالة . وقال بعض أرباب اللسان : هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ؛ لأنّ الأليق بكرمه العفو عن عباده فهو يعمل به .

ويسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا (٨٥) ولئن شئنا لنذهبن بالذى اوحينا اليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا (٨٦) الارحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيراً (٨٧) قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٨٨) ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفوراً (٨٩) .

اختلف في الروح المسئول عنه قيل : إنّهم سألوا عن الروح الّذي في بدن الإنسان وهو سبب الحياة ماهو ؟ و السائلين هم اليهود . و قيل : إنّهم سألوا عن قدمها وحدوثها أهي مخلوقة محدثة أم قديمة ؟ وقيل : سألوا عن جبرئيل أوعن ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكلّ وجه سبعون ألف لسان يسبّح الله بجميع ذلك على ماروي عن علي عليه السلام ، أو عيسى فإنّه سمّي بالروح . وقيل : سألوا عن الروح الّذي هو القرآن كيف يتلقّن منه بالملك ؟ و كيف صار نظمه و ترتيبه مخالفاً لأنواع كلامنا من الخطب والأشعار ، وقد سمّى الله تعالى القرآن روحاً في قوله : «و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا» [1] فقال سبحانه : [قل] يا محمّد : إنّ [الروح] الّذي هو القرآن [من أمر ربّي] أنزله عليّ دلالة على نبوّتي وليس من فعل المخلوقين ولا ممّا يدخل في إمكانهم الإتيان بمثله كالخطب والأشعار الّتي يأتون بها فعلى هذا القول فقد وقع الجواب موقعه .

وأمّا على معنى سؤالهم من حدوث الروح أم قدمه أيضاً فقد وقع الجواب أيضاً موقعه

(١) الشورى : ٥٢ .

فقال : « قل الروح من أمر ربّي » أي من فعله وخلقه أي حادث وليس بقديم ، ومعنى الأمر الفعل ولفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل قال : «وما أمر فرعون برشيد » (١)

وأمّا على كون سؤالهم عن ماهيّة الروح الّذي تتعلّق الحياة بها وهي سارية في البدن فقد عدل عن جوابهم لعلمه بعدم فهمهم هذا الأمر ، وأدعى إلى الصلاح لأنّهم لا يستفيدون من الجواب شيئاً فكلّمهم في معرفة الروح إلى ما في عقولهم فقال : من أمره «كن» وتعلّق القدرة بإيجادها .

وبالجملة اختلف العلماء في ماهيّة الروح فقيل : إنّه جسم رقيق هوائيّ متردّد في مخارق الحيوان وهو مذهب أكثر المتكلّمين ، واختاره الأجلّ المرتضى قدّس سرّه .

وقيل : جسم هوائيّ على بنية حيوانيّة في كلّ جزء منه حياة عن عليّ بن عيسى ، قال : فلكلّ حيوان روح وبدن إلّا أنّ فيهم من الأغلب عليه الروح ومنهم من الأغلب عليه البدن .

وقيل : إنّ الروح عرض ، ثمّ اختلف فيه فقيل : هو الحياة الّتي يتهيّأ به المحلّ لوجود القدرة والعلم والاختيار ، وهو مذهب الشيخ المفيد أبوعبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان والبلخيّ والمعتزلة البغداديّة .

وقال بعض العلماء : إنّ الله خلق الروح من ستّة أشياء من جوهر النور والطيب والبقاء والحياة والعلم والعلوّ ألاترى أنّه مادام في الجسد كان نورانيّاً يبصر بالعينين ويسمع بالأُذنين ويكون طيّباً فإذا خرج عن الجسد نتن الجسد ، ويكون باقياً فإذا فارقه الروح بلى وفنى ، ويكون حيّاً وبخروجه يصير ميّتاً ، ويكون عالماً فإذا خرج منه الروح لم يعلم شيئاً ، ويكون علويّاً لطيفاً توجد به الحياة بدلالة قوله في صفة الشهداء : « بل أحياء عند ربّهم يرزقون » (٢) .

قوله : [وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلاً] قيل : هو خطاب للنبيّ وغيره أي ما أُوتيتم العلم ، المنصوص عليه شيء يسير بالنسبة إلى غير المنصوص عليه ؛ فإنّ معلومات الله لانهاية لها . وقيل : الخطاب لليهود الّذين سألوا عن الروح فقالت اليهود عند ذلك : قد أعطانا

(١) هود : ٩٨ .
(٢) آل عمران : ١٦٩ .

الله التوراة ؛ فقال ﷺ : التوراة في علم الله قليل .

واعلم أنّ للناس في حقيقة الإنسان مذاهب فجمهور المتكلّمين يقولون : إنّ الإنسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة وعن هذا الجسم المحسوس ، ويقولون : إنّ الإنسان يحتاج تعريفه إلى ذكر حدّ أو رسم . و بعض أنكروا هذا القول ، و يقولون : إنّ العلم الضروري يحكم بأنّ ههنا شيئاً غير الإنسان بقوله : أنا ، وعلمت ، وسمعت ، وفرحت ، وغضبت فالمشار إليه بقوله : أنا إمّا جسم أو عرض أو مجموع الجسم والعرض أو شيء مغاير للجسم والعرض .

والّذي يدلّ على أنّه لا يمكن أن يكون الإنسان هو هذا الجسم المحسوس وجوه :

الوجه الاول : أنّ العلم البديهي حاصل بأنّ أجزاء هذه الجثّة متبدّلة بالزيادة والنقصان تارة بحسب النموّ والذبول وتارة بحسب السمن والهزال ، والمتبدّل المتغيّر غير الثابت الباقي .

الثاني أنّ الإنسان حال ما يكون مشتغل الفكر نحو أمر معيّن مخصوص فإنّه في تلك الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه و أعضائه وأبعاضه مجموعها ومفصّلها وهو مع ذلك غير غافل عن نفسه المعيّنة بدليل أنّه في تلك الحالة قد يقول : غضبت واشتهيت وأبصرت ، وتاء الضمير كناية عن نفسه فهو في تلك الحالة عالم بنفسه وغافل عن جملة بدنه وعن كلّ من أعضائه والمعلوم غير ماهو غير معلوم فالإنسان يجب أن يكون مغايراً لجملة هذا البدن .

الوجه الثالث أنّ الإنسان قد يكون حيّاً حال ما يكون البدن ميّتاً فوجب كون الإنسان مغايراً لهذا البدن ؛ قال الله : «و لا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون» (١) فهذا النصّ صريح في أنّ أولئك المقتولين أحياء والحسّ يدلّ على أنّ هذا الجسد ميّت و كذلك قوله ﷺ : أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار . و كذلك قوله ﷺ : من مات فقد قامت قيامته . و كلّ هذه النصوص

(١) آل عمران : ١٦٩ .

تدلّ على أنّ الإنسان يبقى بعد موت الجسد ، و إذا ثبت أنّ الإنسان حيّ و كان الجسد ميّتاً لزم أنّ الإنسان شيء غير هذا الجسد ، و قوله عليه‌السلام في خطبة طويلة له : «حتّى إذا حمل الميّت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ، ويقول : يا أهلي ويا ولدي جمعت المال من حلّه وغير حلّه» ومعلوم أنّ الّذي كان الأهل أهلاً له ليس إلّا ذاك الإنسان وهذا الأمر في وقت كان الجسد ميّتاً محمولاً وذلك الإنسان حيّاً باقياً .

الوجه الرابع أنّ الإنسان إذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تقطع يداه أو رجلاه أو تقلع عيناه أو تقطع اُذناه إلى غيرها من الأعضاء فإنّ ذلك الإنسان يجد من قلبه وعقله أنّه هو عين ذلك الإنسان ولم يقع في ذلك الإنسان تفاوت ؛ حتّى أنّه يقول : أنا ذلك الإنسان الّذي كنت موجوداً قبل ذلك إلّا أنّهم قطعوا يدي ورجلي ، وذلك برهان يقينيّ على أنّ ذلك الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء وذلك يبطل قول من يقول : الإنسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة ، وأنت إذا تكلّمت مع زيد وقلت له : افعل كذا ولاتفعل كذا ، فالمخاطب والمأمور والمنهيّ ليس هو جبهة زيد ولا أنفه ولا عينه والمأمور شيء مغاير لهذا البدن .

فإن قيل : لم لايجوز أن يقال : المأمور جملة هذا البدن لا شيء من أعضائه ؟

قلنا : توجّه التكليف على الجملة إنّما يصحّ لو كانت الجملة فاهمة عالمة ؛ فلو كانت الجملة فإمّا أن يقوم بمجموع البدن علم واحد أو يقوم بكلّ واحد من الأجزاء علم على حدة ، والأوّل يقتضي قيام العرض بالمحالّ الكثيرة وهو محال . والثاني يقتضي أن يكون كلّ واحد من أجزاء البدن عالماً مدركاً على سبيل الاستقلال والعلم الضروريّ يحكم بأنّ الجزء المعيّن من البدن ليس فاهماً عالماً على سبيل الاستقلال فيسقط السؤال .

قوله : [ولئن شئنا لنذهبنّ بالّذي أوحينا إليك] لمّا بيّن سبحانه في الآية الاُولى أنّه ما آتاهم من العلم إلّا قليلاً بيّن في هذه الآية أنّه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل لقدر عليه أي إنّي أقدر أن آخذ ما أعطيتك كما منعته غيرك لكن دبّرت لك بالرحمة فأعطيتك ماتحتاج إليه من العلم ومنعت مالا تحتاج إليه ، وأثبتّ القرآن في قلبك وقلوب المؤمنين ولو شئنا لمحونا هذا القرآن من صدرك وصدر اُمّتك حتّى لايوجد له أثر [ثمّ لاتجد له] حفيظاً يحفظه عليك و يحفظ ذكره على قلبك

وفي هذه الآية دلالة على أنّ السؤال عن الروح وقع عن القرآن .

واحتجّ القائلون بحدوث القرآن وأنّه مخلوق وليس بقديم قالوا : والّذي يقدرعلى إزالته والذهاب به يستحيل أن يكون قديماً .

قوله : [إلّا رحمة من ربّك] على الاستثناء المنقطع يعني لكن رحمة ربّك تركته لك وما ذهب به وهذه منّة من الله عليه [إنّ فضله] وامتنانه بسبب إبقاء القرآن والعلم [عليك كبيراً] بسبب إنزال القرآن عليك وجعلك سيّد ولد آدم وختم بك النبيّين وأعطاك المقام المحمود .

قوله تعالى : [قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ] قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار : لئن اجتمعت الإنس والجنّ متعاونين متعاضدين [على أن يأتوا بمثل هذا القرآن] وجامعيّته وجودة المعاني والخلوّ من التناقض ، وكونه من الطبقة العليا [لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض] معيناً مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه ، وللناس فيه قولان : منهم من قال : القرآن في نفسه معجز . ومنهم من قال : إنّه ليس في نفسه معجزاً إلّا أنّه تعالى لمّا صرف دواعيهم عن الإتيان بمعارضته مع أنّ تلك الدواعي كانت قويّة فكانت هذه الصرفة والمنع معجزة .

والبيان في هذه المسألة : أنّ القرآن إمّا في نفسه يكون معجزاً أو لا يكون ؛ فإن كان معجزاً فقد حصل المطلوب وإن لم يكن معجزاً بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفّرة على الإتيان بهذه المعارضة وما كان لهم عنها صارف ومانع ، وعلى هذا التقدير فإنّ الإتيان بمعارضته عندهم واجب فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضاً للعادة فيكون مع التحدّي معجزاً فثبت الإعجاز .

وفي هذه الآية أيضاً دلالة على أنّ السؤال بالروح وقع عن القرآن لأنّه من تمام الآية ومن تمام ما أمر الله نبيّه أن يجيبهم .

[ولقد صرّفنا للناس] أي ولقد أخبرناهم وبيّنّا لهم في هذا القرآن من كلّ ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم ليتفكّروا فيها [فأبى أكثر الناس] من القبول وزادوا جحوداً للحقّ كأنّه قيل : فلم يرضوا [إلّا كفوراً] لأنّ لفظ « أبى » معناه النفي .

قوله تعالى: وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا(٩٠) أو تكون لك جنة من نخيل و عنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً (٩١) او تسقط من السماء كما زعمت علينا كسفا و اوتأتي بالله و الملائكة قبيلا (٩٢) اويكون لك بيت من زخرف اوترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الابشرا رسولا (٩٣) ومامنع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث الله بشرا رسولا (٩٥) قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (٩٥) قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا (٩٦).

النزول : قال ابن عبّاس : إنّ جماعة من قريش وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبوسفيان بن الحرب والنضربن الحارث والأسود بن المطلّب وزمعة بن الأسود والوليدبن مغيرة وأبوجهل بن هشام وعبدالله بن هشام وعبدالله بن اُميّة واُميّة بن خلف والعاص بن الوائل وبنيه ومنبّه ابنا الحجّاج وأبوالبحتريّ بن هشام اجتمعوا عند الكعبة وقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد ﷺ فكلّموه وخاصموه ؛ فبعثوا إليه أنّ أشراف قريش قومك قد اجتمعوا لك ، فبادر إليهم ظنّاً منه ﷺ أنّهم بدالهم في أمره وكان حريصاً على رشدهم فجلس إليهم فقالوا : يامحمد ﷺ إنّا دعوناك لنعذر إليك فلانعلم قوماً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك : شتمت الآلهة وعبت الدين وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالاً أعطيناك وإن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا وإن كانت علّة غلبت عليك طلبنا لك الأطبّاء . فقال ﷺ : ليس شيء من ذلك بل بعثني الله إليكم رسولاً وأنزل كتاباً فإن قبلتم ماجئت به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه أصبر حتّى يحكم بيننا . قالوا : فإن بلدتنا مكّة ضيّقة فاسأل ربّك أن يسيّر هذه الجبال و يجري لنا أنهاراً كأنهار الشام و العراق و أن يحيي و يبعث من مضى و ليكن فيهم قصيّ فإنّه شيخ صدوق لنسألهم عمّا تقول أحقّ أم باطل ؟ فقال ﷺ : مابهذا بعثت . قالوا : فإن لم تفعل ذلك فاسأل ربّك أن يبعث ملكاً يصدّقك ويجعل لنا جنّات و كنوزاً وقصوراً من ذهب . فقال ﷺ : مابهذا بعثت وقد جئت بما بعثني الله به فإن قبلتم وإلّا فهو يحكم بيني وبينكم . قالوا : فأسقط علينا السماء كما زعمت إنّ ربّك إن شاء فعل ذلك . قال :

ذاك إلى الله إن شاء فعل . وقال قائل منهم : لا نؤمن لك حتّى تأتي بالله والملائكة قبيلاً .
فقام النبيّ ﷺ وقام معه عبدالله بن اُميّة المخزوميّ ابن عمّته عاتكة بنت عبد المطّلب فقال : يا محمّد ﷺ عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله ثمّ سألوك لأنفسهم اُموراً فلم تفعل ، ثمّ سألوك أن تجعل ما تخوّفهم به فلم تفعل فوالله لا اُؤمن بك أبداً حتّى تتّخذ سلّماً في السماء وترقى فيه وأنا أنظر و يأتي معك نفر من الملائكة يشهدون لك و كتاباً يشهد لك . و قال أبوجهل بن هشام المخزوميّ : إنّه أبى إلّا سبّ الآلهة و شتم الآباء وأنا اُعاهد الله لأحملن حجراً فإذا سجد ضربت رأسه فانصرف رسول الله حزيناً لما رأى من قومه ، فنزلت الآية .

المعنى : لمّا بيّن إعجاز القرآن عقّب البيان بأنّهم أبوا إلّا الكفر و الطغيان و اقترحوا من الآيات ماليس لهم ذلك وقالوا : [لن نؤمن لك] ونصدّقك [حتّى] تشقّق [لنا] من أرض مكّة علينا ينبع منه الماء في وسط مكّة [أو تكون لك جنّة] تجنّها و تسترها الأشجار [من نخيل] وأعناب [وتفجّر الأنهار] من الماء وسطها تشقيقاً حتّى يجري الماء تحت الأشجار [أوتسقط السماء] علينا قطعاً قد تركّب بعضها على بعض .

وقوله : [كما زعمت] أي كما كنت تخوّفنا من انشقاق السماء و انفطارها بزعمك [أوتأتي بالله و الملائكة] قبيلة قبيلة أو متقابلين حتّى نشاهدهم و يشهدون بأنك نبيّ ودعوتك حقّ وهذا يدلّ على أنّ القوم كانوا مشبّهة مع شركهم [أو يكون لك بيت] من ذهب ونقوش أوتصعد [في السماء] وإذا صعدت لم نصدّقك [حتّى تنزّل] على كلّ واحد منّا [كتاباً] من الله شاهداً بصحّة نبوّتك [نقرؤه] وهو مثل قوله : «بل يريد كلّ امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة (١) » .

[قل] يا محمّد ﷺ تنزيهاً لله من كلّ قبيح وبراءة من كلّ سوء ، لأنّهم لمّا قالوا : تأتي بالله أو ترقى في السماء إلى عندالله لاعتقادهم أنّ الله جسم قال : قل : [سبحان ربّي] عن كونه بصفة الأجسام وتعظيماً له وطيّباً عن أن يحكم عليه عبيده حتّى يفعل المعجزات باقتراحاتكم ويجوز عليه المقابلة والنزول [هل كنت إلّا بشراً رسولاً] أي هذه الأشياء

(١) المدثر : ٥٢ .

ليس في طاقة البشر أن يأتي بها فلا أقدر بنفسي أن آتي بها كما لم يقدر من كان قبلي من الرسل فلا تطالبوني بمالا يطالب به البشر .

قوله : [ومامنع الناس] بيان الآية أن القوم استبعدوا أن يكون الرسول من جنس البشر بل كانوا يقولون : إن الله لو أرسل رسولاً فينبغي أن يكون من الملائكة ، فأجاب عن قولهم : ومايمنعهم أن يؤمنوا بمن أرسلنا من البشر إذ معه الهدى والمعجزة ، والمعجزة سواءً اُظهرت على يد البشر أو على يد الملك لابد وأن يصدقوا ووجب الإقرار برسالته ؟ فهذا القول منهم تحكم فاسد .

و الجواب الثاني عن استبعادهم وهو أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لكان من الواجب أن يكون رسولهم من الملائكة لأن الجنس إلى الجنس أميل و كذلك لو كانوا بشراً لكان رسولهم بشراً .

ثم بعد نقض شبهاتهم هددهم سبحانه بقوله : [قل كفى بالله شهيداً] في صدقي و ادعائي وحاكم بيني و بينكم [إنه كان بعباده خبيراً بصيراً] أخبر و أبصر بظواهرهم وبواطنهم ويعلم أنهم إنما يوردون هذه الشبهات لمحض الحسد و العناد وحب الدنيا و الاستنكاف عن الانقياد للحق . وقيل : معنى الآية أن العرب قالوا : كنا ساكنين مطمئنين فجاء محمد فأزعجنا و شوش علينا أمرنا . فبين سبحانه قل لهم : لو كانوا ملائكة مطمئنين لأوجبت الحكمة إرسال الرسل إليهم فكذلك أهل الأرض لابد و أن يرسل إليهم رسولاً منهم للهداية وإنهم أحوج إلى الرسول من الملائكة .

وههنا سؤال : إذا جاز أن يكون الرسول إلى النبي ملكاً ليس من جنسه فجاز أن يكون الرسول إلى الناس أيضاً ملكاً ليس من جنسهم .

فالجواب أن النبي وصاحب الرسالة والمعجزة قد اختير من بينهم للنبوة فصارت حاله مقاربة حال الملك وليس كذلك غيره من الناس ويجوز له أن يرى الملائكة كما يرى بعضهم بعضاً بخلاف الاُمة وله مزية على الاُمة و اختصاصات دون غيره . و أيضاً فإن النبي بنفسه يحتاج إلى معجزة يعرف بها رسالة نفسه كما احتاجت الاُمة إلى معجزة فجعل الله موجب يقينه ومعجزة نفسه رؤيته للملك .

قوله تعالى : ومن يهدالله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجدلهم اولياء من دونه و نحشرهم يوم القيامه على وجوههم عميا وبكما و صماماًواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً (٩٧) ذلك جزاؤهم بانهم كفروا باياتنا و قالوا أئذاكنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا (٩٨) اولم يروا ان الله الذى خلق السموات و الارض قادر على ان يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لاريب فيه فابى الظالمون الا كفورا (٩٩) قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لامسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا (١٠٠) .

لمّا أجاب سبحانه عن شبهاتهم واقتراحاتهم و أردفها بالوعيد الإجماليّ وهو قوله : « إنّه كان بعباده خبيراً بصيراً » ذكر في هذه الآية الوعيد الشديد على سبيل التفصيل بقوله : [ومن يهد الله] والأشاعرة فسّروا الآية بسبق حكم الله عليهم بالهداية والضلال تعالى الله عن هذه النسبه و إنّما المعنى و المراد : من يحكم الله له بسبب قبوله الإيمان و إطاعته أمره على الحقيقه [فهو المهتد] ومن يحكم الله عليه بسبب جحوده و إنكاره ليس له وليّ ولاناصر . والمعتزلة فسّروا الإضلال والضلال في مطلق أمثال هذه الآيات الإضلال عن طريق الجنّة وعلى منع الألطاف لعدم الاستحقاق وعلى التخلية وعدم التعرّض بالمنع عن الكفر كما هوالحقّ في مذهب أهل الحقّ والعدليّة .

قوله : [ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم] أي يسحبون على وجوههم في النار ، أو المعنى يمشون حقيقة من وجوههم .

روى أبو هريرة أنّه قيل : يارسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إنّ الّذي يمشيهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم [عمياً] عمّا يسرّهم [وبكماً] لا ينطقون بحجّة تنفعهم [وصمّاً] عمّا يمتّعهم كأنّهم عدموا هذه الجوارح لأنّهم لايسمعون ولا يرون ولا يتكلّمون لأنّ الله يقول : « ورأى المجرمون النار » [1] و قال : « سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً [2] » وقال : «دعوا هنالك ثبوراً [3] » وقيل : على الحقيقة يحشرون على هذه

---

(١) الكهف : ٥٤ . (٢) الفرقان : ١٢ .
(٣) الفرقان : ١٣ .

الصفة عمياً كما عموا عن الحقّ في الدنيا ، بكماً كما سكتوا عن كلمة الإخلاص والحقّ ، صمّاً لتركهم سماعهم القرآن وإصغائهم الباطل . ولا ينافي الأمرين لأنّ مواقف القيامة كثيرة . [مأواهم] ومستقرّهم [جهنّم كلّما] سكن التهاباً [زدناهم] اشتعالاً فيكون كذلك دائماً سرمداً .

[ذلك] الّذي تقدّم ذكره من العذاب [جزاؤهم] استحقّوه [بأنّهم كفروا] وجحدوا وكذّبوا بآيات الله ، ومن تكذيبهم أنّهم قالوا : إذا صرنا متر ضرضين مثل هذا التراب نبعث ونحيى ثانياً ؟ ليس الأمر كذلك من مات فات .

[أولم يروا] ويعلموا [أنّ الله الّذي] يقدر على [خلق] ماهو أعظم وهو [السماوات والأرض قادر على أن] يخلقهم ثانياً بعد الفناء . وعبّر بالمثل أي الإعادة مثل الابتداء والإعادة أسهل وأهون من الإنشاء ، وإذا كان قادراً على أمثالهم كان قادراً على إعادتهم بأعيانهم إذ البنية والمادّة ليس شرطاً في القدرة . وأراد بمثلهم إيّاهم عيناً ؛ لأنّ مثل الشيء مساوله في جهاته ويعبّر بالمثل عن الشيء نفسه يقال : مثلك لا يفعل كذا أي أنت لاتفعل كذا .

ثمّ قال : [وجعل لهم أجلاً لاريب فيه] أي جعل لإعادتهم وقتاً لاشكّ في وقوعه كائن لامحالة ، أوجعل لهم أجلاً يعيشون في الأجل ثمّ يخترمون عنده [فأبى الظالمون] لأنفسهم بفعل المعاصي [إلّا] جحوداً بآيات الله ونعمه .

ثمّ قال : [قل] لهم يا محمّد صلّى الله عليه وآله : [لو أنتم تملكون خزائن] أرزاق الله وملكتم مقدورات نعمة [ربّي إذاً لأمسكتم] عن البذل والإسخاء خشية الفقر والفاقة [وكان الإنسان قتوراً] شحيحاً بخيلاً ، ولمّا كان الأكثر في طباعهم البخل جاز الإطلاق ولو أن يكون بعضهم أجواداً كرماء .

قوله تعالى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لاظنك ياموسى مسحوراً (١٠١) قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر وانى لاظنك يا فرعون مثبوراً (١٠٢) فأراد ان يستفزهم من الارض فاغرقناه ومن معه جميعاً (١٠٣) وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الاخرة جئنا بكم لفيفاً (١٠٤) .

المقصود من هذا الكلام الجواب عن اقتراحاتهم عن قولهم : « لن نؤمن لك حتّى تأتينا بهذه المعجزات الّتي اقترحناها » فجاوبهم سبحانه بأنّا [آتينا موسى] معجزات مساوية لما طلبتموها بل أعظم منها ؛ فلوحصل في علمنا أنّها مصلحة لفعلناها كما فعلنا في حقّ موسى . وقد ذكر في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام منها : إزالة العقدة من لسانه وذهبت العجمة وصار فصيحاً ، وانقلاب العصا ثعباناً ، وتلقّف الحيّة حبالهم وعصيّهم مع كثرتها ، واليد البيضاء ، والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم ، وشقّ البحر والحجر وإظلال الجبل وإنزال المنّ والسلوى عليه وعلى قومه ، وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ، والطمس على أموالهم من الأطعمة والدقيق والدراهم والدنانير .

روي أنّ عمر بن عبدالعزيز سأل محمّد بن كعب عن الآيات لموسى ؛ فقال : منها حلّ عقدة اللسان والطمس ثمّ قال : ياغلام أخرج ذلك الجراب فأخرجه فنفضه فإذا فيه بيض مكسور وجوز مكسور وفول وحمّص وعدس كلّها حجارة . وتخصيص التسعة بالذكر لايقدح ثبوت الزائد عليه .

وقد قيل في الآيات التسع : الأحكام التسع ، كما روى صفوان بن عسّال أنّه قال : إنّ يهوديّاً قال لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبيّ نسأله عن تسع آيات ، فذهبا إلى النبيّ وسألاه عنها فقال عليه السلام : هنّ أن لاتشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولاتزنوا ولا تقتلوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربى ولا تقذفوا المحصنة ولاتولّوا الفرار يوم الزحف ، وعليكم خاصّة اليهود أن لاتعتدوا في السبت . فقام اليهوديّان فقبّلا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنّك نبيّ ولو لانخاف القتل لاتّبعناك .

قوله : [فاسأل بني إسرائيل] والمراد من الأمر عن هذا السؤال ليس للاستفادة من العلم بالآيات وإنّما المقصود أن يظهر لعامّة اليهود صدق ما ذكره الرسول فالسؤال سؤال استشهاد وقرىء «فسأل» بصيغة الماضي . روي عن ابن عبّاس أنّه قرأ فسأل بني إسرائيل أي فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أن يرسلهم معه .

فقال له فرعون لمّا جاءه موسى : [إنّي لأظنّك ياموسى مسحوراً] أي ساحراً ووضع المفعول موضع الفاعل كما يقال : مشئوم وميمون في معنى شائم ويامن . وقيل : معناه أنّه سحر بك وأنت مخدوع فقال له موسى : [لقد علمت] يافرعون أنّه [ما أنزل] هذه الآيات

[إلاّ ربّ السماوات والأرض] الّذي خلقهنّ أنزلها [بصائر] وحججاً وبراهين للناس يبصرون بها اُمور دينهم ، وأدلّة على نبوّتي لأنّك تعلم أنّها ليست من السحر . وروي أنّ عليّاً عليه السلام قال : إنّ الضمير في «علمت» للمتكلّم ، قال : والله ماعلم عدوّ الله ولكن موسى هو الّذي علم .

[وإنّي لأظنّك يافرعون] هالك لكفرك وينادي لك بالويل والثبور، والمراد بالظنّ ههنا الظنّ لا العلم .

[فأراد أن يستفزّهم] أي أراد فرعون أن يزعج موسى ومن معه من أرض مصر وفلسطين واُردنّ بالنفي عنها، وقيل : أراد بأن يقتلهم [فأغرقناه] وجنوده [جميعاً] بحيث لم ينج منهم أحد ولم يهلك من بني إسرائيل أتباع موسى أحد [وقلنا من بعد] هلاك فرعون وقومه [لبني إسرائيل اسكنوا] أرض مصر والشام [فإذا جاء وعد]الكرّة [الآخرة] أو نزول عيسى [جئنا بكم] من القبور إلى الموقف الحساب مختلطين التفّ بعضكم ببعض لاتتعارفون وقيل : معناه جميعاً أوّلكم و آخركم .

والنظم في الآية أن قوم موسى لمّا اقترحوا الآيات وآتيناهم ولم يؤمنوا فعذّبناهم بعذاب الاستئصال فلو نأتي لقومك ما اقترحوا و لم يؤمنوا يجب أن نعذّبهم أيضاً والحكمة لاتقتضي ذلك .

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الامبشراً ونذيراً (١٠٥) .

أي القرآن عليك [أنزلناه] بالصواب ويكون أن يعمل به . ويؤمن به وقيل: الضمير في أنزلناه إلى موسى كقوله :«وأنزلنا الحديد » [وما أرسلناك إلاّ مبشّراً] بالجنّة لمن أطاعك ومنذراً بالنار لمن عصاك .

قوله تعالى : وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (١٠٦) قل آمنوا به اولا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا (١٠٧) ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا (١٠٨) ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (١٠٩) قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ماتدعوا فله الاسماء الحسنى ولاتجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا (١١٠) وقل الحمدلله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل و كبره تكبيرا (١١١) .

المعنى ثمّ عطف على « وبالحقّ أنزلناه» أي وأنزلنا عليك : [قرآناً فرقناه] بالتشديد والتخفيف أي فصّلناه سوراً وآيات ، أو المعنى فرقنا به الحقّ عن الباطل ، أو بعضه خبراً وبعضه أمراً ونهياً وبعضه وعداً و وعيداً فأنزلناه متفرّقاً لم ننزله جميعاً إذ كان بين أوّله وآخره نيّف وعشرون سنة [لتقرأه على الناس على] تؤدة وتثبّت ليكون أمكن في قلوبهم ويكونوا أقدر على التأمّل فيه والعمل به ولا تعجل في تلاوته فلا يفهم عنك وتقرأه عليهم شيئاً فشيئاً [ونزّلناه] على حسب الحوائج ووقوع الحوادث ، قال ابن عبّاس : لئن أقرأ سورة البقرة وأُرتّلها أحبّ إليّ من أقرأ القرآن . وعن عبدالله بن مسعود قال : لاتقرءوا القرآن في أقلّ من ثلاث واقرءوا في سبع .

[قل] يامحمد لهؤلاء المشركين : [آمنوا به] أي بالقرآن [أو لاتؤمنوا] فإنّ إيمانكم ينفعكم ولاينفع غيركم وترككم الإيمان يضرّكم ولا يضرّ غيركم [إنّ الّذين أُوتوا العلم من قبله] أي الّذين اُعطوا علم التوراة من قبل نزول القرآن كعبدالله ابن سلام وأمثاله وعلموا وعرفوا صفة النبيّ ﷺ قبل مبعثه [إذا يتلى عليهم] القرآن يسقطون على الوجوه ساجدين . وإنّما خصّ الذقن لأنّ من سجد كان أقرب شيء من جبهته إلى الأرض الذقن . و الذقن مجمع اللحيتين ، ثمّ إنّ الإنسان إذا استولى عليه الخوف من الله أو الشوق فربّما سقط على الأرض في معرض السجود كالمغشيّ عليه ومتى كان كذلك كان خروره على الذقن فقوله : [يخرّون للأذقان] كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته ، والعرب يقول إذا خرّ الرجل ووقع على وجهه : فلان خرّ للذقن ، ولا يقال : خرّ على الذقن .

قوله : [ويقولون سبحان ربّنا إن كان وعد ربّنا لمفعولاً] أي يقولون في سجودهم : سبحان ربّنا ، أي ينزّهونه ويعظّمونه إنّه كان وعد ربّنا حقّاً يقيناً أي وعد الّذي وعدنا بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن حقّ وثبت . و هذا يدلّ على أنّ هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لأنّ الوعد ببعثة محمد ﷺ سبق في كتابهم ؛ فهم كانوا ينتظرون إنجاز ذلك الوعد .

ثمّ قال : [ويخرّون للأذقان يبكون] والفائدة في هذا التكرار اختلاف الحالتين و هما خرورهم للسجود و خرورهم حال كونهم باكين عند استماع القرآن

ويدلّ عليه قوله : [ويزيدهم خشوعاً] والمقصود من بيان الآية تحقير الكفّار وعدم الاعتناء بشأنهم والاكتراث بإيمانهم وامتناعهم بأنّهم إن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم وهم الموصوفون .

قوله : [قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاما تدعوا] المراد الاسم لا المسمّى ، والواو للتخيير بمعنى ادعوا الله أو ادعوا الرحمن سمّوا بهذا الاسم أو بهذا الاسم . والتنوين في «أي» عوض عن المضاف إليه أي هذا الاسمين سمّيتم فللمسمّى [الأسماء الحسنى] وهو ذاته عزّ وجلّ . و «ما» موصولة كرّرت مع «أيّ» لاختلاف اللفظين تأكيداً كما قالوا : ما رأيت كالّليلة ليلة ، وتقديره : أيّ شيء واسم من أسمائه تدعونه به جائز .

و «أو» معناه الإباحة ؛ فإنّ أسماءه تنبىء عن صفات حسنة أو أفعال حسنة فأمّا أسماؤه المنبئة عن صفات ذاته فهو القادر العالم الحيّ السميع البصير القديم . وأسماؤه المنبئة عن صفات أفعاله الحسنة فنحو الخالق والرازق والعدل والمحسن والمجمل والمنعم والرحمن والرحيم .

وأمّا ما أنبأ عن المعاني الحسنة فنحو الصمد فإنّه يرجع إلى أفعال عباده وهو أنّهم يصمدونه في الحوائج ونحو المعبود والمشكور . بيّن الله في هذه الآية أنّه واحد وإن اختلف أسماؤه وصفاته .

وفي الآية دلالة على أنّه سبحانه لا يفعل القبائح مثل الظلم وغيره لأنّ أسماءه حينئذ لا تكون حسنة فإنّ الأسماء قد تكون مشتقّة من الأفعال فلو فعل الظلم لاشتقّ منه اسم كالظالم كما اشتقّ من العدل العادل .

واحتجّ الجبّائي بهذه الآية فقال : لو كان هو الخالق للظلم يصحّ أن يقال : ياظالم ، وصدق عليه هذا الاسم وحينئذ يبطل ما ثبت من هذه الآية من كون أسمائه بأسرها حسنة .

وذكروا في سبب نزول هذه الآية قيل : إنّ النبيّ ﷺ كان ساجداً ذات ليلة بمكّة يدعو : يارحمن يارحيم . فقال المشركون : هذا يزعم أنّ له إلهاً واحداً وهو يدعو مثنى مثنى ، عن ابن عبّاس .

وثانيها أنّ المشركين قالوا : أمّا الرحيم فنعرفه و أمّا الرحمن فلا نعرف إلّا رحمن اليمامة . وقيل : إنّ اليهود قالوا : إنّ ذكر الرحمن في القرآن قليل وهو في التوراة كثير . وقد شرحنا هذا البيان في سورة الأعراف .

قوله تعالى : [ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها] اختلف في معناه : روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان إذا صلّى جهر في صلاته و المشركون يسمعونه فشتموه وآذوه فأمره سبحانه بترك الجهر وكان ذلك بمكّة في أوّل الأمر ، روي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله . وقيل : إنّ معناه : لا تجهر بإشاعة صلاتك عند من يؤذيك ولا تخافت بها عند من يلتمسها منك . وقيل : المراد بالصلاة الدعاء والمسألة ، لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعيّر بها ؛ فالجهر بالدعاء منهيّ عنه و المبالغة في الإسرار غير جائزة والمستحبّ التوسّط وهو أن يسمع نفسه ؛ قال ابن مسعود : لم يخافت من أسمع اُذنيه . وقيل : معنى [وابتغ بين ذلك سبيلاً] بأن تجهر بصلاة الليل و تخافت بصلاة النهار . وقيل : معناه لا تجهر جهراً يشتغل به من يصلّي بقربك ولا تخافت بها حتّى لا تسمع نفسك . وقريب من هذا المعنى ما رواه أصحابنا عن أبي عبدالله أنّه قال : الجهر بها رفع الصوت شديداً والمخافة مالم تسمع اُذنيك .

[وقل الحمد لله الّذي لم يتّخذ ولداً] فيكون الولد هو الشيء المتولّد من جزء من أجزاء شيء آخر ؛ فكلّ من له ولد فهو مركّب من الأجزاء والمركّب محدث - والله سبحانه قديم - فلا يستحقّ الربوبيّة ؛ فهذا المنفيّ من صفة السلوب [ولم يكن له شريك] بدليل التمانع وهذا أيضاً من السلوب [ولم يكن له وليّ] وناصر لأنّه حينئذ محتاج إلى الغير ولا يستحقّ خصوص الحمد له [و كبّره] عن النقائص والقبائح فكبّره ونزّهه عنها تنزيهاً . وهذه الآية ردّ على اليهود والنصارى حين قالوا : اتّخذ الله ولداً . و على مشركي العرب حيث قالوا : لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هو لك . وعلى الصابئين و المجوس حين قالوا : لولا أولياء الله لذلّ الله .

وفي كيفيّة تكبير الله وتعظيمه اختلاف شديد بين الأشاعرة أي الجبريّة والمعتزلة أي العدليّة فقال : أهل الجبر والسنّة : إنّا نحمد الله و نكبّره عن أن يجري في سلطانه شيء لا على وفق حكمه وإرادته ؛ فالكلّ واقع بقضاء الله . وقالت المعتزلة : إنّا نكبّر الله

عن أن يكون فاعلاً لهذه الأمور القبيحة بل نعتقد أنّ حكمته يقتضي التنزيه عنها وعن إرادتها .

قيل : إنّ الأستاذ أبا إسحاق الإسفرايني كان جالساً عند الصاحب بن عباد الوزير فدخل القاضي عبد الجبّار بن أحمد الهمداني فلمّا رآه قال : سبحان من تنزّه عن الفحشاء . فقال الأستاذ أبو إسحاق : سبحان من لايجري في ملكه إلّا ما يشاء . أقول : بداهة العقل يحكم بأنّ قائل هذا الكلام لا ينبغي أن يقال له : الأستاذ ؛ لأنّ قوله ما أقربه إلى الشعوذة ! لأنّه سبحانه إذا أراد وخلق الكفر وشاء له القبيح فبما ذا يعاقبه ؟ فلو صدر مثل هذا الأمر من عبد أسود لقبّحه جميع أهل الدنيا ؛ على أنّ التنزيه والتكبير لابدّ وأن يكون بصفات مقدّسة عالية من جلاله ولطفه وعدله وأين هذا الأمر من العدل ؟ هيهات !

ألقاك في اليمّ مكتوفاً وقال لك * إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء

وكثرة الذكر والتعظيم لله من خصائص المؤمنين ولهذا شرّفوا بالتشريفات المخصوصة .

تمّت السورة

سورة الكهف

مكيّة إلّا آية « واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم » فإنّها نزلت في المدينة.
عدد آيها مائة و إحدى عشر.

فضلها: اُبيّ بن كعب قال: من قرأها فهو معصوم ثمانية أيّام من الفتن فإن خرج الدجّال حتّى في تلك الثمانية عصمه الله من فتنته و من قرأ الآية الّتي في آخرها وهي « قل إنّما أنا بشر» حين يضجع في منامه كان له نور يتلألأ إلى الكعبة حشو ذلك النور ملائكة يصلّون عليه حتّى يقوم من مضجعه فإن كان في مكّة فتلاها كان له نور يتلألأ إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلّون عليه حتّى يستيقظ.

عن سمرة بن جندب قال: من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً لم يضرّه فتنة الدجّال، ومن قرأ السورة كلّها دخل الجنّة.

و عن النبيّ ﷺ قال: ألا أدلّكم على سورة شيّعها سبعون ألف ملك حين نزلت عظّمتها ما بين السماوات والأرض؟ قالوا: بلى. قال ﷺ: سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفرالله له إلى الجمعة الاُخرى و زيادة ثلاثة أيّام و اُعطي نوراً يبلغ السماء ووقي فتنة الدجّال.

و روى الواقديّ بإسناده عن أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ قال: من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف ثمّ أدرك الدجّال لم يضرّه ومن حفظ سورة البقرة كانت له نوراً يوم القيامة.

و روى أيضاً بالإسناد عن سعيد بن محمّد المجرميّ عن أبيه عن جدّه عن النبيّ ﷺ قال: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ستّة أيّام من كلّ فتنة يكون فإن خرج الدجّال عصم منه.

وروى العيّاشيّ بإسناده عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ سورة الكهف في كلّ ليلة الجمعة لم يمت إلّا شهيداً أو بعثه الله مع الشهداء ووقف يوم القيامة مع الشهداء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا (١) قيما لينذر باسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا حسنا (٢) ماكثين فيه ابدا (٣) وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤) مالهم به من علم ولا لابائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا (٥) فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يومنوا بهذا الحديث اسفا (٦) .

ختم الله سورة بني إسرائيل بالتحميد وبدأ الله هذه السورة بالتحميد لاتّصال الجنس بالجنس .

المعنى : يقول الله لخلقه : قولوا واعتقدوا أنّ كلّ [الحمد] وحقيقته [لله الّذي أنزل على عبده] محمّد ﷺ القرآن حال كون القرآن قيّماً معتدلاً مستقيماً لا تناقض فيه . و جعله قيّماً لأمور الدين يلزم الرجوع إليه كقيّم الدار الّذي يرجع إليه في أمرها . وقيل : قيّماً أي قائماً دائماً يدوم ويثبت إلى يوم القيامة لاينسخ .

[ولم يجعل له عوجاً] و ملتبساً لايفهم و معوجاً لا يستقيم و لم يجعل فيه اختلافاً كما قال سبحانه « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »[1] ومعنى العوج في الكلام أن يخرج من الصحّة إلى الفساد ومن الحقّ إلى الباطل .

[لينذر بأساً شديداً من لدنه] معناه ليخوّف العبد الّذي أنزل عليه الكتاب الناس عذاباً شديداً وأنكالاً وسطوةً من عند الله إن لم يؤمنوا [و يبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصالحات] والمصدّقين بآيات الله العاملين بالطاعات و المنتهين عن المعاصي [أنّ لهم] ثواباً [حسناً] في الآخرة على إيمانهم و ذلك الأجر هو الجنّة [ماكثين فيه] ولابثين في ذلك الثواب مؤبّدين لاينتقلون عنه .

[و ينذر الّذين قالوا اتّخذ الله ولداً] أي ليحذر الّذين قالوا : الملائكة بنات الله

(١) النساء : ٨١ .

وهم قريش أواليهود والنصارى . و الإنذار في الآية الاُولى يعمّ جميع الكفّار و في هذه الآية القائلين باتّخاذ الولد وليس لهؤلاء القائلين بهذاالقول الشنيع علم ومأخذ إلّا التقليد لآبائهم الجهلة من غير حجّة .

[كبرت كلمة تخرج من أفواههم] قرىء بالرفع على الفاعليّة وبالنصب على التميز ، والنصب أبلغ لأنّ فيه معنى التعجّب كأنّه قيل : ماأكبرها كلمة ! ومعنى التميز أنّك إذا قلت: كبرت الكلمة أوالمقالة ، يتوهّم أنّها كبرت كذباً أو جهلاً فلمّا قلت : كلمة ، ميّزتها من محتملاتها فانتصبت على التميز . ووصف الكلمة بالخروج من الأفواه توسّع و مجاز و إن كانت الكلمة عرضاً لايجوز عليه الدخول ولا الخروج و الحركة والسكون ولكن لمّا كانت الكلمة قدتحفظ و تثبت وتقرأ فجاز وصفها بالخروج ، وذكر الأفواه تاكيداً وتصريحاً في القبح [إن يقولون] أي مايقولون [إلّا كذباً] وافتراءً على الله .

[فلعلّك] مهلك [نفسك] يامحمّد [على آثار] قومك إن لم يصدّقوا [بهذا الحديث] أي القرآن الّذي اُنزل عليك تلهّفاً وحزناً . وقيل : معنى «على آثارهم» أي بعد موتهم لشدّة شفقتك عليهم ، وهذه معاتبة من الله لرسوله على شدّة وجده و كثرة حرصه على إيمان قومه حتّى بلغ ذلك به مبلغاً يقرّبه إلى الهلاك . وإطلاق القرآن على الحديث يدلّ على حدوثه ويدلّ على فساد القول بالقدم .

قوله تعالى : انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبوهم ايهم احسن عملا (٧)وانا لجاعلون ماعليها صعيداجرزا(٨) .

ثمّ بيّن سبحانه ابتداء خلقه بالنعم [إنّا جعلنا ما على الأرض] من الأنهار و الأشجار وأنواع المخلوقات من الحيوان والنبات و الجماد حلية وزينة للأرض و لأهلها لنختبرهم أن أيّهم[أحسن عملاً]بطاعة الله والأطوع له ليظهر المطيع والعاصي ، وإنّا لمخربون الأرض بعد عمارتها وجاعلون ماعلى الأرض مستوياً يابساً لانبات عليها بلقع .

فتبيّن بهذا التقرير أنّ الله سبحانه أراد من الخلق العمل الصالح وعلى أنّ أفعالهم هي الصادرة من جهتهم ولولا ذلك لما صحّ الابتلاء ، و في ذلك بطلان قول أهل الجبر .

قوله تعالى : أم حسبت أن اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا (٩)اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من امرنا رشداً (١٠) فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا(١١)ثم بعثناهم لنعلم اى الحزبين احصى لما لبثوا امدا (١٢) .

«الكهف» المغارة في الجبل إلّا أنّه واسع فإذا صغر فهو غار ، والرقيم الكتابة و العلامة والنقش المتعرفة .

النزول : عن ابن عبّاس و جماعة : أنّ النضر بن الحارث بن كلدة و عقبة بن معيط أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة و قالوا لهما : سلاهم عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفا لهم وصفه وأخبراهم بقوله ؛ فإنّهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء ماليس عندنا . فخرجا حتّى أتيا المدينه فسألا أحبار اليهود عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و قالا ماقالت قريش فقال لهما أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث فإن أخبر كم بهنّ فهو نبيّ مرسل وإن لم يخبر فهو رجل متقوّل : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ماكان أمرهم فإنّه قدكان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبأه ؛ وسلوه عن الروح ماهو ؟ وفي رواية اُخرى فإن أخبر كم عن الثنتين ولم يخبر كم بالروح فهو نبيّ . فانصرفا إلى مكّة فقالا : يامعاشر قريش قد جئنا كم بفصل مابينكم وبين محمد وقصّا عليهم القصّة ، فجاءوا إلى النبيّ فسألوه فقال : اُخبر كم بما سألتم عنه غداً ولم يستثن فانصرفوا عنه فمكث خمس عشرة ليلة لا يحدث إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبرئيل ، حتّى أرجف أهل مكّة و تكلّموا في ذلك فشقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يتكلّم أهل مكّة عليه ثمّ جاءه جبرئيل عن الله بسورة الكهف وفيها ما سألوه من أمر الفتية و الرجل الطوّاف و أنزل عليه « و يسألونك عن الروح » الآية .

وبالجملة قوله : [أم حسبت] أحسبت [أنّ] قصّة [أصحاب الكهف] كان أمراً عجيباً[من آياتنا]فلا تحسبنّ ذلك فإنّ من كان قادراً على تخليق السماوات والأرض كيف يستبعدون من قدرته حفظ طائفة مدّة ثلاثمائة سنة أو أكثر في النوم ؟ و المراد بالكهف

كهف الجبل الّذي آوى إليه القوم الّذين قصّ الله أخبارهم . و اختلف في معنى الرقيم ، فقيل : إنّه اسم الوادي الّذي كان فيه الكهف . و قيل : الكهف هو الغار في الجبل ، و الرقيم نفس الجبل . و قيل : الرقيم القرية الّتي خرج منها أصحاب الكهف . و قيل : هولوح من حجارة كتبوا فيه قصّة أصحاب الكهف ثمّ وضعوه على باب الكهف . وقيل : جعل ذلك اللوح في خزائن الملوك لأنّه من عجائب الأمور . وقيل : إنّ أصحاب الرقيم هو النفر الثلاثة الّذين دخلوا في الغار فانسدّ عليهم . وقيل : إنّ الناس رقموا حديثهم نقراً في جانب الجبل . و قيل : الرقيم اسم الكلب . « والعجب » مصدر بمعنى المعجوب منهم .

قوله : [إذأوى الفتية إلى الكهف] أي اذكر لقومك إذا التجؤوا اُولئك الشبّاب إلى المغارة الوسيعة وجعلوها مأواهم هرباً بدينهم إلى الله [فقالوا] حين آووا إليه [ربّنا آتنا من لدنك رحمة] أي نعمة تنجو بها عن قومنا وفرّج عنّا ما نزل بنا [وهيّىء] و أصلح [لنا من أمرنا] ما نصيب به الرشد ومخرجاً من الغار بسلامة من ديننا و يسّر لنا من أمرنا مانصل به رضاك . وكان هؤلاء الفتية آمنوا بالله تعالى و كانوا يخفون الإسلام خوفاً من ملكهم ، وكان اسم الملك دقيانوس واسم مدينتهم اقسوس وكان ملكهم يعبدالأصنام ويقتل من خالفه . وقيل : إنّه كان مجوسيّاً يدعوا إلى دين المجوس والفتية كانوا على دين المسيح . وقيل : كان الفتية من خواصّ الملك وكان يستر كلّ واحد منهم إيمانه عن صاحبه ثمّ اتّفق أنّهم اجتمعوا وأظهروا أمرهم وهربوا بدينهم إلى الكهف خوفاً من الملك . وقيل : إنّهم كانوا قبل بعث عيسى .

[وضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً] أي أجبنا دعاءهم وسددنا آذانهم بالنوم الغالب عن نفوذ الأصوات إليها سنين كثيرة ؛ لأنّ النائم إنّما ينتبه بسماع الصوت . و بيّن سبحانه بهذه العبارة على أنّهم لم يموتوا وكانوا نياماً في أمن وراحة ، وهذا من فصيح لغات القرآن الّتي لايمكن أن يترجم بمعنى أحسن من هذا المعنى ، و كناية عن الإنامة الثقيلة الشبيهة بالموت من دون الموت . والمفعول في قوله : «فضربنا على آذانهم» محذوف أي فضربنا حجاباً على آذانهم سنين ذات عدد كثيرة .

[ثمّ بعثناهم] وأيقظناهم من نومهم [لنعلم أيّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً] معناه : ليظهر معلومنا بموجب علمنا ولننظر أيّ الحزبين من المؤمنين والكافرين من قوم أصحاب الكهف عدّ أمد لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بيتهم . وقيل : المراد بالحزبين لمّا استيقظوا اختلفوا في مقدار لبثهم . وقرىء ليعلم على البناء للمجهول وعلى هذا التقدير لايلزم محذور تجدّد العلم .

والنظم في الآية للحثّ على الاقتداء بهم ولبيان أنّه لايضرك كفر قومك والله ناصرك وحافظك من أعدائك كماحفظ أصحاب الكهف . وقيل : اتّصل بقوله : «ويبشّر المؤمنين» أي وينصر المؤمنين كما نصر أصحاب الكهف .

قوله تعالى : نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم و زدناهم هدى (١٣) وربطنا على قلوبهم اذقاموا فقالوا ربنا رب السموات و الارض لن ندعوا من دونه الها لقد قلنا اذا شططا (١٤) هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا (١٥) واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الاالله فأووا الى الكهف ينشرلكم من رحمته ويهيىء لكم من امركم مرفقا (١٦) .

شرح سبحانه قصّة أصحاب الكهف أي نتلو عليك يا محمّد ﷺ خبرهم بالصدق و الصحّة .

[إنّهم فتية] شبّاب أحداث [آمنوا] بالله [وزدناهم] نصرة في الدين و رغبة في الثواب والثبات بالألطاف المقوّية لدواعيهم بحسن اختيارهم . و عبّر عنهم بالفتية لأنّ أصل الفتوّة الإيمان بالله والمراد بالفتوّة بذل الندى و ترك الأذى و الشكوى و اجتناب المحارم واستعمال المكارم .

قوله : [وربطنا على قلوبهم] أي قوّينا قلوبهم بالتوفيق والألطاف حتّى و طنّوا أنفسهم على إظهار الحقّ والصبر على المشاقّ ومفارقة الوطن [إذ قاموا] بين يدي ملكهم الجبّار العاتي دقيانوس الّذي كان يفتن أهل الإيمان عن دينهم [فقالوا] بين يديه [ربّنا

ربّ السماوات والأرض] الّذي نعبده [لن ندعو] غيره وإن دعونا غيره وعبدنا إلهاً آخر فقد [قلنا] حينئذ قولاً مجاوزاً للحدّ غاية في البطلان [هؤلاء قومنا] و أهل بلدنا [اتّخذوا من دون الله آلهة] يعبدونها [لولا يأتون عليهم بسلطان] أي هلاّ يأتون هؤلاء الّذين يعبدون غير الله بحجّة ظاهرة ودليل على إلهيّة آلهتهم [فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً] وزعم أنّ له شريكاً في العبادة والإلهيّة .

قوله : [وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلّا الله] و هذا القول من قول تلميخا وهو رئيس أصحاب الكهف قال لهم أي لأصحابه : وإذا تنحيتم و اعتزلتم و برأتم عن عبدة الأصنام و عن أصنامهم فإنّكم لن تتركوا عبادة الله فأووا و صيروا [إلى الكهف] و اجعلوا مأواكم هناك [ينشر لكم ربّكم] من نعمته ويبسط لكم رحمته [و يهيّئ لكم من أمركم مرفقاً] أي يسهّل عليكم ماتخافون من الملك وظلمه ويأتيكم باليسر والرفق . و كلّما ارتفقت به فهو مرفق ، وفي هذا دلالة على عظم منزلة الهجرة في الدين وعلى قبح المقام في دار الكفر إذا لايمكن المقام فيها إلّا بالمتابعة لأهل الكفر .

وإيّاك ومجالسة الجليس السوء الأحمق الفاجر فإنّك تكتسب منه الشرّ والقساوة وعدم المبالات بالمعاصي و قلّة الخوف الّذي هو سوط الله و إذا قلّ الخوف كثر المعاصي .

و ترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين و اذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد و من يضلل فلن تجدله وليامرشداً (١٧) وتحسبهم ايقاظا وهم رقود و نقلبهم ذات اليمين وذات الشمال و كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً و لملئت منهم رعبا (١٨) .

المعنى : ثمّ بيّن سبحانه حالهم في الكهف أي لو رأيتها لترى [الشمس إذا طلعت] تميل وقت طلوعها عن كهفهم إلى جهة اليمين [وإذا غربت] الشمس أي وقت غروبها تعدل وتجاوز عنهم جهة [الشمال] من الكهف أي لا تدخل كهفهم وتجاوزهم منحرفة عنهم [وهم في فجوة منه] من الكهف أي في فضاء منه بحيث لايراهم من كان ببابه و ينالهم نسيم الريح .

وقوله : [ذات اليمين] وأصله أنّ ذات صفة اُقيمت مقام الموصوف لأنّها تأنيث «ذو»

في قوله : «رجل ذومال وامرأة ذات مال» والتقدير كأنّه قيل : «تزاور عن كهفهم» جهة موصوفة باليمن . والمقصود من هذا البيان أنّ الشمس إذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع على أبدانهم حتّى تفسد أبدانهم وإذا غربت كانت على شماله فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف .

و [ذلك] الحفظ في هذه المدّة الطويلة [من آيات الله] الدالّة على عجائب قدرته وبدائع حكمته ، وكان رغبتهم في الإيمان بإعانة الله ولطفه مع وجود قدرة دقيانوس الكافر وأصحابه و كذلك قال : [من يهد الله فهو المهتد] بحسن إيمانه و اختياره مثل أصحاب الكهف [ومن يضلله] عن طريق الجنّة والخير بسبب عدم قبوله الإيمان مثل دقيانوس و أصحابه فلا يوجد له ناصر ومرشد .

[وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود] يعني لو رأيتهم حسبتهم منتبهين وهم في الحقيقة نائمون لأنّهم مفتّحة العيون يتنفّسون كأنّهم يتكلّمون ولا يتكلّمون و ينقلبون أحياناً كما ينقلب اليقظان .

قوله : [ونقلّبهم] تارة عن اليمين إلى الشمال وتارة عن الشمال إلى اليمين كما ينقلب النائم ؛ لأنّهم لولم ينقلبوا لأكلتهم الأرض ولبليت ثيابهم لطول مكثهم على جانب واحد . وقيل : كانوا يقلّبون كلّ عام مرّتين . و قيل : مرّة .

قوله : [و كلبهم] قال ابن عبّاس وأكثر المفسّرين : إنّهم هربوا من ملكهم ليلاً فمرّوا براع معه كلب فتبعهم الراعي على دينهم و معه كلبه . و قيل : إنّهم مرّوا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مراراً فقال لهم الكلب : ما تريدون منّي لا تخشوا خيانتي فأنا أُحبّ أولياء الله فناموا حتّى أُحرسكم . و قيل : كان ذلك الكلب كلب صيدهم أصفر اللون . وقيل : أنمر واسمه قطمير ومكث معهم ثلاثمائة وتسع سنين بغير طعام ولا شراب ولا نوم ولا قيام .

[باسط ذراعيه] كافتراش السبع بالفناء من الكهف أو من الفجوة ؛ لأنّ الكفّار خرجوا إلى باب الكهف في طلبهم ثمّ انصرفوا ولو رأوا الكلب على باب الغار لدخلوه .

ولمّا انصرف الكفّار آيسين عنهم و لم يجدوا أحداً سدّوا باب الغار بالحجارة فجاء رجل بما شية إلى باب الغار وأخرج الحجارة ودفنها واتّخذ لماشيته كنّاً عند باب الغار وهم كانوا في فجوة من الغار .

قوله : [ولو اطّلعت عليهم لو ليت منهم] يعني لو أشرفت عليهم أيّها الناظر عليهم ورأيتهم في كهفهم لفررت عنهم هرباً لاستيحاشك الموضع وللملىء قلبك روعاً لأنّ الله منعهم بالرعب لئلاّ يصل إليهم أحد حتّى يبلغ الكتاب أجله ، كما نصر نبيّنا محمد ﷺ بالرعب مسيرة شهر أو شهرين . ولا يمتنع أنّ الكفّار لمّا أتوا باب الكهف فزعوا من وحشة المكان حيث جعل الله هذه الوحشة في قلوبهم فسدّوا باب الكهف ليهلكوا فيه وجعل سبحانه هذا الأمر لطفاً لهم لئلاّ ينالهم مكروه من سبع وغيره وليكونوا محروسين من كلّ سوء .

وقيل : إنّه قد طالت أظفارهم وشعورهم ولذلك يأخذ الرعب منهم . وهذا لايصحّ لقوله سبحانه : حكاية عنهم « لبثنا يوماً أو بعض يوم » .

و روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : غزوت مع معاوية نحو الروم فمرّوا بالكهف الّذي فيه كان أصحاب الكهف فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم . فقلت له : ليس هذا لك فقد منع ذلك من هو كان خير منك قال الله : « لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً » فقال معاوية : لا أنتهي حتّى أعلم علمهم ؛ فبعث رجالاً فلمّا دخلوا الكهف أرسل الله عليهم ريحاً فأحرقتهم .

قوله تعالى : وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ابها ازكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف و لا يشعرن بكم احدا (١٩) انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم اويعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا ابدا (٢٠) .

المعنى : كما فعلنابهم الأمور العجيبة وحفظناهم تلك المدّة المديدة بعثناهم من تلك الرقدة وأيقظناهم من تلك النومة الّتي أشبهت الموت ليكون بينهم مساءلات وحكايات في اختلاف مدّة لبثهم فينبّهوا بذلك على معرفة صانعهم ويزدادوا يقيناً إلى يقينهم .

[قال قائل منهم كم لبثتم] في نومكم ؟ [قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم] قال المفسّرون : إنّهم هربوا في الليل ودخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله آخر النهار فلذلك قالوا : يوماً ، فلمّا رأوا الشمس قالوا : أو بعض يوم ، و كان قد بقيت من النهار بقيّة [قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم] وهذا القائل تمليخا وهو رئيسهم ردّ علم ذلك إلى الله .

[فابعثوا أحدكم بورقكم هذه] والورق الدراهم من الفضّة ، وكان معهم دراهم عليها صورة الملك الّذي كان في زمانهم [إلى المدينة] أي المدينة الّتي خرجوا منها [فلينظر أيّها أزكى طعاماً] أي أطهر وأحلّ ذبحه . قال ابن عبّاس : لأنّ عامّتهم كانت مجوساً وفيهم شرذمة مؤمنون يحفظون إيمانهم وقيل أطيب طعاماً أو أكثر [فليأتكم برزق منه] يعني فليأتكم بما ترزقون أكله [وليتلطّف] وليدقّق النظر ويتحيّل حتّى لا يطّلع عليه أحد أو يتلطّف في الشراء فلا يماكس البائع ولا ينازعه [ولا يشعرنّ بكم] ولا يخبر بكم ولا بمكانكم [أحداً] من أهل المدينة .

[إنّهم إن يظهروا] ويطّلعوا [عليكم] وبمكانكم يقتلوكم بالرجم وهو من أخبث القتل . أو المعنى : يرجموكم باللسان ويشتموكم أو يردّوكم إلى [ملّتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً] إذا رددتم عن دينكم .

فإن قيل : من اُكره على الكفر فأظهره فإنّه يفلح فكيف يصحّ الآية ؟ فالجواب : أنّ « يعيدوكم » دون الإكراه و يمكن أن يكون ذلك الوقت ما كان يجوز التقيّة في إظهار الكفر .

قوله تعالى : وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لاريب فيها اذ يتنازعون بينهم امرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم اعلم بهم قال الذين غلبوا على امرهم لنتخذن عليهم مسجدا (٢١) سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة و ثامنهم كلبهم قل ربى اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الامراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم احدا (٢٢) ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا (٢٣) الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى ان يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا (٢٤) .

أعثر على غيره أي أعلمه و عثر اطّلع . ودخل الواو في قوله « وثامنهم » ولم يدخل في الأوّلين لأنّ ههنا عطف جملة على جملة وبيانه : أنّ الجملتين الملتبسة إحداهما بالأُخرى وهي أن تكون إحداهما غير أجنبيّة مع الاُخرى فهو على ضربين : إحداهما أن تعطف بحرف العطف والآخر أن توصل بها بغير حرف العطف مثل أن تكون إحدى الجملتين صفة و الأُخرى حالاً أو الثانية تفسير الأُولى فما كان من قبيل هذه الجمل المذكورة يؤتى بغير حرف العطف مثل الجملتين الأُولين في الآية فإنّ «رابعهم كلبهم» وصف لثلاثة و كذلك «سادسهم كلبهم» صفة لخمسة و لاوجه لإدخال حرف العطف لأنّ الصفة تبيّن الموصوف وتخصّصه ؛ فلو عطفت لخرجت بالعطف من أن يكون صفة والصفة هو الموصوف في المعنى ولذلك لا يدخل العطف بين الحال وذي الحال الّتي تكون تفسيراً لما قبلها و نحو قوله : « وعد الله الّذين آمنوا[١] » . ثمّ قال : « لهم مغفرة وأجر عظيم » فالمغفرة تفسير الوعد الّذي وعدوا . وبحرف العطف نحو قوله [ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم] أي هم سبعة وثامنهم كلبهم . وقيل : إنّ الأصل في المبالغة في العدد السبعة لأنّ جلائل الأُمور سبعة سبعة فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدلّ على الاستيناف فقالوا : وثمانية . وهذه الواو تسمّى واو الثمانية كقوله : « والناهون عن المنكر [٢] » لأنّ هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدّمة . وردّ القفّال هذا القول والدليل عليه قوله : « هو الله الّذي لا إله هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر [٣] » ولم يذكر الواو في النعت الثامن ولكن على موجب التقرير الّذي قرّرناه من أنّ مثل هذه الجمل يجوز إتيان حرف العطف وتركه ففي الآية من مواضع الّذي أُتي بحرف العطف ، انتهى .

قوله : [وكذلك أعثرنا عليهم] المعنى : أي كما أعنّاهم وربطنا على قلوبهم وقلّبناهم وبعثناهم عن نومهم لما فيها من الحكم والاعتبار فكذلك أعثرنا واطّلعنا غيرهم على أحوالهم

---

(١) المائدة : ١٠ .

(٢) التوبة : ١١٣ .

(٣) الحشر : ٢٤ .

فكان الإعثار سبباً لحصول العلم للغير .

والسبب في ذلك أنّ الرجل منهم لمّا ذهب إلى السوق ليشتري الطعام وأخرج الدراهم لثمن الطعام قال صاحب الطعام : هذه النقود غير موجودة في هذا اليوم وإنّما كانت موجودة قبل هذا الوقت بمدّة طويلة ودهراً داهراً فلعلّك وجدت كنزاً ، واختلف الناس فيه وحملوا ذلك الرجل إلى الملك ؛ فقال الملك : من أين وجدت هذه الدراهم ؟ فقال : بعت بها أمس شيئاً من التمر وخرجنا فراراً من الملك دقيانوس فعرف الملك أنّه ما وجد كنزاً وأنّ الله بعثه بعد موته .

ولنعيد شطراً من أحوالهم وهو أنّه لمّا هرب أصحاب الكهف على اختلاف عددهم من الملك دقيانوس المجوسيّ وكانوا وزراء الملك قيل : ثلاثة عن يمينه وأربعة عن يساره . فهربوا بدينهم إلى الكهف . قيل : إنّه استحضر دقيانوس بأمرهم في الكهف بعد مدّة فأمر أن يسدّ عليهم باب الكهف ويدعوهم كما هم في الكهف يموتوا عطشاً وجوعاً ليكن كهفهم الّذي اختاروه قبراً لهم ، وهو يظنّ أنّهم أيقاظ . ثمّ إنّ الرجلين المؤمنين كتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم في لوح من رصاص وجعلاه في تابوت من نحاس وجعلا التابوت في البنيان الّذي بنيا على باب الكهف حين بنيا و قالا : لعلّ يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة ليعلموا خبرهم حين يقرءون هذا اللوح . ثمّ انقرض أهل ذلك الزمان وخلفت بعدهم قرون وملوك كثيرة وملك تلك البلاد ملك صالح يقال له « تدليس » وقيل « بندوسيس » فتحزّب الناس في زمانه أحزاباً منهم من يعلم أنّ الساعة حقّ ويؤمن ، ومنهم من يكذّب ؛ فكبر ذلك على الملك الصالح وبكى إلى الله وتضرّع وقال : أي ربّ قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبيّن بها أنّ البعث حقّ وأنّ الساعة آتية لاريب فيها ؛ فألقى الله في نفس رجل من أهل ذلك البلد الّذي فيه الكهف أن يهدم بنيان الّذي على فم الكهف فيبنى بهحظيرة لغنمه وكان راعياً ففعل ذلك وبعث الله الفتية من نومهم فأرسلوا أحدهم ليطلب طعاماً لهم ففعل ؛ فاطّلع الناس على أمرهم من الدراهم القديمة واُتي به الملك الصالح فلمّا بلغه الخبر استحمدالله وركب الملك هو وأهل

مدينته حتّى أتوا الكهف فذلك قوله :

[و كذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعدالله] بالبعث والثواب والعقاب [حقّ وأنّ الساعة] كذلك [آتية لا ريب فيها] لأنّ من قدر على أن يقيم جماعة تلك المدّة المديدة أحياءً ثمّ يوقظهم قدر على أن يميتهم ثمّ يحييهم بعد ذلك .

قوله تعالى : [إذ يتنازعون بينهم أمرهم] أي أعثرنا عن هؤلاء حين يتنازعون بينهم أمرهم .

واختلف في المراد بهذا التنازع فقيل : يتنازعون في صحّة البعث فالقائلون به استدلّوا بهذه الواقعة على صحّة البعث والحشر .

وقيل : إنّ الملك وقومه لمّا رأوا أصحاب الكهف ووقفوا على أحوالهم عادوا إلى كهفهم فأماتهم الله ؛ فعند هذا اختلف الناس فقال قوم : إنّهم نيام كالكرّة الأولى . و قال آخرون : الآن ماتوا ، فهذا أمر التنازع على هذا القول الثاني .

والقول الثالث في التنازع أنّ بعضهم وهم الكفّار قال : الأولى أن يسدّ باب الكهف لئلّا يدخل عليهم أحد ولا يقف على أحوالهم إنسان وقال آخرون وهم المسلمون : بل الأولى أن يبنى على باب الكهف مسجد . وهذا القول يدلّ على أنّ القائلين بهذا القول كانوا عارفين بتوحيد الله ومعترفين بالعبادة .

والقول الرابع أنّهم تنازعوا في قدر مكثهم وعددهم وأسمائهم ؛ وذلك أنّه لمّا دخل الملك عليهم مع الناس سقطوا ميّتين دفعةً ، فقال الملك : إنّ هذا الأمر عجيب فما ترون ؟ فاختلفوا فيما يرون فقال بعضهم : ابنوا عليهم بنياناً واستروهم في البنيان كالقبر . وقال غيرهم غيره . فقال سبحانه : « ربّهم أعلم بهم » ويمكن هذا الكلام من كلام المتنازعين لمّا لم يهتدوا إلى حقيقة الأمر قالوا : ربّهم أعلم بهم . ويمكن أن يكون من كلامه سبحانه ردّاً للخائضين في حديثهم .

ثمّ [قال الّذين غلبوا على أمرهم] أي الملك المسلم أو رؤساء البلد [لنتّخذنّ عليهم مسجداً] تعبدالله وتستبقي آثارهم بسبب ذلك المسجد فيعبد الناس فيه ببركاتهم . وروي أنّ أصحاب الكهف لمّا دخل صاحبهم إليهم وأخبرهم بما كانوا عنه غافلين في مدّة

مقامهم سألوا الله أن يعيدهم إلى حالتهم الأولى فأعادهم إليها وحال بين من قصدهم وبين الوصول إليهم بأن أضلّهم عن الطريق إلى الكهف فلم يهتدوا إليه .

ثمّ بيّن تنازعهم في عددهم فقال : [سيقولون] أي سيقول من المختلفين في عددهم [ثلاثة] أي هم ثلاثة [رابعهم كلبهم] وروي أنّ السيّد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبيّ ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف ؛ فقال السيّد ـ وكان يعقوبيّاً ـ : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم أي جاعلهم أربعة كلبهم. وقال العاقب ـ وكان نسطوريّاً ـ : كانوا [خمسة سادسهم كلبهم] .

وقال المسلمون : كانوا [سبعة وثامنهم كلبهم] قال أكثر المفسّرين : هذا الأخير هو الحقّ ويدلّ عليه وجوه :

الاول أنّ الواو في قوله « وثامنهم » هي الواو الّتي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الجملة الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك : جاءني رجل ومعه آخر . وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف فكانت هذه الواو دالّة على صدق الّذين قالوا : إنّهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم . ويدلّ بالتأكيد على أنّ قول الآخر قول ثابت متقرّر عن ثبات وعلم .

الوجه الثاني : أنّه خصّ هذا القول بهذا الحرف الزائد وهو الواو فوجب أن يحصل به فائدة زائدة وهذه الفائدة تخصيص هذا القول بالإثبات والتصحيح .

الوجه الثالث أنّه تعالى أتبع القولين الأوّلين بقوله : « رجماً بالغيب » وتخصيص الشيء بالوصف يدلّ على أنّ الحال في الباقي بخلافه فوجب أن يكون المخصوص بالظنّ والرجم هذان القولان الأوّلان وأن يكون القول الثالث مخالفاً لهما في كونهما رجماً بالغيب .

الوجه الرابع أنّه تعالى قال : [قل] يا محمّد [ربّي أعلم بعدّتهم ما يعلمهم إلّا قليل] والقائل بالقول الأخير كان المسلمون وهم كانوا قليلين فوجب أن يكون المراد من ذلك القليل هؤلاء المسلمون ؛ قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : كانوا سبعة وأسماؤهم تمليخا ، مكسلمنا ، مسلثينا ، وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك ؛ وكان عن يساره مرنوس ، ودبرنوس وسبادنوس ، وكان الملك يستشير هؤلاء الستّة في مهمّاته ، والسابع هو الراعي الّذي وافقهم لمّا هربوا من ملكهم واسم كلبهم قطمير . وكان ابن عبّاس يقول : أنا من

اُولئك العدد القليل وكان يقول : إنّهم سبعة وثامنهم كلبهم .

قوله تعالى : [فلا تمار فيهم] أي لاتجادل الخائضين في عددهم وشأنهم [إلّا مراءً ظاهراً] أي جدالاً بحجّة مختصرة من دون خصومة وجدل بيّن ، وهو أن تقول لهم : أثبتهم عدداً وخالفكم غيركم والعلم عند الله [ولاتستفت] في عدد أهل الكهف من أهل الكتاب ومن جهتهم [أحداً] والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله والمراد غيره .

[ولا تقولنّ لشيء إنّي فاعل ذلك غداً إلّا أن يشاء الله] أي إلّا أن تقول : إن شاء الله ، وهذا معنى الاستثناء [واذكر ربّك إذا نسيت] الاستثناء أي إذا حلفت مثلاً وقلت : والله لأفعلنّ كذا . ولم تستثن فمتى ما ذكرت فاستثن وإن كان قد تذكّرت بعد أربعين صباحاً . وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام : للعبد أن يستثن ما بينه وبين أربعين يوماً متى ما ذكر .

وأصل القصّة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أتاه ناس من اليهود فسألوه عن ثلاث مسائل فقال لهم : تعالوا غداً اُجيبكم ولم يستثن فاحتبس عنه جبرئيل أربعين يوماً ثمّ أتاه فقال : «ولا تقولنّ ، الآية » .

وفي الكافي عن الباقر في قول الله : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً »[1] : إنّ الله لمّا قال لآدم وزوجته : «ولاتقربا هذه الشجرة[2] »ولاتأكلا منها ، فقالا : نعم لم نقربها ولم نأكل منها ، ولم يستثنيا في قولهم : نعم ، فوكلهما الله في ذلك إلى أنفسهما .

في المجمع إذا استثنى الإنسان بعد النسيان فإنّه يحصل له ثواب المستثنى إن يؤثّر الانفصال في الاستثناء وإبطال الحنث و سقوط الكفّارة .

وفي الكافي عن الصادق أنّه أمر بكتاب في حاجة فكتب ثمّ عرض عليه ولم يكن فيه استثناء فقال عليه السلام : كيف رجوتم أن يتمّ هذا وليس فيه استثناء ؟ انظروا في كلّ موضع لايكون فيه استثناء فاستثنوا فيه . و في التهذيب ما يقرب منه و زاد : ثمّ دعا

---

(١)طه : ١١٥ .

(٢)البقرة : ٣٥ . الاعراف : ١٨ .

بالدواة و قال : الحق فيه إن شاء الله .

قوله تعالى : [وقل عسى أن يهدين ربّي] أي أرجو أن يأتيني بالآيات و الحجج و العلوم المستورة أقرب رشداً و كمالاً من قصّة أصحاب الكهف ، وقيل : معنى الآية أنّه إذا وعد بشيء وقال معه : إن شاء الله ، فيقول : عسى أن يهدين ربّي بشيء أحسن وأكمل ممّا وعدتكم به كما فعل الله به حيث آتاه من العلوم والبيّنات وقصص الأنبياء والأخبار المغيبة ماهو أعظم من قصّة الكهف .

قوله تعالى : ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا (٢٥) قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض ابصر به واسمع مالهم من دونه من ولي و لايشرك في حكمه احداً (٢٦) و اتل ما اوحي اليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً (٢٧) .

المعنى : قيل : إنّ هذا من كلام القوم وتتمّة كلامهم حيث قال : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم » و كذا إلى أن قال : [ولبثوا في كهفهم] أي إنّ أولئك الأقوام قالوا : ذلك ، ويؤكّده أنّه تعالى قال بعده : [قل الله أعلم بمالبثوا] و قيل : و هو من كلام الله لأنّ قوله : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم » هو كلام قد تقدّم وتخلّل بينه و بين هذا الكلام ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر وهو قوله : « فلاتمار فيهم إلّا مراءً ظاهراً » و كذلك قوله : « قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض » يفيد أنّكم ارجعوا إلى خبر الله دون مايقوله أهل الكتاب .

وههنا بحث وهو أنّ حمزة والكسائيّ قرءا بثلاثة سنين بغير تنوين بطريق الإضافة وجعلوا سنين عطف بيان أو التميز لقوله : ثلاثمائة ؛ لأنّ ثلاثمائة لم يعرف أنّها أيّام أم شهور أم سنون ؟ فلمّا قال : سنين ، صار هذا بياناً لقوله : « ثلاثمائة » . فلو قيل : إنّ الواجب في الإضافة أن يقال : ثلاثمائة سنة على الإفراد . فالجواب أنّه يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله : « بالأخسرين أعمالاً[١] » ، أي عملاً على أنّ هذا الضرب من العدد الّذي يضاف إلى الأجساد

---

(١) السورة : ١٠٤ .

غالباً نحو ثلاثمائة رجل وأربعمائة ثوب ، فقد جاء كثيراً مضافاً إلى الجمع قال أبو العلاء :
«بد بخمس مئين عسجداً وديت» وفي نصب سنين على البدليّة أو عطف البيان أو التمييز ويجوز بالجرّ فيكون نعتاً للمائة .

قوله تعالى : [وازدادوا تسعاً] فإن قيل : لمَ لم يقل سبحانه : ثلاثمائة و تسع سنين ، وما الفائدة في قوله : «وازدادوا تسعاً» ؟ قيل : إنّه حكاية كلام أهل الكتاب و اختلافهم في المدّة فقال بعضهم : ثلاثمائة وازدادوا بعضهم تسعاً وقيل : هو من كلام الله ؛ روي عن علي عليه السلام أنّه قال عند أهل الكتاب أنّهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسيّة والله تعالى ذكر السنة القمريّة ، والتفاوت بينهما في كلّ مائة سنة ثلاث سنين فيكون العدد ثلاثمائة وتسع سنين وإذا كان المراد هذا المعنى فوجب أن يكون سوق الكلام كما سبق .

ثمّ اختلف الناس في زمان أصحاب الكهف قيل : إنّهم كانوا قبل موسى عليه السلام وإنّ موسى ذكرهم في التوراة وبهذا السبب سألوا أهل التوراة عن النبيّ هذا السؤال . وقيل : إنّهم دخلوا الكهف بعد المسيح .

وبالجملة و[الله أعلم بما لبثوا] وأخبر بغيبه وهو الحقّ والصدق .[له غيب السماوات و الأرض أبصر به وأسمع] هذا لفظ التعجّب كقولك : ما أحسنه أي كثر تعجّب بصيرة الله وعلمه ولا يخفى عليه شيء فيعلم ما غاب في السماوات والأرض فليس لأهل السماوات والأرض من دون الله من ناصر يتولّى نصرتهم [ولا يشرك] سبحانه [في حكمه أحداً] و لا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم الله ، أو المعنى أنّه سبحانه لايشرك في حكمه بما يخبر به من الغيب أحداً ، وعلى قراءة الخطاب معناه : ولاتشرك أنت أيّها الإنسان في حكمه أحداً .

قوله تعالى : [واتل ما اُوحي إليك] أي اقرأ واتّبع ما اُوحي إليك من هذا القرآن والزم العمل به لأنّ التلاوة يتناول القراءة والمتابعة .

ثمّ قال سبحانه : [لا مبدّل لكلماته] أي يمتنع تطرّق التبديل إليه ؛ فلو قيل : على هذا فيجب أن لايتطرّق النسخ إليه ، قلنا : النسخ ليس تبديلاً ؛ لأنّ المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت الناسخ فالناسخ الغاية فكيف يكون تبديلاً ؟ [ولن تجد من دونه ملتحداً]

أي إن لم تتّبع القرآن فلن تجد من دون الله ملجأً وحرزاً وجانباً تميل إليه ، مأخوذ من اللحد وهو الميل .

قوله : واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدنيا و لا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا (٢٨) وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظالمين نارا احاط بهم سرادقها و ان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب و ساءت مرتفقا (٢٩) .

النزول : نزلت في سلمان وأبي ذرّ وعمّار وصهيب وخباب وغيرهم من فقراء الأصحاب وبيان ذلك أنّ بعض الأشراف من قريش والمؤلّفة قلوبهم جاءوا إلى رسول الله مثل عيينة الحصن والأقرع بن حابس وذويهم وقالوا : يا رسول الله إن جلست في صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء وأرواح صنائهم ـ وكانت عليهم جبّات الصوف ـ جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله حريصاً على إيمان عظماء المشركين طمعاً في إيمان أتباعهم ولم يمل إلى الدنيا وزينتها قطّ ولا إلى أهلها وإنّما كان بليّن في بعض الأحايين للرؤساء لهذه الجهة فخوطب بهذه الآية .

[واصبر] أي احبس [نفسك مع الّذين] يداومون على الدعاء والصلاة عند الصباح والمساء لاشغل لهم غيره ويستفتحون يومهم بالدعاء و يختمونه بالدعاء [يريدون وجهه] و رضاه ورضوانه وتعظيمه والقربة إليه من دون السمعة والرياء .

[ولا تعد عيناك] أي لاتتجاوز عيناك عنهم بالنظر إلى غيرهم من أبناء الدنيا [تريد زينة الحياة الدنيا] أي مريداً مجالسة أهل الشرف . والغرض بيان أنّ الإقبال يكون على فقراء المؤمنين وأن لايرفع نظره عنهم ، والخطاب له لئلاّ يكترث للأغنياء من الكفّار ويكون عذراً له لكنّ المراد الأمّة .

[ولا تطع من أغفلنا قلبه] أي ولا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا بسبب تعرّضه للغفلة وسوء اختياره المعصية على الطاعة ولهذا قال سبحانه : [واتّبع هواه] ومثله : «فلمّا

زاغوا أزاغ الله قلوبهم[١]» أو يكون معنى «أغفلنا» نسبنا قلبه إلى الغفلة كما يقال : أكفره أي نسبه إلى الكفر قال الكميت :

و طائفة قد أكفروني بحبّكم ※ و طائفة قالوا مسيء و مذنب

أو معنى «أغفلنا قلبه» أي جعلناه غفلاً ولم نسمه بسمة قلوب المؤمنين لتعرفه الملائكة بتلك السمة تقول العرب : فلان أغفل ماشيته ، إذا لم يسمّها بسمة تعرف أو المعنى : لا تطع من تركنا قلبه وخلّينا بينه وبين الشيطان بتركه أمرنا وبسبب ترك الأمر أعرضنا عنه قوله : « واتّبع هواه» في شهواته [وكان أمره] سرفاً وإفراطاً و تجاوزاً عن الحدّ .

[وقل] يا محمّد لهؤلاء الّذين أمروك بتنحية الفقراء : [الحقّ] هذا القرآن والحكم [من ربّكم فمن شاء فليؤمن] ويقبل [ومن شاء فليكفر] ويأبى له الاختيار ، وهذا تهديد ووعيد بصورة الأمر ولذلك عقّبه بقوله سبحانه :

[إنّا أعتدنا] وهيّأنا للكافرين [الظالمين] أنفسهم بعبادة غير الله و مخالفة أو امره [ناراً أحاط بهم] سرادق وحائط من نار يحيط بهم ، والسرادق هو الحجرة الّتي تكون حول الفسطاط تحيط من جميع الجهات . والمراد أنّه لا مخلص من النار ، و قيل : المراد من هذا السرادق الدخان الّذي وصفه الله في قوله : «انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب»[٢] وقالوا : هذه الإحاطة بهم إنّما يكون قبل دخولهم النار فيغشاهم ويحيط بهم كالسرادق .

وصفة اُخرى لهذه النار وهي قوله : [وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل] و اختلف في معنى المهل قيل : إنّه درديّ الزيت ، عن ابن مسعود . وقيل : كلّ شيء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضّة فهو المهل . وقيل : إنّه الصديد والقيح . وقيل : إنّه ضرب من القطران . وهذه الاستغاثة لأجل العطش فيعطون هذا المهل .

ثمّ قال سبحانه : [بئس الشراب] هذا الماء الّذي هو المهل [يشوي الوجوه] يذهب بفروة الرأس [وساءت مرتفقاً] أي ساءت النار منزلاً ومجتمعاً للرفقاء لأنّ أهل النار يجتمعون رفقاء كأهل الجنّة والرفقاء فهم الكفّار والشياطين . وقيل : المراد من قوله : «مرتفقاً» أي

---

(١) الصف : ٥ .　(٢) المرسلات : ٣٠ .

متكئاً لأنّ الاتكاء يكون بالمرفق والمرتفق موضع الاستراحة .

قوله تعالى : ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع اجر من احسن عملا (٣٠) اولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتها الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا (٣١) .

لمّا ذكر الوعيد للكفّار أردفه بوعد المؤمنين فقال : [إنّ الّذين آمنوا و عملوا الصالحات] من الطاعات [إنّا لانضيع أجر من أحسن عملاً] أي لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً بل نجازيهم ونوفّيهم من غير بخس .

والآية تدلّ على أنّ العمل شرط لحصول هذه المثوبات لأنّ العطف يدلّ على المغايرة ، و كذلك تدلّ على أنّ المؤمن يستوجب بحسن عمله ، ولكن عند أهل السنّة أنّ الاستيجاب يحصل بحكم الوعد ، وعند المعتزلة لذات الفعل . وتكرير كلمة « إنّ » لبيان تأكيد تحقّق الوعد والعمل كقول الشاعر :

إنّ الخليفة إنّ الله سربله ❊ سربال ملك به ترجى الخواتيم

ولمّا أثبت الأجر لهم أردفه بالتفصيل : الأوّل صفة مكانهم وهو قوله : [أُولئك لهم جنّات عدن] و«العدن» عبارة عن الثبوت والإقامة أي دار الإقامة لأنّهم يبقون فيها ببقاء الله دائماً . وقيل : المراد بالعدن بطنان الجنّة ووسطها وهي جنّة من الجنان ، وإنّما جمع لسعتها و كلّ ناحية منها تصلح أن تكون جنّة [تجري من تحتها الأنهار] لأنّهم على غرف فيها والأنهار تجري في أخاديد من الأرض فلذلك قال : من تحتهم [يحلّون فيها من أساور من ذهب] أي يجعل لهم فيها حلي من أساور : سوار من فضّة وسوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وياقوت يحلّيهم الله أو تحلّيهم الملائكة ؛ فالسوار من الذهب في هذه الآية ومن فضّة لقوله تعالى : «وحلّوا أساور من فضّة»[1] وسوار من لؤلؤ لقوله : «ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير»[2] وهذه الثلاثة لباس الزينة وأمّا لباس التستّر فقوله : [ويلبسون ثياباً خضراً من سندس]

(١) الدهر : ٢١ .
(٢) الحج : ٢٥ ، الفاطر : ٣١ .

و هو الديباج الرقيق اللطيف . والثاني الاستبرق فارسيّ معرّب «استبره» بالفارسيّة أي غليظ . والحاصل أنّ ملبوسهم على قسمين رقيق غاية ، وغليظ منسوج بالذهب .

تراهنّ يلبسن المشاعر مرّة ※ و استبرق الديباج طوراً لباسها

[متّكئين على الأرائك] الأريكة السرير والفرش في الحجال ، وإنّما خص الاتّكاء في الذكر لأنّه يفيد معنى الأمن و الراحة و السلامة قوله : [نعم الثواب] أي طاب ثوابهم وعظم [و حسنت] الأرائك موضع ارتفاق ومجتمعاً ومنزلاً .

قوله تعالى : واضرب لهم مثلا رجلا جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا (٣١) كلتا الجنتين آتت اكلها ولم تظلم منه شيئا (٣٢) وفجرنا خلالهما نهرا (٣٣) وكان له ثمر فقال لصاحبه و هو يحاوره انا اكثر منك ما لاواعز نفرا (٣٤) ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن ان تبيد هذه ابدا (٣٥) وما أظن الساعة قائمة و لئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا (٣٦) قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا (٣٧) لكنا هو الله ربى ولااشرك بربى احدا (٣٨) ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة الا بالله ان ترن انا اقل منك مالا وولدا (٣٩) فعسى ربى ان يؤتين خيرا من جنتك و يرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا (٤٠) او يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا (٤١) واحيط بثمرة فاصبح يقلب كفيه على ماانفق فيهاوهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم اشرك بربى احدا (٤٢) ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وماكان منتصرا (٤٣) هنالك الولاية لله الحق هوخير ثوابا وخير عقبا (٤٤) .

النزول : إنّ الكفّار افتخروا على المسلمين بثروتهم وأموالهم فبيّن الله في هذه الآية أنّه ذلك ممّا لايوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الغنيّ فقيراً والفقير غنيّاً ، و أمّا الّذي يوجب الافتخار بطاعة الله و تقواه ، وضرب مثلاً لهذا المعنى في الآية فقال :

[واضرب] يا محمد [لهم مثلاً رجلين] أي مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين في بني إسرائيل : أحدهما كافر اسمه براطوس و الآخر مؤمن اسمه يهوذا ورثا من أبيهما ثمانية ألف دينار فأخذ كلّ واحد منهما النصف و اشترى الكافر أرضاً بألف دينار فقال المؤمن : اللهمّ إنّي أشتري منك أرضاً في الجنّة بألف دينار فتصدّق به ثمّ بنى أخوه داراً بألف دينار فقال المؤمن : اللهمّ إنّي أشتري منك داراً في الجنّة بألف فتصدّق به ثمّ تزوّج أخوه امرأة بألف دينار فقال المؤمن : اللهمّ إنّي جعلت ألفاً لصداق حور العين ، ثمّ اشترى أخوه خدماً وضياعاً بألف فقال المؤمن : اللهمّ إنّي اشتريت منك الولدان بألف ، فتصدّق به ثمّ أصابه حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمرّ به أخوه في حشمة فتعرّض له فطرده ووبّخه على التصدّق بما له .

قوله تعالى : [جعلنا لأحدهما جنّتين] وصف سبحانه تلك الجنّة بصفات كونها جنّة أي مستترة بظلّ الأشجار ، وأصل الكلمة من الستر والتغطية والصفة الثانية [وحففناهما بنخل] أي جعلنا النخل محيطاً بالجنّتين نظير قوله : «حافّين من حول العرش »[1] أي محيطين به والمحافّة جانب الشيء [وجعلنا بينهما زرعاً] المقصود أنّ تلك الأراضي جامعة لأقسام المنافع من الأقوات والفواكه .

وقوله : [كلتا الجنّتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً] أي كلّ واحدة من البستانين آتت ثمرتها وغلّتها ، وسمّاه أكلاً لأنّه مأكول «ولم تظلم» أي ولم تنقص منه شيئاً بل تثمر على التمام والكمال [وفجّرنا خلالهما] و وسطهما شققنا [نهراً] يسقيهما من غير كدّ وتعب بدوام الماء فيهما .

[وكان له ثمر] قرىء بفتح الثاء أي كان للرجل ثمر ملكه ، أوالضمير راجع إلى النخل أي كان للنخل ثمر . وقرىء بضمّ الثاء والميم والمعنى كان للرجل الذهب والفضّة مع هذين البستانين [فقال لصاحبه وهو يحاوره] أي قال الكافر لصاحبه المؤمن وهو يخاطبه ويراجعه في الكلام من الحور وهو الرجوع : [أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً] والمسلم كان يحاوره بالوعظ

(١) الزمر : ٧٥ .

والدعوة بالإيمان والبعث وقال الكافر : أنا أكثر منك مالاً وعشيرة وأصحاباً وترفع عليه بجاهه وماله .

ثمّ أخبر الله عن حاله فقال : [ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه] لجحوده الإيمان والبعث وأفرد الجنّة بعد التثنية وأضافها إليه لأنّ المراد ملكه ولم يقصد الجنّة ولا الجنّتين . ثمّ حكى سبحانه عن الكافر أنّه قال : و[ما أظنّ أن] تفني هذه الجنّة لإعجابه بها و غروره ببهجتها والمراد أنّها لا تبيد مدّة حياته لكثرة ثمارها وحسن بهجتها ثمّ قال الكافر : [ولئن رددت إلى ربّي] كما تزعم أنت و بعثت بعقيدتك لا بعقيدتي ؛ لأنّي ما أظنّ أنّ الساعة تقوم فعلى زعمك لئن قامت [لأجدنّ خيراً منها منقلباً] أي كما أعطاني هنا يعطيني هناك لكرامتي كما أكرمني في الدنيا ، وظنّ جهلاً أنّه اُوتي ما اُوتي لكرامته على الله .

[قال له صاحبه] المؤمن وهو يخاطبه ويرشده [أكفرت بالّذي خلقك من تراب ثمّ من نطفة ثمّ سوّاك رجلاً] وإنّما كفّره لأنّه أنكر القيامة حيث قال : «وما أظنّ الساعة قائمة» وهذا يدلّ على أنّ منكر البعث كافر بالله . وقوله : «خلقك من تراب» إشارة إلى بدو خلق الإنسان وقوله : «ثمّ سوّاك» أي هيّأك هيئة تعقل و تصلح للتكليف .

ثمّ قال المؤمن : [لكنّا هو الله ربّي] قال أهل اللغة : لكنّا ، أصله لكن أنا فحذفت الهمزة واُلقيت حركتها على نون لكن فاُجمعت النونان فاُدغمت نون لكن في نون البعد و تحذف الألف في الوصل وتثبت في الوقف وإثبات الألف في لكنّا عوض عن الهمزة من أنا ، ويمكن أنّ هذه الألف تلحق للوقف مثل الهاء في قوله : «ماهيه ، حسابيه»[١] قوله: «هو الله» الضمير ضمير الشأن تقديره : لكن أنا أقول : هو الله ربّي و خالقي[ولا اُشرك بربّي أحداً] في عبادتي ، وإنّما استحال الشرك في العبادة لأنّها لا تستحقّ إلّا باُصول النعم و ذلك لا يقدر عليه أحد إلّا الله فلا يجوز أن يعبد غير المنعم .

قوله : [ولولا إذ دخلت جنّتك قلت ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله] وقال له : هلّا حين دخلت بستانك فرأيت تلك الثمار والنعمة والزرع شكرت الله وقلت : الّذي شاء الله كان و حصل وإنّي وإن تعبت بجمعه وليس ذلك إلّا بقدرة الله وتيسيره ، ولو شاء فحال بيني وبين

---

(١) سورة الحاقة والقارعة .

ذلك ولنزع عنّي هذه النعمة .

ثمّ رجع إلى نفسه وقال : [إن ترن أنا أقلّ منك مالاً وولداً * فعسى ربّي أن يؤتيني خيراً من جنّتك] أي إن كنت تراني اليوم فقيراً وأقلّ منك فلعلّ الله أن يؤتيني بستاناً في الآخرة أو في الدنيا والآخرة [ويرسل] على جنّتك عذاباً أو ناراً من السماء فيحرقها ، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك . وحسبان مثل غفران وبطلان أي مقدار ماقدّره الله . وقيل : معنى الحسبان مرامي من عذابه إمّا بردو إمّا حجارة أو غيرهما من أنواع العذاب [فتصبح] جنّتك أرضاً مستوية لانبات عليها تزلق عنها القدم فتصير أضرّ أرض بعد أن كانت أنفع أرض [أو يصبح ماؤها] غائراً ذاهباً في باطن الأرض [فلن تستطيع] لطلب الماء إذا غار في الأرض أثراً تطلبه ولن تستطيع ردّه . وبالجملة إلى هنا انتهى مناظرة الصاحبين .

ثمّ قال سبحانه : [وأُحيط بثمره] أي أهلك الأشجار ونخيله فهلكت عن آخرها في الخسر ، إنّ الله أرسل عليها ناراً فأهلكها وغار ماؤها [فأصبح] هذا الكافر [يقلّب كفّيه] تحسّراً و تأسّفاً [على ما أنفق] في الجنّة من المال ، وتقلّب الكفّين عبارة عن شدّة الندم والتحسّر [وهي] أي الجنّة ساقطة على سقوفها وماعرش لكرومها ومابني من البناء فيها وندم على الكفر لفناء ماله لا لوجوب الإيمان فلم ينفعه ، و لوندم على الكفر فآمن بالله تحقيقاً لانتفع به .

[ولم تكن له] أي لهذا الكافر جماعة يدفعون عذاب الله عنه أوجند ينفعونه [وما كان منتصراً] وممتنع وروى هشام بن سالم وأبان بن عثمان عن الصادق عليه السلام : عجبت لمن خاف أمراً كيف لايفزع إلى قوله تعالى : «وحسبنا الله ونعم الوكيل [(١)]» ؟ فإنّي سمعت الله عزّ وجلّ يقول بعقبها : «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء» [(٢)] وعجبت لمن اغتمّ كيف لايفزع إلى قوله : «لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين» ؟[(٣)] فإنّي سمعت الله يقول بعقبها : «فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين» [(٤)] وعجبت لمن مكر به كيف لايفزع إلى قوله : «وأُفوّض أمري إلى الله إنّ الله بصير

(١) آل عمران : ١٧٣ . (٢) آل عمران : ١٧٥ .
(٣) الانبياء : ٨٧ . (٤) الانبياء : ٨٨ .

بالعباد»؛[1] فإنّي سمعت الله يقول بعقبها : «فوقاه الله سيّئات مامكروا»[2] وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لايفزع إلى قوله : «ماشاء الله لاقوّة إلّا بالله»؟ فإنّي سمعت الله يقول : بعقبها «فعسى ربّي أن يأتيني خيراً من جنّتك» و«عسى» موجبة من الله .

قوله : [هنالك الولاية لله الحقّ] هنالك أي يوم القيامة وذلك الموضع الولاية والنصرة لله ينصربها أوليائه على أعدائه هذا كقوله : «لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار»[3] وبعض القرّاء قرءوا الولاية بالفتح قالوا : لانّ الكسر في فعالة يجيء فيما كان صنعة كالكتابة والإمارة والخلافة وأشباهها وليس هنا تولّي أمر بل إنّما هو الولاية من الدين وكذلك الّتي في الأنفال .

قوله : [مالهم من ولايتهم من شيء] ففي هذين الموضعين بفتح الواو ، وأيضاً الحقّ قريء بكسر القاف صفة لله ، وقرىء بالرفع صفة للولاية ، وكذلك «عقبا» قريء بسكون القاف كفعلى ، وبضمّ القاف وكليهما بمعنى العاقبة .

قوله تعالى : و اضرب لهم مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً (٤٥) .

المقصود ضرب مثل آخر لحقارة الدنيا وزينتها فقال سبحانه : [واضرب] يا محمّد لهؤلاء المفتخرين بأموالهم على فقراء المؤمنين أنّ مثل الحياة الدنيا [كماء أنزلناه من السماء] فنبت بسبب ذلك الماء نبات الأرض والتفّ بعضه ببعض بروق حسناً وغضاضة ، وبعد مدّة قليلة يصبح هذا النبات كسيراً مفتّتة [تذروه الرياح] وتنقله من موضع إلى موضع والذرو والتذرية يطير الريح الأشياء الخفيفة في كلّ جهة أي انقلاب الدنيا بأهلها كانقلاب هذا النبات [وكان الله على كلّ شيء مقتدراً] قادراً لايجوز عليه المنع . ثمّ قال :

---

(١) المؤمن : ٤٤ . (٢) المؤمن : ٤٥ .
(٣) المؤمن : ١٦ .

قوله : المال والبنون زينة الحيوة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير املا (٤٦) ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم احدا (٤٧) وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا (٤٨) ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصىها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك احدا (٤٩) .

قوله : [المال والبنون] أي إنّ الإنسان يتفاخر بهما ويتزيّن بهما في الدنيا ولا ينتفع منهما في الآخرة ، وإنّما سمّا هما زينة لأنّ في المال جمالاً وفي البنين قوّة ودفعاً فصارا زينة لكن لايبقيان [والباقيات الصالحات] والعبادات الدينيّة والطاعات والحسنات [خير عند ربّك ثواباً] وأصدق [أملاً] لأنّها غير فانية وسائر زهرات الدنيا والآمال الكاذبة المنقطعة فانية ، ومن المعلوم أنّ الباقي خير من الفاني .

روى أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ أنّه قال لجلسائه : خذوا جنّتكم ، قالوا : أحضر عدوّ يارسول الله ؟ قال ﷺ : جنّتكم من النار ، قولوا : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر ، فإنّهن المقدّمات وهنّ المجيبات وهنّ المعقّبات وهنّ الباقيات الصالحات . ورواه أصحابنا عن أبي عبدالله عن آبائه عن النبيّ ﷺ ثمّ قال : ولذكر الله أكبر ، قال : ذكر الله عند ما أحلّ أوحرّم .

و روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : إن عجزتم عن اللّيل أن تكابدوه وعن العدوان تجاهدوه فلا تعجزوا عن قول سبحان الله و الحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر ؛ فإنّهن من الباقيات الصالحات . وقيل : هي الصلوات الخمس ، عن ابن مسعود وجماعة ، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام .

وروي عنه أيضاً أنّ من الباقيات لقيام الليل . وقيل : إنّ الباقيات الصالحات هنّ النيّات الصالحة . والأولى حملها على العموم فيدخل فيها جميع الخيرات و الطاعات . وفي كتاب ابن عقدة أنّ أباعبدالله عليه السلام قال للحصين بن عبدالرحمن : يا حصين لا تستصغر مروّتنا فإنّها من الباقيات الصالحات ، قال : يا ابن رسول الله ما أستصغرها ولكن أحمد الله عليها .

قوله تعالى [ويوم نسيّر الجبال] قيل : ابتداء كلام : و اذكر يوم نسيّر الجبال ، يعني يوم القيامة ، وتسيير الجبال قلعها عن أماكنها فإنّ الله يجعلها هباءً منثوراً . وقيل : يسيّرها على وجه الأرض كما يسيّر السحاب في السماء ثمّ يجعلها كثيباً مهيلاً ثمّ يصيّرها هباء منثوراً في الهواء . وقيل : متعلّق قوله : «ويوم نسيّر الجبال» ماقبله وتقديره : الصالحات خير ثواباً في هذا اليوم .

قوله : [وترى الأرض بارزة] أي ظاهرة ليس عليها شيء من جبل أو بناء أو شجر يسترها عن عيون الناظرين . وقيل : معناه وترى باطن الأرض ظاهراً قد برز من كان في بطنها فصاروا على ظهرها فهو مثل قول النبيّ ﷺ : ترمي الأرض بأفلاذ كبدها [وحشرناهم] وبعثناهم من قبورهم وجمعناهم في الموقف [فلم نغادر منهم أحداً] أي لم نترك منهم أحداً إلّا حشرناه .

[و عرضوا] أي المحشورين يعرضون على الله يوم القيامة [صفّاً] أي مصفوفين صفّاً بعد صفّ كالصفوف في الصلاة . وقيل : صفّاً واحداً جميع أهل الدنيا لا يحجب بعضهم بعضاً ويقال لهم : [لقد جئتمونا] فرادى [كما خلقناكم أوّل مرّة] عراة حفاة بغير أموال ولا أعوان ؛ قالت عائشة بعد الحديث : أما يستحيي بعضهم من بعض ؟ فقال ﷺ : «لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» [(١)]. ثمّ قال : [بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً] أي كنتم مع التعزّز على المؤمنين بالأموال والأنصار تنكرون البعث و القيامة .

[ووضع الكتاب] أي وضع الكتب فإنّ الكتاب اسم جنس يعني وضعت الصحائف من بني آدم في أيديهم ، وقيل : وضع الحساب فعبّر عن الحساب بالكتاب [فترى المجرمين] خائفين [ممّا فيه] من الأعمال السيّئة [ويقولون ياويلتنا] احضري هذه لفظة يقولها الإنسان إذا وقع في شدّة فيدعو على نفسه بالويل والثبور ، يحصل لهم خوف العقاب من الحقّ وخوف الفضيحة عند الخلق [مالهذا الكتاب] وصحيفة العمل [لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها] لا يترك الصغيرة ولا الكبيرة ، وانّث الصغيرة والكبيرة مع أنّه وصف الذنب لمعنى الفعلة و الخصلة .

---

(١) عبس : ٣٧ .

قوله : [ووجدوا ماعملوا حاضراً] أي مكتوباً مثبتاً و يجدون جزاء ماعملوا حاضراً فجعل وجود الجزاء كوجود الأعمال توسّعاً [ولا يظلم ربّك أحداً] أي لاينقص ثواب ما عملوا من الحسنات ولا يزيد في عقاب مسيء . وفي هذه الآية دلالة على أنّه سبحانه لايعاقب الأطفال لأنّه إذا كان لايزيد في عقوبة المذنب فكيف يعاقب من ليس بمذنب ؟

قوله تعالى : واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس، كان من الجن ففسق عن امر ربه افتتخذونه و ذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا (٥٠) ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولاخلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا(٥١) ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا (٥٢) .

المقصود من ذكر الآيات المتقدّمة أنّ المشركين كانوا يتكبّرون ويفتخرون على فقراء المؤمنين بأموالهم و شرفهم فذكر أنّ الكبر طريقة إبليس و أنتم لاتقتدوا به ولا تتولّوه ، وبيان ماأورث الكبر للشيطان من سوء العاقبة حتّى تحترزوا من هذه الطريقة السيّئة . والتكرّر في القرآن في هذه المسألة وأشباهها لأجل أهمّيّة الأمر ؛ فإن الاستكبار إشراك ومعارضة مع الربوبيّة .

اذكر يا محمّد [إذ قلنا] و أمرنا [للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس] قدمر تفسيره فيما تقدّم .

قوله : [كان من الجنّ] ومجمله أنّ للناس في هذه المسألة أقوال :

الأوّل أنّه من الملائكة و كونه من الملائكة لاينا في كونه من الجنّ و لهم فيه وجوه : الأوّل أنّ قبيلة من الملائكة يسمّون بذلك لقوله : « وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً [١]» « وجعلوالله شركاء الجنّ [٢]» لقولهم : الملائكة بنات الله . الثاني : الجنّ سمّوا جنّاً للاستتار والملائكة كذلك فهم لهذا المعنى داخلون في الجنّ . الثالث : أنّه كان ملكاً خازن الجنّة و نسب إلى الجنّة كنسبة البصريّ والكوفيّ والشامي . وعن سعيد بن جبير

(١) الصافات : ١٥٧ .
(٢) الانعام : ١٠٠ .

أنّه كان من الجنانين الّذين يعلمون في الجنان حيّ من الملائكة يصوغون حلية أهل الجنّة مذخلقوا ؛ رواه القاضي في تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبير .

والقول الثاني من الأقوال الثلاثة : أنّه من الجنّ الّذين هم الشياطين الّذين خلقوا من نار وهو أبوهم .

والقول الثالث من الأقوال الثلاثة كان من الملائكة فمسخ .

ودليل من قال : إنّه ليس من الملائكة ، أنّه تعالى أثبت له ذرّيّة و نسلاً في هذه الآية وهو قوله : « أفتتّخذونه و ذرّيّته أولياء من دوني » والملائكة ليس لهم ذرّيّة ولا نسل فوجب أن لايكون إبليس من الملائكة . بقي أن يقال : إنّ الله أمر الملائكة بالسجود فلو لم يكن من الملائكة فكيف تناوله ذلك الأمر ؟ وأيضا لو لم يكن من الملائكة كيف يصحّ استثناؤه منهم ؟ وقد شرح هذه المسألة في سورة البقرة . وفي كيفيّة ذرّيّة إبليس قيل : يتولّدون كما يتوالد بنو آدم . وقيل : يدخل ذنبه في دبره فيبيض وتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين .

قوله : [ففسق عن أمر ربّه] أي خرج بترك السجود عن طاعة ربّه .

ثمّ خاطب الله الكافرين فقال : [أفتتّخذونه و ذرّيّته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ] وذرّيّته أعداء لكم و العاقل حقيق بأن يتّهم عدوّه على نفسه ولايتولّاه . بئس البدل طاعة الشيطان عن طاعة الرحمن ، وولاية الشيطان عن ولاية الرحمن ، و تقدير الآية : بئس البدل من الله إبليس . والمخصوص بالذمّ مضمر فسّر بقوله : «بدلاً» على البدليّة .

قوله : [ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض] معناه ما أحضرت إبليس و ذرّيّته حين خلقت السماوات والأرض مستعيناً بهم أو ما أحضرت المشركين وقت خلق السماوات ولا استعنت ببعضهم على خلق بعضهم ولم يكونوا موجودين وقت خلق السماوات فمن أين جعلوا لي شريكاً ، ونسبوا أنّ الملائكة بنات الله ، ومن أين ادّعوا ذلك ؟ [وما كنت متّخذ المضلّين] أي الشياطين الّذين يضلّون الناس أو ما اتّخذت المضلّين من الشيطان و الإنسان عوناً لي على خلقتهم وما كانوا فمن أين لهم قابليّة الولاية و الإطاعة منكم إليهم ؟ و الولاية لله .

قوله : [ويوم يقول] يريد يوم القيامة يقول الله للمشركين وعبدة الأصنام :[نادوا شركائي الّذين زعمتم] في الدنيا أنّهم شركائي ليدفعوا عنكم العذاب [فدعوهم]المشركون أي يدعونهم أي يدعون الأصنام فلا يستجيبون لهم ولا ينفعونهم .

[وجعلنا بينهم] أي المؤمنين والكافرين [موبقاً] و هو اسم واد عميق فرّق الله به بين المؤمنين والكافرين وأهل الهدى وأهل الضلالة ، وقيل : معناه جعلنا حاجزاً بين المعبودين وعبدتهم و أدخلنا من كان من المعبودين مثل الملائكة و المسيح الجنّة وأدخلنا العابدين النار . وقيل « موبقاً » أي عداوة مهلكة .

وعن أنس بن مالك أنّه قال : الموبق واد في جهنّم من قيح ودم ، والمقصود من هذه الآية إلزام المشركين بالحجج الظاهرة وبيان أنّه المتفرّد بالحقّ والابتداع لا شريك له فيه ، ويوم خلق السماوات والأرض ما كنتم ولا كان إبليس ؛ فلا ينبغي أن تشركوا معه في العبادة غيره إلهاً .

قوله تعالى : وراى المجرمون النارفظنوا انهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا (٥٣) و لقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل و كان الانسان اكثر شيء جدلا (٥٤) وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا ان تأتيهم سنة الاولين او يأتيهم العذاب قبلا (٥٥) وما نرسل المرسلين الا مبشرين و منذرين و يجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما انذروا هزوا (٥٦) .

ثمّ بيّن سبحانه حال المجرمين يعني المشركين أو هو عامّ في أصحاب الكبائر ، لمّا رأوا النار وهي تتلظّى عليهم حيفاً وإحاطة [فظنّوا] أي علموا [أنّهم] داخلون فيها وواقعون في عذابها [ولم يجدوا] بدّاً ومعدلاً ينصرفون إليه ليتخلّصوا منها . وقيل : معنى «مواقعوها» أي مخالطوها .

[ولقد صرّفنا] وبيّنّا [في هذا القرآن للناس من كلّ مثل] وتصريفها ترديدها من نوع واحد و أنواع مختلفة ليفكّروا فيها ومع ذلك يكون [الإنسان أكثر شيء جدلاً] قيل : المراد بالإنسان في الآية الكافر و يدلّ عليه قوله : « و يجادل الّذين كفروا

بالباطل » . و قيل : المراد بالإنسان النضر بن الحارث لأنّه كان كثير الجدل في آيات النبيّ. وقيل : يريد أبيّ بن خلف ، وهو كان كذلك .

قوله : [وما منع الناس أن يؤمنوا إذجاءهم الهدى] أي ما منعهم من الإيمان بعد مجيء الدلالة [و]من أن [يستغفروا ربّهم] على ماسبق من معاصيهم إلّا أن تطلب أن[تأتيهم] عذاب الاستئصال ، وتأتيهم من حيث لايشعرون كالأمم المتقدّمة [أو يأتيهم العذاب] عياناً مقابلة يرونها حتّى يؤمنوا إلجاءً ، أو هذا كقول القائل لغيره : مامنعك أن تقبل قولي إلّا أن تضرب . و«قبلاً» قرىء بضمّ القاف والباء و بفتح القاف وسكون الباء ، و المعنى على قراءة الضمّتين معنى المقابلة ، وبالفتح والسكون معنى القبل و السابق .

قوله : [وما نرسل المرسلين] أي لم نرسل الرسل إلى الخلق [إلّا مبشّرين] إذا أطاعوا و مخوّفين لهم بالنار إذا عصوا [و يجادل] الكفّار دفعاً عن مذاهبهم و يخاصم [الّذين كفروا] وأتوا بالباطل وغرضهم أن يزيلوا الحقّ عن مقرّه ؛ قال ابن عبّاس : يريد المستهزئين و المقتسمين ، وجدالهم [بالباطل] اقتراحاتهم الآيات على أفواههم ليبطلوا ماجاء به محمّد . يقال : أدحضت حجّته إذا أبطلتها ، فإذا [اتّخذوا آياتي] أي القرآن [وما أُنذروا] و تخوّفوا به من البعث والنار [هزؤاً] به .

قوله : ومن اظلم ممن ذكر بايآت ربه فاعرض عنها و نسي ماقدمت يداه انا جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه و في آذانهم و قرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا ابدا (٥٧) و ربك الغفور ذوالرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا(٥٨) وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا(٥٩) .

لمّا حكى عن الكفّار جدالهم بالباطل شرح في بيان مخازيهم و ظلمهم فقال : [ومن أظلم ممّن] ترد عليه الحجج و الآيات الواضحة و وعظ بالقرآن و أدلّة التوحيد [فأعرض عنها] جانباً [ونسي ماقدّمت يداه] من الأعمال المنكرة الّتي صدرت منه ؛ والمراد من

النسيان التشاغل والتغافل عن كفره و عصيانه استخفافاً به .

ثمّ قال : [إنّا] بسبب إعراضهم عن الآيات استحقّوا أن نجعل [على قلوبهم أكنّة] وأغطية أن تفقه [وفي آذانهم و قراً] أن تسمع [و إن تدعهم] أنت يا محمّد [إلى الهدى فلن يهتدوا] ماداموا معرضين عن الحق[أبداً] وقد خرج مخبره موافقاً لخبره لأنّهم ماتوا على كفرهم .

[و ربّك] الساتر على عباده الغافر لذنوب المؤمنين و الإفضال على خلقه ، وقيل : معناه [الغفور] للتائب و [ذوالرحمة] للمصرّ بأن يمهل و لا يعجل . و قيل : الغفور لايؤاخذهم عاجلاً ، ذوالرحمة يؤخّرهم ليتوبوا . قوله: [لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب] في الدنيا [بل لهم موعد] وهو يوم القيامة والبعث [لن يجدوا من دونه موئلاً] أي ملجأً ومحرزاً . وقيل : منجاً ينجيهم ؛ يقال : لاوألت نفسه أي لانجت .

قوله : [و تلك القرى] إشارة إلى قرى عاد وثمود و غيرهما [أهلكناهم لمّا ظلموا] بتكذيب أنبياء الله و جحود آياته [وجعلنا لمهلكهم] أي لوقت إهلاكهم [موعداً] معلوماً يهلكون فيه لمصلحة اقتضت تأخيره إليه ، وإنّما قال : «تلك القرى أهلكناهم » ولم يقل : أهلكناها ؛لأنّ القرية لايستحقّ الهلاك و إنّما يستحقّ الهلاك أهلها .

قوله تعالى : واذقال موسى لفتيه لاابرح حتى ابلغ مجمع البحرين اوامضى حقبا (٦٠) فلما بلغا مجمع بينهما نسياحوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا (٦١) فلما جاوزا قال لفتيه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا(٦٢) قال أرأيت اذأوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا (٦٣) قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على اثارهما قصصا (٦٤) .

النزول : القمي : لمّا سأل اليهود النبيّ عن قصّة أصحاب الكهف وأجابهم ﷺ سألوا و قالوا : أخبرنا من العالم الّذي أمرالله موسى أن يتبعه و ما قصّته فأنزل الله الآية .

وكان سبب ذلك أنّه لمّا كلّم الله موسى تكليماً و أنزل عليها الألواح كما قال الله : «و كتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظة وتفصيلاً لكلّ شيء»[١] ورجع موسى إلى بني إسرائيل صعد المنبر فأخبرهم أنّ الله قد أنزل التوراة و كلّمه ، قال في نفسه : ما خلق الله خلقاً أعلم منّي ! فأوحى الله إلى جبرئيل : أدرك موسى فقد هلك و أخبره أنّ عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجل أعلم منك فسر إليه و تعلّم من علمه ، فنزل جبرئيل على موسى وأخبره فذلّ موسى في نفسه وعلم أنّه أخطأ ودخله الرعب فقال لوصيّه يوشع ابن نون : إنّ الله قد أمرني أن أتبع رجلاً عند ملتقى البحرين و أتعلّم منه فتزوّد يوشع حوتاً مملوحاً وخرجا .

و العيّاشي عن الصادق عليه السلام قال : بينا موسى قاعد في ملأ من أصحابه بني إسرائيل إذ قال له رجل : ما أرى أحداً أعلم بالله منك ! قال موسى : ما أرى ؛ فأوحى الله إليه : بل عبدي الخضر فتوجّه إليه ، فكان له آية الحوت أن افتقده ، و كان من شأنه ما قصّ الله في هذه الآية .

المعنى : [وإذ قال موسى لفتاه] أكثر المفسّرين على أنّه موسى بن عمران و فتاه يوشع بن نون وسمّاه فتاه لأنّه صحبه وخدمه ولازمه سفراً وحضراً وتلمّذه كما خاطبه «آتنا غداءنا» ويوشع ابن نون بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، لكنّ اليهود يقولون : إنّ موسى الّذي طلب الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف و كان قبل موسى بن عمران إلّا أنّ الجمهور على أنّه موسى بن عمران ، لأنّ إطلاقه يوجب صرفه إلى موسى بن عمران .

قال علي بن إبراهيم : حدّثني محمّد بن علي بن بلال ، قال : اختلف يونس وهشام بن إبراهيم في العالم الّذي أتاه موسى أيّهما كان ، و هل يجوز أن يكون على موسى حجّة في وقته وهو حجّة الله على خلقه ؟ فكتبوا إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام يسألونه عن ذلك فكتب عليه السلام في الجواب : أتى موسى إلى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر ، فسلّم عليه موسى فتعجّب من السلام إذ كان بأرض ليس بها هذه التحيّة ، قال : من أنت ؟ قال :

(١) الاعراف : ١٤٤ .

أنا موسى بن عمران إلى خضر ، قال له خضر : أنت موسى بن عمران الّذي كلّم الله موسى تكليماً ؟ قال : نعم ، قال : فما حاجتك ؟ قال : جئت لتعلّمني ممّا علّمت رشداً ، قال : إنّي وكلت بأمر لا تطيقه ووكلت أنت بأمر لا أُطيقه ، الخبر بطوله .

قوله : [لا أبرح حتّى أبلغ مجمع البحرين] معناه لا أزال ثابتاً أمضي وأمشي ولا أسلك طريقاً آخر حتّى أبلغ ملتقى البحرين : بحر الروم وبحر فارس ، وممّا يلي المغرب بحر الروم وممّا يلي المشرق بحر فارس . وقيل : هو طنجة و إفريقيّة وكان وعد أن يلقى الخضر بذلك المكان .

قوله : [أو أمضي حقباً] أي دهراً طويلاً . وقيل : « الحقب » سبعون سنة . وقيل : ثمانون سنة [فلمّا بلغا مجمع بينهما] أي الموضع الّذي يجتمع فيه رأس البحرين [نسيا حوتهما] أي تركاه . و قيل : إنّه ضلّ الحوت عنهما حين [اتّخذ الحوت سبيله في البحر سرباً] أي مسلكاً يذهب فيه ، و ذلك أنّ موسى وفتاه تزوّدا حوتاً مملوحاً أو طريّاً على قول ـ ثمّ انطلقا يمشيان على شاطىء البحر حتّى انتهيا إلى صخرة على ساحل البحر فأويا إليها . وقيل : عنده ماء تسمّى عين الحياة فجلس يوشع بن نون و توضّأ من ذلك العين فانتضح على الحوت شيء من ذلك الماء فعاش ووثب في الماء وجعل يضرب بذنبه الماء فكان لا يسلك طريقاً في البحر إلّا صار ماءً جامداً فذلك معنى قوله : « فاتّخذ سبيله في البحر سرباً » .

وقيل : إنّ موسى عليه السلام سأل ربّه أيّ عبادك أحبّ إليك ؟ قال : الّذي يذكرني ولا ينساني ، قال : فأيّ عبادك أقضى ؟ قال : الّذي يقضي بالحقّ ولا يتّبع الهوى . قال : فأيّ عبادك أعلم ؟ قال : الّذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدلّه على هدى أو تردّه عن ردى ، فقال موسى : إن كان في عبادك من هو أعلم منّي فادللني عليه . فقال : أعلم منك الخضر . قال : فأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخره ، قال : يا ربّ كيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك . فقال لفتاه : إذا فقدت الحوت فأخبرني ، فذهبا يمشيان ورقد موسى واضطرب الحوت وطفر إلى البحر فلمّا جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوع الحوت في البحر فرجع موسى من ذلك الموضع إلى الموضع الّذي طفر الحوت في البحر فإذا رجل مسجّى بثوبه فسلّم عليه موسى فقال : وأنّى بأرضك السلام ؟ فعرّفه نفسه ، فقال : ياموسى أنا على علم علّمني الله لا تعلمه أنت ، و أنت

على علم علّمك الله لا أعلمه أنا . فلمّا ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر : ما ينقب هذا العصفور من هذا البحر ، مقدار علمي و علمك بالنسبة إلى علم الله أقلّ وأقلّ من هذه القطرة .

وبالجملة لمّا بلغ موسى وفتاه مجمع بينهما وموضع الموعود به طفرت السمكة إلى البحر وسارت .

وفي كيفيّة طفرها أقوال :

قيل : إنّ الفتى كان يغسل السمكة لأنّها كانت مملحة فحين الغسل طفرت و سارت .

وقيل : إنّ يوشع توضّأ في ذلك المكان فنضح الماء على الحوت المالح فعاش و وثب في الماء « فاتّخذ سبيله في البحر سرباً » أي سلكاً كالسرب وهو النفق .

قيل : أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أولخضر .

[فلمّا جاوزا] مجمع البحرين الّذي كان الموعد هناك وأدلجا وسارا الليل كلّه و الغد إلى الظهر وجاع موسى عليه السلام فعند ذلك قال لتلميذه يوشع : [آتنا غداءنا] أي ما نتغدّى به وهو الحوت [لقد لقينا من سفرنا هذا] تعباً وإعياء . قيل : إنّه عليه السلام لم ينصب ولم يجع قبل ذلك .

[قال] فتاه : [أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة] واسترحنا عندها [فإنّي نسيت الحوت] وقوله : «أرأيت» الهمزة للاستفهام ؛ و «رأيت» على معناه الأصليّ ومراده تعجيب الأمر و غرابته ، وهذا اُسلوب معتاد بين الناس يقول أحدهم لصاحبه - إذا نابه أمر غريب - : أرأيت وشاهدت ما وقع لي من الأمر ؟ وهذا التعجّب لأجل أنّ هذه كانت علامة لوصولهم إلى العالم وأنّ موسى كان يعلم هذه العلامة لكن يوشع ما كان يعلم هذه العلامة لكن استغرابه من نسيانه هذا الأمر العظيم وعدم ذكره لموسى . ولعلّ نسبة النسيان إليهما في أمر الحوت بالنسبة إلى موسى عدم بيان هذه العلامة ليوشع .

وبالجملة إنّ موسى لمّا طلب الغداء من يوشع تذكّر يوشع قصّة الحوت ، و ذكر

لموسى أنه لمّا نزلنا إلى الصخرة تركت الحوت وفقدته . و قيل : معناه نسيته أن أذكر لك قصّة الحوت عند الصخرة .

ثمّ اعتذر فقال : [و ما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره] لأنّه لو ذكرها لموسى لما جازها موسى و لما نالهما النصب الّذي أشكاه .

قوله : [و اتّخذ سبيله في البحر عجباً * قال ذلك ما كنّا نبغ فارتدّا على آثارهما قصصاً] أي سبيلاً عجباً ، واتّخاذاً عجيباً و «عجباً» صفة لمصدر محذوف وهو اتّخاذاً عجباً وهو انقلابه من المكتل وإلقاء نفسه في البحر على الغفلة وهو مملوح ، بل مأكول منه على قول .

وقيل : إنّ «عجباً» من كلام موسى تعجّباً منه ومن نسيانه من هذا الأمر . ويمكن أن يكون هذا النسيان يكون الإنساء من الله فإنّه لمّا استعظم علم نفسه بالوحي والتكلّم و العلم بالتوراة وأحكامها أزال الله عن قلبه هذا العلم الضروريّ تنبيهاً لموسى على أنّ العلم لا يحصل إلّا بتعليمه و حفظه على القلب والخاطر .

قوله تعالى : [قال ذلك ما كنّا نبغ] أي قال موسى : ذلك الأمر ما كنّا نطلب من العلامة [فارتدّا على آثارهما] أي آثار نفسهما وعادا عودهما على بدئهما في الطريق الّذي جاءا منه يقتصّان آثار المسير [قصصاً] و يتبعانها ـ ويوشع أمام موسى ـ حتّى انتهيا إلى مدخل الحوت .

قال ابن عبّاس : دخل موسى الكوّة على أثر الحوت وفي الطاق الّذي وقع في الماء بقدرة من ورود السمكة فيه فلقي الخضر هناك . قوله : «نبغ» أصله نبغي حذفت الياء تخفيفاً لدلالة الكسرة و كان القياس عدم الحذف لأنّ الحذف مع الساكن بعده لا المتحرّك كقوله : «ما نبغي اليوم» فلمّا حذفت مع الساكن حذفت مع غير الساكن .

قوله تعالى : فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا و علمناه من لدنا علما (٦٥) قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا (٦٦) قال انك لن تستطيع معى صبرا (٦٧) و كيف تصبر على مالم تحط به خبرا (٦٨) قال ستجدني انشاء الله صابرا و لا اعصى لك امرا (٦٩) قال فان اتبعتنى فلا تسئلني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا (٧٠) .

المعنى [فوجدا] موسى وفتاه وهو يوشع وصادفا [عبداً من عبادنا] قائماً على الصخرة يصلّي وهو الخضر واسمه بنيا بن ملكان ، وإنّما سمّي خضراً لأنّه إذا قعد أو نزل في مكان اخضرّ ما حوله . وروي مرفوعاً أنّه قعد على فروة بيضاء فصارت تحته خضراء .

وقيل : إنّه رآه على طنفسة خضراء فسلّم عليه فقال : وعليك السلام يانبيّ الله نبيّ بني إسرائيل ، فقال له موسى : و ما أدراك من أنا ؟ و من أخبرك أنّي نبيّ ؟ قال : من دلّك عليّ .

واختلف في هذا العبد فقيل : إنّه كان ملكاً أمر الله موسى أن يأخذ عنه ما حمله إيّاه من بواطن الأشياء وعلومها . وقال الأكثرون : إنّه من البشر ، ثمّ اختلفوا فقال جماعة : إنّه كان نبيّاً لأنّه لايجوز أن يتّبع النبيّ غير النبيّ . ومتى قيل : كيف يكون نبيّ أعلم من موسى في وقته ؟ قلنا : يجوز أن يكون الخضر خصّ بعلم مالا يتعلّق بالأداء فاستعلم موسى من جهته ذلك العلم فقط وإن كان موسى أعلم منه في العلم الّذي يؤدّيه من قبل الله .

وقال الأكثرون : إنّه كان نبيّاً واستدلّوا بوجوه :

الاول : قوله تعالى : «آتيناه رحمة من عندنا » والرحمة هي النبوّة بدليل قوله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربّك »[(١)] و قوله : «وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلّا رحمة من ربّك »[(٢)] والمراد من هذه الرحمة النبوّة . ولقائل أن يقول : سلّمنا أنّ النبوّة رحمة أمّا لايلزم أن يكون كلّ رحمة نبوّة .

الوجه الثاني : قوله : « وعلّمناه من لدنّا علماً » وهذا يقتضي أنّه تعالى علّمه لا بواسطة تعليم البشر بل علّمه بالوحي من الله وهذا معنى النبوّة .

الوجه الثالث : أنّ ذلك العبد أظهر الترفّع على موسى حيث قال له : « و كيف تصبر على مالم تحط به خبراً » وأمّا موسى فإنّه أظهر التواضع له حيث قال : « لاأعصى

---

(١) الزخرف : ٣٢ .

(٢) القصص: ٨٦ .

لك أمراً ، وهذا يدلّ على أنّ ذلك العالم كان فوق موسى ومن لايكون نبيّاً لا يكون يتفوّق على النبيّ .

والوجه الرابع : في أثناء القصّة يقول : «وما فعلته عن أمري» معناه فعلته بوحي الله وهو يدلّ على النبوّة .

و بالجملة قوله تعالى : [آتيناه رحمة من عندنا] هي الوحي [و علّمناه من لدنّا علماً] قيل : علّمناه ممّا يختصّ بنا من العلم و هو بعض علم الغيب . قال الصادق عليه السلام : كان عنده علم لم يكتب لموسى في الألواح . و كان موسى يظنّ أنّ جميع الأشياء في تابوته و أنّ جميع العلم كتب له في الألواح .

قوله : [قال له موسى هل أتّبعك على أن تعلّمن ممّا علّمت رشداً] فعظّم موسى عليه السلام خضراً بهذا القول غاية التعظيم حيث أضاف العلم إليه و رضي باتّباعه لجلالة العلم ولو كان أحد مكتفياً من العلم لاكتفى نجيّ الله موسى ، ويدلّ على أن لا ينبغي لأحد أن يترك العلم وطلبه وإن كان قد بلغ نهايته ، وأنّه يجب أن يتواضع لمن هو أعلم منه .

قوله : [قال إنّك] أي قال خضر لموسى : يثقل عليك الصبر ولا يخفّ عليك تحمّله ، ولم يرد أنّه لايقدر على الصبر لأنّ خضر كان يعلم أنّ موسى يأخذ الأُمور على ظواهرها وهو مأمور بذلك والخضر كان يحكم بما أعلمه الله من بواطنها ، فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك .

ثمّ قال : [و كيف تصبر على مالم تحط به خبراً] أي كيف تصبر على ما ظاهره عندك منكر وأنت لم تعرف باطنه ؟ والمراد بالخبر ههنا العلم .

فقال موسى عليه السلام : وهو خاضع له يستلطفه على نفسه كي يقبله [ستجدني إن شاء الله صابراً] ولا أُخالفك في أمر بشرط المشيئة .

القمّي : عن أحدهما عليهما السلام في حديث : ولم يرغبوا إلينا في علمنا كما رغب موسى إلى العالم و سأله الصحبة ليتعلّم منه العلم و يرشده . قال الصادق : كان موسى أعلم من الخضر .

و في الكافي عنه عليه السلام : لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أنّي أعلم منهما و

أنبأتهما بما ليس في أيديهما لأنّ موسى والخضر أُعطيا علم ماكان ولم يعطيا علم مايكون وما هوكائن حتّى تقوم الساعة وقد ورثناه عن رسول الله ﷺ .

[قال] خضر لموسى : [فإن اتّبعتني] و اقتفيت أثري [فلا تسألني عن شيء] ولا يخفى أنّ هذا الخضوع من موسى لخضر عليه‌السلام لا يستلزم أن يكون خضر أعلى شأناً من موسى لأنّ الخضر إمّا أن يقال :كان من بني إسرائيل أو ماكان ؛ فإن قلنا : كان من بني إسرائيل كان من أُمّة موسى و تابعاً له . و الاُمّة لا تكون أعلى حالاً من النبيّ . و إن قلنا : إنّ خضر ماكان من بني إسرائيل ، لم يجز أن يكون أفضل من موسى لقوله لبني إسرائيل : « وإنّي فضّلتكم على العالمين[1] » وبالجملة فلا تسألني عن شيء أفعله ممّا تنكره حتّى أُفسّره لك .

قوله : فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئا امرا (٧١) قال ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا (٧٢) قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من امرى عسرا (٧٣) فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا (٧٤) قال الم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا (٧٥) .

[فانطلقا] يمشيان في الساحل يعني موسى والخضر ولم يذكر يوشع و لعلّ أنّ موسى عليه‌السلام بعثه لأمر ولذلك تأخّر عنهما .

فانطلقا على الساحل و أرادا أن يعبرا في البحر إلى أرض اُخرى فأتيا معبراً ، فعرف صاحب السفينة الخضر فحملهما فلمّا ركبا في السفينة خرق الخضر السفينة حتّى دخلها الماء . و قيل : إنّ خضر قلع لوحين ممّا يلي الماء فحشاهما موسى بثوبه و قال منكراً عليه : [أخرقتها لتغرق أهلها] وما قال : لنغرق ؛ لأنّه أشفق على القوم أكثر من إشفاقه على نفسه جرياً على عادة الأنبياء .

ثمّ قال : بعد إكباره هذا الأمر [لقد جئت شيئاً إمراً] أي منكراً عظيماً ؛ يقال : أمر الأمر إمراً إذا كبر وعظم .

---

(١) البقرة : ٤٧ ، ١٢٢ .

فقال له الخضر عليه السلام : [ألم أقل إنّك لن تستطيع معي صبراً] أي ألم أقل لك حين رغبت في اتّباعي : إنّ نفسك لا تطاوعك على الصبر معي ؟ فتذكّر موسى ما بذل له الشرط .

ثمّ قال معتذراً مستقيلاً : [لاتؤاخذني بما نسيت] أي غفلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك . قيل : المراد من النسيان معناه الحقيقيّ وهو ضدّ الذكر . و قيل : المراد ترك العهد لا بمعنى الغفلة والسهو . وقال موسى : [ولا ترهقني] وتكلّفني[عسراً] و مشقّة ولا تضيّق عليّ الأمر في صحبتي إيّاك .

[فانطلقا حتّى إذا لقيا غلاماً فقتله] فخرجا من البحر و انطلقا يمشيان في البرّ فلقيا غلاماً يلعب مع الصبيان ، وكان من أحسن الغلمان وأصبحهم و أجملهم ،وقيل : كان شابّاً بالغاً حتّى يستحقّ القتل ، والرجل يسمّى غلاماً قالت ليلي الأخيليّة :

شفاها من الداء العضال الّذي بها * غلام إذا هزّ الفتاة شفاها

فذبحه بالسكّين . وقيل : صرعه و نزع رأسه من جسده .

[قال] موسى للخضر [أقتلت نفساً زكيّة] بريئة من الذنوب [بغير] قتل [نفس] تريد القود [لقد جئت شيئاً] منكراً فظيعاً غاية و إنّما قال ذلك لأنّ قلبه صار كالمغلوب عليه حين رأى قتله [قال] العالم : [ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً] .

قوله : قال ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرآ (٧٦)فانطلقا حتى اذا أتيا اهل قرية استطعما اهلها فابوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه قال لوشئت لاتخذت عليه اجرا(٧٧) قال هذا فراق بينى و بينك سانبئك بتاويل مالم تستطع عليه صبرا (٧٨) اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاردت ان اعيبها و كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٧٩) و اما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا و كفرا (٨٠) فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكوة و اقرب رحما (٨١) واما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة و كان تحته كنز لهما و كان ابوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا اشدهما و

يستخرجا كنزهما رحمة من ربك و مافعلته عن امري ذلك تاويل مالم تسطع عليه صبرا (٨٣) .

المعنى : قال له موسى جواباً له : [إن سألتك عن شيء] بعد هذه المرّة فلا تتر كني أصحبك أو اُصاحبك فقد وجدت من عند نفسي عذراً والمانع حينئذ من قبلي لامن قبلك لأنّه خالفتك ثلاث مرّات . روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : رحم الله أخي موسى استحى قال ذلك ولولم يقل ذلك ولبث مع صاحبه لأ بصر أعجب الأعاجيب .

[فانطلقا حتّى أتيا أهل قرية] وهي أنطاكية . و قيل : ايلة . و قيل : ناصرة . وهو المرويّ عن الصادق . سألاهم الطعام [فأبوا أن يضيّفوهما] ولم يضيّفهما أحد من أهل القرية ، وعن النبيّ كانوا أهل قرية لئام . وقال أبو عبدالله عليه السلام : ولا يضيّفون بعدهما أحداً إلى أن تقوم الساعة . يقال : ضافه إذا كان له ضيفاً و حقيقته مال إليه من ضاف السهم عن الغرض .

قيل : إنّ أهل تلك القرية لمّا سمعوا نزول هذه الآية استحيوا من هذا العار و جاءوا إلى رسول الله بحمل من الذهب وقالوا : يارسول الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء في الآية تاءاً حتّى تصير القراءة هكذا «فأتوا أن يضيّفوهما» أي أتوا أن يضيّفوهما وكان إتيان أهل القرية إليهما لأجل الضيافة و قالوا : غرضنا منه أن يندفع عنّا هذا اللؤم . فامتنع رسول الله وقال : تغيّر النقطة الواحدة يوجب دخول الكذب في كلام الله و ذلك يوجب القدح في العبوديّة بالنسبة إلى الربوبيّة .

و الحاصل [فوجدا جداراً] في القرية مائلاً ، و نسبة الإرادة إلى الجدار استعارة كقول الشاعر :

يريد الرمح صدر أبي براء ❊ ويرغب عن دماء بني عقيل

مع أنّ الإرادة والرغبة من صفة الأحياء . و قوله : [ينقضّ] إذا أسرع سقوطه من انقضاض الطائر . أو المعنى : انشقّ طولاً [فأقامه] خضر قيل : رفع الجدار بيده وسوّاه [قال] موسى إنّهم لمّا بخلوا بالطعام [لو شئت] لعملت هذا بأجر تأخذه منهم حتّى كنّا نسدّ بجوعنا

[قال] خضر : [هذا] وقت [فراق] اتّصالنا أو هذا الّذي قلته سبب الفراق [بيني و بينك] .

ثمّ قال : سأُخبرك بتفسير الأشياء الّتي لم تستطع على الإمساك عن السؤال عنها [صبراً أمّا السفينة] أي السبب في خرق السفينة فهو أنّها كانت لفقراء لا شيء لهم ما يكفيهم قدر معاشهم[يعملون]بهذه السفينة[في البحر]ويتعيّشون بها [فأردت أن]أُحدث عيباً فيها وكان قدّامهم وقصدهم [ملك يأخذ كلّ سفينة] صحيحة [غصباً] و الوراء كما يطلق على الخلف يطلق على بين أيديهم ويمكن أن يكون المعنى الخلف أي يتعاقبهم ملك يأخذ السفائن الصحيحة ، ولم يعلم أصحاب السفينة و علم به الخضر ففعل ذلك للمصلحة .

[و أمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين] وأمّا الغلام فكان كافراً و إنّما قتلته لكفره و لعلمي بأنّه لو بقي يرهق أبويه طغياناً فكرهت أن يرهق الغلام الكافر أبويه إثماً و ظلماً وهذا من كلام الخضر [فأردنا أن يبدلهما ربّهما خيراً منه زكاة] أي ولداً خيراً منه ديناً وطهارة وصلاحاً [وأقرب رحماً] أي أقرب عطفاً على والديه ورحمة في الكافي والفقيه والمجمع عن الصادق عليه السلام والعيّاشيّ عن أحدهما عليهما السلام : أنّهما اُبدلا عن الغلام المقتول ابنة فولد منها سبعون نبيّاً . وقيل : لو عاش كان فيه مهلكتهما و معلوم أنّ رضى المرء بما قسّم الله له خير له ممّا رضي لنفسه ؛ في الحديث : ما قضي لك يا ابن آدم فيما تكره خير لك ممّا قضي و أنت تحبّ فاستخر الله وارض بقضائه .

وفي قتل الغلام دلالة على وجوب اللطف على ما نذهب إليه لأنّ المفهوم من الآية أنّه بتدبير الله لم يكن يجوز خلافه ، وأنّه إذا علم من حال الإنسان أنّه يفسد عند شيء يجب عليه في الحكمة أن يذهب بذلك الشيء حتّى لا يقع هذا الفساد .

ومتى قيل : إنّه لو حصل لنا العلم بذلك كما حصل لذلك العالم هل كان يحسن منّا القتل ؟

قلنا : إنّ هذا العلم لا يحصل إلّا للأنبياء وعند حصول العلم به يحسن ذلك .

و متى قيل : إنّ الله كان قادراً على إزالة الحياة من الغلام بالموت من غير ألم

فيزول التبقية الّتي هي المفسدة من غير إدخال إيلام عليه بالقتل فلمَ أمر بالقتل ؟

فجوابه أنّ الله قد علم أنّ أبويه لا يثبتان على الإيمان إلّا بقتل هذا الغلام فتعيّن وجه وجوب القتل وأنّ تبقية الغلام إذا كانت مفسدة فالله مخيّر في إزالتها بالموت من غير ألم و بالقتل لأنّ القتل وإن كان فيه ألم يلحق المقتول كان بإزائه أعواضاً كثيرة يوازي ذلك الألم فيصير القتل في مقابلة المنافع العظيمة كأنّه ليس بألم و يدخل في قبيل الإحسان .

[و أمّا] سبب بناء [الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان] تحت الجدار [كنز] لليتيمين [وكان أبوهما صالحاً فأراد ربّك أن يبلغا أشدّهما] واختلف في هذا الكنز : فقيل : المراد بالكنز المال . وقيل . العلم .

في المعاني عن أميرالمؤمنين ، والقمي عن الصادق عليه السلام : كان ذلك الكنز لوحاً من ذهب فيه مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلّا الله محمّد رسول الله ؛ عجبت لمن يعلم أنّ الموت حقّ كيف يفرح ؟ عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ؟ عجبت لمن يذكر النار كيف يضحك ؟ عجبت لمن يرى الدنيا و تصرّف أهلها حالاً بعد حال كيف يطمئنّ إليها ؟ وفي الكنز روايات اُخر بزيادة و نقيصة .

والعيّاشي عن الصادق عليه السلام : إنّ الله ليحفظ ولد المؤمن إلى ألف سنة وإنّ الغلامين كان بينهما وبين أبويهما سبعمائة سنة .

وعنه عليه السلام : إنّ الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده و يحفظ في دويرته ودويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله لكرامة المؤمن على الله ثمّ ذكر الغلامين وقال عليه السلام : ألم تر أنّ الله شكر صلاح أبويهما لهما ؟

وفي العوالي عنه عليه السلام : لمّا أقام العالم الجدار أوحى الله إلى موسى إنّي مجازي الأبناء بسعي الآباء إن خيراً فخير إن شرّاً فشرّ . لا تزنوا فتزني نساؤكم ، من وطىء فراش مسلم وطىء فراشه كما تدين تدان فبيّن سبحانه حفظ الكنز للغلامين بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاحاً .

وروي عن الصادق عليه السلام أنّه كان بين ذلك الأب الصالح وبينهما سبعة آباء.

[فأراد ربّك أن] ينتهيا إلى الوقت الّذي يعرفان فيه نفع أنفسهما ويكبرا ويعقلا [ويستخرجا كنزهما وما] فعلت ذلك من قبل نفسي وإنّما فعلته من قبل الله يريد أنّه انكشف لي علم من الله [ذلك] بيان ما ثقل عليك ياموسى مشاهدته ووقوعه واستنكرته، ونسب هذه الأُمور إلى أمر الله وهناك نسب الإرادة في قوله: «فأردت أن أعيبها» إلى نفسه.

في العلل عن الصادق عليه السلام: وإنّما نسبها إلى نفسه لعلّة ذكر التعييب. تأمّل في حسن المحاورة وحفظ الأدب في الكلام.

وقال أبوعليّ الجبّائي: لا يجوز أن يكون الخضر حيّاً إلى وقتنا هذا لأنّه لو كان لعرفه الناس ولم يخف مكانه ولأنّه لانبيّ بعد نبيّنا.

قال صاحب المجمع: وهذا القول غير صحيح؛ لأنّ تبقيته في مقدرة الله ويمكن أن يكون والناس يشاهدونه ولايعرفونه ويكون هذه خرق العادة ومثل هذه الأُمور الغريبة بالنسبة إلى الأنبياء والأولياء غير مستبعد، وقوله: «لانبيّ بعد نبيّنا» مسلّم ولكن نبوّة الخضر كانت قبل نبوّة نبيّنا و أمّا شرعه ـ لو كان له شرع خاص ـ فإنّه منسوخ بشريعة نبيّنا ولو كان داعياً إلى شريعة من تقدّمه من الأنبياء فإنّ شريعة نبيّنا ناسخة لها فلا يؤدّي إلى ماقاله الجبّائي، انتهى كلامه.

قوله تعالى: ويسئلونك عن ذى القرنين قل ساتلوا عليكم منه ذكرا (٨٣) انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شىء سببا (٨٤) فأتبع سببا (٨٥) حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوماقلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا (٨٦) قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧).

المعنى: قد بيّنّا أنّ اليهود أمروا المشركين أن يسألوا عن النبيّ صلّى الله عليه وآله عن قصّة أصحاب الكهف وعن الروح وعن قصّة ذي القرنين.

فالمراد من قوله: [ويسألونك] هو ذلك السؤال و يسألونك بصيغة الاستقبال للدلالة

على إصرارهم على السؤال إلى ورود الخوف .

وفي ذي القرنين أقوال :

الاول هو الإسكندر بن فيلقوس اليوناني والدليل عليه أنّ القرآن دلّ على أنّ الرجل المسمّى بذي القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله : « حتّى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة » و أيضاً بلغ ملكه إلى أقصى المشرق بدليل قوله : «حتّى إذا بلغ مطلع الشمس » وأيضاً بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أنّ يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال ، وبدليل أنّ السدّ المذكور في القرآن يقال في كتب التواريخ: إنّه مبني في أقصى الشمال فهذا الإنسان المسمّى بذي القرنين في القرآن قد دلّ القرآن على أنّ ملكه بلغ أقصى المغرب و المشرق والشمال ، وهذا هو تمام القدر المعمور في الأرض .

والملك الّذي إشتهر بهذا العنوان من بسط الملك والقدرة ليس مذكور في التاريخ و الدنيا إلّا الإسكندر . و ذلك على ما قيل ـ لمّا مات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف ثمّ جمع ملوك المغرب وقهرهم وأيمن حتّى انتهى إلى البحر الأخضر ، ثمّ عاد إلى مصر فبنى الإسكندريّة وسمّاها باسم نفسه ، ثمّ دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ، ثمّ انعطف إلى أرمينيّة وباب الأبواب و دانت له العراقيّون و القبط والبربر ثمّ توجّه نحو دارا بن دارا و هزمه مرّات إلى أن قتله صاحب حرسه فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس .

ثمّ قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة و رجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها .

فلمّا ثبت بالقرآن أنّ ذا القرنين كان رجلاً ملك الأرض بالكلّيّة أوما قرب منها و ثبت بعلم التواريخ أنّ الّذي هذا شأنه ما كان إلّا الإسكندر وجب القطع بأنّ المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلقوس اليوناني .

وذكروا في سبب تسميته بهذا الاسم وجوهاً : الأوّل لأجل بلوغه قرني الشمس مطلعها

ومغربها كما لقّب أردشير بن بهمن بطول اليدين لنفوذ أمره حيث أراد و إلّا ما كان طول في يديه .

وقيل : اسمه مرزبان بن مرزويه بن يافث بن نوح .

وقيل : من أحفاد كهلان سبأ بن يعرب بن قحطان .

وقيل : هو تبّع الأكبر أوّل التبابعة .

وقيل : إنّه افريدون بن النعمان الّذي قتل الضحّاك .

وذكر أبو الريحان المنجّم البيروني في كتابه المسمّى بالآثار الباقية من القرون الخالية أنّ ذا القرنين هو أبو كرب الحميري وأنّ ملكه بلغ مشارق الأرض و مغاربها و هو الّذي افتخر به التبّع اليماني حيث قال :

قد كان ذا القرنين جدّي تبّعاً ملكاً علا في الأرض غير مفنّد
بلغ المشارق و المغارب يبتغي أسباب أمر من حكيم مرشد

ويمكن أن يكون هذا القول قريباً من الصحّة لأنّ الأذواء كانوا من اليمن مثل ذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رعين وذي يزن وذي جدن .

ولكنّ القول الصحيح الأوّل الّذي بيان سعة ملكه في القرآن حسبما يستفاد من التاريخ إنّما هو الإسكندر الرومي ، وروي : أهل النجوم قالوا له : إنّك لا تموت إلّا على أرض من حديد وتحت سماء من خشب . وكان يدفن كنز كلّ بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل وسقط عن دابّته فرعف فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فأظلّوه بترس فقال : هذه أرض من حديد وسماء من خشب ، فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف و ثمانية سنة . وقيل : ثلاثة آلاف سنة .

واختلف في نبوّته بعد الاتّفاق على إسلامه وولايته فقيل : كان نبيّاً لقوله تعالى : «إنّا مكّنّا له في الأرض» وظاهر أنّه متناول للتمكين في الدين و كماله بالنبوّة و لقوله «وآتيناه من كلّ شيء سبباً» وجملة الأشياء النبوّة .

و الصحيح أنّه ما كان نبيّاً و لا ملكاً بل كان ملكاً عادلاً صالحاً كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل عن ذي القرنين أنبيّاً كان أم ملكاً ؟ فقال عليه السلام :

لانبيّاً و لا ملكاً بل هو عبد أحبّ الله فأحبّه الله و نصح لله فنصح له فبعثه إلى قومه فضربوه على قرنه الأيمن فغاب عنهم ماشاء الله أن يغيب ثمّ بعثه الله ثانية فضربوه قرنه الأيسر فغاب عنهم ثمّ بعثه الثالثة فمكّن الله له في الأرض ، ولعلّ البعثة الولاية لا النبوّة ، ثمّ قال أميرالمؤمنين : وفيكم مثله ، يعني نفسه الشريفة .

ومعنى قوله : [إنّا مكّنّا له في الأرض] أي جعلنا له مكنة وقدرة على التصرّف في الأرض من حيث التدبير والرأي والأسباب حيث سخّر له السحاب و مدّ له في الأسباب و بسط له النور وكان الليل والنهار عنده سواء وسهل عليه المسير في الأرض وذلّل له طريقها حتّى تمكّن منها أنّى شاء .

قوله : [وآتيناه من كلّ شيء سبباً] أي أعطيناه من كلّ شيء علماً يتسبّب به إلى إرادته وبلوغ حاجته ويستعين به الملوك على فتح البلاد و الغلبة عليهم [فأتبع سبباً] أي كلّما أراد حصوله أتبع سبباً من الأسباب الّتي اُوتي في المسير من بلد إلى بلد ومن قوم إلى قوم حتّى يفوز بمرامه و مقصده .

[حتّى إذا بلغ مغرب الشمس] أي انتهى إلى آخر العمارة من جانب المغرب من الشمس وبلغ قوماً لم يكن وراءهم أحد إلى موضع غروب الشمس ولم يرد بذلك أنّه بلغ إلى موضع الغروب لأنّه لا يصل إليه أحد أي تراءى له كأنّ الشمس تغرب في عين كما أنّ من كان في البحر رأى الشمس كأنّها تغرب في الماء ومن كان في البرّ يراها كأنّها تغرب في الأرض الملساء لأنّ الشمس لاتزايل الفلك ولا تدخل عين الماء [ووجد عندها قوماً] أي إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يتمكّن أحد من بلوغه فضلاً عن مجاوزته و وقف على حافّة البحر المحيط الغربيّ المسمّى باُقيانوس الّذي فيه جزائر الخالدات وجد الشمس تغرب في عين ذات طين أسود ذات حمئة وماء حارّ ، وقريء «حامية» أي حارّة ولا تنافي . و وجد عند العين أو الشمس اُناساً .

[قلنا ياذاالقرنين] واستدلّ الذاهبون بنبوّته بهذا الخطاب لأنّ الوحي والخطاب لايجوز إلّا على الأنبياء . وكانوا قوماً لباسهم جلود الوحوش و طعامهم من البحر وما لفظه البحر وكانوا كفّاراً فخيّر الله ذاالقرنين بين أن يعذّبهم بالقتل إن أقاموا على كفرهم و

بين المنّ عليهم والعفو عنهم . و هذا التخيير على معنى الاجتهاد في أصلح الأمرين كما خيّر محمداً بين المنّ على المشركين وبين قتلهم .

وقال الأكثرون : التعذيب هو القتل وأمّا إتّخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء والدعوة إلى الإسلام بالإرشاد إلى الشرائع ، هذا على قول من قال بنبوّته و من لم يقل بنبوّته قال : ذلك الخطاب بواسطة نبيّ ذلك العصر أو كان ذلك إلهاماً لا وحياً بعد أن كان ذلك التخيير موافقاً لشريعة ذلك النبيّ .

وقيل: إنّ ذا القرنين خيّر بين القتل والأسر. وقيل : «إمّا» و«أمّا» لتوزيع دون التخيير أي ليكن شأنك إمّا التعذيب وإمّا الإحسان فالتعذيب لمن بقي على الكفر وأمّا الإحسان لمن تاب فقضى ذوالقرنين فيهم بقضاءالله .

و [قال أمّا من ظلم] و بقي على كفره [فسوف نعذّبه] بالقتل وفعل،وعن قتادة : أنّه كان يطبخ من كفر ولم يؤمن بالقدر ، ومن آمن فأعطاه و كساه ، فقال ذوالقرنين : من لم يؤمن اُعذّبه وبعد عذابي [ثمّ يردّ إلى ربّه] في الآخرة [فيعذّبه] في الآخرة [عذاباً نكراً] فظيعاً وهوعذاب النار ، وفيه دلالة ظاهرة على أنّ الخطاب لم يكن بطريق الوحي و أنّ مقاولته كانت مع نبيّ عصره أو مع من كان بحضرته .

قوله تعالى : واما من آمن وعمل صا لحافله جزاء الحسنى و سنقول له من امرنا يسرا (٨٨) ثم اتبع سببا (٨٩) حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا (٩٠) كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا (٩١) ثم اتبع سببا (٩٢) .

المعنى : فقضى ذوالقرنين بأن [من آمن] منهم [وعمل صالحاًفله] المثوبة [الحسنى] جزاء [وسنقول] ونأمر له بأمر سهل ميسور من الخراج والزكاة وغيرهما أي أمراً ذا يسر .

قوله : [ثمّ أتبع سبباً] أي قصد طريقاً آخر ليؤدّيه ذلك السبب إلى [مطلع الشمس] كما أنّ السبب الأولى أدّاه إلى مغرب الشمس فأراد أن يصل أقصى شرق الأرض فبلغ موضع ابتداء العمارة من الجانب الّذي تطلع من ذلك الجانب الشمس [فوجدها] أي الشمس [تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً] أي لم يكن في تلك الأرض جبل

ولا شجر ولابناء يسترهم ولم يعلموا صنعة البناء ولاصنعة اللبوس .

العيّاشيّ عن أمير المؤمنين : هم قوم قد أحرقهم الشمس وغيّرت أجسادهم وألوانهم حتّى صيّرتهم كالظلمة . قال في المجمع : كانوا إذا طلعت الشمس يغورون في المياه والأتراب وإذا غربت تصرّفوا في اُمورهم فيكون عند طلوع الشمس يتعذّر عليهم التصرّف في المعاش وعند غروبها يشغلون بتحصيل مهمّات المعاش حالهم بالضدّ من حال الناس .

وقيل : معنى قوله : « لم نجعل لهم من دونها ستراً » أنّه لاثياب على جلودهم و أبدانهم كسائر الحيوانات عراة أبداً كما قيل : إنّ حال أكثر من يسكن البلاد القريبة من خطّ الاستواء كذلك . وقد ذكر في بعض كتب التواريخ أنّ ذاالقرنين مع أنّ الله هيّأ له الأسباب وذلّل له السحاب للسير قطع هذه المسافة في اثني عشرة سنة حتّى بلغ مطلع الشمس .

وذكر في التفسير : أنّ بعضهم قال : سافرت سنين حتّى جاوزت الصين غاية فسألت عن هؤلاء القوم فقيل لي : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش اُذنه الواحدة ويلبس الأخرى ، ولمّا قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشي عليّ ثمّ أفقت وهم يمرخوني و يمسحوني بالدهن فلمّا طلعت الشمس إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلوني سرباً لهم فلمّا ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك و يطرحونه في الشمس فينضج و إنّما لم يكن لهم بناء قيل : لأنّه لايثبت لهم بناء .

قوله : [كذلك وقد أحطنا بمالديه خبراً] أي حكم هؤلاء الّذين في المطلع حكم اُولئك الّذين في المغرب . وقيل : معنى « كذلك » أي أتبع سبباً لبلوغ المشرق مثل ما أتبع سبباً لبلوغ المغرب . وتمّ الكلام عند قوله : « كذلك » ثمّ ابتدأ سبحانه فقال : وقد علمنا ماكان عند ذي القرنين من العدّة والعدد والآلات والسياسة .

أو المعنى : قد علمنا بصلاحه واستقلاله بما ملّكناه قبل أن يفعله كما علمناه بعد فعله ولم يخف علينا حاله . و« كذا » إشارة إلى حسن صنيع ذي القرنين و على المعنى الثاني « كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً » جملة واحدة .

قوله تعالى : [ثم أتبع سبباً] أي ثم أتبع مسلكاً ثالثاً ممّا يبلغه قطراً من أقطار الأرض وأخذ في طريق آخر .

قوله : حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا (٩٣) قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا و بينهم سدا (٩٤) قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة اجعل بينكم و بينهم ردما (٩٥) آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني افرغ عليه قطرا (٩٦) فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا (٩٧) قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا (٩٨) .

اعلم لمّا بلغ المشرق والمغرب أتبع مسلكاً ثالثاً [حتّى بلغ] موضع [السدّين] قرىء بالضمّ والفتح وقيل : بالضمّ ما فعله الله وبالفتح ما أحدثه الناس .

و اختلف في موضع السدّين قيل : في ناحية الشمال . وقيل : جبلان بين أرمينيّة و آذربايجان . وقيل : هذا الموضع في مقطع أرض الترك . و حكى محمّد بن جرير الطبريّ في تاريخه : أنّ صاحب آذربايجان أيّام فتحها وجّه إنساناً أتى إليه من ناحية الخزر فشاهده ووصف أنّه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع .

وذكر ابن خرداد في كتاب المسالك والممالك : أنّ الواثق بالله رأى في المنام كأنّه فتح هذا الردم فبعث الخدم إليه ليعاينوه فخرجوا من باب الأبواب حتّى وصلوا إليه و شاهدوه ووصفوا أنّه بناء من لبن من حديد مشدود بالنحاس المذاب و عليه باب مقفّل . ثمّ إنّ ذلك الإنسان لمّا حاول الرجوع أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند .

قال أبو الريحان البيروني المنجّم : مقتضى هذا البيان أنّ موضعه في الربع الشماليّ الغربيّ من المعمورة .

وبالجملة لمّا بلغ ذو القرنين موضع السدّين [وجد] بقربهما أو ورائهما و مجاوزاً عنهما أُمّة من الناس [لا يكادون يفقهون] وقرىء يفقهون من باب المتعدّي ، أي قوماً لا يعرفون

غير لغة أنفسهم وما كانوا يفقهون لسان ذي القرنين ، وعلى معنى تعدية الفعل أي لايقدرون إفهام غيرهم قولاً .

فإن قيل : إذا كانوا لايعرفون لغة غير لغتهم أو لايقدرون إفهام غيرهم كيف قالوا « ياذا القرنين إنّ يأجوج و مأجوج مفسدون في الأرض » و كيف فهم منهم ذوالقرنين هذا المعنى ؟

الجواب أنّ قوله « لايكادون » أنّه لايدلّ على أنّهم لايفهمون شيئاً أبداً بل كلمة «كاد» يدلّ على أنّهم يفهمون و يُفهمون لكن على صعوبة ومشقّة أي لا يكادون يفهمونه و يفتهمون إلّا بعد مشقّة وصعوبة شديدة كالإشارة والقرينة ونحوها .

وفي اشتقاق يأجوج وماجوج وأنّهما من أيّ الطائفة اختلاف قيل : إنّهما اسمان أعجميّان موضوعان بدليل منع الصرف . وقيل : مشتقّان : فيأجوج مشتقّ من تأجّج النار وتلهّبها فلسرعتهم في الحركة سمّوا بذلك ومأجوج من موج البحر . وقيل : من تأجّج الملح لمناسبة الشدّة . وقيل : من أجّ الظليم إذا هرول وسمعت حفيفه في عدوه . وأمّا أنّهم من أيّ الأقوام فقيل : إنّهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح . وقيل : يأجوج من الترك ومأجوج من جيل . وقال الضحّاك : هم جيل من الترك . و قال السدّي : الترك سريّة من يأجوج و مأجوج ، خرجت لأمر فضرب ذو القرنين السدّ فبقيت خارجة عن السدّ فجميع الترك منهم .

و عن قتادة : أنّ يأجوج ومأجوج اثنتان وعشرون قبيلة سدّ ذو القرنين على إحدى و عشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسمّوا الترك لأنّهم تركوا خارجين . قال أهل التاريخ: أولاد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث؛ فسام أبو العرب والعجم والروم ، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ، و يافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج .

والحاصل [قالوا] بواسطة مترجمهم على قول ، أو بالذات على قول ، فكان فهم ذوالقرنين كلامهم من الأسباب الّتي آتاه الله [ياذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج] خلف هذين الجبلين [يفسدون] أرضنا لأنّهم إذا كان أبان زرعنا و ثمارنا خرجوا علينا من هذين الجبلين و يأكلون زروعنا حتّى لايبقون منها شيئاً .

وقيل في كيفيّة إفسادهم لهؤلاء الساكنين في موضع السدّين : إنّ يأجوج ومأجوج يقتلونهم ويأكلون لحومهم فضلاً عن زروعهم ، وهم أقسام .

ثمّ من الناس من وصفوهم بقصر القامة وصغر الجثّة لكن لكثرتهم لا يتمكّنون هؤلاء منهم .

ومن الناس وصفهم بطول القامة و كبر الجثّة و أثبتوا لهم مخالب في الأظفار و أضراساً كأضراس السباع .

فحكى الله مقول قولهم لذي القرلين أنّهم قالوا له : [فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا و بينهم سدّاً] والمراد بالخرج الخرج الّذي يأخذه السلطان. وقيل : معناه الجعل . و الخرج و الخراج معناه واحد . و قيل : الخرج الجزية و الخراج في الأرض كالزكاة .

فقال ذو القرنين : [مامكّنّي فيه ربّي خير] أي ما أعطاني من المال و السعة و الأسباب خير ممّا تبذلون لي من الخراج فلاحاجة بي إليه [فأعينوني] وامددوني برجال وآلة أبني بها سدّاً بينكم وبينهم ، والردم هو السدّ ؛ ردمت الباب أي سددته وردمت الثوب بالرقعة أي سددت خرقه [آتوني] بقطع كبار من الحديد فأتوه بالزبر و القطع الكبيرة فوضعوا بعضها على بعض حتّى صارت بحيث تسدّ مابين الجبلين إلى أعلاهما ثمّ وضع المنافخ عليها حتّى صارت الزبر كالنار ثمّ صبّ النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً .

وهذا الأمر خارق على العادة بل كرامة قاهرة باهرة لأنّ هذه الزبر الكثيرة الّتي تسدّ بين الجبلين من الأسفل إلى أعلاهما إذا نفخ عليها بحيث تصير مثل النار كيف يقدر الإنسان على القرب منها و النفخ عليها فكأنّه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة من أبدان النافخين عليها و الملتزمين بأفعالها .

قال صاحب الكشّاف الزمخشري : قيل : بعد مابين السدّين مائة فرسخ، والصدفان بفتحتين جانبا الجبل لأنّهما يتصادفان ويتقابلان . والقطر النحاس المذاب وتقدير الآية : آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً ، وسمّي قطراً لأنّه يقطر من شدّة ميعانه .

[فما اسطاعوا] فحذف التاء لقرب المخرج من الطاء أي فما قدروا بعد على الصعود لملاسته وارتفاعه وما قدروا على تخريبه ونقبه لأجل صلابته وثخانته .

ثمّ حمد الله ذو القرنين و[قال هذا] إشارة إلى السدّ أي هذه النعمة من الله عليّ بإتمامه وعلى عباده براحتهم من شرّ المفسدين [فإذا جاء وعد ربّي] أي القيامة و دنت جعل السدّ [دكّاء] بالمدّ أي مدكوكاً ومسوّى بالأرض وكلّ ما انبسط بعد الارتفاع فقد اندكّ ؛ وقرئ بغير المدّ [وكان وعد ربّي حقّاً] هذا آخر قول ذي القرنين وحكايته .

القمّي : إذا كان قبل يوم القيامة في آخر الزمان انهدم ذلك السدّ وخرج يأجوج ومأجوج إلى الناس وأكلوا الناس وهو قوله : « حتّى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كلّ حدب ينسلون »[١] .

وعن الصادق عليه السلام : ليس منهم رجل يموت حتّى يولد له من صلبه ألف ولد ذكر ، ثمّ قال : هم أكثر خلق خلقوا بعد الملائكة .

في الخصال عن الصادق عليه السلام : الدنيا سبعة أقاليم يأجوج ومأجوج والروم والصين والزنج وقوم موسى وإقليم بابل .

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله : أنّه عدّ من الآيات الّتي يكون قبل الساعة خروج يأجوج و مأجوج .

وعن النبيّ : سئل عن يأجوج ومأجوج فقال : يأجوج ومأجوج اُمّتان و كلّ اُمّة أربعمائة اُمّة لا يموت الرجل منهم حتّى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلّ قد حمل السلاح ، قيل : يا رسول الله صفهم لنا ، قال : هم ثلاثة أصناف : صنف منهم مثل الاُرز ـ والاُرز شجر بالشام طويل ـ وصنف منهم طولهم و عرضهم سواء ، و صنف منهم يفترش أحدهم إحدى اُذنيه و يلتحف بالاُخرى ولا يمرّون بفيل ولا جمل ولا وحش ولا خنزير إلّا أكلوه ومن مات منهم أكلوه ومقدّمتهم بالشام و ساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق و بحيرة طبريّة .

وقيل : إنّ آدم عليه السلام احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك

(١) الانبياء : ٩٦ .

الماء يأجوج و مأجوج ، فهم متصلون بنا من جهة الأب .

وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله في الأمالي : أنهم لينقرون بمعاولهم دائبين فإذا كان الليل قالوا : غداً نفرغ ، فيصبحون وهو أقوى منه بالأمس حتى يسلم رجل منهم حين يريد الله أن يبلغ أمره فيقول ذلك الذي أسلم : غداً نفتحة إن شاء الله ، فيصبحون ثم يغدون عليه فيفتحه الله ، فو الذي نفسي بيده فيخرجون على الناس ، الخ .

وفي حديث آخر : فيخرجون على الناس فيشربون المياه ويتحصن الناس في حصونهم منهم فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع السهام و فيها كهيئة الدماء فيقولون : قد قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ! فيبعث الله بقفاً - وفي نسخة نقفا بالنون ، و بالباء جمع البق ، و بالنون جمع النق و هو العقرب أو الضفادع - في أقفائهم فيدخل البقق في آذانهم فيهلكون بها .

قال النبي صلى الله عليه وآله : إن دواب الأرض لتسمن وتسكر من لحومهم سكراً ، قيل له : يارسول الله متى كان كذلك ؟ قال صلى الله عليه وآله : حين لايبقى من الدنيا إلا مثل صبابة الإناء .

والعياشي : عن الصادق عليه السلام في تأويل قوله تعالى : « أجعل بينكم وبينهم ردما » قال في تأويل الآية : الردم التقية « فما اسطاعوا أن يظهروه فما استطاعوا له نقبا » قال : إذا عملت بالتقية لم يقدروا لك على حيلة ، والعمل به هو الحصن الحصين صار بينك و بين أعداء الله سد لايستطيعون له نقباً . «فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء» مدكوكاً قال : رفع التقية عند الكشف فينتقم من أعداء الله .

قوله تعالى : و تركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض و نفخ فى الصور فجمعناهم جمعا (٩٩) وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا (١٠٠) الذين كانت اعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لايستطيعون سمعاً (١٠١) أفحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادى من دونى اولياء انا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا (١٠٢) قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا (١٠٣) الذين ضل سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا (١٠٤) اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم فلانقيم لهم يوم القيمة وزنا (١٠٥) ذلك

جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا اياتي و رسلي هزؤا (١٠٦).

المعنى : الضمير في «تركنا بعضهم» قيل : راجع إلى الخلق من الجنّ والإنس. وقيل : راجع إلى يأجوج ومأجوج يوم انقضاء السدّ يموجون في الدنيا بين الناس مختلطين لكثرتهم كحال الموج في البحر باضطراب أمواجه وذلك لقرب الساعة.

ثمّ ذكر سبحانه فقال : [ونفخ في الصور] لأنّ خروج يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة. واختلف في الصور قيل : هو قرن ينفخ فيه. وقيل : صور جمع صورة فإنّ الله يصوّر الخلق في القبور كما صوّرهم في الأرحام ثمّ ينفخ فيهم كما نفخ وهم في أرحام أمّهاتهم. وقيل : إنّه ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات ؛ فالنفخة الأولى نفخة الفزع و الثانية نفخة الّتي يصعق من في السماوات والأرض بها فيموتون ، والثالثة نفخة القيام لربّ العالمين فيحشر الناس بها من قبورهم.

[فجمعناهم جمعاً] أي حشرناهم يوم القيامة كلّهم في صعيد واحد [وعرضنا جهنّم] وأبرزناها لهم حتّى شاهدوها ورأوا ألوان عذابها قبل دخولها.

ثمّ وصف سبحانه الكافرين فقال : [الّذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري] ذكر السبب الّذي استحقّوا به النار أي الّذين غفلوا عن الاعتبار بقدرتي الموجب لذكري و التفكّر في آياتي و دلائل توحيدي فصاروا بمنزلة من يكون في عينه غطاء يمنعه عن الإدراك [وكانوا لا يستطيعون سمعاً] أي من كثرة الغفلة كان يثقل عليهم سماع القرآن و ذكر الله كما يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إليك ولا يتمكّن من استماع كلامك ويثقل عليه ذلك.

القمّي : عن الصادق في هذه الآية قال عليه السلام : يعني بالذكر ولاية عليّ عليه السلام قال : كانوا لا يستطيعون إذا ذكر عليّ عليه السلام عندهم أن يسمعوا ذكره لشدّة بغضهم له ولأهل بيته. وعلى هذا فتمام الآية يؤول معناه في حقّ المنكرين للولاية.

قوله : [أفحسب الّذين] جحدوا ، وقرىء «أفحسب» بسكون السين و رفع الباء بقراءة أمير المؤمنين عليه السلام أي أفكافيهم الّذين اتّخذوا وعبدوا إلهاً غيري ، أو أفظنّوا الّذين اتّخذوا عباداً غيري عبدوهم كالمسيح والملائكة الّذين عبدوهم واتّخذوهم أرباباً ينصرونهم ويدفعون

عقابي عنهم ليس الأمر كذلك بل هم براء منهم ومن كلّ مشرك بالله [إنّا أعتدنا] وهيّأنا لهم [جهنّم] معدّة مهيّاة منزلاً لهم كما يهيّؤ النزل للضيف وهو ما يقام للضيف ممّا حضر من الطعام .

[قل] لهم يا محمّد : [هل] نخبركم [بالأخسرين أعمالاً] والجمع في صيغة المتكلّم للإيذان بمعلوميّة الخبر عند المؤمنين وإنّما أتى بصيغة الجمع في العمل و قال : «أعمالاً» للإيذان بتنوّعها من أعمالهم الحسنة بزعمهم الباطل ، وهم كفّار أهل الكتاب اليهود و النصارى [الّذين] بطل و[ضلّ سعيهم] وإجتهادهم [في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم] بفعلهم محسنون وأنّ أفعالهم طاعة وقربة .

القمّي : نزلت في اليهود وجرت في الخوارج . و عن الباقر عليه السلام : هم النصارى و القسّيسون والرهبان وأهل الشبهات والأهواء من أهل القبلة والحروريّة و أهل البدع .

وفي الاحتجاج عن امير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : كفرة أهل الكتاب اليهود والنصارى وقد كانوا في زمانهم على الحقّ فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً .

ثمّ قال عليه السلام : وما أهل النهروان منهم ببعيد . والعيّاشي عنه عليه السلام مثله . و في الجوامع عنه عليه السلام : هي كقوله : « عاملة ناصبة [1] » و قال : منهم أهل حرور أي الخوارج .

قوله : [أُولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم و لقائه فحبطت] أي أُولئك جحدوا بحجج الله وبيّناته . والمراد باللقاء لقاء جزائه في الآخرة فبطلت و ضاعت [أعمالهم] الّتي عملوها لأنّهم أوقعوها على خلاف الوجه الّذي أمرهم الله به فلا قيمة لعملهم عندنا ولا قدر ولا وزن لها .

[ذلك] أي حبوط الأعمال وخيبة القدر . والإشارة إلى هذه الأمور المذكورة ثمّ ابتدأ سبحانه فقال : [جزاؤهم جهنّم] بسبب كفرهم و اتّخاذهم آياتي من الرسل و القرآن مهزوءاً به فقوله تعالى « فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً» من شواهد

(١) الغاشية : ٣ .

القائلين بالحبط و التكفير حبوطاً كليّاً لعلّ لاينصب لعملهم ميزان لانحباط أعمالهم و الميزان إنّما يوضع لأهل الحسنات والسيّئات ليتميّز به مقادير الطاعات والمعاصي وذلك في الموحّدين بطريق الكمّيّة وأمّا الكفر وإنكار آيات الله ورسله وأوليائه فإحباطه للعمل بحسب الكيفيّة دون الكمّيّة ، فحينئذ لايوضع لهم الميزان لأنّها قدحبطت .

وفي الاحتجاج عن أميرالمؤمنين في حديث يذكر فيه أهل الموقف وأحوالهم : ومنهم أئمّة الكفر وقادة الضلالة فاُولئك لايقيم لهم يوم القيامة وزناً ولايعبأ بهم لأنّهم لم يعبؤوا بأمره ونهيه وهم في جهنّم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون .

وفي العيون عن الرضا عليه السلام فيما كتبه للمأمون : ويجب البراءة من أهل المتقدّمين من غير مقدّم و من أبي موسى الأشعريّ و أهل ولايته الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً اُولئك الّذين كفروا بآيات ربّهم بولاية أمير المؤمنين ، و لقائه أي كفروا بأن لقوا الله بغير إمامته فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً فهم كلاب أهل النار .

قوله تعالى: ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا (١٠٧) خالدين فيها لايبغون عنها حولا (١٠٨) قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا (١٠٩) قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه احدا (١١٠) .

لمّا تقدّم ذكر حال الكافرين عقّبه بذكر حال المؤمنين فقال : [إنّ الّذين] صدقوا الله ورسله [وعملوا] الأعمال الصالحة من أداء الفرائض والسنن ، والعطف يدلّ على المغائرة [كانت لهم] جنّة [الفردوس] قيل : الفردوس وسط الجنّة وأفضلها . وعن كعب : ليس في الجنان أعلى من جنّة الفردوس ، وفيها الآمرون بالمعروف و الناهون عن المنكر . و عن مجاهد : «الفردوس» هو البستان بالروميّة . وعن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : الجنّة مائة درجة مابين كلّ درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها درجة ومنها الأنهار الأربعة والفردوس من فوقها فإذا سألتم الله الجنّة فاسألوه الفردوس فإنّ فوقها عرش الرحمن و منها يتفجّر أنهار الجنّة .

قوله : [نزلاً] على المعنيين يمكن عبارة عن المأوى أو عبارة عمّا يحضر للضيف من الطعام و التشريفات . دائمين في تلك الجنّات لايطلبون عن تلك الجنات تحوّلاً إلى موضع آخر لطيبتها و حصول مرادهم فيها .

ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه فقال : [قل] يا محمّد لجميع المكلّفين بعد ما ذكر في هذه السورة من أنواع الدلائل و البيّنات وشرح بعض أقاصيص الأوّلين : إنّ البحار كيف ما فرضت في الاتّساع والعظمة لوجعلت بمنزلة المداد ـ والمداد اسم لما تمدّ به الدواة من الحبر ولما يمدّ به السراج من السليط ـ وأردت أن تكتب كلمات الله وحكمه و علمه لنفدت ، ومعلوم أنّ المتناهي لايفي البتّة لغير المتناهي .

روي أنّ حييّ بن أخطب قال : في كتابكم « ومن يؤت الحكمة فقد اُوتي خيراً كثيراً [(١)] » ثمّ تقرءون «وما اُوتيتم من العلم إلّا قليلاً [(٢)] » فنزلت هذه الآية يعني أنّ ذلك خير كثير ولكنّه قطرة من بحر كلمات الله .

وروى عكرمة عن ابن عبّاس قال : لمّا نزل «وما اُوتيتم من العلم إلّا قليلاً» قالت اليهود : اُوتينا علماً كثيراً اُوتينا التوراة وفيها علم كثير ؛ فأنزل الله هذه الآية . ثمّ علّم الله نبيّه التواضع فأمره أن يقرّ على نفسه بأنّه مع أنّه مخاطب الوحي و مكرّم بالقرآن و النزول عليه فإنّه آدميّ كغيره .

و [أنا] في البشريّة [مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد] لا شريك له ولا فضل إلّا بالدين والنبوّة ولاعلم إلّا ماعلّمنيه الله [فمن كان] يطمع في [لقاء] ثواب [ربّه] و يأمل الوقوف بين يديه ويخشى لقاء عقابه ؛ لأنّ الرجاء يشتمل المعنيين الخوف و الأمل قال الشاعر :

فلا كلّ ماترجو من الخير كائن ولا كلّ ماترجو من الشرّ واقع

[فليعمل عملاً صالحاً] خالصاً لله يتقرّب به ولا يجعل بعبادة الله أحداً شريكاً من ملك أو نبيّ أو بشر أو حجر أو شجر ، لا يرائي في عبادته أحداً .

عن سعيد بن جبير و غيره : جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال : إنّي أتصدّق وأصل

(١) البقرة : ٢٦٩ . (٢) الاسراء : ٧٥ .

الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله فيذكر ذلك منّي وأُحمد عليه فيسرّني ذلك وأُعجب به ، فسكت رسول الله ولم يقل شيئاً فنزلت الآية .

قال عطا عن ابن عبّاس : أنّ الله تعالى قال : «ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً» ولم يقل : «ولا يشرك به» لأنّه أراد العمل الّذي يعمل لله ويحبّ أن يحمد عليه ، قال : ولذلك يستحبّ للرجل أن يدفع صدقته إلى غيره ليقسمها كيلا يعظّمه من يصله بها .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال الله عزّ وجلّ : أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء فهو الّذي أشرك .

وروي عن عبادة الصامت وشدّاد بن أوس قالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : من صلّى صلاة يرائي بها فقد أشرك ومن صام صوماً يرائي به فقد أشرك ، ثمّ قرأ هذه الآية .

وروي أنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام دخل يوماً على المأمون فرآه يتوضّأ للصلاة و الغلام يصبّ على يده الماء فقال : لا تشرك بعبادة ربّك أحداً فصرف المأمون الغلام وتولّى إتمام وضوئه بنفسه .

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : العمل الصالح المعرفة بالأئمّة ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً التسليم لعليّ ولا يشرك معه بالخلافة من ليس ذلك لها أهل .

و القمي عنه : ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً ، قال : لا يتّخذ مع ولاية آل محمّد غير ولايتهم ، والعمل الصالح ولايتهم .

و قيل : إنّ هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن . و في الكافي : آخر سورة نزلت «إذا جاء نصر الله» وأوّل ما نزلت بسم الله «اقرء باسم ربّك الّذي خلق» .

و روى الشيخ أبوجعفر بن بابويه بإسناده عن عيسى بن عبدالله عن جدّه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : مامن عبد يقرأ «قل إنّما أنا» إلى آخره إلّا كان له نور في مضجعه إلى بيت الله الحرام فإن كان من أهل البيت الحرام كان له نور إلى بيت المقدس .

وقال أبوعبدالله الصادق : مامن عبد يقرأ آخر الكهف عند النوم إلّا تيقّظ في الساعة الّتي يريدها .

هنا ينتهي الجزء السادس من الكتاب مشتملاً على سور
يوسف ، الرعد ، إبراهيم ، الحجر ، النحل ، الإسراء
و الكهف . و بهذا الجزء ينتصف
القرآن الكريم ، وفّقنا الله
لإتمامه

Library of

Dei Sub Numine Viget

Princeton University.

Princeton University Library
32101 072714023